مراعي القتل

رواية

فتحي امبابي

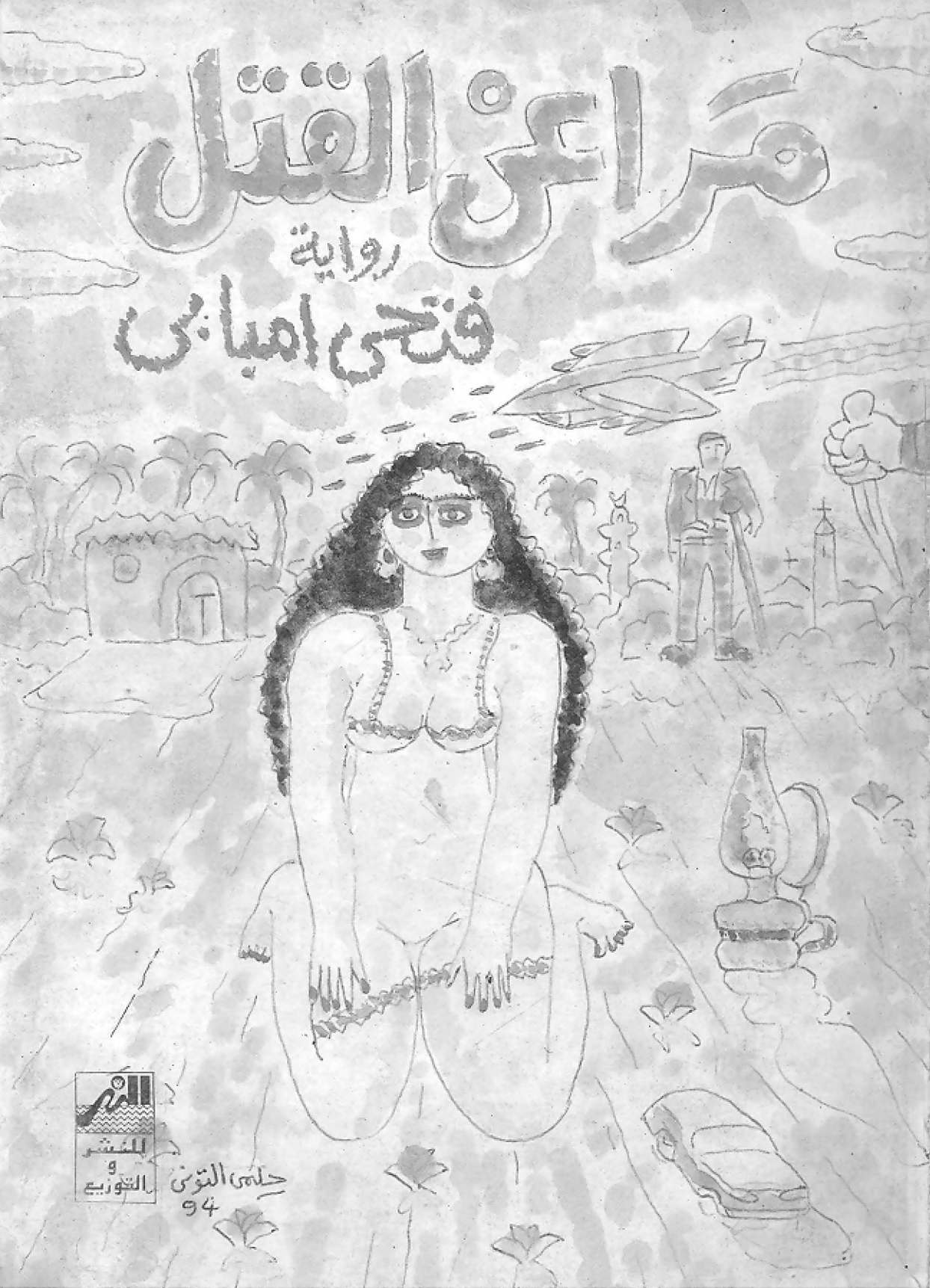

النشر للنشر والتوزيع

حلمي التوني 94

مراعى القتل

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

مراعى القتل
المؤلف : فتحى إمبابى
الطبعة الأولى أكتوبر ١٩٩٤

الغلاف : أهداء الفنان
حلمى التونى
جمع كمبيوتر : مكتب فورس
م. أحمد هشام
العنوان : ٢٢ ش ابن الوليد ـ نادى الصيد ت : ٧٠٣٢٩٩

إخراج : فتحى إمبابى
مراجعة لغوية : غادة الحلوانى

الناشر : النهر للنشر والتوزيع
العنوان : ٣ شارع الطوبجى خلف مرور الجيزة ت : ٣٩٨٩٠١٨
إدارة التحرير : مصطفى الخولى
م. محمد اسامة

مراعى القتل

رواية

فتحى إمبابى

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

الجزء الاول

www.boo

الفصل الاول

أجفل الليل مقلعا، والسيارة البيجو الاستيشن طراز٥٠٤ تنهب الطريق باتجاه السلوم، نظر إلى رفاق رحلته عله يجد أحدهم مستيقظا، المبروك، نبيل، ابورحاب، محمود، الجميع نيام . لم يمض على مغادرتهم القاهرة سوى ساعتين، انثنى للامام، تجاذب اطراف الحديث مع السائق، محاولا من طرف خفى أن يثنيه عن سرعته الجنونية دون جدوى، عندما فشل مال جانبا إلى زجاج السيارة ينظر الصحراء والفراغ .. غمغم وهو يتابع انسحاب الليل أمام أشعة السحر.

.. كم من الاسباب دفعتك للسفر، نام يا ابن عبد الجليل واغفى.. نام دا الطريق لليبيا طويل ..

* * * *

– عبدالله .. عبدالله .. اصحى ياولد .. قوم نفطر.
لكزه محمود بقبضتة القوية .. قام غاضبا:
– ايه .. عايز ايه .. بالراحه يا اخى، الدنيا طارت؟
تدخل نبيل ضاحكا: قوم ياحضرة الصول، السريه عايزه تفطر.
– حد منعكم.
– نفطر بدون القياده العامه.
– ليه ؟ الحرب انتهت من زمان، ده احنا مهاجرين كما الفارين من بلاد حاكمها الطاعون، كل واحد ريس نفسه.

عبر بناظريه سيارات البيجو الاستيشن الأجرة الواقفة أمام إحدى كافتريات الطريق الصحراوى السريع. تساءل: فين ابو رحاب؟

تقدم نحوه شاب طويل القامة ضعيف البنية يبتسم فى طيبة:

– تمام، ابو رحاب حاضر يا افندم.

– والله انتم ماح تجيبوها البر، تفطروا ايه ..؟

* * * *

عادت السيارة تنهب الأسفلت من جديد وقد خلفت وراءها الإسكندرية، لمحوا علامات الطريق تشير إلى مرسى مطروح، حلت عليهم نوبة من الابتهاج، لكز محمود خاصرة رفيقه:

– ح تعمل ايه لما ترجع يا واد يانبيل؟

– اول ما اجمع القرشين ابعت لابوى يدفع خلو .

قاطعه محمود: الشقه.! واه .. راغب تتجوز ..؟

– لا .. محل ادوات كهربا.

قال عبدالله يحذره: ماتسلم فلوسك لصنف مخلوق .. لو كان ابوك، ما تاخذنيش

ابتسم المبروك ومال يحدث الرفاق: صاحبك الشك بياكله.

زام فيه مكشرا :

– وانت يا فالح ح تعمل ايه؟

ضحك الجميع.

قال نبيل: المبروك .. ح يبعت فلوسه لمراته، يدح يدح ولما يرجع لا ح يلاقى فلوسه ولا مراته.

احمر وجهه وهو يضحك باقتضاب. قال موجها حديثه لنبيل:

– وحياة دقنى ح تلاقى ابوك متجوز بيهم على امك.

قال محمود بابتسامة ذئب: وانت يا حضرة الصول ..

نظر إليه عبدالله مغلولا :

– أنى مش حضرة الصول يا ابن الاسيوطى.

عقب المبروك: الواحد ح يعوز ايه، قراطين طين، دار وبهيمه، هذا والا نفر مياومه، قول لنا انت يا شيخ المنسر، ح تحوش طين ..؟

التمعت الابتسامه الساخرة على وجه شديد السمرة قوى التقاسيم.

– طين يا ولد العم! صحيح فلاحين، .. بهايم يا بهايم .. ضحك يستفزهم باستهزاء.

قال المبروك مستنكرا: ليه يا صعيدى يا احف، الافندى دكتور بالجامعه ولا ناوى تفتح

محل كوافير.

ضج الجميع بالضحك للمفارقه، قال بغضب:

– لا يا فلاح. انا بدّى بُنْدُقه.

قال عبدالله متفهما: ودى عايزه سفر لآخر الدنيا.

نظر إليه نظرة ذئب مستغلقة: يا بوى بندقه آلى مش فرد، لو كان على الفرد عندى منه عشره، بدّى آلى ونص آلى.

تساءل نبيل: ح تفتح مصنع سلاح؟

– لا دى لها طلب والتانيه لها طلب، النص آلى تصوب من بعيد من قلب القصب والذره، والآلى علشان تقش.. فرح .. ميتم .

قال عبدالله مقلدا لهجته الصعيديه: لا قَتال قُتَلَه بصح وصحيح، ايه يا واد يا مبروك، خيبه على امك، ما لقيتش الا محمود، رايحين نسعى على رزقنا ولا نقاتل الليبيين.

– هم دول اللى اتبقوا من الفوج يا ريس، الباقى تعيش انت.

– ليه يا فالح.

– فاكرنى بضحك، الخمسه اللى فضلوا من انفجار كتيبة اختبار الصواريخ، ولا كنت عايز مستجدين معانا.

التفت إلى نافذة السيارة مؤثرا الصمت.

عادت السيارة تنهب الطريق وقد برز بجوارها الآن شريط السكة الحديد، تابع الفلنكات فارغ الذهن، تتوالي علي ناظريه اسماء المحطات الفرعية، من بعيد شاهد القطار واقفا باحدى المحطات، تهادت السيارة قليلا حتى اوقفها السائق، نزل على عجل يبحث عن ناظر المحطة.

صاح نبيل: القطار الحربى، الضبعه، معسكر تدريب الدفاع الجوى.

تدافعوا فى الأنحاء، صعد البعض للمحطة، وبحث البعض عن مكان لقضاء حاجته، بينما بقى هو يتابع القطار وهو يبدأ فى التحرك، ظل واقفا يتابع القطار وهو يتضاءل، ومؤخرتة تقيء القضبان والفلنكات حتى غاب خلف الأفق، وهلة وسمع من يناديه، أفاق من سكونه و استدار الى الخلف ، يخطو باتجاه السيارة، عندما جلس على مقعده شعر بالدوار، اتكأ للخلف ملقيا برأسه للوراء، وعاد يغمض عينيه تاركا لفيض من حمم الذاكرة تنهمر عليه.

الفصل الثانى

-١-

منذ عام على وجه التقريب، ركب هذا الخط الحديدى وسط المئات من جنود كتيبته قادما من الجبهة، متجها إلى مركز تسليم المهمات بعد انتهاء الخدمة العسكرية، وطوال الرحلة تحول فضاء القطار الحربى إلى خليط غليظ من أجساد الجنود والمقاعد وحمالات الحقائب والمخالى، الصخب والضجيج وصرخات الذكورة، القتال على حواف ظهور المقاعد وحمالات الحقائب العلوية، الضحك حتى الجنون ، والغضب حتي الموت، قبضات تلوح فى الفضاء بانفعال صاخب، وأحذية عسكرية تفرك الأرض فى عنف وهدير، وقد تحول القطار إلى سيرك كبير.

وسط الأجساد الملقاة على الأرض كان ينتقل على عكازه، قرد عجوز لا تسعه الحياة، ضاربا أحدهم على مؤخرته وموقظا آخر متبادلا القفشات مع ثالث، فى الضبعة أخذه صول المقابلة معه فى سيارته "الزل" إلي المعسكر بينما تحرك بقية الجنود سيرا على الأقدام.

بعد أن اختفى العدد القليل من الضباط، حاول البقية من صف الضباط السيطرة على الكتيبة دون جدوى، وعبدالله يتابعهم دون هوادة.

– يللا .. يللا ياحضرة الصول خلينا نروح، عايزين ايه انا احضره فى ثوان، اسامى، ارقام الجنود، محال اقامتهم، بطاقات، توقيعات.. قول بس انت و انا اخلص لك صنف شيء تبتغيه.

وبجهد جهيد امتلأت دفاتر وأوراق إنهاء الخدمة، ولم يبق سوى تسليم المخالى فى الصباح .

بعد الغروب تجمع الجنود ليقضوا ليلتهم الأخيرة فى الجيش، الطقس الشديد البرودة، والمعسكر الغارق فى الظلام، ترشح جدرانه الجيرية برطوبة قوية تزكم رائحتها الملحية الأنوف، فى منتصف الليل وزّع العشاء الأخير، تناولوه فى الظلام مستخدمين أصابعهم والورق المقوى لعلب السجائر الفارغة بديلا للمعالق، أرز وسائل مخاطى من الباذنجان

المطبوخ، بعد مضى وقت وزّع على كل منهم بطانيتان، يلف بهما جسده يقيه زمهرير الصقيع القارس.

فى الصباح الباكر تقدمت الفصائل لتسليم عهدتها واستلام أوراق انتهاء الخدمة.. وعلى طول الطريق الواصل بين معسكر الضبعة ومحطة القطار، امتد طابور طويل غير منتظم من شباب فى العقد الثالث من العمر، يرتدون خليطا من الملابس الرخيصة الباهتة الألوان، جلاليب، قمصان مربعات وألوان متنافرة، بناطيل قصيرة الأرجل ، مرتقة من الخلف ممزقة من الأمام، شباشب وصنادل من البلاستيك القديم وأحذية مهلهة بلا جوارب.

فى الوراء كان الجيش، الطاعة والانضباط الأعمى، الخدمة الليلية الشاقة، طعام الجيش المزرى، والنوم على الرمال، رزالة صف الضباط، وقاحة وكبرياء وغرور الضباط والقادة، لديك واسطة أعفيت من تكدير الخدمة الليلية وهربت من خدماتهم التى لا تنتهى وفزت بتصاريح الأجازات مجانا، وربما أمضيت خدمتك بين أحضان أمك، فإن لم يكن !! سف التراب سفا.

بالأمس كانت حومة الوغى، وكانت الحرب، وكان الموت، وكان الجبن، وكانت الشجاعة، وكانت الكرامة، وكان الهوان والقوة والضعف، والإقدام والإحجام.. المستقبل..!! اللعنة من لديه ذهن خال لكى يفكر فى الغد.

مثلهم كان عبدالله يرتدى قميصا من المربعات الحمراء وبنطالا رخيصا ليس له لون، اشتراهم مستعملين من سوق الكانتو بمحطة مصر، أما السترة الصوفية وبلوفر الجيش الرمادى وحذاءه العسكرى فقد اشتراهم خلسة من أمين مخازن مهمات المعسكر لقاء مبلغ زهيد.

كان أول من أنهى أوراقه وآخر من غادر المعسكر، جلس فى كابينة السيارة "الزل" بجوار صول المقابلة . وعندما لحق بالكتيبة على الطريق، أطل بكل جسده من النافذة يبادلهم إشارات وعبارات التحايا وقفشات الطريق، والابتسامة تغمر وجهه دون توقف، كان أقدم من بقى على قيد الحياة بينهم، يعرفهم فردا فردا.. من أى المحافظات جاءوا وأى مهنة يمتهنون، قصصهم الخفية، أحلامهم، وعلام تنطوي النفوس.

فى المحطة هلّ القطار الحربى ثانية، قفزوا داخله من الأبواب والنوافذ، من الرصيف ومن الاتجاه المقابل، عاد الهرج والصخب أقل من السابق قليلا، فالعودة إلى الموطن تشغل البال الآن.

فى القطار تجمعوا هذه المرة حسب مواطن إقامتهم، "بحاروه" ومن قبلى، "منايفه وشرقاويه"، لكنه ورفاقه القدامى، نبيل، محمود، المبروك، أبورحاب، ظلوا معا لا يفترقون، فى الإسكندرية انهمرت دموع الوداع للدفعة الأولى التى فارقتهم، وفى دمنهور وطنطا رحل آخرون، على طول الخط الحديدى تساقط رفاق السلاح، كلما غادر القطار محطة، وخف عدد الركاب، شعر بأن جزءا من جسده يفقده، فى بنها ودع محمد أبورحاب، وفى شبرا الخيمة غادرهم نبيل، وفى محطة مصر غادر هو والمبروك القطار، تاركين محمود، وبقية الرفاق فى طريقهم إلى الصعيد، حملوا متاعهم القليل وانتقلوا معا إلى الرصيف البحرى فى انتظار القطار المتجه إلى منوف.

وسط زخات المطر الخفيف، وهواء الشتاء البارد المفعم بالحيوية والانتعاش، كانت الأضواء الكهربائية لرصيف المحطة تنسحب دون عجلة أمام أضواء السحر الأولى، وبعد نصف ساعة من قلق الانتظار، أطلق القطار صفارة قصيرة تبعها باثنين طوال، أطل من النافذة شاهد ذراع السيمافور العلوية تهبط لأسفل مؤذنة بالتحرك، لحظتها بدأت قبضة القلق تنفك قليلا عن قلبه، تهادت العجلات الحديدية، متنقلة عبر السكك المتوازية لعنق محطة باب الحديد، وسرعة القطار تأخذ فى الازدياد شيئا فشيئا حتى بلغ سرعته الحقيقة، عندما خلف وراءه القناطر الخيرية عابرا الكبارى الحديدية لفرع دمياط، تلاشت آخر نجوم الليل، وأطل الصباح الباكر، وبرزت للعيان، وعلى امتداد البصر الحقول المترامية الأطراف لدلتا نهر النيل، تحدها فى اللانهائيات قبة السماء وأشعة اللازورد البنفسجية، الآن أصبح قلبه خفيفا، طليقا كقلب طير يمرق عبر الفضاء، وقد امتلأ وجدانه، كل بدنه بالابتهاج، إنه يعرف الطريق، يعرف كل شبر فيه، ويحفظ أرقام أعمدة التليفونات الموازية للخط الحديدى، يتمتع برؤية العصافير الواقفه على أسلاكه، وقد دفنت رؤوسها الصغيرة فى أجنحتها بكبرياء الملوك، ويعلم أن المحطة القادمة هى دروة، والتى تليها الحلواصى، وعندما تأتى أشمون لن يبقى على سدود سوى سمادون ورملة الإنجب، عدل من وضع عكازه واعتذر بابتسامة خفيفة للرجل الجالس، أمامه مستمتعا بكون الآخرين ربما يظنون أن إصابته نتيجه وقوعه من ترام، أو صدمة سيارة مسرعة، وليست نتيجة لقصف مباشر من سرب لطائرات الفانتوم، من يهتم.؟!

.. ما أحلى نوافذ القطارات، أنت تتحرك وأعمدة الهاتف تتحرك، والسماء والحقول المغطاة بأبسطة السندس الأخضر لسنابل القمح والبرسيم، تتلاقى عند خط السماء، الخطوط الهندسية الرشيقة لقنوات الرى، والطرق الترابية الصغيرة، تحفها أشجار الصفصاف والتين والتوت والنخيل واكوام الردش(١) والسباخ والفلاحين والبقر والجاموس والحمير والجمال تسير الهوينى، حركة القطار السريعة تخترق الرياح، هدير الكبارى التى يعبرها فوق الترع والمصارف، عجلاته الثقيلة تدك القضبان كما يدق الحداد سندانه، ثمة شىء يربض فى انتظارك حيث يشق القطار طريقه مندفعا كسهم، قريتك .. سدود ..

فى رملة الإنجب تودع المبروك، تشدد عليه والقطار يغادر المحطة .

– لازم تعدى يا وله .

بعدها، يهاجمك القلق من جديد، الفرح، الشوق للأهل والخلان، الحنين، العشق اللى ما له حدود، الهوى المشبوب .. سدود ..

ضرب بعكازه الأرض وقام، طويل مديد القامة، عب الحقول والغيطان، والابتسامة شمس على تقاطيع وجهه الوسيم الضخم، وقف على باب القطار يلوك اللحظة بنهم وبطء، المزلقان

القبلى، تهادى القطار لحظة دخوله الرصيف، مبانى المحطة القديمة المصنوعة من حجر القرميد، صرير العجل على القضبان، تصادم العربات قبل السكون الأخير، الصباح البارد البكر، اندفاع العشرات من الطلبة والطالبات فى هرج عبر الأبواب، موجة ترتفع فى الفضاء قبل أن تنهار متناثرة فوق شاطىء صخرى.

فى الدقائق القليلة التى وقف فيها القطار على المحطة استقبله أقرانه بالأحضان، حيوه بحرارة غامرة، صرخت إحدى الفتيات:

- عبدالله ابن خالى محمد، حمدالله على سلامتك.

نزل بصعوبة. وعبد المرضى ابو النصر يصرخ به:

- يا عبدالله، عدى على الغيط تلاقى الحمار روح بيه، ساعتين زمن وانا جى لك يا وله، حضر الجوزه والمنقد.

قاطعه محمود ابن خاله:

- حمار يا ابن الحمار، الجحشه على الرصيف التانى مع الواد مسعود، عدى خدها يا وله وروح بيها، بس يقابلنى فى قطر احداشر .

- ليه ح نزوغ يا ابن ام الهنا.؟

- اسكت وحياة امك، هو اللى ح يزوغ..

أطل عبدالمرضى من النافذة، ناداه والقطار يتحرك ببطء.

- الحاج محمد ابو حسنين عازم فتحى سليمان الشاعر، طهور ابنه، واستطرد محمود: حظك يا عم، فتحى الشاعر يغنى للهلاليه تلات ليالى حد الفجر.

وقف على الرصيف يهز رأسه، ووجهه مشرق بابتسامته العريضة وابن خاله ينادى من نافذة القطار الذى بدأ فى التحرك، وثلاثة آخرون كل واحد يبغى إعطاءه الركوبة.

- طيب يا جماعه طيب، معاكم السلامه، هو المرواح للبلد صار مشكله.

-٣-

لما يرحل القطار ويعدك واقف على الرصيف، ينكشف الفضاء عن اجمل ما فى الوجود

الهوى هو سدود.. بين خضرة الارض وزرقة السماء، يشق الفضا مدنتين طوال.. الشمال جامع العلاميه.. المنتصف لدرب الوسطانى، وعلى اليمين صلبان كنيسة العذراء.. يمتد بينهم خط دقيق مرسوم من اسطح الدور الطينيه ومقاعدها.. حزم الحطب.. الدور الموشاه باغصان الشجر.

الهوى هو سدود.. ميل رصيف المحطه، السير بموازاة قضبان السكه الحديد، مساكن الدريسه، تعدى سكة القطر لحين ما توصل ترعه القراموص، تميل جهه الغرب، اكمة البوص مأوى الديابه، وعلى اليمين شجرة الجميز العتيقه، من هنا ترمى بالسلام لكل حى يسعى فى الغيطان، اخوال واعمام، اصحاب وخلان.. المصرف الكبير، تميل يم اليمين وتسير للجسر الحديدى، شوية زمن وتطل المقابر، ارمى بالسلام على الاموات اللى طواهم التراب، وابدأ

فى تلاوة الفاتحه والصمديه حداشر مره، مره للاهل، ومره للخلان، والتالته لابناء المسلمين، والرابعه لاولياء الله الصالحين، والباقى لطلب الرحمه، ضريح سيدى العريان، خشب خالى من الكسوه فقير غلبان، يجاوره ضريح سيدى ابو عتمان، مسافة زمن وتطل الكنيسه، مدخل البلد الشرقى، اذا استمريت فى المسير تصير فى الغرب، كل شىء هنا محفوظ عن ظهر قلب.

الدوار الكبير، تحيه وسلام لجدك المهاب عبدالجليل، انظره على فراش الموت، قبّل ايديه وانحنى لقاهر الموت ..

يسألك وكفه بترتعش: امتى ح تتجوز يا وله. ؟

– ما انت عارف يا بوى(٢)

– عارف، عبدالرحيم اخوك عويل زى ابوك، لو تخلى الندل عنك، انا ح جوزك.

– يعطيك طوله العمر يابا.

* * * *

آن الأوان للذهاب للدار.. يوم ثقيل امضيته فى المندره الكبيره، كنستها زينب مراة عبد الرحيم، فرشتها بالقياس(٣) الجديد و المساند، والناس داخله وخارجه فى سلام وسؤال عن الصحه، واذا كان كل شىء تمام؟ يحل الليل وتنام ملان، النفس شبعانه بدفء الناس والبطن بجوز الحمام، ومثل هذا اليوم عدت ايام كثيره، بلا لحم طبعا، الاهل والخلان اصحاب النسب، الناس اللى جت من كل النواحى وهو فى المندره، تنام فوق المرتبه وحدك، ايام كانت لياليها جميله، تعدى من غير فكر وقلق.

لما خفّت الرجل من الدار خرجت تسهر مع الصحاب، وفى ليله.. اللـــه.. دا الوعد من الموعود.. فين المرتبه..؟! اخذتها زينب.. ارمي بجتتك ع الحصيره، احنا كنا بنام في الخنادق ع الرمال .. شوية ايام واخدوا الحصيره ، شونوا اكياس الكيماوى والتقاوى فى المندره.. البطء فى التفكير لم يمنع الذهن من شم ريحه مراة عبد الرحيم..

– يا امه.. عبدالرحيم شون اكياس الكيماوى، والتقاوى فى المندره، واخد المرتبه والحصيره، شوفى لى مكان اتاوى فيه .

– عارفه يا ضناى، لكن اعمل ايه؟.. عندك المصطبه الكبيره فى وسط الدار، خد فيها جنب.

– ده كان زمان.. يا امه ما عُدّتش صغير، ولاد ولادك نايمين البدن فى البدن، لا فرق بين البنت والولد، النوم معاهم عيبه، زنقه وريحه هباب.

– يا ضناى ما كنش يتعز.

– المقعد اللى فوق.
– المقعد اللى فوق، نعمات مخزنه فيه قمح ودُره.
– والعمل .؟
– آدى اللى فى اليد ..

لحظتها صحى السؤال النايم فى قرار العقل، يدق اجراس القلق. بكره ح اعمل ايه، فين ح انام وفين نصيبى م الدار الكبيره، كل واحد متاوى فى قاعه من القيعان، يعنى ارجع اعيش مع جدى بالدوار الكبير زى الزمان القديم.. مستحيل!! عب الجلايله يقوم عليك، يقولوا ولاد محمد ناويين على اغتصاب الدوار، وفين نصيبى من ورث ابوى فى الارض، وبكره لازم ارسل التماس اسأل امتى ح يصرف لى تعويض اصابه الحرب، لازم اتابع العلاج الطبيعى، والعمل ..؟ الواحد زى الجدار العفى .. اعيش بطال..!! من الصبح تخرج بالبهايم، ولا انت ناوى تعيش عويل .!

.. آهه.. آه.. يا ابن عبدالجليل.. هو عبد الرحيم صار زى الزمن غدار ..؟ ولا المكان ضاق بالجميع.. !!

اول يوم رحت فيه الغيط، الكلب لما علم حلف بأغلظ ايمانات المسلمين آنى انتظر لما الاصابه تخف.. بس ده ح ياخد وقت، واللى ناقص من العلاج حاجه تافهه، جلستين كهرباء كل شهر، يعنى اقعد عاله عليكم، حتى شوف، وقمت شايل الفاس وعازق الزريبه .. لم يعجبه، لم يعجب مراته ولا عبدالحميد اخوى ولا حتى امى.. تانى يوم راح السوق قمت من الفجر حملت الجمل والحمار، ركبت الجحشه وراهم وطلعت على الغيط، نظرات مراته كانت غريبه، عيون زجاج تخفى غضبْ، الصبر، لما رجع الكلب من السوق ذهل، ما قال حتى السلام عليكم، بانت الدنيا سوده فى وشه، ودار حول نفسه وانا مش فاهم فين الخطأ، ابن الجحش صار كل يوم يقوم من بدرى، ياخد الحماره والبهايم وابنه وراه على الجحشه.

استفسرت: يا امه، ليه ما ترك الجحشه، اروح الغيط ازاى؟ امشى ورا البهايم على عكاز.!

– يا ابنى اخوك بيقول.. الجحشه تعبانه وانت زى البغل.
– هو شىء اشتراه لنفسه، دى البهايم ملك ابوى، يحكم على اللى يملكه.
– يا ابنى بالفعل قلت له.
– يا امه وقال ايه؟
– قال.." ابوك لم يترك وراه بهايم إلا عياله، مالك انت ومال البهايم، اما الجحشه، ح ينزلها السوق يوم السبت، يبقاش ياخذ حمارتى وانا نروح الغيط ماشى، علْ هذا يعجبه ويعجبك..؟ ح اعمل ايه، عيل ولازم اراضيه، هه.. معلهش اصله عاجز".

وقالت امى كمان: هو بيسأل.. انت ح تفَلّح تانى ولا ايه؟

– ابن الكلب، وانت رأيك ايه .
– اخوك عنده حق، انت برضه ح تفلح، هو انت تقدر؟.. مش عارفه يا ابنى اعمل ايه ؟

– يا ولاد الكلاب.. مين قال انى عاجز .؟ مين قال ان ابوى كان بيفلح من غير بهايم، فين بهايم الدار وفين بهايم الشرك ..؟! طب والاهم، الارض، فين نصيبى ..؟ يا اللـــه.. اللـــه يا ابن عبدالجليل اللـه.. ناس تعيش وتبرطع، وناس ما تلقي فين تنام!

-٤-

الزمن قطر غشيم لا يرجع للوراء، تتساقط الايام كما ورق الخريف، لما حصلت ع التعويض من الجيش، عملت معجنه من الطين وبنيت مندره على راس الغيط، ولاد الكلاب بان الارتياح في وجوههم..

بلغنى ان عبد الرحيم قال: احسن ما يضيع فلوسه ع الحشيش.

قلت: والواجب نعمل مقاصه ع الدار، نصيبى فيها لا يقل عن نصيبه.

يوم ما انتهيت من البناء، سألنى : عايز مساعده يا وله..؟

– ركب الخليفه وانفض المولد يا ابن ابوك.

– طيب امك مستنياك ع العشا.

– ماعدناش نيجى، اليوم آخد عفشتى وارحل من هنا.

قال بحمقه: ليه ..؟ ليه يا ابن ابوى مستعجل على الفراق.

ضحكت ساخرا: يا دموع الذئاب ما عدش فيه حبايب.

لما انتقلت للسكن فى الغيط، خفت القدم وانهد البدن، اليوم مرير والليل طويل امضيه وحيد طريد الاهل، يتمدد الجسد فى زاويه من الفراغ حصيره، مشنه، عيش بتاو، صحن كبير، مخلل ومش، جبنه قريش، وعلى عتبة الشباك مرايه مكسوره، مشط نظيف، مصباح جاز معلق ع الجدار، وفى الاركان قُله، منقد نحاس اخذته عافيه من الدار، لحظتها قال عبد الحميد لاجل ما بيرضى عبد الرحيم :

– ح تسرق يا عبد الله؟

شوحت له بغضب : نطق العبيط بعد كفر.

* * * *

الزمن قطر غشيم لا يرجع للوراء .. الامس مثل اليوم .. والذكريات لهب تحت الرماد .. اول ما وعيت على الحياه، زواج ابى بغير امى، الحسره والغم، بيعه المتلاف للارض فدان

ورا فدان، لو كانت ارض ابوه عبد الجليل كان دفنه فى صحن الدار، لكنها ورث عن امه.. فاتنى وحيد فى الحوارى، الليل وعواء الكلاب، الانزواء فى حزم الحطب أسير الخوف والبرد.

كل الذى وعيته ان الشتاء كان كالزمهرير، وفى حزم الحطب يتجمع المنبوذين، قطط ، فئران، ابناء عرس وجان .. وان القمر فى الليل يدعوك للعب والملاغاه، تتحول الدور المغطاه بحزم الحطب، واقراص الجله، لجزيره من فضه مسحوره، طايره على حد السحاب، بين السماء والارض وان الصباح البارد يناديك لاكتشاف النواحى.

للعلاميه اربعه مخارج، الى اليمين الناحيه القبليه او تستمر الى الشرق حيث الطريق لمنوف، والى اليسار درب الوسطانى، منه تصل للغرب، المطاوعه، والمخالفه، اذا اردت السير للامام فالى بحرى، المدرسه و الوحده البيطريه، النادى، دوار العموديه، وان تخرج من بوابه العلاميه لايبقى سوى حروب الازقه، يرحل بك الزمان، بلا امان، بلا انسجام، تاركا فيك ندوب الجسد والروح والرغبه فى البوح .

* * * *

الزمن قطر غشيم لا يرجع للوراء، والذكريات لهب تحت الرماد، لما عتر علىّ خالى ابو خطاب فى الطريق متصلب الاطراف، نايم فى عز البرد، شدنى، رفضت وعيونى تسأله .. فين كنت يا خسيس .. حلف لى بالطلاق ما كانش يعرف، فى الليله دى نمت فى حضن ستى مبروكه، وكأنى نايم فى محمة فرن، تتجشأ، تخرج الريح من جسدها، تهزنى وانا ابكى صعبانه على نفسى. تقول:

– ياغشيم ما تزعلش .. طب اسمع الحكايه دى، وتحكى عن الغريب اللى دخل مدينة الصمت العجيب، يطير الطائر الابيض، يحط على راسه لما يرحل، ياخذه على جناحه، يتركه على سرير الملك، وهو اللى ترك بلده فى ليل مظلوم، وعلشان كده كانت تقول يا بخت من بات مظلوم ولا بات ظالم، وكانت تحكى عن سيدنا على لما خرج يحارب عكرمه المارد الجبار، اللى طوله من الذراع ميه والعرض ثلاثين وسيفه طول المدنه وحصانه تقول جملين، لكن سيدنا على هزمه، تعرف ليه ..؟ لان ربنا من حكمته نصر الضعيف على القوى، وسيدنا عمر يبكى بدل الدموع دما وهو ماشي آخر الليل خايف كما المجنون، آه يا عمر لو يكون فى رعيتك من بات جعان مظلوم، طب فين تروح؟ وايه تقول لما تقف امام العرش ذاك اليوم؟

الذكريات لهب تحت الرماد، تبقى الاسئله بلا جواب، يبقى ذهول العقل .. ياستى، نكرنى ابى والاهل عادونى، لا فى مره دعونى، ولا بكاس المحبه يوم ودعونى .. ترد تقول :

ألا تعرف الشاطر حسن، لما هرب من ظلم ابوه لأنه عطف على جنية البحر وتركها تربى صغارها، رحل تشيله بلاد وتحطه بلاد، حتى ان عثر على الشمعدان الغريب، لو ولعه الامين

تخرج له حوريات من الجنه، يغنوا يرقصوا حتى ان يحين الفجر، يرحلوا، وفى حجره ترمى كل حوريه كيس مليان دهب، وان ولعه الظالم خرج له من العبيد سبعه، يضربوه بالسياط حتى ينبلج الصباح .. وألم تسمع عن الباب الاربعين، ذلك المجهول اللعين، والرخ العجيب، لما عبر ارض الظلام، وحط بالسندباد فى البحور السبعه، فى قاعها قصور ملك الجان، وبناته الحسان، يقضي مع كل واحده منهم سمر الليالى، وفيض الحظ، ولما حان زمان الفراق قالت له بنات الجان: تلات شهور يا محبوب من كل عام، يحل علينا فراق الاحبه، تلات شهور ونعود، ويعود زمن الوصال ويجود، تلات شهور فلا ترحل، فى القصر تسعه وثلاثين غرفه، تلاقي فى كل منها ما يجود به الوجود من جود، اما الغرفه الاربعين فمنها لا تقترب وإلا فالوعد من الموعود ..

لغز غريب، تسعه وثلاثين يوم مروا كما الحلم الجميل، فى كل يوم فتحت غرفه، واليوم هو الاربعين، طب ليه اعطونى مفتاح الغرفه الاربعين، ليه لم يخفى عنى هذا اللعين؟

لما مرت الشهور التلاته، جلست بنات الجان الحسان فى انتظار الرخ العجيب، يعود بإنسى جديد، والسؤال المضنى ينهش صدورهم بالتعاسه، لماذا يبيع الإنس العجيب حسن جمالنا، وفيض زادنا ونوادنا ويشترى المجهول .. حب استطلاع ام فضول ..؟ رغبه فى المعرفه ام عشق للمجهول ..

الزمن قطر غشيم لا يرجع للوراء، والذكريات لهب تحت الرماد، جذور عميقه من الأسى، ويحور من الشجن، واشرعه تدفعها رياح الوسن عبر الزمن .. تبقى الاسئله .. يبقى ذهول العقل قدام السؤال.. يبقى انعدام الامان، يرحل بك الزمان، بلا انسجام، حامل ندوب الروح والجسد، ورغبه فى البوح، والكون سكون مفتوح، للجنون، والمجون، ولهث الخيول، والركض بحثا عن مراعى الصفا .

الفصل الثالث

سمعت والشوق بعيد واللى رمانى راح.. أبدا.وانا وجدى مشبوب ومالى راح، طلعت على البحر رأيت على شط البحور طراح.. طرح على طير وطاطى يمسكه.. طار.. راح.. فى مقال له مجنون ولا العقل منه.. راح ..
قلت يا فتاح .. المركب اللى خدت خلى وطارت به .. تِلْتَقْ فى شعب من المالح.. تصير الواح .*

كنت فى جلدى زى بعدى عن ملاحى
وأوثق صدهم قلبى جراحى
فسرت من الهوى قدرا وصاح
ألا ياليل .. هل لك من صباح ... ؟*

أذكر هذا الليل المسحور، وأنا فى العاشرة من عمرى، أتسلل من الدوار الكبير، والقرية خاوية من أسرها..؟ يحملها طائر الظلام الأسود فى فضاء السكون، والضوء الزمانى خليط من وهج الزمان الأصفر وضباب القمر الفضى ومصابيح الدروب الزيتية ..
درب العلامية وصمته الليلى ، بوابته العتيقة الموشاة بالطلاسم السحرية ، المستنقعات الشرقية.. أعدو كالملسوع، وقربة لجسد عنزة تعدو خلفى، عند الزوايا والأركان وخلف أعواد الحطب نقاط فضية تتراقص على نؤاباتها جنيات النار ، أرجل الماعز ، رؤوس قطط مقطوعة تتناثر فى دروب فضية موحشة ، تنهشنى كلاب الوحدة المسعورة ، ساحرات الخوف

العجوز ، رعدة الموت ، هاوية بلا قرار.ويلاه..تلك الدروب الطينية الملتوية يفضى بى منتهاها إلى المبتدأ.. أضواء مصابيح الغاز ، مكبرات الصوت ، تجذبنى بقوة إلى أراضى الذهب .. الأن أجدهم، جمع الناس العظيم متجمعين فى رحابه بالجرن الكبير، خلايق ما لها عدد، باعة من كل نوع، بحر واسع من البشر، لما جلسنا، انتصب كل واحد فينا ينظر للأمام باهتمام، ننصت إليه، جالسا على الدكة المنصوبة فوق كيمان الردش العالى، شاعر الربابة .. يغنى عذابات الأمير أبو زيد الهلالى سلامة يستعيد اعتراف القبائل به.. كينونته ولن ينتسب ؟

ان مدحنا النبى ما علينا ملام، اللهم صلى على بدر التمام، العلما العالمين واولياء الله الصالحين، والخضر والمرسى ابو العباس..

قال الراوى ياساده ياكرام.. كان فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان، عرب من عرب الحجازيه باراضي النجود.. عرب بنى هلال، عرب عربه، اصحاب الركيز والحريه..

آه.. آه من الدهر والزمن.. ولايوم إلا من العمر رايح *

* * * *

سبع جبال فى الجنه .. سبع رجال فى الارض

ابوى اللى اصيب بالجنون ، رمى بى للهواء، بعد ان طاشت عصا الخيرزان، واتهشمت على النافذه الحديد .. تلات ليالى ، السوط بالكرابيج ، قضاء الليل مقيدا بحبل على شجرة الجميز المسكونه، تتشابك اغصانها وجسدى، الخوف، فيض التساؤلات المريره يعصف برأسى ، يدفن بوجدى، لا يجرؤ احد على التدخل..

ستى مبروكه اشتكته لابوى عبد الجليل :

– ابنك محمد معلق عبدالله ابنه على جذع شجرة الجميز، الواد حصل له مس.. كل ما يكلمنى ينعى ابوه ويقول .. عزيني يا ستى فى اب مات وهو لساه حى ..

يومها لمحته من أول الطريق وحده جي، مهاب كما الأعيان ورجال لهم سلطان، قوى كيف الجمل العفى، ما وقف أمامه حد، نفض عنى القيود، اخدنى من ايدى وبخل المندره، مالحقش ابوى يقف من الارتباك، قال له المهاب عبد الجليل الكبير، كلام كله نذير ووعيد:

– يامتلاف يا ابن الكلب، تربطه تلات ليالى علشان عشره قروش، وانت عايز ضرب النار على الطين اللى ضيعته، وحياة تربة امك اللى ضيعت ارضها، لو كررتها تانى معاه.والا لأ.يا بعيد ما تستاهلوش، انا واخده معايا..

لم ينطق ابى بكلمه، كان وجهه ملان بالخوف، خرج المهاب قابض على ايدى، ومن كفه الضخمه انسابت شلالات الامان.. ما استنى للعشا، خذنى وراه لمنوف على خيله، اشترى لى كسوه وهدمه، ولما رجعنا الدوار واتلم الصحاب رأيت امامى رجال من معدن ولا خيله، مال المهاب على وقال :

–ابوك خاب لاتخيب خيبته، عبد الله يابنى اللى ما لوش اب يشترى له اب، وانت ابن العلاّم الكبير اللى خلف من الرجال صناديد، نصر ورزق وعبد الجليل، وعزام ومنصور والعفيفى وحرب ، علاّم الكبير لما نزل ارض السدود وحده، كانت اراضى الشرق بور، شمر دراعاته وعمرها، ولما طرحت طرحت معها رجال صلايد ، سبع بطون فى العلاميه غير الجيره والصحبه والرفاق العزايز، انت ابن مين فيهم، اختار لك اب .. اياك اسمعك تقول .. عزونى فى اب مات وهو لسه حى..

قال الامير جرموه والنار فى الحشا.. اسمع كلام اذكره مهما كان المصاب غالب..سعاده الدنيا قريب زوالها، ان مالت الايام مالى ومالها، وان مالت الدنيا على اعتزالها، ان مالت الاحمال بايدى عدلتها، لا خير فى الدنيا ولا فى نعيمها، توطي عزيز الناس وترفع ندالها.. ثمانيه للمرء لابد عنهم، وكل امرىء لازم له من فعالها، عسر ويسر واجتماع وفرقه، وحزن وفرح وسقم كذالها .. وعافيه لا يزال نعيمها، اسمع يا ابنى وصيه من لسان حبيب..احكم بشرع الله على الناس بحالها .. (**)

ولا ايه يا عزام.؟؟ الخال عزام ضخم ربعه، وجهه المحفور بطين الارض من سمار النيل.. على راسه الطاقيه معوجه .. عدلها للامام وقال :

– سدود جزيره اخفاها النيل عن الزمان، فيها اللى جه عايم على بوابه، قذف بها الفيضان، كما سيدنا نوح لما هرب من الطوفان، وفيها راهب مسيحى هرب من الطغيان، فيها الصعيدى اللى وصلها عايم على زلعه، وفيها ليبى فر من مطارده الطليان، ايام من الشقا، واخرى من الهنا، وتالته يحيط بها العسف من كل مكان..

غانم من الشرق ومحمد على فى الشمال بالكَفْر، زايد فى بهواش متحكم فى ميه الفيضان، نروح نطلب دورنا فى الميه، لاجل نروي، والارض عطشانه ، يرفض ولو حاملين التمن غله وعنب مرجان، زمن للشقا لا يجد فيه المرء من هدمته سوى حبل تيل يدارى عَوْرَته، وبالكاد قميص كتان، والدار فراغ، نلقط السعد فى الوسع.. فحل البصل مع رغيف بتاو، لا ينحنى راس فيك يا بلد، ولا باشا يتحكم ولا سلطان، وجت الثوره، جه معاها الخير،

انتظمت الميه ، وانفتحت سكة العلم للولدان، يا ابن عبد الجليل اللى مالوش اصل يصير عويل، ضعيف ماله ظهر .. احكى له يا حاج منصور.

– زمان لما جدك العلام الكبير حط به الرحال فى سدود، كانت ارض الشرق بايره، شمر دراعاته فى عزيمه وهمه، وفى الفلاحه حط همه، فلح على وسع امكنياته، ولا حد همه، ولما صار الوقت خلف من الولاد سبعه، عزوه وقوه وعلى العدا منعه، سبع بطون يابن عبد الجليل، والرياح فى السما اربعه، رياح الجنوب والشمال والصبا والدبور، ومع الزمان صار له من الصحاب احبه، اختلط النسب والحى اتسع والخير يزيد ويفيض، ولما يزيد الخير تظهر الغربان .. احكى له يا مصطفى .

ابوى مصطفى قال : فى البدء كان الانجليز بعد انتفاضه سعد، عسكروا فى الشرق يم المصرف الكبير، معلنين حظر التجول، بعدهم حضر المكان عسكر الهجانه على الجمال، حاملين السياط للى يخالف قانون الطوارىء، عسكروا عند الجسر القديم، هانوا ناس كتير، والاذى علينا حل، واحتل البلد تحت الحمايه جماعه من العربان، اول فعالهم دبحوا رجال اغراب بليل، وفى الصباح سلخوهم، علقوهم على خطاطيف الجزاره، داروا بالجثث على البلد يبيعوها لنا عنوه، اجبرونا ع الشراء بقوه الرعب والسلاح.. تانى فعالهم اطلقوا بهايمهم فى غيطانا ترعى بلا رادع ولا حساب ، لو النفر منا قصر وما قامش بحق خدمتها، ساعتها يحل العسف والظلم، يصبح الصباح كله هم وكرب، عصابه من الأعراب حامله كرابيجها.. تالت فعالهم صباح يوم العيد، بعد صلاه الفجر، هجموا بغدر على الناس فى الدور، لموا مشنات واقفاص الكعك والفطير، رموها فى الشوارع والترع لاتفهم سبب غبونها، لا اكلوا من كعكنا المسروق، ولا تركوه لعيالنا، خرجت النسا والصبايا تنوح ..

يا قهر العلاّميه، .خمس سنين عار ومذله استباحوا فيها الديار، وفى يوم اسود من ظلام الليل اتعرضوا لصبيه من اهلك، كانت على النعناعيه بتملا وسط البنات الجرار.

بعد صلاه الجمعه، وقف الفتى العفيفى كالسبوع الكواسر، صرخ بعزم مافى قوته .. الموت ولا العار، يا رجال صارت من الخوف طبع النسا فيها غالب، اليوم يوم الرحى وما عاد بُد من نزالها.. واضطرم لهيب الوغى، وقعه ولابد من سعارها، خرجت وراه العلاميه وكل نواحى البلد افواج ورا افواج، والفتى مصطفى والعفيفى رافعين الجريد والسلاح الابيض، عبد الجليل الكبير حامل فلق النخيل يلف به، يطيح هنا وهناك، ونصر اتريص بهم وصوب الزناد، تجريده م العربان وانكسرت، وعاد زمان الصفا والامان وآه .. آه للزمان القديم ..

آه للزمان القديم .. فاكر انا سميه. قيلولة الشتاء الدافى، وصحن الدار، تدعونى للتسلل خلفها، القاعه والظلام، السقوط فى حضنها المحموم، اسبح كما المجنون.. طاقه فى جسد النساء وانفتحت، صرنا نعيد الكره، اطاردها والدم فاير في العروق نار ، تجرى الى القاعه، تطفى المسرجه، يحل الظلام، تصعد من بحرايه الفرن لقُبته، علي حافته.. لحظة عناق محموم، ينثنى جذعها للخلف، تتمدد علي سقف الفرن، وبغريزة الذكر اللى كان فى قمقم وانتصب، اصعد لها ، ابحث هناك بين الهضاب الطريه عن لطائف الورد والزغب

وارشف الرحيق وازيز انتشار النمل فى التصاق الجسد، ايه اللي لقيته يا ابن عبدالجليل ؟ سر هذا ام عقيق مدفون، مارد خرج من جسمك، ولا دخلت جنان الحور .. لله درك سميه.. فى قميصك المصنوع من الكتان الخفيف وذراعك الابيض العارى .. لله درك سميه، وللظلام الذى تنوره شفايفك ونهداك الخصاب ، وشهد الرضاب ، وذاك الزمان القديم.

الذكريات لهب تحت الرماد .. بحره عمقها الزمن .. يا ذهول العقل قدام السؤال .. عراك النواحى وامتلاك الحوارى ، القفز فوق اسطح الدور لاجل سرقة كوز الدره ، نبادله بحتتين سردين ، نعمل جمعية مع الرفاق . مين يشترى الشاى والسكر والدخان ، خمسه قروش ... حسن خليل ابوه فى بعثه بالسعوديه .. الخبز .. رضوان ابن عمى لان لامه في الناحيه اشهى خبز . مين يجيب الزيت والطحينه.. مين يجيب الراديو؟.. احمد عبد الحيلم ، اخوه رجع من حرب اليمن بفلوس كتيره وراديو بيشتغل بالحجاره الطورش، وقماش صناعى الوانه زاهيه لمراته وامه، كما انه حاش(٤) ارض.. نجرى فى الحوارى على ميعاد في مقعد(٥)، جسر ترعه ، وفى الغيطان نجمع الخيار، نسرق الشمام، البطيخ ، قرون الشطه والبادنجان، وليمه من الجبن القريش والمش، يتكنس المكان، يتنظف من التراب ذاته، حتى يصير اجمل من سجاد القصور، هل يعطيك مخملها الوثير رائحة الأديم، والعبق الحار لروث البهائم، نلتهم زى الوحوش، نتراهن على اكل الدره المسروقه فى الليل، عشره، عشرين، يولع جابر النار يشوى الدره، يعمل الشاى اسود من الهباب والحبر، طعمه مر حنضل، لكن مذاق حلاوته مثل مـذاق شفـــايف النساء الكنزه، ما تتركه خلفها من امتلاء، رطبها، طرواتها وشهد الرضاب، نرمى على جذوع الشجر جذوعنا، نتمدد ع الخيش، راكية النار ، الحصر القديمه، تهب نسايم العصر الطريه، وصوت ام كلثوم يغنى عن الحب والنيل وسعف النخيل، والثرى الذى هو من عيون البشر، والسهر اللى لايقضى على عُمّر على ان تقضى من الدنيا الوتر، والسماء كون نملكه على امتداد المدى لا الحصر، وفيروز وعناقيد كرومها الليلكيه، وناظم الغزالى، وعبد الناصر، والاناشيد الحماسيه، وبقية المائده وما عليها من وليمه، وكل ما اعد لنا من اوهام جسيمه، للصلب على خوازيق الهزيمه ..

* * * *

الشمس فى منتصف السماء.. مرسى مطروح على مشارف البصر.. نقطة مرور، يطل راس ضخم لصول الشرطه، يدفع بوجهه المتجهم داخل السياره: البطاقه او جواز السفر؟ معاك عقد عمل؟ تصريح سفر؟ دعوه للزياره؟ كل واحد يطلع بطاقته او جواز سفره، واللى مامعهوش ينزل، يلا ياقفل انت وهو..

تتقبض الصدور.. تتوقف عن التنفس .. حديث قصير مع السائق، يخرج كل واحد جنيهين في لهفه وخوف.. تجمعها الأيادي خفيه، ترميها لكف السائق، ومنه إلي خارج السيارة.. للبيه حضرة الصول .. لحظة زمن تعود بعدها السياره للسير..

الفصل الرابع

– ح تكمل تعليمك ..

– وهوه ده سؤال ..

– طب اسكت ياروح امك .. اسقى البهايم .. روح الغيط .. حمّل السباخ من الزريبه .. النهارده قلع الدره . مش ح تروح المدرسه قبل ما نخلص الجنى .. فاضل يومين على دور الميه .. روح علق البهايم على الساقيه .. تذاكر ..! طيب يا فالح امال تاكل منين ؟.. ارعى انا عليك علشان خاطر امك .. ما حدش اتعلم إلا وجاب لاهله مصيبه .. العلام علام الحياه .. عايز قرشين تجيب قلم حبر .. قوم.. قوم، قلم لما يطولك.. لما نجحت مسك عبد الرحيم بذقنه متوعدا :

– تف على دى ان نفعت ولا كملت تعليمك يا ابن امك ..

– انا ابن امى ولا انت .. كانت تخفى اللحمه لك فى البرام، وتقسم عليك اللبن، تحفظه فى محمة الفرن، تيجى من الغيط تلاقى عشاك لبن مسقى بالعيش القمح، واحنا نبات على الطوى ..

آه .. الغضب .. الاختناق بالحزن .. الشعور باليأس .. وانت ماشى ورا الجمل محمل بالسباخ، تشوف اصحابك من الطلبه فرادى وجماعات فوق اسطح الدور وعلى جسور الترع، يراجعوا دروسهم بصوت عالي يملي الفضاء، تشعر بالأسى والخجل، فين تختفى الكتب والكراسات .. فين ملابس المدرسه ؟ .. مش لاقيهم .. ياولاد الكلاب، القميص القديم والبنطلون متمزقين بالدار، وبالجوار بقايا الكتب محروقه، مرميه فى الترعه .. الغضب .. عبد الرحيم استنفد قدرتى على المقاومه .. لكن لو علمت يومها ان الفاعل كان مراته كنت قتلتها..

لم يبق لى سوى الاستسلام، خرجت للحقول اعمل نفر مياومه، كان هذا ما يرتجيه الكلب، إذ انه قال لى بعد مضى تلات شهور من عودتى م الجبهه وسط مجلس حضره اعيان الناحيه: ايه اللى لك فى الارض .. ايه اللى لك ؟ كنت زرعتها ولا فلحتها، انت طول عمرك يا طالب فاشل يانفر صايع، طول عمرك تفلح ارض الغريب، عمرك مازرعت حبه فى ارض

ابوك، ايه اللى لك فى الارض ؟

الاختناق .. كيف احكى قصتى .. ومن فين تصح البدايه .. من عبارة عبد الرحيم، ترن فى الودن حتى الآن .. تروح المدرسه لحد ماعمرك يبقى ٢٢ سنه ح تاكل منين..؟ ح راعى عليك ولا على امك ..؟

ماهو الخير وماهو الشر، وليه الحق مخلوق ضعيف، منين تصح البدايه.؟ من مراة اخوك وهى تخطف اللحم من قدامك وتعطيها لاخوها .. آه .. آه ياعبدالرحيم، طول عمرك ابن ابوك، هو مزواج عاشق للنساء وانت عاشق لذاتك، جشع انانى، مراتك حطاك تحت باطها وانت حاطط عبد الحميد تحت باطك، وابراهيم سارح لوحده سكه تانيه، لكنه مثلكم، ما يفرق عنكم فى شىء..

الكراهيه .. الكراهيه حملتها لنا زينب مراة عبد الرحيم بنت الشيخ عبد السلام شيخ زاويه السبيل، تكرهنا مثلما كره هابيل قابيل، كراهيه موروثه تجرى فى عروقها، فى البدايه بدأ الامر مع عبد الرحيم، تقف خلف باب الدار فى قميصها المكشوف، تبدأ فى النداء، تدعوه من بين اقرانه واصحابه، يهرول نحوها، خايف لو تطل خارج الدار، تشاغله بالاشياء التافهه، تسأله عن امور ممكن تنتظر، بينما تتكاسل فى تقديم التحايا للمعارف والضيوف، تتفنن فى لفظهم، تشعرهم بانهم ناس غير مرغوب فيهم، تتفنن فى الانفراد به، تنهمك معه فى حديث هامس يورث امى التى لم تشبع احشاؤها بالجنون، بينما يحاول التملص منها تتركه بابتسامه واسعه وبعينين تحملان نظره خاصه، تهمس فى اذنه :

– ما تيجى بقي .. يالا .. ما تيجى..

– فى العصر.. فى العصر يا زينب.. استنى لما ييجى الليل، بعدين حرام، لا تولعى النار فى الوليه، جوزها هاجرها من عشرين سنه.. تشتعل بالغضب، وكانه يسلبها حق من حقوقها، حتى لو كان كل مايطلبه منها، ان تدارى شبقها المجنون عن العجوز .. لكنها كانت عديمة الرحمه .

– انت نجس يالهوى عمرى، ما شفت حد فى الدنيا كده.

– تتبول ميه وانت واقف، انا قلت لابوى كده قال: دى حاجه غريبه.

الفضايح .. غباء امك وعرى اختك نعمات، كل شىء فى حياتهم الخاصه حولته لعار، كل شىء عادى ومستور يتحول فى لحظة هجوم مباغت الى تهديد مخيف بالفضيحه، فى بلد كل ما تشتهيه.. الرغبه فى لوك الالسنه، فإذا فاض به الكيل وصمد امامها قليلا كانت تصاب بنوبة هوس، التشنج والانفعال، ارتفاع الصوت، الصراخ، يطل من جديد شبح الفضيحه ويخيم الخوف والقلق.. طب ح تشرح ايه للناس.. كان يلعن نفسه، لو ضربها من اول مره بالبلغه ما كان في هذا الحال، فى مره كادت ان تمزق ابنها نصفين، لحظتها رضخ لها، وانطوى مستسلما لطبعها.

خفت الأقدام الغريبه من الدار التي كانت مفتوحة للجميع .. ثم حوسب على الأوقات التى يقضيها بالخارج والأوقات التى يقضيها مع أصدقاؤه على عتبة الدار، وانتهى الأمر

فى كل مرة يقضى فيها رغبة صغيرة، سهرة مع الأصدقاء، نفس حشيش، فعل خير ، واجب لامه، اخوه ، قريبه، الى كشف طويل من الاكاذيب والاعتذرات، الوعود بعدم تكرار ذلك .. وهى تعلم بكذبه، تستمتع به صغيرا ضئيلا كاذبا، خائفا منها، وعندما جاء أوان زواج عبد الحميد الأخ الاصغر له، تربصت به حتى أوقعته فى فاطمة، فتاة ضئيلة فى حجم عود البوص مكسورة من عائلة عرقها مكسور ..

كان مشهدا مثيرا للضحك .. قرب العصر يحلوا لها الخروج من باب المندره فى تثاقل وهو خلفها، تسخن المية وتبدأ فى مشوار بطىء غريب فى ساحة الدار امام كل من فيها، من المندرة الى بير السلم حيث المرحاض والحموم حاملة الطشت والحلة والوابور والفوطة والقمصان النظيفة.. يبدأ عبد الرحيم بالاستحمام اولا ثم تتبعه هى وتخرج لتجلس على باب الدار تمشط شعرها .. عبد الحميد ومراته فاطمة، ظنوا فى البدايه ان أخوه ومراته مرضى بالنظافة، لما علم السبب، اصبح المشهد من اربعه، يبدأ عبد الرحيم ووراه مراته، ثم عبد الحميد ووراه مراته، الاول من المندرة لبير السلم، والثانى من القاعة لبير السلم.. كنا نلاحظ عبد الحميد وهو يلكز فاطمة، يبدأ العرض المكشوف، فى يوم قامت من المسطبة الى بير السلم مباشرة دون ان يعرجا ولو لحظة على القاعة، ضحكنا حتى الموت.. وضحك عبدالحميد بخجل وصعدت زوجته إلي السطح هاربة.

– طب اعمل ايه .. ماهو ابن المفحور عاملى فيها سبع، ماشى ومدلدل بيوضه زى الشب وهو نعجه، ماشى ورا مراته زى ماتكون ربطاه بحبل ..

الطمع لما يصارع الطمع تلاقى وحش غريب، نعمات لما جوزها بنى المدبن(٦)، ووسع تجارته فى البهايم ، وكان الوقت موسم خلع الدره مالت على ابوها وطلبت منه تخزن الدره فوق القاعه القديمه، وعينها علي مدخلها المنفصل من قبلى خلف الدار.. وفى الشتاء خزنت فيها القمح ..

– معلهش يابا .. ابوس رجليك، عبد التواب ربنا فتح عليه، واخذ المدبن لأنه صار يتاجر فى البهايم.

ابوى وافق بامتعاض .. سنه ورا سنه، رغم ان جوزها بنى دار كبيره على المستنقع، خزنت نعمات القمح فى القاعه، والدره على سطحها، ومع كل عام يهل يقول لها ابوى، والجمال بتنزل الدره فى القاعه : ح تورثينى بالحيا يابنت ام الهنا ..

تضحك وتشاغله: يعطيك طولة العمر يابا .

لما مات، اول شىء فعلته احضرت قفل، وأغفلت باب القاعه، مرت سنه، سحبت اردب ورا اردب، ومراة عبد الرحيم تطلع فوق السطوح، تطل من الرزانه على القاعه، تعد الشوالات بصبر، لما فرغت القاعه من آخر كيلة قمح، كسرت الباب، ولم يأت الصباح حتى كان باب الدار القبلى مخلوع ومبنى مكانه جدار، لما شافت نعمات الجدار مكان الباب، جت تجرى تدخل القاعه من باب الدار، قالت لها زينب ببرود وعبد الرحيم وعبد الحميد ومراته جالسين فى صمت: ما تعتبيش باب الدار، تيجى زياره اهلا وسهلا، اما ان ظنك لكى حاجه هنا.. لأ ..

ولولت نعمات ولت كل اللى فى الدرب، صرخت باعلى ما فى وسعها:

– آه يابا .. النهارده عرفت ان ابوى مات، القاعه دى هو تركها لى اثر منه، يا ناس يا هوه، يابا السيد، ياحاجه مبروكه، غيتونى .. بنت الشيخ عبد السلام وجوزها الكلب بيكلوا عضمى الحى.. قام عبد الرحيم ثائرا، ضربها.. كيف تسبه امام الناس!
جرها من شعرها ورماها على باب الدرب :اذا كان لكى راجل ابعتيه .. وعاد يقول وعبد الحميد يهز راسه مؤيدا: هو عبد التواب لو ما كانش ربنا موسعها عليه، انا كنت نمت بعيالى فى الطل، كنت شيلته هو وعياله وبهايمه فى عنيه، لكن دى داره قد دارنا تلات مرات، هى بنت المفحور اللى عايزه تورث ولاد الغريب فى عيلة رزق ..
يهز الشيوخ رؤوسهم فى تفهم .. يقول احدهم: دا كلام .
– اذا كان لها حق تاخده، انا عمرى ما ارضى بالحرام، لا يدخل جوفى منه لقمه، ولو كان مال قارون، ولاد عبد الحميد الصغيرين دول يناموا على السطوح، علشان هيه تخزن شوية قمح، ما يبنى عبدالتواب مدبن عنده، وعنده بدل المكان الف.
الكراهية .. من يزرع الكراهية بين البشر .. لم يكتف عبد الرحيم بوأد مستقبلك الدراسى ولكنه وبعد عشر سنين يغتصب أرضك .
– ابوك كتب الحيازه باسمى قبل ما يموت واللى فى قلعك انفضه، آدى المجلس يقول كلمته، وان ما عجبكش عندك المركز، النيابه، المحاكم، غير القوانين بقى يا اخى ..
صرخت فى عبد الحميد: ساكت ليه، انطق، قول حاجه، مالك قاعد زى الصنم، مش انتم اللتنين سرقتم ختم ابوى بعد ما مات، وختمتم الاوراق، بصمتموها ببصمة راجل ميت، بص يابا الحاج، تاريخ الحيازه قبل تاريخ الوفاه بيوم، ابوى كان يومها مات .
حاولوا تهدئته : اصبر ياعبد الله، بتقول ان التاريخ سابق الوفاه بيوم .
– قولى يا امه، مش هو ده اللى حصل، اجلوا موت الراجل يوم لحد مايسجلوا الحيازه باسم عبدالرحيم علشان مرات ابوى ما تستلمش ورثها فى ارضه، بحجة انها ماخلفتش يمكن تتجوز الكركوبه والارض تخرج من العيله، ولهفها هو فى عبه.. طب هو سرق مراة ابوي، طب يسرقني ليه؟
– ياعبدالله نعمل ايه دلوقت، يعنى عايز تدخل اخوك السجن .
– حقوقى..
– ما انت ح تاخد تعويض من اصابة الحرب، والحكومه لازم تشَغلك.
اختنق وهو يسمع عبدالرحيم يضيف من الخارج :
– وجاى له قرار بالتعيين فى مؤسسة الطرق، قول لى بقى يابا الحاج، يشتغل ولايفلح، ولاياخد القراطين يديهم لحد تانى يزرعهم بالشرك .
– ح ازرعهم بنفسى، واذا عجزت ياخى انت اللى ح تاخدهم محدش غيرك .
– وانا ايش يضمنى .. لأ .. الحيازه باسمى واضرب دماغك فى الحيط، اما الدار مش سايعه حد، تاخد فلوس، تطلع بره، واعلى مافى خيلك اركبه .
– اعلى مافى خيلى، طيب ..
خطفت اقرب عصا نزلت على نافوخ الكلب، وقع يدفع بايده الهواء.
– يااابن الكلب ح تموتنى، ح تموتنى ياابن الكلب ..

كان ممكن اقتله، لكنى تركته باحتقار، رجعت لعبدالحميد والصراخ مالى الدار، كان مستكين فى ركن المجلس لاينطق بشىء، هجمت عليه.

– وانت يا ابن المفحور يا عبدالحميد الكلب، شركه واكلتوها انتم اللتنين. وهويت بالعصا على وسطه، ماحاولش حد منهم ياخذ تاره لكنهم النساء .. خرجت مراة عبدالحميد تولول بالصراخ فى الشارع، اما زينب هاجمتنى وانا متكتف بين ايدى الرجال ، نبشت اظافرها فى وجهى وتركتنى بنزف دم .

الحياه تذكره للجحيم .. والليل الطويل .. طويل ما له آخر. لما تآمن اخوك على تمن دمك .. قرشك اللى حوشته من شظايا الموت، من الوقوف فى الخدمه حامل السلاح، يومها كنت ح اشترى ستاشر قيراط ملك اولاد البدرى حسن، زايد علي الحاج سويلم منه لله واخدهم .. ليليتها ميل علي اخوى ابراهيم زى شيطان الغوايه وهمس :

– ناخد انا وانت محل فول وطعميه شرك فى الوايلى الكبير .. الشغل في الاكل يكَسَّب تلات اضعاف .. فلوسك ندفعها خلو رجل للمالك ونشترى بالباقى طلبات المحل، اما العرق والشغل اتكفل به انا، مكسبنا يصير بالنص، شويه ونوسع المحل، لما تخلص الجيش يكون المحل تمام التمام، وانت لا عندك شغله ولا مشغله، ايدك فى ايدى تمشى .. والاخضر يجرى فى ايدينا .. ببساطه ومن غير تردد، عمرك شفت محل فول وطعميه خسر، وبعدين رد بالك للمكان الوايلى الكبير .. يسموه الصين الشعبيه من درزة الخلق فيه، وازدحامها.

فلوسى وكانت معاه، ما كانش ممكن اعطيها لعبدالرحيم، بطنه تساع مال بلد حرام، يا ترى كنت طمعان فى ربح سهل، طب ليه ما كتبت عقد الشركه باسمى ؟.. تفكرت حتى تهت فى الافكار .. ياربى عبط منى، ياربى لما اخوك يخونك ..!! آكتب ورق على اخوى، طبعا يا ابن الحمار كان لازم تكتب، لاجل تحميه من نفسه، الزمن تغير والناس صارت غير الناس..ليه؟ .. تعرف اجابة السؤال، تعرف كما رد ابوزيد اسئلة سليط الجان، والله ما اعرف.. يحل ذهول العقل قدام السؤال، اطلع اشتغل باليوميه واسكت، ح تحاجى مين.. ح تحاجى نفسك..! ماينوبك إلا حرق الدم، ايه تكون يابن عبدالجليل وسط الخلق، حمار علي ضهره غبيط، بهيمه على عينيها الغمه، فم ساكن في الكمامه، تجر فى سواقى الخلق، وتحرث اراضى الغير.

يقول الحاج مسعود مما اصابه، ولا حد فى دى الايام سالم، مساكين اصحاب الهموم بحالهم، شتت عقولهم صاروا عدايم، الناس بارزات فيها بواشق، وفيها رخصات تلم الرمايم ***

* * * *

الحياه تذكره للجحيم .. لو كانت الارض نصيبى ماكنش هذا طريقى .. اليوم عرفت انه مسافر في قطر الفجر، خرجت ادور عليه.

– ناوى ابيع نصيبى فى المحل يا ابراهيم ..

– ليه ..

– ح اتاجر فى البهايم .

– يعوض عليك ربنا ياخوى، انا كنت عايز اقول لك من زمان ماجتش مناسبه، الراجل صاحب المحل ابن الكلب طلع مأجره لتلاته غيرنا، ونَهَبْ الخلو، يعوض الله، بالقوه اخذت منه مية جنيه، خُدهُم ناقصين عشره اتعاب المحامى .

سكت .. اقول ايه .. قلبى امتلا بالمرار على الدنيا اللى غدرت بي وبه .. دا خاطب من بنات مصر، ح يعمل ايه وح يخلص التزاماته ازاى وعمره صار تلاته وتلاتين سنه .. بعد اسبوعين واحنا بنراضى اهل خطيبته، لأنهم طلبوا يفسخ الخطوبه، عرفت انه دافع شبكه ومهر، اندهشت، طب منين؟ دا عمره ما احتكم على عشره جنيه، كيف بالفين .. يارب العرش فلوسى، من فلوس الخلو ..! طيب وانا ح اعمل ايه، اطلع اشتغل عامل يوميه ..!! ياولاد الكلاب. هو اللى اختار نهايته.. نويت على قتله، اشتريت ساطور من سوق السبت لاجل اقطع رقبته، لكن ربنا ستر، بعت المبروك نجده من السما..

مبروك قال لى : صعيب الزمن.. صار صعيب ياخ لم تلده امى، مفيش غير اللى قلته، جهز خلجاتك، خمس جلاليب صوف قديمه، بالطو تشتريه من سوق الكانتو، ونعدى ليبيا الشقيقه نلقط رزقنا .

– ما انت عارف.. عندى قضية مع مؤسسة النيل، لمافياالطرق والنصب ..

– ايه المشكله مع اللصوص ولاد الحراميه .

– جواز السفر .

– ما يهمش .. نطلع سلكاويه يابن عمى .

– تقصد ايه؟

– نعدى الحدود من السلك .

– وحدنا

–لا ..ح ييجى معنا نبيل ومحمود .

صرخت : محمود بن جابر الاسيوطى ..

– آيوه والواد ابورحاب .

– معقول .. والله زمان يا صحاب ..

* * * *

واحنا فى ليل الخنادق لما الفوج ياخذ نفسه قبل ما يهاجمنا الطيران الاسرائيلى كالعاده مع اول ضوء الفجر، كنا نحكى ونفكر، يعمل ايه الواحد فينا بعد الحرب..

يقول محمود: ما قداميش غير حاجتين.. الجبل او السفر.. ياطلع مع المطاريد.. يا شد الرحال الى ليبيا الشقيقه .. وكان يضغط بفمه على الشقيقه ..

– ربنا معاك .

– ما تيجي معاى ياولد ..؟

ارد عليه بكل ثقه بدون تفكير : واسيب سدود ..!!

– وآه ..! يعنى يا اخى وراك الطين .. ولا عم تشتغل ناظر زراعه..

– التراب فى سدود دهب .. هذا ما كان يقوله رضوان ابن عمى .. تضحك البطاريه كلها، لأنه كان يحلى للعسكرى مجند ابراهيم حسنين ان يقلدنى .. يسحب نفس عميق من الجوزه تجحظ عيونه، يطلقه قائلا : التراب فى سدود دهب، ومية النعناعيه خمره تروى العطشان..

والآن لم يبق امامي إلا الرحيل معك ..

* * * *

قال الامير حسن الهلالى :

.. اصبر ياعم، لاتخف .. اصبر على الايام والمتاعب احنا رجال ابطال .. فرسان هلايل .. عرب الهلاليه، احنا نجير الجار ونحمى طالبنا، واللى يجينا هارب من المتاعب.

قال الامير ابوزيد، ونيران قلبه فى حطب ولعونها : كنت يانجد الامرية زاهيه، وكانت خيولنا يلعبونها، واللى جرى لما اجدبت نجد وارضها، سبع سنين مجدبات تحسبونها، سبع سنين يانجد ما مسك ندى، ولا هفهف البحرى اعلى وطونها، وقالوا ترود الغرب ألا ياسلامه، رود لنا تونس وعال حصونها، آه .. لو كان تحتى سالم القند يندحى، وفى يدى يماني يقلب البرق لونها، انزل لسوق الحرب ياشائع السنا، وسوق المنايا بينا يريحونها، ولابد من لطمه على باب تونس، ولو كانوا بسيوفهم زربونها(٧)

**

ثمانين جنيها دفعت لرجل يجلس على الناصيه المجاوره لمكتب سفريات يقع بميدان العتبه، بينما دفع الذين يملكون جوازات سفر عشرين جنيها فقط .

– ليه ندفع كل ده ..؟

اجاب رجل بلكنه ليبيه ساخطه :

– تبى(٨) تاخد فى فلوسك ..؟ هيا غادى، شنو! سألتك تيجى هنا؟ وفر علي نفسك وادفع هناك . واشار ناحية المكتب، تراجعنا بتخاذل :

– لأ ياحاج .. دا .. هو ..احنا..

– انت تعدى مع اى مكتب اخر سلاكه، يرموك فى بطن الجبل غادى حد الحدود، هنا تركب فى العربه هادى، تعدى من بوابة الحدود وراسك مرفوعه، انا ما ناخد م الفلوس شىء بُكل(٩)، ح ياخد في هاذا رُتَب واشار الى كتفه، هادى خدمه نبى بها وجه الله، انا سبب من عند الله علشان انت وهو وهم، رزق يوكل عويله وراه .

الآن اتضح صوته، مصرى يحاول التخفي وراء اللكنه الليبيه، اضاف: عند الحدود تاخد بطاقة الاقامه، تعدى من بوابة الحدود رافع راسك، تمشى سليم، تعيش سليم، تحول فلوسك لمصر فى البنك، لاسوق سودا ولا حرامى يسرقك، شنو بدك..

صاح المبروك مبتهجا، كنا جميعا مبتهجين : تمام ياحاج وهو ده اللى نريد-

* * * *

امتد الطريق موازيا لشاطىء البحر، تنهبه البيجو الاستيشن والشمس فى منتصف السماء، حدق فى البحر حتى الافق، والدموع تطفر من عينيه .. يا ولاد الكلاب .. الموت فى الحرب رحمه .. رصاصه تمزق الدماغ .. قنبله تنسف الجسد .. اما الموت فى الحياه، لحم حى ينشوى على نار بطيئه، روح تتصلب، نوم على الاشواك، عذاب على مهل.

* * * *

يوم السفر كان يوم حضره جميع العرب من جميع الجوانب، اوصاهم الملك حسن الهلالى بوصيه من لسان حبيب.

اسمع ياعمى يامحترم كلام الحبايب :

وصيتك يا ابوزيد منى رفقتك، لان قلبى عليكم فى البعاد رعيب، واوعى لاخوتك وانت مسافر، فى الغربه يابوزيد ما فى حبيب، لا تقيد النار وانت مسافر، النار تورى والطريق صعيب، واذا وقدتم نار فى المساء، وطار منها لايكون لهيب، واذا وردتم الماء على ظمأ، خلوا لكم على الطريق رقيب، اشرب شرب الديب وارتد فى الخفاء، لان غدرات الزمان قريب، اذا انسالتم فى علوم مدرسه، يحيى فى فك الرموز عجيب، واذا وقفتم بين يد حاكم، مرعى على رد السؤال لبيب، واذا نزلتم سوق للبيع والشراء، يونس معاكم يشترى ويجيب، اذا هاجمكم بالطريق ديابه، دياب بن غانم معاك وحرص .. غدر الديابه صعيب، ح نروح بلاد الغرب وهم بوادى، لنا حدا البوادى حبيب .. لنا طلبات يا امير يا محترم، وانا اعمل ايه لما الليالى تصيب، من قلة الحنا وقعنا على الجفا، ولا عاد يداوى جروحك يا نجد طبيب، يا دهر يا ميشوم غدرت بى ، قلقتنى ولا عاد المنام يطيب.. **

الفصل الخامس

-١-

على سفح سلسلة جبال البطنان شمال غرب الحدود المصرية الليبية الممتدة بين البحر المتوسط وصحراء أفريقيا الكبري، انطلقت الرياح تعوى وتعصف بالكون، تطارد المسافات على صفحة الوحل العميق، بينما اندرج البحر فسيحا يغوص عند الأفق فى الظلام البهيم، والليل لا يفصح إلا عن سواده مطلقا من عقاله شتاء ثلجيا وشلالات من المطر الوحشى يشقها البرق بحسامه الفضى، تتوارى خلف وميضه بقايا أنوار مدينة السلوم الكابية، منازلها العتيقة ذوات الطابق الواحد، فندقها البالى الوحيد، رأسها الملقاة إلى الأرض فى انكسار ومذلة، وهى تخفى روادها من مهربى المخدرات والخمور والعملة والرقيق الأبيض وتجار الرؤوس.

على أطراف السلوم توقفت السيارة أمام إحدى تلك الدور الصفراء حيث دار حديث مع رجل كالح الوجه، أعطاه السائق مائة ألف من العملة المحلية، والرجل يلقى بأوامره إليه وهو يوافقه مستسلما، وقبل أن يرحل دفع نحوه برجل فى الخمسين من عمره وامرأة عجوز تحمل رضيعا، وغلام صغير يدعى رضا، زجوا بأنفسهم وسط الجالسين قبل أن تعود السيارة للمسير .

كنقاط ضئيلة تهادت قافلة طويلة من عربات البيجو الاستيشن من طراز ٥٠٤ مطفئة الأنوار تتسلل متشحة بسواد الليل وغلائله، وعندما خلفت وراءها الطريق الأسفلتى شرعت تتوغل بثبات وبطء فوق أحد المدقات الصخرية للهضاب المنبسطة الواقعة على الحدود المصرية الليبية.

فى داخلها جلس الركاب صفر الوجوه متجهمو الملامح، ران عليهم صمت المخاض وألمه، ترقبا لما سيسفر عنه المستقبل القريب، ونفس كل منهم تعتصرها القبضة الحديدية لمشاعر من الدونية والخوف ضربت بجذورها عميقا، تغذيها وحشية الهزيمة وتمكن الفقر وقدرية الفكر، تلك التى أينعت قبضة حديدية من القلق الغامض الموحش إزاء المجهول القادم

ومشاق الغربة. كادت عيونهم أن تقفز من محاجرها وهى تخترق زجاج السيارة الأمامى تحاول أن تتبين شيئا ما فى الأمام فلا تصطدم إلا بالظلمة ورخات المطر الشرهة ، وأزيز مساحات زجاج السيارة، فى الخلف لم ير سوى انعكاس البرق على قافلة السيارات التى تسير خلفهم. انعطفت السيارات فجأة خارج المدقات إلى سطح الصحراء الصخرى وأخذت مفاصل السيارات تئز بعنف تقاوم تعرجات الأرض الحادة .. هزم أحدهم الصمت : احنا رايحين فين ..؟

أجاب أحدهم بصوت واطى خوفا من أن يسمعه أحد: حد عارف.

– يعنى مش ح نعدى من بوابات الحدود.

– يمكن ح يجيبوا حد معنا ..

همس نبيل : منين يابا .. السلوم ورانا ..

قال محمود : سلاكه ياولد. وضحك دون خشيه.

سلكاويه..!! حدث كل منهم نفسه.. الآن تتضح الحقائق .. ألم تكن واضحة من قبل.! .. همس نبيل: الواحد زى العاده يحب يضحك على نفسه ، احنا بنرجى فى اللى يخدعنا زى المريض يرجى فى الدواء .

– يعنى ايه ياوله ؟.. همس عبدالله فابتسموا جميعا.. كاد محمود أن يضحك.. فأعاد عبدالله سؤاله يحاول الابتسام.. إزاء إصراره أجاب محمود: يعنى ح نعدى من السلك.

– آنى سلك يابن المفحور ..

– سلك الحدود ياروح امك ..

اهتاج منزعجا للإهانة، حدث المبروك غاضبا: سلك الحدود !! وله .. مش ده اتفاقنا ..

قال نبيل يهدئه: مالك ياوحش .. سلك.. سلك.. فيه نص مليون مصرى واخدين السلك ده قياسه(١٠)

ران الصمت عليهم والحقائق تكشف عن نفسها.. نظر عبدالله تجاه الفتاتين متسائلا أجابه نبيل: معانا يابا.. واستطرد إزاء دهشته: فقر دكر، ماخلاش حد محترم فى داره.

قلب عبدالله كفه مشيرا ناحيتهما: وح يعملوا ايه فى ليبيا ؟

أجاب محمود: شراميط.

.. طول الطريق ظل يحدق فيهم يحاول أن يجد تفسيرا.. لاحظ أن السائق يعاملهم بحرص وأنهم جلسوا طوال الطريق صامتين، تاركين مسافة واسعة بينهم وبين الآخرين وأذ تحدثت إحداهم لظروف قاهرة فباستعلاء وتكلف واضح.. لكن وجودهم بينهم أشاع لدى عبدالله بعضا من الاطمئنان وعدم القدرة على التصديق .. تشجع قائلا: امال الفلوس دفعناها ليه..؟ ثمان ورقات من ابو مدنه..

سرت ضحكة خافتة.. عند هذا الحد تدخل السائق: دلوقت انت ح تاخد بطاقه اقامه ليبيه ، تعيش هناك محترم، لاتهوب منك الشرطه، ولا ياكل حقوقك اصحاب العمل، الجوازات المصريه عايزه منك جواز سفر وعقد وشهاده من التجنيد بانك انهيت الخدمه العسكريه، وتصريح من الجيش ، وامن عام وقومى وشىء واشياء لا اول لها ولا اخر..

عقب المبروك: يعنى موت ياحمار لحد ما يجيك العليق .

قال السائق: حد معاه عقد عمل..؟

أجاب الجميع دون تردد: لأ

– طيب شوف كيف تكون الخدمه.. طبعا غير التوصيله.. يعنى نشتغل ببلاش.. واصحاب العربيات من فين تاكل وتوكل عيالها..

بدا أن كلامه مقنع.. تشجع البعض : معانا لحد بنغازى ياسطى.

– يابنى اطمئن.. شويه وتنزلوا، كل واحد فيكم يستلم بطاقة الاقامة بتاعته مختومه واللى ما يلاقيش الختم الجمهورى الليبى عليها مايخدش وما يدفعش سامع انت وهو انا بقول ايه .. يرجع معاى وياخد فلوسه مضاعفه وعليها بوسه من مكتب العتبه.

– وبعدين.. معانا و لا ايه..؟

– ح تمشوا شويه.. تلاقوا عربيات البيجو الليبيه توصلكم بنغازى وتعدى بيكم من قدام قسم الشرطه كمان.

سرت موجة من التوتر فى السيارة، تنبه الراكبين على إشارات لكشافات ضوئية تتحرك لأسفل وأعلى ثم تنطفىء بسرعة، مالت السيارة باتجاه الضوء، برز رجلين ملثمين من قبائل أولاد على مسلحين ببنادق آلية، توقفت السيارات فى طابور طويل وأضاءت أنوارها الداخلية فبدت فى الصحراء سلسلة من الشموع الباهتة..

سأل أحدهم السائق: كم تبى..

نظر إلى الخلف ثم أجابه: عشرة.

قذف الملثم له بمجموعة من البطاقات .. فألقى بها إلى نبيل وهو يسأله : بتعرف تكتب..؟

أجاب بحماسة: ايوه.

– خد.. واستطرد: اكتب عليها اسم كل واحد وبياناته..

تلقاها نبيل بجدية وشرع ينفذ مهمته باهتمام بادئا بأصدقائه..

مال السائق إلى الرجل العجوز : وانت نبى الاجره..؟

– كام .؟

صرخ به السائق: يعنى مش عارف عشرين ورقه يا خفيف.

– آنى دفعت ستين جنيه فى السلوم، للمعلم رشدى.

– احنا مالنا .. هو انت راكب مع المعلم رشدى دلوقت.؟

– لأ .. معاك.

– خلاص ياخى تدفع عشرين جنيه

أجاب الرجل مذعورا: بس آنى راكب من السلوم ..

– كل اللى فات كوم واللى جى كوم .

– يعنى ايه .

– يعنى انا اجيبك من اسوان ببلاش، لكن دَخلة الصحراء دى ولا بألف جنيه، انا بغير فيها كل مره اربع فِردّ كاوتش غير السجن، لا وحياة ابوك ماتقطعش نفسى، دى لقمة عيالى.

السجن .. كلمة أشاعت خلفها جو الخطر.. لكن العجوز لم يأبه:

– ما انا دافع ياحاج.. ادفع مرتين ..

ثار السائق وفتح باب السيارة مستديرا إلى الخلف مخرجا من تابلوه السيارة مطواة حادة كبيرة

– تدفع مرتين وتلاته ياروح امك ..

قال العجوز متراجعا إلى الخلف وهو يدفع للسائق ما يريده:

– انا اعطيت الحاج .. والله..

قاطعه: اديت للحاج فلوس التسليكه والبطاقه، اما التوصيله دى فلوسى انا .. يلا خلصنى.!!

أدخل أحدهم رأسه من نافذة السيارة مقطبا الوجه:

– شنو فيه(١١) .. ؟

أجاب وهو يأخذ النقود: الاخ بيعمل فيها ناصح

سأل الملثم : خلصت الواحد.؟ ..

كان يعنى البطاقات فاستدار السائق للخلف : خلاص يا افندى.؟

أومأ نبيل بالإيجاب وهو يكتب البطاقة الأخيرة لعبد الله وعبد الله يؤكد بإصرار على نبيل بأن يضيف اسم جده رزق.

قاطعه محمود ساخرا : هو حد عارف اسمك ايه ياولد !!

أجابه عبدالله بحماسة: ايوه علشان يطابق البطاقه الشخصيه ..

–لاهو انت تقدر تظهر بطاقتك الشخصيه لحد .؟

قال فاتحا عينيه الواسعتين مندهشا: وليه لأ.؟

أجابه محمود بقرف وسخرية: لأنها مش مختومه ياغبى .. انت بتقول لهم كده انا سلكاوى.. وضحك.

هبطت حماسته من فوره لاستكمال اسمه وعندما وضع البطاقة فى جيبه شعر بأنها غير ذات قيمة .. هتف المسلح: هيا .. وأشار بأصبعه للأمام .. خمس دقائق وتلاقوا البيجو الليبى بانتظاركم غادى ..

خطف كل منهم حقيبته البلاستك الممزقة، واندفع خارجا يسابق الباقين .. صدمتهم برودة الجو القارصة وزخات المطر .. داروا حول أنفسهم هنا وهناك وتعالت أصواتهم .. لكن أصواتا قاسية استقبلتهم بمناخيس الرقيق، ومنذ اللحظة التى غادروا السيارات اندفعوا يهرولون تحت نباح المسلحين كقوافل الرقيق المطارد عند حواف الغابات .

على مبعدة انتصب شبح ضخم ظل يقترب رويدا حتى وضح من بين الظلمة فج جبلى بدا قبيحا دميما مترهلا كفرج عجوز، أديمة المجعد انغرست عليه نباتات الصحراء الشوكية ..

ظلوا يهرولون كالنعاج، يساقون سوقا باتجاهه وكلما عنَّ لأحدهم أن ينبس ببنت شفه أو التريث أمره المسلحين بالصمت، زمنا ثم كشف الفج عن منخفض صخرى، نزلوا الوادى واحد خلف آخر، استندت العجوز على أبو رحاب فى حين رفضت الفتاتين أن يعاونهم أحد، كادت الضامرة والأكثر كبرياء أن تسقط، لكنها أبقت على عنادها مكتفية باستخدام حذاء واطئ يبدو أنها أحضرته معها وهى على دراية بما هى مقبلة عليه من سير خشن طويل .. غنوا السير فى باطنه وعندما صعدوا فوهته وجدوا بانتظارهم مجموعة أخرى من الرجال ضامرى العود، يرتدون صديريات ملونة فوق قمصان وسراويل بيضاء وعلى رؤوسهم اعتمروا شنات وألثمة أخفوا تحتها وجوها باهتة الملامح كاحلة السواد وبشرة متجلدة كجلد النعال لايبرز منها سوى عيون ناشزة .. كان بعضهم يمتطى الجياد، مسلحا بالرشاشات والبنادق الآلية، تتدلى حول خصره خزنات الذخيرة .. بلهجة آمرة وصوت هامس أشار كبيرهم إشارات ذات مغزى، من فورهم أمروا بالتوقف والانبطاح أرضا.. جلس الخمسة القرفصاء يحدقون بصمت فى الظلام وقد ألجمتهم الدهشة إذ تجمع أمامهم ما يزيد عن ألف وخمسمائة من المصرين الموشكين على التسلل عبر الحدود الليبية .. مئات من العمال والصنايعيه .. فلاحين .. أنفار موسميين وأصحاب ملكيات صغيرة زاد فيها عدد الأبناء على عدد القراريط المملوكة .. لصوص وعاطلين عن العمل .. طلبة فقراء وفاشلين .. هاربين من التجنيد ومن قضايا وأحكام .. وموظفين ضاقت بهم سبل العيش، هربوا بسبب الانخفاض الحاد فى مرتباتهم .. ونساء وفتيات قدمن لخدمة منازل أثرياء الليبيين ومتعهم الخاصة .. قطعان من الأغنام تجمعت فى باطن الوادى أخفت رؤوسها داخل المعاطف وقد تاهت ملامحهم وتداخلت بعد أن ينست من اتقاء سيل المطر وصقيع الوحل وبرد الشتاء الثلجى.. انتحت النساء جانبا وعندما فكر عبدالله أن يخلع معطفه ليعطيه للفتاة مالت إلى حقيبتها وأخرجت معطفا من البلاستك ارتدته ثم جلست ساكنة لا تريم .. ساعة أمضوها تحت سيل المطر والرياح تعوى فوقهم كالكلاب الضالة .. مال العجوز يسأل المبروك الجالس بجواره: احنا هنا فين ؟

وقبل أن ينطق المبروك سبقه صوت جاف: اقعد ساكت هسه .

- قلتم البيچو مستنيانا .. مقعادينا فى المطره والبرد ليه ياحاج؟

أجابته ضربة من مؤخرة إحدى البنادق انخلع لها كتفه، سقط إلى الأمام مصطدما بالمرأة العجوز التى انكفأت إلى الأ مام وتحتها طفلها الوليد.. كانوا يستمعون إلى اللكنة التى لن ينسوها طيلة حياتهم قط لأولاد على، ولألفاظ تنطلق فى سرعة لايفهم منها سوى التهديد الخطير الذى تنتطوى عليه.

– كنك(١٢) ياتيس ياعرس.. راع تنطق بكلمه ولا نضربك بالنار، عهد الله بنترك فيك هون للديابه.

بدأ الطفل فى البكاء، لاطفته أمه بصوت خافت وأخذت تهدهده دون جدوى إذ أنه أبقى على صراخه فانتحت به جانبا وألقمته ثديها الجاف فصمت لفتره .. ألمها جسدها، حاولت أن تستعدل من جلستها عاد للصراخ ثانية وعاد الصوت الأمر ينبعث من جديد يطالبها بإخراسه

قالت بلهجة مستعطفة: معلهش يابنى اصله سخن نوبة برد.

أخذه عبدالله منها وسار به جيئة وذهابا فصمت، كان الطفل محموما، وعندما استعادته ثانية وهى تشكره سألها متعاطفا وهو يجلس القرفصاء : ايه بس اللى خلاكى تجيبيه معاكى ياحاجه .. حرام عليكى يموت منك.

قبل أن يساهم الأخرين فى تأنيبها أجابته فى خشونة وبصوت سمعه كل القريبين منها : جيباه معاى علشان اشحت عليه .

ألجمه جوابها، تراجع منسحبا فى داخله كسحلفاة تختفى تحت ظهرها الصلب، وهلة ثم عادت رأسه تطل على العالم الذى يمتد أمامه.. حدث المبروك دون وعى : الله يجحمك ويجحم ابوك واللى خلفوك مطرح ماراحوا، ايه اللى خلاك تجيبنا هنا ما كنا فى بيوتنا مستورين.

ابتسم المبروك ولم يعره أحد اهتماما همس محمود:

– باه روح يابوى.. روح.. السلوم وراك .. قاعد ليه.

أشار نبيل ساخرا للمسلحين: اسكت ولا يطخك بالنار يابا .

أجاب محمود وهو يكز على أسنانه وعيونه تلمع فى الظلام:

– والله نشق بطنه، احنا نروح ليبيا مش نحارب اولاد على.

سمعوا صرخات استغاثات متفرقة لمحوا المسلحين ينقضون على بعض المتسللين بالركلات والقوايش وضربات مؤخرات البنادق وأحدهم يصرخ هامسا: قلت مانبيش(١٣) واحد يهمس ياعرسات ياتيوس .

تحركت الدمدمات كموجة للمقاومة مالبثت أن تلاشت سريعا تاركة وراءها الصمت المطبق وقد انكمش الجميع كل على نفسه، وظهر الرعب على وجه الفتاتين، حدق عبدالله جهة الشمال الغربى حيث انتصبت القمم العالية لجبال البطنان تقف فى العتمة كأشباح لعفاريت العالم السفلى ترقبهم فى تحفز، فجأة قفزت المرأة الصغيرة من جلستها وهى تنحنى للأمام فى هلع تظن أن ثعبانا يصعد ظهرها .. من خلفها ظهر رجل فى الأربعينات أشعث الشعر برزت أسنانه المكسوره خلف ابتسامة بلهاء.. لمحه أحد المسلحين فصرخ به ينهره:

– بعد يامنصور.. ايش تبى عندك..؟

لم يتحرك بل استدار بوجهة ناحية الخادمة وأمسك يدها .. جذبها برفق.. قاومته تحاول أن لا تحدث صوتا.. ساد التوتر الجالسين وفتح عبدالله عينيه على محجريها.. ابتعدت فاطمة عن المكان من فورها وهى فى خوف شديد، وقفت وحيدة ترقبهم مبقية على استعلائها على جنس الموجدين.. فى الظلام مد محمود يده، أمسك بقبضته يد الخادمة وجذبها بقوة وبسرعة خاطفة فاجأت الرجل لتصبح الفتاة وسطهم، أدار محمود رأسه للفراغ وقد كشف

وجهه عن قسوة وتهديد بالغين، التفت حلقة منهم حولها.. وجه وحيد كان ينظر نحوه فى تحد وغضب.. كانت المرأة العجوز على استعداد للعراك.. نودى على الرجال ثانية فابتعد وهو ينظر إليهم بغل شديد .. دقائق مضت عندما لمحوا الفتاة الأخرى تقترب منهم رويدا وعلى مبعدة خطوة واحدة جلست بجوار العجوز وهى تنظر إليهم لأول مرة نظرة استغاثه. زمن طويل مضى حتى عاد القلق ثانية ليجد مكانه بجوار الخوف.. أشار نبيل لهم بطرف إصبعه لأعلى الهضبة حيث وقف أربعة أشباح حملت الرياح أصـــوات الجدل المتصاعد منهم.

– كل دول وتقول لى ثلاثمئه راس بس.!

صرخ المهرب : توا (١٤) نعد لك فيهم يارجل بيش تستريح.

– بقولك ايه.. مش عايز نصب والله انزل اعدهم واحد واحد.. هات.. كانت لهجته المصرية واضحة.

– باهى معاك ثلاثمئه جنيه.. ايش تبى ياراجل.؟ ..

قفز أحدهم يضئ الظلام بمصباح جيب كهربيا وأخذ يتجول وسط المتسللين يعدهم.. وتبعه الثالث بإضاءة مصابيح السيارة مسلطا الضوء على المتسللين ، ظهروا مفترشين الأرض على امتداد البصر.

نادى أعلاهم رتبه على المسلح غاضبا: تعال يابن القبحه.. انت فاكرنى داقق عصافير.. أصدر صوتا قبيحا وعقب.. ألف وخمسمائه جنيه ماينقصوش مليم يا (.....) امك .

قفز المسلح متراجعا: امرك ياسعادة البيه.. امرك ياباشا.

من بعيد جاء صوتا آمرا: يوم مطر ومقعدهم ساكتين.. فاكر ح تهرب بيهم من الحكومه ياجحش.. يلا يا صبحى .

أجاب المساعد العجوز مصطنعا الارتباك: حاضر ياباشا.. حالا..

ابتعدت الأشباح متراجعة واختفت.. وعندما تصاعد بكاء الطفل عاجلتهم الأصوات الآمرة:

– هيا.. هيا يافواله.. هيا ياتيس يازامل ياقواد.

قاموا قفزا وقد قدر لهذه العبارات أن تطن فى مسامعهم لأمد طويل..انطلقوا فى هرولة يهبطون قاع الوادى والرغبة تدفعهم فى أن ينتهى هذا الكابوس.. ضاق القاع شيئا فشيئا حتى أصبح ممرا ضيقا يركض عليه طابور طويل من المتسللين وطوال خمسة كيلو مترات ظل المسلحين يسوقونهم كالأنعام وهم يكيلون لهم أقبح العبارات.

من الاتجاة المعاكس لاح ملثما يجرى فى اتجاههم وهو يأمرهم بالجلوس القرفصاء وبالصمت، ومن لم يستجب، دفع به إلى الأرض عنوة.. دفع أحدهم المرأة العجوز فبكى الطفل، هز صراخه الفضاء وفى لحظة كان حولها مالا يقل عن عشرة منهم شاهرين سلاحهم فى وجهها:

– خرسيه يامره.. خرسيه يا قبحه يا شرموطه.. كان الطفل يلهث من الحمى، لم تجد سبيلا لإسكاته سوى كتم فمه بيدها.. كانت هناك ثمة دورية من حرس الحدود الليبية تتلكأ فى الأنحاء.. ظل أربعة منهم بجوارها وسناكى بنادقهم مغروسة فى رقبتها والخامس

ممسكا بخناقها لاويا عنقها للخلف، وعيونه النارية تتوعداها بالموت.. كادت سيدة أن تتبول من الرعب .. أمسكت نفسها بشدة تقاوم ضعف أعصابها.. وعندما طال انتظارها تسللت دون أن يراها أحد لتختفى خلف ربوة عالية، عندما رحلت الدورية خفف المسلحين من قبضتهم عليها ، فعادت تضم طفلها إلى صدرها ثانية.

شق العتمة والسكون صفيرطويل أعقبه عواء، وعندما عاد السكون ثانية أجاب الليل بصفير طويل أعقبة من نفس الجهة صوت ضربات قوية متسارعة، تزايد الصوت بشدة واقترب، وقلوب الجالسين ترتعد ويعلو وجيبها، واشتدت الضربات حتى بدا وكأن الأرض ستندك فى اللحظة القادمة. ومن جواره مباشرة شاهد عبد الله وقلبه يوشك على الانخلاع قافلة طويلة من الحمير تسير فى خطوات سريعة متعاقبة محملة بأحمال ثقيلة، صناديق خمور ومخدرات وأشياء أخرى كثيرة.

عندما نطق العجوز متسائلا: ايه ده؟ .. انغرز كعب أحد البنادق بين كتفيه، سقط البسيونى على الارض وهو يبكى صارخا فى هستريا: الحقونى.. الحقونى.. ح يموتونى ح يموتونى.. والله العظيم ح يموتونى..

لم يفهم أحد شيئا، إذ بينما كانوا يعاونون العجوز على القيام وتهدئة روعه. شوهدت سيدة قادمة من الجانب الذى أتت منه الحمير، شعثاء ، ثيابها فى فوضى ، وعلى وجهها وفى عينها ارتسمت نظرة من الفراغ، عندما اقترب نبيل منها يستفهم الأمر، ابتعدت عنهم وأسرعت تغذ السير مع السائرين. بدأ الممر يرتفع ويعود للاتساع حتى انبسط الوادى عن السهل، وبرزت الصحراء وامتدت مسافات شاسعة والرياح تطوى البيد طيا، تخفى تحت أجنحتها قافلة المهربين وبضائعهم السرية.

-٣-

فى خط طويل متعرج كثعبان يتلوى تاركا أثرا باهتا على الرمال، قادت الحمير القافلة فى طرق غير مطروقة عابرة بها الحدود من فرجة بالأسلاك الشائكة، وتحت سياط المسلحين ركضت القافلة على الإيقاع السريع لحوافر الحمير وهى تلهث بلا توقف باتجاه الأشباح الضخمة الجاثمة عند الأفق، وقد تخللت مياه المطر ملابسهم مختلطة بالعرق الغزير، تلامس برودتها الثلجية أجسادهم المشتعلة بنيران العدو السريع.. ثلاث ساعات من العدو المتواصل يتناوبون حمل الطفل المستغرق فى النوم، عندما بلغت القافلة سفح الجبل بدأت تهدىء من سيرها ويتحول الركض إلى خطو سريع محاولين صعود الجبال ثانية .. لاح قائد القافلة هابطا من أعلى الجبل وعلى وجهه علامات الجنون، يشير بهستريا إشارات غامضة صارخا بصوت واطىء:

- قعد يا فوال.. الليبية ح يكشوفونا.

اندفع المسلحين يلقون بالرجال والنساء أرضا وأضواء كشافات حرس الحدود الليبى تمشط باطن الجبل بحثا عن قوافل التهريب وهم يصروخون بهم:

- هيا يافوال.. هيا ياسلكاوى ياقحب.. عجل.. ارقد ياتيس..

مدت العجوز يدها هذه المرة من نفسها تكتم أنفاس طفلها.. كان باردا صامتا، شرد ذهنها لكن الخوف كبحه عن التفكير.

بعدما اختفت الأضواء، عادت القافلة إلى الصحراء تركض من جديد مبتعدة عن منطقة الحدود، متوغلة داخل الأرض الليبية، مستترة بغلائل الليل الكثيفة وقد بلغ التعب منهم كل مبلغ، كلت أقدامهم ووهنت بين الركض السريع، والسير الحثيث المتواصل، والكبوات المتلاحقة، فوق الدروب الصخرية الوعرة، وأديمها المجعد نو النتوءات الحادة، وأعشابها الشوكية الجافة.. الذين تمزقت أحذيتهم لقدمها ، والذين لم يتسن لهم سوى صندل من البلاستيك أنساهم الرعب والفزع المسيطر من التخلف التشققات الدامية وقطرات الدماء التى انسالت خلفهم على رمال الصحراء.. اللحظات القليلة التى كانوا يتوقعون فيها الراحة كانت الرياح والأمطار تحمل بردا ثلجيا ينخر عظامهم و تتصلب له مفاصلهم..

من داخل الصحراء برزت العيون التى تلمع فى الظلام لقطيع من أبناء آوى، سادت الهمهمات والفزع المستطير، لحظة وكان الجميع الآن يجرى تلهب ظهورهم سياط النخاسين، وقد أمسك نبيل والمبروك بالمرأة العجوز وحمل عبدالله الرضيع وقد تعلقت فاطمة بمعطفه تستمد منه القوة على الجرى، والشجاعة من الخوف الذى أمسك بتلابيبها على حين تأخر محمود وأبو رحاب لمساعدة الدسوقى الذى حلفهما بألا يتركاه، وإلا سوف يموت قطعا مشيرا إلى العواء الذى يطاردهم، متوعدا كل من تسول له نفسه بالتخلف، والجميع يفكر فى المصير المظلم الذى أوقعه فى أرض غريبة بين السفاحين من أولاد على والأنياب الفتاكة لأبناء آوى.

طلقات الرصاص التى دوت فى الفضاء وقف لها نبضهم طقطقت لها شعورهم.

همس عبدالله: كلاشنكوف روسى ياوله..!

استدار العجوز للخلف محاولا العودة هاتفا: ح يموتنا.. ح يموتنا.. ح يقتلونا..

جذبه محمود ونبيل يصرخ به معنفا:

– ولاد على بيضربوا النار ع اللى بيرجع.. قوم ياعم الدسوقى.. ايه الى جابك ، انت مش قد السفريه دى.. دلوقت هم يوصلوك بالسلامه وانت تروح تشترى المسجل والراديو وتغل دينارات..

عقب محمود بسخرية: الموت وانت راجع ومعاك الدينارات مش دلوقت.. عاد يهتف به صارخا: ما تتماوتش.. قوم ماحدش فاضى لك

قام يبكى وقدميه ترتعد لا تقوي على حمله

– عايز ارجع.. ارد لمصر تانى.. رجلى انكسرت.. والنبى ياعم ربنا يعطف عليك وعلى ولادك سبنى ارجع لولادى.. بنات.. ولايا.. مفيش حد غيرى يربيهم.. استطرد وهو ينقاد لهم.. الكبيره عندها خمستاشر سنه مارضيتش تسلم على وانا مسافر.. الوليه امهم عيطت وتقول.. قعدتك وسط البنات ستره.. انا عندى دكان جزماتى محترم.. بس ماعدش حد بيفصل كله دلوقت بيشترى مكن.. الزق وبيع، الشيطان وزّنى، ضحك بعقلى، قال لى سافر هات قرشين، اقلب الدكان حاجه توكل عيش.. يارتنى سمعت كلام الوليه.. اكل العيش يحب الخفيه.. بس انا مش فاهم.. هو احنا رايحين نحارب اسرائيل ولا رايحين جهنم.. دى بلاد

عرب مسلمين.. مال على نبيل يسأله:

– باين عليك ابن حلال، والنبى ماتسيبنى.. انت مربى ذقنك ليه..؟

سنى؟ .. هز نبيل راسه نفيا.. استطرد.. السنى برضه كويس بيعرف ربنا.. بس والنبى ماتسبنى هنا.. حبيبك النبى ياشيخ .. علشان العيال..

– مش ح سيبك ياعم دسوقى محدش منا ح يسيبك.. اطمن..

– اسمعنى يابنى عندى لك هديه.. انا اصلى حبيتك.. طول عمرك ح تدعى لى.. بنتى.. هو فيه اغلى من الولد معلهش زمانك بتقول دى راجل كبر وبيخرف.

– .. الواد ميت..!! همس عبدالله لنفسه، ولما لم يسمعه أحد توقف، وتوقفت خلفه فاطمه، جذب نبيل هامسا فى أذنه بصوت سمعته الفتاة:

– الواد ميت.!!

– واد مين..؟؟

– ابن الوليه اللى قدامك..

نظرت إلى الطفل مذعورة يكاد يغش عليها.. عقب محمود:

– عارف.. آني شايفه ساعة مارفعت ايدها عنه.

سأل نبيل: فين..؟

– واحنا مستخبيين من دورية الحدود الليبيه..

نظر إلى عبدالله هامسا: اسكت انت دلوقت..

كان عبدالله يرتعد، مد يديه بالطفل إلى نبيل لكنه هز كتفيه وتقدم إلى الرجل العجوز يساعده تاركا عبدالله خلفه يدمدم.

.. ست سنين فى الحرب.. لميت فى اشلاء الصحاب ما اهتز لى طرف ولا ارتعش م الخوف جفن كما اليوم.. الوليه قتلت ابنها.. دا يوم اسود من الحبر.. دا غم.. ايه اللى شرّد فينا زى الكلاب الضاله، منك لله ياعبد الرحيم ياخوى، منك لله يابوى.. آه.. يابن عبد الجليل الواد ميت من زمن واحنا بنجرى بيه مش حاسين بشىء، طب ليه؟؟

شعر بضغطة على ساعده.. كانت تجذبه.. أصابته دهشه وهو يسمعها تواسيه: معلهش نصيبه. كل واحد فينا بياخد نصيبه..

نظر إليها وعقله مصاب بالشلل وعاد ينظر إلى الأمام، زمنا طويلا مضى حتى تحرر ذهنه، لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يسألها:

– وايه اللى جبرك؟

شعر بالاضطراب الذى سببه لها .. لم يشعر بالذنب ، قالت :

– باشتغل مدرسه وانا رايحه للعمل. مقدرتش استنى الاعاره.

نظر إليها غير مصدق توقفت عن الحديث، تركت معطفه وعادت تختفى داخل استعلائها الخاص .. عندما توقفت القافلة طلبا للراحة قال نبيل: كدابه.. لايمكن لمتسلل الحصول على عقد للعمل فى الحكومه الليبيه، مفيش قدامها غير ان تعمل شرموطه.

انتحي بها جانبا: انت معاك عقد عمل؟

شعرت بالامتعاض ثانية.. لماذا يدس انفه .. : لأ .

قال صادقا: ترجعى احسن، مستعد ارجع معاك للسلوم ، اركبك القطر وارجع.

نظرت إليه فى غيظ وبلاهة وعيونها تقول له.. كم انت حمار.. بغل، فَهِم ماتود قوله.. عقب متراجعا: حرام تتبهدلى، انا خايف عليك.

كانت تود أن تصرخ فى وجهه.. إلى الجحيم أنت وخوفك المزعوم.. إلى الجحيم بالخوف الدنىء لجميع الرجال.. لقد ظل يردد فى أذنى سبع سنوات متواصلة: خايف يافاطمة أرجع يوم من الجبهة لا أجدك.. وأنا أعطيه كل مأأملك من مشاعرى، ثم جسدى عندما طلبه متحججا باستشهاده القادم والذى لم يحدث قط، حتى أزيح عنه خوفه الدنىء.. من ملامح الغضب استطاعت أن تتحكم فى أعصابها بصعوبة قائله:

- انا رايحه لخطيبى، هو مجهز لى العقد وكل حاجه.

خطيبها من؟؟ خطيبها من هذا الذى يترك عرضه لهذا الخطر، ثم كيف يسمح لفتاة بالسفر إلى رجل دون زواج، مستحيل، بالأمر شىء غامض، لو أنها قالت أخى.. زوجى.. توقفا كلية عن الحديث، وعندما انطلقوا للعدو ثانية أمسكت هذه المرة بمعطف محمود.

-٣-

طيلة ثمانى ساعات من العدو السريع فى الظلمة وتحت سيول المطر الغزير، صاعدين هابطين وهاد ووديان جبال البطنان، تركت القافلة مدينة مساعد خلفها وسلسلة من النجوع الصغيرة متوغلة باتجاه مدينة البردية، كان البرق يضىء السماء فلا يكشف إلا عن سحنات صلدة نبتت عليها شجيرات القفاز الداكنة، تبرق عيونها بالفظاظة وأسارير الغلظة والاحتقار، فجأة برزت أضواء السيارات، أصبحوا قريبين من الطريق الرئيسى فاندفعوا يرتمون فوق الأرض، ثم مالبثت أن اختفت لتعود من جديد لتظهر من علو شاهق، أضواء خافتة تمر وتنحنى على صدر الجبل وتختفى تاركة آثارها الباهتة فى العيون، ومشاعر عنيفة من الخوف والحنين والرغبة فى العودة إلى أمن الوطن، وتنوب وتنوى الأضواء ، وتعود وتبقى الظلمة الحالكة السواد من جديد، حل التعب بالجميع، الشكوى المتصاعدة قوبلت بالعنف والقسوة والضرب وبالرغم من المدقات الجبلية الوعرة، وسطح المسير الصخرى الشائك لم يسمح لهم بالوقوف للراحة إلا على مشارف مدينة قصير الجدى.

عندما جلسوا أخيرا، مدت المرأة العجوز يدها تأخذ طفلها ، هز عبدالله رأسه بعصبية: لا لا يا حاجة خليكى مستريحه.

جلست القرفصاء تبغى الراحة، وهلة ثم استدارت إليه تأخذ طفلها، دفعه إليها مكتئبا متجهما وعيونه تشع باللمعان: البقيه فى حياتك ياحاجه، انظريه من سكات، املى عينك منه علشان ندفنه على سنة الله ورسوله وبلاش صوات وزعيق وربنا يعوضك فيه..

لم يكمل، إذ خطفته منه وهى تصرخ به: الله يرحمه؟! ده عايش، مين قال انه مات، انا

سيباه حى.

فتحت على الطفل لفافته، رأت زرقة الموت الرهيب تزحف على جسده، أغلق عبدالله فمه وعينيه، صرخت تضمه وهي تبكى، جذبوه منها بصعوبة، جرت وراءهم تطلبه والخوف يملؤها أن يدفنوه حيا، فلما عجزت انحنت تولول وتعفر رأسها فى التراب .

من الذى تصاعد بكاؤه.. سيده، كانت فاطمة تبكى هى الأخرى وهي تضم المرأه المكلومة بين ساعديها، أما سيدة فبدأت تنهنه، عندما حفر عبدالله ونبيل والمبروك للطفل انطلقت تبكى بهستريا.

حاول المسلحين دفن الطفل عنوة بغرض التحرك، غمغم محمود، وعيونه الضيقه تضيق بالغضب والإصرار: ح نصلى عليه ياولد انت مش مسلم ولا ايه؟ بَعَدٌ شويه، تيمم ياولد .

فعل الخمسة ومعهم عشرة آخرين. صلوا على الطفل وبينما كانوا يهيلون عليه التراب ألقت سيدة بنفسها على الأرض بهستريا، تمرغ جسدها فى الرمال، تصارع أشباحا غير مرئية، التفوا حولها جميعا يهدؤون من روعها، لم يع أحد ماحدث.. أحد المسلحين تقدم منها، ذلك الرجل الذى خطفها منه محمود من قبل، يحاول هو الآخر تهدئتها وعلى وجهه ابتسامة صفراء لمنتصر، انثنت إلى الخلف تتشبث بقدمى محمود تحتمى به منه، وكأنها تهرب من الموت القابع حولها وهى تصرخ:

– ابعده، ابعدوه عنى، اخدوه، سرقوه، عرضى منى اخدوه..

تساؤلات أطلت من الخلف.

– سرقوها.. سرقوا ايه ولاد الكلاب؟ اخنوا منها ايه..؟

الصمت، تراجع الرجل للخلف مختفيا، لايحاول أن يخفى الاتساع المتزايد لابتسامته الصفراء.

– والنبى معاك ورقه وقلم.

كانت المرة الاولى التى تحدثت فيها فاطمة مع نبيل

أجابها مسرعا: ايوه.

– عنوانى اهوه.. أومأت بعصبية.. يمكن حد يسأل عليه..

مدت يدها تعطيهم العنوان وكأنها غريق يمد يده لطوق النجاه. كسر الظلام والاحاديث الهامسة هتاف بعض المهربين الجاف:

– هيا يافوال انت وهو، هيا ياسلاكه، قوم فز انت وهو.

عادت القافلة للسير تاركة وراءها رأس الجدى، زمنا قصيرا واختفت قافلة الحمير بأثقالها، كان صياح الديكه يأتى من النجوع القليلة المتناثرة. قبل بزوغ الشمس وقف كبيرهم على جواده مشيرا إلى الطريق الأسفلتى الرئيسى: هيا.. شنوا بيكم يا مصرية.. نشهد الله جبناء.. هيا.. عدوا غادى.. ساعة وتوصلوا فى طبرق.. وأشار باتجاه الشمال الغربى.. حاجى حدا ييجى يم الشرطه وإلا يردوكم غادى لمصر.

صاح الدسوقى: الله.. والعربات البيجو؟ الثمانين جنيه.؟!

من خلف اللثام تألقت عينا قائد الملثمين بالسخرية، ولولا الحذر لضحك نبيل وعبدالله ومحمود، جذبوه والملثم يشير ناحية الطريق:

– غادى(١٥) هناك علي الطريق.. هسة(١٦) شوية زمن وتلقى فيهم.

أشاح الدسوقى برأسه ساخطا: هسه.. هسه.. زهقنا من هسه بتاعتكم دى.

تجاهله الملثم ونادي علي فتي ضئيل الحجم ، وهو يشير إلي فاطمة – مصباح.. مصباح..

جاء الفتى على عجل استطرد: خليها معاك، ترى على منتظرها على رأس الطريق، اعطيها له وارجع طول. واستدار عائدا.

– باهى.. حاول الفتى وعلى وجهه ابتسامة بلهاء خطرة أن يقترب منها، صرخت فاطمة متراجعة إلى الخلف، ترتعد من الهلع، تحتمى بعبدالله..

تساءل نبيل: انت عايز منها ايه..؟

أجابه مستفزا: انا.. وايش اسوى بيها.. نوصلها.!

كان الملثمين قد اختفوا وتنفس المتسللين الصعداء، قال نبيل مقلدا بصوت عالٍ لهجتهم الفظة:

– باهى احنا معاك حد المكان اللى تبى توصلها فيه.

تطلعت إليهم وقد سقطت عنها أقنعة الاستعلاء لتحل محلها نظرات الذعر والاستنجاد.

سارت القافلة بانتظام لمدة قليلة، ثم ما لبثت أن تفرقت جماعات، قليل من استمر، أما البقية فقد ألقت بأجسادها من التعب فى شعاب الجبل.

على رأس الطريق وقفت إحدى سيارات "البيان فيو"، وبجوارها وقف فى قلق شديد شاب فارع الطول.. نادى بلكنة ليبية:

– مصباح.. مصباح..

التفتت الفتاة باتجاه الصوت من فورها.. بدا أنها تعرفه، لم يكن يراها، أشارت إليه وهى تتجه نحوه، همس عبدالله لنبيل بحديث قصير، ثم ألتفت نحو فاطمة يناديها، توقفت عن السير وعادت نحوه، تبادلا حديثا طويلا وهى تهز رأسها، بالموافقة وتنظر منخفضة الرأس إلى السيارة، فلما انتهى حيته بحرارة وأسرعت باتجاهه، كان الشاب يقف بانتظارها، تلقاها بترحاب وقبل أن تدلف إلى العربة حدثته وهى تشير باتجاههم، نادت بصوت عالٍ: سيده.. تعالى

عدت نحوها الفتاة وقبل أن تبلغها نزلت فاطمة من العربة عائدة باتجاههم، حيت كل واحد منهم وهى تشد على يديه بحراره ثم استدارت راحلة مع رفيقها الشاب، يتابعونها بأنظارهم.

عندما غابت السيارة عن الأنظارقال عبد الله: اهو تاخد سيده معها توصلها للمهندس المصرى اللى ح تشتغل عنده.

قاطعه محمود: انت صدقت يابا، دا شغل.

– دى اعطيتنى اسمه وعنوانه..

قال المبروك: احنا مالنا، ملك ومنظمه سيدك، ح نعمل ايه دلوقت؟

هتف الجميع: نقعد.. نريح شويه.

أشار نبيل حيث الفوهة الخرسانية لماسورة السيول الضخمة تعبر الطريق بمنخفض فى باطن الأرض بأسفل الوادى: هناك.

برزت أضواء سيارة عابرة على الطريق، اندفعوا جميعا فى ذعر نحو الماسورة يختبئون، عندما بلغوها كان التعب قد أنهكهم وهد قواهم واحدا خلف الآخر، عندما رأى محمود الدسوقى وعبدالله يتجولوا داخل النفق الخرسانى نادى عليهم:

- بَعَدٌ من عندك ياولد، ترى ماتعرف ان كان حداك متاوى ديابه ولا ضباع هربانه م المطر..

تراجع العجوز وتباطأ عبدالله لوهلة ثم عاد متحاشيا المتاعب وخاصة الآن حيث يلزم النوم، جلس جوارهم القرفصاء، لايدرى كيف ومتى نام.

* * * *

استيقظ عبدالله على المياه الغزيرة المندفعة، قادمة من قمم الجبال والهضاب العليا وقد ارتفعت لأكثر من مترين، وجد نفسه يعوم على مخاضة منها وقد تبللت ملابسه وبلغت المياه وبرودتها عظامه، كانت الشمس فى الربع الأخير من السماء ملبدة بالغيوم تقبض أشعتها ببخل وكسل، وقد كف المطر وكأنه يجهز نفسه لجولة أخرى من حربه الشرسة التى أعلنها ضد المتسللين.

ثمة شىء كان يرتطم بالجدار ضاع مع صوت المياه المندفعة فى غزاره، حاول القيام يريد نفض المياه عن نفسه وعن ملابسه..! كان جسده منهوك القوى، مدمرا متصلبا من قسوة البرد، والألم ينبح من كل قطعة فيه، ساقيه، فخذيه والأيسر على الأخص وكعب قدمه وأصابعه، لم يكن ثمة شىء سليم، لعن المبروك وحظه وقدره وكل من أشار عليه بهذه الرحلة السوداء، وهو يفكر أنه يتعين عليه إيقاظهم جميعا، مد يده يستند علي شىء يساعده على النهوض، فارتطمت بشىء طرى ثقيل يحتك به بشدة، توجس خيفة، استدار ينظر خلفه، أصابته رعدة وقف لها شعر رأسه، كانت يده تستند إلى ساق منتفخة أسود جلدها مثل كلب نافق، واسفله برز حذاء بيادة ممزق من حول قدم شديدة التورم، خطف بصره الألوان العديدة لذيول الجلاليب والمعاطف السوداء المهترئة، والبناطيل الرثة القديمة الممزقة ، حاول

النهوض لكنه تعثر، ارتكز بيده على شيء رطب آخر، فاحت على الفور رائحة الموت، صرخ من الرعب والوجه الازرق المنتفخ يطل عليه مثل بالونة تشوهت ملامحها وعيونه الغائره تحدق نحو الفراغ، كانت كف يده مرتكزة على فم الرجل الذى امتلأ بالأعشاب والأتربة السوداء المنسالة من جانب الفم، ارتعشت ركبتاه واصطكتا، وخارت قدماه، والجثة الاولى تتحرك قليلا لتعود لتصطدم بالجدار الخرسانى، نهض وهو يصرخ:

- قوم ياوله، قوم انت وهو، فز يا ابن المفحور، ح نموت هنا ياولاد الكلاب، جثث ميتين، جثث ميتة ياوله.

استيقظوا واحدا بعد الآخر، وأمامهم كانت تسبح سبع جثث من المتسللين المصريين الذين جرفتهم سيول الأمس بينما كانوا عائدين، تسد مدخل مخر السيل، والمياه تعبرهم إلى الجانب الآخر من الطريق .

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

الفصل السادس

-١-

منذ الصباح اصطفت سرايا الدفاع الجوى فى ساحة مركز تدريب إنشاص، ينتابهم القلق والزمن يمضى بطيئا متلكئا، يترقبون الساعات القليلة القادمة، تدق أسماعهم الأصوات المكتومة الآتية من بعيد لانفجار القنابل الناجمة عن قصف الطيران الاسرئيلى للخطوط الخلفية لجبهة قناة السويس، وعلى الطريق الخارجى لساحة المعسكر، وباتجاه الإسماعيلية، تجمع قول الحملة من الچيب وشاحنات الجنود السوفييتية الصنع وعربات الزل فى طابور طويل، محملة بمهمات الجنود وصناديق الذخيرة، وقد استقر حولها سائقوها يتحركون فى عجلة وسرعة ونشاط، يتممون على إحكام رباط مدافع اللواء، ومحطات الرادار المحملة على الشاسيهات بمؤخرات سيارات الكراز الضخمة.

فى الساعة الثانية عشرة ظهرا، كان قد مر على وقوفهم هذا ست ساعات متواصلة، وقد بلغ بهم التعب مبلغه، ينهش صدورهم قلق الانتظار، أى مشقة كان عليهم أن يتحملوها، يلقى بهم فى أرض الطوابير التى لا تنتهى.. سؤال ميت يطرق عقولهم يعجز عن إدراك المغزى العميق لنسيان القادة لهم وإهمالهم لوجودهم، سواء أكان هذا ناجما عن إهمال متعمد أم حرصا على أن يكونوا على أعلى درجات التحمل والصبر.

فى منتصف الساحة بقى فى طابور الذنب الجنود الذين قدموا متأخرين عن ميعاد أوبتهم من الإجازات يركضون بالخطوة السريعة، حاملين المخالى على ظهورهم، وصيحات صف الضباط تشق الفضاء.

- جاى متأخر ياخول انت وهو، فاكر نفسك بترعى فى غيط امك، ولا رايح تجيب الغدا للمحروسه، بالخطوه السريعه، للخلف در، المخله اعلى الذراعين، بالخطوه السريعه للامام سر، يلا، يلا ياعسكرى نشف دراعك، واذا ما نشفش ح نشف دمك. للخلف در، للخلف در، للخلف در، انا ح اوريكم ياولاد الكلاب، علشان كل واحد ييجى فى ميعاد انتهاء اجازته، لازم تفهم ياروح امك انت وهو انك سيبت الملكيه، اجرى يادفعه.. ها..! مين مش عاجبه

الاهانه، علشان ادخله السجن. ؟ ها.. كان المساعد أول فرحات يصرخ فيهم بعنف يستفزهم:

– مين الراجل فيكم، يانسوان لابسه طرح، الراجل اشوفه علشان احطه فى السجن، فيه مصنع هناك بيحول الرجاله نسوان، مش عمليات جراحيه يامحمد ياحسن، لأ فيه مسجون هناك (.....) قد كده.. وأشار على طول ذراعه.. كل واحد يفهم ان الاوامر اوامر، واحنا بنتعلم الضبط والربط هنا علشان ماترحش تموت هناك على الجبهه، عايزينك ترجع لامك ياروح امك، وشك للامام والمخله على ظهرك وسلاحك قدامك، للامام زحف، ازحف ياعسكرى، ازحف ياحبيبى، وطى راسك يا روح ماما، راسك ماترفعش عن وش الارض، علشان ما تكونش هدف سهل للرصاص، ازحف يا عبدالله، شايف عنابر النوم اللى هناك، ازحف، بتعيط يا عسكرى يامره

مسح الجندى إبراهيم حسنين الدموع من عينيه مما أثار المساعد، هاجمه ودفعه بعيدا.

– بتعيط يا خول، ايه اللى جابك متأخر..؟

عاد للبكاء ثانية: ماكانش معاى فلوس.

– ده انت بتركب نص اجره.

– وحياة ربنا المعبود انا جاى نص الطريق ماشى.

– ليه ياعسكرى يانص؟

– ابوى طلق امى، واخواتى سايبهم من غير فلوس يا افندم ..

أجابه بصوت قبيح: وانت بقى ح تحارب ازاى، ما تنشف يا عسكرى يامره دموعك.. اللى فى البيت تنساه انت مترحل على خط النار، يلا اجرى، ما زوغتش ليه.

– الكمسارى مسكنى للشرطة العسكريه .. لكن هربت.

– اوعى اشوفك بتعيط، الجيش مصنع الرجال، مفيش مكان لمره .

– تمام يا افندم..

تابع عبدالله مايجرى لإبراهيم، نظر إلى حيث العنابر هتف:

– نهار اسود من الحبر، دى على بعد كيلو متر.

كانت العنابر تقع فى جهنم الآن، شعر بأن جسده لن يمكنه من الصمود، لم يكن قد نام طيلة أمس، حتى جسدها لم يكن قادرا على تذكر ملامحه، أوشك على أن ينهار ولكنه ظل يقاوم، وببطء شديد زحف متسائلا، إلى متى يمكن أن يصمد الجسد ومن أين يستطيع أن يأتى بكل هذه الطاقة.

كان قد وصل بعد أن أمضى إجازته الثالثة فى قريته، والتى حصل عليها والجنود التسعة الأوائل فى الرماية بالذخيرة الحية على الأهداف المتحركة بالتعاكس بالفرقة، كما فعل سابقا جاء متأخرا عن تمام العودة من الإجازة بعشر ساعات، لكن ثلاثة من ضباط صف الكتيبة تلقوه على حين غرة عند المدخل فى تجهم، أشار المساعد الضبع إلى أحد الأركان القصية خلف مبنى القيادة، عندما حاول التلكوء ، لكزه المساعد أول عبد المسيح فى كتفه: بالخطوه السريعة يادفعة.. حتى انت يا عبدالله دى انت مرشح اومباش.

– هو فيه ايه بس يا افندم.. قالها عبدالله بود..

صرخ فيه صف الضباط بسخط: يلا يا عسكرى هناك.. عندما دار حول المبنى فاجأه صوت الرقيب شحاته يأمره بسخرية وقرف:

– اقلع ياعسكرى يارقه.. باغتته المفاجأة، وقبل أن ينطق وجدهم جميعا عراة يقفون بملابسهم الداخلية والبرد ينخر عظامهم.

– دلوقت كل واحد فيكم ح يعرف معني التأخير، النوبه دى تكدير يادفعه انت وهو، اما النوبه الجايه وشرف امى محاكمه عسكريه، شغل المدنيه انساه، احنا فى الجيش، حلو الكلام.. همهم البعض.. لكنه عاجلهم صارخا وصوته يزعق فى أرجاء المعسكر.. وما اسمعش ولا كلمه.. صمت الجميع وكلما مر بهم صول او ضابط هز رأسه متوعدا:

– تلت المعسكر متأخر..! طب ياكلاب..

عندما أصبح الجو دافئا صرخ فيهم المساعد فرحات: أنصراف لمدة نص ساعه ، تروح تحمل مخلتك ، وتلبس ستره كامله ، وتجمع فى أرض الطابور.

صاح إبراهيم من الخلف: ليه يافندم ..؟

– علشان نكمل طابور الذنب يا روح امك، انت بقى طابور لوحدك، وحياة امي تكدير مخصوص.

بعد نصف ساعه بدأ طابور الذنب، عاد المساعد فرحات ينادى:

– للامام جرى.. المخله اعلى الذراعين.. للخلف در يمين در.. شمال در.. للخلف در.. تمرين نمره ٩.. نمره ٦.. للامام جرى.. للامام زحف..

والمخالى علي ظهورهم زحفوا كما لم يزحفوا من قبل، جلسوا القرفصاء ووقفوا وكرروا الجلوس والوقوف عشرات المرات، والمخالي على اكتافهم او حاملين لها اعلى سواعدهم، فى الساعه الواحده ظهرا بدأ الجنود فى التساقط بعضهم مغشى عليه، وهم يلهثون بعنف وقد بلغ الإجهاد بهم مبلغا شديدا، لكن أحدا لم يأبه لهم.. قبل أن يقرر عبدالله السقوط نادى عليه الملازم أول احتياط محسن عبد القادر:

– تعال يا عبدالله.. قام إليه جريا..

– خذ تسع عساكر وروح هات الاكل..

نظر إليه بامتنان فضحك : اجرى قبل ما فرحات ينادى عليك.

فى الثانيه ظهرا وكأنما تذكر أحد الضباط أن اللواء فى انتظار أوامر التحرك إلى الجبهة، وأن الكتائب يجب أن تكون جاهزه للرماية بالنيران ضد طائرات العدو قبل أول ضوء.. نودى على الصول عبد المسيح:

– اجمع العساكر ياحضرة الصول.

من طابور الذنب شُكل الفوج ٨٩ للكتيبة الثالثة ووزع بقية الجنود على السرايا الأخرى.. نادى عليهم الصول جميل عبدالمسيح وهم يقفون أمامه متهالكين فى إعياء..

- انتم بقى الفتوات بتوع الكتيبه.. القرنات.. العيال المدلعه بتاعة بابا وماما.. اللى مقطعين السمكه وديلها، وحياة امى لاكون حاطط سريتكم على شط القنال مباشرة، وأشار بيده لأعلى، اول حاجه يقابلها الطيران الاسرائيلى فى سكته، انا راح منى ثلاث كتائب، علشان كل واحد منكم ينام فى حضن امه لحد الفجر.

عندما جاء عبدالله هو والجنود بالطعام، وبدأ الجنود فى التململ، وبدا للصول أنه لن يستطيع كبحهم عن التدافع نحو أزنات الأرز الساخن وقبل أن يقرر صرفهم، سمع جنود اللواء قائد معسكر التدريب ينادى على العقيد عادل صبرى بصوت عال:

- يللا يا عقيد عادل صبري، نادى على اللواء بالاخلاء..

كان العقيد يقف على بعد خمسين مترا يحادث قاده سراياه، استدار إلى قائد المعسكر متجها نحوه..

- يا افندم اوامر التحرك لسه ماجتش.

- يا سيادة العقيد وجودكم هنا انتهى، اتفضل خد اللواء وغادر المعسكر.

رفع العقيد كلتى يديه وكأنه فى ورطة..

- ياسيادة العميد يعني اخرج باللواء في الشارع، اقعد بالعساكر تحت الشمس.

صاح به العميد غير راغب فى المناقشة:

- تقعدهم فى الشمس تقعدهم فى الضل.. انا كلامى واضح.

- ح اضطر اخليهم يخندقوا، احنا ح ندخل خط النار بعد ساعتين من التحرك، ولازم نجهز خلال خمس ساعات.. مقدرش اجهدهم دلوقت فى الحفر .

لم يكمل إذ أن قائد المعسكر صرخ فيه بعنف: انت ح تشرح لي حالتك النفسيه ولا ايه، كل الكلام ده ما يهمنيش يلا ياحضرة الضابط، خد عساكرك واخرج بره المعسكر.

أنزل العقيد يده مستسلما، نادى على رئيس عمليات اللواء المقدم غبريال لإتمام عمليات جمع الجنود وإخلائهم. لم يكن أحد من الفوج ٨٩ قد ازدرد شيئا من حفنه الأرز التى فى يده حين نودى على الكتيبة بالتجمع، جرى جنود الكتيبه هربا من التكدير، وصرخات صف الضابط تنادي عليهم بالتواجد فى ساحة أرض الطابور، قاوم عبدالله فوجه المتعب دافعا إياه نحو الطابور: يلا يا دفعه.. يلا يا واد أنت وهو على الطابور ، مش ناقصين تكدير تانى.

نودى عليهم بالتحرك خارج أرض المعسكر، وجنود السرية ينظرون إلى طعامهم فى حسرة، خلال نصف ساعة كان اللواء يعبر بوابة المعسكر، وقفوا بجوار ناقلات الجنود فى حيرة، صعدت بعض الأفواج إلى الناقلات فى فوضى وبقيت الأخرى على الأرض، أصدر

العقيد عادل أوامره بالتحرك ، تدافع البقية صاعدين الناقلات، خمسة كيلومترات ، ثم تهادت العربات ثانية على حافه الصحراء، وعاد الجنود ينزلون وقد صدرت لهم الأوامر بتغطية الناقلات وعربات المدفعية والمدافع والرادار بشبكات التمويه. ساعتين ونصف مضت قبل أن ينال جنود الفوج طعامهم، تدافعوا نحو الطعام فى جنون، الأرز البارد، وقطع اللحم بدهنها المتجمد، وسائل مخاطى من الكوسة المطبوخة التى تلاشت معالمها، البعض بأصابعه، والبعض صانعا من ورق علب السجائر المقوى ملاعق للطعام، وعلى الأرض تناثر من الطعام أضعاف ما أكلوه، ولما انتهوا منه استلقوا حول حوائجهم جائعين.

-العساكر جعانين يا أفندم.

ضحك الملازم أول محسن وقال لعبدالله: عارف.. تعال .

سار إلى مقدمة القول، وأمام الرائد هشام هز الملازم محسن رأسه، مشيرا إلى عبد الله بذكر شكواه: قول..!

قاطعهما الرائد هشام مشجعا: قول يا عبدالله.. عايز ايه..؟

أدى عبدالله التحية العسكرية واقفا فى انتباه:

- عساكر الفوج جعانه يا افندم.

كمن لدغه عقرب هتف الرائد هشام.

- جعانه.. اكلوهم.. هو فيه حد يجوع فى كتيبتى.

- لأ يافندم، دى سرية طابور الذنب مالحقتش تاكل.

- اصرف لهم اكل فورا.. واستدار ناحيه الملازم أول محسن

- اكلوهم.. اصرف لهم تعيين قتال يامحسن، تعيين بارد، معاهم سجائر ولا لأ..!؟.. ده احنا قدامنا ليله كرب.

بينما كان عبدالله يجهز التعيين نادى عليه الملازم مدحت عبد الجواد الصافى: بسرعه ياعبدالله اوامر التحرك جت.

انتقل الخبر كالهشيم، نودى عليهم بالانصراف ثانية، فتفرقوا فى تخاذل والضيق يخقنهم، بعد أن سرت بينهم الأنباء بأن المسير سوف يبدأ بعد غروب الشمس، لتأمين اللواء ضد الطيران المعادى.. قال عريف مؤهلات طارق صبرى بنبرة متعالية:

- طب ما الكتيبه عريانه، ايه يعنى اللى كان حاميها من الجو، واستطرد.. يعني ما احنا مرصودين دلوقت منهم، دول يا ابنى بيطلعوا طلعتين فى اليوم طيران على ارتفاع ٢٥ كيلو مترٌ، يمسح المنطقه من السويس لبورسعيد سرت أمواج القلق بالفوج قبل أن يستطرد ضاحكا بسخرية.. اوعى حد فيكم يكون فاكر ان احنا ح نسقط الطيران الاسرائيلى ولا ح نوقع طائرات الميراج زى العصافير..!

قال المبروك متسائلا: ليه.. امال ح نعمل ايه؟

أجاب مستفزا الجميع:

- احنا مهمتنا تطفيش الطيران الواطى فقط والاسترحام على نفوسنا.. علشان صواريخ سام ٢ تصطاده، وصواريخ سام ٢ عمرها ما اصطادت عصفوره مش حتى طياره ميستير..

كان تعاليه ونبرته تنم عن عالم ببواطن الأمور .. هذه المرة دفعه عبدالله بشدة فسقط جانبا وهو يقول ببرود: تسمح تسكت علشان ننام..

كانت المرة الأولى التى يتعرف كل منهم على الآخر.. هب طارق صارخا: ازاى تتجرأ وتزقنى يا عسكرى، انت عارف بتكلم مين.. ؟

- يعنى بكلم قائد الفرقه يا خى..

وتركه جانبا.. حاول طارق الاشتباك معه لكن احدا لم يمكنه.. تفرقوا بحثا عن دقائق للراحة ، وقد خفف فعل عبدالله من عبء حديث العريف عليهم.

ربض اللواء على الرمال نهبا للقلق، يتطلع أفراده إلى الاتجاه الذى تأتى منه أصوات الانفجارات خافتة، فينتابهم التوتر، وكلما مضى بهم الوقت أمضهم الانتظار فإلى هناك سوف يتحركون بعد قليل، وكلما عنّ لهم التفكير فى الساعات القليلة القادمة نفرت أعصابهم وأخذوا فى الدوران حول أنفسهم يتحركون فى الأرجاء حول الناقلات أو فوق الكثبان الرملية، تغوص أحذيتهم الثقيلة فى الرمال، ويدبون الأرض بأقدامهم كجياد تتأهب للركض تاركة آثار سوف تمحوها الرياح بعد قليل.

-٣-

تحت ظل إحدى الناقلات استلقى عبدالله متوجعا، فكر فى أنه سيذهب حيثما يأتون، ولم يلبث أن راح فى نوم عميق.. فى أول إجازه له بعد أن قضى خمسة وأربعين يوما متواصلة فى مركز التدريب فوجىء بهم فى داره، وجوه غريبة لنسوة وأطفال كانوا يتحركون بسهولة ويسر فى ساحة الدار، عندما جلس على المصطبة قيل له المهجرين، أتوا من السويس وبورسعيد والقرى القريبة من القنال، فبعد أن فرغت إسرائيل من الجيش فى ٦٧ أخذت تقصف مدن وقرى الجبهة بضراوة، لم يكن أحد يريد الهجرة من دياره، بعدما أصبح التعايش مع القصف اليومى للجبهة أمرا معتادا، لكنها الحكومه التى أصرت.

فى الأيام القليلة التى أمضاها بالقرية علم أن الأبنية الحكومية قد أخليت لهم، المدارس والوحدات الاجتماعية والطبية والبيطرية والمجلس القروى والدور القديمة الخالية من أصحابها ودوار العمدة القديم ومدابن أثرياء القرية والغرف الزائدة عن الحاجة والقيعان غير المطروقة، كان أغلبهم من النسوة والأطفال والفتيات الذين فى سن الشباب والشيوخ والعجزة وقليل من الرجال والشبان العاطلين، تكدسوا فى المنادر والقيعان الضيقة، عائلات بأكملها، وأسر كاملة تقاسمت الحجرات ببطانية أو ملاءة علقت على حبل لتفصل بين أجساد متلاحمة مع حاجياتهم، أما حوائجهم فكانوا يقضونها فى دورات المياه الحكومية المشتركة، يتقاسمونها فى مركز الشباب مع أعضائه من لاعبى كرة القدم والطائرة، وقوت يومهم يحصلون عليه من الإعانات الحكومية، خمسة قروش لكل طفل وخمسة عشر للشخص البالغ، وعدا الملابس والأقمشة الرخيصة المصنوعة من التيل والكستور الردىء، وقليل من جوالات

الدقيق وتعينات الشاى والسكر والزيت التى لا تكفى، وقرب تجمعاتهم انتشرت الغرز الصغيرة وظهرت المناضد والكراسى المصنوعة من خوص النخيل لأول مرة فى القرية، وقدم عليها الشاى والقهوة والجوزة لشرب الدخان والحشيش فى الخفاء ولعب الورق والنرد والقمار وزجاجات البيرة والعرق وكل موبقات المدن الساحلية، ومع الوقت رحل كل قادر على العمل منهم ولم يتبق سوى العاطلين والعجزة، وفى دور الفلاحين ذهبت النساء للعمل منذ الصباح الباكر فى أعمال الغسيل والطبخ وكنس الأرضيات الترابية وغسل القمح والذرة وحمل الحبوب لماكينات الطحين وغيرها من الأعمال اليومية الصغيرة، وفى نهاية اليوم يعودون بقليل من الطعام لأبنائهم وقروش وبعض الملابس القديمة الممزقة يسترن بها عوراتهم وعورات أبنائهم، ومع المواسم الزراعية خرجوا للعمل فى الحقول، تعثروا فى البداية فقد كان البعض من نساء المدن ، والبقية من قرى الصيد المتناثرة على القنال والبحر، وكان انتشار الفتيات منهم حاسرات الرؤوس كاشفات عن سيقانهم فى ثيابهم القصيرة مع ظهور الغرز، مثار استياء أهالى القرية، ثم مالبثت النساء أن ارتدوا الطرح والثياب السوداء الطويلة، محاكيات القرويات دون أن يتخلوا كلية عن الطبيعة الخاصة بنساء المدن والقرى الساحلية، طرحة على رداء ضيق أو إزار قروى أسود ترك مفتوحا يكشف عن مطلع النهود القوية.

حول أماكن إقامتهم ظهرت تجمعات واسعة من شباب القرية، يتطلعون نحو الفتيات والنسوة بنهم وصمت مشوب بحب استطلاع تحول مع البعض إلى قصص صغيرة، علاقات ومشاكسات لا تلبث أن تتحول مع حالات السكر إلى فضائح وحوادث شغب فيما بينهم، وتجارة للمخدرات والسوق السوداء لأنواع الشاى والسكر والزيت وغيرها من السلع التى شحت فى زمن الحرب.

فى دار أبيه، قطنت إحدى الأسر فى قاعة قديمة، فتح لهم بابها الذى يقع على الناحية القبلية، وبينما كان يتناول طعام العشاء مع إخوته وأمه، سمعت أصوات شجار عالية تأتى من القاعة، هنيهة وما لبث أن تحول إلى صراخ نسائى فقفزوا إلى هناك، كان الكهل يصرخ غاضبا والخمرة تفوح من فمه وهو يسب ويلعن كل شىء، بدأ من الإخصائية الاجتماعية والقرية وهؤلاء الفلاحين، حتى الحكومة والوطن والله ذاته.

– انا بناتى شراميط..؟؟ يحرق دين العالم.. انا ابيع اولادى، مفيش رب يحاسب الظلمه..اتشردنا من اراضينا واتظلمنا فى كل حته.. ما احنا كنا فى بلادنا لاقيين اللقمه الحلال.

رأى عبدالله طفلة صغيرة فى الثانية عشرة من عمرها تتقدم نحو العجوز، وثغرها يفتر عن ابتسامة مشرقة.

– هدى نفسك يابا.. هدى نفسك.. دول بيضحكوا معاك هو انت غريب عنهم، وأخذت تربت بكفها الصغير على ظهره.. وكأن العجوز قد استجاب لها فأخذ يلهث وهو يشهق بالبكاء.

– كل جاموسه بقره هنا ينظر لنا باحتقار زى مانكون جرب.. بنسرق عرقهم! ليه هو

احنا يا ناس مالناش بيوت واحسن من بيوتكم دى، دا الواحد مننا كان بينزل البحر يطلع لؤلؤ.. قالها وهو يهز يديه الاثنين معا.. لؤلؤ يا بقر مش جِله.. وقام خارجا وعلى باب الدار زعق بعلو صوته:

– ياعالم يا بهايم.. يا فلاحين.. وقاموا خلفه جريا الطفلة الصغيرة وأمها وأختها.. امرأة صغيرة فى الحادية والعشرين من عمرها، فى حين جلست فتاة فى الخامسه عشر بأحد أركان القاعة تبكى، متكومة على نفسها، كانت النساء تدفعه للدخول ويعتذرون فى قلق للحشد الذى تجمع من الدور المجاورة خوفا من أن يتحول تهور العجوز إلى اشتباك مع أهالى القرية، تبعه عبدالله وإبراهيم إلى الخارج، أخذوا يهدئون من روعه، وقع الكهل على الأرض والكحول يفوح من فمه، دفع الكهل بعبد الله جانبا – لم يكن يعرفه – موجها حديثه لابراهيم فى عصبية بالغة:احنا هنا عندكم من شهر، الباب و الجدار واحد ، حد سمع لنا صوت .

هز إبراهيم رأسه نفيا وأخذ يطيب خاطره:

– معلهش ياعم صديق اللى مايعرفك يجهلك.

– لا.. انا بقول باعلى صوتى، احنا اشرف من الشرف. استدار ناحية حفيدته : بنت ياعيشه انت تعرفى حد من الشبان دول؟

صرخت: انا يابا.. ابدا ورحمة ابوى. وأخذت تبكى بشدة.

– اعطيت حد منهم صورتك..

شهقت: انا..!! يا مصيبتى، يا فضيحتى، لطمت خديها واندفعت تبكى. لم تستطع الأم الصمت فأخذت تسب وتشتم من جرؤ على مس عرض ابنتها، وكان هذا ماينتظره الكهل فقد اندفع إلى ساحة الدار الداخلية وعاد ومعه فأس صغيرة وقف بها فى وسط الدرب يتحدى من يجرؤ على سبها.. لمح عبدالله للحضور بأن الرجل سكران ، اقترب منه ببطء يحاول تهدئته، كاد أن يصيبه لولا أن أخوه إبراهيم أمسك به من الخلف وبدون أذى أدخلاه إلى القاعة، وعندما علمت المرأتين بأن عبدالله أخ لإبراهيم.. كادوا أن ينوبوا خجلا، وأعلموا الكهل من فورهم، وفى حين لزمت المرأة الصغيره الصمت وجلست الأخرى على مبعدة، ظلت الأم تتأسف له طوال بقائه بينهم وتتأكد أنه لم يصب بأذى، وهى تصر على أن لا يغادرهم دون أن يتناول الشاى.

–٤–

فى الصباح أطلت عليه الطفلة الصغيرة خيرية بوجهها الأبيض المشوب بحمرة تقارب شعرها الكستنائى المسترسل طويلا خلف ظهرها، وثغرها الذى لا يتوقف عن الابتسام والضحك:

– صباح الخير يا سى عبدالله، ماتزعلش من جدى اصله تعبان وكلام الناس بيخوف، السلام عليكم ياسى عبد الرحيم، ازيك ياخاله زينب، انا طالعه السوق مش عايزه حاجه اجيبها معاى راح تجنى بكره ياسى عبدالرحيم.

- ايوه يا خيريه. ادعى لنا يا خيريه.
- انتم ياسى عبدالرحيم ناس طيبين وربنا يبارك لكم .
صاحت بها أمها: امش وبطلى رغى يا مفعوصه.
- انت غيرانه ليه.. والنبى ماحد زيهم فى البلد السلام عليكم..
رد لها الجميع السلام واستطرد عبدالله. ح تيجى بكره ياخيريه.؟
- فين يابا عبدالله.
- الغيط ياخيريه.
- انا طالعه مع عبد الرحيم الخولى، يارب يكون عندكم بكره
- لا يا خيريه، اللى ح ييجى بكره لنا الحاج عمر.
- دى حظ ايه الوحش ده، والنبى لغيب وآجى بكره اساعدكم.
ضحكوا.. قال لها مبتسما : ده احنا نتبارك .
ردت الأم والطفلة معا : الله يبارك فيك ياعم عبدالله.
وأضافت الصغيرة:ربنا يعلى مراتبك ويهديك ويهدى سرك، ثم ضحكت مستطردة.. ويسعدك ببنت الحلال اللى تهنيك، قرش يا امه اجيب حلاوه.
استنكفت المرأة ألا تفعل فألقت فى يدها فى الخفاء بنصف قرش، صاحت بها: هو فيه حد النهارده بيبيع حاجه بتعريفه يا مه.
كزت الأم أسنانها وهى تزجرها: يعنى هو انت بتاكليها ياحسره، دى انت بتوزعيها على كل من يقابلك..
أجابت الطفلة العنيدة: خير يامه خير.

* * * *

فى المساء وسط ضباب الحشيش ، أصر رضوان عبد الجليل وأحمد عبد الحليم وحسن مرعى، وهز بقية الجالسين رؤوسهم بالموافقة على أن كلهم عاهرات.. نساء المدن عاهرات، واستطرد حسن خليل كفَهِيم:
- وخاصة نساء السواحل.. قالها بإيماءه أنجز بها كل نقاش، وطول ثلاث عشر يوما هى أيام الإجازة، كمن عبدالله للمرأة الصغيرة يتابعها فى صبر وترقب، وأسقط عليها عينيه بنظرات صريحة واضحة تخترق كل جسدها، كانت تكبره بثلاث أعوام ،ناضجة ضامرة الجسد قمحية اللون، فى عيونها السود سكون البحر وعواصفه، جاء زوجها، بقى أسبوع أقامه معهم ثم رحل عائدا إلى القاهرة بحثا عن عمل، تجاهلته فى البداية، تروح وتجىء فى أنحاء الدار، تهرب منه لكنه لاحقها بنظراته فى صبر دؤوب، وجال فى جسدها يتفحصه قطعة قطعة، لم تمض أيام حتى بدا عليها الاستسلام وتلاقت نظراتهم فى صمت، وكلما مضى بهما الوقت كان يشعر بعينيه تغوص فى عيونها، وكأنه يسقط فى بحر لاقاع له، وهى

تتلقاه أحيانا فى غضب وعصبية.. وهلة، ثم تعود ثانية لتستسلم لنظراته المكشوفة فى قلق. وكلما اقترب ميعاد انتهاء إجازته كان يلح عليها فى نظراته، بعد أن كان فى البدء عدائيا متكبرا واثقا أنه سوف ينال امرأة سهلة، صار ليله حلما يصرخ بالشوق والتعب والإرهاق، وتحولت نظراته إلى رجاء ووله وشوق بارح، مرة شعر بعيونها تبتسم له فامتلأ بالأمل الجميل، فى ظهيرة اليوم السابق لسفره أمسكت بخناقه هستريا أن ينالها، وحديث الأصدقاء الصريح والمتكرر عن سهولة الحصول على نساء السواحل يدق ذهنه طوال الوقت، وكأنها دعوة صريحة منهم بأن يفعل.

– مد ايدك تنولها.

هكذا قال له ابن عمه حسن.

قال فى استسلام ومودة كاشفا عن وجده: وزوجها..؟

انفجر الجميع بالضحك، عنفه رضوان:

– قوم يا ابن الكلب.. قوم.. انت رحت الجيش..!! قوم يانطع يا ابن النطع من هنا لاحسن(.....) يقف علينا.

–٥–

نادت عليها أمه تسألها:

– ان كنت رايحه تملى الزلعه، هاتى معاك البهايم وانت راجعه.

خرج وراءها يتابعها عبر دروب القرية من بعيد، بعد أن عبرت الكنيسة رأته فأصابها الخوف، عند الزريبة وجدته أمامها قال مضطربا وصوته يعانده: البقرة جوه مربوطة فى آخر الفحل(١٧).

دارت حول نفسها فى حيرة، ثم إستدارت مختفية وسط عيدان القطن، وهى لا تدرك إن كان مافعلته صوابا أم خطأ، أما هو فقد رأى دخولها الغيط موافقة صريحة منها فسار خلفها، شعرت بخشخشة فى عيدان القطن، لكنها لم تجرؤ أن تنظر وراءها، وبينما كانت تنحنى تفك البقرة من عقالها، شعرت به خلفها قامت جانبا، أمسك بها يضمها بعنف، دفعها إلى الجوالات الممتلئة بالقطن وهى تهتف به يتركها دون جدوى، كان فتيا عفيا وقد فار دمه الحار، لم يعد قادرا أن يسيطر على الشبق الذى التهبت به عروقه، ضغط عليها بجسده وسط جوالات القطن، كادت أن تختنق، دفعها إلى الخلف وهى تقاومه، ولكنه كان يندفع إليها بقوة ورائحته تغمرها تمزق خياشيمها وأخذت السخونة تنتشر فى أجزاء جسدها رويدا رويدا، كانت مهانة، وعندما عجزت عن المقاومة تجمدت تحته فى سكون، ضامة ملابسها حول جسدها مشيحة عنه برأسها، قبل أن يبلغ الذروة وحيدا، شعر ببكائها، لحظتها لم يستطع أن يتوقف إذ كان مندفعا كالسيل، وعندما أفاق من نشوته وانقلب، قامت تزحف على أربع وهىتبكى بحرارة، مدت يدها تبحث عن مقود البقرة كأعمى فقد شيئا ثم استقامت تسير نحو الجسر، تابعها مندهشا ثم مالبث أن حل الحزن و المرارة محل المتعة.

عندما استيقظ ، كان أحدهم يهزه بعنف:

- قوم.قوم اللواء ح يتحرك..

كان الظلام مخيما والجنود تجرى باتجاه الطابور حيث اصطفت السرايا والأفواج. أعطى التمام من قاده الأفواج إلى رئيس العمليات الذى تحرك باتجاه رئيس أركان اللواء، العقيد عادل صبرى، الذى تقدم للأمام مؤديا التحية لإعطاء تمام اللواء إلى قائده ، كان طويلا مستقيم القامة عريض المنكبين وجهه أبيض وشعر كثيف، نظر أمامه مستطلعا، ألفين من الجنود وصف الضباط والضباط وقفوا فى انتباه، وقد خيم الصمت عليهم، عندما تحدث كان صوته قويا هادئا تشوبه نبرة الجدية والثقة، وكلما تحدث إزداد الجنود تماسكا، يستلهمون الثقة من قائدهم:

- دلوقت كل واحد فيكم أنهى تدريباته الأولية، اكتسبتم اللياقة البدنية اللازمة، اتدربتم على الأسلحة الشخصية، اتدربتم على منظومة عمل سلاح الدفاع الجوى ومعنى المنظومة أن كل سرية، كل فوج، كل كتيبة من الكتائب تعتبر مع بقية السلاح ، فريق واحد يؤدى عملا كبيرا مهمته الدفاع عن منطقة من أرض الوطن المقدس، صمت قليلا ورنين حديثه يتوالى فى أسماعهم، استطرد وهو يؤكد على مخارج الألفاظ.. معنى منظومة. أن كل واحد فينا سواء جنود أو صف ضباط أو ضباط، أحب أقول إن كلنا سواسية دلوقت، كل واحد فينا بيقوم بعمل معين، العمل ده جزء من عمل كبير وكل ما أتقن كل واحد فينا عمله، كل ما نحصل على نتائج أفضل، أول هذه النتائج تأمين حياتك الشخصية ، ثم الدفاع عن حياة أخوانك فى الفوج والكتيبة، ثالثا وهو الهدف الأكبر: الدفاع عن الوطن ضد عدو لا يتوانى عن قتل الأطفال والنساء العزل، إسرائيل كيان بنى على اغتصاب حقوق الآخرين، كيان بنى على التوسع، ولا يستطيع أن يتوقف عن التوسع زى الجرثومة لا يقتلها ويوقف نموها إلا المقاومة، عايز أقول، النهاردة إحنا بندافع عن أرض الوطن، ارتفع صوته، مفيش مكان لعسكرى جبان، وهذا ستعرفوه جيدا على خط النار، الجبن والخوف أقصر طريق للموت، انتم دلوقت أنهيتم فترة التدريب، يمكن كان فيه ضغط عليكم شوية لكن دا كان فى المؤخرة، فى الجبهة لا مكان لإهانة جندى أو التصرف معاه بشكل غير لائق أو غير قانونى، أنا جنودى كرامتهم فى السماء، لأن كرامتهم من كرامة الوطن، لكن لازم يكون واضحا إن الضبط والربط وطاعة الأوامر العسكرية بدون نقاش أمر ليس فيه جدال، والجندى الذى لن يطيع الأوامر ستقرر عقوبته فى المحاكم العسكرية.. وأضاف بصوت واطىء لم تسمعه السرايا البعيدة، وان كل من يحاول الهرب ستكون عقوبته الضرب بالرصاص فورا، وسرايا البوليس الحربى عندها الأوامر بذلك.. واضح.. سرت الهمهمات بين الجنود للحظات ثم عاد الصمت ثانية.. المهمة الملقاة على عاتق اللواء تأمين أحد المناطق التى يستخدمها الطيران الإسرائيلى ممرا لاختراق الجبهة العسكرية إلى الجبهة المدينة، سنصل لمواقعنا الجديدة خلال ثلاث ساعات، وقبل أول ضوء لازم كل بطارية، كل فوج، كل كتيبة تكون قد أعطت

التمام بالاستعداد وجاهزة للتعامل المباشر مع العدو، التعليمات التفصيلية ح توصل لكم فى ميعادها. أما التعليمات العامة فهى بوضوح أولا.. لحظة ماأنهى كلامى وتعطى تعليمات التحرك، كل كتيبة فى خلال خمس دقائق تتحرك إلى الناقلات، مفيش ضوضاء، مفيش اضطراب، مفيش أضواء، أضواء السيارات الخارجية أو الداخلية ممنوعة، التدخين داخل السيارات فقط، ثانيا.. إحنا متجهين للشلوفه هذا موقع اللواء، هذا المكان يستخدمه الطيران الاسرائيلى ممر لاختراق الجبهة، فى الغالب مدخل القوة الضاربة لسلاح الطيران الإسرائيلى، ثالثا.. وعاد صوته للارتفاع.. لازم تكون البطاريات جاهزة للعمل الساعة الرابعة صباحا، لأن الطيران الإسرائيلى سيهاجمنا الساعة الخامسة.. سرت همهمات بين الجنود تعبر عن ضيق الوقت ثم ساد الصمت ثانية وعاد اللواء يصيح بأعلى صوته: كل جندى لازم يتعلم حاجة، لا يوجد شىء اسمه المستحيل، الجيش بيقول لك اتصرف، قدامك ست ساعات، بعدها لازم تكون كل البطاريات جاهزة، وفى انتظار الأوامر بإطلاق النيران..

أعطيت الأوامر بالتحرك وأخذ الجنود أماكنهم داخل الناقلات وبدلا من أن تسود الرغبة فى التلكؤ، وتأخير موعد وصولهم الجبهة، أمسكت بتلابيبهم رغبة عارمة بسرعة الوصول كسبا للوقت، ولتجهيز مواقعهم قبل شروق الشمس، وقد أمسك القلق والترقب بخناقهم، انتظارا لقدوم الصباح ومعه الجحيم..

تحركت القافلة العسكرية ببطء، والمطر ينهمر بشدة.. وقرب الكيلو ١٠١ من طريق القاهرة السويس، أوقفت الشرطة العسكرية الثلث الأخير من القافلة، وعندما نزل الرائد هشام من سيارته الچيب يسأل عن أسباب الوقوف.. طالبه الملازم أول من الشرطة العسكرية بأوامر التحرك.. صاح به : قدام مع قيادة الكتيبه.

– طب انتظر هنا.

– انتظر..!! أنا لازم اكون مجهز الكتيبه قبل اول ضوء.. لم يكمل كلامه إذ اقتربت سيارة جيب من التقاطع، نزل منها عقيد من الشرطة العسكرية ،هتف به والضجيج الهائل لمحركات الدبابات يداهمهما: خذ جانب الطريق بسرعة ، حتى يعبر لواء المدرعات الطريق..

استدار الرائد يلقى أوامره بالاصطفاف على جانب الطريق، لكن أحد السائقين نفذ صبره، فانحرف متقدما من منتصف القافلة على الطريق المعاكس، وخلفه تقدمت بقية الكتيبة ، أصابت الفوضى الطريق، نزل ضباط المدرعات يسبون ويلعنون غباء الدفاع الجوى، تعالى الصراخ ، والشرطة العسكرية تهدد بإحالة سائقى شاحنات الدفاع الجوى للمسائلة، لكن حجزهم يزيد الطين بلة ، إذا ما وقفت الشاحنات كالجثث فى عرض الطريق، كاد ضباط كتيبة الدفاع الجوى أن يشتبكوا مع ضباط المدرعات بالأيدى، والرائد هشام

يصرخ فى ضباط الشرطة العسكرية:

- افهم ياسيادة العقيد كل مهمات الكتيبه ، ومحطات الرادار، وحدات الربط، لازم تكون فى وضع التشغيل قبل الفجر، تاخدوا السائقين، الساعه السادسه صباحا ح تلاقى مهمات اللواء خرده محروقه بالنابالم.

على أقصى الجانب الأيسر للطريق لم يجد سائقو المدرعات بدا من التقدم فى الاتجاه المعاكس، وما إن تحركت جانبا حتى اندفعت الدبابات يسبقها هديرها يهز الأرض، ولم ينته مرور اللواء المدرع، حتى كانت البقية من الكتيبة قد تبعثرت ونصفها مغروز فى الأوحال.. بعد ساعة من العبث أشار عليه الملازم أول محسن بأن تتحرك جميع الناقلات الحرة الحركة من طراز كراز إلى الأمام، حيث تحل مدافع السحب ومحطات الرادار فى الأمام وتعود للمساعدة فى جر العربات المغروزة، نودى بالتقدم للأمام فتحرك ثلثا الكتيبة، حلت سلاسل الجر، وعادت الشاحنات مسرعة، وبدأت من فورها فى سحب العربات المنغرزة واحدة خلف أخرى يساعدها الجنود، فى الثانية صباحا دخلت بقية الكتيبة الشلوفة، وفى انتظارها وقف العقيد عادل صبرى والمقدم غبريال يشد كل منهما فى شعره غيظا، لم ينتظرا تفسيرا، بل نُودى على الضابط بسرعة توزيع السرايا على المواقع والبدء فورا فى عمليات التجهيز.

على مساحة واسعة تبلغ خمسة كيلو مترات مربعة وزعت الكتيبة، اتخذ الفوج ٨٨ موقعه على الجناح الأيمن للكتيبة بجوار التبة السحرية، جاء موقع الفوج ٨٩ فى الموقع التالى لها، كان المطر ينهمر بشدة، وطوال الليل كانت الأفواج تسابق الزمن من أجل الانتهاء من التجهيزات اللازمة، وعلى محيط دائرة نصف قطرها مائة متر، وزعت سرايا وحدات الدفاع الجوى والمسلحة بمدافع K C 19 الآلية من عيار ١٠٠ مم المضادة للطائرات السوفييتية الصنع ، التى تعمل على الحاسب والرادار، بمدى مؤثر خمسة عشر كيلو مترا. كان عبدالله ضمن طاقم تشغيلها البالغ عدده اثنى عشر فردا هم أفراد البطارية، وحولها تناثرت وحدات الحماية من المدفعية المساعدة من عيار ٧، ١٢، ١٤,٥مم، والأفراد المسلحين بالصواريخ المحمولة على الظهر من طراز سام ٧، والقادرة على التعامل مع الطيران النخفض. كانت مهمتها رفع الأهداف لأعلى٣ كم، وبعدها تقوم الصواريخ من طراز سام ٢ بالتعامل مع الطيران المرتفع، وفى المنتصف خندقت رئاسة الكتيبة.

الصيحات الغليظة والخلافات الحادة التى كانت تنشب بين الجنود حول المدافع وكيفية ضبط مواقعها، كانت تنتهى بإشارة من الملازم أول محسن عبد القادر وهو يدور مسرعا بين سرايا الفوج يحاول أن يطمئن... فى السرية الأولى نشب صراع بين عريف مؤهلات طارق صبرى وعسكرى عادة عبدالله عبد الجليل رزق ، كانا دائمى الخلاف حتى انتهى الأمر بأن

هدده عريف السرية طارق صبرى بالحبس.

كان المدفع موضوعا على انحدار شديد للجزء الأمامى من تبة الحماية وكان لابد من ضبط أفقيته، وإلا فإن دقة النيران ستنحرف حتى انتهى الأمر بأن هدده عريف السريه طارق صبرى بالحبس، كان المدفع موضوعا على انحدار شديد للجزء الأمامى من تبة الحماية وكان لابد من ضبط أفقيته، وإلا فإن دقة النيران ستنحرف بالميل الحادث، بإصرار شديد أمر عبدالله أفراد السرية بإعادة ضبط المدفع.

صرخ فيه العريف: انت ح تشغلنا على مزاجك ياقفل..!!

- لازم نضبط خط النار يا افندم يا محترم. المدفع مش مضبوط.

- ح تضبطه ازاى يافالح.

- نشوف أرض مستويه.. أشار إلى الخلف على بعد عشره أمتار.

صرخ العريف: عايز تموتنا، ساعتين يا ابن المجنونه لضبطه، لا.. ووجه حديثه لبقية الجنود باستمرار المدفع فى موقعه الحالى.

- دورنى مكتب.. قالها عبد الله بإصرار.

ربت العريف على كتفه باستخفاف:

- بعدين.. بعدين يا روح امك وح ادخلك السجن كمان..

دفعه عبدالله فى صدره وهو ينحنى يفك مرابض المدفع التى ترتكز عليها قائلا: مادام مش ح دورنى مكتب انا ح اضبط المدفع، يلا ياواد انت وهو، رجع المدفع لورا.

على الأرض المستوية جرى ضبط المدفع بسهولة هذه المرة، وبعد نصف الساعة كان المدفع ينتصب مستويا فى موقعه الجديد وقد انخفض منسوبه بتراجعه إلى الوراء، فانعدمت الرؤية المباشرة، وبينما انتشر الرضا فى صدور جنود السرية، جرى العريف يحل المرابض ثانية، وهو يضرب رأسه فى هستريا غاضبة صارخا بأعلى صوته:

- وح نشوف الاهداف ازاى يا روح امك؟.. يا ناصح.

وقف عبدالله فى طريقه ممسكا بخاصرته من الخلف، ملقيا به فى الوحل.. حدثه بقرف تشوبه نبرة احتقار:

- هو احنا بنشوف طائرات، احنا بنضرب على الرادار، حماية المنطقه اللى فوق المدفع مهمة المدافع المساعده، دلوقت لازم ندى تمام بالاستعداد للضرب ويكره بالليل نشوف مكان افضل.

لم يفهم أحد من الجنود شيئا، كل ما عقب به العريف هو سباب مقرون بالتهديد بالمحاكمة العسكرية: وحياة امى وامك لاكون محولك لمحاكمه عسكريه لعدم إطاعة الاوامر يابن الشرموطه، بس اصبر علىّ للصبح..نظر إليه فى غضب وهز رأسه دون اهتمام منهمكا فى اختبار عمليات التشغيل، حتى أشعه الشمس الأولى لم يعط أى فوج من اللواء تمام الاستعداد للضرب .

كانت الصيحات المتبادلة بين قادة الكتائب وقادة الأفواج، عبر أجهزة اللاسلكى تنبىء عن وجود عطل ما فى وصلات الربط، وعندما بلغت الساعة الخامسة نادى قائد اللواء على الكتائب بإعطاء تمامات تجهيز المواقع المساعدة، وطيلة خمس دقائق كانت البطاريات

الثمانية للفوج ٨٩ تعطى تمامها بالانتهاء من تجهيز المواقع، ماعدا البطارية الأولى التى لم تنته بعد من تحميل صناديق الذخيرة.. صرخ العريف طارق بهستريا: أخرتنا ياروح أمك علشان ضبط المدفع، أهو الطيران ح يهجم علينا، دلوقت أبقى خلى ضبط المدافع ينفعك لما تقف قدام المحكمة.. نظر إليه فى صمت وكأنه يقول له.. مش وقته الكلام، واستدار يجرى وخلفه بقية طاقم البطارية نحو صناديق الذخيرة، كانوا جميعا ينقلوها وكأن شياطين جهنم تطاردهم.

عندما جاء الملازم أول محسن عبد القادر يحثهم على الانتهاء من عملهم، اندفع نحوه العريف طارق شاكيا، واضعا مسئولية التأخير على عبدالله.. صمت الملازم لفترة ودار حول المدفع وعندما اطمئن لوضعه غمغم..

– خلاص كده كويس، مادام المدفع مضبوط خلاص، يلا يا رجاله شهلوا فى نقل الذخيره، ابعت لكم عساكر تساعدكم.

جاءته أجابتين فى نفس اللحظة.. فبينما قال العريف طارق:

ايوه يا افندم.. أجاب عبدالله: لا يا افندم احنا ح نخلص كما البرق، ونعطى سيادتكم تمام.. هز الملازم رأسه واستدار وهو يقول:

– بسرعه.. بسرعه يا رجاله، مافيش وقت.

عندما استدار الملازم وبصوت لم يسمعه سواهما، هتف طارق ببغض شديد ملوحا بأصبعه الأوسط: ح تعملى فيها بطل يا (....) امك، فتوه، شيل على دماغك، يا عين اهلك.

كانت الساعة قد أصبحت السادسة، عندما أعطت البطارية الأولى للفوج ٨٩ تمام انتهاء تجهيز الموقع، وفى قلق وترقب وجميعهم يتطلعون نحو السماء، انتظرت الكتيبة نتيجة السباق بين إصلاح كابلات الربط والرادار ووصول طائرات العدو المهاجمة، كان الجميع يدخن الآن، تنفسوا عبق الدخان على لحم بطونهم، لم يكونوا قد تناولوا أية أنواع الطعام منذ غروب شمس اليوم السابق، دارت عليهم سرايا التموين بطعام الإفطار فتناولوه فوق مدافعهم بين متمهل ومسرع وقلق، وعندما جاءت أباريق الشاى الساخن غمغم الجندى إبراهيم وهو يدق على بطنه منشرحا: دلوقت الواحد يموت مستريح..

رد المبروك: ايوه ياعم .. فطرت وشربت الشاى، وبتحبس بالدخان.

– فكرك الواحد محتاج ايه؟.. لقمه كويسه وينام شبعان..

صرخ عبد الله: قوم يا وله، الرادار اشتغل.

قفز الجميع نحو لوحة الأهداف، شاهدوا فوق شاشتها السوداء نقاطا صغيرة بين محاور التقاطع، والدوائر المحورة، سمعوا اصوات الضباط من قادة الأفواج تتصاعد عبر أجهزة اللاسلكي ثانية، علموا أن الرادار يلتقط أحد الأهداف الآن، وأن المقدم سمير السباعي لم يعطي التمام بتشغيل مرسل الكابل الرادار المحوري.

في الساعة السابعه والنصف بالضبط، وقف شعر رؤوس جنود الكتيبة، وجهاز الإنذار علي المدافع يطلق صفيرا متقطعا، منذرا بوجود معلومات عن أهداف معادية، كانوا يواجهون الحرب لأول مرة..

انطلق الكل يجري في فوضي واضطراب إلي مواقعهم علي المدافع، في أماكنهم وقف

الجالسين وجلس الواقفين، منتظرين طائرات الموت وقصفها الجهنمي، وقد شدت أعصابهم أوتاراً علي الحد القاطع لسيف انتظار الموت ..

علي لوحات المستقْبِل ظهرت الأهداف المعادية، ثوان طويلة مرت وقد ساد الصمت الكامل الكتيبة، من قاع الفضاء أخذ يتنامي الزيز الثقيل لصوت الطائرات المهاجمة، أرخي جندي مجند عادة جسده، منسابا علي مقعده بالمدفع، وأعصابه تشتد رويدا رويدا، ولحم جسده يلتصق بالحديد يتشرب مسامه، وهو يطابق طبة ضرب النار علي الهدف مرددا علي مسمع الجندي نبيل المنوط بالزناد .. اضرب .. اضرب .. اضرب يا وله .. اضرب يا وله ..

سمع العريف طارق صبري وصوت العقيد في أجهزة اللاسلكي ينادي علي وحدات الرادار صارخا:

– وصلت الكابل ..؟ رد علي يا ضابط يا خول ..؟

صرخ طارق بجنون: اوعي .. اوعي تعملها يا ابن الكلب ..

لكن عبد الله نظر الي العسكري مجند نبيل، وعيونه تتنطق بالشرر.. قال بصوت خافت، وعيونه تقفز بينه وبين شاشة المستقبل:

– اضرب .. اضرب .. اضرب .. .. .. كان نبيل يفهمه الآن ، وكلما بلغت مسامعه كلمة اضرب خافتة، فهم أن إشارة الضرب الحقيقية لم تعطي بعد، جسده هو الآخر كان يتصلب، ويديه تقبض علي الزناد، تتصلب بعنف واستماته..

صوت العقيد عادل علي اللاسلكي:

– سرية الكهرباء.

– آيوه ياسيادة العقيد.

– الكابل وصل ؟

– حالا يا افندم.

– يا ولاد الكلاب، تلات ساعات تقولى لى حالا يا افندم.. عاد يصرخ، وقد بدا واضحا الاضطراب وفقدان الأعصاب فى صوته :

– اللواء ح يروح فى شربة ميه من غير ما يضرب طلقه واحده.

على أطراف الكتيبة انحنى عبدالله يصوب مدفعه، وقد التحمت مسام جسده مع صلبه البارد .. وعندما ارتفع أزير الفوج الأول من الطائرات المهاجمة صرخ بأعلى صوته ونبيل يجاوبه من فوره:

– يا ابن الكلب .. **يا ابن الكلب .. اضرااااااب ..**

فى غمضة عين كان الجو ينفجر بطلقات المدفع من عيار ١٠٠مم.. لحظات قصيرة كان بقية الجنود يتأكدون من حقيقة أن ثمة مدفعا من الوحدات بدأ بالفعل فى التعامل المباشر مع العدو.. بعدها كانت بطاريات الفوج٨٩ تعمل فى فضاء الموقع جميعها، وجميع مدافعها المساندة من طراز ٥ و١٤ و٧مم..

تابعت بقية الأفواج باندهاش بالغ طلقات مدفعية الفوج ٨٩، وهى تندفع إلى السماء ثم تنفجر على مسافة ألفى متر.. هلل جنود الفوج بطرب، كانت النيران تطلق فى المدى، وهم ملتزمون حرفيا بمهمتهم.. التطفيش.. وقف عريف طارق صبرى أعلى التبة، ينادى على فوجه بالتوقف دون جدوى وهو يصرخ فى عبدالله:

– دمرتنا يابن الكلب.. الكابل الألى ما اشتغلش، وانت كشفت البطاريه للطيران المعادى.. ح تكشف الكتيبه كلها.. دمرت الكتيبه واللواء كله .. انا ح اضرب عليك الرصاص..

لم يهتم به أحد.. ساد الصمت لفترة.. صرخ العقيد عادل صبرى:

– البطارية ٨٨ ما بتضربش نار ليه؟!..

أجاب المساعد أول أحمد فرحات قائد البطارية، يصيح بثقة بالغة، سببها شعوره خالى المسئولية: التوصيل الألى لم يتم يافندم.

– امال البطاريه ٨٩ بتشتغل ازاى ياحمار.. ؟

كان الملازم أحمد حسن فرحات عاجزا عن الإجابة.. ظهر صوت عريض يشوبه التوتر وكأنه يدخل مكانا محرما عليه:

– احنا شاغلين ماناوال يافندم.

جاءه صوت العقيد صارخا: شاغلين ايه..؟

عدل عبدالله من صوته المضطرب: احنا شاغلين مانويل يافندم.

– احنا .. انت مين..؟؟

أجاب عبدالله وقد شعر بأن آخرته قد دنت: عسكرى مجند عاده عبدالله محمد عبد الجليل رزق الفصيله الاولى الفوج ٨٩..

– فين الضابط اللى معاك..؟

– حضرة الضابط فى قيادة الفوج بيشغل الكابل المحورى يا افندم.

– ولا صف ضباط..؟

– لا يا افندم..

حاول العريف طارق أن يشكوه للعقيد مخليا مسئوليته، وبينما كان يحاول خطف جهاز اللاسلكى، سمع رئيس عمليات اللواء المقدم أشرف غبريال يصرخ فى قادة الكتائب:

– شغل مانيول.. يا حمار..

دخل اللواء الغمرى هذه مره على الاسلكى هادئا:

– طيب ياحضرة المساعد فرحات يا حمار ما تشغل مانيول .. يا ملازم احمد.

لم يكن هناك رد.. ساد صمت لفترة على أجهزة اللاسلكى، كانت الانفجارات المروعة تدوى فى الفضاء مخلفة وراءها الدخان المتصاعد واللهب .. عاد رئيس الأركان ينادى الفوج ٨٨ ثانية، لم يأته سوى الصمت، للحظة دخل أحد الأصوات على اللاسلكى ثانية:

– الفوج ٨٨. انضرب يافندم.

تنهد الرجل يتنفس غضبا: مين اللى بيتكلم؟

– عسكرى مجند عاده عبدالله محمد عبدالجليل رزق يا افندم..

ساد صمت قصير ثم جاء صوت اللواء الغمرى:
– طيب يارقيب عبدالله.. تقدر تشغل البطارية نصف آلى؟
ساد الصمت ..فعاود اللواء السؤال:
– تقدر يا عبد الله؟
لم يكن هناك بد من الإجابة، قال فى حيرة: ازاى يا افندم ؟
– هو الضابط محسن لسه مجاش؟
– لسه يا افندم .
– بتعرف انجليزى ..؟
لم يستطيع أن يجيب بالنفى، فكر كالبرق.. اعرف انجليزى ..!! آيوه .. اولى اعدادى و ثانيه اعدادى.. بقى لى سنين لم تره عينى .
– ايوه يا فندم .
قال اللواء بهدوء: عندك زر التشغيل عارفه ؟
– طبعا يا افندم ما انا مشغل مانويل يا افندم .
– زر التشغيل على الحرف M دلوقت .. صح .
– آيوه يا افندم .
– ارفع زر التشغيل عند الحرف HA.
– تمام يا افندم.. ح اضرب يا افندم ..
كانت الكتيبة كلها تتابع الحوار الدائر بين قائد اللواء الغمرى، والجندى عاده عبدالله محمد عبد الجليل رزق .. قبل أن يتدخل فى الحوار الدائر عبر أجهزة اللاسلكى أحد الضباط الجدد قائلا:
– دى مش حروف انجليزى يا افندم دي روسى.
هتف عبدالله : تمام يا افندم المدفع شغال نص آلى .
– تمام يا رقيب عبد الله .
– عسكرى مجند .
قاطعه قائد اللواء بصوت حاسم:
– تمام يا رقيب عبدالله ..
قطع الحوار صوت نقيب سرية الكهرباء وهو يصرخ:
– تمام يا سيادة اللواء .. تم توصيل كابل الرادار.
– يا عبد الله .؟
أجابه بثقه: تمام يا افندم شغال آلى يا افندم ..

كانت سماء الكتيبة قد تحولت إلى حقل من النار .. ارتفعت الطائرات المهاجمة لأعلى وقد باغتتها المفاجأة .. تابعها الجنود وهى تنحنى لأعلى تطاردها صواريخ سام من طراز ٢ .

الفصل السابع

-١-

الشمس تشرق مرتدية وشاح السحاب.. وجهها القلق يقشعر بلسعات البرد.. والرياح على سفح الأديم الصخرى خيول لاهثة غير عابئة بتلك الجراثيم التى تحث السير باتجاه طبرق.

بينما صعد الجميع، متناثرين، المسافة بين قاع الوادى والطريق الأسفلتى، اختفى متجهما داخل مجرى السيل.. نادى عليه أقرانه:

- اطلع يا وله.. اطلع يا عبد الله..

صرخ ابو رحاب وهو يستدير نازلا نحوه ، شاهده داخل النفق منحنيا يلملم الجثث الملقاة فى فوضى: رايح فين يا ابن المفحور.

نظر المبروك مبتسما فى إشفاق، بينما وقف نبيل مصعوقا وقد خطر له إنه يسرقهم .. أمطره الجميع بوابل من الأسئلة: بتعمل ايه..؟

- يا ابن المجنونه..! ايه جرى لعقلك..؟

- يلا وحياة ابوك، يلا نمشى من هنا..

- هو دا وقته يا عبدالله..؟

بابتسامة حزينه كان يجيبهم: يا جماعه الصبر.. هم دول مش لهم اهل ح ينفطر قلبهم عليهم، نعرف اسماءهم علشان نقول لاهاليهم. اعترض الجميع يريدون الرحيل من فورهم دون جدوى، إصرارهم تراجع أمام يديه، وهى تجمع بهمة وإصرار أشلاءهم المبعثرة وتعيد الهندام إلى جثثهم التى بعثرها السيل، لم يحتمل نبيل رؤيه يديه تتسلل بين الجسد والملابس، تخرج أوراقهم، تراجع للخلف يقىء القليل الذى فى جوفه، لم يقبل عبدالله قىء رفيق سلاحه، رفع نحوه رأسه، ونظر إليه رافعا يديه لأنفه يشمها بجلال غاضب.

- ريحتهم زى الورد، دول شهداء وعمر جثة الشهيد ما يصيبها العفن، فاكرين ايه، اللى يموت فى عمله شهيد، واللى يموت فى الطريق شهيد، خايف من ايه انت وهو.

استدار ناحية الجثث يجرها من القدمين يصفها على الأرض، تقدم المبروك يمد يد المساعدة وتبعه محمود وأبو رحاب، حملوا الجثث السبعة سويا لقطعة عالية من الأرض، ساعدهم نبيل وهم يغطونها بالمعاطف، فى حين وقف صانع الأحذية بعيدا، وإذا حدث واقترب أحد تراجع للخلف مبتعدا، أقاموا عليهم الصلاة، عندما انتهوا توقفوا لا يفهمون ما ينوى عمله، دار بعينيه فى الفضاء، ثم اتجه ناحيه كومة من الحجارة، قال موجها حديثه للمبروك: ندفنهم..

أحاط الجثث بالحجارة، تبعه الآخرون ، عندما انتهوا صعدوا للطريق، قال البسيونى يتملقه: والله ابن حلال، ثواب الميت التعجيل بدفنه، ودى جثث اتعفنت شوف لها قد ايه فى المية والعراء.

قاطعه باصرار ورأسه يغلى دون علة مفهومة، حتى أنه بدأ يعنف نفسه بشدة أمام رفاقه: والله ابدا عمر الشهيد جثته م تعفن، طيب انت شميت ريحته، هو نبيل ما نامش جنبهم طول الليل والنهار، لو كان فيه عفن، او كانت جثة كلب ميت كان حد فينا قدر يهوب تحت.

قاطعه نبيل ساخرا: ياعم انا نمت زى القتيل، لو كنت نمت فى قبر كنت نمت، الباقى عليك، وأضاف ساخرا: انت كنت نايم عليهم.. ابتسم الجميع.

- كفايه، لكل جثه قرين، روحهم حواليك تترجاك، تقول ادفنى.
- وحضرتك عملت فيها فنط ودفنتهم، يلا يا فالح..

لم يستطيعوا أن يكتموا ضحكهم الصاخب هذه المرة:

- كمان بتسخر منهم، دى زمان ارواحهم بتدعى لك علشان الحجرين اللى دفنتهم بيهم، حكم روح الشهيد تظل تحوم حول جثته لحد ماتندفن انا عارف..

صمت الجميع وانهمكوا فى سيرهم، تحسس فى جيبه بطاقاتهم وأوراقهم التى تحكي عن شخصياتهم .. حدث نفسه.. انا عارف.. جثة الشهيد عمر مايصيبها العفن، تشمها تلاقى ريحتها ورد، عطر، انا صفيتهم بنفسى ٢٤ شهيدا، جثث تركتها زى الفحم دانات الخمسائه رطل، وقصف النابالم، واعدهم اسم اسم ، وعمرى ما انسى اسم واحد فيهم.. سار، مبتعدا عنهم على جانب الطريق يردد فى غضب.. ابراهيم عبد الحليم.. فلاح من القليوبيه، محمد الخولى.. فلاح من المنوفيه، حسن محمد فرغلى.. فلاح من سمالوط، بانوب دانيال.. فلاح من اسيوط، عبد العزيز الجمل.. مدرس من قنا، علاء عبد العليم صديق.. منادى سيارات من الزيتون، رائد صدقى السيد راجل.. وليس كل الرجال رجالا.. حافظ اسامى الباقين..؟ طبعا.. عن ظهر قلب.....

.. غد السير يا ابن عبدالجليل، واتقدم للامام وارثى الصحاب اللى خطفهم الموت بدون اهتمام ولا تجله..

-٢-

غد السير يا ابن عبد الجليل.. اترك وراك الأسفلت والمدقات المطروقة.. اترك وراك سلامة المدن إلى مراعى الخطر والموت.. اخترق الرمال باتجاه الكتيبة.. كل شىء حولك يحترق.. الأسبوع التانى من يونيو عام ١٩٦٩، أول يوم ترجع فيه الجبهة بعد أجازة.. زئير الطائرات الإسرائيلية وصليات المدفعية المضادة للطائرات، وانفجارات القنابل تسرح فى كل مكان..

عجرود المحطة قبل النهائية لمدينة السويس، كان القصف مسموعا كأنه فوق رأسك.. على رصيف القطار قلت لإبراهيم: انزل يا وله..

طقطقت عيناه بخجل: انا يا عبدالله فاضل لى يوم مبيت فى الاجازة، ح اعدى على خالى فى السويس النهارده.

لوحت له بقرف والقطار يتحرك مبتعدا، لمحت ضحكته الباهتة الخبيثة على وجهه اللئيم صرخت عليه: روح نام فى حضن امك ياعسكرى يا عرس.. قفزت لمؤخرة إحدى ناقلات الجنود الواقفة خارج مبنى المحطة بانتظار العائدين من الإجازات ..قبل الكتيبة بعشرة كيلو مترات أصر السائق ألا يتحرك خطوة واحدة للأمام..

- طب وبعدين يا حضرة الصول..
- يا بنى الطريق مضروب بالقنابل، اللى عايز يرجع معاى يرجع..
- طب وكان على إيه المجى..!!

قفز جميع الجنود خارج الناقلة لم يرجع أحد.. دقائق، وانقسمت الكتلة الكاكى جماعات صغيرة، أخذ كل منها اتجاه وحدته، وحدى كنت بلا رفاق.. تعرف طريقك يا ابن عبد الجليل..؟ طبعا اعرفه.. على بعد خمسة كيلو مترات، اربع بيوت مهجورة متهدمة، لاتزال آثار قصفها علامة، تقف على مفترق الطرق، تاخذ المدق الترابى، تسير بلا توقف حتى تشاهد على مبعدة صفحة المياه الزرقاء لقناة السويس، على الضفة الشرقية ترى جنود ونساء الجيش الاسرائيلى على شاطىء القناة يرتعون دون رادع، وبلا اهتمام.. اسرع اذن يا عبد الجليل علك تصل للرفاق او علّك تصل الى حتفك الجميل.. حتفك الجميل..؟!.. الحتف الجميل ان تمزق بشظايا صاروخ جو ارض.. اوعاك تموت بقصف مدفعى، او دانة من دانات الهاون، او صلية لبندقيه آلية يحملها جندى مشاة.. حتفك الجميل عرس تقيمه لك طائرات الميراج والمستير.. مجموعة من الطيارين المدربين جيدا.. سرب يصعد من مكان ما خصيصا لاجلك.. لاجل قصفك.. انت وكتيبتك وسلاحك الوحيد المنوط بحماية القوات.. لما القوات الجوية عاجزة عن المواجهة.. ليه ينعم الطيارون بحياة مرفهة مبجلة، وانا فى الحضيض.. اسرع الخطى يا ابن عبد الجليل.. اسرع الخطى فالرفاق فى انتظارك.

قبل الكتيبة بثلاثة كيلو مترات. كان الدخان واللهب يتصاعد من كل مكان.. وقد ازدادت حدة القصف وكثافته وبدأت القنابل تنفجر على مسافات قصيرة ، يلاحقنى صفيرها.. اشعر بالقلق يأكل فى جنتى.. اجرى.. اقفز الى الحفر اللى تركها القصف.. اهتف ملوحا

بحقيبة الكتف الصغيرة.. اموت بقصف مدفعي! مستحيل، اما جوى وإلا فلا..

فاجأه صوت انفجار بالغ القوة، ثقل شديد يدفعك من الخلف للأمام.. لحظات ماقبل النهاية..؟ .. الاندفاع.. السقوط على الوجه.. لا ليس هو الموت.. إنما أحد الجنود رمى بكل ثقله عليك، دافعا إياك إلى حفرة من مخلفات القصف تبعد أمتارا قليلة عن منطقة انفجار إحدى دانات مدافع الهاوزر الثقيلة، استدار ينظر بدهشة إلى الانفجار الحاد والدخان المتصاعد منه...

صاح به الجندى: انت مجنون.. رايح فين.؟

أجاب مندهشا وهو ينظر موقع الانفجار: رايح الدفاع الجوى .

لم يسمعه جذبه بعنف: تعال اجرى ورای..

قفز يسبقه ناحية خنادق سرايا المهندسين.. زحفوا داخل الملاجىء، سأله الجندى: انت جاى منين يا دفعه؟

– السواق راسه والف سيف لازم يرجع، رمانا على راس الطريق على بعد ٧ كيلو متر.

ضحك سائله بسخرية: سواق انهزامى، كان لازم يوصلك لهنا.

لم يشتم عبد الله رائحة السخرية، صاح:

– اقوم لازم اوصل الكتيبه فورا.

سأله محدثه مندهشا: ليه وراك حاجه مهمه؟

– القصف فوق راس الكتيبه بالضبط .

ردد محدثه عبارته وهو يكاد يستلقى على قفاه من الضحك: القصف فوق راس الكتيبه بالضبط، وعايز تقوم تروح هناك، زعلان احسن يفوتك نصيبك منه، طب يا اخى ده ادعى انك تقعد.. واستطرد فى جدية مبقيا على ابتسامته: اقعد استريح ، دخن سيجاره وانا اعمل لك شاى.

أوقد نيران قطعة من السبرتو الجاف تحت كوز الشاى وهو يقول بسخرية: ايه يا دفعه عامل فيها عنتر، ماشى وسط القنابل ولا حد عاجبك، قيس بيستعرض سلاحه قدام خيمة الحبيبه، الاخ اسمه ايه؟

– عبدالله.

حدثة هذه المرة بجدية: مستغنى عن حياتك ولا لابس حجاب ضد الموت.. ثوان وكنت رحت فيها، مستعجل على الموت من اجل الوطن.

أجاب باستهتار: الموت ح يجى ولو مستخبى فى حجاب مستور..

عاد مضيفه للسخرية: ياسلام، ياأخى بلاش استهتار..

سأله عبدالله: اسم الكريم ايه .؟

– صلاح عقل.

– شكرا يا صلاح، والاخ منين؟

– من الباجور. .

انتبه عبدالله وتحدث مبتهجا: الباجور .. معقول ده احنا بلديات.

– ليه ياعبدالله ماكنت كويس، هو انت منوفى..؟

– منوفى وافتخر، ومن قلب المنوفيه، عصارة المنايفه.
– لازم منوف.
– تمام ياوحش، بلدنا جنبها.. انا من سدود.
– سدود!!.. طيب دى ياعبد الله معرفه زى الزفت، وضحك.. منوفى يا راجل، ياريت كنت سبتك تموت، نريح البلد من واحد منوفى.
– الله الله، ليه هو انت مش منوفى ولا ايه؟
– منوفى، منوفى ياحبيبى، وقال مقلدا اياه.. منوفى، وافتخر، بس على ايه مش عارف، فتح عبد الله عينيه المتألقتين واتسعت ابتسامته..
– انت بقى معصور من المنايفه.
أشار إلى داخل الخندق حيث جلس جندى ضئيل الجسم:
– اهو مكفر سيئاتنا، يعنى تعمل سيئات زى متحب تيجى على حسابه، من شبين الكوم.
قال واقفا: يعنى ياأخى ما انت راخر منوفى، ح يروح منك فين، وعلى العموم انا بعيد عنك تلاته كيلو، تدخل الكتيبه تسأل على رقيب عبدالله عبد الجليل رزق، الفوج ٨٩، الف من يدلك.
نظر إليه صلاح عقل وهو لايزال جالسا، باندهاش ضاحك: يا اخى كتيبه ايه، الكتيبه زمانها خلصت، اقعد، النهارده من تلات ايام والطيران الاسرائيلى والمدفعيه الثقيله شغالين قصف فوقها. مزعلين الطيران الاسرائيلى فى حاجه؟
لم يستجب للممازحة، سأل منزعجا: اللواء الثامن .. معقوله.!!
– بالتحديد قصف مباشر.
– ياه طيب يا اخى وسايبنى قاعد..
نظر إليه مستغلقا: لأ.. كنت اسيبك تموت.
– اشكرك بس السلام عليكم.
حاول أن يبقيه دون جدوى إذ أصر على الرحيل، لم يتوقف عن الجرى باتجاه الكتيبة ، فى هذه المرة قطع الثلاثة كيلو مترات الأخيرة عدوا ..
كانت الحرائق تشتعل فى كل مكان وقد غطى الدخان الكتيبة، والجنود مبعثرون على الأرض فى إجهاد وإعياء بالغين، وقد ارتسمت على وجوههم معالم الذهول.. ناداه صوت به رنة غامضة: عبدالله.. عبدالله..
نظر ناحية الصوت كان المساعد عبد الوهاب الضبع، لم ينطق بكلمة سوى اسمه ولم يفهم، استدار باتجاه مقر القيادة متوقعا كارثة، لم يكن الأمر يخص قدومه متأخرا عن تمامه بساعتين، من على بعد مائة متر لمحهم، كتلة رصاصية داكنة مالبثت أن اتضحت. خطوط عريضة اصطفت على مسافات متقاربة، جد السير ثم عاد يجرى، كانت الجثث التى قضي أمرها قد صفت بعناية وغطيت ببطاطين الجيش الداكنة.. مين اللى مات ومين بعده حى، احزن يابوزيد الموت كان هنا وفر.. كان لازم اكون معاهم.. صف طويل من الجثث.. عشرات الجرحى والمصابين.. اتمهل قبل ما تمد ايدك وترفع الغطاء تكشف عن الموت والدمار.

الجثة الاولى..

صرخ ضابط حديث برتبه نقيب: بتعمل ايه عندك ياعسكرى..

تراجع ينظر إليه برجاء.. نادى العقيد عادل صبرى على النقيب:

- اتركه يا سامح..

هز العقيد رأسه لعبدالله وقال بتعاطف: شوفهم يا عبدالله..

أشار للمساعد جميل عبد المسيح: يا جميل.. عبدالله ح يتعرف عليهم وسجل اللى ح يقوله لك، اتعرف عليهم يا عبدالله..

طبعا ح اتعرف عليهم.. كل واحد فيهم حته من جتتى.. كل واحد اكلت معاه عيش وملح.. كل واحد امه طبخت لنا جماعه.. كل واحد جه بلدنا.. كل واحد لحمه اتغرز فى صلب المدفع مكان لحم التانى.. كل واحد اتغطى ببطانيه رفيقه لما كان البرد اشد من الثلج، يدفى كل واحد فيهم بنفس الآخر، بصوته، بنفس السجاير، ينفخها فى كباية الشاى تلف علينا واحد واحد وتدور، بالغذاء اللى كنا نطبخه سوا.. كان حد يستجرى ياكل وحده.. اتعرف عليهم، ما انا عارفهم..

ابراهيم عبد الحليم .فلاح، جندى عاده بيشتغل بالمواسم عند اصحاب الاراضى، كفه وقدمه الخشنه دى الشقوق فيها عرض الصباع، لون شقوق الاراضى البور قبل ماتتروى، تدل عليه وبلا شك، وهو تالت الابناء لاب له من الاولاد ثمانيه، ولايحتكم على تلات قراريط، عمره ما فكر فى الزواج لأنه لايحتكم على مليم ولما يجوع كان يقتات على اللِبّان، ينمو شيطانى مع البرسيم.. وده الشحات محمد الخولى.. فلاح، وجندى عاده بيشتغل راخر نفر بالموسم عند اصحاب الاراضى باربعين كيلة قمح وتوب قماش يستره وخمسه جنيه يصرفها علي الدخان والمعسل، اما يوم الخميس يوم دبيح اللحم فى البلد كان عليه وعلى عياله غم، لأنه كان يمضى اليوم بدون طبق رز او حتى خبيزه شايطه.. عمره ما صرف قرش من فلوس الجيش، كان يحاصر نفسه مع الجوع فى زنزانة الزمن، وفى الاجازه ينزل على امه يعطيها الفلوس علشان تصرف على ثلاث بنات والولدين.. وده محمد فرغلى من سمالوط.. الثانى فى اخواته، لاب عنده تلات فدادين وبرغم انه خاطب بنت خاله وكان بيعزها كان يقول الموت فى الحرب اشرف من انى اموت ضحيه لتار قديم، وبرغم ان وجهه كله محروق ومش باين له ملامح إلا انى اعرفه من جسده المهاب ومن خاتم خطوبته.. آه.. خد ياحضرة المساعد عبد المسيح اسمها محفور عليه.. صابحه.. يا ويلها لما تعرف.. وده السيد رياض القط.. جندى مؤهلات متوسطه، منوفى ولايعمل، قبل الجيش كان عايش فى بحر من الحشيش، اللى كان بيكسبه من هنا كان يصرفه على الكيف، جسمه المنحول جلد على عظم وعروق يديه النافره، وقلبه المليان بالكراهيه لكل شىء، اخوه اللى سافر الكويت من غير ما يرسل ايه مساعده لابوه اللى متجوز اتنين على امه اللى ماتت وهو بعد فى اللفه.. وده عبدالعزيز الجمل.. آه.. اصرخ بعزم مافى وسعك..آهه.. يا عبدالله.. ابكى وشوف حته تسند عليها جسمك المنهار.. ازاى يا جميل الوجه يدمروا الجمال فى وجهك.. هذا الفم المفتوح، صمت اكيد على صرخة..آه.. وهذه العين المفرغه من الحياه، وهذه البشره المحروقَ باللهب، وجبهتك تلك التى طارت وسط الدمار، ومعاها شعرك الغزير.. اخ يا عبدالعزيز..

– هو انت تعرفه؟

صرخ عبدالله : ده عمره ما عبس فى وش حد ولا رفض لانسان طلب، لو فتحت قلبه دلوقت حتلاقيه لبن حليب.. انظر المنكب العريض، والسواعد المفتوله، والقامه الطويله، والقوه اللى تهد الجبل، وصبر الجمل، عمرها مافكرت فى اذية حد.. فين هى جبهته.. حتدفنوه من غير جبهته.. اسحب الغطا.. ايوه اشوفه انظره.. تقولى اعرفه.. ايوه اعرفه.. اكتب بمداد الدم.. ابراهيم حسن العطار.. جندى مؤهلات متوسطه وفلاح نفر مياومه، ساعات يشتغل على الجرار، ابوه مات صغير ولم يترك لهم هو وتلاته شئ، امه صارت ضريره واخواته رحلوا هنا وهناك، وكان غرضه انه يتجوز انسانه طيبه تخدم امه فى الدار.. راح ابنك يا ام ابراهيم، علّ معاش الحرب يعوضك.؟!

وهذا سالم شعبان محمد شعبان.. جندى عاده من قليوب البلد، اول ما فتح عينيه على الدنيا، كان لامه مكان معروف امام سور المدرسه، وابور وطاسه وحله تعمل فيها الفول والطعميه، اول شيء عملته، فتحت القاعه الوحيده بالدار اللى لها واجهة ع الشارع، عملت دكان صغير، لما صارت تجيب خير طمع فيها اخوها الكبير، اغتصبه منها، طردها، رجعت بعدها للمكان اللى فتح عينه عليها واقفه فيه، سور المدرسه، تبيع الفول وتقلى الطعميه لاولاد المدارس.. وهذا نبيل عبد السلام مرعى.. جندى مؤهلات متوسطه.. حريف كوره شراب، قامته القصيره جسده الضئيل، راسه اللى دايما راميها قدامه كانه يقيس بيها حجم الاشياء، والسؤال عن ايه تكون، اتربى فى الشوارع، لان الشقه التى تعيش بها اسرته لا تسع هذا العدد من البنات والبنين، عايشين فى حاره من حارات شبرا فى اول دور، شقه من حجرتين، والباب مفتوح يطل على الشارع ، ابوه الموظف الصغير فى دائرة محفوظات ، كان يرجع عايز ينام الظهر، مراته لاجل ماتريحه كانت ترمى العيال فى الشارع ماتسأل عليهم إلا فى ميعاد الاكل.. كان مشاغبا سواء مع الاشياء او مع البشر، لا تستطيع ان تعرف الفارق فى اختياره للاشياء، يكون طيب او شرير، حرامى.. محتال، محترف نصب او فاعل خير، لأنه كان فى اشتباك دايم مع الناس، وايده عمرها ما كانت ترتفع للقتال من غير مفك، كان يحل ويربط فى الاجهزه، لأنه كان فنى تليفزيونات يلقط رزقه من هنا وهناك، مره يصلح الحاجه احسن من اصحابها الاجانب، ومره يمسك سلك يقعد يوصل فى دايره الجهاز من الخلف، يحرق له عشرين مقاومه لحد م الجهاز ينطق وهو يضحك.

– الجهاز ده خمسمائة مقاومه لما تتحرق عشرين!! مش مهم هو يعنى الجحش صاحبه ودانه مضبوطه ع السمفونيات.. تلاقى محروق ٥٠٪ من مقاومتها.. اتكل وهات الفلوس.. وان ما معكش مش مهم.. فيه رب اهم.

وهذا حسن محمد عبدالرازق الشهير بمحمد الاقرع.. جندى عاده بلطجى، وحرامى محترف مهاجمة المنازل ليلا، وتخصصه هجام، لما تزنق معاه يتاجر فى الحشيش، علامات القتال على النواصى والحوارى السد.. اهه.. واضحه.. بشرته المحروقه بمية النار.. ضربة السكين بطول الخد وعلامات الجنازير، وفخد متشرط بمشرط حاد، وضربات شديده متواليه اخذها من صبيان تجار المخدرات فى الحافظيه لما حب يقاسمهم بيع الحشيش.. صلبوه على عمود نور وكتفوه بالسلاسل فى عز الظهر، ونزلوا فيه ضرب بالجنازير ولما لم يتب ربطوه

على عريش عربيه كارو وشرطو له رجله اليمين، تركوه حتى طلوع الصباح ورجله تنزف دم، قبل ما يقبض روحه ملاك الموت حملوه لمستشفى الساحل القريب، وقالوا انهم قرايب له ثم تركوه وتركوا معاه كيس بلاستيك قديم فيه كل خلجاته.. من ساعتها يقول:

– نسيت من اين يذهب الناس لشبرا.. سرحت فى ترماى العباسيه والسيده زينب والمطريه ابيع فلايات وامشاط ودبابيس، لما لقيت الهم مش عايز يفوتنى.. كانت بيوت العالم المسافره صيد ثمين.. لما حاول ينفش ريشه على الفوج اتصدى له العيال، واظهروا له حمار العين، هدوه بالسجن العسكرى ان مد ايده او سرق شىء، من ساعتها وفيه اتفاق معلن وواضح، يسرح بعيد عنا يلقط رزقه زى ما قال.. ياجماعه، الفوج ده بيتى ودارى وانتم اهلى واخواتى وانا مالى فى الدنيا اهل، هو فيه بنى آدم يسرق اهله، او يمد ايده على حاجه من حاجات بيته..

ياه سليمان الدبس.. كييف حشيش.. جندى مؤهلات متوسطه.. وعامل خراطه م المطريه بيشتغل فى شركة مصر للادويه.. مهرج كبير، واحيانا ممثل ولاعب كره، واحيانا يصيبه الجنون، يدور يلف يصرخ كطير مذبوح، يهوش فى الفضاء بخوف، وكأن عين خفيه تحدق فيه، احيانا يصيبه الاكتئاب، ولما يصفى تلاقى انسان وديع لا يؤذى نمله، طب ليه يا سليمان جرى ما جرى.. وليه يوم فى الارض ويوم فى السما..؟؟

– قدمت فى الكشف الطبى شهاده بإنى امضيت فى مستشفى المجانين شهرين.. قال لى عميد طبيب: ليه. ..؟؟ سيكوبتك ولا مصاب بعقده فرويد.. قلت له: فعلا انا عندى عقد كثيره، ولكن لما استفهمت منه ايه المقصود من عقده فرويد، قال ابن الحماره: حب الابن لامه..

قلت له: مين فى الدنيا م يحبش امه.. يعنى حضرتك مثلا بتكرهها!

ضحك اللئيم: طيب يا سليمان م انت عاقل اهو ويجح كمان.. يلا بلاش دلع.. غيره الله..!! طيب هو يعرف ايه عن حياتى؟؟.. انا تاسع ولد فى عيله عددها حداشر فرد، ما تجوزش فيها حد.. يعنى لما استنى فى الطابور، اتجوز بعد عشرين سنه، .. ابوى.. نجار ايده زى كف الجمل، لما حاول يعلمنى مهنته كان بيضربنى القلم يرمينى من الحيطه الشمال للحيطه اليمين، فى مره مانورتش الدكان بالليل، حدفنى بالشاكوش، عمل جرح قطعى وتربنه فى المخ، وبرغم ان صنعة ايديه تجيب دهب، فلوسه كانت تروح فى شرب الكحول وآكل الكباب و الكفته آخر الليل نشمها فقط، لكن لا تدخل جوف احد.. امى بعد ماكانت ترصنا زى السردين على السرير، اللى نايم مزنوق، واللى مدارى فى ركن تحته واللى صاحى يخوض فى لحم اللى نايم، كانت تقوم بالليل تشترى الكباب والكفته، ويقعدوا وحدهم فى ركن الصاله، يبلبع كل واحد نصف كيلو واحنا نايمين صاحيين، ناكل مع الملايكه ريحة اللحم المشوى، وبطونا خاويه على الخلاء واذا حد نطق صرخ فيه ابوى: فى الشارع يا ابن الكلب، انت زى الشحط اخرج اصرف على روحك، كفايه انى متاويك فى حته من البيت.

– .. الله طب جبتونا ليه.. مش كفايه الغم والحياه اللى اسوأ من الموت، والدكتور يقول لى عقدة فرويد، فرويد ايه ، فرويد لو نام ولحمه فى لحم اخته كان مخه وقف، لو شعر بانسان اخوه يحتك فيه كان عقله نشف، فرويد لو قعد سجين ريحة اللحم المشوى وبطنه على الطوى خمسه عشر عاما لازم يجن، صراخى ما حدش فاهمه، انا لما تيجى لىّ الحاله دماغى

توش بريحة الكباب، لحمه نيئه ابوى بعتنى بها لامى سوتها فى الفرن وخبتها عننا، آه ياولاد الكلاب يثرثروا فينا زى الشخاخ.. والله..!! ما انتم بالله كل واحد فيكم شخه هباب.. كل واحد فيكم شخه شختها امه، شوف البنى آدم بيعملها كام مره فى اليوم، اهى كانت ، بس بدل ما فى بيت الادب ، فى السرير، وتقوم وكلها قرف منها وكأننا براز، دمل جديد واتفقع، حد فيكم يقدر يقول لى ايه الفائده من حياه اسوأ من الموت والبراز، اسكتوا بقى وابعدوا عنى لحسن تعبت.. مين يعطينى حتة افيون امضغها تحت ضرس العقل.. اسكته، اخليه ينام، يغفل عن الالم لحسن لما بيفكر الدماغ بيسخن..

يمسك سليمان راسه بإيده ويسرح ويقول .. الظاهر انا ح تجيلى النوبه ولا ايه، شاى ثقيل يا عبدالله من بتاع بلدكم، قلت اسمها ايه؟ سدود؟! حد يعيش فى بلد اسمها سدود، هى ناقصه ماهى مسدوده من كل ناحيه .. الله يرحمك يا سليمان، طلبت الموت، اخدته..

.. ويلى.. اوع.. اوعوا يا ولاد الكلاب، وانت كمان يا علاء، احبس البكا فى القلب يا ابن عبد الجليل ، لا تجعله يتنفس فى الصدر ، مين ح يبكى الفتى الطيب، مين ح يبكى كتلة الفحم الساكنه الآن كنا جميعا نقول.. الطفل البرىء علاء عبد الرحيم صديق.. فى البدايه ظنناه مؤهلات.. وجهه الابيض المحمر مرسوم بابتسامة ملائكيه، الحاجبين التخان على جوز عيون واسعه تضم بحر من الصفاء، بؤبؤ شديد السواد، كل هذا يجزم لنا ان الفتى كبير العلام، وانه من ولاد ناس كبار، العريف طارق لما استقبله سلم له فى البدايه احسن مكان فى الفوج وبطانيتين جداد، لما عرف انه امى، لايعرف الفرق بين الالف من كوز الدره، وانه بيشتغل فى وكالات بيع وتأجير السيارات يغسل، ينادى، يعمل شاى قهوه، سحب منه كل هذا باحتقار، انظر، احشاء الجسد القوى الريعه طله خارج البطن المحترقه بشظليه فى حجم الكف.. كنا نقول عليه ماكينه ديزل كاتربلر، يشتغل طول النهار والليل للغير بدون مقابل، فقط انت قول يا علاء ارمى نفسك فى البحر من اجل خاطرى، يفعل وهو مبتسم، كثير ما كان بعد التعب الشديد من خدمة الغير يعتذر، لأنه ماقامش بالواجب كما يجب، لما عرف فيه الصولات والضباط الخصله دى ، استخدموه مرمطون .. ينادى عليه خمسه فى وقت واحد وما كان يقول لحد منهم لأ.. منقذه الوحيد كان الملازم اول محسن عبد القادر.. كان يقول له: ياعلاء.. م تسمعش كلام حد، واى حد يقول هات حاجه، قول له الملازم اول محسن قال لى ماتعملش حاجه لحد، سيبنى اتصرف..

مفيش فايده، لما يشوفه بيلف كعب داير على الصولات وحضرات الضباط يقول بغيظ: مش قلت لك يا علاء.

وكان هذا يزيد عليه الألم : معلش يا فندم اصل كذا وفلان عايز كذا، المره دى .. هم اصلهم .. بس انا.

حتى زملاء الخدمة تفننوا فى الهرب من تلبية طلبات القادة، وان حدث ففى تثاقل ، لأن علاء ما كنش يعرف كلمة لا، تحولت مطالب ضباط وضباط صف الكتيبه ، رغباتهم الغير محدوده على رقبته خيوط مشدوده، تظهر الحيره والأسف والاعتذار الكبير للغير على وجهه، كما يبان الانزعاج على وجه البراءه الجميل.. انا بضحك، شايفنى بابتسم، طبعا لأن ابوه اللى هاجر من عشرين سنه من اسيوط، اخده فى اول اجازه له سافر به غصب عنه وخطب

له بنت عمه التى لم يرها من قبل ولو مره، كان يقول: ابوى ح يخطب لى بنت عمى من اسيوط.

– حلوه !!

– م شفتهاش والمصيبه متعلمه، معها دبلوم تجاره، وانا ما عرفش افك الخط

كان الملازم أول محسن يقول: طيب ازاى يا علاء هو انت صغير!

– انا مش مقتنع لكن ابوى عايز كده.

تقولى بتضحك ليه، لأن هذا الذى يملك وجه الشمس، صار الآن مشوها فاغر الفاه، الرأس منحنيا على الكتف بشكل غريب، من غير الممكن ان يستقيم، يبدو ان الرقبه مكسوره، لأن لحم الذقن مصهور، خلف عظمة الترقوه، وان الوجه الجميل صار بلا فم بلا عينين بلا انف، والاذن واحده غير موجوده والثانيه ساقطه ناحية القفا، وان الحاجبين الثقيلين لم يبق منهما سوى جلد احمر وبقايا شواء، كل ده لحم اسود محروق ومتفحم، احمله هذا الطفل السعيد، اراهن بعمرى ان علاء لما طلب قابض الارواح روحه لم يعترض، ربما قدمها له عن طيب خاطر بشهامه، وابتسامه، وربما باعتذار عما تكلفه الموت من مجهود.

* * * *

.. امشى.. امشى يا ابن عبدالجليل، غد السير، عل طبرق صارت قريبه.. امشى وعد الخطاوى اليمين والشمال ولاتحس بالألم، لأن الموت الم عظيم، وانت لسه حى تجوب فى بلاد الله الوسيعه.. ضيقه عليك.. امشى ع الاسفلت.. جنب الخط الاصفر اللامع.. حاذر من الطريق احسن عرباته المسرعه تدهسك، تتركك على الطريق مثل حشره صادفها القدر، كلب عماه قوة الضوء، تظل مرمى ايام تدهسك السيارات المسرعه واحده خلف اخرى، سيارات من كل نوع، اجره، ملاكى، نقل، طيب ده ميت ، جثه ميته، احشاؤها طلت على الحياه، ودمها لون الاسفلت الداكن بالاحمر الخفيف، امش يا ابن عبد الجليل ولا يصيبك اليأس، ولا يعصرك الألم البارح فى كف القدم، يصعد الى عقلك كما صعد الألم لعقل سليمان الدبس.. امشى لعل طبرق صارت قريبه..

أول هجوم للطيران الاسرائيلى المباشر على الكتيبة كان بعد ما عسكرنا بأسبوع.. فى البداية كان يعدى فى مهمة من على الجبهة يزرع فيها الدمار والموت، نرصده، نتحرك الى المدافع فى نظام، لا أحد يعاكس حد، لا أحد يتقاعس عن واجبه، نشوفه جاى طيران منخفض نتعامل معاه، يرتفع تطارده صواريخ سام٢، لحظتها تغمرنا الحيرة والتردد، نشعر أننا قمنا بواجبنا، لكن الطيران الاسرائيلى كان يتعامل مع صواريخ سام٢ بسهولة، لأن هذا النوع مصمما للدفاع ضد الطائرات التى تحلق على ارتفاعات عالية، لا تقل عن ثلاثة الآف متر، قدرته على المناورة ضعيفة ، ولا يستكمل سرعته القصوى- وكانت ٢/٥ماخ- إلا على ارتفاع سبعة كيلو متر، إذا تفادى الطيار المدى الفعال للمدافع المضادة للطائرات وانقض على ارتفاع٣٦٠٠متر، ثم قام بمناورة حادة ضد الصاروخ حال رؤيته له افلت من الصاروخ بسهولة، نظرا لصعوبة قيام الصاروخ بمناورة مماثلة على هذا الارتفاع..

ما كنا ادركنا انه وضعنا فى حسابه بعد، بعدها بزمن تعودنا ان ننصت لصوت كل مدافع الكتيبة ال م.ط .. لأن خروج مدفع معناه حدوث ثغرة فى حائط الدفاع الكبير.. صحيح لم تسقط مدافعنا طائرات، ولكن كما كان يقول الملازم محسن، احنا جزء من منظومة كبيرة لمقاومة الطيران الاسرائيلى، لشل فاعليته، لحماية القوات المحيطة..

بعد اسبوع هوجمنا بشكل مباشر.. طائرتين من طراز ميراج٢.. رصدناهم على شاشة الرادار، دورة واسعة فى السماء ثم اختفوا، وفجأة ومن على ارتفاع شاهق ظهروا فى تشكيل انقضاض واحدة تتقدم الأخرى.. هوت الاولى وهى تدور فى حلقات حلزونية، وقرب الارض وبمواجهتنا مباشرة استقامت، وفى اقل من لمح البصر اطلقت صاروخين جو ارض باتجاهنا مباشرة، وقبل ان تدوى الانفجارت الرهيبة، قفز الجنود فى جميع الاتجاهات مثل حبات الفشار على قطعة من الجمر الساخن، اخر من رأيتهم ، حنفى بسطرمة، طارق صبرى، رحمى الوكيل، على بعد خمسة عشرة مترا جرى الثلاثة تاركين مدافعهم للفضاء المحيط، لم يبق من اسلحة البطارية سوى المدفع ال ١٠٠مم الذى اطلق صليات متتابعة باتجاه الطائرة التى عبرت فوق رؤوسنا مباشرة.. اذكر ضجيجها المدمر وطلقات مدفعها الفيكرز وانفجار الصواريخ ناشرة الدمار فى الفوج.

سبعة كنا نربض حوله.. نبيل يونس عطية، عبد العزيز الجمل، ماهر مسيحة، عباس العبد الشهير بعنتر، احمد عباس، محمود جابر الاسيوطي، اذكر انى صرخت فى عبد العزيز الجمل: المدفع ال١٤مم تعرف تشغله.؟

صاح وهو يدفعنى عن جهاز ربط طبة الهدف على الطلقات:

- روح انت .. انت اتدربت عليه..

- والمدفع..!!

دق جهاز إنذار المدفع بوجود معلومات.. دفعنى عبد العزيز بعنف وهو ياخد مكانى على طبة ضرب النار: روح.. المدفع بيشتغل آلى وصرخ فى ماهر مسيحة: اضبط الطلقات

وسيبها تعمر اوتوماتيك، عَمر يا واد يا محمود .

شديت نبيل: تعال..

فهم وقام وراى يعمر لى، قفزنا خارج عربة المدفع فى انتظار الهجوم الثانى، من بعيد ظهر الهدف، نقتطين فى السماء، بينما ارتفعت إحدى الطائرات عاليا، اتخذت الثانية مسارها باتجاه الكتيبة مباشرة تحصد ارواح الجنود بمدافعها الرشاشة، لم يفتح عبدالعزيز الجمل النار، قال لى فيما بعد: الاول لما هجم فاتح مدافعه الرشاشة قلت ! انا عرفت ديته.. ننتظر الثانى، هو اللى حيضرب بالصواريخ، وكانت الاولى قد عبرتنا ولم نكن قد انتهينا من تجهيز المدفع بعد، الآن ظهرت الأخرى، هوت من السماء وقبل الارض استقامت باتجاهنا، على مدى الرماية، شكل المدفعين ستار من النار حامى الوطيس، المفاجأة جعلت الطيار يرتفع مطلقا صواريخه القذرة بعيدا عن الفوج.

عندما ألقت الطائراتين بحمولتهم وانثنوا عائدين الى الشرق، انزاحت سحب الدخان الكثيفة مخلفة وراءها الحرائق تشتعل فى كل مكان بالموقع، فى الأرجاء تناثر الجنود على أرض الكتيبة وداخل الخنادق، نصفهم كان يدفس وجهه فى الرمال يدفعها بعنف وكأنه يحاول الاختباء من الموت والنصف الآخر منثور وسط الحرائق منكمش على نفسه من الذعر مثل الأجنة فى الرحم، كان من الجنون يضحك، وحده سليمان الدبس يصرخ فى هستريا.. يدق راسه فى جدران الخنادق، والجنود ينظرونه من بعيد.. شديته للخلف، عينه مولعة بحمار الدم.. نظر الىّ.. عرفنى، مسكنى وحالة من الرعب تتلبسه..

– .. عبد الله.. عبدالله.. طلعنى من هنا.. اليهود ح يموتنا..

حنفى بسطرمة المدد امامى الآن.. كان هناك.. ابوه الثرى يملك مصنع للبسطرمة، فى يده يبرق خاتم ذهب كبير، وساعة رادو يتباهى بها. يقول: انظر مستحيل يحصل لها خدش..

كان معاه فلوس كثير، لما يرجع من الاجازه حاملا لحما شهيا، يملا فضاء الخندق برائحة الشواء، لحظة ما ان تعوى بطون الجنود من الجوع يتجهم وجهه على الفور، يصبح شديد القسوه، غير مسموح لأحد من الجنود ان يحدثه الآن، ويخرج ويدخل معه صول التمام او المسئول عن الاجازات ويشرعون فى التهام اللحم دون اهتمام بأحد، حنفى بسطرمه المدد امامى الآن، كان هناك، لم يدخل الخنادق مع الجنود، جرى ناحية التبه المسحوره ، لم يستطيع الدخول فجلس يعوي بجانب الجدار، اذكر اننا طول بقائنا فى الكتيبه، وحتى استشهاده اليوم كنا نسأله: ايه اللى وداك ناحية دشمة السلاح يا ابن الغبى.؟

– ذكائى !!.. عقلى قال لى هناك يابسطرمه ياذكى التبه المسحوره مصنوعه من الخرسانه القويه، ما كنتش اعرف ان الدشمه مستهدفه بالقصف لأنها مخزن ذخيرة الكتيبه..

يرد محمود: مخك معفن من اكل البسطرمه يا ابن الجزار..

عندما تكرر الهجوم فى اليوم الثانى، وزعنا انفسنا على بطاريات الفوج، كل واحد منا مسئول عن مدفع، عندما بدأ القصف جرى خمسه، كانت الفكرة المسيطرة على العقول ، ان الهروب من جنب المدافع هو النجاه.. جرينا وراهم وهات ضرب بالشلوت والبونيات..

– قوم يا ابن الكلب يا جبان، قوم فيه مهرب من الموت، قوم دافع عن نفسك يا ابن المره، ونزلنا دورنا فى المعسكر ضرب، وربما بحكم العاده و تكرار القصف صار اللى يموت يموت على سلاحه، اما الثلاثة الاوائل عبد العزيز الجمل و ماهر شفيق مسيحة واحمد عباس العبد، فقد نالوا وسام القيام بأعمال بطوليه، اهم الثلاثة متمددين تحت غطاء الموت جنبا لجنب.. آه.. لا ياموت يا لعين .. ماهر شفيق، فارس بين الرجال.. نجار موبيليا من جزيرة بدران و حاصل على مؤهل فنى متوسط.. كان يحول الاشياء المشوشه من حوله الى شىء منظم مرتب، وتلك التى ماعدش فيها نفع لأشياء نافعه، ادوات للطعام وشرب الشاى والقهوه، ولعب السيجه والشطرنج، شماعات لتعليق الملابس ومجزمه ومطبخ تصف فيه الاوانى، موجوده به كل ماتشتهى النفس من مشهيات الطعام، راديو وخلافه، مره جاب معاه تليفزيون قديم خلى نبيل عطيه يصلحه، كان مسئول تموين الفوج غير الرسمى، تحول خندقه الى جزاره للكتيبه، ضباط كبار قصدوه، يصنع سراير لأطفالهم، حجرات نوم، مكتبه، انتريهات، جن مصور معجون بمية العفاريت، يحوش كل قرش يصنعه من عرق ايديه

– اليوم رحت انا وابوى للمعلم بانوب تاجر الفراخ، دفعت له نصف خلو الدكان فى العماره الخامسه اللى ما تبنتش، دا عالم ولاد كلب، المعلم بانوب يحكم على تلات فدادين على حدود بهتيم، القيراط ١٧٥متر اشتراه بخمسه وثلاثين جنيها والنهارده يبيع المتر بخمسين جنيها، ما يبنيش عماير ليه !! .. بعد شهرين يقول: النهارده دفعت مقدم المنشار، منشار آلى اصل المستقبل للخشب الصناعى، يجر الضباط الكبار بهديه صغيره مصنوعه من الخشب الجميل، ولما يطلبه لحاجه يكون الثمن اجازه وزباين جدد من حبايب الضباط، وجهه كان دائما رايق تحت شعر غزير، وبرغم انه كان خالى من التعبير، إلا انك تحس بقوة من يبتسم ابتسامه صفاء فيها حياء الرجال، وبرغم جسده المزق بطلقات الفيكرز وذراعه المجهول مكانه الآن فى الافق البعيد واحشائه الممزقه بشظايا القنابل، ورغم انه ظل ثلاث ساعات عايش يتعذب من الالم، إلا ان ابتسامته الخفيه لا تزال موجوده جواه، تبرز من الوجه الجميل كأنه يبتسم، لا تدرك إذا يقصد الحياه الجميله اللي كان بيحلم بيها ام من غدرها المهول .

الفصل الثامن

-١-

فى القطار المتجه إلى منوف جلس، جواره كان المقعد شاغرا، مر جندى طويل القامة وعاد ليقف قبالته، قذف بحقيبته لحمالات الحقائب، وألقى بنفسه إلي جواره، من الوهلة الأولى تعرف عليه.

- الدفعة.. سلاح مهندسين..؟ هز صلاح رأسه بالإيجاب وقال:
- يا راجل ده انا قاعد من ساعه.
- معلهش انا فى ظروف صعبه.. والدى تعيش انت.

شعر صلاح بالصدمة.. قال بحزن: البقيه فى حياتك..

فى العزاء لاحظ صلاح اضطرابا.. سأل عن السبب..

قال إبراهيم وهو يبكى: الحاجه تعبانه..

هز رأسه مفكرا.. قبل ان يرحل انتحى بعبد الله جانبا:

- لو احتاجت رعايه قول.. لى اصدقاء ح يساعدوها مجانا

قال بشك: ياعم خليها على الله .

قاطعه: ليه تحرمها من رعايه مضمونه ؟ ح تخسر ايه.

فكر عبد الله لوهلة قبل أن يجيبه: فعلا معاك حق

- خلاص انا نازل مصر بكره، نتقابل فى مستشفى الدمرداش.

* * * *

فى مدخل مبنى العياده الخارجيه وقفت وفاء، طالبه فى التاسعه عشره من العمر، ضامرة العود رشيقة القوام فى وجهها سمره وجاذبيه أخاذه وابتسامه من ذلك النوع

المتآلف مع الحياه، ترتدى طاقم من الچينز تحمل كتبها على صدرها .. مسحت ممر الاستقبال بعينيها المتألقتين.. عرفته من زيه العسكرى والمرأتين الريفيتين اللتين تصحبانه، تقدمت نحوهم مباشرة بابتهاج، شدت على يده بقوة: عبدالله مش كده، صلاح فى كلية الطب منتظر الدكتوره أمال وسوزان وجاى على طول.

بينما كانت تشد على يد أمه وأخته بحراره بالغه، افتر ثغره عن ابتسامه واسعه وقد أصابه الخجل، قبل أن يفيق من اضطرابه عاودت على الفور : أنا عرفتك من الزى العسكرى، صلاح حكى لى عنك .

نظر إليها معربا عن دهشته، لحظتها ظهر صلاح عقل وخلفه وقفت طبيبتين امتياز، تدخل على الفور: انتِ بتحكى له..؟

- ايوه.

- معاك حق .. استدار يحدث البقية.. كان الظهور المفاجىء للواء الدفاع الجوى فى ممر الطيران الاسرائيلى بالشلوفه مثير لسخطه ولقرفنا احنا كمان، اندفع يمشط المنطقه شبر شبر بالقنابل من كل نوع، فى اعنف قصف واجهته المنطقه، ومن اول ضوء ثبت الجنود فى الخنادق، ما فى جندى رفع راسه فوق الارض، استطرد.. وفى لحظه ظهر حضرته .. ضحكت وعيونها تغوص فى عينيه فزاد اضطرابه.. واحد ماشى خط مستقيم، طالب مجتهد رايح مدرسته، ضحكوا، رايح يقابل حبيبته ومتأخر عن ميعاده، ارتفع الضحك وبدأت امه واخته تبتسمين وهو يذوب خجلا .. استطرد صلاح: واحد رايح يروى لحسن تفوته نوبة الرى، حاجه كده، واحد ماشى يجرى فى منتهى الجديه والقصف ينهمر زى المطر ولا هو هنا، عشر دقائق وكتيبة المهندسين تنظر نحوه، لما قرب منى اندفعت، رميته وهو ما شاء الله ناحية خندق للتموين القريب، مش عارف السبب يمكن لأنى شعرت ان القنبله القادمه ستطيح به، وفعلا كان انفجار القنبله على بعد عشرة متر، فى المساء اخبرونى ان الجنود كانوا يتراهنوا على اللحظه التى سيتحول فيها هذا الثور الى اشلاء.. استدار اليه يحادثه.. كنت سرحان فى ايه..

احمر وجهه بشده.. قال بعد لحظات من التفكير:

- المدفع.. طقم المدفع..

همست الطبيبتين لصلاح: الدكتور وصفى استاذ الباطنه وصل.. لحظات ندخل له..

استطردت وفاء: يا سلام.. مش كنت فى اجازه، اكيد للفوج احتياطى..

صَعُبَ عليه أن يشرح لها دوافعه: لازم اكون مع الفوج وطاقم المدفع، انا المسئول عنهم تحت القصف، اقعد!؟ .. دا الفوج بتاعى، لو بطارية مدفعيه تعطلت او حدث بها خلل، الفوج ح يتأثر.

قالت بعدم تصديق: وانت المسئول عن كل ده.

هز رأسه نفيا قال والتردد يملؤه: فيه افراد تحب تستخبى وراء اعذار، ورغم قلة عددها ممكن تأثر على بقية البطاريه.

نظر لها باستعطاف بأن تتفهم صدقه.... هزت رأسها بفهم.. شعر بالضيق يغمره، ليس فى حاجه لميوعة وسهولة كلمات بنات المدن، ابتعد عنها، لم يكن هناك أثر لصلاح، دار

يبحث عنه، لم يلبث أن ناداه مشيرا له بإحضار والدته، تحركوا جميعا باتجاه العياده، على بابها أشارت الطبيبتين له ولأمه فقط بالدخول، طيلة نصف ساعه متواصله جرى الكشف، فى النهايه تقرر لها دخول المستشفى لإجراء مجموعه من التحليلات الطبيه.. خرج عبدالله سعيدا، وبينما كانت أمه تدعو لهم بأن ينولهم العَدَل(١٨)، كان عبدالله يشكرهم بعرفان ومودة..

قالوا: لا لا انت ح تضحك علينا، احنا عايزينك تحرر مصر .

ارتبك ثانية.. السخرية، قال بتأذى: دى حاجه كبيره..

قالوا بصدق: طبعا، عارفين يا بطل. انزعج ثانية، وعندما ألتفت يبحث عن صلاح شاهدهم الاثنين، صلاح بقامته الطويلة، وفاء تكاد تلتصق به ، تتطلع اليه، وعيونها غائبتين فى عينيه يتهامسوا غير عابئين بأحد، تراجع بناظريه، وكأن عينيه كشفت شيئا محرما، كان يوم الارتباك لأن أمال عبد السلام وسوزان العياط الطبيبتين الذين تولوا رعاية أمه، توجهوا ناحيتهم مباشرة دون حرج ، أمسكت وفاء بكفى صلاح تربت عليهم، و بينما كانوا يطلعوا صلاح على الموقف، انتبهت لغيابه .. نادته.. جاء يقدم قدما ويؤخر أخرى حدثته سوزان، وكأنها تحادث أخ لها وقد بدت فى ردائها السماوى، بعد أن خلعت معطفها الأبيض قطة سيامية شرسة لا تتوقف عن الضحك:

– اسمع يا عبدالله، انت تروح وتيجى بكره مهمتك انتهت.

قاطعها صلاح : انا عايزه..

هزت كتفيها بود: عوزه.. ماقلتش حاجه..

قالت آمال وكانت قد أصبحت أقربهم لقلبه، لا هجوم مباغت ولا حذلقة بنات المدن: انت بتشتمنا بقى ولا ايه، خلاص ماما بين ايدنا..

.. فكر.. تتحدث عن أمى.. استطردت سوزان: انت مهمتك انتهت، بتقولوا ايه فى الجيش، تمام يا افندم، ماما احنا مسئولين عنها، بكره الصبح ح نيجى انا وآمال ومعانا الدكتور خليل وح يباشر كل التحاليل المطلوبه. واستطردت تتحدث بعمليه وصداقه.. احسن تيجى بكره بعد الظهر، الصبح ح تكون فى معامل التحاليل، أشارت لأمه بأن تتبعهما وفى يدها تذكره الدخول ..

قال صلاح له: نقعد شويه فى الكافتريا ونرجع الساعه تلاته تطمئن عليها وتمشى مستريح موافق.؟

– موافق.

* * * *

جامعة عين شمس تودع الستينيات بحلوها ومرها، وتقف على مطلع السبعينيات تستقبل الرعب القادم، جامعة عين شمس والثالوث الحيوى المقدس.. العلم والعشق والتمرد.. البوابة الحديدية، الأبنية الضخمة يحيط بها العشب ويتوسطها على الامتداد الآلاف من الطالبات

والطلبة يتجمعون فى الأرجاء، وعلى ظهور السيارات مثنى وثلاث وجماعات.. للجميع أحلام لا حدود لها لابد لها من التحقق، ليس ثمة شىء يدعى مستحيلا، ليس ثمة مستقبل مظلم، بل نجوم ليس عليك سوى أن تمد يديك تقطفها.

فى كافتريا حقوق بحث ثلاثتهم عن منضدة خالية، فلما جلسوا قام صلاح يحضر طعاما.. عارضته بحزم: أنتما ضيوفى وفى كليتى..

قال صلاح بنبرة سخرية: ضيوف ايه ياستى، انت لسه بتاخدى مصروف من بابا..

شعر عبدالله باستيائها .. قامت وقام صلاح وراءها لمساعدتها. جلس وحيدا ينظر فى أنحاء الكافتريا الواسعة، لاحظ امتلاءها بفتيات شديدى الاشتهاء ينظرون نحوه بلا اهتمام، جاء صلاح أولا.

– ها.. عجبتك واحده منهم.. أجاب ضاحكا بالنفى، ذهب صلاح ثانية، عندما جاءت بادرته بالحديث: حتة كباية شاى، انما تمام، عارفة انك بتشربه حبر.. ضحك وهى تسأله: احكى لى عن الجبهه.

فتح كفيه متسائلا: زى ايه..؟

– معاملة الضباط.

– تمام.

– فيه بنات فى الجبهه ؟

أجاب متسائلا: تعمل ايه..؟

قالت بإخلاص: تحارب.

ضحك على سجيته، كانت المره الأولى فى هذا اليوم التى يضحك فيها وأطلق لضحكته العنان.. تابعته بضيق أولا، ثم ما لبثت أن فهمت موقفه. قالت بغضب وهى تبتسم: ايه اللى بيضحكك ياسى عبدالله، مش عاجبك ان المرأه تدافع عن وطنها، ولا الوطن مقصور على الرجال والمرأه ملكيه خاصه لكم.

أجابها بصوت واطىء: العفو يا استاذه.. واستمر يضحك.

– طب بتضحك ليه..؟

تدخل صلاح وكان قد حضر: ايه.. فيه ايه ؟

– حضرته مش عاجبه ان المرأه تحارب ؟

– طبعا، وانت كنت منتظره ايه؟

– منتظره ايه.. انت كمان بتحامى له.؟

– الله.. هو كان قال لك انا تقدمى، دى قناعته، حاولى تقنعيه بوجهة نظرك.

– طبعا، انا محاميه ودى مهنتى.. واستطردت ضاحكه.. لو فشلت تبقى مشكله .. تدخل عبدالله محاولا مراضاتها وقد شعر أنه تسبب فى مشكلة بينهما.. حدث نفسه.. خدها على قد عقلها، برغم أنه لم يستطيع أن يخفى السخرية فى تألق عينيه :

– يا استاذه وفاء، انا ما كنتش فاهم، طبعا الست المصريه راجل ولا كل الرجاله.

نظرت لصلاح بتشفى لكنها وجدته لا ينظر إليها، كان يكاد يستلقى على قفاه من الضحك وهو ينظر ناحية عبدالله.. عادت تنظر كالملدوغة ناحيته.. كان يحاول أن يكتم

ضحكة قويه، فلما عرف إنها كشفت سره، ضحك ضحكة مكتومه احتراما وتوقيرا لها.
ابتسمت وقالت بغضب: مش ذنبك انك لم ترى امرأه مصريه تحارب، دى ذنب قيادتك.
– احنا مش محتاجين لستات، الرجاله لسه مخلصتش
– اسمح لى بسؤال .
هتف مخلصا: تفضلى..
– انت شفت ست بتحارب..؟
– لأ
– والمجندات الاسرائيليات..؟؟
شعر بالدهشة: ايوه بس حضرتك عارفه ان عدد
– فهمت، التعداد السكانى لاسرائيل صغير جدا – هز رأسه موافقا – استطردت.. مش ده الموضوع.. شاهدت صلاح يبتسم لها ابتسامة صفراء.. كيف تستطيع وسيلة اتصالكما وهى اللغه أن تنقل الفارق الشاسع فى ثقافة كل منكما.. نظرت إليه بتحد فأدار عنها عينيه.. قالت:
– ليست القضيه تعداد سكاني او ان الاحتياج للمرأه مرتبط بالظروف، المرأه الفيتناميه تشارك فى جيش التحرير الشعبى، وتكافح ضد الاحتلال الامريكى – لم يبد عليه الفهم – استطردت.. المرأه فى الريف المصرى تعمل جنبا الى جنب مع الرجل .
قاطعها: لكن مَ بتمسكش الفاس وتعزق.. فيه اعمال خشنه على الست..
– لأ.. العلم اثبت ان المرأه اكثر احتمالا من الرجل.. وتطور التكنولوچيا بيقلل من نسبة الاعمال الخشنه.. الموضوع موضوع علم مش جهل.. ما من مجال خاضته المرأه وفشلت فيه..
قال وهو يبتسم ابتسامة واسعة بها لؤم:
– بس ربنا قال كده، الرجال قوامون على النساء.
لقد سد عليها الطريق كيف تعبره ؟ على أنه عاجلها بضربة قاصمة، وإستطرد وإبتسامته تتسع بتشف ودود: يعنى حضرتك مخلوقة من ضلعه.. كان يشير إلى صلاح.. كان يقول أيضا هذا آدم الخاص بك وأنت حواؤه.. نظرت إليه وإلى صلاح ببلاهة، إنه يعرض بعلاقتها بصلاح، فى جزء من الثانية كان ثلاثتهم يضحك بجنون يلفت الانتباه.. لم يتوقفوا عن الضحك.. وعلى رؤوسهم وقف ثلاثة من الأصدقاء يشاركونهما الضحك دون أن يعلما سبب الضحك..
– اهلا سيد، اهلا كمال
– اهلا صلاح، خير الضحك خير
قال صلاح وهو يزال يضحك: تعال شوف وفاء تناقش عبد الله حول حرية المرأه
أجابت بشراسة: لا تستخف بموقفى..
– يا ستى اسف .
قالت بضحك: الاسف ما ينفعش، ممكن وأشارت لخديها بطرف أصبعها.. كانت تعنى أن يقبلها.

قال بابتهاج : من كل قلبى..
قال كمال بهدوئه المعتاد: ده انت الخطأ معاك مكسب..
قالت باعتداد بالغ: ده مش مسموح بيه لاى حد.
مد سيد يديه ضاحكا: ولا اى اى.. ولا زي زى..
نظرت إليه بتحد: لك تعليق ؟
تراجع مستسلما: لا يا افندم.. تعليقى الوحيد هو الصمت..
- تمام ولا تملك غيره..
- احنا قلنا حاجه..
تدخل صلاح: نتكلم فى المهم.
قاموا بضم مائدتين أخريين.. وبينما كانوا ينتحون طرف المائدة، استأذن صلاح عبدالله منضما لهما فى حين بقيت معه وفاء ..
قال سيد متسائلا بطرف خفى عن عبدالله: ممكن يكون مباحث..
استاء صلاح: الراجل دفعه وبلديات والدته تتعالج فى الدمرداش
- مفيش سبب يتعرف علينا بالقرب ده.
- ليه ؟ اخده وامشى، ثم يا اخى انت فى قلب كافتريا حقوق، مكان عام، يعنى تحت عين المباحث، حتة جهاز تسجيل .
تدخل كمال حلمى بتؤدة: سيد قصده، لو كان مخبر مش لازم نحطه فى وسطنا، وإذا لم يكن، فمن خلال علاقتك به فهو مرشح للانضمام لنا، فى الحاله دي برضه مش لازم يتعرف علينا.
- انت غريب ويثيرك وجوده ولا يثيرك ان تكشفنا المباحث، منطق مش مفهوم، وعلى العموم ممكن امشى انا وهو.
- لأ.. لأ.. مش مهم دلوقت، لكن المفروض نأمن اجتماعتنا.

* * * *

فكر عبدالله بابتهاج فى الفتاة الصغيرة الجالسة.. جمالها، أنوثتها، حجتها، قدرتها على المناقشة، شراستها فى مواجهة أصدقائها، على أن أكثر ماأثاره تعبيرها عن عواطفها بوضوح ودون مواربة، شىء مثير يراه لأول مرة، وبرغم هذا لم تكن بعيدة عنه، كان قد رآها فى الأميرة شامة وهى تختبر الملك حسان فى ساحة الميدان والسفيرة عزيزة وهى تستقبل الأمير يونس عنوة عن أبيها، هاهى فارسة أخرى من بنات العرب ..
- سرحان فى ايه
قال بابتسامته المتوهجة: فى الملك سرحان
نظرت إليه بعين ونصف مستفسرة..

– فى الملك سرحان والاميره شامه..

فتحت عينيها على سعتيها تطلب المزيد، خاضا فى حديث طويل عن الملك حسان والأمير أبو زيد، والأميرة عاليا وعن عزيزة ويونس، وكانت عيواها لا تتوقف عن الاتساع والدهشة وكأن عالما جميلا يفتح أمامها لأول مرة، فهمت أنه يطريها، وبينما كانت تكتب أشعاره التى يمليها عليها كان يلمح المنضدتين تتحول إلى خمسة والعدد القليل الذى كان جالسا عليها يتحول الى ما يقارب العشرين، شباب وفتيات يتحدثون باهتمام بالغ، وكلمات متناثرة حملها الصمت والانفعال، أصل العائلة وديكتاتورية الطبقة العاملة، وموقف الفلاحين المعدمين، وسيطرة إدارة الجامعة على النشاط الطلابى. وحرية تكوين الجماعات الطلابية، وحرية الصحافة، وجماعة الثورة الفلسطينية، التى أنشأت بهندسة القاهرة ، ومجلات الحائط ، أحكام الطيران، وعمال حلوان، وإعادة التوازن الطبقى فى الدخول، وانتشار الفقر وشيوع الفساد فى الحكم، ورأسمالية الدولة، وقيامها بدور المستغل لفائض قيمة العمل، والأخطاء المذهبية لدى السوفيت، والامبريالية العالمية، وحرب فيتنام، وثورة ظفار، أربع ساعات مضت حتى بدأ الجالسين فى الانصراف.

قام إليه صلاح: ها.. نقوم نشوف الوالده..؟

قام على الفور مجيبا: بالطبع.

* * * *

بعد أقل من عامين شاهدها بميدان التحرير فريسة يعتورها جنود الأمن المركزى من كل جانب، لم تكن قط تلك الفتاة الرقيقة التى تجالسه، بل نمرة شرسة تقف أعلى النصب الحجرى بمنتصف الميدان وسط الألاف من طلاب الجامعات المصرية ، يطالبون بالحرب ، وهى تهاجم عسف النظام واقتحامه للجامعات المصرية فجر الرابع والعشرين من يناير لعام ١٩٧٢، والقبض على رفاقها وإيداعهم سجنى القلعة والاستئناف.

الفصل التاسع

-١-

منذ الصباح الباكر والأمواج المتفرقة للطلاب تتجمع فى ساحات الكليات المختلفة على غير هدى تتلمس أحداث اقتحام الأمن المركزى لجامعة القاهرة وكليتى طب وهندسة عين شمس قبل أن تتحول إلى إعصار هادر يتلمس مواطىء قدمه خارج الجامعة لعرض قضيته على الشعب، الحصار الذى قامت به قوات الأمن المركزى على الطرق الرئيسية المؤدية إلى الأجهزة الدستورية يدفعه إلى الاتجاه إلى الشوارع والأحياء الشعبية المحيطة، العصى والهروات تقبع فى استقباله، الدفء والمساندة فى الأحياء الشعبية، اتفاق خفى للتجمع فى ميدان التحرير، وطول هذا النهار احتل الطلبة الميدان جلوسا، ومن على المنصة الحجرية للنصب الرخامى الذى كان من المفترض أن يكون قاعدة لتمثال عبد الناصر..القيت الخطب المعادية للنظام، وهوجم الطابع اللاديمقراطى لعهد عبدالناصر بشدة، على حين توقف الأمن المركزى عن التدخل مكتفيا بحصار المفارق المؤدية بالميدان. عندما أزف الليل خفت أعداد الطلبة تدريجيا، وحول النصب الحجرى جلس عشرات المعتصمين من أجل رفاقهم المودعين بالسجون، ينشدون ويغنون لهم فى العراء، وقد احتل النصب الحجرى جمع من الشعراء، أحمد نجم، أمل دنقل، سيف، والشيخ إمام، وفى المقاهى المجاورة، إيزافيتش، على بابا، أستراء لاباس، تجمع البقية منهم، وعلى أطراف الميدان وقف عبدالله فى زيه الكاكى الصوفى وسط جمهرة من المارة يتابع الأحداث

ناداه صلاح: تعال.. لماذا تكتفى بالمشاهدة عن بعد

– ياعم انا جيت معاك، فيه مشاركه اكثر من كده.

– كما ترغب.

– عايز ايه يامجنون، اقف اعلى حته فى الميدان واخطب، كفايه انتم.. استطرد يحذره: لو انقبض عليك ح تبقى مشكله، سجن حربى.

– مش ده المهم.

– ايوه يا خوى.. ايه المهم؟
– كل اللى قدامك ده ما يعطيكش انطباع بالاهميه!
– عايزين تحاربوا، ما تروحوا تحاربوا!!
– يا عبدالله النظام مش كفء للحكم، فكيف بقيادة حرب.؟
– ومين يملك الكفاءه؟
– مستقبل الوطن ملك الشعب، يفتحوا حوار مع الناس، ح يدخلوا حرب لابد من حشد كل قدرات البلد للحرب، لابد من إطلاق حرية تكوين الاحزاب السياسيه، تقليص التفاوت الطبقى، لايمكن لنظام غير ديمقراطى ان ينتصر على رأسماليه متقدمه، لاتنتج الفاشيه العسكريه سوى الفساد..

اقتحمتهم وفاء تجمع تبرعات لشراء طعام للمعتصمين، أصر على أن يساهم .. قالت: واجب علينا للجبهه.. لكنه أصر.

– تعال معى. وعقبت.. احتاج حمايه.

كان التوجس يزداد شيئا فشيئا وجنود الأمن المركزى تقف فى تربص.. عندما عبرت صفوفهم أطلقت صفيرا حادا.

– لولاك لنهشتهم رؤوسهم.
– يا ستى مش ح يعملوا حاجه.
– تفتكر..!

هز رأسه مؤكدا، كان على يقين من أنه ليس ثمة ما يدعو لاعتراضه.

وسط العشرات تابعها عن بعد وهى تسير بين المفترشين الأرض بألفة توزع ساندوتشات الطعام.. ولا ميت راجل، ياحظك ياصلاح، عبرت ذهنه أسئلة كثيرة، كيف تجرؤ على المبيت خارج منزلها وكيف تقبل أسرتها، وكيف تملك هذه المقدرة على صنع هذه العلاقة الوطيدة مع هؤلاء المئات من الناس .

كان الليل يوغل فى سدوله.. والجو الزمهرير يطبق على الجالسين فى الميدان وقد اضمحلت أعدادهم فى انتظار الصباح المقبل ومعه يوم جديد من المظاهرات والاعتراض الصاخب، على حافة كوبرى المشاة العلوى حلق الغربان، موجة خفيفة مرت بالمعتصمين، أفراد تجرى فى الأنحاء، توجهت على اثرها الرؤوس ناحية كوبرى المشاة الحديدى الأسود، صرخ صلاح: أنا ح أختفى، يلا يا عبدالله.

هزت رأسها موافقة، لكنها لم تتبعهم وتوجهت نحو جموع الجالسين تلتحم بهم، شعر بالدهشة وأصر على البقاء، على ناصية شارع طلعت حرب وقف يراقبهم عن بعد وهم يلتفون حول الكعكة الحجرية، وعلى كوبرى المشاة العلوى شاهد صفا طويلا من جنود فض الاضطرابات والمظاهرات يحملون الدروع والهروات، وعناصر البوليس السرى تحيط بالميدان من أعلى، أنهم يكشرون عن أنيابهم، حان أوان الوليمة الليلية.

فى السماء كان السحر يكشف عن نفسه، وعلى الأطراف الخارجية للميدان غادرت فصائل الأمن المركزى تحت إمرة صغار الضباط فى زيهم الأسود مواقعها بالشاحنات إلى الميدان لتبدأ إحكام الحصار.

الحصار .. القبعات والخوذ.. الدروع والهروات.. الزى الأسود والوجوه القاتمة.. تداخل المعتصمين، يلتصق كل منهم بالأخر.. فتية وفتيات يفترشون الأسفلت البارد.. محلقين حول الدائرة الحجرية.. متشابكوا الأيدى، ضاموا الصفوف، يهتفون، فى نسق يخاطبون الجنود المهاجمة: احنا اخواتكم.. احنا ولادكم.. احنا بنعمل كده علشانكم.

دقائق طويلة مرت قبل أن يطل الصوت القانى لسنابك الخيل، صرخ أحد الضباط من رتبة عميد معطيا أمره بالهجوم، فاندفعت الخيالة تدهس الجالسين، محاولة شق صفوفهم، قبل أن يتقدم الجنود انهالت قذائف الطوب، كانت هذه المرة ضعيفة خالية من الكثافة الضرورية لأحداث الدفاع اللازم، وصل المهاجمين بسهولة إلى أهدافهم، هاجم الجنود الجالسين على أطراف الكعكة البشرية بعنف بالغ، فتشبث الجالسون بالأرض، عندما وضح لرجال الأمن أن المعتصمين فى وضع لا يمكنهم من المقاومة، وقد أنهكتهم تظاهرات اليوم السابق والسهر طيلة الليل، غيروا من تكتيكاتهم وبدأوا فى الانقضاض عليهم فردا فردا، شاهدها وهم يقتربون منها، وقفت من فورها تواجههم بعنف : اى واحد ح يلمسنى ح قطع ايده.. توقف الجنود فى حيرة، استطردت وهى تصيح بأعلى صوتها جاذبة أعداد متزايدة من الحضور والمشاهدين:

- انا هنا بمارس حقى الدستورى، والدستور بينص على حق التظاهر والاعتصام والاضراب، ازدادت حيرة الجنود، تقدم نحوها شخص متأنق فى زى مدنى يرتدى نظارة سوداء فاخرة، خمنت على الفور مهمته، كان أحد ضباط الأمن السياسى، صرخ بها معنفا:

- اى بيت محترم م يسبش بنته فى الشارع لحد الفجر.

أجابت بلهجة عدائية حادة: بيتى احسن من بيتك، انا هنا فى البيت الكبير، الوطن اللى بعتوه لاسرائيل ياحضرة الضابط.

انقلب العالم، إذ اعتورها الجنود من كل جانب ، جري عبدالله نحوها، وضباط الأمن السياسي يسبونها:

- اخرسى يا شرموطه يابنت الكلب.

من بين سبعة من الجنود مد عبدالله يده يشارك أعداد من الطلبة والرجال يمدون يد المساعدة، لقد أنقذوها بالفعل، لم يكن يصدق أن هذا ممكن الحدوث، لقد تقدم نحوها محتميا بزيه العسكرى، والآن يتعين الهرب من المكان. همس بصوت سمعته جيدا: ادخلى القهوه بسرعه..

لكنها لم تفعل، لم تهرب، واستغلت مساعدتهم لها جميعا وتخليصهم لها من بين يدى الجنود لتقتحم الطريق مباشرة إلى الضابط الأنيق، لم يكن منتبها لها، داهمته المفاجأة، صفعة دوية على وجهه وهى تصرخ به معنفة إياه:

- انا مش شرموطه ياكلب، انا اشرف من جهازك كله.

امتلأ المكان بالجنود، اختفت بينهم، ما تبقى منها فى الذاكره جسدها الرخص الضامر

محمولا بين أيديهم يكشف عن أسراره شعرها المضموم، جبينها العالى، ذراعيها وساقيها لا يتوقفوا عن المقاومه، ورأسها المُهرى يجفل بالغضب.. ماتبقى منها.. جيبة سوداء، جاكت من الصوف الداكن، وجسد ضامر يلقى به إلى مؤخرة إحدى شاحنات الأمن المركزى، ما تبقى منها.. عيناها المتألقتين تشع بالسعادة والألفة تبحث عنه فى الأرجاء، والشاحنة تختفى فى اتجاه أحد معسكرات الأمن المركزى، لمحته، لوحت له بيدها، أجابها مندهشا إذ كانت تبتسم.

كان الصباح يطل، والميدان يكشف عن نفسه رويدا رويدا، وقد أخلى من الزمرة التى كانت تحتله منذ قليل، عادت حركة السيارات تغزوه على مهل، سيارة خاصة صغيرة، عربة اجرة، سيارات الصحافة توزع الجرائد، متجاهلة الأحداث التى وقعت منذ قليل، سيارتين للنقل العام ينزل منها أولئك الذين يبكرون فى الذهاب إلى أعمالهم، يتحركون فى سرعة وعجلة من أمرهم، دقائق بطيئة تناول فيها طعام الإفطار، بعدها داهم الميدان جحافل من السيارات العامة والخاصة ومئات المارة، توجه شطر النيل وهو غير مصدق لما حدث.. لقد ذهبت للاعتقال بقدميها، كيف لصلاح أن يتركها وهو يعلم أن مصيرها السجن، كان حائرا وطوال الساعات أمضاها أمام النيل يتابع أمواجه المتلاحقة ، ومايجرى لغز يصعب فهمه، قرب الضحى قام متوجها إلى ميدان التحرير ثانية، عازما على السفر إلى قريته وقد أصبح العيد على الأبواب ..

الدبيب المنتظم، كتل الأصوات الخافتة تجىء وتروح بها الرياح، أشياء لفتت انتباهه ببطء ، لم ينتبه لها جيدا إلا عندما لاحظ أن الناس يهرولون فى أنحاء الميدان، وهلة وبرزت شاحنات الأمن المركزى، الأمر يتضح ثانية، يبدو أنه بقية من المظاهرات المناوئة للنظام، كانت الحركة تأتى بكثافة من شمال الميدان، صعد كوبرى المشاة كى يستطيع أن يرى أفضل، زمنا ما حتى اتضح أن الأمر مختلف، على امتداد البصر شاهد عشرات الألاف من طلبة جامعة عين شمس يقتحمون الميدان، ومن جنوب الميدان كان شارع قصر العينى كتلة بشرية تتحرك فى هدير صاخب، تابعها تقترب ببطء من الميدان، الطلائع الأولى للقاء الجامعتين كان لقاء صاخبا مملؤ بالفرح، طلبة وطالبات يتبادلون الأعناق، آلاف من الطالبات مثلها اكتظت المظاهرات بهم.. لو استطاعت أن تراهم، كان يجب أن ترى هذه الحشود، كان هذا سيسعدها، لكنها سبقتهم فى المجىء وبكرت بالذهاب.. كان يجب أن تأتى فى المواعيد الملائمة، استدار يخترق البشر مندهشا.. لقد بكرت فى المجىء والرحيل.

-٣-

امشى يا ابن عبد الجليل فى طريق الحياة الطويل.. امشى عَل طبرق صارت قريبة.. باق يوم من المسير.. امشى يا ابن عبد الجليل فى طريق الحياة الصعب.. مين كان يصدق ان الخلايق دى كلها من مصر، امواج تزحف ورا امواج تجد السير بين حافة الاسفلت وهاوية الجبال، لو مرق واحد شمال تدهسه السيارات، ولو انحرف لليمين يسقط بين الفراغ والصخور، ما هذا الزحف العجيب ، بحر شاطئه يبتدىء من وادى النيل التعيس، سنابل قمح مكدودة، عيون زايغة من الخوف، اقدام منفوخة ورمها السير الطويل.. يارب الشمس نزلت للغروب والمطر الغزير والسير فى الليل البهيم، وهذا الزمن اللئيم، وضوء السيارات، يكشفك، يفحصك، يعريك من هدمتك، وخمس جلاليب تحت المعطف الرث القديم، والهلع من انحرافها ناحيتك او من صرير فراملها، وقوفها، فجأة ينزل منها رجل البوليس.

– مصريه.. !! فواله!! وين بطاقتك.؟ .. هيا نبى نشوف هويتك، مامعاك طبعا ياتيس.. ياقحب.. ياقواد.. سلكاوى..!!

تحكى عن العفريت يطلعلك، .. الفرار.. الفرار.. صرت عجلات البيك آب وهى تتزلق على الطريق الأسفلتى المبلل بالمطر، فى لحظات اختفى مئات المتسللين السائرين على جانبى الطريق، نزل شاب مرسل الشعر ضعيف البنية وتبعه رجل فى الأربعين، صائحا:

– هسه أنتم تخافوا من الشرطة، تعال يا أخ، تعال، أنا بنقلكم لطبرق، تعال ما تخاف يا أخى، احنا أشقاء خوت.

بين الخوف من الشرطة والأمل فى سيارة تخلصهم من آلامهم، نشب قتال فى المؤخرة، ثوان وتكدست السيارة عن آخرها، عشرين رجلا تسلقوها من الخلف، الرعب من المستقبل القريب والبطالة فى سوق العمل، ونبيل يصيح على عبدالله كالمصروع يلح أن يمد له يده كى يتعلق بها: خد ايدى ياعبدالله، خد ايدى وحياة ابوك .. يخترق عبدالله الحشد الكثيف من الداخل قادما نحو صديقه فلا يستطيع، يدا محمود ومبروك تجذبانه عنوة ضد رغبة الجميع، تعلق على الأكسدام يرجوا ألا يلاحظه صاحب السيارة فيمنعه من الركوب، وفى الطريق وقف عشرات المتسللين ينظرون إلى السيارة وراكبيها فى حسرة، ثم ما لبث أن جمع بعضهم شجاعته واستدار راحلا..

– باهى يا إخوان أنا ننقل فيكم لطبرق، حد يبى درنة..؟

صاحت الأغلبية : ايوه يا اخ، نروح معاك درنه .. واستطرد آخرين بحماسة : احنا معاك ، مكان ما تودينا، بنى غازى.. بنى غازى همس أحدهم: ما كفايه طبرق.

نهره الجميع بصوت خافت: طبرق ايه، النفر فيها شهريته ٨ دينار ورغيف تاكل فيه طول النهار.. اسكت انت ايه اللى فهمك.؟

كان قد صمت منذ زمن لكن خوفهم جعلهم على استعداد لأن يمطرونه لوما وتقريعا. قال السائق الليبى :

– طيب، باهى، باهى توا نروح درنه.. هيا توا نبى الاجره.

ساد الصمت وكأنهم كانوا يتمنون أن ينسى الرجل مطالبتهم بالنقود، تساءل أحدهم على استحياء: كام؟

– اثنين دينار لطبرق وخمسه دينار لدرنه .

همهم البعض: كثير، الله الغالب، ندفع.

نزل رجلين لم يكن معهم نقود، صاح فيهم الرجل فى سخرية:

– تبى تروح طبرق بلوش..

دفع الباقين فى تثاقل ، عندما تحركت العربة أزّ مساعديها من ثقل الحمولة، وبينما كان هناك ثمانية على الأقل معلقين على المؤخرة تنخر عظام أرجلهم وسواعدهم الرياح الباردة، كان الباقين يشعرون والبلل يغمرهم بالارتياح وأمواج من اللذة الدافئة بعد التعب الشديد وقضاء ليلة تحت المطر المنهمر، بعد عشر دقائق توقفت السيارة ونزل منها سائقها، ودار عائدا إلى المؤخرة.

– باهى يا اخوان، هسه مركز الشرطة خلف الصخرة هادى، وأشار إلى انعطافة فى الطريق على مبعدة مائة متر: أنتم تنزلوا هون، تدوروا من وراء هذا الطريق تبوا غادى، خمس دقائق مسير بعد الشرطة تلاقونى واقف منور أنوارى الحمرا بانتظاركم.

قاطعوه: فين.. فين يا اخ، هى طبرق فين؟

– نصف ساعة نعدى ناكل لقمه ونشرب شاى ونرحل طوال لدرنه، هيا، هيا، بسرعة خمس دقائق لاغير.

تساءلوا فى شك خجول: خمس دقائق فقط ؟

أجاب بلكنة ممطوطة:

أمال يارجال، خمس دقائق ما تزيد واحد، وكمان حاسبوا تعدوا يمين الجبل أحسن المسير مقطوع بمخر السيل، هيا ما فى وقت..

عندما أصبح النزول لامفر منه نظر كل منهم للآخر مستسلما وتساقطوا إلى الأسفلت، جرى أحدهم عابرا الطريق، ثوان وكان الجميع يعدون وراءه، يداهم كل منهم شعور بأنه لو تراخى لحظة للحق الجميع بالسيارة وتركوه وحيدا للطريق، وطوال عشر دقائق من الجرى المتواصل ونصف ساعة من المسير السريع والعدو المتقطع، لم يظهر بالطريق سوى السيارات المسرعة، لم يتوقفوا إلا عندما ظهرت أضواء نقطة المرور الحقيقية، لقد نصب عليهم السائق ورحل ومعه مائة دينار تخصهم.

الجرى والمسير الأخير قضيا على ما تبقى لديهم من طاقة، فى البداية سقط العجوز وتبعه نبيل والمبروك وبقى محمود وعبدالله واقفين.. قال محمود: ح تقعدوا، البرد والمطر ح ياكل عضمكم ..

– وان مشينا نموت ..

– انا ح موت.. قال الدسوقى، لكن محمود عقب بإصرار: لأ.. إذا قعدتم نار والعه تفور من كفوف القدم، تنتفخ مثل خف الجمال.

– احنا مشينا قد ايه؟، تساءل المبروك.

عقب أبو رحاب وهو يلهث: من العشيه حد دلوقت، اربعه وعشرين ساعه من المسير..

قاطعهم نبيل: استنى، العلامه ورانا مكتوبه بالعربى والانجليزى مائه.

ردد المبروك ساخرا: بالعربى والانجليزى، خريج الليسيه يا ابن السيد.. ضحك الجميع

– بتعرف تكتب يا اخ؟ .. اخونا يكتب زى العبيط.. قالها محمود غامزا لأنهماك نبيل بجدية فى كتابة بطاقات الإقامة المزيفة.

هز نبيل رأسه غاضبا وقال وعبدالله غير قادر على الكلام من شدة الضحك:

– يعنى حد فيكم كان فاهم يا قرنات.

– وفاضل كام يا علامه ؟

– مائة وثمانين كيلو متر، لأ.. نقعد..

قال محمود بجفاء: قوموا، قوموا، قوم يا واد يا مبروك قوم يا عبد الله لحسن ثلاثه بالله العظيم امشى واسيبكم.. ومال ناحية نبيل. بتعرف تكتب يا اخ؟ انتشر الضحك ثانية، قوم يا اخ احسن لو قعدت هنا مش ح تقدر تقوم واصل، رجلك تنتفخ.. وتشد زى جلد الكلاب الرمه المنفوخه، قوم يا طرى يا ابن الطرى، اللى ح يصبح عليه الصبح هنا ح يصير مثل اللى دفنتوهم الظهيره، والله هم وجدوا من احسن اليهم ودفنهم وصلى عليهم، اما انتم مش ح تلاقوا إلا انياب الديابه والضباع تنهش جثتكم.. قال لعبدالله مستطردا: قوم يا حضرة الصول، يلا، هه انا ماشى.. واستدار راحلا..

فى لحظات قام عبدالله يتبعه الآخرين، أما العجوز فلم يستطيع.. نادى عليهم: انتظرونى يا رجاله، حرام عليكم ح اموت هنا وحدى.

صرخ عليه محمود: ح نسبقك وانت الحق بينا. شاهدوه يحاول القيام ولما بدأ السير كان يميل بجسده يمنة ويسرة كمن يسير على كرات مستديرة، بعد فترة لم يعد يراه أحد؛ إذا اختفى فى الظلام العميق.

هوامش الجزء الأول

(١) أكوام الردش: اكوام من التربة الزراعية.
(٢) يا بوي : يكني الجد والأعمام والأخوال.
(٣) القياس: حصيرة / فرش من قش الأرز.
(٤) حاش: اشتري أرض.
(٥) مقعد: حجرة علوية بالدور الطينية بالريف المصري.
(٦) المدبن: حجرة واسعة لتخزين التبن والأدوات الزراعية.
(٧) زربونها : نقعت في السم .
(٨) تبي: تريد / لهجة ليبية.
(٩) بُكَلْ: مطلقا.
(١٠) قياسه: رايح جاي.
(١١) شنو فيه: ماذا يحدث / لهجة ليبية.
(١٢) كنك: ماذا تنطوي عليه كينونتك / ماذا تريد / لهجة ليبية.
(١٣) منبيش : لا أريد / لهجة ليبية.
(١٤) توا: الآن / لهجة ليبية.
(١٥) غادي: هناك / لهجة ليبية.
(١٦) هسه: لحظه / الآن/ لهجة ليبية.
(١٧) الفحل: قناة ري صغيرة.
(١٨) العَدَل: الزواج.

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

الجزء الثاني

الفصل العاشر

-١-

طبرق امرأة تلقى بساقيها البضاوين بنعومة بين أحضان البحر، نصفها السفلى فى عناق دائم معه ، لا ينثنى عن لثمها بأمواجه الهادئة المتتابعة، ونصفها الآخر يصعد رويدا رويدا ليتكىء على صدر الجبل، وعلى جسدها الصغير تطير النساء الصغيرات فى سياراتهم فراشات عاشقة..

على أبوابها الشرقية وقف خمسة جنود من بطارية الفوج ٨٩ الفرقة الثامنة دفاع جوى فى منتصف الليلة الثالثة لعبورهم الحدود، خلفهم تمتد صحراء العطش، وأمامهم كانت المدينة الصغيرة تنام على سفح الجبل يخيم عليها الليل، وأضواء الشوارع الباهرة تنعكس على سطح البحر الداكن.

امتنعوا عن دخولها خوفا من الشرطة وناموا على أعتابها بعد جهد ثلاث ليال ويومين من السير وسط الزحف الطويل المستمر، المشحون بالقلق والخوف والتوتر، ومحمود يسوقهم كسائق ماهر صلب يقود جيادا تطاردها قوافل الذئاب الجائعة.

فى الضحى استيقظوا لينظروا المدينة تحيا يوما من أيام الشتاء الناعم، عند براكه(١) بالطريق تناولوا إفطارهم، شطائر من الخبز الأفرنجى الأبيض محشو بالفاصوليا المعجونة بأرتال من الهريسة(٢)، وتناولوا الشاى المحلى بالكثير من السكر، دخنوا السجائر بشراهة ثم تحركوا نحو المدينة..

كان المتسللين يملأون قلب المدينة وقد غصت بهم الطرقات، جحافل من الجراد والذباب والهوام الضالة التائهة، ممددين على أرصفة الطرقات والخرائب دون عمل، وقد ظهرت عليهم علامات الجوع والإعياء، وعيونهم الزائغة تعبر عن شعور بالمهانة والمرارة والحيرة وإسقاط ما فى اليد من حيلة، وبرغم أن أهالى طبرق كانوا يعاملونهم دون غلظة، إلا أن سوق العمل كان المدمر الحقيقى للبقية الباقية من كيانهم.

- نبى عمل..؟

- ما فى عمل بكّلْ.
- نبى عمل، الله يرضى عليك ياحاج؟
- تطلع الجبل ترعى فى الغنيمات؟
- وناخد فى كام؟
- تمانيه دنانير وتاكل وتشرب.

تساءل أبو رحاب مبتسما وهو يجد أول عرض بالعمل!

- فى الأسبوع..!
- يا راجل فى الشهر، إيش تدير، تبى عشرة دنانير؟
- عشر دنانير ايه يا حاج دانى ناخد ضعفهم وانا فى بلدى وبكرامتى..

تساءل الرجل بلؤم:

- ايه.. شنو وأنت تبيع فى كرامتك هون..؟.. ليه مهندس إنت، تكذب علىّ يا مصرى، أنا حق النبى ندور فى مصر كل شهر وأعرف إيش ياخد العامل هناك، سبعة جنيهات ونصف. يعنى تنين دينار فى الشهر، أنا نعطى فيكم الثلاثة أضعاف، إيش تبوا يا راجل، تنهبوا!؟
- يا حاج دى كان زمان.
- تبوا تخدموا ولا نهزر.
- لأ يا حاج يفتح الله.
- باهى يا أخى معاك الله.

* * * *

ستة عشرة يوما أمضوها على قهاوى وأرصفة طبرق. تأتى سيارات المقاولين فى الصباح الباكر، فيتقاتل العمال على موطئ قدم دون سؤال عن الأجر ولا مكان العمل، فيتراجعون بعد قتال دام، يتحسسون أقدامهم المتورمة تشوبها حمرة وردية تشتعل نارا، يدخلونها فى الأحذية المهترئة بصعوبة وألم بالغين، ويخرجونها من الأحذية بعذاب أشد وفى آخر الليل يتوجهون إلى العراء للمبيت.

- رجلك عامله ايه؟ .. سأله المبروك بقلق.

أجاب وهو يهز رأسه: نار مولعه والله العظيم، ما عرفش .. إذا كنت ح اقدر امشى عليها تانى ولا ايه.؟

- ورينى.. أخرج عبدالله كف قدميه من داخل الحذاء متألما.
- الكف، بطن القدم.
- وفخدك..؟ كان يقصد موضع إصابته في الحرب، هز عبد الله رأسه باطمئنان: لأ.. مفيش حاجه.

عقب مبروك بلا مبالاة: لأ.. ان كان على كفوف القدم فكفوف اقدامنا كلتنا نار مولعه

والحمد لله؟ .. معلهش، كنا فاكرين ح ناخد اقامه.. ضحكوا.. ضحك الخمسه واستطرد.. وقال ايه.. ح نوصل بنى غازى بالبيچو.. استدار محدثا عبدالله.. خايف اكون ورطتك فى طابور البياده ده، ميتين وسبعين كيلومتر بياده، حرام والله، ده هم يلوى الحديد.

– ياعم، حديد ولا يهمك، نصيبنا نشوف بلاد العرب واهل العرب وكرم العرب، ربك امر علينا بالعلقه دى.

علق محمود ساخرا: احسنت ياعم الشيخ.

فى اليوم السابع عشر، ومنذ الصباح الباكر تربصوا على الرصيف أمام القهوة، ومع أول عربة هلت، قفز الخمسة، ولم تمض نصف ساعة حتى كانوا بأعلى الجبل، أمضوا مع خمسة وثلاثين عاملا إحدى عشر يوما من العمل المتواصل، حفروا خلالها قواعد ثلاثة بلوكات من المساكن الشعبية، وصبوا خرساناتها المسلحة، ورموا قواعدها، لم يعطيهم المقاول سوى خمسة دينارات ونصف صرفوها على الطعام والشراب، وفى ليلة اليوم الثامن والعشرين وكانت أجسادهم قد استعادت قوتها، وقفوا على باب طبرق الغربى يودعوا المدينة التى لم تبق عليهم طويلا ، لحظات وبدأ المسير غربا باتجاه درنة.

–٢–

تلاشت طبرق فى الوراء، وفى الأمام امتد الطريق إلى درنة طويلا، مائتي كيلو متر تمتد عبر سلسلة من المنحنيات الطويلة، تحفها هضاب موحشة لا تلبث أن تبزغ من خلفها القمم العالية للجبل الأخضر .. وطوال الليل جدوا المسير دون توقف، أربع عشرة ساعة من السير المتواصل، فقط التقطوا أنفاسهم مرتين على قارعة الطريق الأسفلتى يتناولون الخبز الجاف دون غموس سوى السكر الرخيص الثمن، والمتسللين يعبرونهم كقطار لا تبدو له مؤخرة، جماعات جماعات مثقلين بجلاليبهم المتعددة ومعاطفهم المهترئة وعلى رؤسهم الطواقى والشالات البيضاء، وجوه متهالكة من التعب والإنهاك الشديد، بعضهم لا يزال يرتدى أحذيته ، وآخرين يحملونها على أكتافهم، وعندما يعودون للسير كانوا يعبرون مئات منهم، جالسين أو ممددين على الأسفلت يطلبون الراحة من عناء الطريق وربما الراحة الأبدية.

.. الموت.. الجحيم.. أم جهنم الحمرا.. إيه لزوم الحياه إذا كانت هكذا تعبا، إذا كان العمر سلسلة من الشقاء.. كنت فاكر أن الحرب آخر الليل.. وإن الصباح فى التو جاى.. لكن هذا الليل طويل ما ألعنه!! .. مكتوب له يكون بلا صباح..

ألا يا الليل هل لك من صباح..

قالها الملك حسان وهو أسير بلاد العجم .. بس احنا فى بلاد العرب، لكن نفاية.. ليه المرار والدمار البطىء .. هو كان للحرب غايه..!!

سدود.. سدود مملكة النعيم.. عشق الوجود.. قبله على ثغر الحبيب.. الهدوء الجميل فى المكان.. بساط خضره مسترسل تحت قبة السما، نؤابات الشجر، سعف النخيل، يبرق بشمس الأصيل.. سدود واحه فى الجحيم.. طوف من أربع حيطان وبعدها الطوفان، بحر هائج تعبره بلا ربان..

هذا الذى يحدث تحتار فيه العقول، كأن المرء واقف قدام باب مغلق، مفتاحه مع جنى اخفاه فى قاع البحر، والنفس ساحه للمعارك، لا تعرف مين العدو ومين الصديق، احنا عرب ولا حثاله من البشر جايين للشحاده على الطريق.

– ما تخاف.. الراديو فى ليبيا كل يوم يدعو اى مصرى بأن يتوجه للاداره من اجل الحصول على الجنسيه الليبيه، تعطيك حق المواطنه الكامله، السكن والاقامه والتجاره والمقاولات، تصير حقوقك كما الليبى

– بس مين يقدر؟

– مين ومين، مين اللى جعل حياتنا جحر من الجحيم؟؟

–٣–

هذه رابع ليلة من المسير المرير، بعده لم يزل الطريق إلى درنة طويل.. جوار السور الحديدى الممتد جانب الطريق لحماية السيارات من السقوط فى الهاوية، يتحرك المتسللين جماعات وراء جماعات، جيش جرار يَجِدْ السير فى امتهان إلى الأمام، ومازال فى الخلف عشرات الألوف، طابور طويل يتلوى مع منحنيات الطريق الصاعد كتف الجبل، تحفها هاوية بلا قرار، الظلام والفزع من السيارات، صرير إطاراتها عند المنحنيات وهى تسابق الريح تكاد تلامسنا، إمتى يا ليل تطل درنة؟

السماء غيمة من الضباب الكثيف؟ فتحت علينا كل ما تحمله من غضب، أعاصير الرياح، عواصف، مطر، يارب، قدر هذا أم امتحان؟ مستحيل أن يكون هذا مصير الفلاحين فى حكمتك،البرد ثلج ينخر العظام، كل مانرتديه من ثياب حتى السراويل مبلل بالمياه، لا يوجد أمامنا إلا المسير، كيف نعلم بالمصير، القدم كتلتى ورم مغروزة فى طاقات الجحيم، نار، لهيب، آلام تنهش قاع الدماغ، فيض من النقح الفظيع والأحذية سيور من الجلد، قيود

مُحكَمة، من يخلع جزمته، ينتفش حجم القدم زى قطعة سفنج، تكبر تصير فى حجم قدم الفيل، تمسها بأصبعك تنغرز، يتحول الاحمرار لزرقة الجثث المتعفنة، أن تعيد القدم للحذاء فهذا المستحيل.. سعير من لهب.. الآن سير على الأسفلت الطويل.

يا ابن الكلب حافى القدم، حافى يا ابن المفحور.. حافى، كف القدم والورم على الأسفلت جرح يتكىء على حواف الصخور، ينغرز على الأشواك سعير مهول، مسيح يا ابن عبدالجليل.. مسيح..؟!

ألا يا محمد اليوم صرنا غلابة، عار ومذلة وغربة مرة وهوانا، كنا فى وطنا أولاد أصول أسيادا، ألا يافجر أشحت عنى الودادا، خليتنى لليل قد خاصم الصبح كادا.. فين الخيول يا ابو زيد، فين النفير للحرب، فين السيوف والرماح، فين الرايات والبيارق، شط القنال حاربت أنا.. حاربت حرب الديابا، كيف يا وطن أنذل ذل الكلابا.. فين الخيول يا ابوزيد فين الورق والدوايا، فين اللى عن ما جرى، يحكوا ويكتبونا، إن اللصوص فى الوطن، الآن يحكمونا.. إيه المصير.. إيه المصير يا رفاق ما تقوللنا، خرج الغلابة جيوش، عند العرب يشحتونا..
ظلمتنى يا وطن.. ليه يا وطن تظلومنّا..

-٤-

زعق صرير فرامل إحدى عربات الشرطة فى الفضاء ، لحظة وقوفها حولت أضواؤها التحذيرية المكان إلى حالة من الذعر، والهلع، نزل شرطيين فى معاطفهم الجلديه يمسحون المكان بمصابيحهم.

- شرطه.. بوليس.. اهرب يا وله..
- نط يا ابن الكلب وراء السور الحديد..
- نام على كتف الطريق..

.. فى مكان ما ثمة خطر يفتح فوهته على مصراعيه ينتظر الضحايا.. زلات أقدام.. صوت حجارة تنزلق للهاوية صرخات عميقة فى الظلام.. عواء طويل، وصدى مكتوم ردده الجبل ثلاث مرات.. ثلاثة عشر من المتسللين سقطوا فى قاع الجبل، تحدث الشرطيين فى

غضب، عادا إلى سيارتهم، لم يكلفا أنفسهم عناء النظر..

تجمع المئات من المتسللين، أطلوا برؤوسهم لأسفل، لكن الظلام والهلع أصاب الجميع بالشلل .

- بعيد قوى، مؤكد ماتوا ولم ينج احد.
- ممكن يكون حد عايش؟
- صحيح!
- اسكت يا وله.. اسمع فيه صوت بعيد.. انات الم .. ح نعمل ايه؟
- هو انت شايف فى الظلام شىء.
- يعنى نتركهم كده .

وقف ساهما ينظر فى الظلام مستسلما وقد هزمه الشعور بالعجز، بينما كان البعض يفحص المكان بحثا عن طريق للنزول إلى القاع، تسربت من خلال الجمع أعداد قليلة خافضة رؤوسها، وكان ينتظره البقية، دقائق وخلى المكان من الجميع، وبقى صوت تحذير للقادمين.. خذ بالك.. امشي من داخل السور يمة الأسفلت، فيه تلاتاشر سلكاوى، أيوه مصريه سقطوا فى قاع الجبل.. لكزه فى الظهر وكلمة صارمة فى الأذن: يلا نمشى يا عم.. تقدر تعمل إيه..؟

عندما استدار كان محمود ينظر إليه فى غضب.. هز نبيل رأسه ناحية الأمام مشيرا إليه بالسير: يلا.

- والبنى آدمين اللى فى قاع الجبل.. ؟ قاطعه محمود.
- هى دى جثث ح تصلى بينا عليها، جرى ايه يا حضرة الصول، دى جبل واعر، واقف عدل، تمد رجلك خطوتين تسقط فى هاويه ما لها قرار، لا تعرف كيف تكمل نزولك، وما تعود تقدر تصعد لفوق، مصيده، ان كنت شاطر انزل لهم؟

عقب المبروك وأبو رحاب: يلا.. يلا يا عبدالله، ادعى لهم بالرحمه. غمغم بصوت منخفض: الرحمه تجوز للموتى..؟ دول مش محتاجين للدعاء دول محتاجين يد المساعده.

دفعوه.. سار مطأطىء الرأس ونبيل يقول:

- عايز تنقذهم بلغ الشرطه.

حدث نفسه.. ابلغ الشرطة وارجع مصر.. صدمه العجز.. يدفعه بآلية شديدة الإصرار للتقدم إلى الأمام.. الضعف والخوف.. العجز والتسليم فى الغربة.. فات أوان الرجوع.. واللى مقدر كان.. تعرف إيه عن منازل الجبل، تهبط فى دروب مجهولة وفجأة الطريق ينسد، ترجع ماتعرفش تطلع، ما سمع احد صوت ارتطام أجسادهم بالأرض.. يعنى هاويه بلا قرار.. سير إذن.. استسلم.. إيه.. !! إنت شايل هم الدنيا ليه.. إيه بمقدورك يا ابن عبد الجليل.. ح تعمل المستحيل!! .. امشي خلفهم مطاطى الراس ودراعتك معلقه بيد الصحاب، انظر أمامك.. على كتف الطريق عادت جيوش المتسللين ، جماعات وراء جماعات، تَجِد المسير بمذله وهوان إلى الأمام، إمتى تطل درنه..

يا ابوزيد من هنا مريت.. ابوزيد مين يا ابن الكلب.. ابوزيد عبر ليبيا وخلفه كتائب الفرسان وتجريده من العسكر.. ابوزيد مين يا ابن المفحور.. ده احنا فلاحين غدر بينا اللى فى البندر وشلة الجالسين فى قصر عابدين.. امشى يا ابن عبد الجليل سير مع الليل الطويل ولا تغنى لقوم بعد اليوم.. سَمَكْ. قدرك ابلعه من سكات.. الممات.. الهرب من الشرطه.. البطاله.. ضعف الاجور فى سوق العمل.. مصر تتقيأ جوفها فى تعب.. مئات الالوف من الفلاحين.. عمال.. صنايعيه.. أنفار مواسم.. وشباب تلفظهم ، كأنهم الجرب.. الطاعون.. أبناء حرام.. أولاد سفاح.. وكأنه لم تكن هناك حرب كنا حطبها .. ما هذا العبث فى مصير الأمس ؟ .. ما هذا العبث فى مصيرنا اليوم ..؟

-٥-

وقفت عربة بيك آب يقودها عجوز وغلام بجانب الطريق، حدسوا أن السائق يسألهم الصعود، قفزوا دون أن يسألوا السائق شيئا، لحظات ووجدوه يقف خلف السيارة يطالبهم بخمسة دينارات لكل واحد منهم.

هتف عبدالله: حرام تكون بتضحك علينا تمشى بينا عشر دقائق وتقول نقطة مرور.

صاح به العجوز بتوحش يحمل التعالى: راع أنا نقول الحق مش نكذب يا مصرى، أنا نَترُكُمْ قبل درنة بعشرة كيلو متر، باهى..!؟

بعد أقل من نصف ساعة وكانوا قد شعروا بالاسترخاء، توقفت العربة فجأة واستدار إليهم قائلا:

- هيا يا إخوان، تعدوا نقطة المرور هادى وأنا ننتظر فيكم بعدها.

لم يستطع أحدهم أن يجادله، إذ كانت نقطة المرور تقبع بالفعل على بعد ثلاثين مترا وعندما حاول محمود أن يطالب باستعادة جزء من المبلغ المدفوع ليضمن وجود السيارة بعد نقطة المرور، صاح السائق به بغضب من مست كرامته وأهين:

- ترى أنت يا فوال تكذبنى يا مصرى، كيف أعطيك النقود بعد ما ركبت يا تيس، يشهد ربى إن كان فيكم حدا يفهم ، برقت عين محمود، وبمجرد أن حاول أن يمد يده يمسك بخناق الرجل حتى وجدوه يصرخ بهم: حاجى تعمل شىء نادى على الشرطة يا بويكر

قبل أن ينزل الغلام كان أربعة من المتسللين يلثمون يد الرجل ويرجونه العفو عنه، وأنهم سيسرعون ليستديروا حول نقطة المرور، وأخذوا يحلفونه بالله ومحمد وبأيمانات المسلمين أن يرأف بهم ولا يخدعهم وأن ينتظرهم، وهو يرد عليهم فى غضب: أيوه، أنتظركم، أنا أخذ فى فلوسكم وأجرى، هذا حرام، أنتم تهينونى هيك.

- احلف.

- ترى تكذب فى ثانى يا مصرى!!.. ما أحلف بكُلْ .

عاد الجميع يهدءون من روعه ويستحلفونه ثانية أن ينتظرهم، وهو يكرر نفس العبارات، هذه إهانة يا مصرى، والله ما أقبلها، وعندما سارعوا ليستديروا حول نقطة المرور شاهدوه يشرع فى العودة إلى الوراء، وقف البعض يشهق مدهوشا..

قال محمود: ابن الهرمة عملها!!..

برغم ذلك انطلقوا جميعا خلف الأخرين الذين سارعوا يلتفون حول نقطة المرور.. آمال كاذبة وسلوك قهرى اسمه عدم التصديق، وربما عشق الضحية لانتهاك الآخر المتواصل لها.

أنَّت أقدامهم على الصخور من الألم، وهم يقفزون فوق الأراضى الصخرية للجبل والمنحنيات القليلة، وعلى الجانب الأخر من نقطة المرور انتظروا طويلا لكن أحدا لم يأت..

قال عبدالله:

- ابن الكلب، لو ماكنش طاهر زى ولى.

عقب محمود: انا شايفه بعينى راجع يحمل فى بهايم تانيه

قال نبيل: يعمل ايه الناس.. يتعلقوا فى الحبال الداييه!!

سمع صوت أحدهم يتهم محمود بأنه السبب، نظر إلى عبدالله هز رأسه متعجبا، غمغم: الناس صارت غريبه، عارفه مين بيدعك برؤوسها فى الوحل، ولا تستنكف أن تقبل يده ١٠٣وتدعى له بطول العمر.

بعد ساعة من الوقوف في العراء سمع المبروك عبدالله يئن فى خفوت.. أمسك بذراعه :

- مالك، فيه حاجه. ؟

- تعبت.

- كلنا تعبنا.. رجلك. ؟!

- بالضبط.. الالم مكان الجرح، فى كل حته من جتتى.. التفوا جميعا حوله .. استطرد.. الجزمه نار فى كف القدم، نقعد ننتظر حتى الصباح..

تقدم نحوه نبيل تاخذ جزمتى، واسعه على قدميك..

- وانت تمشى ازاى؟

- مالكش دعوه..

عارضه محمود: انت ما فاهمش، رجليك مواخداش على الارض، انت ابن بندر، خد جزمتى انا، تلبس كام..؟

- جزمتى ٤٤ اكبر نمرتين.

عندما خلعوا عنه نعليه صرخ، شاهدوا تهتك الجلد الخارجى للقدم المنتفخة، فسرت فى جلودهم القشعريرة.. حاول المبروك دفع الحذاء فلم يدخل، توقف فى حيرة.

شتمه محمود: انت بتحسس عليه.. ودفع الحذاء بعنف دفعة خاطفه.. يلا، يلا.. كان عبدالله لا يزال جالسا غير قادر على الحركة.

- راجل ولا لأ.. اسمع يا ولد تقعد هنا ما تسوى شىء، قدامك اسبوع حد ماتستطيع السير، تاكل وتشرب منين وتروح من المطره والشمس فين، ما نوقف إلا فى درنه..

وقفوا حيارى.. مال عليه المبروك: دى ساقه مصابه.

- عارف..

مال يكشف عنها ، كان بها احمرار خفيف. .. قوم، قوم. جذبه لأعلى.. حَمِّلْ على، حَمِّلْ يا وِلْد، ماتشرق الشمس إلا ونكون فى درنه لو حاملينك على ظهورنا..
غمغم حزينا.. ياليل امتى يهل صباحك.؟!

الصباح الصباح.. الليل الليل.. المطر والشمس غايبه خلف السحاب.. الالم فى العقل قطر حديد ماشى يدك الدماغ، يبحر العقل فى ليل يشق غمامه، عله يصل لصباح.

ترك جسده يحرك قدميه بآلية، وكلما شعر بالتخاذل استلهم عزيمته من أحلامه، مرددا مع كل خطوة يقطعها.. لاجل شرا غيط الحاج رزق.. لاجل ابنى اللى ح يتولد حزين.. لاجل شرا الطين، بهايم ودار جديدة على الجسر القديم.
فى الرابعة ظهرا اقترح نبيل الجلوس لكن عبدالله رفض .
– لو جلست مش ح قوم.. المسير.. المسير.. وعلامات الكيلو مترات على الطريق قطرات مياه لبشريسحلها قيظ العطش فى متاهة الصحراء، كلما عبروا علامه صاروا أشد ظمأ من ذى قبل.. يستمر المسير، فى تعب وسعير من لهب

* * * *

مع أضواء الصباح الأولى برزت ملامح الهضبة العلوية للفتايح، منذ هذه اللحظة أصبحت علامات العشرين كيلو مترا الأخيرة لدرنة من أصعب المسافات وكأنهم بعد على حدود طبرق.. العشرة كيلو مترات الأخيرة جاءتهم بالفرح والابتهاج الشديد، وبرغم كل شىء تسارعت خطواتهم، عندما بزغ قرص الشمس الأحمر من الشرق كانت درنة تطل من بعيد.

الفصل الحادى عشر

-١-

بجوارهم وقفت إحدى السيارات، نزل سائقها للتبول، لاحظ نبيل علامات إحدى الشركات المصرية العاملة فى إنشاء المبانى.. نادوا عليه جميعا: باق كثير على بوابة المرور..

أشار إلى الأمام: منحنيين وتظهر البوابه..

نظروا إليه بتساؤل.. قال: عندك طريق الجبل تنزلوا المدينه من حى باب طبرق، او تتجهوا يم البحر الى الطريق القديم الهابط حول محطة الرادار، تدخلوا درنه عبر الساحل ..

كالوا له الشكر والمديح.. همس أحدهم: لم افعلها فى حياتى..

تشجع أبورحاب، تقدم عائدا إليه وعلى وجهه علامات الاستعطاف:

- والنبى لو سمحت.. ماكلناش من يومين..

هز الرجل كتفيه بضيق واستدار راحلا، بعد خمس دقائق شاهدوه يعود ثانية، ألقى لأحدهم بدينار، التقطوه ككلاب جائعة.. وعلى الطريق كان المئات يجدون السير فى طريقهم إلى المدينة وقد نفذت نقودهم ومؤنهم، ومن الشمال سقطوا عبر المنحدر الهابط من هضبة الفتايح إلى ساحل المدينة ومنها حتى بلغوا حى الساحل..

الطعام.. كوب من الشاى.. السجائر.. أنفاس الدخان.. ذهب نبيل والمبروك وعادا بعد هنيهة، أحضرا معهما خبزا وجبنا وبصلا أخضر وعلبة فول وسجائر، وبجوار أحد المنازل الكثيرة التى لا تزال تحت الإنشاء جلسوا، فى دقائق معدودات التهموا كل الطعام الموجود واكلوا الفول دون ملح ولا زيت، وعندما شربوا الشاى مع دخان السجائر كان العالم قد أصبح تحت أقدامهم، تمدد البعض ونام تحت ظل المبنى وبقى الآخرهم حول النار.

- اباه.. حمد الله على السلامه يا رجاله، وصلنا درنه، يـــاه.

- والله العظيم تلاته لو اعرف ما غادرت دارنا.

قال محمود بخشونة: الطريق قدامك، وقف عربية شرطه توصلك متريح حد مساعد، خد

القطر، وارجع لامك غنى جنبها.. ضحك الجميع.

– لقمة العيش ماعدتش بالساهل.

– صلى على النبى ياشيخ، ربنا يعوض صبرنا خير، اسمعوا نصيحه لوجه الله، كل واحد ياخد فى اجره يوم بيوم، ماتبقى لك درهم عند واحد سوا ليبى، سورى، فلسطينى، خاصة المصرى، تشتكى لمين..؟ للشرطه.. يرموك للحدود كيف الرمه، السلكاوى هنا مالوش حقوق.

انخفضت رؤوسهم وهم يطبعون كلامه فى ذاكراتهم، وعندما أطلت امرأة وفتاة من نافذة فى ردائيهما الذى يخفى وجهيهما، التمعت عيونهم المطفأة، ودب فى عروقهم سحر نساء درنة، لكن هذا لم يدم طويلا، اذ أنه بعد ساعتين عاد الجوع ينهش بطونهم.

صاح فيهم محمود: ما ننامِ الليله الا ومبيتين على عمل.

مضى نهار اليوم الأول، وهم يمشطون المدينة بحثا عن عمل دون جدوى، وفى المساء اضطروا للشحاتة ثانية، تسائل عبدالله إذا كانوا قد جاؤوا للعمل أم للشحاتة، وإذا ما كانت المرأة التى عبرت معهم الحدود أكثر منهم بعدا للنظر، ربما يسفر الصباح عن شىء أفضل، فى هذه الليلة ناموا على الطوى فى أحد الأحواش المهجورة التى لاتزال تحت الإنشاء، كانت ليلة رهيبة بلغت درجة الحرارة فيها ثلاثة تحت الصفر، لم يعفهم وجودهم فى المدينة من البرد القارص، إذ كانوا على مبعدة أمتار من البحر، وطوال الليل كانت الرياح الباردة تنخر عظامهم، حتى بدا لهم أن السير على الطريق أرحم من النوم تحت سماء دون غطاء، وفى اليوم الثانى استيقظوا والجوع يقرصهم، سعى بعضهم للشحاتة، وكان ذهاب المبروك للاستجداء قد شجع عبدالله ونبيل إلى النظر باستعطاف فى وجوه المصريين، على أن أحدا لم يأبه بهم، فى إحدى المرات صاح بهم أحد المصريين: يا أخى رُوح، أعطى مين ولا مين وانتم ألوف، لو صرفت مرتبى مش ح يكفيكم شاى فى يوم، اتكل على الله شوف لك شغلانه انت وهو.

فتح عبدالله ذراعيه: حكمة ربنا.

بعد مضى نهار اليوم الثانى، دفعهم الجوع دفعا لتلمس منة الآخرين بجوار المطاعم ومحال البقالة، واقفين فى ضوء الحوانيت وخلفها حيث كان طابور من الوجوه المصفرة الكالحة تختبىء فى العتمة، مادة أيديها إلى المارة فى ذلة وانكسار، أعداد قليلة من النقود لم تكفهم خبزا، وعندما أوغل ليل اليوم الثالث كانت معنوياتهم قد انهارت تماما، لقد اكتشفوا أن سوق العمل بدرنة متخم هو الآخر بالألوف وليس فى حاجة إليهم، فعلى الهضاب العليا للفتايح وعلى امتداد الجبل الأخضر كانت الشركات التى تنتمى لأوربا الشرقية وتركيا وإيطاليا وكوريا قد أقامت معسكراتها، مكتفين ذاتيا بكل أنواع العمالة التابعة لجنسياتهم، حتى الطباخين والسائقين، كانوا يستوردون كل احتياجاتهم ما عدا الخبز مما أضعف الطلب على العمالة المصرية على وجه الخصوص و أضر بها إضرارا شديدا.

أتى الليل الرابع حاملا معه رعب المبيت فى العراء، كان الجو قارص البرودة، تحلقوا حول النيران، بعد أن أتوا على الخبز القليل الذى غمسوه فى الشاى والسكر، وأمضوا

الليل يتناقشون، ويطونهم على الطوى فى البقاء يوما آخر، أم الرحيل إلى بنغازى فى الصباح الباكر والعودة إلى قسوة المسير. فى صباح اليوم الثالث وقفت سيارة بيك آب، نزل منها شاب فى الثامنة عشر وصاح بهم: تبوا خدمة ؟؟

قفزوا فى مؤخرة السيارة قفزا، عندما حاول محمود أن يسأله أجورهم كادوا أن يفتكوا به مرة ثانية، ساروا للعمل من فورهم، كان عملهم حفر خط للمجارى، لقاء دينار وربع يوميا، وفى الليل ابتنوا براكه من الطوب الأسمنتى وألقوا عليها ألواح الصاج، بعد عشاء وفير وشاى وسجائر ناموا كما لم يناموا من قبل، ناموا وكأنهم موتى تفترش فراشا وثيرا من الحرير، فى الصباح قام كل منهم منتعشا بعافية جمل. وطول اثنى عشر يوما متواصلة ظلوا يعملون بكد عجيب، وعندما تسلم كل منهم ثمانية دينارات، مخصوما منها ما استدانوه لطعامهم، اشترى كل منهم حذاء كاوتشى وسترة من الصوف الرخيص الثمن، وعندما انتهى العمل لم يغادروا البراكة اتقاء لعناء الشتاء القارص، خمسة أيام مرت دون عمل وبدا لهم أن قسوة الحياة سوف تعتصرهم ثانية بخيبة الأمل.

فى ظهيرة اليوم السادس قدم عليهم الشاب الليبى الذين عملوا معه فى الأيام القليلة الماضية بصحبة شاب سورى أشقر، فى الحادية والعشرين من عمره، لوجهه أنف معقوف ضخم وخصلات شقراء، وضع يديه فى بنطاله المصنوع من الچينز وبدأ الحديث، وعندما يتحدث السوريين فى الأعمال والأسعار فإن الجليد يكسو وجوههم، وينعدم الإيحاء ويصير لصوتهم نبرة باردة، وبين النظر فى عينيك مباشرة والنظر فى الفضاء يكون عقله مركزا حول ما يريده، حوله التف العمال المصريين ينظرون إليه وإلى عربته المرسيدس فى بلاهة. لم يكن ثمة مجال طويل للحديث، سألوا عن مكان العمل والنوم ومتى يتسلمون نقودهم، أما قيمة اليومية لم يتطرقوا إليها، كان الرجاء فى قيمة الأجر أقوى من الوقائع العقلية لأهمية الاتفاق، كل ما حاولوا التعبير عنه فى سذاجة هو مقدرتهم على العمل.

قال أحدهم بلهجة بلهاء: بس ياعم حضر الفاس واحنا ناكل الارض اكل.. وشمر آخر عن ذراعيه وقال بحماس: وجهك السمح يبشر بالخير، كلنا امل فيك، وأخذ يدعو له كامرأة عجوز .. روح يا شيخ باين عليك راجل طيب، ربنا يكتب لك فى كل خطوه سلامه، روح واطمن احنا ناكل الصخر علشان خاطرك.

هز السورى رأسه بازدراء وكأنه يستمع لاسطوانة مشروخة من كثرة ترديدها: باهى، باكر بعدى عليكم فى الفجر، تكونوا جاهزين..

تعالت صيحات التأكيد، وتحولت إلى محاولة مستميتة للحصول منه على قسمٍ بحضوره، وألا يبحث عن سواهم.

منذ الفجر جلسوا فى انتظاره وحتى الضحى لم يبدو له أثر، عصفت بهم خيبة الرجاء، بعدها حل الخوف من الجوع والليل الثلجى، وأخيرا جاء، قفزوا إلى مؤخرة سيارته البيك آب فى عجلة وصمت، خوفا من تحول الواقع إلى حلم هستيرى، دقائق وكانت السيارة تصعد الفتايح.

عندما بلغوا الموقع شمروا عن سواعدهم من فورهم بينما تكاسل محمود وبقى ملتصقا بأبى النديم، وقد نصب نفسه ريسا للأنفار، وعندما قفل أبونديم راجعا إلى المدينة، طلب منه أن يحضر معه موقدا وآنية واكوابا وخبزا وشايا وسكرا وعلب السردين وجبنا محفوظة، وبقى محمود يتشاغل ببناء براكة من الطوب الأسمنتى عرضها لايزيد عن مترين ونصف، أحضر السورى لهم ما طلبوه، وأضاف تنكا كبيرا من البلاستيك لمياه الشرب، وبطانيتين مهلهلتين، سرقوا مثلها من شركة لحفر الأبار وأعطاهم خامسة بعض المتسللين الذين يعملون بإحدى مزارع الدواجن القريبة رأفة بهم.

عندما جاء الليل تمددوا على أرض رملية مبللة بالمياه، كانوا برغم كل شىء فى العراء، مطر لا يتوقف، ورياح صرصر، تضرب فى البراكة فتنفذ سهامها المسمومة من بين شقوق الطوب والسقف لايعوقها شىء، فى آخر الليل طار السقف، خرجوا وهم يضمون أذرعتهم إلى صدورهم من البرد الزمهريرى يجمعونه بصعوبة، وعندما جاء الصباح استيقظوا وكأنهم لم يناموا قط. مع كل صباح يهل كان يعبرهم المتسللين القادمين من طبرق، متشابهين فى الوجوه متشابهين فى الإعياء وتسول العمل والخبز، وإن وجدوا عملا جلسوا القرفصاء فى وجوم، ثم يبدأون فى الكشف عن أقدامهم التى عمها الالتهاب بين الزرقة والاحمرار، وقد ضافت بها الأحذية، يخلعونها بصعوبة والآلام تعتصرهم عصرا، ثم يتقدمون فى صبر وقوة تحمل تنوء بها الجبال إلى معاولهم يتقاسمون أماكن الحفر، فإن لم يجدوا العمل تسولوا الخبز فى إعياء بالغ ، يواجههم على الأغلب جدار من الصمت، فلا يبقى أمامهم سوى أن يستديروا فى خجل إلى الخلف، راحلين نحو المجهول.عمل محمود قليلا ثم توقف تماما، وتحول إلى متابعتهم وقضاء طلباتهم والسير خلف السورى، حاملا له شريط القياس أو الخرائط، يومين وبدأ يورد عمالا للحفر، يحضرهم من الطريق، يعملون معه طوال نهارهم لقاء وجبة غذاء، ثم يقوم بترحيلهم على الفور ليلا، فى اليوم الرابع توقفوا جميعا عن تناول أى أنواع من الطعام توفيرا للنفقات ،اكتفوا بأكل الخبز مع الشاى والسكر فى الوجبات الثلاثة، كان سعر كيلو السكر لا يزيد عن خمسة دراهم، وكان السورى قد توقف عن إحضار الطعام لهم، وحتى المياه توقف عن حملها فى سيارته، فكانوا يضطرون لإحضارها بالتناوب من مكان يبعد ثلاثة كيلو مترات، حيث مزرعة الدواجن عند مدخل سيدى عوف.

-٢-

اليوم رحل أبونديم ورحل معه نبيل فى عربته المرسيدس، كان قد سأله إن كان يفهم بالكهرباء صاح به نبيل: مهنتى.

- تعرف كيف تعمل توصيلات المنازل.
- دبلوم صنايع قسم كهرباء وتسع سنين خبره.
- وإذن ليش تعمل عامل مياومه.؟
- حكم الظروف يا ابونديم.

رحل أبونديم ورحل معه نبيل فى عربته المرسيدس.. رحل ولم يترك سوى ثلاثة عشر دينارا، عندما غاب فى الطريق كأنما السماء تنتظر رحيله، إذ لم تمضى ساعتين حتى غابت الشمس خلف الغيوم الكثيفة وازدادت سرعة الرياح، ومنذ العصر أخذ رزاز المطر فى التساقط، وعندما أتى الليل انخفضت درجة الحرارة ثلاثة درجات تحت الصفر، وفى اليوم التالى لم تظهر الشمس قط، وانطلقت الرياح الباردة على سهب درنة العلوى بالفتايح من عقالها، خيول لاهثة تنفس من منخاريها برودة قطبية، مطر غزير وفجأة فتحت بوابات الجحيم، كانت حبات الثلج تتساقط مندفعة كطلقات الرصاص، فى البداية غمر الجسد والعضلات الدفء، ولكن التوقف لحظات عن العمل كان يحمل معه شرا مسيطرا حيث يختلط العرق الساخن بالبرد القارص فيسقط الجسد فى نهر ثلجى، تتجمد الأصابع على مقبض الفأس، لكن ما بال القدمين المفلطحتين المنتفختين الملتهبتين من عناء السير تتصلب فى قاع الحفر الممتلئة بمياه الأمطار الثلجية، فتتحولا من لو نيهما الأحمر الوردى إلى غشاء من المطاط الأسود الترابى المستهلك القديم، تحوط به هالات من الزرقة المتسخة، وتتضايف الأصابع المتكورة بالورم الثقيل، فتصير كتلا من الرصاص المعلق، صلدة لاتتحد ولا تنفصل عن كف القدم.

أز الكريك وضربة الحجارى.. مين يحكى عن اللى فى جوفى ومين يولع نارى.. احفر قبرك يا ابن عبدالجليل، واسمع لصوت الازمه والكريك.. بوم به.. تشيك.. تشاك.. اسمع الصوت ده واحفظه.. لحنه وغنيه.. تكره مين ولا مين.. عبد الرحيم اللى اجل موت ابوك يوم علشان يزَور حيازة الارض باسمه، ولا امى اللى اشتريت لها من فلوس الجيش، لحمى الحى، جاموسه تحلب لها جبن ولبن علشان ما تحتاجش اماره مراة عبدالرحيم.. بعدها تقول لى: عقد الشرك باسمى مالكش فى الجاموسة ضافر، ولا حتى ديل تعمل به منش تقعد بيها على بوابة العلاميه، اكره ابراهيم.. خطف منى تحويشة العمر من راتب الجيش وبدل المحل الشرك، دفعه مهر وشبكه لكلبه من مصر.. خدعته ورمته رمية الكلاب.. العنه ولا العن لصوص الاسفلت.. مافيا شركات الطرق.. القوه والضعف.. آآآآآآآه.. هل تقبل الاهانه فى الاستسلام للشقاء.. ام ان القوه فى الصبر عليه.. ويلى إذا ما كان بعد الصبر.. ايه..!!

ياه البرد ينخر فى العظام يصلب القدم، يجلد باسواطه الايدين والاصابع.. الحب والكره.. الظلم والاستبداد.. البؤس والاحلام وخيبة الامل.. اليأس والاحباط.. الموت والشقاء.. العمر اللى راح هدر.. لم تعرف فى يوم طعم السعاده ربما تكون الجنه لك.. آ آ آه سريعه ومباغته..آآآآه.. الالم فى الحشا نار قايده.. الجوع.. خبيزه سايطه.. واللحمه حلم بعيد المنال.. عايز ايه يا ابن المفحور.. كفايه عليك.. خبز مغموس فى سكر وشاى منذ الصباح حتى سكوت الكلاب عن النباح. البرق والرعد والرياح تعوى فى البيادى، والبشر فى منازلهم متمدده على الفراش بالدفء، وجحافل الفلاحين فى العراء، اوقدوا النيران واملوا البطون بالشاى ودخان السجائر، النوم، يُدّفى كل واحد بحضن رفيقه من صفير الرياح، تقاتل من شقوق الحيطان حامله حبات المطر. ساعتين واستيقظ الجميع، والمياه صنابير ثلج مفتوحه من السقف، إذا حمى النيام رؤوسهم كشفوا عن باقى الجسد والقدمين، مين يتخيل سيمفونية العذاب اللى تعجز عن فعلها اعتى جهابذة الطفاه، قطرات ثم خطوط من الثلج تطرق مناطق من الجسد تحيلها مراكز لاوتار، تفتل على اطراف العصب، الصداع.. الالم.. الجنون، ليس ثمة مهرب لا بالخروج الى العراء ولا بالبقاء فى فراش الخشب الطاف على برك من المياه، السقف صار منخلا كبيرا، قطره خلف قطره، لا نوم ولا يقظه، قطره على الساق واخرى على الدماغ، على الظهر، البطن، الجحيم مجسدا، التنبه، اليقظه، ثم الانتباه، ثم الانتظار، ثم محاولة الهرب، ثم الاستسلام، بعدها تصبح قطرة المياه التى تسللت عبر اكوام الاغطيه الفقيره من بطانيات وملابس والخشب، دوى هائل فى الراس؟ ده احنا بشر، عذاب.. هلاك.. تعب، النظر الى السقف نشاهد تجمع قطرات المطر، هجومها الوحشى .. لسعات العقارب. لدغ الثعابين، مره.. مرتين.. ثلاث، ولا مفر.. ويجن العقل فى انتظار الصباح.

آلا ياليل، هل لك من صباح؟! ..

جاء الصباح وحيدا ولم يجيء ، كانوا ينتظرون قدومه، وبصحبته الخبز والطعام والشاى والسكر والسجائر والنقود، والطبيعه المتوحشه، تمضغهم، تلوكهم بتلذذ شبقى.. جاء الصباح ولم يجئ أبو نديم .

– لم يأت..! تركنا، !! يتعب نفسه ليه ويجى فى هذا الجو اللعين..؟

– تلاقيه نايم متغطي بالغطا وجنبه دفايه.

– او فى حضن مره

– يتركنا كده، مقطوعين فى صحراء، لا اكل ولا ميه.

تحامل البعض وعاد للحفر، وتبعهم الباقين يحاولون نسيان جوعهم، لكن المطر عاد يسقط بشدة فغادروه إلى البراكة، وشرعوا يقيمون سقفا من ألواح الخشب، عسى أن يمنع سقوط المياه، وعندما جاء الضحى أصابهم اليأس من قدوم السورى، ذهب بعضهم لشراء طعام

بالدينار الوحيد الباقى، وآخرين لإحضار المياه، وتجمع الباقين داخل البراكة، وقد تدثروا ببطانية تنساب منها المياه.

عاد الليل يحاصرهم بالظلمة والمطر، أوقدوا النيران مستخدمين ألواح الخشب الجديدة الخاصة بالبناء، وبعد مقاومة شديدة ذهبوا للنوم وكأنهم ذاهبين لجهنم، أرضية البراكة وحل، برك من المياه، يغوصون بأقدامهم حينا وحينا يتمددون، أى ليل أسود من هذا الليل الطويل، ولا عزاء، المسير فى العراء أقل قسوة من النوم تحت هذا السعير .

النوم عذاب، قيوده أقوى من سلاسل العبيد، الضيق، تنافر الجسد، برد ثلجى، نهش الحواس، الترقب، الانتظار، الانكماش على الجسد، التوتر النفسى بما لا يطاق، التكوم فى الوحل، التمدد، العضلات تشدها سلاسل التواتر، متى ينتهى هذا الليل ويشرق الصباح.

لايشرق الصباح، يأتى معتما وقد أنهكهم السهر، خمس ليالى دون نوم، الضعف يغالبه الصبر.. الصبر المميت من آلاف السنين، هل يأتى السورى، يأتى الليل منتظما لا يخلف مواعيده قط، ولا يأتى السورى، تنفد أعوام الكبريت ولاتعود هناك نار.

– حد يروح يشحت كبريت، خبز من عمال المزرعه، يستلف فلوس.

رفضوا، من يقرض سلكاوى وعابر سبيل، لا اسم، لا هويه ولا عنوان – لم يحضر ابن الكلب، انا جعان، السماء بتنزف اليوم دم .. دم صاحى من دماء البشر.

– ما عدش فى السماء رحمه.

صاح محمود بغضب: هو فين ربنا يعنى مش شايفنا.

– بلاش كفر، يمكن اختبار.

– اختبار ده ولا احتقار..!

– يلا قوم ع الحفر..

ضحك عبدالله قال والكل يبتسم من القهر.

– يا اخى حفر ايه..؟؟

همس المبروك: نرحل.

– فلوسنا.!!

– بلاش الفلوس، القوه كلها مصابه والخسائر مائه فى المائه، حمى .. تعب.. هلاك.. ننسحب

– لفين؟ ولإمتى؟ لسه الانسحاب قدرنا.

– ياالله، نام، ناموا علْ الموت قريب.

فى المساء بلغ الإعياء مبلغه، ظهر المرض على الوجوه، سقط خمسه صرعى الحمى، واستقبلوا الليله السادسه وقد أقسموا متعاهدين أن يقتلوه.

– على الطلاق لافتح دماغه بحجر.

– والله لاكون كاسر له السياره، ح اكسر دماغه في الزجاج ...

– زجاج سياره..! اقسم بالله العظيم مال إلا راميه فى الحفره دى واردم عليه حى.

جاء الصباح، ظهرت الشمس ثم غابت وتوقف المطر، فى الضحى ظهرت السياره المرسيدس، جاء أبونديم ومعه صاحب العمل الليبى، كان وجهه مشرقا مورد الخدين، لا يبدو

عليه أى شعور بالخطأ، رآهم جالسين القرفصاء فى صمت، كالحى الوجوه، كل منهم منطو على نفسه، متضائلا كشجرة جميز خربة، واحد فقط نطق، تحدث عبدالله:

– والله حرام، إحنا مش عرب .؟!

أجاب السورى بوجه متلبد وصوت بارد ويتكلف تختلط فيها اللهجة الشامية باللهجةالمصرية: إيه، كلنا عرب، عايز إيه إنت؟

– كيف يا راجل تتركنا ست ايام فى المطر، لقمه معفنه مش موجوده

تحدثوا حاولوا أن يشرحوا له آلامهم دون جدوى، تعجز الكلمات أن تحكى عما يحدث، فى النهاية فشلوا فى شرح أى شىء، كانت المأساة مرسومة على وجوههم المغبرة الكالحة، قال السورى هازا كتفيه:

– ليش يا إخوان.. انتم لكم خمسة ايام فى الطريق، قولوا لى الطل ام البراكه.. إيه مو منطق.. انت ما كنت عبد عندى، بتروح وقت ما بدك تروح، انت ما تميزت فى العالم بالصبر، ليه تغضب إذن.. أشياء كثيرة قالها وأخرى قالوها ولم يفهم أحد شيئا.

عقب: وانا مالى، مسئول انا اكرى(٣) لكم حوش ..؟

اندفع الليبى معنفا إياهم: كنكم، يا مصريه..؟ شنو تبوا من الرجل، كان فى بنى غازى ولا يعرف بمطر ولا غيره..

كتموا عذاباتهم بعد أن أطاح بكل مبرراتهم .. خفضوا رؤوسهم في استسلام، همس أبو رحاب.

– بنغازى، طيب عايزين ناكل.

كمن ينفض عنه جربا أو طاعونا، هتف السورى وكأنه يطيح بحشرة سامة علقت بملابسه: ما تروح تجيب لنفسك الاكل، مش مسئول انا، اطفال انتم!؟ .. أمام نظراتهم البلهاء تدارك ثانية: طيب عايزين إيه انا نبى نفهمكم إن إحضار الاكل مش مسئوليتى وإلا اصير ما اشتغل. تحدث محمود وقد نفذ صبره:

– ياعم علشان خاطر النبى مسئوليتك، مسئوليتنا، إحنا هلكنا من البرد والثلج والمطر، وانهد حيلنا، كرامه للنبى والمسلمين، ست ليال ما دقنا طعم النوم، والله والله العظيم لازم اكون مصور قتيل هنا.

– طيب.. طيب.. قالها وأسرع راحلا بسيارته مع كفيله الليبى.

فى الظهيرة وبعد تناول الغذاء تحاملوا على أنفسهم، وعادوا منهمكين للعمل ثانية، فتى واحد كانت الحمى تفتك به، فبقى وحيدا فى البراكة، فى المساء استغرقوا فى النوم، أبورحاب وحده نام نوما مضطربا، ما الذى جعله يستقيم جالسا، لا يدرى، حركه ما فى البراكة، على ضوء أشعة القمر التى تخللت الشقوق، رأى محمود الأسيوطى يلوط الفتى المريض المستغرق فى النوم، لأول مرة فى حياته شعر بالخوف الشديد، بعدها لم ينم إلا وظهره للحائط.

بعد مرور يومين حضر البولنديين لاستلام الحفر، تجمعوا جميعا يلتقطون أطراف الحديث، وعلى وجوههم ارتسمت علامات الفهم والبلاهة.

يسأله محمود: سلمت الحفر.؟

فيرد بغلظة:الحفر.. يصمت ثم يعود قائلا.. لا دى عايزه عشرين، يعنى ناقص ٣٠سم المهم الاجناب تتصلح.

– يعنى إيه؟

– تخرطها بالسكين.

– ايوه، ايوه، سهله، خمس دقائق، عايزين فلوسنا.

– كلموا ابونديم.

– درهم مفيش لما تخلصوا الحفر..

بعد يومين سألهم أبونديم: تحفروا فى الصخر؟

– لأ.. قالوها فى نفس واحد.

– باهى انا نجيب غيركم..

منذ هذه اللحظة عصف بهم القلق على نقودهم، جن جنونهم وتوقفوا مرة واحدة عن العمل متسائلين، فى البداية تحدثوا بخجل.

– إحنا لنا فلوس قد إيه.؟

أشار بأنه اشترى لهم أغراضا وطعاما وشرابا وشايا واستطرد: عطلتم الحفر والآن وفورا سأحضر غيركم من على الأسفلت لا ستكماله، بدى أرجع ما الاقى حدا فى البراكه من اليوم، مفهوم أجابوا جميعا باللهجة الليبية: باهى، حسابنا ونرحل، اليوم نزلنا، إحنا عارفين إن العمال كثير.

– انا ننزلكم درنه، كل واحد بيروح منكم لحاله، على رجليه.

– على رجليه، على رجليه!

– آيوه يا اخى كيف ما اجيتم، على رجليكم، كيف الصراصير، عرفتم كيف.

ركب سيارته وعلي مشارف الأسفلت نادى على عمال فاندفعوا نحوه بالعشرات.

– بدكم تعملوا؟

قالوا فى نفس واحد: ايوه، الله يعمر لك بيتك يابيه.

– ايوه والنبى يا عم عندك شغل؟

كانوا كالموتى، أشباحا تسير على الطريق، قال رافعا يده مهددا بشروطه: بدى اعرفكم؟ متر الحفر ثلاثين درهم. الواحد بده يعمل خمسة امتار فى يوم ياخذ فى دينار ونصف.

عندما رأى عبدالله ورفاقه العمال القادمين أصابهم الغم، لكن منظرهم أثار الشك لدى العمال القادمين، فاتخذوا طريقهم عائدين مرة أخرى نحو الأسفلت، ثارت ثورته، رأهم يشعلون النيران فى ألواح الخشب الجديدة.. تجهم وجهه وركض يركل الخشب المشتعل بحذائه وهو يصرخ: ممنوع واحد فيكم يشعل النار بالخشب الجديد، ادفع فيه فلوس انا مش جيبه ببلاش، إنتم بهايم ولا حمير، ما تعقلوا .؟

قال عبدالله: طب نتدفىء إزاى، والشاى، إزاى نقاوم البرد؟

– باهى اخصم منكم حق الخشب، وحياة امى لأخصم حق الخشب، إذا تكرر هذا اطردكم من هنا، واصير مبلغ عنكم الشرطه.

عندما أزف وقت الحساب تجمعوا حوله فى اهتمام شديد وترقب وهو ممسك بورقة وقلم،

ثم قام يقيس عمق حفر القواعد ويكعبها مختارا أصغرها أحجاما، جمع وضرب وقسم، كان ما حفروه يساوى سبعة وستين دينارا، تهللوا فلما خصم ما وصلهم من خبز وشاى وسكر ومكرونة وأرز وثمن الآنية وبراد الشاى وجيرك المياه، بلغ المجموع واحدا وعشرين دينارا، ثم خصم خمسة دينارات، فأصبح المتبقى لهم واحدا وأربعين دينارا، ثم ذكر أن محمود أخذ خمسة وعشرين دينارا فكان ماتبقى لهم هو ستة عشر دينارا.

لم يتبينوا الأمر للحظات، وخيم عليهم الصمت لمدة، والمأساة تتصاعد فى داخلهم، ستة عشر دينارا لعمل اثنى عشر نفرا يصير لكل منهم دينارا وربعا، هى كل ما حصل عليه لقاء عمل استمر أحد عشر يوما.

قال عبدالله: متأكد إن الحساب مضبوط؟

أجاب ونظرة الاحتقار والاستخفاف تملأ وجهه.

– هىء الحساب مضبوط، واللى مش عاجبه بيصير يشرب من البحر.

– شوف يا باشمهندس، إحنا بينّا وبينك ربنا، إوعاك تظن إنك تظلم حد وربنا يسيبك.

لم يشأ أبونديم أن يضحك على بلاهتهم.

– إيه طبعا، ربنا بده يحاسبنى والحساب يوم الحساب.

– قال آخر لزميله: نحلفه على المصحف إن الحساب مضبوط فاستسخفه الآخر.. قال عبدالله بصوت سمعه السورى

– قالوا للحرامى احلف قال جالك الفرج..

صاح به السورى: ليش إنت تقول هيك، ما اسرق عرق حدا، شوف، انا مامسكت الشريط، مصرى هو اللى قاس، وأشار إلى محمود، لازم تعرف إنه اخذ منى خمسه وعشرين دينار ، ما عطاكم منها شىء.

صاح محمود: دى فلوس اصحابها اخذوها..

صرخ به: كم واحد اجى؟

– عشرين واحد.

– خرابه انتم، اجى عشرين واحد، وإذا.. انا عطيتكم حقكم..

قال المبروك: وليه خصمت خمسة دينارات.

– تنزل تصلح الحفر تاخذهم..

تعالت أصوات الاحتجاجات.. قال: والصبح اجى ما بدى اشوف وجه بنى آدم فى البراكه، فهمتم كيف.؟

أخذ محمود يجرد حسابتهم فاستقبلوه بشك، لكنهم لم يستطيعوا اتهامه.. نظر المبروك وأبورحاب لعبدالله، وجدوه صامتا لا يتحدث، لكن عيونه كانت تمتلأ بالشك..

قال محمود: ابو نديم ما غافل حد في درهم، لو فعل ما اقبلش..

قاطعه أحدهم: انا ح ارجع مصر..

وقال اثنين إنهم سيرحلوا باتجاه الغرب..

قال الأول: إنت ما تحسب حق الشاى اللى كنت تشربه من عندنا.

كشر أبونديم من وجهه، وأحنى رأسه غاضبا: مالك إنت، جايب لكم طلبات اكثر من اللى

حسبتها، تحب ادخلها الحساب..

فى الجانب الأخر وقفت جيب تقطر معدة ضغط الهواء، وبها أربع فؤوس للفحر بالصخر، نزل منها أحد اليوغسلاف قال أبونديم:

- تجيب عمال تكمل الحفر..

نادى عبدالله والمبروك وتبعها محمود وأبو رحاب للعمل على معدة الحفر الآلية فتوجهوا إلى مناطق الحفر.

لم ينتبه أحد لثلاث عربات لاندروفر وقفت فجأة..شخص ما قال:

- مكتب العمل.. الشرطه..

اختفى الأربعة فى قلب الحفر منفرزين فى الوحل..

هتف بالمتسللين أحد رجال الشرطة الليبية: اتجمعوا كلكم بالبراكه، فيه جريمه قتل وسرقه، ترى واحد يهرب اضربه بالنار.

تدافعوا إلى السيارات كالنعاج وقد سقطت قلوبهم فى أقدامهم، بكى بعضهم وغامت عيون الآخرين بعدم الفهم ، والشعورالفشل والحزن والضآلة.

* * * *

على السهب الفسيح الممتد حتى السماء، تحده من الجنوب الحواف الصخرية للجبل، ومن الشمال يمتد البحر حتى الأفق، هرب الجنود الثلاثة حاملين ملابسهم على ظهورهم يجدون السير خوفا من مطاردة الشرطة، على بعد ستمائة متر كان محمود يجرى خلفهم وحيدا تحت رذاذ المطر، زمنا قليلا حتى اتحد أربعتهم فى نقطة صغيرة تهبط درنة عبر الساحل الشمالى.

الفصل الثانى عشر

-١-

حضروا إلى درنة فى اول توت، احكى عن الغرام والهوى ولا احكى عن الموت.. قال الفتى يونس بن سرحان صادقا.. كنا بنجد سالمين نجاور النبى، نجير الجار نكرم جميع الغرايب، ياليتنا لما انتوينا نغرب، كنا اتوينا فى لحود الترايب، بعد ما كنا نكرم الضيف عندنا، صبحنا نقول يا مين يتاوى الغرايب، انا جعان يا خال والجوع كاوينى، الجوع ده دايما يورى المتاعب.

قال الامير ابوزيد الهلالى سلامه.. يا يونس اركب ع الجمل، وبيع العقد فى بلاد المغارب، يونس لبس فى الحال مكى من مكة المكرمة، عباية حرايرية وشاشة مقصبة، وعقال حرير محبوك ع الحواجب، إلى تونس الخضراء دخل والهم راكبه، كل صبية تقول له اتفضل عندنا، ده البيت خالى من جميع المعايب(**)

درنة الصبية فى ١٩٧٤، وقد عمّتها البطالة، شوارعها تعج بالعاطلين من المتسللين المصريين، حملت الهجرة معها أيضا حثالة المجتمع المصرى، وشكا الليبيين من سرقات المنازل والمحلات ليلا، وانتشرت حوادث القتل التى اتهم فيها لصوص الأسكندرية، نقاط تقاطع طرق المدينة الرئيسية وأمام إشارات المرور كان يقفز إلى نوافذ السيارات العابرة أطفال عرايا وغلمان ونساء عجائز من المصريين، يدسون رؤوسهم داخل السيارات للشحاذة وطلب النقود، فى الأماكن النائية وجدت جثث لمتسللين قتلوا بغرض السرقة والنهب، وكان القتلة من أبناء جلدتهم المصريين.

فى اليوم الثالث عمل عبدالله وأبورحاب مع نبيل وبعدها بثمانية أيام تبعهما المبروك ومحمود، وكانا قد اضطرا للاستدانة من نبيل الذى تحسن وضعه المالى بعد عمله مع

أبونديم.. فى طريق عمله متنقلا عبر أحياء شيحة والمنار وباب طبرق، كانت مسام جسده تتشمم عبق المدينة الجميلة التى جلس البحر تحت أقدامها عبدا عاشقا، يغسلها بأمواجه المتلاحقة وهى تخوض بساقيها مياهه، تشرع نهديها لرياح المتوسط، تلثم جدائل شعرها الأسود الأجعد الغزير البارح الطول، تحمله الرياح لتلقى به بنعومة على ظهر الجبل قبل أن تعبره إلى نهايات الصمت الصحروية.. من صنع عيون الدرناويات ؟ .. زرقة البحر.. اتساعه وعمقه.. أم الجبال الداكنة.. الشوق إلى الأفق.. أم كرومها التى توسدتها منازلها وأحواشها وتهادت على عبق عطور عرائشها..

بعد أن وجد نبيل المأوى والنقود ومشط شعره الغزير المجعد وهذب لحيته الكثيفة، واشترى بنطالين من الچينز، وسترة جلدية وقمصانا ملونه داكنة وحذاء جلديا، كان يعبر المدينة بقامته الطويلة، وجسده الرياضى الممشوق، تطل من وجهه الأسمر عينين باسمتين متفائلتان، يمرق عبر الطرقات قافزا الأرصفة ومفترقات الطرق، مسرعا إلى عمله، مستقيم الاتجاه، عابرا عشرات من الطالبات السافرات فى طريقهم إلى مدارسهم، وفتيات أخفوا وجوههم، تومض عيونهم الساحرة برقا من خلف شق الجرد(٤)، يستمتع بنظراتهم وابتسامتهم الصريحة إليه، يلمح التفاتتهم وإيمائاتهم لصديقاتهم عنه وإشاراتهم المختلسة إليه، تتابعه ضحكاتهم الرنانة بجرأة وعقله الباطن يحذره من نساء ليبيا وفتياتها الحسان، ليس له من حق سوى أن يعمل وهو المازجرى(٥) الفقير الحقير المتسلل عبر أسلاك الحدود، كيف يحق لك أن تقترب من من إحداهم، ثم إن هناك ما هو أسوأ، الشرطة والسجن وعنف الوطنيين إزاء الأغراب، وبرغم انكماشه إزاء هجومهم المباغت، لم يتركنه لحاله، وأصبح يسير وهم خلفه، يطلقن تعليقاتهم باللهجة الوطنية تداخلها اللكنة المصرية

- يا حلو .. يا جميل.
- يا قمر يالماشى .. مازجرى ..؟
- ازيك كده .
- هدى شويه .. هدى .. وانت معدى .

ولم يعد يستطيع أن يكبح نفسه من الابتسام فتوالت التحايا وتكررت، كان أحيانا يبدأها فتأتى إجاباتهم مشرقة جميلة.. مشاكسة بصوت عال:

- صباح الخير ..
- صباح الورد .. يا جميل ..
- صباح الفل..

أصبح سعيدا، وابتنى بينه وبين العبث جدارا، يروى ظمأه ويشبع وجدانه من هذه الوجوه الجميلة والقدود الممشوقة والعيون العابثة ورنين الضحكات الأنثوية المنغومة المشاكسة، مكتفيا منها بصداقات الصباح الحميمة، وعندما ينتهى يوم الشقاء ويرحل للنوم يصطحب معه هذه الزهور الملتحفة بقطرات الندى فلا يحس أرقا ولا يشعر بوحدة، وكلما جد يوم توطد عمله، وفى آخر كل شهر كان يحصل على دخل مجزى، وبدا يفكر فى أخذ مقاولات صغيرة من الباطن.

-٢-

فى صباح أحد الأيام كان يقفز الطريق بطريقته المعتادة، وخلفه كل من عبدالله وأبورحاب اللذين توقفا بغتة، وأمامهم صرت فرامل إحدى سيارات الفيات الصغيرة، صرخة التحذير التى أطلقاها جعلته يقفز إلى الأمام صاعدا الرصيف المقابل، عندما استدار غاضبا كانت تنظره شزرا، قبل أن يتفوه ببنت شفة، عاجلته فى غضب واحتقار:

- كنك(٦) تعدى كيف المسطول؟ ؟، ماتباهت السياره أمامك..؟؟

أجاب بغضب: ازاى الطريق للى يعدى الاول.

أجابته بعصبية: أيوووووه .. غبى ما يفهم، يعنى كنت أعدى فيك، هسه أصير غلطانه.

- عدى، تعالجينى على حسابك، وتحضرى كل يوم المستشفى علشان تطمني علي روحك انك مش ح تدخلى السجن، يشوف هذا الجمال يطل على كل يوم..

عندما انتهى كانا يبتسمان.. استطرد: باهى حصل خير..

أجابته: تباهت قدامك.. أيوووووه.

أجابها بغضب: وانت تباهتى قدامك.

- أنا أباهت قدامى!! كيف أقود سياره من دون ما أباهت قدامى، ناصح أنت ؟!.

- يمكن سرحانه فى حاجه، صح ولا لأ؟

صرخت مثل نمرة شرسة: إيش تقول، أكون سرحانه فى إيش.

- الله اعلم، خلاص حصل خير، ولا محصلش.

- مع السلامه ..

ابتسمت بتكشيرة: مع السلامه.

منذ البداية فاجأته بهجومها المباغت السريع، إشارات متوالية مستخدمة ضوء السيارة الرعاش وابتسامات خلابة، إيماءة الرأس المدور وإشراقة الوجه الجميل، ماكان يثير جنونه حدوث هذا وهى منفردة أو بصحبة امرأة عجوز، شايب أو إحدى صديقاتها، فقط عندما يكون الجالس بجوارها رجلا شابا، كانت تكتفى بالإشارات الضوئية السريعة، والابتسامات الخافته، تومض على محياها كالبرق، لم يستطيع أن يقاوم هذه المرّة، نمرة متوحشة فى الخامسة والعشرين من عمرها تجلس خلف مقود سيارة صغيرة مسرعة.. درنة من يستطيع أن يقاوم سحر نسائك حتى لو كان مصيره الموت، من يستطيع أن يقاوم وجهها الخمرى الدقيق الملامح، عينيها الواسعتين الشديدى السواد، فمها الصغير المزموم وشعرها الأجعد الغزير المسترسل حتى الأرداف، نهديها الثقيلين وجسدها البض المتصل بخصر رشيق، الآن، الآن، اللعنة، اسمها، أين تعمل ومن أين تأتى، أين تقيم؟ ماذا تريد؟.. ما الذى يمكن أن يحدث بعد؟

بسرعة متزايدة تحول إلى كائن منقسم بين جسدا يقضى حوائجه من عمل وماكل وشراب

بآلية شاردة، وعقل معلق من نقطة صغيرة شديدة التركيز، الشيء الحقيقى الوحيد، اللحظة العابرة للقائهما وكل ماحولها من زمن هو ما قبل وما بعد، ليس سوى عالم من استعادة لهذه اللحظة، قلق الانتظار الممض، ظهور السيارة فى أول الطريق، قدومها من بعيد، لونها وطرازها المعهود، وميض ضوء السيارة الأمامى، الإشراق بالابتسامة، إيماءة التحية يردها بانبهار وولع، عبور السيارة واختفاؤها فى المنعطفات، اللعنة إذا كنت أنا المقصود، اللعنة إذا كان مايجرى مجرد وهم وأضغاث أحلام، كان ذهنه عاجزا عن التصديق.

توالت الأيام وتوالت معها اللقاءات العابرة، يستنشقون عطر الصبابة والوجد، هو واقف كالمشدوه وصوت عبدالله يفيقه.

– خلاص يا عم شفت الحبيب نروح شغلنا .؟

.. يرد أبورحاب: هو سامعك، الواد يا ولداه عقله تاه.

– اسمع يا ابن ابورحاب، احنا نطلع من الصبح على الشغل طوالى، نجهزه، هو ييجى على مهله، اركب قرون.. لأ .. محصلش.

* * * *

التفكك العقلى والانشداه، والمحاولات المضنية للإمساك بالوهم، وخطة مجنونة لمعرفة مسكنها، من أين تنعطف سيارتها، والطريق الذى يمتد طويلا ملتويا عبر أحد الأحياء الخاصة بالوطنيين، الخوف والفكر يضنيانه.. كيف يصل إليها؟

عندما انتقل للعمل بالطابق الرابع لمح أحد أجهزة المساحة ملقى جانبا، وقف ينظر به من النافذة كانت درنة كلها تقع أسفله، ثلاثة أيام يتابع حركة السيارة الحمراء الصغيرة، حتى فطن إلى المنطقة التى تنتهى إليها ومنطقة عملها على وجه التقريب.

لم تستوعب ما يحدث سريعا، ربما غير مكان عمله، فجأة فطنت أنه على مبعدة شارعين من مسكنها، أصابها الذعر، عبرته متجاهلة إياه، وفى اليوم الرابع كان يقف على ناصية الشارع الذى تسكنه، فى هذه المرة نظرته فى غضب ساخط، كيف تجرؤ..؟ توقف من فوره، وعاد يعبر طريقه الذى التقيا فيه المرة الأولى، ثمانية عشر يوما التقيته فيها بتجاهل تام، كانت تشعر بالخوف وكان قد وطن نفسه على إن كل ماحلم به مجرد سراب فى صحراء ليبية، فى اليوم التاسع عشر خرج مبكرا إلى عمله ميمما شطر مكان عملها، ومن خلال فرجة صغيرة من زجاج نافذة سيارتها ألقى بقصاصة ورق ملونة كتبها بخط ديوانى لطيف..

منين أجيب صبر يغوينى على بعدك، وأنا اللى هجرت المنام والأهل من بعدك، أسمع منادى ينادى فى ظلام الليل، ياللى ابتليت بالغرام اصبر على وعدك .. وأنا ذنبى إيه.. **

فى اليوم التالى كانت إشارات سيارتها الضوئية تناديه، وابتسامتها شمس تشرق على كونه، عندما قاربته حيته بإيماءة الوجه الشهى المدور وصوتها يباغته: صباح الخير ..

نظرها مشدوها، عندما اختفت سيارتها فى المنعطفات طار فى الفضاء مثل طير طليق.

لحظة اللقاء الصباحى وحدها هى سقف العلاقة، حدودها ليس أكثر، هذا ما تريده، أليس كذلك؟ ألم تعاقبه عندما حاول أن يتجاوز حدود المكان، كيف وهجومها أصبح أشد ضراوة، الآن صارا يتخاطفون فى كل لقاء عابر عبارتين سريعتين، تلقى إحداها من نافذة سيارتها.

- صباح الخير..

يجيبها وهى راحلة: صباح الفل.

تفاجئه فى اليوم التالى مقلدة اللهجة المصرية: ازيك..

فيجيبها حالما مرتسمة على وجهه كل معالم عدم التصديق: انا..!!

فتميل برأسها، تطير معرفتها كمهرة سعيدة تنتشى بذاتها:

- منو يكون.. لآخر !!

يهز رأسه وعيناه التائهتين تتملى منها ومن الفراغ الذى يحيط بها.: جفانى النوم

صرت الفرامل ووقفت تنظر إليه مشدوهة وقد ألجمها الصمت، أصوات نفير رتل السيارات الذى وقف خلفها دفعها لأن تفيق، ببطء شديد تحركت وهى لا تستطيع أن ترفع ناظريها عنه، ولأول مرة ظلت تنظره من عاكس المرآة حتى اختفت فى الطريق. بعد يومين أسقط أمام المستشفى التى خمن أنها تعمل بها بقصاصة أخرى فى سيارتها.

الليل أهو طال ووعد الحب فات زمنه، واللى زمانه مضى لم عاد ييجى زمنه، أوعدتنى بالوصال والوعد فات زمنه .. وأنا كل ما أطلب وصالك .. *

فى اليوم التالى عجزت أن تفعل شيئا، لم ير وسيارتها تبزغ من بعيد أضواء تحييه، وعندما تواجها تلاقيا فى نظرة طويلة لم ينبسا خلالها ببنت شفة .. عيناها الدرناويتين نفذتا فيه كنصل السيف، شطرته نصفين وأخرجت قلبه، حطمته وحملت بقاياه معها واجسادهم ترتجف فى تواصل ورغبة، وامتلاء المجال الذى يفصلهم بعبق الجنس الجميل، وعندما افترقوا كانت الرغبة فى العناق تحيل اجسادهم أشلاء، يوم ويومين وثلاثة، أبقيا على صمتهم تاركين العنان لاجسادهم تتحرق للآخر، شوقا عنيفا وهوى ووجدا مشبوبا، فى اليوم الرابع عندما عبرته دون أن تنظر نحوه، كانت تنتظر أن يفعل شيئا ما، ولما لم يفهم ما تريده شعر بالمهانة ولم يعد يسعى للقاء، أطلق لحيته وانكب على عمله، وفى الصباح الباكر وبعد أن يؤوب إلى الحوش مشتت الذهن تائه العقل، كان يخرج هائما فى طرقات درنة، يحوم حول منزلها ومكان عملها بمستشفى درنة العام.

الهوى القديم، وذكرياته العاطفية بالوطن، لم تكن شيئا يسيطر عليه كما هو الآن، الهوى القديم على نواصى حارات القاهرة محض مغامرات سانجة، سحر المغامرة، أم سحر

الغموض فى مدينة محرمة نساؤها على أبنائها، أم هو الهوى الخالص لا مرأة فاتنة محرمة ..

طوال طريقها ظلت تتلفت فى وجوه السائرين بحثا عنه، أحيانا كثيرة كانت تراه ولا تستطيع الحديث معه، فتستمر فى طريقها والكمد يغلبها، مرة والشارع خال من المارة رأته قادما خلفها، توقفت بجانب الرصيف وعندما حاذاها، هتفت به معاتبة.

– أنا شنو(٧) عملت.. كنك(٨) تهرب منى.؟

أجابها فى شرود: كيف..؟ وانت لا تفارقينى.

عادها الذهول وعاد نفير رتل السيارات الذى اصطف خلفها يفيقها، وعادت تسير والغضب يملؤها، ماذا يبتغى المصرى. ؟

وبينما أعرض كل منهما عن لقاء الآخر، كان كلاهما لايتوقف قهريا عن التفكير فيه والبحث عنه ثم تجاهله إن لاقاه.

فى ضحى أحد الأيام فوجئت به أمامها، ملقى على أحد الأسرة، مصابا فى ساعده الأيسر بقسم الاستقبال بالمستشفى.

بادرته بارتياع: شنو بيك ..؟

– شرخ فى عظم الساعد.

– كيف حدث هذا .؟

– اختل توازن السلم تحتى.؟

– وليش ما تدير بالك.؟

رفع رأسه نحوها، كان العرق الغزير ينسال من وجهه.. عاد ينظر إلى الأرض صامتا .. لوهلة لم تفهم ما يعنيه، ولما بلغها مقصده بشكل ما امتلأت بالغضب، دقت الأرض بقدميها وغادرته ساخطة وعلى الباب سألته:

– جاك(٩) الطبيب ..؟

هز رأسه بالإيجاب. قالت وكأنها أدت واجبا ثقيلا عليها وهى تصفق الباب خلفها بعنف: باهى..

اقتحمت برأسها الباب ثانية تصيح به: عملت أشعه..؟

– نعم وشاهدوا الشرخ.

خرجت ثم عادت تدفع برأسها من الباب تقول بآلية: باهى .. توا ندور فى الطبيب بيش يدير لك جبس. عادت إليه بصحبة طبيب هندى وعاد لها هدؤها، بينما كان يأخذ أنفاسه بعد أن انتهى الطبيب من تجبيسها سمعها تحادث زميلتها: تدرى..؟

– شنو .؟

نظرت فى عينيه مباشرة واستطردت: سافر الفلسطينى وأبوى يريد يؤجر الحوش لأشكبليه(١٠).أنا ما نريد ..

أجابتها صديقتها وهى تضحك: صحيح ..!؟

ضحكت لتعريض زميلتها : نعم، أمال شنو .. !

عندما انفردا جمع شجاعته وسألها: فين يسكن والدك.. ؟

نظرت شزرا: ليش تسأل؟
- استأجر الحوش.
التمعت عيونها، صمتت لوهلة تفكر ثم قالت وهى تغادره:
- كنك ماتعرف. ؟ ماكنت تقف عنده تشترى أغراض..

* * * *

بعد يومين وقف نبيل وقد أصلح من هندامه أمام منزلها المكون من طابقين بمدخلين منفصلين، مدخل للأرضى من الطريق الخلفى والآخر للعلوى ويطل على الشارع الرئيسى، عرج إلى الحانوت الواقع أسفل المنزل وسأل صاحبه العجوز عن مكان يستأجره للسكن، أشار نحو الطابق السفلى: غرفتين وصاله.. تسكن وحدك.. ؟
- معى اربعه.
قال بامتعاض: مايزيدوا، بكُل.. حتى واحد زياده.. نطردكم.. باهى.. ؟
- باهى .. والاجره ..؟
- عشرين دينار.
لم يجادله ، استطرد: باهى تعدى غادى فى المغربيه تاخد المفتاح.
فى اليوم التالى جمعوا الأغراض القليلة، أكثرها صنعوه بأيديهم من خشب الصناديق التى تستورد فيها السلع المختلفة، كما يفعل أغلب المصريين على اتساع دخولهم ومستوياتهم الاجتماعية فى الغربة؛ أسرة، دواليب، أرفف، خزانة ومائدة طعام للمطبخ، أما الباقى فكانت أشياء قليلة اشتروها من مدرس مصرى عائد بعد أن انتهت إعارته، تلفزيون صغير أبيض وأسود، مسجل، عدة كراسى مستهلكة، انية للمطبخ، وفى المساء انتقل خمستهم للسكن الجديد.

-٣-

بعد أيام قليلة وأثناء عودته من العمل وقف عبدالله حائرا.. كانت السيارة الحمراء الصغيرة تقف أمام الحوش، لوهلة ظن أن صاحبتها بالداخل .. دخل على وجل فلم يجد أحدا، لم يحاول أن ينبه نبيل ويقى صامتا، فى المساء لا حظ أنها لم تتحرك من مكانها، لم يجد بدا من أن يلمح لأبو رحاب بالأمر الذى ضحك بلؤم، وعندما سأله السبب أخذه من يده إلى الشرفة الداخلية، فى الطريق اعترضهما نبيل، فانطلقت ضحكة محمد ثانية ونبيل يصرخ به:

- اسكت يا ابن الكلب، اسكت علشان خاطرى ..

تسائل عبدالله: يعنى وقفت عند اخوك الغلبان..

غمز له أبورحاب. فنهره نبيل ساخطا: يا ابن الكلب، يادوه يا خبيث يا ابن الخبيثه..

استطرد محدثا عبدالله: فلاحين جايين من وراء الجاموسه .. فلاحيين عايشين بالخبث..

همس أبورحاب: صاحبك ح يتجوز.

فانفجر الجميع فى الضحك، ضحكوا ،كأنهم يستنفذون كل ضحكات العمر الأخيرة .. جذبه المبروك: تعالى..

وفى الشرفة أشار محمود، ونبيل ينفجر غيظا إلى الملاءة المنشورة فى الطابق العلوى، لم يبدو على عبدالله الفهم، أشار أبورحاب لورقة ملفوفة بدقة لا ترى، ومثبتة بطرفها - جواب غرامى، الواد عنتره.

عادوا للضحك بعنف وهو يدفعهم للداخل، وطوال الليل تسائلوا وهم يتندرون عليه كيف جاء بهم إلى هنا.. ؟ رويدا رويدا بدأ يحكى لهم ..

من مقصده الجنة يصلى ع النبى.. نبى الهدى مبعوث من أهل غانم، لولا النبى لم كان شمس ولا قمر .. عليه من صلى ينول المكارم .. أنا عندى دوا للآه، أداوى مين وخلى مين، شىء على الوساید وشىء مجروح وكله أنين ..

قالت عزيزة يا مى .. زى مين سيدك .. قالت: زى القمر لو زال السحايب، قالت عزيزة يا مى: وازى عينه .. قالت: عيون غزلان والكحل غالب، قالت عزيزة يا مى.. وازى منسقة .. قالت: يسبى بنات العرايب .. ثمانين جاره حاوروه على لقى.. ولا واحده إلا وترسل كتايب، ولا واحده إلا وترسل ليونس، تبعت المرسال يرتد خايب، قالت عزيزة .. آهه.. آه .. ياكبر بلوتى.. نار قلبى زايدات لهايب..

قالت عزيزة بنت الوهيدى معبد سلطان تونس الخضرا .. إيه السبب لما أبوى ظلمنى.. بنى لى قصر علاه فى البنى، فرشه حرير من العجايب.. داير كراسيه مرصع بالدهب، وأعجب يا ناس من العجايب، إيه فايدتك يا قصر يامبشوم من غير حبيب، لا مين يلاعبنى شطرنج والاعبه، واعيش وياه ونبقى حبايب، لو كان زمان الهنا يسمح يجيبه، وأعيش مع الحبيب فى مطايب، أنسى اللى راح وياه، وأقول السعد خادمنى، وألفه ما بين الشف واللف والغطا، واضمه لحضنى زى ضم الحبايب.**

-٤-

فى المساء طرق الباب، قام نبيل يفتح وأمامه وقف شاب فى السادسة والعشرين من عمره قصيرا ضامر الجسد.

- السلام عليكم.. أنا حميده الشايب يصير حماى.

خمن من فوره أنه زوجها، اضطرب وهو يصيح مرحبا: اتفضل ..

كان قد دخل دون انتظار لدعوة أحد وكأنه يقول لهم بغلظة.. أنا صاحب الحوش.. دفع برأسه فى أرجاء البيت بوقاحة وعلى وجهه ارتسمت علامات الاشمئزاز، استدار راحلا لكنهم اندفعوا يسبقونه.

- والله لازم تشرب شاى، حلفنا بالله.

- باهى..

عندما جلس تسأل بأنفة وكأنه لايعلم: مصريه. ؟

- ايوه.

سأل فى لؤم ظنوه تبسطا منه: الاسكندريه.؟

- لا انا من القاهره وعبدالله و المبروك من المنوفيه، ومحمود من اسيوط، وابو رحاب من طنطا، زرت مصر.؟

هز رأسه برعونة.

- عمل ..؟

- أنا نعدى غادى كل ثلاثة أسابيع نتريحوا و نتفسحوا ونسكروا تمام، ونجيب فى عمال وهيك أغراض ونجى.

قال نبيل متفاخرا: عجبتك مصر ..؟

- يا أخى جميله بس ترى فقر، المصريه شنو تبى تقول، بقشيش.. فى الجمرك بقشيش، عسكرى المرور بقشيش، الأوتيل بقشيش، البواب بقشيش، أنا ننزل فى سيارتى بى. أم . دبليو، ترى غاليه واجد(١١).. فى يوم نزلت مالقيت العجلات.. الأربعه انسرقوا بعز النهار.. ساعه ياراجل.. لمحهم يضحكون فاستطرد: ترى نحنا نرى الذهب ملقى على الأرض مايمد واحد منا يده.. لا.. لا.. المصريه غلابه واجد..

بدأوا يشعرون أنه يتعمد إهانتهم.. حاول نبيل أن يرده بلطف.. فكر .. كلمتين فى العظم نسمعهم والسلام:

- يعنى .. مش بس دى مصر، مصر فيها حاجات جميله.

أجاب بحماسه وكأنه يلتقط خيطا يبحث عنه: نعم النسوان.. أنا نعدى اسكندريه ترى الشراميط غادى متوافرات.. متوفرات كتير.. كيف تعيشوا يا مصريه.. منين تدير بالك منين تجدهم.

قال نبيل محاولا التحدث بلباقة: كل بلد فيها الوحش والحلو.. وعقب عبدالله مصطنعا اسلوب صديقه: النسوان اللى تقابلهم خدامات وبيكونوا فقراء..

ضحك حميده وقد لمعت عيناه: أنت تقول هاذا .. المره اللى تحضر فيهم لى زوجها عميد فى الجيش، وماتحضر إلا نسوان كيف تقولوا يامصريه، على سنجة عشره، أزواجهم فى مراكز مرموقه .. ممثلات وطالبات جامعه.. أنا ننزل فى شقه مفروشه فى سيدى جابر.. ماتدرى كيف.. ثانى يوم يدق الباب طالبات فى مدارس ثانوى.. والله يا شيخ حتى إعدادى يجن (١٢)

لا فائده رأسه وألف سيف أن كل مصريه شرموطه، يا ابن الكلب.

قال نبيل فى غضب: اللى يسمعك يقول كل البلد شراميط..

– لا أنا ما نقول هيك.. وقام يبغى الرحيل، كان واضحا أنه نزل كى يفرج عن نفسه قليلا بإهانتهم.. تبادل محمود وعبدالله النظر فى غضب، قال نبيل فى لهجة حزينه غير قادر على ابتلاع الإهانه:

– لما تعدى مصر بلغنى، ح عرفك المصرى على حقيقته.. كان يريد أن يستطرد قائلا.. إن المصرى شهم ورجل، والمرأة المصريه تصون عرضها.. كانوا يريدون جميعا أن يقولوا أشياء كثيره يدافعون بها عن أنفسهم وأعراضهم، لكن بدا أن الأمر لا يجدى

– شكرا يا أخى، توا نشوف، باهى السلام عليكم.

لم يعجب محمود أن يمضى الأمر هكذا.. أشاح له بيده قائلا:

– ترى اسمع بنات الاسكندريه، انا اعرفهم بنات بحر يطوك فى جيبهم، لكن جرب تروح الصعيد وحاول تدور راسك هيك ولا هيك، تتقطع جثتك حتت حتت لا تعرف الكلاب لك طريق جره

اصفر وجه الشاب.. قال محاولا التراجع: ترى أنا قلت، أنا مانقول إن كل المصريات إقحاب وكأنه قد زاد الطين بله..

وقبل أن يجيب أحد، دفعهم عبدالله للداخل، خرج نبيل لتوديعه ، وعندما عاد سمع محمود يصيح فى غضب: طب وحياة امك لتشوف.. عندما رآى نبيل أمامه قال له: لازم يا ابن الكلب ترفع راسنا .

كان يعرض بزوجة الشاب واستطرد.. الراجل تقول نسوان مصر فاتحة له افخادها، وهو ابن الكلب الوسخ مراته شرموطه، لو يعرف ان هى اللى جابتنا هنا، يقول ايه عقب المبروك ضاحكا:

– يطق يموت.

قال عبدالله: لازم تاخد بتارنا.

نظر إليهم نبيل بعتاب.. وقال موجها حديثه لعبدالله.

– حتى انت.. وقام ناحية الشرفة، جذب خطابه الصغير وعاد.

صاح به محمود: نويت على ايه ياولد.

– خلاص مادمت عرفت زوجها لا استطيع الخيانه..

قال عبد الله متجهما: معك حق..

صرخ محمود: معه ايه.. خيانة من..؟ اللى تسكن فوق شرموطه.

نظر نبيل نحوه فى غضب: احترم نفسك، انا من اللحظة دى قطعت صلتى بها، مش عايز

اسمع كلمه عنها.

– جميل، اتركها لى. اعرفها ان البندرى طرى ما تقول راسى إلا والصعيدى.

– طب حاول تقرب منها..

نظر إليه محمود بغدر: ح تعمل ايه..؟

– حاول وح تشوف..

تدخل عبدالله محدثا محمود! بنبرة تهديد: جرى لك ايه، مخك الصعيدى ح يتجنن علينا، قال لك مالك دخل يعنى مالك دخل، ح نهزر.

– وانت محموق على ايه.. اختك ولا من عيلتك.

تدخل المبروك: لأ يابو مخ زى القفل، حاجة صاحبك ماترفعش عينك عليها، حتى لو يرميها فى خرابه.. واستطرد ساخرا: يا صعيدى يا ابن الاصول.

استسلم محمود على مضض وقام كل منهم لفراشه.

فى الأيام التاليه خرجوا جميعا مطأطئى الرؤوس، حتى نبيل عندما رآها لم يرفع رأسه فى وجهها وبقى متجنبا إياها.

فى العاشرة ليلا سمع المبروك صوت ارتطام شىء فى الشرفة، وعندما خرج وجد جردا قد سقط من الطابق العلوى.. وتوالى حدوث ذلك مرتين، وكان على أبورحاب أن يعيده، فهزاله وضعف جسدة يبعده عن الشبهات.. فى المرة الثالثة أدار محمود لهم ظهره. مغمغما بصوت سمعوه جميعا

: فوق قحبه شرموطه. وتحت صبى مرخى ما له فى النساء، صرنا(.....) كانت كلمه قبيحه.. فى اليوم التالى لاحظوه جميعا وهو يخترقها بنظرات ذئبية وقحة وابتسامات سافرة، كاد أن يغمغم بعبارة يتعرض لها فيها.. لولا أن نبيل دفعه إلى الداخل بعنف، عندما عاد عبدالله والمبروك فوجئا بنبيل مندفعا من المطبخ تجاه محمود شاهرا سكينا طويلا.. ومحمود الأسيوطى واقفا ينتظره فى برود.. اندفعا يحجزانه.

– بتعمل ايه يامجنون.

– ح صور قتيل هنا.

دفع أبو رحاب بمحمود إلى الخارج بكراهية وهو يصرخ به: ايه .. ما عندكش دم..

أجابه دون أن يتحرك من مكانه: عندى .. بس دم حار مش ميه، اتركوه، اسمع، الجرد هذا ما يرميه شيطان من السماء ترميه مره راجلها هاجرها، لبوه عايزه راجل يطفى النار اللى فى حشاها، انا عارف انك مش فاهم شىء، وانت اللى مخك قفل مش انا، اسمع، الجرد ده ترميه لك علشان تروح لها كيف المره ..

قاطعه نبيل وهو يحاول الفكاك من أسره:

– انا مره يا ابن المره.

– ها .. المره الاخيره حسك تشتم، دى عاداتهم، عدى ليها، كفايه زوجها شايف نسوان مصر شراميط، مفيش داعى يا ولد العم تقول هى الاخرى رجالة مصر نساوين، انا مش قاعد اهنا، واخد خلاجاتى وطالع فوق انام بالموقع..

حل الهدوء بالجميع على الفور، وظهر على نبيل حزن ممزوج بالندم، جلس القرفصاء ..

قبل أن يستدير راحلا، صاح بنبيل الذى استمع إليه صامتا: اوعاك تقول ان الصعيدى عقله فى (.....) .. ها .. و اوعاك تقول خاف منك.. آيووه ..

هز عبدالله رأسه كى يغادر المكان . فاستدار خارجا وهو يلقى السلام.

– السلام عليكم .. جاوبه الجميع بلا ضغينة، حتى نبيل الذى أجابه بصوت خافت، وقد بدا أن شكا فى موقفه يخامر عقله .

* * * *

أول من السلم تسلم عزيزة ..
عقلى كمل من بعد ما كان غايب

تانى من السلم تسلم عزيزة ..
قلبى معاك يا أعز الحبايب

تالت من السلم تسلم عزيزة ..
إنت القمر وإحنا حواليك كواكب

رابع من السلم تسلم عزيزة ..
الأرض ملك يمينك بساتين، وبحور وكتايب

خامس من السلم تسلم عزيزة ..
انا ح اعملك سلطان بوالى ونايب

سادس من السلم تسلم عزيزة..
لخاطرك أبوى يروح الترايب

عاشر السلم ميت ألف سهلا ومرحبا ..
وكل سلالم البيت تقول لك مراحب (**)

-٥-

طوال أسبوع كانت الأفكار تعصف به وتختمر فى ذهنه، وفى يوم سفر حميدة المعتاد إلى الاسكندرية بقى فى الحوش وراقبه حتى لحظة مغادرته درنة، فى هذه الليلة وقرب الفجر تسلل خارجا دون أن يشعر به أحد من أقرانه، عند صندوق كهرباء إضاءة الطريق وقف يتلفت حوله، ثم فتحه بأداة خاصة، نزع سكين الكهرباء، جذب أحد الكابلات ثم أعاد السكين ثانية، عندما تسلل عائدا كان الطريق مظلما.. منذ الصباح الباكر خرج وحيدا، وعلى أحد النواصى التى يقل بها المارة وقف يغالبه الضعف مسهدا لم ينم ليلته من التفكير، وكلما اقترب ميعاد قدومها كان عقله يحثه على إلغاء مشروعه فيراوده عقله بسؤال أخر، وماذا بعد..؟.. ما يفعله هو التطور الحتمى لما حدث قبلا، يشجعه فى ذلك ظواهر الأحداث، ألم تسأله السكن بمنزلها.. لماذا تفعل امرأة ذلك؟ .. هل تم هذا صراحة؟ .. سقوط الجرد مرة وراء أخرى.. من يؤكد إن كان مقصودا أم صدفة؟ .. محمود الصعيدى السفاح.. فيهز رأسه مفكرا.. لا شىء مؤكد.. ارحل، فى الرحيل السلامة.. لا.. ابقى يجب أن تنتهى هذه المغامرة لشىء ما، ربما السجن، فلتغامر إذن، السجن فى درنة، ربما السجن فى مصر أما السجن فى ليبيا، لا.. عزم على الرحيل قال لنفسه بارتياح.. ليس عن خوف ولكن عن حكمة.. طالعة من الذاكرة وجهها الشهدى فضرب رأسه بقبضته هاتفا.. ولكنى أحبها. فى السابعة صباحا بزغت كشمس خريفية باردة، دفء سيارتها الصغيرة الحمراء تقطع الطريق باتجاهه، وجهها الشهدى يلوح من خلف الزجاج الأمامى، رياح الشبق تسبقها إليه، وقف ينظر إليها فى ثبات، وعندما تلاقت عيونهم هز رأسه لأسفل بثبات، وشفتيه تنبس بصوت واطىء، اليوم.. بدا عليها عدم الفهم، ربما لم تسمعه، وفى مرآه العاكس أشار بأصبعه إلى أسفل مكررا لها بشفتيه، اليوم، فى طريق عودتها كرر لها الأمر، فى هذه المرة دفعته هواجسه لأن يغامر برفع صوته.. اليوم.. خيل إليه أنها هزت رأسها علامة الموافقة، لكنه لم يكن متأكدا من شىء قط.

أمضى اليوم والقلق يقتله، عندما أزف المساء كانت مصابيح الطريق مطفأة بينما بقيت أضواء المنازل والحوانيت تغمره، عزم على أن يبدأ مغامرته فى الثانية عشرة من منتصف الليل بعد أن ينام الجميع، فى الحادية عشرة قام على صوت ارتطام شىء بالشرفة، قام مفزوعا يخشى استيقاظ أحد وعقله الباطن يحدثه بحدوث مكروه، تسلل إلى الشرفة فوجد الجرد ثانية، طواه بين يديه، كان غير راغب فى ارتدائه. الاطمئنان القليل الذى رواده بسبب سقوط الجرد دفعه لأن ينفذ خطته من فوره.. تسلل يتلمس مواطىء قدميه، كان الطريق معتما إلا من أضواء بعيدة شاحبة، وعلى الناصية لمح شبحها من خلال النافذة المضاءة.. حث الخطى إلى باب الحوش الرئيسى دفعه بحرص كان مفتوحا.. عندما بلغ بسطة السلم العلوى، وقف لا هثا يستمع إلى ضربات قلبه تدق بعنف، وقد امتلكه التردد وكل مافيه يعصف به أن يعود.. كمين.. صنع لى كمينا.

– نبيل.. نبيل.. تعال.. الباب مفتوح.. صعد درجتين مشرئبا برأسه، كان الباب مواربا.. جاءه صوتها الهامس ثانية:

– تعال .. تعال .. ما تخاف

صعد وقلبه يسقط بين قدميه .

– ما تخاف .. تخاف ليش .. الشايب والعجوز ما يصحوا بْكُل ..

قبل أن يدخل سألها : وحميده ..؟

قالت باستهانة : غادى فى مصر يدور فى عمال.

قال والخوف يعصر بقبضته الحديدية قلبه: يمكن يرجع.

ضمت حاجبيها فى انتصار : توا هسه متكلم فى الترنك من الاسكندريه، ما ييجى قبل أربعة أيام .. باهى ..

تنفس الصعداء .. مدت ساعدها من خلال الباب المواربه .. جذبته إلى الداخل، فوجد نفسه على حين غرة داخل منزلها وقد أغلقت الباب عليه ..

لوقت طويل وقف مذهولا عن نفسه لا يستطيع الحراك، يجفف عرقه الغزير لا يستطيع التوقف عن اللهاث، أعطاها لفافة.

– شنوا هذا؟

– الجرد .. مش انتِ اللى.

أسكتته بيدها: اسكتَ اسكت .. تفضح فينا ..

فابتسم وهو يهمس: هو أنا يعنى ناقص .

– تعال ..

أمسكت يده تجذبها برفق تعبر به الصالة نحو غرفة نومها، دخلا، وبعد أن أغلقت الباب بالمفتاح تركته، وبغته قفزت إلى فراشها الوثير .. وقفت لثوان والفراش يصعد بها ويهبط قبل أن تسقط متكئة على ركبتيها العاريتين، وقد أثنت ساقيها أسفل ردفيها، ضمت يديها أمامها وأراحتهما بخفة أعلى فخذيها العاريين .

وكأنه يستعيد وعيه التائه .. بدأ يمسك بملامح المكان المتسع .. غرفة النوم الإيطالية الفاخرة الصنع، والسقف المزين بالثريا، والإضاءة الخفية لا يدرك من أين تأتى .. الستائر الدانتيل الأنيقة، قطع السجاد الثمين، وأنثى نمرة، نصفها السفلى عار، تهتز على فراشها الناعم الوثير هبوطا وصعودا، تنظر نحوه بابتسامة مطمئنة تسبر غوره .. عندما بدأ ينظر إلى عينيها مبتسما .. نادته برقة ..

– تعال .. تعال ..

دقائق طويلة ظل فيها يدور على مهل حولها وحول الفراش، يقف وهلة يرشفها كقهوة صباحية، ثم لا يلبث أن يبدأ فى الدوران عائدا إلى حيث بدأ، وهى تدور معه من على مبعدة يرتشفها بعينيه على مهل، وتملأ به ناظريها.. ثم لا يلبث أن يستند بجذعه إلى الحائط مغمضا عينيه بها فى خياله يتعبدها وحيدا .. قميص نومها "البيبى دول"، يصل لأسفل أردافها، ويتوقف بكنار من الدانتيل الأبيض كاشفا عن سروالها الداخلى .. ذراعين لينين وكتف يبيع عمره كى يلثمه، وفخذا مهرة قوية صغيرة .. جدائل شعرها الأجعد الفاحم

السواد عباءة تتوج جسدا مرمريا صب من الرخام .. ربما التعب أو الأرهاق دفعاه إلى أن يجلس على الفراش معطيا لها ظهره وقد خبأ رأسه بين ذراعيه مندهشا، اندفعت تجلس بجواره وقد التفتت رافعة رأسها لأعلى تنظره ..

– بتخجل ..!

لم ينطق .. استطرد وهى تفك ذراعيه عن رأسه: مصرى مو هيك..؟

– ايوه .. نطق بصعوبة.. اسمك.؟

– ما تعرف اسمى .. بس انا نعرف اسمك..

نظر إليها مبقيا على تساؤله فأجابت:

– سلمى ..

همست مقلدة اللكنة المصرية: بيفكر فى ايه الجميل.. ؟

ابتسم لسذاجة العبارة وجمالها حتى أن وجله انزاح عنه فى لحظة:

– مش مصدق ..

– مش مصدق شنو..؟

لم يجبها، تراجع للخلف مستندا بجذعه على وسائد الفراش، ونصفه الأسفل لا يزال يتكىء على الفراش ..

همست ثانية: مش مصدق شنو الجميل.؟

– مش مصدق انى هنا .. قريب منك .. يعزلنا عن العالم جدران اربعه، وحيدين بعد ان كنا نلتقى لحظة خاطفه..

ألقى برأسه إلى الوراء مغمضا عينيه، رافعا ذراعيه إلى أعلى، محاولا أن يستقل بوجوده مستعيدا وحدته، كالبرق اندفعت إليه دونما إرادة تلقى بجسدها إلى صدره وبين أحضانه..

تلاطم النهدين والجسد اللين، يخترق ضلوعه .. صدمة الشبق الجميل .. وكأن شلالات من الورود الثقيلة المرطبة بالندى تندفع ترتطم بجسده .. مستقبلا أمواجها الوردية العاصفة ورياح عطر جسدها تدفعه إلى برازخ الهوى وجزر الصفاء .. عبثت بأزرار قميصه بعصبية.. مد يديه ينضوه عنه، انتظرت حتى فعل، ثم دفنت رأسها فى صدره العارى واستكانت بساعديها تحت إبطيه، معلقة ذراعاها به وهى تهمس: أديش انتظرت هادا.

رفعت رأسها نحوه.. اتركنى أنام بحضنك .. وكفى .. غاصت بوجهها فى صدره فهتف :

– احبك .. احبك .. احبك .. احبك..

ظل يرددها طويلا وكانت تصغى له دون أن تنطق متشاغلة بشم جسده الفرعونى الفارع ..

لم يدريا كم من الوقت مضى ربما ثلاث ساعات، ضمها برفق ، وهى ساكنة لا تريم.. غفلا سويا.. استيقظ عندما شعر بالبلل يغمر صدره .. كانت تبكى .. مد أطراف أصابعه يعبث فى جدائل شعرها، رفعت إليه عينيها طويلا يغوص كل منهما فى الآخر .. لم يدر ماذا ألم به .. كان مدلها فى حبها ..

– بحبك..

- قوام هيك .. تكذب على ..؟
هز رأسه نفيا كان عاجزا عن الكلام ..
- أنتم يا مصريه تقولوا كلام معسول ..
- انا قلت ..؟!
ضحكت من خلال دموعها وصاحت بصوت مرتفع: توك نطقت .
تحدث بلهجتها: أيش أقول؟
- أى حاجه .. غنى .. قولى حاجه .. أى حاجه.. قول بحبك .. قول..
همس: انا بحلم ..
هتف وهي ترفع رأسها: صحيح..!! ولا تضحك على .. صمت لم ينطق .. جذب رأسها ناحيته وهمس: نامى .. نامى على كتفى ..
- أنام .. أنت تملؤنى ..
ونامت ونام .. حتى الثالثة استيقظ وجدها تلثم عنقه .. تركها مستمتعا بشفتيها، تغرقه بقبلاتها، قبل أن يميل إليها يقبلها وعندما فعل .. ألقت بظهرها إلى الفراش، واستقبلته فى حنين جارف ..

كان يلثم كل جزء من جسدها ببط، يتجرعه على مهل، يشربه فى وله، كانت تنظره، وعيونها تتسع عن دهشة غامرة، ولما بدأ يلثم أطراف أصابع قدميها اندفعت تجذب رأسه نحوها، تضمه إليها، تمنعه وكأنها تريو أن يفعل .. تخلص منها برفق فلما فعل عاد إلى قدميها يلثم أطراف أصابعها بوجد وله وعشق مشبوب، وجسدها يحل به الشبق الحاد.قبل أن ينتهى رفع رأسه هامسا:

- احبك .. واحب كل جزء فى جسدك .. .. احبك .. لم يحدث فى عمرى اني وقعت في سحر زي سحرك .. وانحنى يعيد لثمها من جديد .. باطن قدميها الوردى .. عندما صعد لساقيها انحنت تلتف به .. نعومة الأزهار فى ملمس بشرة فخذيها .. البطن الكثيب .. مالت بجذعها إلى الخلف تتمطى فى نشوة غامرة .. أدارها فى رفق فانسابت معه كلحن موسيقى. طراوة الندى على الأرداف.. عندها بدأت تهمس بأنات الوله ولسعات اللهيب تأتيها من لثمات شفتيه تمسح ظهرها فى بطء وهدوء .. عائدا إلى النهدين، مخفيا وجهه فى أمواج نهرها السحرى، يرشف مياهه السلسبيل .. صاعدا إلى العنق .. رافعا رأسه يلثم وجهها .. كانت تبتسم فى سعادة .. دفعته للخلف وقامت إليه تلتهمه بعينيها .. مد يديه جاذبا جدائل شعرها الليلكى يتشممه ولها، جاعلا منه خيمة من الليل تحيط به.. جنت .. اندفعت إليه تعانقه فى صخب وشوق جنونى.

عندما تركها بعد الفجر بقليل، والظلام لا يزال يخيم على المدينة، ظل طوال يومه يردد اسمها .. سلمى .. سلمى .. سلمى .

* * * *

فى صبيحة اليوم التالى وكان الجمعة، انفرد عبدالله به .. قال له:
– كنت فين طوال الليل. ؟

لم يجيبه وبقى صامتا .. قال له دون غضاضة: احذر .. علمتنى الحياه فى بلدنا لا يوجد السر اللى يعيش طويلا .. غربتنا سببها لقمة العيش يا صاحبى رفقتنا ما كانت عيش وملح وبس .. دى رفقة سلاح .. لو حد عرف من الشارع باللى حصل ح يسحلوك، ولو نجيت من السحل، ح يكون السجن فى انتظارك.. وانت لا معاك اقامه ولا هويه.. تظن اننا جينا لهذا الفرض.. لم يجيبه نبيل، تيقن أنه لن يصغى إليه..

فى صباح السبت خرجا سويا، وفى ناصية الطريق أطلقت إليه ضوء السيارة من بعيد .. ابتسمت هذه المرة لكليهما سويا، محيية عبدالله، واستمرا هى ونبيل يبتسمون فى تواطؤ، قبل أن تعبرهم، أرسلت إلى نبيل أشارة خفيه من أصابعها، ثم غابت فى حوارى درنة ودروبها .. فى هذه الليلة، وبرغم ابتسامتها الودودة إليه بوصفه صديقا لنبيل، عزم على الرحيل.

www.books4all.net

الفصل الثالث عشر

-١-

على باب الحوش وقفت سياره بيك أب، نزل منها أبونديم ومعه شاب ليبى يعمل سائقا على خطوط طرابلس درنة، رحبوا بهما ودعوهما للدخول لكنهما كانا متعجلين، بابتسامه الرجل المطمئن الواثق من نفسه خص أبونديم عبدالله بالسؤال:

- شو، كيف حالك؟

أجابه بإبتسامه أعجز من أن تخفى أكتئابه: بخير ياعم ابو نديم، اتفضلوا، ادخلوا اشربوا شاى.

قال أبونديم: والله، صار فيه شاى !! مش مصدق .. مبروك فيه شاى ولا لا ؟

أجابه: فيه طبعا .. صحيح بتاع نبيل، ولكن بكره نسد له.

نظر له نبيل بغضب: الحوش مش غريب على ابونديم ..

قال الليبى: معلش، سامحنا يا اخى احنا فى طلب وبدنا نرحل فورا.

تساءل أبونديم: بتعمل الآن .. ؟

قفز قلب عبدالله من حلقه: انا.

- ايه انت، فيه حدا غيرك.

-اعمل مع نبيل، لكن إذا عندك شغل ما فيش مانع.

- باهى الاخ على الفرجانى يبى راجل امين وشغيل يخدم عنده، ويقدر يعتمد عليه بمزرعته وانا قلت أله، بعرف راجل مؤدب ومليحه اخلاقه، وهلا جئنا لعندك .. ايش تقول.. ؟

كان حديث أبونديم اللبق كافيا لجعله نفسيا مستعدا لقبول أيه شروط، فقليل من الكرامة لديه وصون ماء الوجه بمال الدنيا، ولهذا عندما سمع الحديث ورأى الليبى وهو يؤمن على كلام أبونديم، نسى عمله مع نبيل والسفر إلى بنغازى، وغمره شعور بالشكر والعرفان للسورى.

- مرحبا ابونديم تحت امرك، بس لازم تشربوا الشاى.

قال الليبى: شكرا، شكرا.

عقب أبونديم: يا اخى على كل حال، المهم بدك تشرفنى عند الاخ على، ومن ناحية الفلوس، تاكد آخر كل شهر بتوصلك على داير الدرهم، والرجل مقتدر ولا ياكل فى عرق عماله.

– ايووه .. عقب الليبى.

ظن عبدالله أن راتبه لن يقل عن خمسين دينارا، كاد قلبه يقفز بين ضلوعه، وأبو نديم يستطرد قائلا:

– اما السكن والأكل فسوف يتكفل بهما الاخ على، اسمع إذا قصر فى شىء، انا المسئول، مع الاخ على، ح تكون فى غاية الانبساط .

قاطعه عبدالله: باهى ياعم ابونديم .. – وكان يخاطبه بعم برغم ان عبدالله يكبره بسبعه أعوام – مادام جيت لحد هنا انا اعمل من غير فلوس خالص علشان خاطرك.

قاطعه أبو نديم غاضبا، غامزا له بعينيه فى ضيق دون أن يهتم بالليبى:

– كيفك خيو .. كيفك تقول هيك كلام تسوى هيك شغلات فارغه، اوعاك وله، حقك تاخذه على داير درهم، عرقك ما تفرط فيه، ليش انتم يا مصريه .. و استدار يحدث الليبى .. و لا لأ اخ على .

أمن الشاب على قوله فى أدب: احنا ناكل حقوق الناس، نروح من ربى فين، الله خالقنى نروح جهنم، أنا وباتى(١٣) نخاف الله .

عقب أبونديم: غدا الأخ على .. سأله: امتى بدك تعدى عليه؟

– فى العشيه .

استطرد أبونديم: تجهز اغراضك من شان تقعد فوق الجبل، ماتنزل كل يوم ولا حتى اسبوع .. باهى.

فى هذه الليلة حدثه نبيل على فراش النوم:

– فاكر حمدى.. المدرس السلكاوى اللي كان معنا واحنا نعبر الحدود.

– ماله ..؟

– اخذ الجنسيه.

– ازاى وهو دخل ليبيا سلكاوى.

– راح مركز الشرطه، طلبها اعطوها له.

– ويستفيد بها ازاى.. ؟

– كان معاه شهاداته.

أشاح المبروك بيده: الجنسيه توفر كل شىء، سكن وعلاج ويتعين على درجه كبيره .. يعمل ايه..؟ شهر ما يقدر على الخروج من الحوش..تعرف لو الحكومه فى مصر عرفت.!

قال نبيل : ايه ح تعمل يعنى، هو لقى ياكل فى مصر وما قعدش، وكمان مدرس، يعنى روح الاطفال بين ايده، امال احنا نعمل ايه.

سأله عبد الله: بتفكر تاخدها .. ؟

شعر بالحرج: مش عارف، ايه رايك .. ؟

– حد يترك مصر، الناس تروح مصر واحنا نتركها.

-٢-

جلس منتشيا فى مؤخرة السيارة نصف النقل التى تقله لأعلى الجبل الأخضر، واضعا أغراضه القليلة بجانبه، عندما غادرت السيارة الطريق الأسفلتى القديم منعطفة إلى مدق ترابى يتلوى مخترقا الوديان صاعدا الجبال فى انحرافات حادة، شاهد الشجيرات القزمية تغطى سطوح الوديان والجروف ، وقمم الجبال بخضرة داكنة، شعر برعدة البرد والجو تتكاثف فيه الغيوم منذرة بمطر غزير، فى الأنحاء شاهد براكات الرعاة المصنوعة من صفيح التنك تتناثر فى أرجاء الوادى وسفوح الجبال، وقد بدت كاأشباح تقف وحيدة وسط السكون المخيم على الفضاء.

بعد ساعة ونصف بلغا براكة من صفيح التنك، شيدت على قمة هضبة ممتدة الأرجاء، وخلفها ارتفع الجبل فى انحدار مباشر، فى الأمام ومن حيث قدموا كانت الهضبه تنحدر ببطء نحو الشرق،حتي تصل إلي بطن الوادي المنبسط الأرجاء. وقفت السياره،دعاه الشاب للنزول وهويأخذ طريقه للبراكه هاتفا به: توا نجيك..

دفع الباب ودخل تاركا عبد الله واقفا بجوار السياره، وسط جو زمهريري، يحدق في البراكه والسور الصفيح المحيط بها ينتهي بحظيره للأغنام وجرار قديم متهالك. ظل ينتظر عودة الشاب ليدعوه للدخول، وينقذه من هذا البرد القارص دون جدوى، تشاغل عن الأنتظار بالتفكير، لم يكن يعرف بالضبط طبيعه عمله، تساءل..أين تقع المزرعه ؟ لكنه وعلى امتداد النظر لم تكن ثمه أرض تصلح للزراعه، خمن أنها ربما تقع خلف هذه التلال، قدر من السعاده خالجه لمجرد انه سوف يعمل بالزراعه، فليتركوا الامر لى وسوف احيل ارضهم جنه، لو أنهم يعطونه الأرض مشاركه بدلا من الراتب، والله من مصلحتهم .. ليه لأ .. لكن مابال على لا يخرج، الوقوف فى البرد غير العمل فيه، عاد لتأملاته متخيلا ابنة الرجل وهى تكشف فى خجل شديد عن جزء من وجهها الأبيض المدور تطارده عيونها النجلاء بنظراتهم اينما يذهب، تدخل عليه مكان إقامته فيهرب منها للعراء .. فتح باب البراكة قطع عليه أفكاره، خرج على وخلفه شيخ عابس الوجه، متجهم الملامح، فى العقد الثامن من العمر، ارتدى الملابس الوطنية، شنه(١٤) وصديرية مزركشه حمراء، وقميص ابيض ، والسروال الأبيض، تقدم نحوهما وعلى وجهه إبتسامة واسعة مطمئنة، والشايب يهتف بإبنه:

- هذا هو المصرى.. شنو إسمك؟

أجاب متلعثما وهو ينظر بحيرة إليهما عبدالله ..

- تبى تخدم..؟

قال فى نفسه.. وعلام جئت إذن : نعم..

- باهى.

قذف إليه ببطانيتين قديمتين، إحداهما مهترئة، والأخرى لازالت متماسكة.. استطرد العجوز.. هاك فرشك وغطاك.. اتمدد هك.. وأشار إلى جوار السور.. همس عبدالله معترضا على نومته فى العراء:

– فى الطل ..!!؟

قاطعه الشايب: باهى .. توا نام هكَ (١٥) وبعدين نسوى فى براكه.. لم يكن أمامه خيار، نفض عن خاطره أحلامه وتخيلاته البهيجة فى يأس، وحل محلها الإحباط والمرارة.

بعد أن أعياه البحث عن مكان مستو وجد على بعد خمسين مترا مكانا مغطى بالحشاش، مد أحدى البطانيتين والتف بالأخرى، شعر بالبرد يقرصه فقام يرتدى ملابسه كلها، شدد من إلتفاف البطانية حوله وتمدد، قبل أن ينام، أقسم بالله أنه لو طرق باب يهودى فى ليلة من ليالى الصيف وليست كهذه، لتخلى له عن حجرته التى ينام بها إكراما لغريب، لكن هؤلاء..!! رقد فى العراء، ينخر عظامه البرد حتى بات موقنا بأن ما سوف يجمعه من دنانير لن يكفى لعلاج آلام الروماتيزم التى بدأت تنتشر فى جسده .

قبل أن تشرق الشمس على حافة الأفق كان الشايب ينفزه بعصاته يوقظه، فتح عينه على وجهه الضامر العبوس، أن يدعوه لداخل البراكه كأقل من كلب حراسه دون جدوى، وهلة وألقى الشايب له بالإفطار، شرب الشاى الأسود الثقيل المحلى بالسكر مع بقايا الخبز الباقى من طعامهم مخلوطا بمعكرونه بارده مغموسة فى الهريسة الشديدة الألتهاب، عافها فى الأيام الأولى.. كيف بالناس تفطر على معكرونة، لكنه الجوع.. علمه أن يلتهمها إلتهاما فيما بعد، حين انتهى ألقى إليه الشايب بجراب به رغيف ضخم من الخبز البيتى، ورأسين من البصل، وعلبة من المعلبات الفارغة يستخدمها فى عمل الشاى ومقنن من الشاى والسكر، وبعدها رحل على ثلاثمائة رأس من الماعز يقودها كلبان، أحدهما قوى الشكيمة متوحش، والآخر مستسلم يتبعه كظله، إن هاج عليه خفض رأسه وأذنيه ووضع ذيله بين قدميه الخلفيتين صاغرا ذليلا.

فى رحلة طويلة يومية يأخذ الجميع .. الأغنام والكلبين وعبدالله طريقهم إلى الوديان والجبال بحثا وراء الكلأ والمراعى الغنية بالعشب الأخضر، وعندما تقارب الشمس للسقوط خلف خط الأفق يبدأون جميعا فى العودة خلف الكباش التى تعرف طريقها جيدا، يدفعها الظمأ الى المياه دفعا للعودة.

توقف العجوز عن إيقاظه، واعتاد هو النوم فى حظائر الغنم، طلبا للدفء، تقيه شر الرياح وتمده ببعض الحرارة، أياما كان النوم يأخذه من شدة الإنهاك فترحل الأغنام باكرا دونه، لحظتها كان يتلقى سيلا من اللعنات تمطره بها المرأة الشابة الصغيرة، فيما بعد تعود أن يربط قدمه قبل النوم بحبل يتصل طرفه الآخر برأس كبير القطيع، عندما يبدأ الكبش فى جره يسارع بالنهوض حيث يجد مخلاته معلقة على سور التنك، وبها طعامه اليومى ودخانه وعصاه فيخطفها ويسير راحلا خلف النعاج والاغنام، تاركا إياها تأخذه إلى أى اتجاه، وتحط به فى أى مكان، وعندما تصبح الشمس فى كبد السماء ويحين وقت القيلولة، ينصب عبدالله عصاه مثبتا بها قطعه من قماش الخيام، واضعا نصف جسده تحت ظلها، تاركا الباقى للشمس.

فى الأيام الأولى ظل يبحث طويلا عن شجيرة تمكنه من أن يستظل بظلها، عبثا وجد، ولما كان من العسير عليه أن يسترسح قليلا او يجلس لدقائق دون أن يقوم لإحضار عنزة شاردة

أو غنمة تباطأت متلكئة خلف الغنم، صار يتأخر كثيرا فى العودة حتى ينهكها، وعندما تأتى القيلولة يستلقى تحت خيمته، تأخذ الغنم فى النوم زمنا طويلا ويتمدد تحت قدميه الكلبان، بعدها يعكف هو على تناول طعامه خبزا مغموسا فى الشاى والسكر، وأمامه تمتد الأرض الداكنة بالخضرة، بالغة العمق والاتساع، الثنايا والطوى خلف الطوى وبين كل منها اتسعت المسافات وتحدبت وتتابعت المنحدرات والهضاب، واحدة خشنة كعجز امرأة عجوز، وأخرى ناعمة كنهد فتاة بكر لم تجد إليه اللذة طريق بعد، وقد غطى جسد الأرض الزغب الأخضر، شجيرات صغيرة ونباتات عشبية، فى الوراء كانت السماء تطل عليه كما هى منذ عبوره الحدود، غيوم داكنة وأفق ضبابى بارد ورياح تشد عليه وتقسوه، ثم تلين، وفجأة تدنوا منه وتهاجمه بعنف، كان الأفق يبعث فى نفسه الارتياح وسط طبيعة جرداء وسماء غيومها ثلجية، سرعان مارحلت أحاسيسه الباهتة بالراحة والجمال، وحل خلفها نزوع إلى الملل الشديد، فيميل إلى النوم من تعب ومشقة التجوال خلف الغنم، التى كان يشعر معها بأنه سيد مطاع على رعيته، يركل هذا ويضرب تلك بالعصا ويدفع ثالثه، يطلق الكلب وراء ماعز غابت فى ثنايا الجبل، ولا يلبث أن يتمدد وسط الطبيعة الباردة الجافة، يلمح منحدرا شاهقا وقمة لجبل تطل عليه، غيوم تتجمع فى الأفق، طيور تحلق من شاهق ثم تهبط فى حلقات مستديرة، تغوص فى قرار جرف صخرى عميق، تختفى ثم تعود محلقة إلى أجواز الفضاء، ويقوم بحثا ، عن أرض عشبية يدفع إليها القطيع، ويرى أخرى حجرية متصلبة يحدق بها وقد كستها أنواع غريبة من نباتات شوكية، ثم ما لبث أن تماثلت المناظر والمشاهد فأخذت وحدته تؤرقه يوما بعد يوم وبدا العمل ثقيلا على النفس، ملولا باعثا على الضيق، يمضى يومه فى آليه محضة، ينام مبكرا ويستيقظ مبكرا، وطوال يومه يسير مرهقا خلف القطيع يجمع الضال منها ويدور بها فى رحلة تنتهى، يسرق القيلولة ويعود بعد أن يهلكها ويهلك هو، تنبعث من جسده وملابسه المتسخة رائحة الغنم النتنة ويمتلأ جسده بالحشرات القذرة.. قمل وبراغيث وحشية. ما أن يصل البراكة حتى يجد ابنة الشايب الهجاله(١٦) وتدعى نوريه فى انتظاره.. تمطره بلسانها السليط وهى تفتش فى الأغنام، تراعيها وتطيبها وتداويها، تولد الحامل منها وتحذره من ذلك وتوصيه على تلك، تحاسبه، هذه لم تأكل ثم تعدهم فى سرعة وبراعة وعندما تتأكد من سلامتهم تأخذهم جميعا إلى حيث تسقيهم من عين بالوادى، فإذا انتهت ألقت إليه بعشائه المصنوع دائما من المكرونة المملؤة بالهريسة، تتوسطها قطعة من الدهن وأحيانا أمعاء الماشيه، فإذا أنتهى سعى للهروب منها ومن لسانها السليط الموتور الدائم الحنق، حتى ولو لم يكن هناك ثمة شىء.. عشرات الأسئلة تعود أن يستمع لها ولا يجيب:

- كنك.. ليش رجعت بدرى.. ؟
- كنك.. ليش رجعت متأخر.. ؟
- كنك.. الأكل مو عاجبك..
- كنك.. ما تراعى فى الغنمات.. ؟
- كنك.. تباهت فى الغنمات.. ؟

- كنك.. نايم قريب.. ؟
- كنك.. نايم بعيد.. ؟
- ليش.. ما بتستحم.. ؟
- .. ريحتك صارت منتنة.. الميه واجد.. ؟
- .. على إيش تستحم.. ما فى ميه.. ويلى.. تلاقى عندك وقت..!!

وهكذا لا تجد المرأة الصغيرة ماتفعلة طيلة نهارها وليلها سوى عبدالله، العبد الذى أرسله الله لها، تفعل به كيفما تشاء وهى تتيه إعجابا بذاتها، وكأنها نورية بنت الحاج فرجانى العالم العلامه والحبر الفهامه التى وجدت فى عبدالله الحمار الذى ستحوله بغلا، بينما كان أبوها إذا تحدث عن معارفه الجمة وخبراته العريقة فكأنك تحادث أحد علماء الفقه والسنة، أما العجوز فإذا حدث ورأى وجهها من خلف الجرد، فكأنه رأى وجه قط متورما شديد الغضب والعبوس مستنفرا، وكانت نورية قد قتلت فيه كل إحساس بالراحة والبهجة فمنذ اللحظة الأولى التى ألتقى بها فى صباح اليوم التالى لوصوله، تخيلها أنثى خجلى تخفى وجهها عند رؤيته، تلقى إليه بتحية الصباح، فتقول صباح الخير.. أو حتى تكتفى بكلمة.. خير فقط.. لكن تخيلاته كما كانت دائما قاصرة ساذجة، إذ وجدها سافرة الوجه ممتلئة العود ترتدى الرداء فوق سروالها الفضفاض المملوء بالرسوم الزاهية لا تناديه إلا هاتفة.

- هيا .. هيا يا فوال.
- وين الغنمات راحت.
- أرجى فيهم، عجل، هيا .. هيا يا تيس.
- هاد جرابك..

وإذا لمحته يتلكأ خرجت تنهره صائحة:

- هيا .. هاك المخلة يا مصرى.
- سجدنا يا فوال.

شعر بحرج عميق، الكلبة مرغت أنفه فى الرغام، منذ عبوره الحدود والإهانة تلاحقه كظله، أما أن تحتقره امرأة بهذه الكيفية، تكنيه بفوال لا طعام له سوى الفول الرخيص الذى تطعم به البهائم، كانت فى ذهابها وإيابها تكنيه قائلة:

- دير بالك على الغنمات يا فوال ..
- هيا.. تبى تاكل، أيووووه الفوال مصروع على الأكل وتارك الخرس تجوع. كان يحدق فيها غاضبا دون أن ينطق بحرف ويرحل والجوع ينهشه، يحادث نفسه كالمخرفين.. إذا لم آكل هنا، اين آكل إذن، ربماتريدنى أبتلع الصبار مع المعيز، كانت إذا اشارت إليه ففى احتقار، وفى صوتها نبره مملؤه بالازدراء وكأنها تلقى بمخاطها، لم تكن تتجشم مشقه النظر إليه.

– المصرى هذا.. الفوال هذا.. انتابه إحساس بالضآلة الشديده.. شعر أن أجره هذا إنما عن شحاذه وليس عما يبذله من عمل شاق، ليس مجرد طعام يومه ، تحطمت نفسيته، وانهار جسده، واصبحت رحلته عذابا جديدا من الإرهاق، كل شيء صار مسموحا.وعاد المطر للسقوط مره ثانيه، غزيرا شديدا متواصلا لا يتوقف إلا لفترات قصيره ثم يعود للإنهمار ثانيه. فى الليله الثالثه لسقوط الأمطار استيقظ فى منتصف الليل، كان يسبح فوق نهر من المياه تجرى من تحت جسده كالجداول.. استيقظ وقد ابتلت ملابسه، وطوال الليل ظل يفكر فى الدخول لبراكه مره بعد المره يتقدم نحو الباب يريد أن يطرقه فيتوقف خجلا، لابد أنهم سوف يفتحون له، ما بالهم لا يفتحون ؟!.. ألا يشعرون بسقوط المطر، أأطرق الباب؟ لعلهم نيام.. لا.. لا تفعل .. انت لا تعرف ماذا قد يفعل معك الشايب .. يا الله الرحمة .. وهكذا أمضى الليل مستيقظا حتى كف المطر عن السقوط. فى الأيام التاليه اشتد المطر ثانيه فشرح للشايب آلامه طالبامنه أن ينام داخل البراكه لكن الراجل رفض، فطلب منه أن يبنى له البراكه التى وعده بها لكن الشايب لم يهتم ، فى أحد الأيام عاد متأخرا كعادته فوجد نوريه تفحص القطيع كعادتها، لم يكن قد جلس بعد حتى صاحت به :– هوه.. هوه.. تعال يا فوال ..

قام إليها متثاقلا ولم يكن قد تناول طعامه، قال مقلدا لهجتها :

– تبى شى؟

صاحت بصوتها الحاد كرنين الجرس : نبى .. كيف ما نبى.. وين الغنمه.. تراك ضيعتها.

– شنو غنمه.

– غنمه ناقصه، ياناقص تراك بعتها.

انتفض كمن لدغه عقرب : غنمه ضايعه، مستحيل.. عددتيهم.؟

– من غير مانعدهم، فيه غنمه ناقصه، ضيعتها وين.

جاء الشايب والعجوز من الداخل على صوتهما فأصيب بالإرتباك، صاحت فيه العجوز بصوت جاف خشن:

– كنك ماتدير بالك على الغنم، وأطلقت طلقات مدفع رشاش

لم يفهم من كلماتها شيئا سوى أنها تشتمه

– ياتيس.. يا قواد.. يازامل.. تبى تاكل حرام يا ملعون.

جذبها الشايب للخلف فى لطف، ثم واجهه مكشرا الأنياب، ملقيا إليه بمصباح كهربائى.. صاح بهم عبدالله:

– تروى شوى.. تروى شوى.. أنا نروح نبحث عنها، ليش تشتموا، عبد أنا عندكم ولا ايه، أشترتونى من سوق العبيد !؟

– هيا.. هيا فوال اذهب.. ابحث عنها، ترى والله أنك حرامى، يا كلب، يا ابن الكلب، اشاح لهم بيده، لم تكن لديه أى قدره على العراك وخاصه مع رجل عجوز وإمرأتين، أعطاهم ظهره ورحل بأتجاه خط سيره اليومى بحثا عن العنزه، غمغم.. سير فى هذا الليل الأسود الطويل.. لم أشلاك المبعثره.. ده الفلاحين نفايه هو كان للحرب غايه..

-٣-

سير يا ابن عبد الجليل فى هذا الليل الأسود الطويل.. لم أشلاءك المبعثره.. هو كان للحرب غايه.. هذا الليل الأسود الطويل المغيم على موقع الكتيبه، عند الذهاب إلى مقر القياده لإستلام تمام إجازته والساعه لم تبلغ الخامسه صباحا، شخصا ما نادى عليه فى الظلام من مطبخ الميدان، .. إبراهيم عبد الفتاح:

- عبد الله.. عبدالله رايح تستلم تصريح الاجازه..

نظر نحوه مندهشا: ايه اللى عرفك.. ؟

- طارق صبرى.

- مال طارق الزفت ومالى..؟!

- وحياة ابوك انا طالبك فى خدمه.

- خير

- انزل الاجازه دى بدلك..

صاح غاضبا: مقدرش، انا طالع دين اهلى، اعصابى ح تنهار.

- وانا ح تجوز.

- تتجوز..!

- اى والله.

- طب واعمل ايه، ماتتجوز بعيد عنى.

- ماهو اللى ح يتجوز محتاج اجازه يا عبدالله يا خوى.

- وهى حَبكَتْ معاى، ماتروح تاخد اللى انت عايزه منهم.

- مانت عارف يا خوى الاجازات موقوفه وانا رتبت كل حاجه والبلد كلتها مستنياني.

- يا اخى اتنيل، مستنيين ام كلثوم ولا عبدالحليم حافظ، روح اجرى بلا نيله.

- الرائد هشام قال لى.. عبدالله الوحيد اللى وافقوا له على القيام باجازه، اتصرف معاه.. ابوس ايديك، وحياة ابوك، الله يرضى عليك، مال يقبل رأسه فتراجع عبدالله معترضا.

- خلاص، خلاص يا ابراهيم.

- وافقت، وافقت، يا سلام على الجدعان، احب راسك، ابوسها.

- خلاص ياعم. انا رايح اسحب لك الاجازه من عند الصول عبد المسيح، صرخ وهو يجرى لأسفل الخندق، يصلح من ملابسه ويرتدى البياده: لأ .. لا وحياة ابوك، انا اللى ح روح له.

- انت خايف ارجع فى كلامى..؟

- ابدا والله.. فلما صار بجانبه قال ضاحكا:

- مين عارف ياخوى، وإنطلق يجرى باتجاه مقر قيادة الكتيبه.. صاح فيه وهو يضحك.

- يا ابن الكلب، مش مستأم.. شيئا ما أوقفه عن الحديث، شيء ما جعله جعله يصرخ به

فى جنون.

اوعى.. اوعى يا ابراهيم .. ابراهيـــــــم.

الإنفجار الذى دوى فى الفضاء، ألقى به عشرة أمتار فى الفضاء.. عندما أفاق بصعوبة قام نحوه يجرى وهو يصرخ:

– دا ح يتجوز يا ولاد الكلب، عروسته مستنياه، لسه ما دخلش دنيا .. آه يابا.. آه.. آه يابا.. مات ابراهيم بصاروخ جو ارض، مالوش اثر، الواد مالوش اثر يا ولداه، مين فينا اللى كان ح يموت، انا ولا انت، يا رتنى كنت انا، يا رتنى كنت انا.

فى ثوان معدودة كانت الإنفجارات تدوى فى كل مكان بأرض الكتيبة وقد تحول فضاؤها إلى قطعة من الجحيم.. نار ولهب.. غبار ودخان.. دور على العنزة يا ابن عبدالجليل .. لأ.. دور علي مدفعك.. عنزة مين ولا حتى جمل.. سيبك من ولاد الكلب، دور على طاقم مدفعك.. الدخان لا ترى منه كف اليد.. انا فين .. فين اتجاهك.. اجرى هنا وهناك.. فقدت الاتجاه.. تتعثر فى جثث.. جثث مبعثره.. ايوه ايه ده.. سلك تليفون اتصال الوحده.. امسك به واجرى وراه عله يدلك ع اللى بتبحث عليه.. يا الله.. ما هذا الدمار.. لحم وعظام متنتوره.. اشلاء مبعثره ومجارٍ من الدماء.. تلات مدافع مُدمرين.. جهاز ربط الطبه ومكبر الزوايه متنتورين ع الارض.. ماسورة المدفع وزنها طن وطولها تسعه متر محنيه للامام .. الصلب صار كنافه.. هو ده النايالم..!

– عبدالله .. كنت فين ..؟ ناداه نبيل

– ايه موقفك ..؟

– مدافعنا والمدافع ارقام تلاته وسبعه دمروا، خسارة السرية ٢٧ ٪.

– وبقية المدافع.

– هرب الجنود.

– كام واحد من الطاقم فاضل..

أجابه محمود: سبعه.

– شغل مدفع رقم اتنين. وانا جاى، ح تقدروا..؟

– نقدر على امه، مادام شغال، احنا قلنا كده بس الخول طارق صبرى!!

– ماله..؟

– هو اللى منعنا.

– والملازم احمد حسن.

– مات.

– والملازم مدحت..؟

– ما انت عارف، تلاقيه مستخبى فى حفره برميليه ، متبول على نفسه.

برقت عيناه وصرخ فى رفيق السلاح:– اطلع على المدفع وان الكلب طارق كلمك اضربه بالرصاص، معاك طبنجه ..؟

– لأ.

– فين فين جثة الملازم احمد.؟

– هناك. جرى ناحيتها، نزع المسدس وإستدار يبحث عن بقية السريه.

الذعر.. الذهول.. إسهال الجنود وسقوط شعر بعض منهم.. وأمامه حشر أثنى عشر جنديا هم طاقم المدفع رقم أربعه أجسادهم حشرا فى أحد الخنادق، يحتمون بساتر رملى.. قفز يركلهم بأقدامه صارخا يبلغ مسامعه دمدماتهم فى رعب.

– احنا غلابه.. احنا غلابه يارب..

– قاعد ليه يا روح امك.. قوم يا ابن الكلب قوم.. ربنا على المدفع هناك مبيستخباش فى الخنادق.. قوم يا ملعون هو ده وقت الركون..

نظر اليه قائد الطاقم بغضب واستدار قافزا نحوه يحاول أن ينشب أظافره فى عنقه وهو يصرخ به..

– وانت مالك يا ابن الكلب.. دفعه إلى الأرض بعنف جانبا وسقط فوقه مصوبا فوهة المسدس على رأسه.

– اقسم بالله العظيم اضربك بالرصاص.. وألتفت ناحية البقيه.

– حد فيكم معترض.. وعاد يصرخ كالمجنون ثانية.

– ده تهمته هروب.. اللى مش ح يرجع يشتغل على مدفعه ح اعدمه رميا بالرصاص..

قفز الجنود وكأنهم فى حاجة لمن يدفعهم للعودة إلى مدافعهم.. وانت.. قوم يا جبان.

كان أول من عاد للعمل من مدافع السرية، مدفع رقم ٢، صوت الطلقاته التى دوت فى الفضاء أعاد للفصيلة اتزانها، نظر ناحيته كان محمود يصرخ به ضاحكا: تمام يا وله..

أجابه وهو يستدير باتجاه المدافع الأخرى:

– تمام يا ابن الكلب.. دقائق وارجع لكم.. من بعيد كان قائد البطارية رقم ثمانية يجرى نحوه.

– فيه عطل بالمدفع عبدالله.. أجابه وكلاهم يجري سويا باتجاه موقع المدفع.

– وطاقم المدفع..

– كلهم ع المدفع.. لكن الحاسب والرادار متوقفين عن العمل..

– وايه يعنى يا وله.. ضغط على أجزاء الاتصال الكهربائيه هنا وهناك، وعندما استجاب الردار للعمل كمستقبل صاح بهم:

– تقدر تشغل نصف آلى يا جندى.. انتظر.. نتأكد من تشغيل ربط الطبه.. صعد على الموجه كان الجهاز قد أصبح قادرا على مطابقة الطلقات مع هدف.. قفز خارج المدفع وطاقمه ينظرون إليه يتابعونه فى ترقب لا يدرون ماذا ينوى فعله.. صاح بأعلى صوته:

– مدفع رقم ٨.. . .. جاهز للضرب..**اضراااابْ**

وكأنها إشارة الحرب.. قفز الجنود على المدافع بجنون.. فرق خيالة تدك الكون.. ترمح لساحات الوغى.. وعلى صفحة السما تحفر.. حقولا من لهب وساترا من النيران..

قبل أن يبلغ مواقع القتال الأخرى، كانت المدافع المتبقية من السرية تعمل جميعا الآن، عاد إلى مدفعه، لم يحاول أن يستعيد مكانه على جهاز التوجيه، وقف بجانب جنود مناولة الذخيرة الذين كانوا يعملون جاهدين لتلقيم المدفع بالطلقات زنة المائة رطل بعد أن فقد الطاقم خمسة من الجنود.

فى الساعة الرابعة عصرا، توقف القصف بعد يوم مرير ظلت فيه الطائرات الإسرائيلية تهاجم اللواء طيلة النهار، قاموا يدفنون أشلاء الشهداء فى الرمال، من بعيد ظهر العريف طارق صبرى مخفض الرأس.

قال محمود معرضا: عبدالله يا ولد ابوى، هى عقوبة الهروب من الخدمه ايه.. ؟

قاطعة أبورحاب: الضرب رميا بالرصاص..

ضحك البقية.. عقب المبروك: كل من كان جبان النهارده ح ينتقل من خط القتال، يرجع مصر.

– ليه..! ده انت بتحقق مناه، مكانه الخدمه، المطبخ، بوفيه الساده الضباط علشان ما يحدثش تأثيرا سلبيا على الروح المعنويه للجنود..

لم ينبس طارق ببنت شفة وإنما ألقى بجسده إلى فراشه دافسا رأسه فى جدار الخندق، دقائق طويلة مضت قبل ان ينطلق فى بكاء هستيرى.. المبروك الوحيد الذى لاحظ تبوله على الفراش، قام يبحث عن عبدالله، وجده بالخارج وقد أقعى على ركبتيه يطارد أعدادا من الفئران الصغيرة، وردية البشرة تتشمم بأنوفها جثث الشهداء.. صرخ:

– نهار اسود.. ايه اللى جاب الفئران دى هنا، ح نلاقيها من الصواريخ ولا من التيفود.

– انت غبى، هى جثة الشهيد تنتن طول عمرها، شم يا ابن الحمار، ريحتها مسك، عنبر، شم ودفع كفيه اللتين حمل بهما الاشلاء فى وجهه.

– روح ابعد عنى، كتك البلى، يلا، يلا نلحق السريه.. والصباح رباح..

لم يأبه به واستمر يدارى أشلاء الرفاق وهو يغمغم.. هو الطيران بيعطى حد فرصه يلتفت وراه.

فى الثانية صباحا نودى على الجنود بالاستعداد للانسحاب فورا.. دخل الرائد هشام يتعجلهم.. قال يرد على أسئلتهم:

– اخباريه من المخابرات، الطيران الاسرائيلى ح يقصف اللواء بالنابالم مع اول ضوء.

صرخ نبيل: مستحيل، اصحى يا وله، صحى كل العساكر، قصف بالنابالم..!! يعنى ح يقضوا علينا.

– بالضبط، لهذا السبب، اللواء لا يستطيع المقاومه..

تساءل محمود بغضب: الانسحاب.. ومين يحمى المر .

قال الرائد هشام: لا يوجد امامنا حل غير الانسحاب، خسائر اللواء بلغت ٦٠٪ نرجع المؤخره نوضب احوالنا وبعدها نرجع لاحتلال مواقع القتال من جديد.

– الوضع صعب والطيران الاسرائيلى يرتع بلا رادع، احنا اتبهدلنا، خسائرنا مرتفعه بلا نتيجه.

– هو فيه طيران سقط النهارده.؟

– لم يبلغ احدا، صواريخ سام٢ تأثيرها ضعيف، وبعدين .. ؟

– .. ده الوضع الحالى، نعمل ايه.؟

بدأ الجنود من فورهم فى اتمام عملية الإنسحاب والضباط يستعجلونهم، وحملوا صناديق الذخيرة وأحكموا ربط المدافع وأجهزة الرادار بمؤخرة سيارات الكراز، فى وقت قياسى انهوا مهمتهم على غير ما توقعوا، عندما أصدر قائد اللواء الأمر بالتحرك قفز الجنود للشاحنات باتجاه مطار القاهرة الدولى حيث عسكرت الكتيبة بجوار كتيبة إختبار الصواريخ

–٤–

فى صباح أحد الأيام من عام ١٩٦٩ تنبه على الفوج ٨٩ بقدوم وفد على مستوى عال من قيادة السلاح ومعه زوار أجانب للتفتيش على اللواء، فى الضحى وقف جنود الفوج كلٌ أمام مدفعه فى الوضع انتباه .. القبعات التى شاهدوها تقترب ناحيتهم أثارت فيهم القلق والخوف .. همس قائد البطاريه، رقيب عبدالله عبدالجليل بأحد جنود مدفعه:

– خايف ليه يا عسكرى يا مره .. ركبك بترتعش .. امال لو تعرف انه قائد السلاح، ح تعمل ايه ..؟

– قائد السلاح .. يعنى ايه ..؟

– مش ضرورى تعرف احسن تموت، وبعدين يااابراهيم مفيش جبان يستنى فى البطاريه فاهم، اثبت ده هجوم من القياده مش من الطيران الاسرائيلى.

من بعيد ظهر جميع من قاده السلاح يرتدون ملابس الميدان يرافقهم الزوار الأجانب بملابس التشريفه .، كان واضحا أن بينهم شخصيات عظيمه الأهميه .

– انتباه ..

عندما اقتربوا شد عبدالله من جسده، وبدا أنه ينظر إلى الفراغ، فى الوقت الذى كان يحدق فى جموع القادمين، وامامه مباشره عبركل من رئيس أركان الدفاع الجوى ورئيس العمليات وقائد الفرقه واللواء الغمرى قائد اللواء ورئيس مجموعه الخبراء السوفيت وخلفهم جاء المارشال استافسكى قائد قوات الدفاع الجوى السوفييتى والمكلف من الرئيس جمال عبد الناصر بوضع خطه الدفاع الجوى، كان يحادث قائد أحدث أفرع القوات المسلحه المصريه، وقف القائدين أمامه مباشره، شد من قامته وكأنه على الشفرة الحاده لنصل سكين، استدار القائد السوفييتى ناحيه المدفع المضادللطائرات ال ١٠٠ مم طراز kc 19 واشار قائلا :

– مدفع جيد ..

أجابه قائد السلاح منفعلا : نعم .. مدفعيه ثقيله من طراز جيد تجيد تطفيش الطيران المهاجم، ولكن نحن فى حاجه لإسقاطه وليس تطفيشه، تعلمون سيادتكم أن تطفيشها موقعيا لا يبطل من خطرها، ولا يجبرها على العوده، واستطرد يقول ما سوف يقوله عبد الناصر فى الكرملين بعد اسابيع قليله، ببساطه دفاعنا الجوى لا يتمكن من منع الغارات

الإسرائيليه فى العمق المصرى، ولا يستطيع أن يبطل أو يقلل من نشاطها فوق مجموعات القتال الرئيسيه غرب القنال .. تقدم المارشال خطوتين إلى الأمام متابعا السير وهو يستدير للقائد المصرى يحدثه بلطف :

– أفهم مشاعركم، أستطيع أن أفهم أيضا ما تقصدونه، سوف تري يا عزيزى الجنرال . تابعا السير باتجاه مقر القياده ..

استطرد احد كبار القاده المصريين ..

– إن أهم مانريد أن نوضحه، سياده المارشال، هو أن انواع الأسلحه المرسله كافه من طرفكم قد تم استيعابها من جانب القوات، ولكننا لن نستطيع أن نكسب حربا بهذا المستوى من التسليح.

– هذا ما يقوله خبراؤنا أيضا .

– سيدى المارشال .. أصر على التوضيح، لقد استطعنا أن نعبر مرحلتين هامتين فى تاريخ القوات المسلحه المصريه بعد هزيمة ٦٧، الأولى وهى الصمود والثانيه وهى المواجهه، وعلى نطاق الدفاع الجوى تم استكمال الأجهزه القياديه والراداريه وبدأ السلاح يعمل كفرع رئيسى فى القوات منذ ما يقارب نصف العام، والآن نحن على أهبه الإستعداد لدخول المرحله الثالثه، مرحله التحدى والردع والتى تمثل نقطه التوازن الإستراتيجى للحرب ونقطه الانقلاب والتحول فى مسارها، ولكن كيف..؟ كى يتسنى لنا دخول هذه المرحله، فى المقدمه يلزم لنا أن نشل فاعليه الطيران الإسرائيلى، أجهزه التشويش والإنذار المبكر، أجهزه الكشف المنخفض من الرادار، تحسين فاعليه طائرات الميج ٢١، طائرات تبلغ للعمق الإسرائيلى، صواريخ قادرة على المناورة ضد طيران العدو المتفوق وإسقاطه.

– اليوم موعدى مع السيد الرئيس ناصر لتقديم تقريرى، سوف تجدونه مقنعا للغايه، إننى متعاطف معكم، صدقنى.

– لن ينسى لكم الشعب المصرى صنيعكم .

ابتسم أحد الخبراء السوفييت الواقفين فى المؤخره يستمعون للأحاديث الدائره بين قائدهم والقاده المصريين همس لأحد زملائه:

– ولكن كثيرا من ضباطهم يكرهوننا .

– يكفينا ناصر.

– لا .. إنه يقيم جهده المعنوى لدى ضباطه على الدين، ولهذا لن نصير رفاقا قط ..

– أليس هذا طبيعيا، لقد إنهزم فى الواقع وإنطفأت هالته السحريه، يجب أن يقدم شيئا آخر مقنعا .

– إنهم يقيموننا على أسس نظريه أخلاقيه، فنحن بنظرهم غير اخلاقيين، نفتقد إلى الأخلاق بالمفهوم الدينى، وكأنه ليس ثمه أخلاق خارج الدين، عندما تنتهى الحرب سينسى هؤلاء البشر ما يزعمونه صنيعا قدم إليهم، سيركلوننا فى مؤخراتنا بالأقدام.

– إذا حدث سيكون هذا خطيرا.

كانوا قد بلغوا مبنى القياده . مال واحد من القيادات العليا للسلاح على اللواء الغمرى وقال له: سوف تتولى مع طاقم الخبراء الروس المناقشه، يجب أن تفهم ما يدور فى خلدهم

بالضبط وترسل لى تقريرا عاجلا قبل الإجتماع مع قائد الجيش. هز اللواء الغمرى رأسه متفهما وانسحب القائد المصرى وهيئه القوات وضيوفه الأجانب، عندما رحلوا، دعا اللواء الغمرى بقيه الضيوف إلى قاعه الطعام، كان العقيد عادل صبرى فى انتظارهم ، أشار له بسرعه تجهيز البوفيه، فاعطى أوامره للضابط المختص وعاد نحوه متعجلا.

– إن شاء الله خير يا سيادة اللواء.

– خير بإذن الله، إنهم متجاوبين، لكن اتجاه القيادة السياسية يسعى لتوريطهم عسكريا.

– هم ح يتورطوا أكتر من كده إيه؟

– سنطلب حضور أسراب المقاتلات الجوية وبكامل أطقمها للعمل على تغطية سماء الجبهة الداخلية، ولواءات صواريخ من طراز سام٢ وسام٦ كاملة بأطقمها السوفيتية أيضا.

– معقول..! وهل يكون الحل فى إستبدال القوات الإسرائيلية بأخرى سوفيتية.

– الريس قلق على الجبهه الداخلية من الاختراق الإسرائيلى المتواصل، أستطيع أن أفهم نفسيته.

– ولكن دون أن يختبىء تحت عباءة الجيش الأحمر، كيف نأمن لهم وهم لن يقبلوا بالنظام الشيوعى بديلا..؟

نظر اللواء الغمرى طويلا إلي العقيد عادل صبرى مما أثار ارتباكه.. كان يفكر، لقد أثار حديث العقيد عادل حيرته؛ وهلة وبدا أن شيئا ما اتضح له.. قال للعقيد بغضب:

– ماذا تستطيع أن تفعل فرقة كاملة من صواريخ سام وعدة أسراب من طائرات الميج على الأمن القومى، أذا جاء خطر ما فمن الداخل والشيوعيين المصريين، المشايعين للسوفييت قلمت أظافرهم أو هم فى جيب الريس، وهم الآن يدورون فى فلكه، والمعادين لهم، هه .. ببساطة هم معادين لهم، عقيد عادل.

– سيادة اللواء.

– أنت غبى، لم يطلب الرئيس بعد فرقا من المدرعات أو المشاة، على العكس إذا كان يتعين علينا خوض الحرب وإحداث النصر يجب أن نتغلب على شكوك السوفييت بشأن قدرتنا على استخدام أسلحتهم فى مواجهة السلاح الغربى، خاصة إذا كان الذى سيقوم باختبار هذه الأسلحة هم أنفسهم، ستدفعهم ضرورة تأمين قواتهم إلى تقديم منظومة السلاح المناسب لقواتهم، وفى حالة فشلهم ستدفعهم كرامتهم لاستخدام أنساق متطورة من السلاح، توريط السوفييت فى الحرب المباشرة كارت تأمينى ليس فقط لكسب الحرب، ولكن ربما توخى المفاجأت.

–٥–

فى الأسبوع الأول من يناير١٩٧٠ قام الطيران الإسرائيلى بالتسلل عبر الأجواء المصرية مستخدما الأنواع المتقدمة من الطائرات التى وصلته حديثا من الولايات المتحدة الأمريكية، من طراز فانتوم، وسكاى هوك والطيران الشديد الأنخفاض والتى عجزت محطات الرادار المصرية على التقاطه، وقام بقصف خاطف للمناطق العسكرية فى التل الكبير وإنشاص

ودهشور، وعندما جرى تقيم الموقف من قبل القيادة السياسية والقيادة العليا للجيش وخاصة أن الأولى شعرت بالانزعاج من حدوث قلق وتزمر شعبى تبين أن أهم المشكلات تنحصر فى أربع قضايا.

أولها.. ضعف شبكة الدفاع الجوى على الإنذار المبكر والتتبع على الأرتفاعات المنخفضة.. ثانيا.. ضعف المدى الفعال لطائرات الميج ٢١ العاملة مع الدفاع الجوى وضعف قدرتها على المناورة.. ثالثا.. الفاعلية المذهلة لصواريخ سام ٣ فى التعامل مع الطيران المعادى.. رابعا.. أجهزة التشويش الأكترونية.. الأمر يستلزم - إذن - إقامة حائط من الصواريخ بطول الجبهة وبعمق ثلاثين كيلو مترا لحماية السماء من برطعة الطيران المعادى، ولتقديم تغطية وحماية لمنطقة العمليات المقبلة شرق القناة مما يعنى أهمية إستكمال مقدرة القوات الضاربة من صواريخ سام ٣ من صواريخ وأفراد مدربين وتحصينات دفاعية..

نقطة الأنقلاب والتحول فى مسار الحرب .. نقطة التوازن الإستراتيجى.. لقد تبين للقيادة العليا المصرية أن الأسباب الأربعة التى تعوق شل الطيران الإسرائيلى وتوفير الحماية الممكنة للمدرعات، وقوات المشاة المصرية، أثناء حرب التحرير، بإيجاد سماء نظيفه أمر ممكن، أذ كان يتوفر لدى السوفيت أجهزة الكشف الرادارى للطيران المنخفض والمحركات التى تتيح مدى طيران أوسع لطائرات الميج٢١، أما بخصوص حائط الصواريخ فقد جرى الاتفاق على حضور فرقة كاملة من صواريخ سام٣ بأطقمها ومعداتها وأفرادها من الجنود السوفييت، بالإضافة إلى ثلاثة لواءات جوية مكونة من٩٥ طائرة من طائرات ميج٢١ المعدلة بالمحركات الجديدة من طراز ى٥١١ إضافة إلى طياريها وأطقم المتابعة الأرضية من السوفييت للعمل فى العمق المصرى، إضافة لخمسين قاذفة من طراز سوخوى، وأربع أجهزة رادار من نوع (B-15) والقادر على كشف الطيران المنخفض والإنذار المبكر عنها.. تدريب أطقم ثلاثة لواءات صواريخ سام٣ من الأفراد المصريين ومثلهم فى مصر.. وقد تم ذلك فى الأيام الأخيرة من يناير١٩٧٠ ، حيث جرت مباحثات علي مستوى القيادة المصرية العليا والقيادة السوفيتية بالكرملين، رأسها كل من عبد الناصر وبريجينيف سكرتير الحزب الشيوعى السوفييتى وحضرها القائد العام للجيش المصرى ووزير الدفاع السوفييتى المارشال جريشكو والوفود المرافقة لهما.

مع مطلع شهر فبراير١٩٧٠. قام الجيش بتكليف شركات المقاولات كافة تحت إشراف سلاح المهندسين بإنشاء اثنين وثلاثين موقعا لصواريخ سام٢ بالإضافة إلى الدشم الازمة لإيواء اللواءات الجوية الثلاث التى تم الإتفاق عليها فى مباحثات موسكو، وما يستلزمه هذا من الدفاعات والتحصينات اللازمة، وكذا مراكز القيادة والسيطرة والمواقع التبادلية والهيكلية، كان المطلوب شاقا ويلزم الأنتهاء منه فى خلال٤٠ يوما حسب اتفاق موسكو الأخير.

فى ٢٥ نوفمبر١٩٧٠.. وصل الدعم السوفيتى إلى ميناء الإسكندرية تحت حماية الأسطول السوفييتى وتوجه إلى القاهرة بعد أن ترك بعض وحداته فى الإسكندرية، وتمركزت الغالبية فى مواقع الصواريخ التى كانت تشغلها لواءات الدفاع الجوى المصرى فى القاهرة، ووصلت الألوية الجوية لطائرات الميج ٢١ المعدلة بطياريها السوفييت، وتمركزت فى

قواعد جاناكليس وكوم أوشيم وبنى سويف.. منذ هذا الوقت بدأ الدفاع الجوى يزحف ببطء بإتجاه غرب القنال.. عندها شعر العدو الإسرائيلى باقتراب الخطر وبدأت معركة بناء حائط الصواريخ الرهيبة..

* * * *

كانت الأمدادات تصل إلى اللواء لتعويض خسائرة التى منى بها فى الشلوفه، وتسلم خمسة مدافع ثقيلة جديدة من طراز†¨KΔ19 100mmاستولى على إحداهما هو وطاقمه، على أن رؤية المدافع الجديدة الموجهة راداريا من طراز شيلكا عيار٢٢ مم، والتى تطلق أربعة آلاف طلقة فى الدقيقة، جعلته يقدم طلبا من فوره للالتحاق بها.. لقد رأى المقدم غبريال أن طلب عبد الله مشروع ووافق عليه دون غضاضة، وبعد تمام الطابور ناداه منتحيا به جانبا وقال له: انا وافقت على طلب التحاقك بوحدات الشيلكا.. انت مؤهل للعمل على الصواريخ.

– الف شكر يا افندم.. وعندما ذهب لمقر القيادة لاستلام الموافقة ألتقى بالعقيد صبرى الذى استفسر منه على سبب وجوده، بعدما شرح له الموقف، هز رأسه رافضا، عندما رأى الألم على وجهة قال له ملطفا:

– أصل المقدم غبريال زى ما انت عارف حمار، انا ما عنديش مانع تنتقل لوحدات الشيلكا، وانت الوحيد من طاقم المدفعيه الثقيله اللى ح اخليه ياخد فرقه للتدريب عليها، بس المشكله مش هنا، احنا يا عبدالله بنعتبرك مسئول عن الفوج٨٩ مش بس عن بطاريتك، انا عارف ان الملازم مدحت ولا له اى قيمه فى الفوج، اول ما يحصل ضرب بيرقد فى حفره ولا يسأل فى حد، مدفع عطل، ميزان محتاج ضبط، رادار فقد الاتصال والرؤيه، هو مش هنا، هو بيشخ على نفسه، مش ضابط!!.. لكن ضابط(....) احنا عارفين مين اللى بيشغل الفوج، وبعدين لازم تفهم، المدفع بتاعك بيحمل عبء كبيرا فى الدفاع الجوى لحد النهارده، خلاص، ثم ان فيه ترقيه جايه لك.. ها.. عايز تنتقل..؟

– لا يا افندم .. وألقى بالتحية العسكرية .

– انصراف .

–٦–

.. لم يا ابو زيد أشلاء كرامتك المبعزقه.. فين خيولك تحمى رايتك الممزقه.. دى الفلاحين نفاية.. هو كان للحرب غاية.. نادى على الغنمه وابحث عنها فى كل مكان وركن، تحت كل حجر، وراء شجيره والخوف يقتلك.. ياليل.. امتى يهل صباحك انظر الجبال من حولك.. اشباح تعوى.. مرده تتربص بك. تنوى الأنقضاض عليك.. الليل عويل يلفعك ببرده الشديد..

يقشعر البدن المنهك ويظل المسير.. تبحث فى المغارات، تحت الجسور، داخل الحجور المظلمه عسى أن تجدها ملقاه فى مكان ما، أو ربما ينط فى كرشك ديب جعان، أو تفاجئك حيه نايمه فى مكان، وحش كاسر يفترسك.. ياه من كثرة الأوهام.. صرت تتمنى الموت الجليل.. آه يا ابن عبد الجليل.. راتبك مؤكد خسرته..هذا العذاب.. عذاب الجسد أو عذاب العقل.. هذا الليل الأسود طويل ما له نهايه.. خاصم الصباح وولى شطر البدايه.. دى الفلاحين نفايه.. هو كان للحرب غايه.. لم يا أبو زيد أشلاء كرامتك المبعزقه.. فين خيولك تحمى رايتك الممزقه.

نور السيارات السريعة المارة على الطريق الرئيسى تومض من على بعد.. رد أدراجك تجر أذيال الخيبه وضوء المصباح يتعلق بالملابس والشجيرات تحركها الرياح، شياطين ترقص من حولك، حفله من الرعب والجوع والتعب..

مع بزوغ أشعة الصباح الأولى دار حول العين التى يشرب القطيع، وجدها هناك وبرغم أنه كان سعيدا إلا أنه كان أيضا غاضبا، لقد فقدت العنزة من نوريه.. يا أولاد الكلاب.. لقد وجد العنزة على أية حال.. عاد يحملها بين ذراعيه غاضبا لاعنا شقاء جسده وروحه..

كانوا جالسين يشربون شاى الإفطار، والشايب يتحدث غاضبا موقنا بأنه هرب، والجميع يوافقه، يندبون حظهم لضياع الغنمة وضياع المصباح الكهربى، وعندما شاهدوه قادما من على بعد، حاملا الغنمة بين ذراعيه شاهد الابتسام على وجوههم لأول مره منذ قدومه. فى هذه المرة دعوه ليتناول الطعام معهم بالداخل وكأن الشفقة قد تسللت إلى قلوبهم رغما عنهم.. ولأول مرة أيضا تناول المعكرونه ساخنه وجلست نورية تصنع له الشاى، رأها هذه المرة تضحك وتبتسم له بفنج وعندما انتهى من تناول الشاى، وقبل أن يفيض به الشعور بالعرفان لاستقبالهم إياه داخل براكتهم.. قالت له بصوتها الأمر:

– عبدالله.. هاك المخله.. قوم خوذ الغنم..

وبرغم أنها نادت لأول مرة أيضا باسمه دون فوال ولا المصرى هذا، إلا أنه فغر فاه مندهشا، كان يود أن يقول إنه متعب، منهك، يريد النوم لكن الكلمات وقفت فى حلقه، فى صمت أخذ منها المخلة قبل أن تصيح به تنهره نهرتها المشهورة

– سجدنا..

قال لها: يبدوا ان إمامكم لا يريد الصلاه بكم.

– شنو.. ؟

أشاح لها بيده غاضبا ولم ينبس بأية كلمة.. رحل إلى الخارج فى هدوء، ناظر إلى الأرض وقد تهدلت كتفاه وسقطا جانبه.. قبل أن يغادر السور الخارجى نادى على الشايب:

– حاج فرجانى.. بدى فلوسى.. الشهر خلص..

أدار له الرجل رأسه وقد أخذته المفاجأة، عندما أفاق قال له يهز رأسه لأسفل:

– باهى.. باهى.. باهى يا عبدالله وين ما ترجع تاخد فى فلوسك..

الفصل الرابع عشر

-١-

نجاة.. طوال الطريق كان يتذكر وجهها، نجاة التى تسكن قبالة دارهم، نجاة التى كانت بالأمس القريب لا تعدو بالنسبة له سوى طفلة، يذكر يوم كانت تقف مع خيرية الطفلة السويسية المهاجرة، ينظرون إليه، يتهامسون قبل أن تتقدم خيرية نحوه بادئة بالسلام، مقلدة لهجة الفلاحين:

- السلام عليكم

نظر إليها بجفاء: عايزه ايه يابت ..

- عايزه خالتى

كانت تريد أمه ولم تكن موجودة.

- مش موجوده .. يا لا من هنا؟

لم تتغير الابتسامة على وجهها قيد أنملة.. حتى شعورا بالضغينة لم ينبت داخلها استدارت تقول له:

- يوه .. يابا عبدالله.. اصبر شويه هو انى ح اكل من داركم حته.

هز رأسه متجهما يتابعها وهى عائدة إلى صديقتها .. همست لها قائلة: يا اختى دا عصبى.

أجابتها فى غضب: يتعصب على أمه ابن المفحور.

ضحكا معا.. فلما غادرت نادى على نجاة، كانت فى الثانية عشرة من عمرها، خمرية اللون، تنم عيناها السود عن جاذبية عميقة تنام على بحيرة من الهدوء.

- اوعاك اشوفك ماشيه مع البنت دى .. فاهمه ولا لأ.

كان يقبض على ساعدها بشدة، شعرت بالألم فأمسكت بيده تدفعه عنها.. قالت بصوت منغوم أثاره:

- الله.. طيب.. سيب ايدى انى واقفه مش ح امشى..

فلما تركها بادرته بالسؤال: هو انت خايف منها ليه..؟
- سوء سلوكها .
ضمت وجهها بابتسامة مشاكسة: يعنى ايه ..
أصيب بالحيرة.. ماذا يقول.. قالت تخرجه من ورطته: بتحب واحد .
قال مفزوعا فى غضب: ايوه .. ما انت عارفه
هزت له خصرها: طيب وايه يعنى .. هم حرموا الحب .. انى بحب.
- بس يا مايصه، يا بنت المايصه.
تراجعت ومن بعيد استدارت نحوه:
- عارف بحب مين يا عبدالله يا ابن ابوى محمد عبد الجليل رزق ..
- مين يا مفعوصه .. والله لاقول لامك خضره.
- مش ح اقول لك.. يا اعمى يا ابن الاعمى .. صفقت باب الدار فى وجهه تاركة إياه يضرب كفا بكف .

لم يكن يعلم أن خيرية قدمت إليه لتجذب انتباهه نحوها، ولم يكن ليفكر فى طفلة .. ذلك كان الماضى، أما ورغم أنه خطب أخريات، فنجاة هى الطفلة التى نضجت وأصبحت بنت العشرين، والتى سيقترن بها حال عودته للوطن رغما عن أهله جميعا.
فى مساء ذاك اليوم دخل عليهم دارهم وهم يتناولون طعام العشاء وفى يده عصا، عندما رأته قامت من أمام الطبلية تجرى تبحث عن مكان تختبىء فيه، طاردها، ظل يضربها بالعصا وهو يصرخ بها:
- تحرمى تتقصعى وتدلعى يا بنت خضره، والله لاربيك.
لم يتحرك أحدٌ للدفاع عنها .. لا أبوها ولا أمها ولا أحدا من إخواتها، تسأله أمها بدون اهتمام : حصل ايه يا خوى.
- البنت خيريه .
- حرمت .. الحقينى يا مه .
أجابتها أمها: خليه يربيك .. انت عايزه شوية تربيه ، انا كمان ح اقطع جلدك .
عندما خاب ظنها فى أمها صرخت كقطة غاضبة:
- سيبنى .. سيبنى يا ابن المفحور .. يا ابو مخ تقيل.. سيبنى يا ابن الكلب .. وتصرخ .. الحمار ابو مخ زى الحمير ..

كانت تريد أن تصرخ قائلة .. بحبك .. لكنه ساعتها لم يعطيها الفرصة.
قبل أن يسافر سفريته المطينة بالنيلة هذه عرف بعد ثمانى سنوات .. سنين مضت .. اليوم بلغت العشرين عاما، قلب يتفتح وجسد ينضج يزداد فى عينيها الخمول والنعاس، تطارده بعيونها، فإذا التقيا توقفا برهة، ثم يعاودن المسير كلا إلى طريقه، بعد خروجه من الجيش أخذت عيونها تتسلل إليه رويدا رويدا، والآن بات يبحث عنهم فى الذاكرة .

-٢-

فى المساء لم ير الشايب ولم يحاول أن يسأل عنه، كان متعبا، وعلم أنه يرقد فى فراشه مريضا، وعندما أخذت الغنم لعين الماء وعادت كان يغط فى نوم متقطع، شعر بها تلقى بشىء إليه، حشية قديمة، دفعها فورا أسفل جسده المصلوب من النوم فوق الأراضي الصخرية، سمعها تسأله : متزوج إنت ..؟

أجابها من خلال نومه بصوت ناعس: لأ .

فأعادت سؤالها .. أجاب بصوت لا يزال واطئا: لأ..

سمعها تحدث نفسها وهى تدلف خارجه، غابت قليلا ثم عادت ومعها عشاؤه مبكرا عن كل يوم، نظر إليها متعجبا، كانت تسير مكشوفة الرأس، يتدلى شعرها منتشرا على كتفها حتى منتصف ظهرها، تاركة سمانتى ساقيها البضاوين مكشوفتين تحت سروالها المربوط بقماط أسفل الركبة .. انتبه على صوت أنثوى مغناج يتلوى بين الشهيق والزفير فأصاغ السمع .. تبين له أنها تحادثه:

- إشكبلى مجروح .. ها يا مسكين .

غالبه النوم فلم يلتفت لشىء آخر .. وفى صباح اليوم التالى كانت تطارده .. تحتك به .. تفاجئه بأسئلة غريبة:

- كيف تعيشوا مع ولاياكم يا مصريه ..

أجاب متعجبا: مثل الناس .

قاطعته بغضب وكأنها أمسكت به، وهو يكذب كذبه مكشوفة، أو كأنها تعرف ما يحاول أن يخبئه خجلا:

- لا .. ولاياكم باردات ..

نظر لها غير قادر على الفهم .

- راعى أنهن مطاهرات .. وهذا ليس بالدين ..

سألها مستفسرا غير مصدقٍ ما سمعه: شنو ..؟

ضحكت منتصرة انتصار السادة، وعادت تقول ببطء حتى يشرب كل كلمة تقولها:

- ولاياكم مطاهرات .. وهذا ليس بالدين ..

قام خارجا، ينظر إليها شذرا، يود لو يطلق عليها جام غضبه .. حدث نفسه .. كأننا قُصَرْ وهم الراشدين .

فى اليوم التالى ناولته إفطارا شهيا، زبد وعسل النحل، ومعكرونة ساخنة، وطبق من الفاصوليا البيضاء، التهم الزبد وعسل النحل، وأكل من الباقى، جمع ما تبقى وخبأه فى علبة الطعام المحفوظ المستعملة قبلا، وأخذها معه للمراعى، عندما أزف أوان طعام الغذاء، فوجىء بها وقد وضعت له طعاما مطهوا، وعلى حين غرة بقطعة كبيرة من اللحم، قام مذعورا وهو يشك أن كان هذا لحما حقيقيا يؤكل أم خدعة، ظل مترددا لفترة طويلة يقف ويسير قليلا، ثم يعود ناهرا الكلاب عن الاقتراب منه، الجوع وحده دفعه إلى المغامرة بتناوله.

فى المساء أعادت عليه أسئلتها، تشاغل عنها بالاستغراق فى النوم .. فى منتصف الليل حلم بأن وحشا هائلا يجثم بثقله فوقه، يكتم أنفاسه، وهو يقاومه غير قادر على الحراك.. وعندما استيقظ انتفض مذعورا .. كان هناك بالفعل شىء ضخم يجثم فوقه، يلوك عنقه بفمه .. دفعه يتخلص منه بعنف، ووثب إلى الخلف متراجعا .. عندما تعودت عيناه الظلام، رآها متكومة أمامه، عارية كما ولدتها أمها .. جاءه صوتها خافتا ساخطا :

– كنك يا فوال .. هدى روعك يا فوال .. ليش تخاف .. تعال .. تعال يا تيس .. باهت فى .. كنك تخاف كيف المره .. تعال .. أشارت إلى مكان بجوارها حيث افترشت الحشية .. نظر لها غير مصدق والخوف يقيد مقدرته على التفكير السريع .. تقدم نحوها مسلوب الإرادة .. كان مذعورا يرتعد فى هلع، وذهنه هناك فى البراكة مع أبويها .. عندما جلس مستندا على ركبتيه بجوارها، كان جسده وعقله جثة هامدة ليست بها ذرة من القدرة، أو الطاقة على فعل أى شىء .. كانا مقيدين بسلاسل التعب المرعب .. دفعته ملتصقة به جاذبة إياه لأسفل، فوجد نفسه فوقها تضمه بشبق ، ونهديها ينغرزا فى لحمه وساعديها وساقيها يهصرانه هصرا .. حاول أن يضع شفتيه فوق شفتيها المزمومتين فحادت بهم عنه.. جذب ذيل جلبابه لأعلى.. شعر بفخذيها ساخنين ملتهبين، ولفترة طويلة كانت تتلوى تحته دون توقف، وتصاعد عواء ظمئها تصرخ به أن يلجها، وهو لا يستجيب، يحاول أن يثير شبقها بأية وسيلة دون جدوى، إذ أن عقله كان يفكر فى صوتها المرتفع الذى سوف يكشف عنهما دون محالة وعقله الباطن يأتيه بالمصيبة الأكبر، وهو أنه متعب منهك مصاب بالبرود.. ماذا يفعل مع هذه البقرة الشبقة التى تحته فى صراحة وقحة، ترجوه النكاح .. وكأن أفكاره تواردت إليها.. المصرى بارد .. لايتجاوب معها .. كان جسده جثة هامدة تتمدد فوقها فى سكون وقد تجمدت مشاعره ، دفعته بجفاء .. نصبت جذعها بكبرياء.. كان لا يزال نصفه السفلى فوقها.. اللهب الذى كان يغلى فى صدرها، والنار التى اشتعلت فى جسدها، ولم تجد من يطفئها وجدت طريقها عبر أنفاسها الحارة، والشرر الغاضب الذى كان يصليه جحيما وبغضا وكراهية تحملها إليه نظرات عينيها.. هتفت به وهى تدفعه بعيدا عنها ساقطا بين الغنم:

– كنك يا تيس .. يا زامل .. ياقواد .. تباهت فى وتخدعنى .. مدت يدها تغطى فخذيها المكشوفتين وتسوى شعرها وملابسها .. أنا تضحك على .. بصقت فى وجهه، وقامت وكل مافيها يشتعل حقدا ..

– فوال .. هيا .. هيا يا فوال .. عدى بره.

كانت تطرده من حظيرة الغنم للعراء .. قام مطأطىء الرأس .. نظر إليها نظرة بؤس ورجاء. ولكنها ولت بوجهها .. ود لو يقول فقط .. كنت متعبا، لكن بصقة أخرى أطلقتها تجاه الأرض .. وأدت الكلمات فى حلقه، ابتلع إهانته، وتمدد فوق إحدى البطانيات فى صمت.

-٣-

فى صباح اليوم التالى عزم على تحاشيها، لكنها لم تخرج وأرسلت له العجوز بالطعام، أمضى يومه يقطر ذلا ومهانة، يتحسس مكان البصقة، عندما جاء وقت القيلولة داهمه وجه أنصاف بعنف، كان يطل عليه منذ غادر السقيفة، كل ما يتذكره هو شعور مبهم بأنه يعامل بمثل ماعومل به مهجرو السويس من أهالى قريته، رجالهم المهانين ونساءهم العاهرات المباحة، تماما كما ينظر إليه حميده ونورية .. ما الفرق ..؟ المرأة الشابة حاولت اغتصابه، تمام كما فعل مع أنصاف فى حقلهم، هو الآن أقل حتى من قيمة أنصاف وأهلها من المهاجرين، فى المساء ناداه الشايب ولم يكن قد تناول طعامه الملقى بجوار البراكة، وقد تجمعت فوقه الحشرات والنمل وكأنها جمعته له من القمامة.. قال له:

- غدا ستخرج بأغنام أخى مفتاح معك، تعرف مكانهم؟

أجاب بالنفى، أشار تجاه الشرق:

- هاك .. خلف مخر السيل.. آه ترى تعلم .. يوم تنام عندى .. اليوم الآخر عند أخى الحاج مفتاح الفرجانى، عشاك عنده غدا.

خرج صباحا دون أن يلقى بالا لأحد.. أنصاف .. أنصاف المهاجرة من السويس، والذى وعد أبناء عمومته وأصدقائه أن ينالها، دون أن يأبه بمشاعرها، وما كان ليجرؤ لو أنها فتاة من قريتهم .. ألم تحاول نورية اغتصابه.. لم تبتسم حتى فى وجهه.. ألم تكن سوى جلاده .. سوط يلهب ظهره، وعندما أرادته امتطته ليلا وهو يغط فى النوم، دونما أى إشارة وكأن الأمر لا يخصه .. لم يكن مافعلته معه أقل مما فعله محمود الأسيوطى، يسرق لذته مع الفتى المحموم وهو يهذى.. إعياء وتعب وشعور بالقرف، وإحساس مبهم بالذنب.

أنصاف وزوجها التائه بين البطالة والمخدرات ولعب القمار .. حشيش وبرشام وحقن و.. عائشة طالبة الإعدادى.. خيرية التى تعمل بالدور حينا وآخر بالغيطان.. جدهم صياد السمك العجوز التائه، وأمهم المصابة بالصرع وانتظار الإعانة من الحكومة.. ما الفرق بين المهاجرين فى الوطن والمهاجرين خارج حدوده.. أنصاف التى توقفت عيناها عن أن تلتقى بعينيه، وإن حدث كان يرى الفراغ.. خيرية بنت الثانية عشرة وحديث القرية.. تمازح الجميع بلا استثناء وتفيض بابتساماتها المشرقة ووجهها الأبيض الصبوح.. يمامة ترى كل من حلق فى الفضاء ليس سوى حمام وديع وهم صقور عقبان، حداء وغربان.. لا ترفض دعوة أية فتى كبيرا أو صغيرا للوقوف معها.. والذين يشاهدونها تمازح الآخرين تظن بها الظنون، لاتتوقف عن إعطائهم أى شىء تملكه.. قطعة حلوى، خبز، زجاجة مياة غازية، والجميع يرى بعينيه الآخرين ينصبون شباكهم حولها على قارعة الطريق.

- تحدثت معها.

- واشترت لى حلاوه.

- قابلتها اليوم على النعناعيه..

- هه.. وعملت معها ايه ؟

- ح نعمل ايه يعنى..

ويكتفون بالصمت تاركين لمخيلة الآخرين تفسير ما يمكن حدوثه فى هذه الأماكن الخالية البعيدة.

فى صباح هذا اليوم الدامى الذى اغتصبت فيه، عبرتهم وهى ذاهبة لجنى القطن، فى أسمال بالية تغطى رأسها بمنديل محلاوى، وهم جالسين على الترعة لرى غيطهم.. مالت تحييهم.

- صباح الخير يابا عبدالرحيم، صباح الخير يابا عبدالله، ايه اللى بتعملوه، المية ح تخلص من الترعه ..

أجاب عبدالرحيم : ليه يا خيريه، الخير كثير والميه حتفيض من على الجسر، ازى حالك يا خيريه؟

- الحمدالله، عرفت انكم هنا قلت آجى اصبح عليكم.

أجابت أمه: تصبحى بالهنا يا خيريه، ايه اللى معاك .. ابتسمت فى طيبة وفرح شديدين.

- شويه اكل ح افطر منهم، وكان طعام غذائها..

أسرعت تفك الربطة وتدعوهم للأكل معها.

صاح إبراهيم: والنبى انا جعان .. وقام نحوها.

صرخ به عبدالله : يا اخى ده غداها.

قالت بعتاب: توك اتكلمت، هو اللى زعلان من حد يكمله..

شعر بالخجل واستطردت وكأنها نسيت كل شىء:

- يوه.. لما الغدا ييجى يبقى تتدبر.

قال: والله لاكل ياخيريه، بس على شرط.

- شرطك مجاب يابا عبدالله.

- تتغدى معانا .

ازدهر وجهها واحمر خديها وأضافت، وكأن عرضه هذا شهادة عفافها: آجى .. آجى .. هو انا عويله .. امشى احسن اتاخرت، الواد جعبرى رخم وابن كلب .

- لما يعدى اكلمه يا خد باله منك .

قالت برجاء شديد:

- ايوه والنبى يابا عبدالله احسن دا وحش ومعاملته نجسه.

قامت مسرعة .. بعدها عبرهم جعبرى الخولى ولم يحدثه أحد، من يتذكر هموم طفلة مهاجرة .. عندما جاء وقت الغذاء، حاولت أن تعبر الحقول باتجاه حقلهم.. حيث قطع جعبرى عليها الطريق.

انتظروها طويلا.. عندما أوشكوا على إرسال أحد أبناء عبد الرحيم لها سمعوا بكاءها .. كانت تسير ممزقة الثياب، تبكى فى فزع وحيرة، وجمع غفير من عمال المياومة يحيطون بها فى ضجيج .. وجعبرى يسير وسط ثلاثة من الرجال يحلف أغلظ الأيمانات بأن الطفلة تتبلى عليه.

نظرة الاستجداء التى امتلأت بها عينيها.. وبرغم أنه قام هو وإبراهيم وأوسعاه ضربا، لكن شيئا فى الدنيا لن يزيح عنها نظرات الفزع والشعور بالضآله وعدم الفهم.. كانت بينهم قصيرة صغيرة جميلة ينهال على وجهها الأبيض المستدير المرسوم بدقة أنهار من الدموع.. تنظر حولها لا تسمع شيئا سوى الطنين.. لاتفهم سوى أن شيئا فظيعا حدث لها.. شيء مخيف غير حياتها منذ اللحظة التى انقض عليها هذا الوحش الكاسر .

فى هذه الليلة كان العويل ينبعث من قاعة المهاجرين بساحة الدار الخلفية .. وقد تجمعوا ينعون مصائبهم .. اغتصاب خيرية وعودة أنصاف بعد أن طردها زوجها لضيق ذات اليد، وقبل العشاء انبعث الصراخ ثانية، كان هذه المرة شديد وتبعه نوبة صرع الأم، صغير ضعيف يأتى بعيدا فى الزمن، زمن سحيق ثم ما يلبث أن يتصاعد متماسكا عنيفا مفاجئا طويلا ممتدا، جرى الجميع نحوهم، وفى الداخل كان جمع كثيف من النسوة من المهاجرين وأبناء القرية يواسونهم، فى آخر الليل عندما فرغت القاعة، بقى عبدالله يسمع العجوز الذى تمسك ببقائه وهو يتجشأ سكران بعد أن خسر هو الآخر نقود الإعانة التى تخصهم جميعا على مائدة القمار فى إحدى الغرز وهو يشرب الكحول الأبيض، كان الدم ينزف من جبهته بعد أن حاول أن يسترجع نقوده.

فى الأركان انزوت البنات تبكى وعندما استيقظت الأم تحولت القاعة إلى هستريا، سب ولعن وبكاء فى آن واحد وهى ترى الشهر القادم أسود من الهباب ممتلئا بالجوع والعرى والاستدانة، وعبد الله يحاول أن يهدئها دون جدوى، حذرتهم أنصاف فانزوا ينهنهون فى صمت، خيرية وحدها اندفعت فى صدره تبكى:

– خدنى عندكم خدامه يابا عبدالله، فين انت يابا، رحت فين وتركتنا. ارتفع صراخ الفتيات وبكت أنصاف.. وفجأة سقطت الأم على الأرض كقطعة من الحجر، اندفعت إليها أنصاف، وعبدالله وتجمع حولها أطفالها، وبقى الجد بعيدا صامتا.

ارتعش وجهها وبدأت أسنانها تصطك تجز على لسانها تكاد تقطعه، هبط قلب عبدالله وشعر بالرعب ودفعت أنصاف بمنديلها فى فم أمها، جرى عبدالله يحضر طبيبا، أعطاها حقنة مهدئة، ونعمات منحنية قرب أذنها تبسمل وتحوقل: بسم الله الرحمن الرحيم، لا الله إلا الله محمدرسول الله.

– يا جماعة الخير ... ماتضيقوهاش كده بكره تفرج.

هاجمته أنصاف: ليه ح يرجع الفلوس اللى راحت فى القمار.

– لأ.. يصطاد، الشبك موجود والسمك موجود، هو فيه حد يترك شبكته كده..؟ .. قالت أنصاف.

– بنقول كده مش عاجب.. جاوبها العجوز بصوت أجش.

– بساريا.. انزل اصطاد بساريا.

– يا عم انت مش عارف فين السمك، سيب الموضوع ده على، بكره نخرج فى منتصف الليل.

فى مساء اليوم التالى خرجا إلى مكان يبعد ثلاثة كيلومترات بجوار عزبة فوزى قرب قرية بهواش، وفى الطريق حدثه العجوز ورائحة الخمر تفوح من فمه:

– الناس بتسألنا ليه بطالين؟ اشتغلوا انفار فى الفلاحه، ولما الواحد يشتغل يضحك عليه الفلاحين، صدقنى اشق حاجه على الانسان انه يغير مهنته اللى ورثها عن أبوه وجده، الفلاح يرمى البذور يرويها وينتظر ويطلع المحصول على الجاهز، لكن الصيد!! البحر زى المره المومس ما تكشفش عن كنوزها إلا للى يدفع اكثر، البحر داهيه، ممكن تتوه فى نوه، ممكن يلتهمك، تسقط فى قراره.

وطوال الطريق يحدثه عن البحر والشوق والأنواء والجنيات والعطش والعشق والطيور والبر حتى بلغا المكان، خلعا ملابسهما عدا السراويل، نزلا يخوضوا فى المياه الباردة حتى بلغت خصريهما، أوقفه العجوز قرب الجسر، ثم أخذ يثبت الشبكة فى قاع المصرف بعصى طويلة، واحده خلف أخرى، سارا فى الاتجاه المعاكس للتيار، على مبعدة مائة متر من الشبكة الأولى ثبتا الثانية، فى المناطق المملوءة بالأعشاب ألقى العجوز بشباك صغيرة، صعدا إلى الجسر بانتظار بزوغ القمر وصعود السمك إلى سطح المياه، أشعلا نيرانا وتناولا الشاى ثم غطا فى نوم عميق، قبل الفجر بساعتين سمع حركة بجانبه، فوجىء بانصاف توقد النار، سألها مندهشا عن سبب حضورها:

– مساعده.. هو الرجاله بس اللى بتساعد.. نظرت إلى العجوز واستطردت فى غضب:

– هو السكران ده يقدر يصطاد بصناره.. قوم كل .. قوم يابا.

أخرجت من قفة صحنا به جبن قريش وحادق وبتاو، وضعته فى وعاء ممتلىء باللبن الساخن .. سألها بحسن نية:

– الله .. الله .. جبت كل ده منين ..؟

قالت وهى تضع الشاى: إذا كان شرفك يمنعك لا تأكل.

قاطعها: لا .. اكل .. اكل.. صباح الخير ..

ضحكت: أيوه كده .. كل وانت ساكت .

قال العجوز: فلاح ..!! ضحكت عليك، لازم تطبخ لك صنية سمك على حق .. زمت شفتيها..

قال عبدالله: طبعا .. وأكل صوابعى العشره وراها ..

نظرت إليه فى وجوم وكأنها تتذكر ماجرى منذ عام فانكمش على نفسه.. شربوا الشاى

نظر عبدالله إلى المرأة الصغيرة الجالسة يرى قميصها ملتصقا بجسدها الملفوف ونهديها الطائرين يطلون من عشهم، نادته فقاموا لجمع الصيد.

– دى الغوط حوالى متر وربع.

– ادعى وتوكل .

– يارب .. حتى ولو كان بساريا.

تقدموا وهو فى المنتصف، شعروا بثقل الشبكة بين أيديهم وقد بدأت تتقوس فى المنتصف.

– عبدالله .. ربنا ح يجازيك خير.. عبدالله يا ابن الناس الطيبيين. لو لى ابن زيك، او بنت كنت جوزتها لك.

اصطدم قاع الشبكة بحجر ثقيل، غاص يزيله بصعوبة، ثم عاد مسرعا إلى المنتصف يرى بعض الأسماك تفلت من ثغره بجوار الجسر .. حذرها فعدلت من الشبكة، وبدأوا المسير مرة أخرى حتى بلغوا مسافة خمسة أمتار الشبكة الأولى، كان السمك يقفز على سطح الماء كبيرا ضخما، بلطى قراميط وثعابين، خرجت تجرى تحضر جوالات من الخيش، وأخذوا يجمعون الصيد الوفير، استخف الطرب بالعجوز وهو يرفع الجوالات بقوة متزايدة.

– خلاص يا ام انصاف خلاص، سددت الدين اللى علىّ.

قاطعته أنصاف: وانت مالك. !

– ليه .. السمك ده يجيب ستين جنيه، ح انزل بيه السوق.

– هو انت ح تشوفه إلا فى الطاجن، انت تروح تعقد على القهوه، وانا والبنات ننزل بيه السوق .

– وتعبى .. وسهرى؟

– ولا مليم .. فاهم ولا لأ .

قال معرضا بعبدالله: هو انت فاكره انه عمل حاجه، ده فلاح، يعنى ايه، مش ح اخد حاجه.

– ولا مليم .. تاكل بقية الشهر منين؟

صعدوا الجسر يتقدمهم العجوز، وهى خلفه فى غضب، زلت قدمها فسقطت متراجعة إلى الخلف مصطدمة به، ثوان طويلة مرت وجسدها مرتكز عليه، وبين التيار الدافىء للمياه والجو البارد كان جسده يرتعش.. قال العجوز محرونا كطفل صغير:

– انا ماشى .. اجمعوا انتم السمك الباقى .

قالت: ليه هو فيه سمك تانى.

– ايوه .. خليه يقول لك على مكانه، او اتركيه الموجود يكفى .

– نتركه .. ليه لاقى تاكل ولا لاقى تاكل، اقعد ما تمشيش من هنا لحد ما ننتهى.

هز رأسه غير مبال، مشى ثلاث خطوات وسقط متعبا .. قال قبل أن يغط فى نوم عميق:

– حقى .. فاكرانى اشتغل ببلاش .

قالت بلوعة: الدنيا ضاقت علىّ، عايزه الموت.

كانت تفكر بالعجوز الذى خذلها والشاب الفتى الذى يقف بجوارها عاريا وما إذا كان عليها أن تدفع له شيئا، كادا أن يتجمدا بعيدا عن الماء، قفزت فى المياه وأخذت تسبح، خلعت عصابتها فانهمر شعرها الأسود يسبح فوق سطح المياه، وقد تعرى ساقاها عن آخرهما.

بلغا الجسر المواجه، وبمشقة بالغة أخذوا يجمعون السمك من بين الأعشاب والبوص الكثيف، كانت الشباك ممتلئة بالسمك الصغير، تركها تهرب مكتفياً بأسماك البلطى والقراميط الكبيرة، ألقى به إليها فأخذته فى مشنة الطعام، غمر المكان ضباب كثيف، نادت عليه فصاح يخبرها عن مكانه، كان ينتظرها فى منتصف المجرى، لم تراه، هذه المرة وقعت بين ذراعيه غامت عيناهما معا، كانت المياه تبلغ صدرها، دفعته تحاول التخلص منه، أمامه شاهد نهديها يتأرجحان، وهما يسبحان فوق المياه، لم تستطع أن تحافظ على توازنها،

كادت أن تسقط فتعلقت به مرغمة.

قال هامسا: حوريه من الميه .

أجابت وعيونها العميقة مثبته فى عيونه تخترقانه:

– بلطيه.. وانت الصياد.

جذبها فسقط جسدها بين ذراعيه التصقوا جسدا لجسد، أمواج من النشوة اشتعلت لها اجسادهم الفتية الطويلا، قوة قاهرة لم يستطيعوا منها الفكاك، وكلما حاولت، جذبها إليه برفق، فتعود إليه منومة، وأخيرا استسلمت له فى عذاب وهى تهمس:

– كنت عارفه قبل ما اجى ان ده ح يجرى.

فقد توازنه وعندما قام وجدها تقف على مدى خطوة تنتظره لا تحاول الهرب، عندما ضمها ثانية وجدها ترتعش من القشعريرة، دون وعى مد يديه ينضو عنها قميصها، وأمامه كانت تنتصب عارية ونهديها اشرعة تبحر فوق أمواج النشوة.

غابا فى قبلة طويلة إصطكت لها أسنانهم ، دفعت بلسانها فى فمه، رشف رضابها الحلو، فغابوا فى غيبوبة، وعندما أفاقوا كانت عيونها قد رحلوا بعيدا، أمسك بعودها يجذبها نحوه، وشعرها الناعم ينسال على كتفيها كظل عميق. همست:

– مش عايز تقول لى بحبك.. اضحك على و قول لي كلمه ترضيني.

كأخرس فقد النطق لم يستطيع، كان صوته محبوسا داخله، وعقله لا يفكر إلا فى رضابها الحلو ونهديها الصلبين، وملمس بشرتها الناعم، المغطى بالمياه، حقول خضراء عفية مبللة بالندى، لم ير نظرة الحزن والضيق على وجهها، كانت رائحتها تملأ خياشيمه، بإصرار تقدم إليها، على الأقل كان يعرف هو ما يريده.

بينما كانا يحملون غبيط الحمار سويا بجوالات السمك مخمنين أسعاره، ربما خمسين جنيها ربما سبعين، نظرت إليه تسأله:

– امتى ح ترجع الجبهه ..

نظر إليها مندهشا: بكره بعد العصر .

– خليك للصبح . كان هدفها واضحا .

– لازم اسلم نفسى للوحده قبل منتصف الليل ..

طأطأت رأسها لأسفل مؤمنة على قوله .. فكرت بغضب.. الانحلال لا يأتى صدفة.. الكلب نالنى .. أشعل النار بأحشائى واكتفى.. الرجال ذئاب وكنت أظنه طيبا.. فكرت بفزع إذا كان عليها أن تجد رجلا تبيع له نفسها كى تطعم هذه الأفواه، هزت رأسها مصممة.. الانحلال لا يأتى صدفة.. بعد فترة صمت قالت بلهجة هستيريا تحاول أن تخفى اضطرابها بالابتسام: تعرف لقينا عشره قروش فى جيب البت خيريه.. .. اضطرب صوتها وهى تستطرد متجهمة : اغتصبها بعشره قروش، انت اعطيتنى اكثر، استطردت وهى تنفجر فى بكاء وعويل حزين.. تفرق ايه عن جعبرى يا ابن عبدالجليل ..

وضع ذيله بين ساقيه ولم ينطق ببنت شفة

-٤-

قبل العشاء غادر الحاج فرج الفرجانى ورحل باتجاه براكة أخيه، كان يقيم مع امرأته وابنته وزوجة ابنه وطفليها، وقف على باب البراكة مترددا لايعلم ما إذا كانت هذه البراكة المقصودة أم لا، لا يدرى ماذا يقول، نادى بصوت خافت، أطلت المرأة الصغيرة فتراجع وهو يهمس:

- هادى براكه الحاج مفتاح الفرجانى ..؟ انا جاى من عند خوه الحاج فرج .

- ترى أنت المصرى اللى تخدم فى الغنم ..؟ هز رأسه مؤكدا

لم يتحرك خطوة، شعر وكأنه كمينا أعد له، ظل واقفا فى العراء حتى خرج له الشايب.

- ادخل .. ليش تقف عندك، تعال يا ابنى نرجى فيك .

دخل منتحيا ركنا قصيا.

- خوى يمدح ويشكر فيك واجد ..

هز رأسه مندهشا وسمع العجوز تقول: راك ما تعشيت..

قال فى خجل: اكلت يا حاجه.

- إمتى ؟

أجاب فى اضطراب: بالمرعى ..

- وى .. هادا كلام ..

نادت على زوجة ابنها أن تأتى له بعشائه .. استطردت: راك تجى هنا يوم بعد يوم فى المغربية بيش تتعشى وتبات هنا، ما تخجل، إذا ما بتاكل هون .. وين تاكل يا مسكين؟

عندما جلس شعر بأنه يأكل لأول مرة منذ غادر دارهم، المكرونة الساخنة، الأرز وطاجن الخضار المصنوع فى الفرن، الخبز الطازج، قطع اللحم الضخمة أخذ منها قطعة وترك الباقى تأدبا، لكنهم أصروا أن يستكمل طعامه كله، برغم شعوره بأنه ليس سوى شحات وعابر سبيل يأخذ طعام وجبته من على عتبة دار سيده، فقد أصر أن يكتفى، بعد تناول الشاى أعطاه الرجل علبة سجائر كاملة، وعندما حان النوم أخذه لسقيفة من التنك بها فراش من مرتبة ووسادة رخيصة من الاسفنج مغطاة بفرش، وبطانيتين نظيفتين، ولم يكتف الشايب بل أحضر له باطنيتين أخريين قائلا:

- ترى الليل يا ابنى برد واجد، إن شاء الله تنام مرتاح.. وكما أكل كما لم يأكل من قبل، نام كما لم ينمْ من قبل، وطوال الليل يلهج بالشكر للرجل وأسرته، عندما استيقظ كانت الشمس فى كبد السماء، قام يجرى هنا وهناك بحثا عن القطيع، والخجل والخوف يمسك بتلابيبه.

نادت عليه العجوز : يا مصرى .. يا مصرى .. تريح يا ابنى، اليوم خرجت زاهيه بالغنم

قال كلام كثير كله اعتذار وأسف، برغم أنها لم تفهم كلامه، فهمت العجوز مقصده فأخذت تهدىء من روعه.

- الشايب راك تعبان اليوم، تريح وغادى تخرج بالغنم.

فى هذا اليوم عاد للنوم، لم يستيقظ إلا بعد غياب الشمس، كان جوع جسده للنوم بلا نهاية، ولو استطاع لنام أسبوعا كاملا، قام يغسل ثيابه، وعندما بلغت الساعة منتصف الليل أصروا أن يقيم معهم هذه الليلة أيضا، وعندما ذهب فى صباح اليوم التالى للحاج فرج نظرته نورية فى غضب لا يخفى تعجبا، كان نظيفا مغتسلا صفف شعره وحلق ذقنه فبدا وسيما، لم ترحمه كعادتها.

– ترى .. هاك الفوال .. ترى جاى تتمخطر، سجدنا بيش تاخد فى الغنمات، تجاهلها متجهما، وطوال الأيام التى أمضاها لديهم أبقى على وجهه جدار ثقيلا من العبوس لا يرد لأحد حديثا، ولا يحدث أحدا، وعندما عوفى الحاج فرج الفرجانى من مرضه سأله نقوده وهو يمنى نفسه بالخمسين دينارا التى قدرها له، برغم ضآلته وشعوره بأنه يستحق ليس أقل من مائة، قال لنفسه: يكفى حقنا القانونى احنا سلكاويه.. وطوال ثلاثة أيام ظل يطالب الشايب بنقوده وهو يجيبه:

– غادى ننزل السوق نجيب لك فرش .. هسه أعطيك عشر دنانير ..

ويرفض بغضب: عايز فلوس الشهر كلها .

ومضت الأيام والحاج فرج يراوغه ويمنيه بنقوده يوما بعد يوم، فبدأ يوطد نفسه على قبول دينار وربع يوميه مثل عمال درنه، خمسة وأربعين دينارا فى الشهر .. معقولين .. وهكذا أخذت أحلامه فى التقلص، عندما سأل مترددا الشايب عن بقية راتبه وهو يأخذ مكرها عشرة دنانير أجابه:

– توا أخذت عشر دنانير، ترى نحسب الأكل والسكن، يبقى من راتبك ثلاثة عشر دينارا، حقك من حق الله، أنا ما نجادل فى عرق مسلم، انفجر يصرخ:

– سكن ايه .. واكل ايه.. انا نايم فى الطل.. تحت المطر يا عالم يا كفره.. تقولى مسلم.. من يوم ما جيت، عشر ايام والدنيا بتمطر علىّ، وانت يا حضرة المسلم رامى لى بطانيه مهلهله، تعمل ايه فى السيول، جنسكم ايه، تلاتشر عشر دينارا بعد خدمه شهر وعشر ايام، تأجر لى الطل وارض ربنا وتقول لى سكن، ده انتم يهود، هو يعنى الواحد لأنه مامعهوش اقامه تاكلوا حقوقه ..

خرجت المرأتين ووقفتا مندهشتين فى عجب.. لم يكن احد يتوقع له ان يثور.. كان لا يزال يصرخ:

– رغيف الخبز بقرش .. تحسبه عليه ثلاثين يوم بتلاته دنانير .

هتف الرجل مشيرا لابنته:

– وهادى .. ما تخدم فيك وتطبخ طعامك .

– ليه قاعد في فندق خمسة نجوم، خدمه عشره فى المائه، وعلى ايه المكرونه البايته الساقعه، ولا الخبز المعفن، قسما بالله العظيم تلاته ورب العزه، انا لو مراتى بتقدم لى اكل زى ده لاكون ممرمغ بيها التراب، ورامى عليها يمين الطلاق، انتم فاكرينا ايه، غنم، دى تخدم فيّ، ليه تكذب وتقلب الحقائق، تخدم فيّ وهى ماشيه وراى بالكرباك، تقول عبد .. المصرى هذا.. الفوال.. كنك يا تيس.. كنتم تاكلوا ايه قبل النفط، ما كنتوش تلاقوا، كنتم تيجوا عندنا نرحب فيكم وتشاركونا لقمتنا، دى انتم لسه ساكنين فى الصفيح ..

انفجروا بالضحك، ولم يكن يهدئه سوى ضحكهم.
– طيب .. طيب، تبى إيش، إيش ترغب ..؟
– نتحاسب.. انا متفق امام ابو النديم مع ابنك ناخذ خمسين دينار شهريا.
– باهى ياولدى نتحاسب .. كم تبغى ..
قال حزينا: خمسه وثلاثين دينارا .
– خمسه وعشرين .
– ثلاثين لا ينقصوا درهما .
– باهى غادى نروح السوق ولما نرجع نعطيك قروشك ..
– انزل معاك .
– ليش .. وتترك الغنم ..؟
أشار ناحيتها بغضب: هى تسرح بهم .
تراجعت إلى الخلف وصاحت بصوتها المبطوط بغضب:
– انا .. نسرح فى الغنمات .
صرخ فيها وهو يتجه نحوها مهددا:
– ايوه .. امال مين كان بيسرح بيهم قبل ما آجى .. العفريت ..! وصرخ يقلدها وهو يهز وسطه ..
– انا.. نسرح فى الغنمات .. لأ .. ابوى يطلع من التربه علشان خاطر عيونك ..
تراجعت مذهولة وهى تهتف بغنج ..
– وى .. عبدالله ..
نظر لها مدهوشا: عبدالله !!
– نعم عبدالله مو اسمك عبدالله
– اول مره تنطقوا اسمى .. شهر وعشر ايام، اول مره حد ينطق اسمى .. دى انا نسيته .. روح يا فوال .. تعال يافوال .. المصرى هذا .. المصرى هيك.. ايه يا عالم يا ظلمه .. ياعالم ياللى مافيش فى قلبكم رحمه.
ضحكت نورية: وى .. ترى نحن نهزر معاك وترى إنت تحصر فى نفسك يا مسكين .. طب قول ..
أشاح بذراعيه على آخرهما:
– مش ح اقول .. اليوم ياكل عند اخوك. ويكره .. راع(١٧)انا انزل درنه معاك بالسياره

فى السوق وقف عبدالله حانقا مشدوها، والرجل يبيع تلث القطيع بألفين وخمسمائة دينار طلب نقوده لكن الشايب ابى، وقف يضرب كفا بكف .
– ترى اعطيهم لك فوق بالجبل نحوشهم لك .. لكنه لم يتركه إلا بعد ان اخذ عشرة دينارات حذره الرجل بان يكون جاهزا للرحيل قبل عشية اليوم القادم .. هز رأسه بغضب مؤكدا حضوره .

الفصل الخامس عشر

-١-

بلغ الحوش فى الظهيرة، وجدهم يتناولون طعام الغذاء، استقبلوه بترحاب وشوق كبير، وبينما كانوا يتبادلون الحديث عن الأحوال الزفت التى يواجهها كل منهم، شعر عبدالله بشىء ما فى الجو، كان نبيل منسحبا عنهم مستقلا بغرفة له وحده، ومبروك يعانى من حالة إسهال من الضحك، ينظر إلى نبيل ولا يستطيع التوقف عن الضحك، وعبدالله يحاول الاستفسار عن السبب دون أن يثير حرجا لنبيل المنفرد بنفسه وحيدا ينظر إلى المبروك شذرا، على أية حال خمن عبدالله الأمر، لكن المفاجأة هى دعوتهم له كى يصعد معهم للطابق الأعلى، نظر مندهشا انتحى به المبروك جانبا، همس وهو يكتم ضحكته: صاحبك مطين الدنيا، حميدة طلبه بنفسه يمد أسلاك كهرباء جديدة لشقته .

– حميده..!!

انتحى عبدالله بنبيل ركنا: شقتها .. شقتها يا نبيل يا عاقل ..!

– حميده والله ما ليش دخل .

– يمكن هى ..؟

– ولا هى ..

– متأكد .. صمت ..

– بس ده خطر عليك .. أجابه بالصمت فاستطرد .. بتحبها .

غامت عيناه خلف ضباب كثيف : رد على بتحبها ..

هز رأسه بالإيجاب .

– وهى ..؟ صمت ..

– واخرة الحب ده .. بحذرك ح تدخل السجن، سيب درنه، روح بنغازى، ارجع مصر.

– مقدرش، بحبها، انا فى حياتى لا حبيت ولا ح احب زى ما حبتها.

– ليه .. فيها ايه ..؟

عندما صعد عبدالله وراء نبيل أدهشه الرياش الفاخر لغرفة النوم وبقية المنزل، عادت

من عملها فى الثانية والنصف ظهرا، حيتهم جميعا بحرارة أثلجت صدورهم، وظلت فى حضور أمها على خدمتهم دون توقف تحدثهم وتمازحهم ثم غابت، افتقدوا غيابها، لقد أشعرتهم بأن علاقتها بنبيل علاقة بهم جميعا، علاقة تقاسموا فيها الأدوار، هى المعشوقة وهو الحبيب ، وهم الأصدقاء والأهل، فى نهاية اليوم ظهرت ثانية حاملة عشاء فاخرا، يحوى ما لذ وطاب، هللوا لنبيل فضحكت وقالت:

– راعوا كلوا .. آيووووه .. أنا نحب المصريه واجد .

أصابهم هياج مكتوم وقبل أن ترحل عقب أبورحاب ملمحا لنبيل:

– والمصريه تحبك كتير ..

نظرت إليه مبتسمة دون خجل وفى تواطؤ، وكأنه أذن للجميع بأن يكونوا على سجيتهم، فانطلقوا يضحكون بسعادة.

عندما نزل عبدالله لم يكن لديه شيء ضدها. بل شعر بميل نحوها وعندما التقت عيناه بنبيل .. ابتسم له بتشجيع قائلا: حرِّص من زوجها، يدبر ملعوب و أنتم غارقانين فى بحر العسل..

أجابة بحرارة وانفعال شديدين: ما تخافش .. عجبتك .

– نصيبك ياعم، لهطه قشطه، وقلبها جوهره، وكمان بتموت فيك.

سأله لاهثا: ازاى عرفت ازاى .

– بقى انا ح اعرف وانت مش ح تعرف، جرى ايه يانبيل ..

قاطعهم أبورحاب: نبيل اترك لنا عبدالله، الراجل بكره ماشى، آيوه يا عبدالله، قول فضحتنا، ركبت عليك المره من هنا وانت نمت من هنا، طب هو ده وقت نوم يا ابن البهيمه ..

امتلأ فضاء الغرفة بضحك صاخب لا يتوقف وطوال الليل كانوا يتحدثون، لم يناموا فقد كان لأحاديثهم شجون، لاحظ تحسن حالتهم، التلفزيون والثلاجة القديمان، المطبخ الممتلىء بالطعام .. قال أبورحاب:

– تفاح ياحضرة الصول.. تفاح .. وقام يرقص مصفقا، تفاح، تفاح، كل ياخوى، تلاقى ورق الشجر نبت على جتتك من مضغه كل يوم، كل تفاح بس خد بالك احسن تموت من الخضه يا عين امك.

عندما انتهوا من شرب الشاى، قال وقد شعر بأنهم أحسن منه حالا: اخد فلوسى من الراجل واجى اقعد معاكم ؟

خيم الصمت عليهم قال المبروك: آخر الشهر، مفيش عمل بدرنه .

قاطعهما أبو رحاب: احنا نروح بنغازى يا عبدالله .

فى صباح اليوم الثانى قابلا أبونديم صدفة، استقبلهم استقبالا حسنا، وأصر على أن يأخذهما إلى حوشه، وهناك اشتكى عبدالله من الشايب. قال له أبونديم: خد فلوسك ماتترك فلس، أنا أقولك أهه، وما تخاف انت تعمل عمل وتاخد أجر، ولو مابده اياك بيطردك، العمى، الليبى تخاف منه بيحتقرك بيذلك، تصير رجل، بيعاملك معاملة حسنة، بيحترمك، وعموما أنا ماخد شغل كتير فى بنغازى، تعرف مؤسسة النصر، عمر بوزى، توا نبنى فى معسكر كبير لسلاح الاشارة، هاك العنوان ولما تاخذ فلوسك وتزهق تعال عندي ببنغازى .

-٢-

عندما صعد الجبل حاول أن يجعل عشاه ونومه يوميا عند أسرة أخى مخدومة دون جدوى، كان هذا يثير الشايب والعجوز ونورية، ويدمدم الشايب فى غضب:

- يبى يروح لمفتاح بيش ياخده يعمل عنده ..

وتهاجمه نورية: عليش تبى تغادرنا، ناكل فيك إحنا، عجب والله عجب، وإيش تاكل غادى

فيثيرها: اكل ما حصل بُكَلّ.

ترد عليه بسخرية: تاكل حلاوه ..؟

فيتجاهلها منتصتا إلى راديو صغير اشتراه من درنة ..

فتصرخ به : سمعت ؟

يطفىء الراديو وينظر نحوها: اكل هناك احسن من هنا .

تسأل مندهشة جرأته: شنو .؟

يقول وهو يهز يديه وقد استعاد عدوانيته:

- أكل أكل بشر، بنى ادمين مش اكل الحيوانات والكلاب ده، يستطرد بنفاذ صبر، والله تاعبه نفسك وما ح تفهمى شىء .

يجن جنونها: أنا ما تفهم، أنا ما تفهم .؟

- و كمان ما تعرفيش تطبخى .

دخلت البراكة تشتكى أمها .. الفوال هذا يشتم فىّ، يقول أنا ما نفهم .

جاءها صوته من الخارج: طبعا ايش فهمك انت فى الطبخ، مكرونه مكرونه مكرونه، فيه فى الدنيا حاجه اسمها طبيخ، خضار اسمه، باميه، بسله، ملوخيه، رز، فاصوليا خضراء، لوبيا، على فكره، ما اسمعك تقول لى فوال تانى، ما انتم بتاكلوا الفاصوليا زى الفول بالضبط .. آيوو و و و وه .. راك تقول لى فوال تانى .. وعندما انتهى لم تجرؤ على الخروج، كانت تولول وترغى مهزومة .

فى أحد الأيام انهمر المطر غزيرا فلم تخرج الغنم للرعى، منذ الصباح الباكر ذهب يغسل ملابسه ويستحم، نادى عليها طالبا أنية فلم تفهم، أخذت ترد عليه شنو، شنو تبى، فتركها مقتحما البراكة إلى حيث الحلل والأوانى وجلس يطبخ بالخارج، فى البداية نظرت إليه فى احتقار، ثم مالبثت أن بدأت تدور حوله من بعيد، تتشمم الأكل، تراقبه وهو يقطع البصل والطماطم والثوم وعندما طلب منها حق الفلفل، سألته:

- تبى شىء آخر ..؟

هز رأسه نفيا لكنها أحضرت له حقاق وزجاجات البهارات المختلفة، فأخذها وعندما جلس لتناول الطعام صنع لنفسه مائدة كبيرة، مفترشا الأرض وقد امتلأت الأطباق بالطعام، نادى على الشايب للطعام فجاء دون معارضة وجلس يأكل فى تلذذ ونهم، لم تجرؤ على الجلوس معهما برغم رغبتها فى تذوق طعامه، تجاهلها فشعرت بحرج فى كرامتها، عندما

وضعت طعامها صاح بها: ترى أنا أترك لك فى أكل واجد، خذى الحلل، اليوم تتغدى على حسابى .

اثنى العجوزين على الطعام، بعد الشاى تمدد على العشب تحت شجرة شتوية يستمع إلى جهاز الراديو الصغير يدندن بالغناء ، ويدخن السجائر مستلقيا على العشب حرا، يتابعها بنظرات صريحة واضحة أثارت فيها الارتباك، بعد أيام أصيب الشايب بوعكة فانتقل للإقامة الدائمة عند أخيه، بعد أن أخذ راتبه عن الشهر المنصرم .

-٣-

فى أحد الأيام كان سائرا وراء القطيع فى طريقه اليومى المعتاد، قرب الظهيرة لمح نورية تقف فى قاع الوادى وسط عدد صغير من الغنمات، ظل يسير فى حلقات دائرية متتابعة تضيق شيئا فشيئا، هبط القطيع باتجاهها وكأنه يشم رائحتها، كان كل منهما ينظر إلى الآخر يستبطن داخله، يحمل الأثير أفكار كل منهما للآخر .. فكرت المرأة الصغيرة .. لو حاد عنى (.....)... لو جاء لى مباشرة ..

وكان يفكر .. الآن نحن وحيدان.. أنا وانت يا بنت الفرجانى.. التقت عيناهما ثانية .. تلاقيكى فاكرانى مرة، والله لأشقك نصين .. أصابتهما الرعدة ربما فى الثلث الأخير من المنحدر ربما فى منتصفه .. رآها تتطلع نحوه بثبات دون أن تحيد عنه عيناها قط .

وطوال المسافة من منتصف المنحدر الذى يدور منه هابطا وحتى قاع الوادى، حيث كانت تقف فى منتصف القاع تتطلع نحوه بثبات .. عرف ماتريده وعرفت أنه قادم إليها .. وكلما حاد بعينيه ناحية الغنم كانت عيونها المثبتتين عليه تعيده إلى إسرها بقوة أشد ووضوح أكثر .. عندما بلغ قاع الوادى توجه إليها مباشرة وعلى مبعدة عشرين مترا سمعها تثرثر .. تزأر.. تدمدم .. تكز على أسنانها .. ويداها تعبث بمئزرها. لمحها تفك تكة سروالها، وتلقي به بين قدميها، إلي الأرض، دفعته تتخلص منه للوراء، وقد برز أمامه نصفها السفلى ينتصب زاهيا متحديا، فاندفع يهاجمها كالمجنون .. عنيفا منتقما.. شرا ما كامن فيها كان يتعين عليه أن يهاجمه.. أى نوع من الشر.. لا يدرى وكيف يهزم شيطانها إلا أن يمزقها أشلاء.. تشابكا بالأيدى يتقاتلان بوحشية .. مزق عنها قميصها وهى تضربه وتركله بيديها وقدميها معا.. قبض على معصميها دافعا بهم إلى وراء ظهرها، فتقوص نهديها صاعدين إليه يحتكون بصدره بقوة.. نشبت أسنانها فى كتفه لبؤة ثائرة .. صرخ من الألم .. دفعها يتخلص من أسنانها.. لكنها أمسكت به تنشب أظافرها فى جسده، جذبته إلى الأرض.. سقطا وسط الغنم يتقاتلان وهى تشتمه بصوت أجش:

– تعال يا تيس.. تعال يا زامل.. تعال يا قواد.. تعال ياعرس يا فوال.. أنا نبيك.. أنا نبيك فى حشاى.. يا قحب يا قواد ..

كان يلهث هو الآخر هامسا: وانا اكرهك.. اكرهك يا بنت الكلب.. اكرهك.. اكرهك يا بنت الفرجانى..

تقلبا وسط الأغنام على العشب الأخضر والأرض الخشنة الجافة.. كلما حاول إيلاجها قاومته.. ناشبة أسنانها فى أى جزء من جسده فيندفع دون إرادة يصفعها بعنف.. فلما انتبه لشدة عنفه حاول الانسحاب لكنها كانت تتشبث به تلتصق بجسده كفريق.. وهى تردد:

– تعال يا تيس.. تعال يا زامل.. تعال يا قواد.. تعال ياعرس يا فوال.. أنا نبيك.. أنا نبيك فى حشاى.. يا قحب يا قواد ..

كان أمامه طريق واحد دفعته إليه دفعا.. اغتصابها عنوة.. هذا ما كانت تريده بالضبط.. ضربها بقسوة بالغة، كان عاكفا على قتل شيطانها.. العنف.. جسده الدامى.. اندفاعه فى فضاء مظلم .. جواد ثقيل تدك سنابكه أحشاءها.. بعده تبلغ الزبى.. صراخ لصوت لا يمت إلى البشر بشىء .. صوت قادم من أعماقها ما لبث أن تحول إلى عواء شبقى يتردد صداه فى أرجاء الوادى بانتظام.

كره الصباح والليل، صباح من السير الطويل، وأغنام ترعى تأكل وتشرب وتمرض وتهرب وتكبر وتسمن وتباع بآلاف الدينارات وهو لا يأخذ حتى دراهمه، وليل استأجر عبدا لنشوة مازوخية أو سادية لا يدرى، لا يمضى ليلة إلا وتشهد السقيفة وحظيرة الأغنام والساحة المحيطة بالبراكة قتالا ضاريا بين وحشين كاسرين، يأتى الصباح وجسده مدمى من أظافرها، أسنانها، العشب الجاف والأرض الخشنة.

يوما ما قالت دون أن تعى: ليش تبى تاخد قروشك، تبى تتركنا، راعى إنك تحلم.

كان واضحا له أن المرأة تمسكه من خصيته، وأن شيئا لن يمكنه من الفكاك منها، لهذا لن يرى فلسا إذ لم تضمه سجون درنة أوالبيضاء، أولا وساعتها لن يرى شيئا على الإطلاق، ارحل إذن .. ارحل إذن يا عبدالجليل.

فى منتصف إحدى ليالى شهر فبراير خرج الشايب يبحث عن ابنته، سمع صوت خربشة فى حظيرة الغنم فتوجه هناك، وأمامه رأى حيوانيين عاريين يتقاتلان بعنف بالغ، هبط بالعصا على جسديهما يفك اشتباكهما الجسدى، أصاب عبد الله الفزع، قفز محاولا القيام، لكنها تشبثت به واللذة تفتك بها.. تقتلها، تظنه الذى يقوم على ضربها بالعصا.. لقد بلغ حافة الخطر.. ويحيق به شر مستطير .. الهرب.. ليس ثمة سبيل سواه وفى التو واللحظة.. بصعوبة بالغة استطاع أن يتخلص منها .. مال مسرعا يجمع أغراضه ويرتدى ملابسه تحت ضربات الرجل العجوز، وعندما انتهى اندفع يجرى هابطا الجبل، حاول الرجل أن يتبعه، لكنه تاه منه فى الظلام، وطوال الليل أخذ يجرى فى المسالك غير المطروقة مجتنبا الطريق الأسفلتى، كان يعلم أن الرجل لن يتوقف عن مطاردته.

عندما تسللت أشعة الفجر، اتجه ناحية الطريق الأسفلتى مباشرة، عبره متجها إلى درنه عبرالفتايح من الجهة الأخرى للجبل.

الفصل السادس عشر

-١-

فى العاشرة صباحا بلغ درنة.. صعد إلى حيث التقى بأصدقائه فى مكان عملهم: حمدالله على السلامه.

حياه المبروك وهو يرمم بمونة الأسمنت مكان حفر الكابلات من أعلى سلم خشبى: الله يسلمك.. فين بقية الرجاله .

– نبيل بيمد الكهرباء آخر عماره ومعاه محمود وابورحاب، وانى ماشى وراهم فى التشطيب.

– هم اصطلحوا .؟

– ياخى انت لسه فاكر، من زمان، قاعد كتير ..؟

– مين .. انا .

– يعنى .. انا..! مالك .. الجبل خلى مخك تخين .؟

– ايوه مش راجع .

– ليه .. عملت حاجه ..؟

– هو فيه حد هنا بايده يعمل حاجه .

– هه .. ومين اللى عمل، الشايب ولا المره .

– اللتنين.. انا جاى هربان ..

التفت المبروك مفزوعا: يا نهار ابوك اسود، قتلت حد، سرقت حاجه.

هتف غاضبا: جرى ايه يا مبروك، جرى ايه، انت مالك مرعوب ليه، انا ناقصك، قولى فين العماره اللى بيشتغل فيها الجماعه، العالم ركبها الجبن، دى عيشة تكفر .

– ما تزهقش، نصف ساعه واروح معاك .

بينما كان يحكى لهم قصة هروبه ، لاحظ الطعام الشهى، الدم الجارى فى عروقهم، الصحة الموفورة وراحة البال والدراهم التى تخرج بسهولة من محافظهم، أصابه الاحباط

واليأس .. عقب محمود:
- تنام معاى فى البراكه، الرجل عارف الحوش، ماتروحش معاهم .
عقب نبيل: افضل .. تلاقيه جايب الشرطه وجاى يدور عليك .
- ليه ..؟
- تهمه زور، فاكر يتركك ..!!
تدخل المبروك وابتسامة ساخرة تملأ وجهه موجها حديثه لنبيل:
- ولما انت ناصح، مش خايف من التهمه اللى بيجهزها لك حميده.
اصفر وجه نبيل وضحك أبورحاب معقبا: على نار هاديه .
نظر عبدالله مستفسرا .. فلما ظل نبيل صامتا سأله: فيه ايه ..
قال المبروك وهو يحدق في نبيل بطرف عينيه: مش ح يقول لك..
فكر .. ناس تحب وناس تاخد ضرب الصرم .. قال بلا مبالاة أزعجتهم: هو حر ..! بقولكم ايه، انا نازل من الجبل مفلس، عايز انزل الشغل من بكره .
تبادلوا النظر.
- فيه ايه .
قال المبروك: ما انا قلت لك، اسبوع والشغل كله يخلص، المشروع فى التشطيب.
شعر بالإهانة وإحساس بأنه الخاسر الوحيد، قال غاضبا: هو انا ح اخد شغلك يا مبروك، شوفوا لى شغل فى اى مكان .
تدخل محمود: مالك يا عبدالله، المبروك ما قال شيء غلط، يا سيدى انى تعبت، تعال اشتغل بدل منى .
نظر عبدالله إليه شذرا: الله .. انتم ح تتجبوا عليه .
قال نبيل: يا عبدالله الموضوع مش كده، انت عصبى ليه .؟ البطاله خانقه درنه والعمال نايمه على الارصفه .
قال محمود: احنا اسبوع واحد ونسلم الشغل، ناخد فلوسنا ونتكل على بنى غازى، ريح معانا اسبوع ونطلع كلنا، والشغل هناك جاهز فى انتظار وصولنا .
- شغل ايه ..
قال أبو رحاب: ابو نديم .
- ايه مش كفايه من ابونديم .
قال نبيل مدافعا: الراجل ما اخد عرق احد حتى الآن، غير انه ذوق ومؤدب .. انت اللى حظك مش مضبوط. وافقه الجميع .
قال معترضا: والفتايح ..!
قال محمود: فتايح ايه هو فيه حد كان فيه نفس يشتغل .
- ونبيل .. معانا ولا قاعد ..؟
صمت الجميع وتشاغلوا بالأكل ..

أول كلامى من مديح المصطفى.. الهاشمى سيد ولد عدنانى، أحمد مشى على الرمل ما بين أثر.. وغاص قدمه بالبس الصوانى.. قالت عزيزة بنت الوهيدى معبد.. أبيات شعر صنفتها بمعان..

يونس لا تبكى بكاك ضرنى، غطى على قلبى وعاق لسانى، انظر صبية أصبحت فى حضرتك، عرجون ثريا وسيف يمانى، الرأس منها مثل رأس يمامة، والشعر مسبول على القمصان، والوجه كالقمر المنار، أكبر من القدح الكبير أعيانى، والحاجبين كما قيس الرجا، سبحان ربى كحل عنانى، الأنف منها كالحسام مجردا، فى يد فارس نازل الميدان، والفم منها مثل خاتم دهب، أسنانها لولى والشفف مرجان، والصدر صادر تحت النتر، نهودها رمان على الأغصان، والبطن طيات الحرير ولينه، مطوى معلبك حمى للسلطان، والسرة منها كما فسقية، بالمسك والزيد ضوت ألوان، من تحتها تلقى جنينه هاوية، مفتاحها من داخل القمصان، يا بخت من كان ينفتح له بابها، يقضى زمانه فى الصفا غرقان، أنظر يا يونس إلى قصرها، بأربع بوارج شاهق البنيان، أفضل ما قلنا نصلى على النبى، الهاشمى من خص بالقرآن ..(**)

بعد عناق مشبوب أناخت سلمى برأسها على صدره .. مد أصابعه فى شعرها .. شعرت به بعيدا عنها .. سألته:

– وين صرت هسه .. بعدك ما معى .

– الشغل قرب ينتهى .. لازم اسافر مع الجماعه .

قامت تحتضنه مهددة: ما اسيبك بُكَلٍ .. راع تفكر تمشى امعاهم وإلا قدمى على قدمك .

أشاح بيده معبرا عن استيائه .

– او و و ه .. خبرنى يا قلبى.. شنو بك، ايش فيه، شنو مشكله، تبى فلوس .

زاد استياؤه .. شجعته على أن يبوح بما يريد قوله:

– قلقان .. مش مستريح .

– من شنو يا حبيبى ..؟

أغمض عينيه: انام على فراش غريب . وصمت .

قفزت بغضب وصاحت به: تنام على فراش رجل غريب، ومع زوجته، مو هَكِ .. وأشارت بأصبعها إلى الفراغ .. تقصد التيس هذا، حميده، هذا مو فراشه، وهذه مو شقته ولا

حوشه، وأنا مو مرته، شنو زواج بالأسم وخلاص هَك .. كانت ثائره .. استطردت دون أن تعي.. الكلب هذا يعدى مصر يدور فى شرموطات وأنا أعيش كيف الهجالات..

حاول نبيل أن يهدىء من روعها دون جدوى - يحسب فى مو عارفه.. عبيطه أنا .. ترى أنت تخدمه وإلا كنت قتلته بيدى هادول قتل.. وى لعنه تطيح به يا أخى .

قال ببطء: ايه الفرق بين اللى بيعمله واللى احنا بنعمله ..

تراجعت مبتعدة عنه تنظر إليه بغضب ممزوج بالدهشة:

- لشنو.. هه.. ليش تهين فى .. راك تحسب فى شرموطه يا نبيل.. تحسب فى شرموطه .. مافى فرق ..؟ ياه .. أمسكت رأسها بكلتا يديها تعصرها بغضب معذب.. تراك من يوم دخلت هنا وأنت تحسب فى شرموطه ..

أحاطها بذراعيه فى لهفه وهو يردد:

- ابدا ابدا عمرى .

- طب على ايش .

- مش قادر .. حال لا يمكن نستمر فيه ..

- ايش ما بدك .. أنا وراك ..

قال بعجلة مالبث أن اكتشف فيما بعد مقدار سذاجته:

- تطلقى..

صرخت به فى فرح: وتتزوجنى ..؟

- واتزوجك .

بين لفظها المنطوق واجابته اكتشفوا استحالة ما يقولنه معا .. استطردت: تزوجنى وأهرب معاك لمصر ..

وهو يوافقها بحماسة ورغبة عارمة يود لو تتحقق كان يعلم فى داخله أن أمرا كهذا لن يحدث قط.

- اسمع ترى لو تركتنى بقتل واحد فيكم .. اطمئن .. بعرف كيف أحصل عليك .. هو اللى يظل كيف المصيبه قدامى ..

- تعالى، مش ح سيبك، اطلبى الطلاق، ساعتها نلاقى حل نتزوج هنا، نتزوج فى مصر، المهم نتصرف بشرف .

-٣-

أول ما نبدى نصلى على النبى، نبى عربى للمؤمنين حبيب، يقول الفتى مرعى:

.. نعم أيها الطير الذى سكن العلا، على شرف عالى علوه عجيب، سَكَنْتْ العلا لا كان هذا مرادك، ولا مثلك يرضى بَدًا التعذيب، تاكل من اكل الملوك وشربهم، وتنام على خاص الحرير رطيب، قاعد فى خير وعز ونعمة، وغيرك يقاسى من الأمور صعيب، اعلم يا ذا الطير أهلكم تراحلوا، إلى الغرب، دل بهم دليل لبيب، وتبقى غريب الدار ما لك مرافق، ومسكين من كان يعيش غريب..(**)

بعد انتهاء العمل فى مشروع حى باب طبرق بيوم، وقف نبيل يودعهم على باب الحوش .

– حتى واحد يبقى معاى .

صاح محمود: العمال عندك فى درنه زى الهم على القلب .

– يا اخى .. عايز واحد منكم .

قال عبدالله: يا نبيل الوضع صعب، آن الأوان نطلع بنى غازى وما فى داعى نتشتت ..

قال أبو رحاب: والله قلبى مش مطمئن انك تقعد هنا، تعالى واخزِى الشيطان .

قال نبيل بسعة صدر: الله يسامحك .

– انا خايف عليك .

صرخ أبونديم: هيا يا اخوان، سيارة اجره انا ..!!

صاحوا جميعا: خلاص يا عم ابونديم .

كان قد وعدهم توفيرا عليهم لمشقة الطريق، والسير الطويل، وألاعيب سائقى سيارات الأجرة بأن يقوم بتوصيلهم حتى مدينة البيضاء ثم يتركهم لوجود نقطة مرور حاكمة على مدخل كوبرى وادى الكوف، وهناك يتعين عليهم عبور الوادى عبر الجسر الحديدى القديم وقد أوفى بوعده .

تحركت السيارة المرسيدس، صاح عبدالله مخاطبا نبيل وهو يطل عليه من نافذة السيارة:

– خد بالك من نفسك يا نبيل، العنوان معاك، انا ح اجى لك زياره.

نظر الجالسين فى مؤخرة السيارة إلى مدينة درنة، وهى تتلاشى فى وهن تحت زخات المطر الغزير، وكلما عنّ لأحدهم أن ينظر إلى الأمام انتابه ذعر من المجهول القادم، وحش ما كان قابعا فيهم، ينكس رؤوسهم، يلتهم نفوسهم ببطء، وكلما اتسعت السُهُبْ وامتلأ

الفضاء بالرحابة الممتدة للهضبة العليا للجبل الأخضر شعروا بالعالم الفسيح يضيق بهم يأخذ بخناقهم يسحقهم، يخلع عنهم جلودهم ويعرى روحهم ثم يلقى بها لعراء عاصف .

وداعا درنة، وداعا أيتها المدينة المزيفة، وداعا أيتها الشمس المستوحشة الهاربة دوما خلف الغيوم والمطر، وداعا درنة الجميلة، يا من تشهدين أعجب مشهد فى تاريخ مصر، رحلة الهلاك الجماعية لشعب النيل ، بركة المماليك الأغاوات والانكشارية، بركة العسكر، بركة المنسر بركة العلق اللى بيمتص دمك، بركة السلطان الجالس على عرشك .

دخلوا مدينة البيضاء فى الساعة الثامنة ليلاً، تناولوا طعام العشاء فى أحد المطاعم، وأصر أبونديم أن يكون العشاء على نفقته، ودعهم أبونديم وشكروه بحرارة وعرفان، وودعوه بحسد مكتوم، وهو يؤكد عليهم بأنه ينتظرهم بمعسكر الفويهات ببنغازى.

تسكعوا طوال اليوم فى أرجاء مدينة البيضاء وشوارعها الفسيحة، تنقلوا بين أسواقها، شاهدوا واجهات محلاتها التجارية المكدسة بالسلع والأجهزة الكهربائية، كل منهم يمنى نفسه بهذا وذاك، ورائحة وشكل الفاكهة الطيبة من كل نوع، يؤرق شهيتهم، يقسوا على أفئدتهم دون رحمة، قبل مغادرتهم المدينة فى العاشرة ليلاً حملوا معهم طعامهم المعتاد، خبزا وشايا وسكرا وسجائر وعلب الكبريت وزجاجة ممتلئة بالجاز وعلبة طعام محفوظ فارغة لصنع الشاى، على الطريق الأسفلتية تحدثوا أحاديث تافهة قليلة، ثم مالبث أن حل الصمت التام أمام قسوة الليل وبرودة الطقس، وكلل الجسد أمام السير الشاق الطويل .

تتداعى الذكريات كالسيل، فى البداية تطل الذكريات كما تطل رؤوس الفئران من جحورها، فإذا وجدت السكون فى الخلاء، خرجت تنهش الأحياء والأموات لا فرق، كان يتوق لحلقة سهر ليلية حول موقد الشاى والمعسل مع الأصدقاء، حلقات الذكر، شاعر الربابة فتحى سليمان يحكى قصص أبوزيد الهلالى والأميرة شامة، وعيون النساء الناعسة وليالى الأفراح والمآتم وأيام الفرح والشقاء، كيتوق لظل أشجار الصفصاف والجميز الضخمة والكافور العالى على جسور الترع ونسائم الهواء المنعشة، غمغم يباكت نفسه .. أهه .. يا ريتك يا بوزيد ما غزيت .

الفصل السابع عشر

-١-

فى احد الأيام الاخيرة من شهر فبراير ١٩٧٠، صدرت الأوامر للفوج ٨٩ بالتقدم باتجاه الجبهة، أجرى التمام من قبل سائقى شاحنات الحملة على إحكام ربط المدافع والمعدات بعربات الكراز، فى كابينة إحدى الناقلات جلس بجوار السائق، وفى الساعة السابعة ليلا بدأ اللواء بأكمله فى التحرك من مطار القاهرة الدولى، حيث شقت الحملة طريق الإسماعلية الصحراوى، كانت الشاحنات مطفأة الأنوار تنهب الطريق بثبات، تطلع للسماء ، يرى مجموعات السحاب تخفى قمرا باهتا ونجوما تتناثر فى أرجاء المجرة، تابعها وهى تسير بمحاذاته لا تفارقه والبرد يغزو جسده رويدا رويدا.. على بعد حوالى خمسة وسبعين كيلو مترا من القاهرة انحرف القول جنوب الطريق الأسفلتى، كان يوما ممطرا، وطوال نصف ساعة ظل القول يشق طريقه على الطرق الترابية الموحلة، وسط حدائق الفاكهة وأشجار المانجو التى كانت تشكل مصدرا طبيعيا للتمويه.

فى البداية لمح أعدادا من ناقلات الجنود تقف على جانبى الطريق، لمح بريق السلاح يلمع فى الظلام، شيئا فشيئا برزت العشرات من صواريخ سام٣ المحملة على شاحنات الزلّ - ١٥٧، مئات الجنود تجلس القرفصاء بانتظار الاشتباك مع العدو، وجوههم السمراء الصلدة وعيونهم المحدقة للمجهول القادم، عشرات السيارات المحملة بمواد من زلط ورمل وحديد مُصنّع وأسمنت وقطع خرسانية سابقة التجهيز، مئات المدنيين من عمال التراحيل، نساء ورجال جلسوا جماعات متناثرة تحت الأشجار، لا يستطيعون إيقاد نار من أجل كوب شاى خوفا من وهج يكشف عنهم، وقد خيم عليهم الصمت بانتظارالساعات القليلة القادمة، بين فنية وأخرى كان يرى الوجوه الشقراء للخبراء السوفيت ونظراتهم مليئة بالترقب، الآن تبدأ نقطة التحول التاريخية للحرب، كانت حرب الاستنزاف تكاد توشك هى الأخرى أن تنحو لمنحى آخر أمام قيام الطيران الإسرائيلى بنوع آخر من الاستنزاف السياسى للقيادة

السياسية المصرية بعد أن أبقى مئات الألوف من الجنود قيد الخنادق، واستدار يهاجم الأهداف المدنية للحصول على صك بقبول الهزيمة، والاعتراف بالتفوق الساحق للعسكرية الإسرائيلية ..

كان مهتاجا وكان يشعر أن مسئولية ضخمة قد ألقيت على عاتقه وعلى عاتق سلاحه الأقل تأثيرا والأقل فاعلية، الآن يتعين عليه وعلى سلاحه المرور بالدفاع الجوى من عنق الزجاجة الخانق، وهو حماية عملية الدفع بصواريخ سام ٣ للجبهة من خلال الاستراتيجية الجديدة، مواجهة سلاح الطيران الإسرائيلى من داخل جدار من التحصينات يمتد مائة كليو متر على طول الجبهة ، بعمق ثلاثين كيلو مترا، كانت المهمة واضحة تماما، وهى الحماية الجوية لسلاح المهندسين أثناء قيامه بعملية إنشاء قواعد الصواريخ، ثمانية عشر منشأ خرسانيا سيتم تحت القصف، الآن صار يتعجل الوصول، ثمة حرب ضروس قادمة .

بلغ اللواء مواقعه فى الساعة الحادية عشرة والنصف مساء، أول من ووُجَه بعاصفة من قائد كتيبة المهندسين كان الرائد أركان حرب أحمد هشام، من على بعد مئتى متر كانت إحدى سيارات الجيب تأتى مسرعة، وأمامه مباشرة صرت فراملها، ونزل منها ضابط أركان حرب برتبة مقدم وخلفه نزل أحد الخبراء السوفييت صرخ حانقا: يا سيادة الرائد ده انعدام للمسئولية، حضرتك المفروض تكون هنا من امبارح.

– ليه يا افندم ..؟

– حضرته مش عارف، جميل والله، كتيبتين، واحدة صواريخ، والثانية مهندسين وثلاث شركات مقاولات فى انتظارك من امبارح .

– اوامر التحرك وصلتنى اليوم ، وانا لا استطيع التحرك نهارا .

– لأ .. كان لازم تكون هنا امبارح ..

فتح الرائد هشام ذراعيه مستسلما: سيادة المقدم، الامر مش بايدى.

– امال بيد امى .

– ممكن تكلم سيادة العقيد لما يوصل .

– هو لسه سيادة العقيد ما وصلش ..؟

– طب حضرتك نناقش الموقف، يمكن نقدر نتصرف لحد ما سيادة العقيد يوصل .

فى اجتماع مصغر حضره ضباط كتيبة المهندسين، وعدد من الخبراء السوفييت، وضباط اللواء عرض المقدم المشكلة، ماذا ينبغى أن نفعل الآن .. نبدأ عمليات الإنشاء أم ننتظر حتى الغد ..

تسأل الرائد هشام: ايه المشكلة ..؟

كاد المقدم أن ينفجر غضبا، تدخل أحد ضباطه متشككا:

– سيادتك عارف سبب وجودكم هنا .

– حمايتكم ..

وكأن المقدم وجدها، صاح ساخطا: وامتى ح تتمكنوا من حمايتنا؟

قال الرائد هشام ببراءة:

– فى خلال ساعة ح يكون اللواء مستعدا للتعامل مع طيران العدو..

نظر إليه المقدم بتمعن: تقدر فعلا ..؟

– يمكن قبل كده .. واستدار إلى ضباطه : بسرعة وزعوا الافواج واعطونى التمام فورا، خمسة واربعين دقيقة، مفهوم ..

لم يفكر أحد من ضباطه إذا كان هذا ممكن أم لا، كان هذا أقل من معدلات التجهيز ولكنهم سيفعلون، صاحوا جميعا وهم ينطلقون ركضا للخارج .. تمام يا افندم .. على حين بقى هو لنهاية الاجتماع .. نظر المقدم لضباطه يستعلم موقفهم، شعر بهم يتململون فى عصبية يرغبون الإنطلاق من فورهم للمواقع، لوهلة خاطفة عنّ له أن يستشير خبراءه، قال كبيرهم عبر المترجم:

لدينا اختياران، الأول البدء فورا بعد إعطاء تمام من سلاح الدفاع الجوى، وهذا يجعلنا متأخرين ثمانى ساعات عن معدل الإنشاء، والاختيار الثانى الانتظار حتى مساء الغد، والبدء مع آخر ضوء، وعيب هذا تعريض القوات للاكتشاف بواسطة الطيران المعادى، حتى ولو كان السبب عامل الصدفة .. تدخل الملازم منير عياد من سلاح المهندسين:

– فى كل الحالات احنا متاخرين ولابد من البدء الآن فورا.

صاح المقدم مستفسرا بضيق: كيف ..؟ على عاتق من تقع مسئولية التاخير الحادث اليوم، خاصة إذا تم اكتشاف كل هؤلاء غدا أثناء العمل صباحا .. استطرد الملازم صلاح عقل : انتهينا من التخطيطات المطلوبة كافة للتحصينات، ونستطيع تعويض التأخير بالعمل فى المواقع الرئيسية والتبادلية معا، كل شىء فى انتظار البدء، ويجب أن يكون معلوما لسيادتكم أن أي اكتشاف لعمليات الإنشاء على طوال الجبهة تجعلنا بالفعل متأخرين، إذا كنا متأخرين ثمانى ساعات، فالإنتظار حتى الغد يجعلنا متأخرين أربعة وعشرين ساعة ..

قال سيد بيومى مهندس إحدى شركات المقاولات :

– نقدر نبدأ بورديتين عمل من البداية .

قال المقدم : هي نوبة حماسة والسلام، ما انت لما تشغل ورديتين دلوقت ح تفقد وردية آخر اليوم جرى إيه يا سى سيد .

أجابه بحماسة ورجولة أولاد البلد : ابدا يا افندم، انا ح نزل ورديتين دلوقت، واسحبهم بعد ثمانى ساعات، والساعة التاسعة صباحا تستلم الوردية الثالثة العمل، فى نهاية الوردية ممكن لاي وردية من الورديات اللى اشتغلت دلوقت تستلم العمل، الله .. جرى إيه يا افندم .. احنا بنعمل كده فى الحياة المدنية، مش ح نعمل كده فى الحرب ..

مسد المقدم شاربه ونظر دون إرادة ناحية المترجم الذى أشار له بأن الخبير متفق مع وجهة نظر ضباطه .. قبل أن يعطى الأمر ببدء العمل فى إنشاء التحصينات، صاح الملازم منير عياد :

– شىء هام .. – نظروا ناحيته مستفهمين – استطرد : يجب أن يقوم الدفاع الجوى بأعمال تمويهية لمدافعه الثقيلة والخفيفة وكل معداته، ربما نتمكن من تأخير اكتشاف العدو لنا.

طرق الرائد هشام المنضدة الصغيرة وهو يدير رأسه غاضبا.

– كان لازم تعرفونى الموقف من البداية.

قام مسرعا ينادى ضباطه بإعادة توزيع الوحدات، مع اتخاذ مواقع تمويهية، على أن يتم ذلك على مرحلتين حتى لا تسقط الوحدات فى حالة من الفوضى.

وكأن حجرا ضخما ألقى فى بحيرة تعلوها صفحة واسعة من المياه الراكدة، الأمواج البسيطة المتتابعة انتهت إلى أمواج هادرة من الحركة، أول صوت كان لمولدات الديزل، دقائق وتحول الموقع الكائن على بعد مائتى متر إلى شعلات مضيئة متناثرة، فى البداية بدت عشوائية غير منتظمة، ولم تمض نصف الساعة حتى صارت على شكل دائرتين منتظمتين، هما موقع التحصينات الرئيسى والتبادلى، وهلة كان هدير محركات الحفارات المجنزرة والبلدوزرات تتحرك باتجاه الضوء وخلفها عشرات العمال، دقائق وتحولت المواقع لسحابة من الغبار .

مع آخر اليوم الثانى لبدء العمل كانت البلدوزرات قد انتهت من حفر اثنتى عشرة حفرة بعمق ستة أمتار على مساحة مائة متر، إضافة إلى ستة مداخل منحدرة لإمداد القواعد بالصواريخ، توجه نصفها لاستكمال حفر مداخل التحصينات بالمواقع التبادلية، وتوجه الباقى للعمل فى حفر ملاجىء الأفراد، وعلى حين كان عشرات من عمال التراحيل يعملون الآن فى تسوية المواقع التى تم حفرها، ربض وراءهم طابور من عربات خلط الخرسانة، تتوثب لصب أرضيات وزرات اللانشر وتحصينات مقر القيادة والسيطرة، ما أن انتهى العمال من التسوية حتى بدأت العربات فى صب حمولاتها من الخرسانات، فى الساعة السادسة والنصف أعيد إضاءة المواقع، وكان فريق من الحدادين يعمل على قدم وساق فى تثبيت الهيكل الحديدى لعدد خمسة ملاجىء للأفراد والأيواء والإعاشة وملجئين لماكينات الديزل وذلك على عمق ثلاثة أمتار من سطح الأرض، والمهندس سيد بيومى يسوطهم للعمل دون توقف، عندما شرع النجارين فى العمل أشار لهم الملازم منير عياد بالانتهاء من تدعيم الجزء الخاص بالقواعد أولا، ولم تمض ساعتين حتى فوجىء الحدادين والنجارين بعربات الخلط الخرسانية تقف فوق رؤوسهم من جديد، امتلأ الموقع بالصراخ وتصايح الاسطوات والصنايعية :

– هو احنا خلصنا حاجة، الخرسانة دى ح تبوظ يا باشمهندس.

رد الملازم منير بجفاء : ما تبوظ ، يا حاج حسن دعمت القواعد .؟

– لسه يا باشمهندس .

– لسه وصرخ بجنون .. بره .. بره .. انزل يا دفعة دعم القواعد، انزل انت وهو ..

فى ثوان قفز جنود يمتهنون النجارة والحدادة، كان قد أعدهم احتياط للقوة المدنيين ، واستطرد صارخا : أول ما التدعيم ينتهى تدخل عربات الخلط للصب فورا .. واستدار إلى الاسطوات من المدنيين .. هو انا بشتغل على سقف عمارة، ولا بصب قواعد سور مدرسة، لأ .. كل واحد يعرف، احنا بنسابق الموت، النهارده عدى على خير بكره مش ح يعدى، بكره

الصبح لازم الملاجىء دي تتردم مش بس تتصب وكل متر يجهز ح يتم صبه .

للحظة كان سيد يقف فوق رأسه ينفذ ما يبتغيه دون نقاش، لم يعارضهما الرجال بل اندفعوا يعملون بالكيفية التى يطلبونها ليس فقط كما يبغيان ولكن بأكثر مما يحلموا به، عندما انتهوا طلب البلدوزرات للردم، عارضوه ولم يستطع مقاومتهم، كان كل من فى الموقع من عمال ومهندسين وصنايعية وضباط يقومون بالردم بارتفاع متر فوق دشم الملاجىء، وكانت المواقع الهيكلية لم يبدأ العمل بها بعد، وبينما كانت تُجرى أعمال التسوية كانت الخلاطات قادمة من بعيد، حيث تم صب طبقة من الخرسانة العادية سمكها عشرين سنتيمترا على عمق مترين من سطح الأرض وعاد الرجال للردم مرة أخرى لارتفاع متر وأُعيد صب طبقة أخرى من الخرسانة العادية.

فى الساعة الثانية من صباح اليوم الثالث، كان قد تم ردم سبع دشم من ملاجىء الأفراد وغرف الديزل ومركز التحكم والسيطرة، وعلى الفور أُدخلت ماكينات توليد الكهرباء ومعدات الاتصال والسيطرة وكومبيوتر من طراز يعمل مع صواريخ باليستيه، وتم تركيب الرادار، وتم تمديد كابلات التوزيع بين مراكز التحكم والسيطرة وقواعد إطلاق الصواريخ، وحتى الخامسة مساء لم يكن قد تم صب سوى خرسانة قاعدتين لإطلاق الصواريخ وحفر خمس قواعد للموقع التبادلى.

انتحى المهندس سيد الملازم منير جانبا، وحدثه بضرورة الإسراع بصب أرضيات الوزارات موقعيا وليس بواسطة الخلاطات الميكانيكية، تفهمه على الفور، بعدها شوهد الملازم منير عياد يجرى باتجاه مقر قيادة الكتيبة، وأمام المقدم قال باهتياج : الكلام ده مش نافع يا سيادة المقدم .

نظر نحوه بانزعاج : ليه.. فيه إيه؟

– لازم نسلم الدفاع الجوى تحصينات قواعد الصواريخ بكره الصبح وخلال الاربعة وعشرين ساعة القادمة يتم تسليم المواقع التبادلية، انا مقدرش اضيع اللى تم عمله ببساطة.

– وح نضيعه ليه ؟

– ثلاثة ايام ولم يكتشفنا الطيران الاسرائيلى، كفاية كده، لإن المؤكد انه ح يكتشفنا بكره .

– طب وايه العمل .

– شوف سيادتك .. أولا .. مركز التحكم والسيطرة لكتيبة الصواريخ جاهز تماما بكل معداته، لكنه من غير صواريخ ..!! ثانيا .. تم حفر أربعة وزرات لقاذفات الصواريخ، باق صبهم، لو اكتفيت بعربات الخلط فلن ننتهى منهم قبل ثلاثين ساعة حضرتك، واثنى عشر ساعة قبل أن يتمكن أحد من استخدامها، والأن عندى اقتراحين يتم التركيز على الانتهاء من سند جوانب الوزرات بأكياس الرمال للوزرتين فى نفس الوقت، أو يتم تحميل كافة عربات النقل المتوفرة بالمواقع بالزلط والأسمنت والرمل باللوادر، وندفع بها إلى أرضيات الوزرات الأربعة فى نفس الوقت، ويتم خلطهم على الناشف بواسطة الأنفار مباشرة فى

الموقع ويتم إضافة الماء وتفرد فى مكانها.

تحمس الضباط للفكرة، وقبل أن يعترض المقدم قدم الملازم منير تفسيرا أكثر دقة : مطلوب للقاعدة الواحدة عشر نقلات من الزلط، ونصفها من الرمل، فإذا وفرنا عشر شاحنات وعدد اتنين لودر يمكن إنهاء عملية نقل التشوينات خلال ثلاث نقلات لكل سيارة، فى خلال ساعتين أو ثلاث ساعات على الأكثر يتم تشوين مواد الإنشاء فى قواعدها، فى الوقت ذاته سيكون العمل جاريا بأشد ما تكون عليه الهمة فى عمليات خلط الخرسانة وفى موقع الصب، وأخيرا ده رأي المهندس سيد مهندس الشركة.

قال المقدم كلمة واحدة : نفذ .

فى الساعة العاشرة من صباح اليوم الرابع رصدت أجهزة الردار طائرتين للعدو، صدرت تعليمات إلى الوحدات بعدم التعامل معها دون إعطاء أوامر من قيادة اللواء، ثوان قليلة وكان الجميع يتابع طائرتين من طراز سكاى هوك يعبروا سماء الموقع باتجاه الغرب، لم تمض خمسة وأربعين دقيقة حتى كانت الطائرتين تيعبروا الموقع باتجاه العودة ، فوق الموقع مباشرة حلقت إحدى الطائرتين فى دورة واسعة، ثم عادت تلحق بزميلتها باتجاه الغرب، على الفور أعطيت التعليمات برفع درجة الاستعداد، كان اللواء بانتظار هجوم من العدو، طوال خمس ساعات من الترقب لم يبد شيأ فى الأفق وبرغم وصول تحذيرات من قادة وحدات الدفاع الجوى لكتيبة المهندسين بقرب حدوث هجوم جوى، لم يخف العمال من وتيرة عملهم بل تضاعفت أعدادهم واندفعوا يحاولون إنجاز عمليات الحفر، اللحظات التى أخذ فيها قرص الشمس الأحمر يهبط بتثاقل مريع، ارتفع التوتر لأقصى مداه، فلما غابت ولم يظهر فى الأفق الطيران الإسرائيلى ساد الجميع الارتياح، وخفضت وحدات الدفاع الجوى من درجة استعدادها، عندما انتهى الجنود من تناول عشائهم غطوا فى نوم عميق .

فى الثانية عشرة ليلا سلمت كتيبة المهندسين الموقع الرئيسى لكتيبة الصواريخ، صاح الجنود طربا، وهللوا وكبروا وقفز سائقوا حاملات الصواريخ جريا إلى مقاعدهم أمام عجلات القيادة وهم على أحر من الجمر، وجميعهم يتنافسون ليكون لهم شرف السبق بإدخال الصواريخ إلى مرابضها، عندما خرجت أثني عشرة حاملة صواريخ إلي العراء، أصدر قائد كتيبة الصواريخ لباقى الحاملات بالتوقف والعودة للاختباء داخل الحدائق، وعاد يجرى ليقوم بالإشراف على تثبت وضبط منصات الإطلاق، فى ذلك الوقت كانت كتيبة سلاح المهندسين قد انتهت من صب خمس قواعد تبادلية، ومركز للتحكم والسيطرة، وأوشكت على الانتهاء من حفر المواقع الهيكلية .

-٢-

عندما دق جرس التليفون كان الرائد هشام يتولى مهمة ضابط مناوب اللواء، وعندما رفع السماعة انتبه على الفور، كان على الطرف الآخر اللواء جلال الغمرى .. قائد اللواء .

- ايه الاخبار يا هشام ..؟

- تمام يافندم .

– موقف الوحدات عندك ايه ..؟
– كله تمام .
– والتجهيزات ..؟
– تم الانتهاء من المواقع الرئيسيه والتبادليه وجار العمل فى المواقع الهيكليه .
– مفيش حاجه حصلت عندك .
– طائرتين من طراز سكاى هوك عبرا اجواء الكتيبه فى الظهيره.
– ايه .. كرر الرائد ما ذكره توا ولكن بالتفصيل، فسأله اللواء :
– الله .. موقف كتيبة المهندسين كان ايه وضعه ..؟
– الحفر كان جار يافندم .
– طب وهم ح يجولك ليه يافندى، هم ح يقصفوا التراب، قول لى.. الحاله عندك ايه فى الكتيبة.؟
– تمام يافندم .
– تمام يافندم .. رددها اللواء وهو يفكر .. يعنى انت رافع درجة الاستعداد ..؟؟
– لأ يا افندم .
أجاب منزعجا : لأ يا افندم ..!! طب موقف كتيبة المهندسين دلوقت ايه .. لسه بيحفروا
أجاب هشام بحماسة: ابدا يافندم على وشك صب ارضيات الدشم .
لحظتها تحول الحديث لغضب صاعق :
– جرى ايه يا احمد، انت معرض لقصف جوى ليلى فى خلال خمس دقائق، العقيد عادل فين، اكيد نايم على ودانه، عساكر اللواء وكل العمال والناس الغلبانه دي ح تروح منكم في داهيه، وانتم المسئولين عنهم، ارواح الناس مش لعبه ياحضرة الضابط، اجرى هاته على السماعة .. لا .. ابعت واحد يصحيه وروح انت ارفع درجة الاستعداد القصوى فى اللواء، هو انتم رايحين عندكم تتفسحوا .
– تمام يافندم .
– يلا بسرعه .. يلا غور من وشى .

فى خلال خمس عشرة دقيقة استقبلت شبكات الرادار العاملة مع الدفاع الجوى إشارات الإنذار الأولى لسرب من أربع طائرات من طراز فانتوم ٤، تسائل العقيد عادل صبرى :
– هو كتيبة الصواريخ جاهزه للاشتباك .
قبل أن يجد إجابة أسرع يحذر عبر الهاتف قائد كتيبتي سلاح الصواريخ والمهندسين بوجود طيران معادى، أصيب قائد كتيبة الصواريخ برعدة، وهو يرى كتيبتة وصواريخها طعاما شهيا لطيران العدو، كالمجنون أصدر أوامر بإطفاء أنوار المواقع جميعها مبقيا على أضواء المواقع الهيكلية .

– يلا ياوله، اصحى يابن الكلب انت وهو .
ثوان ترك عبدالله فيها مدفعه وانطلق يجرى يبث الروح المعنوية فى أفراد فوجه، عندما

تأكد من أن الثمانى مدافع مستعدة للقتال عاد يجرى نحو مدفعه، فى هذه اللحظة اتخذت طائرتين من السرب المهاجم وضع الهجوم الغاطس، فى لمح البصر اشتعلت السماء بطلقات المدفعية المضادة للطائرات، ثوان وتجاوبت معها الطائرتين ودوى الفضاء بانفجارات القنابل من زنة خمسمائة رطل وتفريغ الهواء، وقبل أن يتلاشى تأثير الهجوم الأول كانت الطائرتين الأخريين فى وضع الأنقضاض، عندما رحل سرب الطيران المعادى كانت السماء صافية وعلى الأرض الإصابات فادحة، إذ تم تدمير دشم المواقع الهيكلية بإصابات مباشرة، وبرغم ذلك تنفس قائد كتيبة الصواريخ الصعداء، لو شاهد الطيران مواقع الصواريخ، لو شاهد العربات وهى تصطف محملة بالصواريخ بانتظار انتهاء التجهيزات لجن جنونه، ولما توقف عن القصف ولعاود الهجوم سربا وراء سرب، ولم يكن ليرحل إلا وقد قلب هذه المنطقة رأسا على عقب والآن يجب الانتهاء من عمليات تجهيز الصواريخ قبل أول ضوء .

عندما جرى العاملين بالورديات الأخرى نحو الموقع، كان هناك ثلاثين قتيلا من المدنيين جميعهم من عمال التراحيل وضابط واحد هو الملازم منير عياد وآخر مصاب هو المهندس سيد بيومى، لم يكن هناك كثير من الجرحى سوى بعض سائقى عربات خلط الخرسانة، أما الجثث فقد كانت سليمة إلا من خيط رفيع من الدم ينسال خلف الأذنين نتيجة للتعرض لحدوث خلخلة مخيفة فى الهواء، لقد استلزم جمع جثث الموتى ساعتين، عندما انتهوا من إجراءات إخلائهم من المواقع، كان هناك الملازم صلاح عقل بصحبة فنيى الكتيبة يعيدون تخطيط الموقع الذى انهار على مبعدة عشرين مترا منه، عندما انتهى تقدم سائقو معدات الحفر الثقيلة، لم يكونوا بانتظار دعوة من أحد، على الأقل كان لديهم شعور دفين بأنهم ليسوا معرضين للقصف .

منذ الصباح الباكر كان ثلاثة من خبراء الدفاع الجوى السوفييت يقومون بالمرور على مدافع الوحدات للتأكد من ضبطها، وإعادة تشغيل أية أعطال جرت بها، أثناء الفحص سمع دوى انفجار هائل يأتى من منطقة المواقع ساد الارتباك ورفع الجميع ناظريه للسماء بحثا عن طيران معاد، وخاصة وحدات المدفعية، فترة طويلة مضت قبل أن يدركو أن الانفجارات ناجمة من قنابل موقوتة تم إسقاطها من العدو أثناء غارة الأمس، فى هذه المرة كانت الإصابات فادحة بين سائقى معدات الحفر .. استدعى قائد كتيبة المهندسين من فوره سرية إزالة الألغام لإزالة القنابل الموقوتة بالمواقع والبحث عنها، توقف العمل وساد جو من الإحباط، وقبل التاسعة سمع صوت نساء تزغرد، نظر الجنود حولهم بقنوط، على أنه لم تمض دقائق حتى انتشر خبر إنهاء كتيبة الصواريخ لتجهيزاتها وإعطائها التمام بأنها قادرة على التعامل مع الطيران المعادى .

كان عبدالله يتمم على تعويض نخيرته عندما صادف فى طريقه صلاح عقل .. صاح به

– الله ..! الف مبروك، من عسكرى لملازم مرة واحدة، طب ازاى ..

ضحك صلاح وهما يتبادلون العناق .

– ابدا .. بلعب شطرنج فى امان الله مع المقدم قائد الكتيبة، فوجئنا ببرقية للمقدم تطلب التحفظ على جنود الكتيبة من المهندسين المجندين الجدد وإرسالهم لمقر قيادة السلاح، قولنا ايه الموضوع، رحنا لقينا الدفعة كلها هناك، اربعين مهندسا، دخلنا وجدنا اجتماعا كبيرا من الرتب الكبيرة، شرحوا لنا الموقف الخاص بعملية بناء جدار من الصواريخ، قالو إنهم دعوا جميع شركات المقاولات فى مصر للمشاركة فى عمليات إنشاء القواعد، قلنا طب ودخلنا إيه، قالو إنتم الاصلح فى التعامل مع شركات المقاولات، كل واحد ينزل العباسية يشترى دبورة ويعلقها على كتفه، وكده دخلنا جنود وخرجنا ضباطا .

تألقت عين عبدالله :

– ياعم مش كده احسن ..

زفر صلاح زفرة حارة وتنهد :

– والله ياعبدالله ان كان فيه الخير ما كان رماه الطير، ادى ضابط من اكفأ الضباط مات النهارده نتيجة القصف، ولسه باقى المواقع الهيكليه، عن اذنك ياعبدالله، وراى شغل كتير النهارده .

– ازاى الاستاذة وفاء .

ضحك صلاح : ممتاز، وانت فين ..؟

– هنا على طول .

– ح نتقابل، سلام .. ورحل .

لم يره ثانيا، ففى مساء اليوم التالى غادرت كتيبة سلاح المهندسين الموقع بعد أن أنهت مهمتها، وقامت على تسليم المواقع الهيكلية لسلاح الصواريخ .

–٣–

كان قد تم الانتهاء من إنشاء النطاقين الأول والثانى لحائط الصواريخ، وفى أواخر مايو ١٩٧٠ صدرت الأوامر للواء بالتحرك باتجاه الشرق إلى جبل الشهابى، وطوال الطريق إلى المواقع الجديدة، كانت تحذيرات قيادة اللواء لقادة الوحدات، بأن معركة فبراير التى دارت بين اللواء والطيران الإسرائيلى شىء، والمعركه القادمة شيئا آخر، الآن يبذل الطيران المعادى أقصى محاولاته لمنع إنجاز الحائط وقيامه، وأن الدفاعات المصرية تقاتل بشراسة وتبنى القواعد تحت القصف المتواصل، وهو يستخدم أفضل طائراته ويكثف القصف اليومى بشكل جنونى، مائتا طلعة فى اليوم يستخدم فيها قنابل زنة ألف رطل، إضافة لقنابله الموقوتة وقنابل تفريغ الهواء، المعركة القادمة معركة مكشوفة، ليس ثمة أشجار للمانجو وليس ثمة حدائق فاكهة، ستصل قوات الدفاع الجوى أولا هذه المرة لتأمين سماء الموقع، ثم تبدأ كتائب المهندسين عمليات الإنشاء فى نفس اليوم فورا، لهذا يجب أن تنتهى الوحدات من تجهيزاتها فى أسرع وقت ممكن .

كلما زادت التحزيرات كلما ازدادت الوجوه صلابة، الموت، ماهو الموت ..؟ سؤال لم يكن يراود ذهنه على هذه الشاكلة، كان السؤال يصاغ بكيفية أخرى، الموت، شيء حقير، لا ينبغى التفكير فيه على هذا النحو، لكن إذا كان على الإسرائيليين أن يهاجموا يتعين إذن أن تكون هناك مقاومة شرسة .

يتعين عليهم أن يعلموا أن فى هذا الوطن رجالا لا تخاف الموت، رجال لا تأبه بالموت فى سبيل الدفاع عنه وتحرير أرضه المدنسة باحتلالهم لها، السماء الآن أشد صفاء، وإن غدا لناظره لقريب .

قبل شاطىء البحيرات المرة بخمسة وعشرين كيلو مترا أخذت الشاحنات تصعد المدقات الوعرة، لتبات الجبل بصعوبة، مبطئة من سيرها حتى عسكرت على مبعدة خمسة عشر كيلومترا من شاطىء البحيرات، كان كل شيء واضحا فى العراء، مجموعات الإنشاء المدنية، كتيبة المهندسين، تلال الزلط والأسمنت آلاف الشكائر الفارغة التى تم استيرادها من الهند التى ستستخدم بعد ملئها بالرمال لسند وزرات قاذفات الصواريخ، السرعة فى اختيار مواقع البطاريات، السرعة فى ضبط مدفعية وحدات الدفاع الجوى، أشباح المهندسين والمدنيين والعسكريين مع قادة كتيبة الصواريخ والخبراء السوفييت، تتنقل فى ساحة الميدان، تختار أماكن مواقع القاعدة الرئيسى والتبادلى والهيكلى، التخطيط ، هدير البلدوزرات يصم الآذان، مئات من الجنود العمال تشرع فى بناء الخنادق لحمايتها اثناء القصف، ثم تندفع تملأ الشكائر بالرمال، وتشونها حول المواقع المختارة لحين الانتهاء من حفرها، جنود وحدات الدفاع الجوى تغفوا قليلا قبل بزوغ الصباح بعد أن أعطيت التعليمات لقادة الوحدات بالتنبيه على الجنود كافة .

.. محتل من الفجر، أول ضوء حتى الساعة الثامنه مساء، ليس هناك سوى أربع ساعات نوم، والباقى تغير السترة، حلاقة ذقنه وربما غسل جواربه .

فى الثامنة صباحا برزت النقاط الصغيرة على شاشة الردار .

صاح محمود : ولاد الكلب، مش ح ناخد نفسنا .

أجابه نبيل : عرفوا ازاى .

قال المبروك : يهود يابا، ما تخفاش عليهم دبة النمله .

قاطعهم وديع بصوت هادىء :

– يا أخونا ده شيء محسوب، لو أنا قائد فى غرفة القياده الاسرائيليه، وحاطط قدامى خريطه لكل قاعدة صواريخ تم بناؤها لحد النهارده ، لازم أتوقع القواعد اللى اتبنت واللى لسه ماتبنتش ح تكون فين .. ضحكوا .

– العالم العلامه والحبر الفهامه، وديع ميخائيل .

أجابهم : لأ .. العارف بدين الله، بديع الزمان الهمذانى .

نظر إليه بغضب : ح تتريق يا جرجس يا عضمه زرقا يا ابن الكلب يا نصرانى ..

الاهتزاز النفسى الخفى لم يلاحظه أحد، ولكن الصدمة التى ألجمت الجندى الحديث الانضمام للوحدة لتعويض خسائرها فى الأفراد، جعلته يعود لصمت غاضب، كان ضئيل

البنية يرتدى عوينات للنظر حاصلا على دراسات عليا فى الفلسفة، ولم يكن ليفكر كثيرا فى سلوك عبدالله تجاهه لأن الأخير عاجل الطاقم بنداءته التى تمهدهم نفسيا للاشتباك .

– يلا يا واد انت وهو، يلا يابن الكلب .. واد يانبيل .. واد يانبيل.. اضرب .. الحمم التى التهبت بها السماء والقصف الذى عم الأرض، انقضاض الطائرات الثمانية، اثنين تلو اثنين، سبطانات مدافع الشيلكا تدور حول نفسها دورات محمومة، الحرب، سيل طلقات المدافع الثقيلة المضادة للطائرات، الانفجارات المدوية، الجنود والعمال يعدون بجنون نحو الخنادق، يختفى من فوق مسرح القتال كل أنواع الحياة، وتبقى وحدات الدفاع الجوى تقاتل حربا ضروسا غير متكافئة بين خصمين، أحدهما يصل بنصل سيفه الباتر إلى قلب خصمه يدمره، والآخر ينمو من جديد لا ينثنى عن العودة للحياة مهوشا خصمه بسلاح لا يطاله قط، وكأنه لا يملك سوى أن يلقى فى وجهه حفنة من الغبار كى يخلع عنه قدرته على دقة الإصابة، وتنتهى إغارة للعدو، يخرج جنود سرية إزاله القنابل الموقوتة لتأمين المواقع، ثم يخرج العمال المصريين بعدها كالنمل الحاشد، مسارعين بالعودة ليكملوا ما بدأوه، لاتمنعهم شدة القصف، ولا حجم الخسائر، ولا الموت الذى طال رفاقا لهم كانوا يتنسمون الحياة منذ قليل، ولا الأشلاء التى تتناثر فى المكين مختلطة بالدم القانى .

وتبدأ وحدات الدفاع الجوى فى حصر خسائرها وتعويضها انتظارا لغارة جديدة، الذخائر، إعادة ضم الوحدات، تقفيل زوايا الضرب، إعادة ضبط المدافع، ضبط المدى والرؤية، هيدروليكية القواعد، تنظيف السبطانات، مطابقة طبة ضرب النار، مفاتيح السلاسل، مراجعة دوائر الزيت، إعادة ضبط ربع دائرة المدفع وميزانيته الأفقية والرأسية، وأخيرا معنويات الجنود، الجرحى أولا، ثانيا جمع أشلاء القتلى، مدح ضباط معدنهم من معدن الرجال، يدورون كالنحل على المدافع يباشرونها تحت القصف، إصلاح وإعادة ضبط أي عطب بها، رفع الروح المعنوية للجنود، متابعة الذين يتميزون بالشجاعة وأولئك الجبناء والمتخاذلين، السب والسخرية لاولئك الجبناء الذين قبعوا أثناء الغارات في حفرهم البرميلية، ترتجف قلوبهم خوفا حيث الموت الأسود أقل احتمالا، يسارعون بالاختباء منه، يعتقدون أن الجميع منشغل عنهم بالفعل المجنون، الذى يدعى الحرب وأن أحدا لا يظن فى وجود هارب مختبىء فى مكان ما.

خمسة عشر يوما تحت القصف اليومى .. تحمل لهم طائرات العدو ملاك الموت اليومى أربع مرات .. خمسة عشر يوما من الجحيم وقاعدة الصواريخ تبنى بعزيمة النمل تتضح صورتها أمامهم، ثلاث وزرات لقانفات الصواريخ، إحدى عشرة حفرة تم الانتهاء من حفرها، لكن لماذا التوقف عن عدم استكمالها .

– تم قصف الشاحنات التى تحمل الخرسانه السابقه الصب، وهى فى طريقها من المصنع بالقاهره الى الجبهه ..

أخرج أحدهم صوتا قبيحا : والعمل .؟!

العمل، توقف العمل فى ساحة الميدان، أو البدء فورا فى حفر المواقع التبادلية لحين

وصول الأسقف الخرسانية السابقة التجهيز .

العمل، القتال ضد العدو لمدة ثلاثة أيام مجانا، القتال ضد العدو ليس فقط مجانا، ولكن على أفواج الدفاع الجوى أن تدفع ثمنا غاليا .

فى اليوم الثانى عشر بلغت الخسائر ثلاثة أفواج كاملة تم محوها من الوجود .. اللعنة .. أما الفوج ٨٩ فقد كانت خسارته خمس بطاريات .

- نحن نتآكل .
- ما هى خسائرك ..؟
- ٦٥ ٪
- ماذا ..؟
- كما قلت لكم، سيادة اللواء، الموقع كله معرض للفناء .
- اليوم تصلك التعزيزات .

همس وديع ميخائيل : الليل ما اعظمه .. لو يتحول اليوم كله الى ليل لا تشرق شمسه .

- وامتى توصل التعزيزات .
- فى الليل .
- طب ولو لم يكن هناك ليل .
- كان علينا ان نعود الى منازلنا زى الغنم الضال مستسلمين للعدو، لولا الليل، ماكناش نقدر نتحرك من اماكننا، ما كان هناك صمود او اعادة بناء للجيش، ما كان هناك حائط للصواريخ، كل كائن فى الدنيا يقدر يقاوم لو اراد، كل اللى يلزمه عقله ، ويدور حوله جيدا، ثمة شىء مختف، لو شغل عقله واجاد البحث ووجده، توائم معه، لازم يتمكن من المقاومة ..

قال نبيل : ايوه ياعم اتفلسف، مانت فلسفه ..

هز رأسه نفيا : دى بدهيات الصراع من اجل البقاء ..

قال عبدالله : من سبعه وستين واحنا نحتمى بالليل، امتى نخرج للنهار، ردد لنفسه .. مستعجل على النهار يابن عبد الجليل .

- مش المره دى، المهم وصول التعزيزات، إذا لم تصل فى هذا الليل ح يكون صباحنا اسود من ليل العفاريت، ح يكون صباح من جهنم .

فى الصباح عندما جاء الطيران الاسرائيلى كان ناعم البال، لم يكن يتوقع أن اللواء استعاد خسائره ..

قال وديع ميخائيل : ازاى تعرف يا عبدالله .

- احساس داخلى، شعور ياللى ماعندك شعور ولا احساس .
- معاك حق .. انا فاهمك .
- ايوه يا جرجس، انا بتعامل مع الطيران من زمن، اشعر بالطيار فى طيارته، اتخيل شكله منظره، افهم شعوره ، هو عايز يقتلنى، عايز يزهق روحى، ما يعرفش إذا كنت ح اموت بطلقة فيكرز تنزع عن القلب الحياه، او ح اموت بشظيه تهشم الدماغ او تدخل

البطن تمزق الامعاء تخرجها من مكانها، عمرك يا جرجس فكرت تخرج امعاء انسان من بطنه، عمرك فكرت ان الامعاء في مكان غير هذا المكان، هو ما يهموش، ياه، مش انت فيلسوف، آهه، فكر في دى، انا مش قادر اموته، انا حاسس انى ضعيف، صحيح كل شوية يكلمونا عن المنظومة الى تعمل فى نسق واحد، لكن كلام، ايه قيمة الكلام امام الحقائق،واحد بيرمى عليك الفين رطل من القنابل وانت كل اللى تقدر عليه، تهشه بمنشه زى ما تكون بتنش ذباب، هه هه ها بس هو مش دبانه، ده فانتوم اف - ٤ وسكاى هوك .. انا زهقت ياجرجس، نفسى اتخلص من عجزى، نفسى اشعر بأنى قادر على الانتقام، نفسى اشعر بالطيار الاسرائيلى وهو فى كابينته بيرتجف وهو بيقترب من مدى قاعدة الصواريخ ، يعمل لى الف حساب، يبدأ يتخيلنى كما اتخيله، انت فاكر انه بيشعر بينا، ابدا، احنا حشرات قدامه، يدهسنا بجبروت واحيانا باهمال، لكن للاسف لا يسمح إلا لحملة المؤهلات العليا بالالتحاق بكتائب الصواريخ، الله يلعنك يا عبدالرحيم يا خوى ولن اكف عن لعنتك، انت اللى منعت عنى فرصة التعليم، تعرف يا جرجس كان افضل لك تكون فى سلاح الصواريخ، عموما بعد ما ننتهى من بناء هذه القاعده ح اقدم طلبا رسميا بالالتحاق للعمل على مدافع الشيلكا، ايه رايك يا جرجس تقدم طلب معاى، كان عبدالله يخاطبه الآن مباشرة، ولم يكن ليقبل وديع ان يقيم علاقة على هذا النوع من الدونية.. أولها استلاب اسمه .

- انا مش اسمى جرجس سيادة رقيب عبدالله .

- انت زعلت، لأ انا بضحك معاك ..

- مش ع طول، جرجس جرجس، انا لى اسم، ازاى وبأى حق تسحب عنى اسمى .

الجدية التى تحدث بها وديع، انعكست على عبدالله بالشعور بالذنب مما أصابه باضطراب .

- ع العموم انا اسف، حد فى بطاريتى يزعل منى، اسألهم، ده الموت بيحوم حولينا بمنجله، اوعى تكون زعلان، هو الموت بيفرق بين مسيحى ومسلم، ده الوطن فى خطر يا خوى، فى محنه، يصح نكون اخوه، وانا غلطان، راسك ابوسها .

اليوم السادس عشر.. يوم مر.. هل رأى من أخرج طائر الموت من قمقمه مايفعله، هل رأى العابثين بأرواح الضحايا أشلاءهم المبعثرة هل رأى القادة ماذا تدفع الضحايا ثمنا لجهلهم، هل رأى عبدالحكيم عامر وقادته، جيشه الممزق فى صحراء سيناء قبلما يخوض الحرب وبعد الهزيمة، لو فعل لكان يجب أن يمرغ وجهه فى دمائهم، أن يأكل عفن ودود شباب فى ربيع العمر، تآمر هو والموت وأودى بحياتهم، عندما أراد العودة لقيادة الجيش، آهه، كان يرى الذين ماتوا بلا ثمن فى أرض سيناء، شوية نمل، حشرات، شغيلة نحل لا تساوى شيا لأن متوفر منها كتير وببلاش، الفلاحين، هه، عبى منها وانت مطمئن فى المخالى والقفف وارمى بيهم فى الفلا بإهمال .

ماهى طبيعة النظام الذى أبقى وحافظ عليه، وأيه مبررات سانجة قدمت اعتذارا على بقائه على رأس جيش فى حالة حرب متواصلة منذ ١٩٥٦، خمسة عشر عاما ينخر السوس

والحشيش والمخدرات والفساد والشللية والعسف والاستبداد فى الجيش، وأمن قومى تقوده قيادة سياسية تعلم جيدا أنها قد شنت لتوها حربا على العالم فأصبحت معرضة لخطر داهم، لحرب ضروس، هذا وطن لا يحترمه قادته، هذا وطن لم يتعود أن يحاسب أحد عن جرائمة، من يدفع ثمن جهلى، من يدفع ثمن إنهيارى وهزائمى، من يدفع ثمن فقرى، من يدفع ثمن نهبى المنظم، من يدفع ثمن إذلالى وذلى وضياع الحياة منى .

اليوم السادس عشر .. يوم مر .. ماذا جرى بالضبط، لماذا جاءت اللوريات المحملة بقطع الخرسانة السابقة الصب بعد الفجر بقليل، لماذا تأخرت، لماذا تأخر ظهور الطيران الإسرائيلى هذا اليوم بالذات، هل تم رصد اللوريات فى الطريق، من يعلم.. ما إن ظهرت اللوريات حاملة القطع الخرسانية حتى ساد هياج الموت، لقد اندفع كل من فى المواقع من عمال الترحيلة المئات من الرجال والنساء، ومعهم جنود كتيبة المهندسين والعشرات من جنود كتيبة الصواريخ الذين قتلهم الملل وهم يتحرقون شوقا كى تبدأ القاعدة فى العمل، حتى احتياطى وحدات الدفاع الجوى اندفعوا لمواقع العمل يساعدون فى تفريغ اللوريات، حمل الوحدات الخرسانية، تركيبها، الأنتهاء من الحفر، ملأ شكائر بالرمال، ومن لم يجد عملا وقف يساعد بالكلام والنظر، وعلى حافة الهضبة العليا لجبل الشهابى، وقف جنود الأفواج العاملة على أسلحة الدفاع الجوى ينظرون فى ابتهاج لمارد النمل الذى خرج من حفرته .

- نقاط على شاشات الرادار.. نقاط على شاشات الرادار..

عبارة التحذير التى صدرت عن جندى يتبول .. من جرى إلى أين؟ .. من بلغ مدفعا وأخذ وضع الاستعداد.. من وضع إبهامه على زناد السلاح.. و.. وضغط.. أذ بدأت المذبحة.. طائرتين من طراز إف-٤ انقضوا فى هجوم غاطس، فوق مواقع الإنشاء ارتفعوا فجأة فى هجوم نموذجى، لا يلقى مقاومة أرضية، فى زمن تعرض قليلا للغاية، مطلقين جحيما من قنابل النابالم فى إصابة مباشرة للأعداد الغفيرة، تلك التى تعمل، وتلك المحلقة حولها بغرض المشاهدة، أو المساهمة بالحديث.. لم يفق أحد من الصدمة قبل قيام الطائرتين الأخريين بقصف مماثل، وبينما عادت الطائرات للطيران على إرتفاع منخفض عائدة للشرق، انطلقت صليات المدفعية المضادة للطائرات، ضعيفة، ثم مالبثت أن هدرت بعنف فى سماء صافية ليس بها طائر للصيد، دقائق طويلة ما لبث أن أخذ دوى المدفعية فى الخفوت شيئا فشيئا حتى صمت، وفى ساحة ميدان الحرب حيث مذبحة من البشر، ما الذى حدث، إذ اندفع كل من فى المواقع يجمع فى أشلاء مائة وستين جثة أحرقها النابالم وشوه معالمها، لكن المدافع مالبثت أن دوت ثانية، كانت تستقبل السرب الثانى المهاجم لخصم فى حالة اضطراب بالغة، هذه المرة قصفت الطائرتين مواقع الإنشاء ثانية، ملقية بقنابلها المفرغة للهواء، وتلك الموقوتة لترتفع الخسائر إلى ثلاثمائة وسبعين جثة، الطائرتين الثانيتين تأخروا فى الصعود من طيرانهم الواطىء، ليواصلوا التقدم للأمام صوب وحدات الدفاع الجوى ذاتها، ثوان قبل قصفهما بقنابل النابالم .

جهنم الحمرا، أربع طلعات متواصلة من القصف بالنابالم، خسرنا فوجا أصيب إصابة مباشرة، وخسر فوجنا بطاريتين وتلاتة بطاريات فى أفواج أخرى .

متى يأتى الليل، لو ينشر الله الظلام على صفحة الشمس، اللعنة، نحن نخسر بشراسة، مدافع انثنت مواسيرها وانحنت باتجاة الأرض بفعل النابالم، ذاب الحديد فكيف باللحم الآدمى، السترات الكاكية المخلوطة باللحم والدم، هناك على ساحة ميدان المعركة، حقل الكتان الذى بزغ فجأة منزرعا فى لحم عمال التراحيل، حقل الكتان الدموى المخلوط بلحم ودم عمال التراحيل والطرح السوداء والملابس الزاهية لعاملات التراحيل، مذبحة، سيقانهم التى لا تزال تحمل الخلاخيل النحاسية الرخيصة، السترات الكاكية المخلوطة باللحم والدم، أقدام وسيقان متناثرة مشوهة وأجساد عارية منحنية انحناء الأجنة فى بطون أمهاتها، حقل الكتان الدموى والطرح السوداء والسترات الكاكية لرجال وشباب ونساء صغيرات السن، لحم وعظام، قطع مختلطة بالرمال، تتناثر فى أرجاء الصحراء .

اليوم السادس عشر مر .. انتظرنا نهايته على أحر من الجمر، وبقينا ننتظر فى قدوم الليل طوق نجاة، فلما جاء أطل علينا هم الصباح، ماذا سنفعل، ماذا ستفعل كتيبة المهندسين .

فى منتصف الليل جاءت الأوامر باتخاذ مواقع بديلة لتغطية الموقع التبادلى، وكان علينا أن نفعل ما كنا نظنه نجاة لنا، وتمويها على الطيران المعادى، كان هناك عدد من الحفر النموذجية الناجمة عن القصف يمكن استخدامها دشما للملاجىء .

فى الصباح وقفنا نشاهد الموقع التبادلى فى حيرة غير قادرين على التصديق، كانت البلدوزرات قد أتمت حفر وزرات القاذفات وموقعى الرادار، وتم تأمين الجنود و لم تمر ساعة، حتى كان كل الجيش نمل يعمل من جديد بدأب فى صف وحدات الخرسانة السابقة التجهيز الخاصة بالملاجىء، على حين كانت البلدوزرات تقوم على حفر الملاجىء الباقية، لم يأت ملاك الموت اليوم، يبدوا أنه كان مشغولا بمهمة أخرى فى مكان آخر على الجبهة، فى الرابعة ظهرا كانت تجرى عمليات الردم وعمل طبقات الحماية للملاجىء من الخرسانة المصبوبة موقعيا، وفى الثامنة مساء كان العمل قد انتهى منها، بينما كان العمال لا يزالون يقومون بالانتهاء من سند جوانب الوزرات .

فى الثالثة صباحا جاءت الأوامر بالعودة إلى المواقع الأصلية قبل أول ضوء، وتم إظلام الموقع التبادلى الذى أصبح منذ الآن الموقع الرئيسى، شريطة ألا يتنبه العدو لوجوده ولا يبدو أى أثر للحياة فيه، حتى تنتهى كتيبة الصواريخ من تجهيزه للتشغيل، فى الساعات الأولى من الفجر قامت سرية الإشارة بمد خط تليفونى بين الموقع وقيادة وحدات الدفاع الجوى لتحذيرهم قبل وقوع الغارات، للتمكن من الاختباء الفورى .

-٤-

اليوم الثامن عشر والتاسع عشر، يومين اقتطعوا من الجحيم، إذ ألقى على خط الجبهة عشرين ألف طن من المتفجرات، ما يساوى حمولة قنبلة ذرية، لقد مضى اليوم الأول بأعجوبة، إذ لم تتوقف الغارات طوال اليوم، وعندما جاء الليل تنفسوا الصعداء، أن لنا أن نستريح قليلا، عندما تمددنا فى الخنادق قال محمود:

- جهنم الحمرا يا بوى، شاى اسود يا عبدالله .

استطرد المبروك: اسود من الحبر، عل هذا اليوم يفوت على خير .

قال عبدالله: منين ييجى الخير والطائرات ترمح فى السماء، تصرخ تنادى هل من مبارز، حتى ملت السؤال، كل اللى نعمله نغبشه فى السما .

قاطعه نبيل: قوم اخرج لها، اركب حصان ابو زيد، طير بيه فى السما، ضربة سيف هنا وضربة سيف هناك، ينتهى الموضوع، نرجع بيوتنا ندعى لك، الله يسلمه عبدالله .

- بتتريق علىّ يا ابن الكلب .
- ابدا .. بقول الصدق .
- شايفنى هفيه .. مسخرة اهلك .
- ما تجبيش سيرة اهلى واحترم نفسك .
- قصر لسانك لاحسن اقوم اضربك بالبلغه ..

فتح نبيل فاه غير مصدق: تضربنى بالبلغه، ده كلام عيب ما يخرجش من انسان مؤدب .

- واضرب اللى يتشدد لك .

تابع عبدالله حديثه وهو يقصف نبيل بإحدى أوانى الطعام، حاد عنها نبيل بصعوبة وفى لحظات كان يمسك فى عناقه، وبرغم تدخل الباقين إلا أن كليهما تبادلا اللكمات والركلات بعنف حاد، وعندما استطاعوا أن يبعدوا كل منهم عن الآخر، وكانا لا يزالوا يرغبون فى العراك بشدة، صرخ عبد الله فى المبروك وابورحاب:

- الكلب كان نايم على المدفع النهارده، بيتعولق، الطاقم كان ح يموت بسببه .

رد نبيل غاضبا:

- انا يا كداب ولا انت. انت اللى وجهت المدفع شمال، اضرب على ايه ..؟
- وانت مالك .. تنفذ الاوامر وبس .
- ما نفذش اوامر مش فاهمها .
- الكلام ده تقوله بعد انتهاء المهمه، اما اثناءها فموضوع ثانى، مش عاجبك تترك البطاريه .
- اما تشوف حلمة ودنك، انا اللى ح انقلك .

ما كانا ليتوقفا لولا سماع تحذير بهجوم جوى إسرائيلى، قام الجميع يجرون إلى مواقعهم، كانت الساعة الواحدة ليلا عندما بدأ الهجوم الليلى للعدو، فى البداية لم يفهم أحد شيئا، إذ أن الليل قد تحول على حين فجأة إلى نهار، شوهدت مواقع البناء واضحة

الآن، البلدوزرات الثلاث ، وزرات قواذف الصواريخ، وذرتا الرادار، ملاجىء الجنود ومقر القيادة والسيطرة ولم ينته الحفر بهم، كل شىء كان واضحا وخاصة عشرات من العمال وعاملات التراحيل، والجنود والمهندسين وهى تجرى نحو الخنادق تتقى الرعب القادم حاملا لهم الموت، فى المساء كانت القنابل المضيئة تحيل المواقع لبقعة من ضوء الشمس، ما الذى يجرى هناك، كان عدد من الجنود يجرى حاملا أزنات الطعام للموقع التبادلى، عندما بزغت السماء بالضوء أصيبوا بالذعر، كانوا على مبعدة عندما تولتهم طائرتين انتهوا من القصف، ظلتا تتابعهما بطلقات الفيكرز، تلقطهما فردا وراء آخر، هل شاهد الطيار ازانات الطعام فانتبه ألى أنه ثمة من يحتجاها ، أم أن لعبة الموت واللهو باصطياد البشر كانت أشد نشوة له من أن يعى ما يجرى فى الخفاء، هل سيكتشف الطيران المعادى الموقع التبادلى، لقد انتهى منهم جميعا خلال ثانية، قنبلة تفريغ الهواء، أمثل سلاح للذين يتلهون فوق سطح الأرض، أما ساكنو الخنادق فلهم أنواع أخرى من مناجل الموت .

-٥-

تواصل القصف من الواحدة وحتى الثالثة صباحا وتمدد الجنود يريحون أجسادهم المنهكة على الرمال، دون أن يغادروا مواقعهم تاركين فردا على الرادار لتلقى إنذارات الطيران المعادى، فى الرابعة جرى إنذار كاذب قام له الجنود كالمجانين، ولمدة ساعة كاملة اختفت فيها النقاط الصغيرة من على شاشات الرادار ولم يظهر الطيران المعادى قط، قبل أن يعود الجنود للنوم ثانية، تحركوا إلى أول خطوط تخزين الذخيرة على بعد مائة وخمسين مترا، لعشرين دقيقة قام الطاقم بنقل خمسين صندوقا من الذخيرة وكان وزن الدانة ستة وثلاثين كيلو جراما، طوال عملية النقل كان وديع متأخرا عن بقية الجنود، حاول جنديين من الطاقم ان يسخرا منه، لكن محمود زأر فى وجوههم بعنف .

- اخرس يا ولد انت وهو .. وتابعه نبيل مستوحشا .

- جرى ايه يا (.....) امك، هو ده وقته .

لم يفهم عبدالله لماذا أثاره تدخل محمود ونبيل بهذه الشراسة للدفاع عن وديع، كان غاضبا متوترا، حدث نفسه أنهم أحرار ووديع ليس ذنبه ضعف بنيته، لكن، لكن ربما يلزم أن يفهم ذلك، فى المرة الأخيرة دفع عبدالله وديع بشدة عن الصندوق الأخير مستضئلا حجمه وضعف بنيته، نظر اليه وديع فى صمت حزين، غمغم لنفسه يجب نقل الذخيرة بأسرع وقت أولا، قبل أن يتمدد للنوم، حدث عبدالله نفسه.. الذخيرة.. الذخيرة.. لم يبق فى الخط الأول للإمداد سوى خمسين صندوقا، يجب نقل إمدادات من الخط الثانى للخط الأول، لو استمرت الحال هذا الوضع سيحدث عجز بالذخيرة .. قام يجرى باتجاه مقر القيادة، فى الطريق ناداه الملازم أول مدحت، حدثه عن مخاوفة لكن مدحت لم يع خطورة الموقف واكتفى بطمأنته بأنه سيتولى إبلاغ رئيس عمليات الكتيبة وقال محذرا:

- ارجع لبطاريتك .. اوعى تغادر موقعك .

لكن الوقت لم يمهل مدحت لنقل تحذيرات عبدالله عن الذخيرة لرئيس العمليات، إذ أن الطيران الإسرائيلى عاد للظهور من جديد، جرى مدحت كعادته نحو حفرته البرميلية، وطوال القصف الذى استمر حتى الساعة الثامنة مساء لم يرفع الملازم أول مدحت رأسه من خندقه، وكلما عنّ له أن يبلغ أحدا بقرب نفاذ الذخيرة عاجله القصف الحاد، وما كان القصف الحاد يعوقه عن الذهاب لمقر قيادة اللواء، لكنه الخوف القابع تحت سلسلة الأعذار الواهية، ثمة أحد سيقوم بالإبلاغ، من المؤكد أن عبدالله قد أبلغهم، لكن ان تغادر الحفرة .. عمرك !!.. مؤكد أن واحدا من ضباط المدفعية أبلغ بحدوث عجز فى الذخيرة أثناء مروره، لكنك أحد الضباط الأثنين، مؤكد إذن أن الجنود أبلغوا الملازم محسن عبد القادر، محسن عبد القادر مات فى الشلوفة، اهرب بحياتك إذن .

لم تمض خمس عشرة دقيقة حتى أطل الرعب من جديد، كان الطيران المعادى يمارس القصف بجنون، وكانت القنابل زنة ألف رطل، وتفريغ الهواء شديد التأثير، ولم يكن هناك خيار أمام وحدات الدفاع سوى المقاومة، اليأس..!! ما قيمته.. الموت هو المصير الأكثر احتمالا وقبولا، فى الوقت نفسه، كان عبدالله يشعر يقينا أن الملازم قابع فى حفرته البرميلية، وأنه لم يبلغ أحدا بالكارثة المقبلة، عض نواجزه فى قلق مرعب ملتصقا بالفولاذ مصوبا تجاه سرب الفانتوم القادم وهو يغمغم، يا جبان يا ابن الكلب، أقسم بالله العظيم لو حدث عجز فى الذخيرة لأكون ضاربك بالرصاص .

فى الثامنة صباحا وبين الدقائق القليلة التى يتيحها انتهاء الغارات جرى الطاقم ناحية خط الإمداد الأول للذخيرة.. لم يكن هناك شىء ..

– يا اولاد الكلاب.. مين استولى على الاحتياطى بتاعنا ..

قال وديع: الظاهر ان خط الامداد الاول نفذ من باقى البطاريات .

أجابه بغضب غير متقبل تدخله فى الحديث، وكأنه السبب:

– ولاد الكلاب.. ده احتياطينا.. يروحوا ياخدوا من خطوط الامداد.

فكر وديع، ربما يخاف إن أخذ مركزه، سأوضح الأمر. قال نبيل بلهجة تلطف الجو: مش مهم يا عبدالله مين اللى ياخد، احنا خدنا هم اخدوا، كلها فى النهايه طلقات بتطلق على العدو ..

صرخ فى عنف وعصبية بالغين: انت مش فاهم حاجه، مين ح يقعد يحَمّل الذخيره من الخط الثانى، عارف يبعد قد ايه ياحمار.

نظر إليه نبيل مصعوقا بينما استطرد وهو لا يرى ملامح الامتعاض تعلو وجوه الطاقم:

– صنايق احتياطي الذخيره على بعد ثلاثمئة متر، مين اللى ح يشيلهم، هه، قولى يا فالح .

لم يجبه أحد وإنما استدار محمود يتبعه بقية الطاقم .

– يلا يا رجاله نجيب الذخيره، مفيش وقت .

فى هذه المرة تبعهم متخاذلا، حدث نفسه غاضبا.. فاكرين نفسكم جدعان، فاكرينى مرّه، أبدا يا غلابه.. ولم يستطرد فقط كان يسيطر عليه شعور حاد بارتقاب الهزيمة .

فى هذه المرة لم ينزل عن مكانه بالمدفع، لم يجر كى يتابع بقية البطاريات يصلح من

أعطابها، يعيد ضبطها، كان ثمة شعور حاد لديه بأنه يفعل أشياء كثيرة، أكثر من الجميع، هل كان هذا هو السبب الحقيقى .. لا .. هذه المرة لم يكن موقنا من النجاة، كان الفوج يعمل الآن بآلية، دون حماس، وبدا أن الطائرات الإسرائيلية صارت أشد توحشا .

– طبعا يابا، دى أنواع جديده من الطائرات .. وطيران ما بيخلصش.

– اسرائيل حد يقدر عليها .

كان الفوج ينهار، لم يبق سوى أن يقفز جندى ليختبىء فى دشمة ما كى يتبعه الجميع، لكن هذه بطارية عبدالله عبد الجليل، لم يحدث لها هذا منذ أن طابق لأول مرة طبة ضرب النار ولقم مدفعها وانطلقت الصليات تزغرد فى السماء، قال بصوت خاله غير مسموع :

– ح نموت..

لم يجاوبه أحد، كان نبيل ومحمود يقودون الطاقم باستماتة .

فى المرة الثالثة التى ذهبوا فيها لإحضار الذخيرة من على بعد ثلاثمئة متر لمح الملازم مدحت يطل من على حافة خندقة، جرى نحوه وقفز إليه ممسكا بخناقه، عندما حاول بعض جنود الطاقم أن يتبعوه لفك الاشتباك بين ضابط الفوج وبينه، قال نبيل بحزم:

– كله يحضر هنا.. يلا.. يلا.. عايزين نجيب ذخيره يا رجاله، اللى عايز يعيش يطلع يجيب ذخيره، اللى عايز يموت يروح يشوف شغلانه يلعب فيها، عندما عادوا وجدوه فى انتظارهم جالسا على مدفعه وعلى وجهه ابتسامة صفراء ..

قال يحدثهم جميعا ولم يكن هناك من يسمعه أو يهتم به:

– ما ضربتوش.. قرفص فى قاع الخندق وغطى راسه بايديه وبكى، ح ضربه.. قال كفايه اللى انا فيه يا عبدالله.. رجعت.. قلت لنفسى ح تضرب مرّه. لم يجاوبه أحد وإنما جلسوا ووقفوا فى مواقعهم وعلى وجوههم الصمت والترقب والشعور باقتراب الكارثة، وعندما بدأ الهجوم للمرة التاسعة منذ فجر اليوم كان ستار النيران ضعيفا والوحدات تتهاوى .

فكر وديع.. ماذا يحدث بالبطارية والفوج.. هو.. هو عبدالله الذى يشيع فيهم روح انهزامية.. لم يدر بالضبط ما الذى دفعه للقول أثناء إحدى لحظات التوقف بين الغارات.. إن ظهور صواريخ سام ٣ سيخفف العبء عن الوحدات.. ثارت دهشته عندما تحدث عبدالله غير مصدق:

– وامتى بقى ح تظهر سام ٣ ..؟

– حالا .

– ح تخرف يا جرجس ..

نظر له بغضب وهو يقول لنفسه، إنه فقد الأمل، إعطه له ثانية وإلا سيدمر الفوج. كان وديع كبيرا الآن .

– جرى ايه يا رقيب عبدالله.. انت خايف ولا ايه ..

وكأن حية لدغته وبدا أن معركة ثانية ستبدأ ..

صرخ يدافع عن كرامته: انـــــــا ..!

– ايوه انت ح تضيع الفوج، كتيبة الصواريخ استلمت مواقعها ليلة امس، وح تشتغل

خلال وقت قصير.. ولحين ما تتعامل مع العدو لازم نوفر لها الحمايه .

– وقت قصير .. انت بتحلم .

– بحلم ما بحلمش، مش ده المهم، لو تقاعسنا لحظه عن احضار الذخيرة من جهنم الحمراء ستطاردنا طلقات الفيكرز كالذئاب، فاهم، الطائرات بتقصف وترجع لقواعدها، لكن لو بدرت بادره واحده من وحدات الدفاع الجوى باننا سلمنا، او ان ذخيرتنا نفذت سنفتح للطيارين شهوة القتل، سيلتقطونا كالحشرات الضاله. كان عبدالله يستسلم له. فاستطرد يحدثهم بصوت منخفض بثقه تنتقل إلى بقية الطاقم فى رسوخ:

– ولما تبتدىء كتيبة الصواريخ فى التعامل مع العدو والاشتباك معه لازم نكون موجودين، الدفاع الجوى منظومة كامله تعمل فى نسق، ساد صمت لفترة صغيرة قبل أن يستطرد .. وانت عارف يا عبدالله.. انت اللى قلت لى هذا الكلام اول ما استلمت العمل فى بطاريتك .

مات وديع مخائيل وله دين فى عنقك كما مات أخوك محمد الصغير.. عض بنان الندم.. ليه يهين المرء إنسان لم يمسه بسوء.. الرغبة الوضيعة فى إثبات الذات.. كسر إرادة الآخرين وسحق مقاومتهم ، قدرتهم على الرفض .. ام الاستبداد .. مات وديع مخائيل كما مات اخوك محمد الصغير وله دين فى عنقك .. صفعة الكف الغاشمة واستصغار نفس بشرية .. عض بنان الندم يا ابن عبد الجليل.. نفذ ما علمه لك صاحب العوينات، هذا الضئيل الحجم.. اترك مكانك ، مدفعك مليان بالرجال .

– نبيل.. خد مكانى.. المدافع ارقام خمسه وسته وتمانيه توقفوا عن القصف، وقفز يجرى صارخا : قاعد ليه يا ابن الكلب ..

– المدفع مال لليمين ..

– ما انا شايف .. قوم يا دفعه، قوم يا وحش، حط ايدك فى ايدى.. هيلا هوب .. هيلا هوب .

– اسند يا وله بالحجر اللى جنبك ..

–لا غلط يا ابن الحمار حركة المدفع وارتداده يهشمون الصخر .. تعال مد ايدك احفر تحت الجنب الشمال .. تمام .. بس كده سيبنى اضبط هيدروليكيته .. تمام.. يتراجع للخلف .. يصرخ بأعلى صوته ..

– مدفع رقم ثمانيه جاهز للضرب.. اضرررااااااااااب

تخرج الطلقات صليات متتابعه، ينطلق نحو مدفع آخر ..

– يلا يا رجال .. فيه ايه ..

– ما تحاولش .. طبة ضرب النار ما بتعملش ..

– تمام.. يبقى تقوموا كلكم تنقلوا الذخيره لبقية المدافع .. حد عنده اعتراض ..

أجابه قائد الطاقم مندهشا: ليه ؟

– شيل ذخيره ام ضرب، كلها خدمه فى الحرب.. ح نهرب فين م الدمار .. يلا يا دفعه مد ايد المساعده للرفاق .

يرجع لمدفعه يطمئن .. يقابله محمود بصخب: كل شىء تمام ..

يبتسم لوديع يقول: اسمعها منه ..

قال وديع بابتسامة وصوت الأفندى غير صوت الجنود:
– كل شىء تمام .. يضحكوا ..
يسأله عبدالله: والحل ..؟؟
– ما عادش فيه نخيره، كل اللى باقى سبعه وخمسين صندوقا .. ظهر الارتياع على الوجوه .. قال المبروك .
– والعمل ..؟
صمت الجميع .. أبورحاب اللى قال: فيه سيارات الكراز محمله نخيره.
– امتى شفتها ؟
– امبارح قبل العشا ..
هتف عبدالله وقد تحول عقله وجسده إلى وتر مشدود: فين ..؟
– قبل تبة مدخل كتيبة المهندسين .
– اسمع انت وهو، انا رايح ابحث، لأ وقال بتصميم، ح جيبها .. واستدار منطلقا .
– عبد الله ..
اوقفه وديع .. فالتفت إليه ..
– انظر هناك ..
نظر الجميع حيث يشير وديع ميخائيل جهة اليسار .. تسع شاحنات زلّ طراز ١٥٧ حامله ثمانية عشر صاروخا من طارز سام – ٣ تتحرك باتجاه الموقع التبادلى لقواعد الصواريخ .
صرخ محمود وهو يشير باتجاهها:
– سلم ايدكم يارجال .
هتف أبورحاب فى هياج:
– يوصلك بالسلامه .
هلل وكبر الجنود وجرى عبدالله يبحث عن سيارات الكراز .

سيارات الكراز.. لم يبق من النخيره فى الخط الثالث سوى مائة صندوق.. أجرى إذن بحثا عن صناديق النخيره.. غاره واحده وينهار خط الدفاع.. اللهاث.. الخوف من عدم وجودها يمكن تكون وهم .. لا .. أو مهمات لكتيبة المهندسين .. لكنها كانت هناك ، أوز واقف بثقه وثبات.. ياه.. أتنفس الصعداء.. المهم الذخيره.. مستحيل يكون بيها ..
– محمل ايه يا حضرة الصول ..؟
– نخيره ..
قال بتحدٍ .. وقد تجمع حولهم سائقى الشاحنات:
– نخيره لسلاح المهندسين .
– لأ الدفاع الجوى.. قفز فوق الشاحنات.. هى بالظبط.. طلقات مدفعيه..١ مم ال م ط .
– اطلع معاى بسرعه، الذخيره نفذت مننا .
– يا سلام .. حضرتك اخرس .. مشير لصوت المدفعيه .

- يعنى هى الحرب شىء بيخلص .
- اسف ما عنديش اوامر .
- ابوس رجليك مش وقت العناد، انا سايبهم ومفيش غير خمسين صندوق ذخيره، بعدها ح تبقى طيور مذبوحه يشويها النابالم .
- روح هات اوامر، مقدرش اغامر بالذخيره .
- لو مش ح تتحرك دلوقت، مش تلزمنا ولا يعود لها نفع ..

بدى على الصول ملامح التفكير.. استطرد يحاول تعضد موقفه ٤٨ ساعة قصف متواصل، ما حدش داق طعم النوم، ازاى تكفى الذخيرة، احسبها انت وخليك مسئول امام ضميرك ..

نظر المساعد إلى سائقى الحملة يسترشد بهم، لم يكن هناك اعتراض، قال أحد السائقين:

- جرى ايه يا رجاله احنا ح نتعازم، يلا قبل ما يفوت الأوان .
- استنى لما الغاره تنتهى .
- لأ .. انت تستحق الاعدام ..

أجابه الصول بغضب: ليه يا عسكرى ..؟

- لانك ابن كلب حمار .. ورفع أصبعه مشيرا للسماء.. الطيران لايزال يواصل القصف فى حين أن صوت المدفعيه صمت، انت المسئول عن المذبحه اللى ح تحصل بعد شويه .
- تقدم سائق منه قائلا: انا جاى معاك ..
- اللى عايز يلحقنا .

ولم يستكمل وقفز بجوار السائق .. خمسمائة متر هى الطريق إلى الوحدات: باقصى سرعه .. تفتكر حد ح ييجى ورانا .

- كلهم .
- ابدا اربع شاحنات فقط .
- مش واخد بالك، انظر وراك تشكيل مفتوح علشان ما نبقاش صيد سهل للطيران الاسرائيلى، الصول ربيع مش جبان زى مانت متصور .
- امال ليه عمل كده ..؟
- زى ما قال لك الاوامر، العقليه السائده تشل اى قدره على الحركه، ممكن اللورى يدمر، لو كان لنا عمر ساعتها الف واحد ح يحاسبنى، ليه غادرت موقعك من غير اوامر .

فى الثلاثمئة متر الأخيره كان سماء وحدات الدفاع الجوى قد تحولت إلى سحابة من الغبار، لهب، نيران فى كل مكان، دخان ضباب، صراخ المصابين من الجنود، مطاردة الطائرات لهم بإستماته، انتشار آثار القصف الناجمه عن الهجوم المباشر على الوحدات المدافعه .

- فين بطاريتك ..؟

أشار نحوها متسائلا: ليه ..؟

- لازم نوصل الذخيره لاقرب مكان ممكن ..

قبل مائة المتر الأخيره غرزت الشاحنه، فانطلق يعدو نحوهم، كانت الشاحنه واضحه للعيان ، انطلق نحوها عشرات الجنود، جرى طاقمه يحمل صناديق الذخيره، كان يعلم أن الشاحنة ليست فى حاجة إليه الآن فانطلق يعدو ناحية بقية طابور الشاحنات، قفز ناحية الثانية، يوجهها ناحية فوجه ولما اطمئن وزع الشاحنات باتجاة بقية الثمانية، ثم عاد يجرى باتجاه بطاريته ، كان الطاقم يعمل بانتظام ، ودون كلمة كان يمد يده يحمل صناديق الذخيرة على كتفه، وإنطلق باتجاه مدفعه، شاهد الجنود تجرى بهستريا وهى تحمل صناديق الذخيرة تنقلها إلى البطاريات وكأن مسا أصابها.

– اوعى يا وديع .. اوعى يا وديع .. اوعى يا وديع .. نام ع الأرض .. وأيه الفرق.

ضربة عنيفة فى مؤخرة الظهر ارتج لها الجسد الضئيل المنحنى للأمام من ثقل الحمولة وهو لا يزال يجرى، الرطوبة التى بللت سترته والوهن الذى أصاب قدمه، جعله يترنح كالسكران، قام وديع لا يأبه لشىء وهو يعاود الجرى، عشرين خطوة وانثنى يلتف حول نفسه ساقطا على الأرض .

– وه يـــــــع.. وديع.. الصوت والصدى.. الطائرات وطلقات الفيكرز .. السماء واللهب والضباب والدخان.. السحاب الترابى، الفضاء الأغبر الأصفر.. خمس رؤوس تجرى حوله .. عبدالله، نبيل، مبروك، وأبورحاب، ومحمود يحملونه على نقالة.. قام الشاب الصغير بعنف نصف قومه .. قال بوهن: اتركونى .

كان الطيران الإسرائيلى يمزق اللواء شر تمزيق

– مستحيل .. انت نزف منك دم كتير .. لازم ننقلك لمستشفى الميدان – ليه ..؟؟

لم يجيبه أحد .. كان قد أصيب بإصابة مباشرة من طلقة فيكرز .. والجنود يجرون حوله مكبرين .. الحمد لله .. الله أكبر .

للمرة الثالثه تخطأهم إحدى الطائرات وبجوارهم مباشرة مر سيل من طلقات الفيكرز مثيرا غبارا كثيفا فى الأرض .. فى المرة الرابعه اهتزت الناقله بعنف .. أمامه مباشرة مر خط الطلقات من الناحية اليسرى .. نظر نحوه .. كان وديع ميخائيل ملقى على الأرض وقد أصابته طلقتا فيكرز إضافيتين إحداهما فى مقدمة الرأس .. تحلقوا جميعا وانحنوا حوله يهزونه فى جنون ..

عندما تيقنوا من أن منجل الموت حصده، بكوا .. بكوا جميعا .. جَعَرَ عبدالله للمرة الأولى وصرخ بصوت دوى فى الفضاء ..

– اهـــــــــــــــه .. اهه يا بـــا .. عينى عليك يا امير .. عينى عليك يا سيد الرجال .. وانحنى يبكى، وانهمر الجميع يشهق بالبكاء، لم يكونوا يبكون فتى اختلفوا حوله حيا، واتفقوا عليه ميتا، كانوا يبكون كل شىء الآن، هزمه أبو رحاب ببطء ، وهو يشير إلى السماء، كان هناك شئ يتحرك على غير هدى علي السماء .. ثلاثة من صواريخ سام ٣ تشق أجواء الفضاء، خيم الصمت ، وحبس كل من فى المواقع أنفاسه، يتابع الحرب التى بدأت فى السماء .

في البداية بدا، وكأن الصواريخ الثلاثة انطلقوا بلا هدف بلا غاية.، ثم ما لبث أن لوحظ ازدياد بالغ في سرعتهم التسارعية، ثمة أهداف في الفضاء، ثلاث طائرات واحدة في المقدمة واثنتين تتلكئ خلفهم، انحناءة مفاجئة من صاروخين ، وإصابة مباشرة، انفجارات، تتهاوى في إثرهما طائراتين .

غمغم عبد الله ..

- تحيه له يا وله .. تحيه له.. مع السلامه يا وديع .. مع السلامه ..

بعدها أصاب المواقع جنون هستيري، لم يستغرق عودة المدفعيه للمشاركه في المطارده من جديد دقائق، غمغم عبد الله وهو يقفز على مدفعه من جديد :

- الآن تكتمل المنظومه.

سدود واحة وسط الخراب الحزين .. يصبح تلاقى فيها ناس تكره بعضها حتى الثمالة.. يصبح تلاقى فيها بشر مُدَمَرة .. يصبح تلاقى فيها الجهل والحماقة محتل مكانه .. يصبح تلاقى فيها فقر المادة وقلة الحيلة مع الزمن .. لكن الجوانح فيها تنطوى على جذور عميقه، نفوس غنية، ثراء بالمودة .. سدود اهرب إليك واعود، خارج حدودك لا اتصال او وصال .. ريحة ترابك زعفران، اما الحياة هنا نفط وغضب .. صديد اسود .. سدود اهرب إليك واعود والعن اليوم اللى اتولدت فيه في هذا العصر وكل العصور السابقة، لإن هذا الوطن تعلم ان ينهزم امام الغزاة، لإن هذا الوطن تعلم الا يحترم قادته ابناءه، ان يفتح صدره للاغراب بلا حساب .. من يستطيع ان ينقذ جسدى من المراعى النووية القادمة .

الفصل الثامن عشر

ياليل انا والخيل لما تكحل بالدما، والريح لما فى البر زاد مداه، من ريس البحرين منهم واشتهر، والمنحدر م المستقر اهو تاه، هاتوا الميدان بينهم وفرقوا حدوده، لقوا الميدان كالبحر زاد اساه، والخيل زى مراكب الميه، والريح جاى عاصف بكل أساه، حرص على الشاغول واوعى الملهمة، وان زاد عليك البحر لو غضباه، ان زاد عليك البحر وهبط .. قوام .. اركن إلى البر وشوف لظاه، لما البيارق والرايات م السما تختفى، وين تذهب الخيول يا بوزيد .. ويلاه..(**)

-١-

ما إن قطعت البقية من جنود الفوج ٨٩ خمسة الكيلو مترات الأولى حتى شعروا وكأنهم عادوا إلى الطريق الطويل من مساعد إلى درنة.. الألم يصعد ببطء إلى المفاصل وعضلات القدم تئز طوال المسير.. اختفت المدينة وراءهم، حادوا عن الطريق الأسفلت الرئيسى هابطين وادى الكوف عبر طريق قديم مهجور خلف أقرانهم من المتسللين، طابور طويل من النمل الدؤوب يجد السير باتجاه شق من شقوق الأرض، كان وادى الكوف يفتح ذراعيه فى استعلاء، ناصبا شراكه المصبوغة بلون الليل الأسود للبائسين القادمين عبر الحدود، وعلى سطح الجبل كانت الشجيرات القزميه العميقه، تولول فى صراخ وعويل الرياح والأعاصير، بينما الارض بقاع الوادى تتربص بهم منفرجة الساقين بانتظار إنقباضة الشبق الأخيرة.

هبط جنود المدفعية المضادة للطائرات وسط جحافل المتسللين قاع الوادى فى عجلة، عبر ممر جبلى متعرج يتعثرون فى الوحل والأحجار والنباتات الشوكية الحادة، وهم يشاهدون

أضواء السيارات التى تعبر الطريق والبراكات المتناثرة تموج عن بعد كعيون جنى تومض فى نومها .

من الظلام الحالك برز فجأة كوبرى وادى الكوف الجديد، عملاقا شاهقا كشبح جنى ضخم غرزت قدماه فى قاع الوادى، ومد يديه تحمل قبة السماء، تستمطر منها اللعنات على أهل الأرض، وقد فتحت فوهات الجحيم تعمد عرس القتل القادم.. يومين والمطر الغزير ينهمر دون توقف، وللحظات برز القمر، شاهدوا على إثرها فج الاخدود العميق للوادى الذى اكتسى ببساط العشب الأخضر والأشجار المتناثرة، وفى الجانب الأيسر الواطىء لمحوا الجسر الخشبى القديم لوادى الكوف، جروا جميعا نحوه، حيوانات ضئيلة مذعورة تفر بحثا عن ملجأ من الطبيعة الوحشية المجهولة.

تحت الجانب الآخر من الجسر تمدد أبو رحاب فى العتمة متعبا منهكا يتقى المطر، بينما حاول البقية إشعال النار متقين قطرات المطر القليلة جانب الجسر، زمنا طويلا لم يتمكنوا من إشعال النار، قبل أن يستسلموا لحظهم العاثر ويخلدوا للنوم، عثر المبروك على بقايا أغصان أوقدها البعض من قبل، اشتعلت النار اخيرا، تحلقوا حولها يحمونها من الرياح ويستدفئوا بنارها، وعلى ضوء النيران والتماع البرق شاهدوا موقعهم، كانوا جالسين فى قاع الوادى على رأس فوهة الأخدود العميق الواقع بين الجبلين الشاهقين لوادى الكوف، على ارتفاع شاهق شاهدوا أضواء السيارات تدور دورة واسعة قبل أن تعبر إلى الجانب الآخر من الجبل بواسطة الكوبرى المعلق للوادى، أسفله يسقط حائطا الجبل عموديين ، ويأخذ فى الانحدار بتسارع قرب القاع، متوقفين عند حافة الأخدود وقد فصل بينهما شق عميق ينحنى قادما من الجنوب فى شدة، ثم لا يلبث أن يمتد شمالا متجها إلى البحر، هوة عميقة تبدأ من الفج وتنتهى إلى جرف عميق ينشق نصفين، ملتفا كثعبان ضخم حول صخرة عالية تبدوا وسطحها مثل جزيره معلقة فى بحر من الفضاء.

عندما التقطت الخياشيم رائحة الشاى وأطراف النار، بدأت النفوس ترتاح قليلا قليلا، غمسوا الخبز فى الشاى، وتناولوه بلذة وعلي مهل.. قال عبدالله متسائلا:

– القعاد فى الدار احسن ولا الخروج فى طلب الرزق .

ضحكوا .. قال المبروك: تقول الغاز.. الدين والرسول بيحضوا على الخروج فى طلب الرزق .

عقب محمود: الله يلعنه رزق إذا كان ده شكله .

قال المبروك: ما تكفرش .

قال عبدالله بصوت متعب: وايه علاقة ده بالكفر، ولا تقول ان ربنا مسئول عن اللى وقعوا من فوق ظهر الجبل، ولا تقول دى مشيئه من عنده، لأ ده الفساد، فساد من صنع البنى آدم، الجيش الماشى قدامك ده منهوب ولما يرجع ح يتنهب من جديد، تجار العمله ونقاط البوليس، خلو الرجل وشلة المنصر وحفنه من العسكر، وطول ما الجهل معشش فى العقول ح نظل عرضه للنهب العظيم .

قال ابورحاب: بكره لما تدوق طعم الدينار، حالك ح يتغير .

قال أبو رحاب: آيوه يا عم .. هانت بكره لما تاكل التفاح بسعر الفول المدمس، قلبك

يطرى وصدرك يستريح .

– هو باين فيها تفاح ولا سم .

قال المبروك يروح عنه: ما تَصَعَّبْ على نَفْسَكْ يا بن عمى، ح تُفْرَجْ، بكره ترجع لامك والمسجل فى يد والحته الحرير فى يد، قراطين ارض وتدهن الدار، تشترى جاموسه تحلبها تعوم فى اللبن والقشطه .

– حرير ايه وكشمير ايه، انا نجيب فى بندقيه آلى ومسدس تسعه ملى برتا المانى .

اعترضه محمود أبو رحاب من مكانه الذى تمدد فيه متهيئا للنوم:

– يا كذاب يا ابن الكلب مش قلت ان عندك برتا تسعه ملى .

تحدث عبدالله مندهش: مش تشترى ارض احسن لك .

نظره باحتقار: ثانى ارض .. ارض يا عبدالجليل .. فلاح ابن فلاح .. انا منيتى رشاش اطلع الجبل .. الحرب انتهت وعبدالناصر ابو الغلابه مات، واللى يحكم البلد لصوص، القاهره ترقد بين احضان اثرياء النفط، يشتروا نسوينا بالدولار، سبع سنين نحارب والنهب صار شغال يا ولد. تعال احكى لك عن اتاوات النهب المنظم بمشاركة السادات وعائلته وچيهان ورجالة عصره، هه.. عايزنى اصير فلاح يا ابن الفلاح، تستعبدنى حتة ارض والساده المشرفين والجمعيه الزراعيه وبنك التسليف المحترم.. رو و و ح غور من قدامى.. الله ينعل ابو الفلاحين على اليوم اللى خلقهم فيه .

تدخل المبروك: فى درنه قالوا الواحد فى بنغازى ياخذ اثنين دينار يوميه.

– صح .. ستين دينارا فى الشهر يضيع منهم نصفهم فى الاكل والشرب وايجار السكن، وثلث النصف لتاجر العمله السوداء اللى يحول لك فلوسك يعنى تحول عشرين دينارا .

عقب محمود: ولما تشتغل شهر تقعد اسبوع يبقى فاضل عشرة دينارات، يا جمال النبى

انكمشوا وشعور بارح بالضآلة يمسك بخناقهم، داهمتهم البرودة ثانية وأشتدت الظلمة فى المكان، وامتد السكون يطبع الكون بصمته، وتمدد أربعتهم للنوم وكل منهم بأفكاره إلى حيث الدفء والنوم العميق تحت سقف وجدران أربعة،لم تمضِ الساعة حتى غطوا فى نوم عميق.

صوت مكتوم انبعث فى باطن الجبل، دبيبا بطيئا لم يلبث أن تصاعد صوته وازدادت حدته اتساعا.. فتح كل منهم عينيه فى دهشة وهو يتساءل إذا ما كان ما يسمعه حلما، أم أن باطن الجبل يغلى ويزبد، نظر كل منهم إلى الآخر وقد جلسوا القرفصاء، ليس حلما إذن بل هو الجبل ينشق باطنه، لم يسعف أحد الوقت ليسأل رفاقه، فقد ارتفع الصوت فجأة، وكأن الجانب الخلفى للجبل يدك بمطرقة ضخمة تهز أركانه من الجذور.. من على حافة الفج سمعوا أبورحاب يستيقظ متسائلا:

– ايه ده،؟

– حد عارف

ارتفع صوت شخص غريب: يمكن عربيه .

– هو ده صوت عربيه.. الله .. ايه اللى ح يجيب عربيه هنا ..

أحاديث تناقلها المتسللين بسرعة، والصوت يزداد عنفا وعمقا حتى صار يصم آذانهم .. صوت صدمة قوية عميقة ارتفعت لها رؤوس النيام ينظرون إلى السماء بإندهاش، لن ينسى عبد الله عينى محمد أبو رحاب وهو ينظر نحوهم متسائلا، إذ أنه فى طرفة عين انخفض الصوت لحظة وكأنه يتلاشى والجبل يهتز من تحت أقدامهم وأجسادهم.. تراجع الثلاثة إلى الخلف ولأعلى قليلا دون وعى وقبل أن يفيق النيام من جلوسهم اندفع شىء لامع يبرق تحت سماء الليل قادما من فوهة الأخدود، كانت موجة منخفضة من المياه، تلاشت تحت أقدامهم، لم يترك لهم وادى الكوف الوقت الكافى كى يفهموا، إذ قبل أن يفيق النائمين من دهشتهم، اندفع من جوف الوادى صوت رهيب مصحوب بموجة عالية من المياه، دفعت الجميع أمامها إلى فوهة الفج، جرى الثلاثة دون وعى يحتمون بدعامات الجسر، صرخ محمد أبورحاب.

– الحقنى يا عبدالله.. مرتين فعلها.. إحداهما كانت شديدة القرب منه، أما الثانيه فقد جاءت من بعيد، بدأت قوية ثم تلاشت وتلاشى صداها الذى تردد فى جوف الهاوية، لمحوه هناك قريبا منهم متعلقا بكلتا يديه بإحدى الشجرات النابتة فى قلب الفج، وبجواره متسلل آخر متعلقا بكلتا يديه فى أحد الأحجار يصرخ فى هستريا فى آخر يمسك بجلبابه من أسفل الفج:

– سيبنى يا وله حرام عليك يا ابن المفحور، سيب الجلبيه، انا عندى عيال.. ثم بكى وهو يرجوه أن يتركه، صرخ عبدالله في أبورحاب:

– جايلك ياوله .. جايلك .. امسك نفسك يا محمد ..

وجرى يخلع ملابسه .. ردد الجبل تدانى صوت محمد أبورحاب:

– الحقنى يا عبدالله، الحقنى يا عبدالله .

كان الصوت يحمل إيمانا بأن عبدالله سوف ينقذه.. التشجيع الذى أطلقه صوت عبدالله لصديقة لم يسمعه أحد، إذا سحقه الصوت الذى طرق الجبل بأعنف من سابقيه، فى هذه المرة اندفع السيل حاملا أحجارا ضخمه وجذوع أشجار هائلة ليسحق أحدها أبو رحاب، وتأخذه وتأخذ عينيه المفتوحتين رعبا إلى البحر المتوسط، فغر الثلاثة أفواههم هلعا وهم يرون صديقهم يهوى إلى قاع الأخدود، وأمامهم كان السيل يندفع حاملا أحجاره وعشرات من الرجال، كان أحدهم يشهق وهو يحاول التعلق بشىء، ثم لا يلبث أن يغطس ويطفو ثانية وعلى وجهه ارتسمت ملامح الشقاء والاستسلام والارتياع البائس لقرب النهاية التى تنتظره وسيره إليها قدر غامض طالما سير حياته بين شقوق الالم والحاجة .

طوال ساعتين كاملتين وقفوا متشبسين بأماكنهم وقد غمرتهم المياه الباردة حتى تخشبت عظامهم، لم يعودوا قادرين على الحركة لا يصدقون أن احدهم سينجو، أو أنهم قد فقدوا واحد منهم، أخذت المياه تنحسر تدريجيا ولو لم تفعل لكانت مقاومتهم قد انتهت .

فى بطء شديد اخذوا يتحركون صاعدين بصعوبة بالغه، وكأنهم يفرون من موت محتوم، عندما بلغوا مكانا آمنا سقطوا فى إعياء بالغ.

جمعوا أشلاءهم المحطمة وذهب عبدالله يجمع شيئا يوقد به نارا لكنه غاب، أصاب رفاقه القلق، قاما يبحثون عنه، وجدوه جالسا فى الظلام فى إعياء خلف ثنيه بالجبل يشهق ويبكى بعنف صديقه الذى خطفه السيل والجبل، رنة صوته التى ناداه بها ترن فى مسامعه وتؤرقه فى شجن، عندما حاولوا أن يواسوه، همس:

- قال لى الحقنى يا عبدالله، طيب وانا كنت اقدر اعمل ايه، طيب كنت اعمل ايه، كنت اعمل ايه يا محمد يا اخوى، آآآآآآه يا محمد، آآآآآآه يابا،آآآآآآآآه يابا.

كان يوما غريبا إذ أنهم شاهدوا قرب الظهيرة عربة لاندروفر تقترب منهم، لم يتحركوا ولم يحاول أحد منهم الهرب، جلسوا مستسلمين للقادمين غير آبهين بهم، شرطة كانوا أم أى كائن كان، وبنظرات مستغرقة فى الالم شاهدوا ثلاثة من الرجال الليبيين ينزلون من السيارة اللاندروفر ، يتقدمون نحوهم فى هدوء حاملين أشياء وعندما اقتربوا منهم ألقوا إليهم بطعام وكساء، وقبل أن يستديروا راحلين ألقوا لكل منهم بثلاث بطانيات صوفية، أخذوا الطعام والأغطية فى صمت، تدثروا بها مقررين وعيونهم لاتطرف، وثلاثتهم فى استغراق مستسلم وألم وحزن عميق.

* * * *

على طول الساحل الليبى، وبين منطقتى المرج ودرنة، كانت سيارات يقودها ليبيين، محملة بالأغطية والطعام والملابس، تبحث عن المتسللين المصريين توزع عليهم الطعام والغطاء معا .

هوامش الجزء الثاني

(١) براكة: حانوت مصن،ع من الصاج المعرج.
(٢) هريسه: شطة حارقة.
(٣) أكري: استأجر.
(٤) الجرد: عباءة نسائية.
(٥) مازجري: من غير الوطنين.
(٦) كنك: كيف تفعل.
(٧) شنو: ماذا.
(٨) كنك: لماذا.
(٩) جاك: جائك.
(١٠) اشكبلي: عازب.
(١١) واجد: جدا.
(١٢) يجن: يأتون.
(١٣) باتي: أبي.
(١٤) شنة: طاقية.
(١٥) هَكً :هكذا.
(١٦) هجالة: مطلقة أو أرمل.
(١٧) راع: ضع في اعتبارك.

الجزء الثالث

www.boo

الفصل التاسع عشر

-١-

قبل شروق الشمس دخلوا موقع معسكر الإشارة غرب بنغازى حيث السكون يقطعه عواء الكلاب، وبجوار مبنى صغير من الحجر الجيرى المسقوف بالواح الزنك جلس الثلاثه القرفصاء، شيئا فشيئا زحفت أشعة الصباح تطرد العتمه يصحبها قدوم سيارات الموظفين والعمال، أجناس شتى، ليبيين ومصريين، فلسطينيين وسوريين و لبنانيين، سوادنيين ومن تشاد، اقترب منهم حداد فلسطينى .. سألهم:

- بدكوا فى عمل ..؟

- نعم، نبغى عمل، اى عمل .

أومأ برأسه علامة الفهم: توا نقول للحاج حميده يدبر لكم فى عمل.

لم يكتف المبروك فقام خلفه يرجوه: والنبى يا أخ، عشرة أيام من غير شغل .

قاطعه الفلسطينى بقرف: خلاص قلت لك انتظر، مين ما ييجى الحاج حميده .

أجاب المبروك متراجعا بصوت خافت: حاضر يا بيه .

بدأت الحركة تشتعل فى المبنى المواجه، حجرة المهندس، حجرة الصراف، الحجرة الكبرى ظلت مغلقة، من البوفيه الكائن بجوار دورة المياه القذرة أطل الملاحظ اليبى ويدعى مصطفى، فى الخامسة والثلاثين من العمر، طويل القامة سكير بطىء الحركة، يتحرك كآلة عتيقة ويداه لا تفارق جيوبه، لا يتحدث إلا لماما يخفى رأسه ووجهه بكوفية شامية، عبر الفسحة الأمامية لمبنى إدارة المشروع ثم وقف أمامهم، عدل كل منهم من جلسته وسارع بالوقوف .. قال: توا تدورا فى الخدمه .

- نعم .. ندور فى عمل هنا يا عم الحاج .. احنا نشتغل بدراعتنا زى الرهوان .

قال باستهزاء وعلى زاوية فمه ابتسامه اللامبالاة:

- والرجال سلاكه ولا معاهم بطاقة عمل .

تراجعوا إلى الخلف ببطء، أقعى عبدالله يأسا .. استطرد الملاحظ الليبى وهو يضحك

وقد تجمع حوله عدد من العاملين بالموقع:

– يعنى من السلك الدبلوماسى ..

انفجر الجميع بالضحك وهم يتندرون عليهم .. تريث الملاحظ قليلا ثم قال راحلا: باهى .. توا يجى الحاج حميده .

انفض الجميع من حولهم لفتره وقد أصابهم الوهن، عبر فسحة المبنى فتى صعيدى حاملا صينيه عليها أكواب شاى إلى حجرة المهندسين. ثم خرج متجها ناحيتهم وأمامهم جلس القرفصاء .

– محسوبكم بدرى من المنيا، من وين الرجاله ..؟

أجاب محمود: اسيوط يا ولد العم .

– احسن الناس .

أضاف عبدالله: منوفى .

– زين الرجال بلد الريس، ايه خدمه يا رجاله، انا نخدمكم بعينى .

تدافعوا: فيه شغل هنا، نلاقى خدمه يا عم بدرى، ساعدنا الله يطول فى عمرك.

– وه يا بوى طبعا تلاقى، فيه عمل واجد، دول يرجوا فى عمال عدد شعر راسهم .

– والاجر .

– دينار ونصف فى اليوم .. مليح .

– ايوه صح .. مليح .

– كمان الساعات الاضافى، يعنى الواحد يحصل اثنين دينار فى اليوم، ستين دينارا فى الشهر .

– وهم يحصلوا ضرائب من سلكاوى .

– يا عمى، يحصلوا الضرائب ما يحصلوا، المهم الصافى اللى تحصله فى ايدك دول.

– بس حضرتك عارف يا عم بدرى .

– وه حضرتك، انا نشتغل فى البوفيه، نعمل فى الشاى والقهوه والكازوزه وتقولى حضرتك .

– يا عم بدرى، عايزين نطمن، عايز اقولك .. احنا سلكاويه .

ضحك: وايه يعنى كلتنا هنا سلكاويه، من رجال السلك الدبلوماسى يا بوى، احسن مهنه، العَيِّلْ فى مصر يمحص عينه بالمدرسه، وما يقدر يدخل السلك الدبلوماسى، بده وسايط اما احنا، دور عينك تلاقى كل المصريه اللى هنا سلاكه وكلهم على ربك المجيد .

– يعنى نلاقى عمل، طمّنًا الله يرضى عليك .

– توا يظهر الحاج حميده .

– مين الحاج حميده ..؟

– الكل فى الكل هنا، يشغل فى العمال والمهندسين، صاحب العمل تارك له كل شىء فى الموقع يديره كيف ما يريد، اعمل لكم الشاى .

هتف عبدالله: ينصر دينك يا شيخ، والله العظيم تعمل طيب، فلوس.

– خلى فلوسك فى جيبك، ليه تعملوا فرقه، انتم ضيوفنا لحين ما تشتغلم، وحق النبى توا

تشتغلوا وتعيشوا معانا، هنا يا بوى صحبه ورد .. نقوم نعمل الشاى تقيل، شاى مصرى بصحيح .

سأل عبدالله: فيه مهندسين مصريين ..

غام وجهه قليلا: كانوا تنين، واحد استقال راح ماعدش بييجى والثانى طردوه .

قدمت سيارتين رسم عليهما شعار نسر مجنح، وحوله كُتبٌ مؤسسة النصر للمقاولات لصاحبها عمر بوزى، غمز بأصبعه ذراع عبدالله وهو يشير إلى شاب ينزل من إحدى السيارتين .

– مهندس عارف، فلسطينى، يا اخى حيه، يلدغ ما تعرف من وين .

نادى عليه فقام يجرى وهو يهمس لهم: توا نجيب لكم الشاى .

فى السابعه صباحا انفتح باب الحجرة الثالثة بعنف، وخرج كالعاصفة رجل ربعه متوسط القامة، متين الجسد يرتكز بجذعه على قدمين مقوستين، عينين حادتين كعينى ضبع فى الخامسة والأربعين من العمر، وجه غليظ شديد السمرة، غزير الشعر، وشارب أسود كث خُط ثقيلا على فم ضخم، يرتدى فانلة ثمنية داكنة اللون تفوح منها رائحة عرق قذر، وبنطال من الجينز مثبت بحزام جلدى عريض، اختفى تحت ثنية بطن ضخم تدلى إلى الأمام، وقد جمع أطراف بنطاله السفلية داخل رقبة حذاء جلدى طويل يستخدم فى مواقع العمل، لم يلتفت لأحد، عندما خرج مصطفى دخل هو صافقا الباب خلفه بعنف.

–٢–

أمام مائة وخمسين عاملا وقفوا فى طابور، وعدد من سائقى المعدات والشاحنات والفنيين، قام الملاحظ الليبى بتوزيع العمل طبقا لتوجيهات الحاج حميده، حفر وردم وإنشاء أرصفة، تكسير خرسانات، تفريغ الأسمنت وغيرها من مواد البناء. نادى مصطفى: أحمد أبواليزيد، صالح عبدالرحيم، محمد أبوحسين، تنظيف عنابر النوم، أمين محمد، إبراهيم حسين، عبدالرحيم حسنين، حفر قواعد ورشة الدبابات وردم مخازن الذخيرة، واستمر ينادى على العمال فيخرجون من الطابور يتجمعون فى مجموعات خلف المشرف القائم على عملهم، نادى على أمين أبواليزيد، يوسف حنا، تكسير خرسانات أعمدة مبنى السينما .

صاح أحدهم: يا عم مصطفى دى شغل واعر، فيه عمال كتير .

صرخ فيه مصطفى: كَنَكْ بتعدل على، اقفل فمك يا تيس .

فى هذه اللحظه انفتح باب الحجرة الثالثة بعنف وخرج الحاج حميده ثانية، عاصفة مكتومة وعلى وجهه تكشيرة صامتة .. سأل مصطفى بصوت خافت مملؤ بالوعيد ويداه وسطه: منو هذا ..؟

أجاب مصطفى وهو يدير رأسه إلى ناحية أخرى يحاول أن ينهى الموضوع: واحد من المصريه ..

لم يكتف، أعاد السؤال والشرر يتطاير من عينيه وأسنانه تصطكان:

- نبى نعرف منو هذا، ماتخبى علي، قول .

قال مصطفى مستسلما وهو يتحاشاه: أمين أبواليزيد.

كاشفا عن وجه بشع، وجه كشر عن أنيابه ينوى التهام فريسته، هبط الحاج حميده إليه: شنو تبغى يا تيس، تعال.. خرجت الكلمة أمرا لا مرد له .. تعال.. تفرقت صفوف العمال عن أمين، وقد ذهب لونه والحاج حميده يخترقهم ووجهه يتقلص ويكز على أسنانه وهو يصرخ:

- .. تعال.. تعال يا عرس.. تعال، لا لا، لا تذهب، تعال يا قواد.. يا فوال.. يا خنزير، توهجت عيناه بشعلة الغضب، وأمامه جلس أمين القرفصاء يغمغم طلبا للرحمة، وقف العمال والفنيون والخوف والذعر يلجم ألسنتهم حتى المهندسين والموظفين وكانوا جميعا من غير الوطنيين ، وقفوا ينظرون وهم يحمدون الله أنه لم يخلقهم مصريين، انحنى إلى الأرض ممسكا بحجرا ضخما، قذفه به، حاد الرجل مغمضا عن الحجر فلم يصيبه، فاندفع نحوه وكل جسده ينتفض بهستريا وقد سال الزبد من فمه وسيل من الشتائم والسباب يندفع دون توقف، عندما طاله انطوى أمين على نفسه وهو يردد:

- معلش يا حاج.. فى عرضك يا حاج.

وكلما استمر أمين فى الاستعطاف ازدادت حالة الحاج حميده العصبية والنفسية سوءا، وكأن طلب الضحيه للرحمة تطلق داخله زبانية جهنم فينهال عليه ركلا وضربا بالأقدام، لم يكن ليجرؤ أحد على أن يقترب منه سوى بعض السائقين الليبيين الذين أحاطوا به يسترضونه، وكأن ماء باردا حط عليه، لم يكن يستطيع رفض طلبهم فعاد دون أدنى مقاومة، وهو يصرخ بالنهاية الحتمة لمسرحية البغى والاستبداد وتصرف الأسياد فيما يملكون من عبيد:

- قفل حساب العرص هذا اليوم واطرده، دين ربك ..

استدار من أعلى درجات السلم يحادث العمال : نبى تيس .. خنزير يتكلم، ربى الشيطان يا كلاب، بيش أدهس رأسه بالكوندرة .

خفض العمال رؤوسهم فى صمت وقد انتابهم إحساس بالخزى والعار مكللا بالجبن، فى حين تابع الملاحظ الليبى مصطفى توزيع العمال على أشغالهم .

بعد قليل شوهدت مجموعة من العمال المصريين حول أمين يتهامسون، بعدها قام يحاول استرضاء الحاج حميده، كان الشرر ينطلق من عينيه وهو يخرج مندفعا كالسهم، ويهوى بكفه على وجهه فسقط منقلبا على ظهره لأسفل السلم.. وكأن سقوطه فاتح لشهية رجل سادى، فانطلق خلفه يطارده ركلا بالأقدام والعامل يتحاشاه منكس الرأس يبكى مبتعدا ككلب أعرج .. بجوار الحائط جلس منتظرا نقوده .. صرخ الحاج حميده بالبدرى:

- اذهب وقول للخنزير هاذا يجلس بعيدا، أخر النهار نعطيه راتبه .

وتبسمت الرياح يوم مولد النبى سبع مدن للنبى يبَيَضُّونها، هنيئا لعين تنام الليل بأكمله، تبات مسرورة وهى فرَحونْها، وانا عينى بدلت النوم بالسهر، تبات على ما شافت عيونها، ابو زيد سحب سيفه وجاء رقد، جل الذى لا ينام ولا يغفلونها ، مرعى مع دياب يتسامروا سوا، بكلام زى الشهد إذا دَوِنْها، ألا والنقى سيبت من عقالها، على الشجر قطفت تفاسير لونها، جم العبيد ستين عبد من الحرس، حوشوا الجمال عن الشجر يتلفونها، قام الأمير يحيى بن سرحان يردها، هجموا العبيد بسيوفهم يكبدونها .. حوش الجمال عن الشجر، سرعه بلا مهل .. قال ضيوف وواجب عليكم تكرمونها .. ضيوف عندنا لكن تلفتم الشجر، قطوع جنسنا هواش لضيفه يصونها، طعنوا مرعى فى فخذه طب ع الثرى، يجرى دما ع الثرى ينزفونها، جذع الأمير يحيى اخوه مما جرى، صاح صيحه عاليه من بطونها، اصحى يا خال ابوزيد وانظر ما جرى، ألا قتلونا العبيد فى حصونها، ابو زيد نايم لكن على حس يحيى صحى، بالعجل نظر وزاغت عيونها، يرى مرعى مجروح والدم ينزف، وستين عبد بسيوفهم يرمحونها، هجم الأمير ابو زيد يومها بلا مهل، تمساح فى لجة إذا أطلقونها، تخضع سلامه أبى التخضع يجيبهم، عبيد بجم عقولهم يخربونها، سحب الحسام يومها قوام وجرده، جرد يمانى يغلب البرق لونها، هجم ابوزيد ع الحرس يومها بلا مهل، يماثل إلى البحر يَمْ وفك عيونها(**)

-٣-

كان أغلب مقاولى الباطن من جنسية كبير مهندسى المؤسسه، سوريين، وكان يدعى زيادا، وعلى حين كان المهندس المشرف على الموقع فلسطينيا إلا أن المتحكم الرئيسى فى المشروع كان الحاج حميده، وفى ظل هذه الأوضاع فقدت السيطرة كلية على المشروع وتحول إلى سلسلة من الأخطاء تتبعها سلسلة من محاولات العلاج، دائما كان هناك الحاج حميده، وكلما أزداد تخبط المهندسين أزداد الحاج حميده شهوة وتسلطا وسيطرة، وكيف أنه يعانى الأمرين فى متابعة العمل وأصلاح أخطاء الآخرين، وتباكى على الخسارة المتلاحقة التى يعانى منها عمر بوزى بسبب عدم اخلاص مهندسيه وعماله وعدم وفاء المازجرية لرب عملهم، كان يحب له أن يطلق عبارته الأثيرة:

– يشهد ربى .. مسكين عمر بوزى .. مسكين .

تولى قيادة عربات خلط الخرسانة الألمانية الصنع السودانيين، لما اشتهر عنهم بالسماحة.. الآليات والمعدات الثقيلة كانت من نصيب الليبيين، كانوا مهرة فى قيادة آليات أعمال الطرق والتسويه وازالة الاتربه، وأشتهر منهم جبران ومفتاح .. مزاجيين جافو الطباع، طيبو القلب، مدمنين للويسكى وبقية أنواع الخمور المهربة، متعتهم السفر إلى الخارج لشراء المتعه من عاهرات القاهرة وبيروت وروما وعواصم أوربا الشرقية، كان معهم سائق لبنانى يدعى سمعان، على وجهه ملامح الاجرام، وعلى عكس السائقين الليبيين الذى كانوا على خلاف وشجار دائم مع الحاج حميده كان سمعان صديقه الودود، ورفيق سهرات الحشيش والخمر.. سائقو الجرارات كانوا من المصريين، عملهم الأساسى نقل الخشب والأسمنت والجير والبلاط ومواد البناء، على أكتافهم كان عمل شديد الإرهاق، وعلى وجوههم ملامح الخوف والتعب والبؤس، كل منهم وحيدا بذاته، ولم يكونوا أقل عبوديه من عمال جلدتهم، إذا لم يسلم أحدهم من صفعة أو ركلة من الحاج حميده.. تحت هؤلاء جميعا من فنيين ومهندسين ومديرين للشركة كان يعمل العمال المصريين، وأقلية من التشاديين الكسالى

-٤-

فى العاشرة صباحا دخلت الموقع سيارة مسرعة من طراز فيات ١٣٢.. كبح سائقها الليبى الشاب السيارة أمام مبنى أدارة المشروع، ناشرا موجة من الغبار أعمت عيونهم وجعلتهم يتنفسون بصعوبه، نزل منها رجل فى الخامسة والخمسين من عمره، طويل القامه ضخم الجثه ترتكز رأسه على رقبة غليظة، تبينوا من الوهله الاولى أنه مصرى، وبينما كان يصيح فى السائق بنهره غاضبا، قفز محمود مادا يده إلى المقعد الخلفى للسيارة جاذبا حقيبة الرجل حيث يقف خلفه، عندما إستدار المهندس عبد العليم بك يبحث عن حقيبته مد محمود رقبته فى تصاغر: الشنطه معاى يا سعادة البيه .

- هاتها .

- ورب العزه ما يصير تدخل عليهم حامل شنطتك انا احملها عنك يا بيه .

اعتدل عبد العليم بك قبل ان يدخل وعلى وجهه ملامح الحيرة، كيف سيتقبلونه، لكن ظهور الحاج حميده جعل أبتسامة واسعه تنفرج على وجهه بالسعادة وهو يتقدم نحوه، والحاج حميده يبتسم بترحاب وترقب وعندما جاء سمعان سائق اللورى ظهر الارتياح كاملا على وجهه المهندس المصرى، الذى ترك لسمعان إدارة الحديث بمهارة عن الأسعار والعمولات والهدايا والرشاوى التى سوف يدفعها، وأماكن تشوين المواد ومعدلات التنفيذ والتسهيلات التى ستقدمها المؤسسة لعمله، أما سبيل حصوله على العمل فبتوصية خاصة إلى عمر بوزى قدمت له من مصر، وبينما كانا يتحدثون عن ميعاد بدء العمل والمواقع التى سيتولى مقاولاتها عبد العليم بك، إستدعى الحاج حميده المهندس الفلسطينى عارف، الذى لم يكن يستطيع هضم دخول مقاول مصرى الموقع، بعد محاولات عنيدة أثار فيها العراقيل خرج

الجميع، أشار عبد العليم لمحمود ان يتبعه وفى طريقهما للحاق بالجمع سأله:

– صعيدى .؟

– طبعا يا سعادة البيه انا ما خدمتش سعادتك إلا لما عرفت انك مصرى، والله عرفت قبل ما سعادتك تنطق .

قال عبد العليم فى شرود: اسمك ايه ..؟

– خدامك محمود .

– من فين يا واد يا محمود ..؟

– اسيوط يا سعادة الباشا، وتحت امرك ، صدرى يسد عنك الرصاص .

ضحك عبد العليم: رصاص ايه يا محمود انت فاكر نفسك فى البدارى ولا ابو تيج، معاك اقامه .

– ما اقصدش يا ابن الاصول، انى قصدى اخدم فيك، بعدين مين امعاه اقامه يا سعادة البيه .

– ح اكلم سيد يشوف لك شغلانة .

– نبوس الايادى .

—٥—

مر عليهم مصطفى عدة مرات دون ان يتذكرهم .. فى الحادية عشر والنصف، تململوا، أشار له عبدالله أن كان يرغب فى بقائهم أم يرحلون، فهز راسه عائدا إلى المكتب، دخل على الحاج حميده، ثم خرج عائدا اليهم، فقاموا اليه جريا، ساروا خلفه مسافة خمسمائة متر بأتجاه براكات العمال، وهو يتلكأ بهم هنا وهناك خائضين فى تلال من التراب الناعم .

بعد إنتهاء نوبة العمل الأولى ظهر رجل فى الخمسين من عمره، ناداه الملاحظ الليبى بأحترام:

– عم عطاالله، الثلاثة ها دول بلدياتك من الصعيد .

قال عبد الله: انا منوفى .

صاح به عطا الله: باهى يا اخى صعيدى ولا منوفى. مصرى والسلام .

– يا عم عطا الله هادول العمال ينزلوا خط المياه غادى، فيه مكان يناموا فيه .

– حتى ان ما كان فيه نعطيهم فرشتنا، مرحب بالرجاله، واسم الكريم .

ذكر كل منهم إسمه ومصطفى يحدثه قائلا:

– كريم يا عم عطا الله والله كريم ..

– وه .. عجب يا بوى، اللى مالوش خير فى اهله مالوش خير فى حد، ولى انت وما عليك يا خال .

الفصل العشرين

-١-

للمرة الاولى منذ دخولهم بنى غازى ينتابهم شعور بالإرتياح، وسقف يضمهم بعد قضاء أحد عشر يوما يتسولون العمل على أرصفة ومقاهى حى الفندق، للوهلة الأولى غشى عيونهم ظلام كثيف، ثم مالبث أن كشفت البراكة عن نفسها رويدا رويدا، حزم من أشعة الشمس تخترق الشقوق المتناثره من بين الواح الخشب والثقوب التى بنيت منها البراكة، جزر ضوئية وسط بحر من الظلمة،الكآبة والقذارة متلازمان، على المدخل تناثرت الاحذية القديمة المتهالكة الممزقة التى ثنيت كعوبها، وبقايا علب اللحم والسمك المحفوظ ودلو مملوء بماء طعمه مالح، وبجواره دلوا اخر ممتلىء بالماء الآسن والفضلات، وفى الجانب الآخر من الباب منضدة صغيره من أخشاب البناء المستعملة، إتسخ سطحها بالدهون والزيوت فتحول لونها للأسود، فوقها إنتصب وعاء للجاز وعدد من الصحون، خلفها مباشرة علق على الجدار أرفف خشبيه صفت فوقها علب الشاى والسكر والملح والخضروات المعلبه والزيت وبقايا الخبز والبصل ودفتر قديم أتسخت أوراقه وأنتثت، كان يستخدم فى كتابة الخطابات، وعلى جوانب البراكة أنتشر الهباب الأسود المتصاعد من دخان الوابور وبقايا الخشب المحترق المستخدم كوقود لصنع الشاى وشرب الدخان والتدفئة شتاء، بطول الحجرة صنع بأيد غير ماهرة سريرين من بقايا أخشاب البناء بارتفاع يبلغ مترا، وضعت فوقه حشية كبيرة متسخة، ضاعت معالمها من الأسفنج المهترىء، على أطرافها شرائح عاريه متسخه من الأسفنج السميك المستخدم كمساند للرأس عند النوم، تحت الفراش أصطفت حقائب السفر المغبره بالتراب، وفى جميع الأركان تناثرت ملابس مهترئه متسخة، واخرى قديمة، وبقايا آنية وأكواب وموقد غازى لايعمل، وعلى الارض بقايا طعام وجرائد مصرية وليبية قديمة، وبطاطين موزعة من قبل الموقع تستخدم للنوم أما الضوء فلم يكن يهزم الظلام فى البراكة أبدا إلا ساعة الظهيرة، عندما تجبره الشمس على النزوح من خلال شباك وحيد صغير .

على خط المياه وقف ثلاثتهم بين عشرات من المتسللين المصريين وعدد قليل من التشاديين شمروا عن ملابسهم، قبل ان يهوى بفأسه اجال بناظرية حوله، كل شيء غريبا، لا يمت لهم بصلة، تقل يديه مباعدا ما بين قدميه، قبل أن يهوى بالفأس على الأرض .. هاتفا جعله يردد مسحوقا وهو يهوى بفأسه .. تحيا الجمهورية العربية المتحدة.. من يوم ما خطت رجلك عتبة المدرسة، يا ما هتفت انت والألوف فى طابور العلم، وتحت القصف اليومى للطيران المعادى، وحتى عبرت أسلاك الحدود ما فرقت بين مصريتك وعروبتك، الآن تدق رأسك .. فوال.. وتيس.. ومهزوم.. لم تتبق من مصريتك سوى الاستمتاع بكونك حيوانا يأكل الفول، أما عروبتك فتسحب عنك، كخائن تنتزع عنه جنسيته.

.. شهرين يا ابن عبدالجليل من العذاب والهوان وجيبك بعده خالى، تطلطم تطلب لقمة العيش. لو أستطيع ألم خلجاتى وأعود.

أزير عاصف، بحر من الغبار، ضجيج الآليات الضخمة، صراخ العمال والسائقين، شاحنات ضخمة مكدسة بمواد البناء تفرغها الأوناش، سيارات خلط الخرسانة تلقى بعشرات الامتار منها، جرارات تنقل كميات هائلة من خشب البناء، ولوادر تحمل مئات الامتار من الأتربه على لوريات وبلدوزرات تسحق الارض سحقا تحيلها إلى سحابة من الغبار الناعم، وهى تكتسح من أمامها أشجار الغابة الصغيرة وتزيلها من الوجود، نظر إلى اعلى حيث السماء المغبرة، التقطت عيناه قرص الشمس لفترة وجيزة أسقطها للأرض ممتلئة بالغبار والعمى المؤقت، فرك عينه وعاد يرفع الفأس لأعلى ويهوى به لاسفل

أحفر يا ابن عبد الجليل، عل حد يفهمك، ليه أتولدت، أن كان الشقاء مكتوب على جبينك بسن قلم بوص وخط نسخ، ليه يجيء البنى ادم للحياه ونصيبه منها حياة الأموات، ليه لما دخلت التعليم فشلت، ولأى سبب نجيت من الحرب، وقصف رقاب الرفاق بالجمله أن كانت النتيجه هذه الغربه، يوم للمهانه ويوم للذل، وليه ارضك يزرعها غريب وانت هنا تقتات كما الحشرات الضاره فى أراضى الغربه، تتسول وعلى دراعك لفيت جبيره معقده من المسكنه والخوف ..

هذا الخط الطويل المحفور في الصخر تمر الايام عليه ولا ينتهى، هذه الحفره تشبه اللحد، عرضها عرض أنسان والشمس فى كبد السماء نار صافيه، ما أبشعها من حفره، ما أحنها من قبر فى الغربه، لو اتمدت يمكن تموت وتستريح، يمكن يبجى الحاج حميده يركل جسدك الميت بقرف.. هيا.. أضرب الصخر بالحجارى ، وحمل التراب بالكريك، وأعزف اللحن العظيم.. لحن الضآله فى زمن الغربه .. دراعاتك.. ما لك سواها تعنيك ع البقاء.. أرفع راسك يا ابن عبد الجليل مع الفاس، واحمد الله عند رفعها وعند سقوطها، حتى ينتهى هذا اللحد اللعين أو تنتهى انت .. يتمدد الصدر وينكمش، يثخر مثل الحصان يركض على سفوح البوادى، رأس الفاس محتاجه تخشين، مسمار قوى أو قطعه من الحديد، ترتفع سرعة الرياح لفتره وجيزه ثم تتلاشى، لحظات والسكون يحل فى الجو بعدها تلتهب الحراره ويحل

الأختناق، من على بعد تقترب العاصفة، الرياح المحمله بالرمال، حل موسم العجاج، خرج الرجال من خط الحفر يحتموا، تمتلئ العيون بالغبار، غمض وقوم إنسحب خلفهم.

حل ميعاد الغذاء.. صاح بهم الملاحظ الليبى.. هيا.. فتوجهوا فرادى وجماعات تجاه براكاتهم غرب الموقع، أمام الحانوت الوحيد الذى يملكة الحاج حميده، وقف عامل تشادى ينهرهم عن دخول الحانوت بلكنة عربية مكسرة، رغم أن السلع كانت رديئة، كانت الأسعار مرتفعة، أشترى ثلاثتهم علب السالمون، والجبن الدانمراكى المنتفخة، فتحوا احداها فإندفع منها رزاز من الهواء الفاسد فى وجوههم، أعرضوا عنها فى البداية، ثم مالبث المبروك أن أضاف لها الملح وقطع الخيار والطماطم وبدأ يأكل.. عندما لم يتوقف تشجع الآخرين والجوع يدفعهم.. قال أحدهم: مغص المعده ولا رمى النعمه.

– يا خوى كل من غير فلسفة .

* * * *

تمر الأيام والحفر لا ينتهى.. أحفر يا ابن عبدالجليل.. ما رأت عينى سوريا واحدا يحفر، فلسطينيا أو لبنانيا، الحفر، صب الخرسانات تفريغ الشاحنات، عمل المصريين وحفنة من التشاديين.. أحفر يابن عبد الجليل .

– كم الساعه ..؟

– ليه اشتقت للعشاء ؟

– يا اخى قول الساعه كام ..؟

– واه .. وزعلان ليه يا ابوى، الساعه تلاته.

– باقى ساعتين .

غمغم فى غضب .. لا بد من الشاى .

عبر الحاج حميده بجوارهم صاح: وين محمد السوادنى ..؟

أجابه مرعى بحماس: راح مع حضرة الباشمهندس عارف .

– شنو باشمهندس هذا، مافى باشا هون، باشا عندكم فى مصر، هون مهندس عارف وفقط، توا نشوف الزب ، وإستدار مبتعدا .

قال عبدالله: لازم باش وحضره .

أجابه مرعى بصفاقة: اقول عارف حاف.

امتى ييجى محمد السودانى بالشاى.. أحفر قبرك يابن عبدالجليل حتى يكون صالح لجثتك وجثة اللى خلفوك، الرحمة علينا تجوز قبلهم، أقلها ماتوا فى أرضهم وسط أهاليهم، مرة واحدة ورحلوا إلى الأبد، أما الموت هنا موت النفوس، ما أبشع هزيمة النفس، انسحاب الشرف فى الذات مثل فار مذعور، ما ابشع عذاب النفس، تنفس الوحل، محمد السودانى ظهر حاملا براد الشاى، أقعد تحت الظل وأرشف من الشاى الجميل مع أنفاس السيجارة،

وأفتكر خيبتك، وبعدها أرجع لقبرك، عدل من القدمين فى الحفر .

قفز الحاج حميده فجأة وخلفه وقف احد المهندسين، ضرب كوب الشاى الذى وضعه مرعى على الارض بقدمه على حين غرة، طار الكوب فى الهواء مخلفا وراءه رزاز الشاى الساخن، وقبل ان يضرب ضربته الثانية كانت عينا محمود تشكل حائطا منيعا من الشرر، اما المبروك فقد أخفى كوبه ملقيا به خلفه، وبتحد عنيد رشف محمود شايه على مهل، أمسك الحاج حميده بمرعى من قفاه متغاضيا عن محمود صائحا فى وجهه: يدخلنى ربى جهنم، أحترق كيف الشيطان ان ما كان عمر بوزوى يخسر ماله يا قواد، ليش الكسل، وين ضميريك يا تيس، مش تاخذ فى فلوس، أيش تعمل من ساعتين ونصف، ما فى شىء بُكَلْ، حتى الدرهم ما تعمل بيه حرام فيك يا بغل، كيف نديروا بالنا على مال الراجل مسكين، ربى الشيطان مسكين عمر بوزوى .

أقعى مرعى أمامه يرتعش خوفا دون أن يجرؤ أحد للتدخل لمساعدته، وكلما زاد إنكماشه وإسترحام عينه أشتدت عصابية حميده وأنفجرت براكين ساديته.

– تعال.. تعال يا عرس.. تعال هنا.. كنك تجرئ يا خنزير. جاءه العامل مثل حمامة تذهب إلى ثعبان فاغر فمه، ضربه بقبضته الحديدية فى جنبه. صرخ العامل وسقط على الأرض فاندفع يركله فى بطنه ومؤخرته، والسباب من فمه يندفع كالسيل مسترحما السماء والنار والشياطين على عمر بوزوى أزاء هذا النكرة الفاقد للضمير، فى حين كان المبروك يعمل لا هيا عن كل شىء، وقف محمود كاشفا عن نفسه للحاج حميده بإستهانه يتحداه، وقد أمسك بعبد الله توتر عدوانى بالغ، لكن الرجل تحاشى النظر ناحيتهما، تجمع بعض المقاولين السوريين والسائقين والملاحظين الليبيين، قال احد السوريين:

– ياحاج هدى نفسك، ليش بعدك تضربه، شو ما بدك اعمل يا رجال لكن لا تضربه مثل حيوان، اعطيه حسابه واصرفه والله معك ومعه.

همس شاب سورى فى اذن مرعى:

– ما بدك تروح الشرطه، الاخوان بيشهدوا معك، كلنا بنشهد معك.

لم يكن مرعى مستعدا لسماع شىء من هذا، فأبقى على نفسه متكورا يبكى لاعنا السوريين قبل الليبيين .. كيف اذهب للشرطه، يرحلونى على مصر أرجع أهز ديلى ذى كلب جربان، لا .. الصبر، هنا أقبض أجرى على داير مليم أخر كل شهر، هنا أحسن من غيره، خليه يسامحنى، أنا غلطان، ابوس نعليه، أشرب فى شاى وقت العمل، لك حق يا حاج .. الراجل الكبير محرصك على ماله، لك حق، انا الغلطان .

هز الشاب السورى رأسه وقال حزينا: غلابه يا مصريين ..!!

صاح الحاج حميده لاهثا وجسده ينتفض:

– هيا.. هيا فواله، تابعوا الخدمه، كنك يا ها (.....) ليش واقف متنح، ميل، ميل يا فواله، أرفع الباله لأعلى يا فواله.

فى الليل لعن عبدالله ارتعاده. قال:

– كنت خايف يقرب ناحيتى مش عارف كنت ح اعمل ايه .

قال عم عطاالله: وى.. وى.. ليه يا ابنى، ارض الله واسعه، فتح عينك فيه يخاف يبعد عنك، كيفه كيف الضبع ما يشم إلا فى الجيفه.

– نعمل ايه يا عم عطاالله، جينا بنفازى على رجلينا، الواحد ما عاد يعرف الصح من الغلط، الجبن من الحذر، الكرامه من صبر النداله، السعى للرزق من حد الاهانه، دى لقمه هم، مغموسه ذل ودم.

– الصبر يا ابنى، ربنا حكم علينا بالصبر، قوم، قوم نروح عند الواد كريم، قاعدين يغنوا ويرقصوا.

-٢-

اشرق الصباح ثانية كما أعتاد أن يفعل كل يوم، وأصطف العمال أمام المكتب فى طابور منتظم كلٌ يحمل فأسه وبالته. صاح بهم مصطفى: اليوم ننزل شكاير أسمنت من اللوريات، كل واحد ياخد معاه خلجه لأجل يحمى نفسه من الأسمنت.

همس محمود: يا ابوى، واد يا مبروك، يوم أسود من الكحل النهارده، قول لعم عطاالله وعبدالله يرجعوا حالا للبراكة .

لكن عطاالله رفض.. حدثه محمود متوسلا: يا راجل تعال فى عرض النبى محمد، علشان خاطر العيش والملح، غطى جلدك الاسمنت حامى .

– وايه يا اخى االى ح يجرى ..؟

– انت حر يا عم عطاالله .

تركوه مسرعين ناحية البراكة، غطى محمود كل قطعة مكشوفة من جسده، لم يبقى سوى العينين، وعلى الانف وضع قطعة من القماش القطن وأرتدى كل منهم قفاز بلاستيك مدخلا بنطاله فى جوربه رابطا إياه بحبل، ما أن بلغت الساعة العاشرة حتى كان العرق ينسال غزيرا مختلطا بحبيبات الاسمنت الملتهبه تكوى الوجوه والأعناق، كل جزء من الجسد تجد تلك الحبيبات المصنوعه فى جهنم طريقها إليه، فتحه بنطال، كم قميص، ياقه متسعه، إبيضت وجوه العمال التشاديين السوداء وكأنها أكتست بطبقة من الجير الأبيض المتسخ، والهبت العيون كفجوات الجحيم، والجميع يجرى دون توقف بين اللوريات والمخزن حاملين اكياس الاسمنت على ظهورهم، وحرارة الشمس تكوى الابدان، والكل يلهث كجياد تجر أثقالا فى مطلع حاد .

صاح عطا الله: يا بوى كنت فاكر ساعة ونخلص .

– قلت لك يا عم عطا الله

الفصل الحادى والعشرين

-١-

فى المساء وقفت سيارة فيات أمام البراكة، نزل منها رجل فى اواخر الثلاثينات، طرق الباب قبل أن يدفعه داخلا.

– الريس محمود هنا.

– ايوه .. اتفضل .. محسوبك.

– انا جاى من طرف عبدالعليم بك، ان شاء الله ح تكون الخفير بتاعنا، تقدر تحرس العده والخشب .. ؟ تحولت عينا محمود لعينى ذئب وهو يردد لنفسه.. دلوقت السفريه ح تحلو

– آباه، انا احرس بنى غازى كلتها يا ابوى، اقعد، اقعد اشرب شاى، والحاج حميده.؟

– لا .. بسيطه، الحاج حميده حبيب الباشا. سار خلفه يودعه وعاد وهو يفرك كيفه طربا.

منذ أن بدأ محمود العمل لدى عبدالعليم بك تابعه كظله، يحمل حقيبته، يعد له الشاى والقهوه ويقدم له المثلجات، وقد سرق لسيده كرسيا نظيفا من الموقع وجعله خصيصا له، مما أبهجه كثيرا، على هذا المقعد كان يجلس عبد العليم، ضخم الجثه، أسمر البشرة، تغضن وجهه الضخم الغليظ ، خلف نظارته تقبع عينين قويتين وأنف يبرز إلى الأمام، سكيرا عنيدا يعب الخمر ليلا حتى تنضح من مسام جلده مصحوبة بعرقه الحار، كان سمعان سائق المعدات يحضر له حال قدومه للموقع، ينجز له اغراضا ويساعده باللورد، بدأ الأمر غريبا فى البداية، وسادت الظنون بكونه مرتشيا، او ربما يشارك عبد العليم بك مائدة الشراب ليلا، الوحيد الذى فسر لهم سر ما يحدث محمود ..

– له يا ابوى.. سمعان ده اخو عشيقة عبد العليم بك، لبنانيه جابها معاه من بيروت، عبدالعليم بك مقاول كبير قوى فى مصر قبل الثوره. يقاطعه سيد: قبل عبد الناصر ما

يجيب الفقر معاه، اتأمم فى ٥٧، خرج من مصر ما معهوش شىء، فى لبنان بقى مليونير كبير قوى، دلوقت يزيد فى ماله الزايد.

وعندما يهل فى الصباح يجلس امام طابور الحفر الطويل، حيث يستقبله محمود مصطنعا إبتسامه واسعه على وجهه.

– ايه الجمال ده .. سجاير امريكانى، ياعم اعطينا مما اعطاك الله، السجاير الوطنى حرقت صدورنا.

يعطس وهو ينظر مبتسما للآخرين، يضحك عبد العليم، ويجيبه بصوته العريض العميق: الحمدلله .. خد.

يمد محمود يده لياخذ العلبة، لكن عبد العليم بك يكشر عن وجهه، وقد أعجبته اللعبة التى اصبحا يمارسها يوميا، يصيح بصوته الأجش الذى يحمل بقايا شخص مخمور: لا .. سيجاره واحده بس، يا حمار.

فيجيبه ساخرا: وه .. ليه الغلط، العيبه ماتخرج من فمك يا باشا.

– انت تفهم فى العيب يا محمود.

– معلش، سامحنا، عقلى على قدى، البرد والمطر بيهاجمنى فى الليل، السقف صفيح مخرم، بدى بطانيه يا باشا

يجيبه بأنفه ولا مبلاة: البطانيه !!.. يا اخى انت مش ح تبطل دوشه على البطانيه بتاعتك دى، يا سيد فكرنى اجيب له بطانيه علشان يبطل زن، أخرج ورقه نقديه وحدث محمود: اشترى بسكويت.

أحرجه محمود : اجيب معايا حاجه ساقعه تبل ريق سعادتك.

كان هناك بقية من العمال جالسين، ضحك بابتسامة ساخرة تكشف عن بخله: يا اخى وانت مالكك.

– علشان خاطر الباشمهندسين واشار إلى عزت وسيد.

– هو حد طلب منك، ولا عايز تتمحلس لهم، بطل نفاق .

– يعنى اجيب ميرانده ولا بيبسى.

يستسلم عبد العليم: خلاص الفلوس معاك هات اللى تجيبه ..

يجيب محمود ببرود وضحك: وهى الفلوس دى برضه تكفى ..

يصرخ فيه يلعنه ويسبه: هات وانا احاسبك يا اخى.

يصر محمود على أن ينكأ بخله: ياسلام انا اداينك.. عيب.. عيب.. على العظمه والابهه دى، يا باشا الحساب كتر، ولا اقول لك علشان خاطر الرجاله.

عندما يذهب يعقب عبدالعليم: ناس كلاب، تعض اليد اللى بتاكلها.. ونظر إلى سيد.. دول زى القطط تاكل وتنسى..

كان سيد يعلم أن عبد العليم يدعوا للتقيؤ، لا يتورع عن أن يكون مديونا لملاحظ أو غفير ولا يتورع عن تناسى ديونه.. قال: يا باشا محمود بيحب يهزر معاك، برضه طامع فى عطفك. أيوه هو ابن كلب، لكن كلب امين.. ضحك سعيدا بنفسه للنكتة التى اطلقها.

فى آخر الشهر كانوا يقبضون رواتبهم بشق النفس، وعبد العليم يتفنن فى تأخيرها، متحججا بأخطاء القياس، طالبا أعادته، فى اليوم التالى يختفى فلا يظهر فى المواقع أو المكتب ويمضى يوم وآخر وثالث وهو ليبحث عن حجج ما، خاصة مرضه الذى صار معروفا لدى العمال، لم يكن احدهم يستطيع ان يعرف هل تم صرف المستخلص أم لا، محمود فقط، كان يميل على الحاج حميده مستفسرا منه: المستخلص يا حاج.

فيرفع الحاج حميده رأسه فى ثقه وكبرياء: عمر بونوى ما يأخر درهم على عامل كيف بمقاول، ريسك أخذ مستخلصه ، تبى تحول فلوسك،هاتها أعرف واحد موثوق فيه، حاج حسن من مرسى مطروح .

– طبعا يا حاج انا وعبدالله والمبروك وبقية الرجاله نعطيك تحول لنا، بكم.. ؟

– اعلى من السوق السوداء بعشرة قروش، باهى..!

– باهى ياحاج.

عندما يواجه محمود عبدالعليم بك بأنه علم بصرف المستخلصات يبدأ ميعاد دفع الأجور، يتراخى العمال ويتباطئون وتنخفض الإنتاجية ولا يجرؤ احد ان يطالبهم بالجدية فى العمل، وعندما يحضر ومعه النقود ويتجمع حوله المقاولين والأنفار، يصيح قائلا بصوته المرتعش المخمور متبجحا: احنا ما ناكلش عرق حد، وكل واحد عندنا لازم ياخد فلوسه على داير مليم، انتم عارفين مين كفيل الشركة دى، واحد مليونير لازم نحافظ على سمعته.

ويحلو لمحمود ان يسأله: وانت تبقى ايه .. مش مليونير ولا ايه ؟

فيتغاضى وكأنه لم يسمع شيئا، ويخرج العمال يعيدون حساباتهم، فيجدونه قد خصم مبلغا ما مقللا من قيمة انتاجيتهم، ويرحل الماهرين والمخلصين، وتمضى الشهور ويتحول طابور عماله إلى مجموعة من العجزة والكسالى واللصوص والمرضى وحاملى البطاقات الليبية.

لم يكن يثق بأحد، يعبر عن ريبته فى كل إنسان دون فرق، مدققا فى دفاتر سراكى العمال، طالبا من عزت ان يتأكد من عددهم يوميا، معبرا عن شكوكه فى سيد.

– انت بتزود العمال يا سيد.؟

– طلبات الشغل.

– انت فاهم يا سيد، هى السراكي ح تحفر ازاى يا سيد ؟

– ازاى يعنى ..؟

– يا غبى..؟ العمال بتزيد على السراكى بس يا سيد.. يضحك سيد ضحكة صفراء يقول بلهجته الإسكندرانية: ايوه يا جدع ، عقلك بيروح فين، ازود عدد السراكى، هى عزبتى، امال خميس وعزت يروحوا فين.

يحملق بهم جميعا دون ان تطرف له عين : كلكم عصابه واحده يا سيد، انا عارف كل حاجه.

ما أن يحضر عبدالعليم بك حتى يسارع محمود بتقديم كرسيه الوثير، ويبدأ فى ممارسة هوايته المفضلة فى النفاق، وإيهامه بأنه رجله، يخبره بكل ما دار أثناء غيابه، ما أخذ من العدة ومواد الأنشاء، من دخل الموقع ومن خرج، من عمل ومن توارى هنا وهناك بحثا عن

راحة مدفوعة الأجر، يهتاج الرجل وكأنه يرى تراخى العمال لأول مرة، فيخصم من هذا نصف يوم ويصب لعناته على ذاك ويصبح ثائرا:

– ارفع الباله فوق، اللى بيشتغل كويس ح اعطيه واللى ما بيشتغلش يتكل على الله فاهمين ؟

يقول سيد : ياباشمهندس دول عصابه قبيله واحده، ريسهم العجوز خميس، مش ح تقدر تعمل معاهم حاجه ، وبعدين مين اللى قال انهم ما بيشتغلوش ، امال احنا بنعمل ايه.. يتجاهله عبد العليم محدثا عزت:

– تابع النشيط ، واعطى له ساعه اضافى..

بعدها يشيع سيد فى تهكم : يا عم هو بيقعد هنا اسبوع على بعضه ، ده كل يوم من مصر لايطاليا او بيروت ..

فى إحدى المرات تسائل عزت : مش مؤمن عليكم؟

عقب محمود : تأمين ايه يا باشمهندس دى القوه سلاكه .

– الله امال الشركه بتخصم الضرائب والتأمينات منكم ليه ؟

فى آخر الأسبوع هطل المطر بشدة ، سارع العمال بالأختباء بجوار بناء حجرى قديم، وفى الثانية عشر، حضر المهندس عبدالعليم فوجدهم متفرقين جماعات، نادى على سيد صارخا :

– العمال مبطلين شغل ليه ؟ هو انا فاتحها لوكانده ..

أجابه سيد : ياباشمهندس الدنيا بتمطر، الجو قدامك اهه.

– طيب روحهم النهارده نصف يوم.

ضحك سيد: لا ياسعاده البيه احنا فى ليبيا مش فى مصر، العامل هنا ياخد معاشه لو قعدته فى بيته، هنا بيعملو كده، رفع يديه مشير إلى أن الأمر خارج إرادته ..

صرخ وقد احمر وجهه: طيب والعطله دى !!خليهم يشتغلوا.

– تحت المطر !

– يعنى ح ياخدوا برد ولاسل، دول بهايم، قول لهم يشتغلوا، ح جيب فلوس منين.

– افهم ياباشا.. افهم، هنا لما الدنيا تمطر، العمال تبطل تاخد يوميتهم حتى لو اشتغلوا ساعه واحده بس، الله دى حاجه من عند ربنا، اطلع بقى حاسبه قول له معطلنا ليه، وبعدين ما تعملناش مشاكل، فاضل يوم ونخلص منها خالص، خلينا نسلم الهباب ده..

لم يكن قد نزل من سيارته فعاد غاضبا إلى الطريق الذى جاء منه، مال سيد على محمود قائلا : راجل متوحش، اهو ده بقى الاقطاعيين بتوع زمان اللى طردتهم الثوره ، تقول ايه للمجنون ده عايز يشغل العمال فى المطر، اهى بطلت لو كنت روحتهم مش كان زعل وصرخ فى بعلو صوته وقال : روحتهم ليه ياسيد، ح تخرب بيتى يا سيد، روح لهم من بيوتهم يا سيد، سيد العبد بتاعه، انا ناقص، اعوذ بالله .

نظر محمود إليه بعينى الذئب: طيب ما نشوف مصلحتنا يا عرب.

ضحك سيد : اصبر لما ننتقل للمرحله الثانيه نمشى الواد عزت، الجو يغلى واللقمه الهنيه تكفى اتنين.

كثر اللغط حول بدء العمل فى المناطق الجديدة، أثار دخول المقاول المصري لهذه المواقع السوريين والفلسطنيين بالجنون، هذا الأراضى البكر، المنشآت الجديدة التى تدر ذهبا، عمولات المقاولين، قومسيونات وسمسرة المهندسين وموردى المواد، سرقات المخازن بالأشتراك مع الخفر والسائقين، اتاوات الصنايعيه وتجارة رؤوس الأنفار، فى البداية لاحظ عبد الله والمبروك الثراء البادى على محمود، لم تكن تلك الملابس القليله التى أشتراها، ولا الموقد الغازى الصغير والسرير، والفراش النظيف ، ولا براكته التى إبتناها له وحده بالطوب الحجرى وصب ارضيتها بالخرسانه أو السرير الخشبى الجديد الذى أنفصل به عنهم، ولا المسجل الكبير نو الصوت الواضح النقى، لم تكن هذه معالم الثراء، ولا أسباب الشك التى شعرا بها تجاه صديقهم ورفيق رحلتهم منذ الحرب وحتى دخول بنى غازى، الأحساس البالغ بالأمان الذى أصبح يلوح فى كل حركه من حركاته، الغموض الذى اخذ يحيط به نفسه وتصرفاته، سكناته التى أصبح يتصرف فيها بحساب، العلاقة المريبة التى توثقت بينه وبين سيد وسمعان وسائق ليبى يحضر لهم ليلا لم يحاول عبدالله أن يفهم شيئا ولم يرغب فى الفهم، ورغم ان محمودا كان السبب فى تركهم العمل مع عبدالعليم بك، والعوده إلى المؤسسه إلا ان علاقة الثلاثة ظل ظاهرها وثيقا، أما باطنها فكان يموج بالشكوك والهواجس.

بدأ الأمر فى إحدى ليالى يونيو الحارة، عندما دخلت الموقع ثلاثة لوريات من الخشب تبحث عمن يستقبلها، أسرع نحوها كل من محمود وسمعان اللبنانى، طالبا من سائقيها تفريغ حمولاتها فى موقع عبدالعليم ، وطوال اليوم التالى كانت الشاحنات تتوارد على الموقع، حيث كان يتقاتل عليها مهندسوا ومقاولوا المواقع المختلفة، وعندما انتهى توريد الخشب أستلم سيد بقية الخشب المخصص لمواقع عبدالعليم على الورق، وتاهت الشحنات الثلاث الأولى، وبيعت شحنات مماثله لم تأت المواقع قط، وطيلة أسابيع كان سمعان يجر أطنان حديد التسليح المخبىء تحت الأتربه إلى مواقع عبدالعليم بك حيث يتم تشغيلها بدلا من شحنات قيل إنها وصلت الموقع حديثا ولم تكن قد وصلت قط، مقدمين الايصالات الدالة على ذلك، ولم يكتفوا بل أختفت ثلاث مانعات للصواعق يبلغ سعر كل منها ألف دينار، ثم فقدت هزازات وموتورات كهربائية صغيرة دون يشعر بضياعها أحد.

شىء غامض بدأ يشتعل فى رأسه لايدرى ماهو، الخوف الذى كان يتسلل داخله أحيانا، ربما لأن اختفاء الخشب والحديد لم يثر انتباه أحد، أو ربما لأن الحاج حميده شعر باختفاء تلك الأشياء الصغيرة، كل الموقع يعلم الآن بأن هناك أشياء تختفى، وأن يدا تعبث بالمعدات الصغيرة، وربما لأن سمعان الماروني كان متهورا مندفعا، وربما لأنه صار يفكر فى شىء ما، شىء أخذ يتسلل داخله وهو ينظر تجاه سيد حينا، وحينا تجاه عبدالعليم بك، وطيلة شهر تحول إلى ثعلب يشم الهواء، أين يخبىء سيد نقوده.. ؟ فى البنك، ربما راتبه فقط، عبدالعليم بك لا بد أن لديه آلافا منها، الأفضل الحانوت!! الحاج حميده.. كيف.. ؟ إذا كان

ثمة شيء فلابد من يوم عطلة حتى أستطيع الخروج من بنغازى.. لا.. لا بد من الخروج من ليبيا كلها فى نفس اليوم، هكذا مرة واحدة وتستريح، فعلا الخروج من ليبيا أسهل من دخولها، ربما تدخلها فى شهرين، لكنك تستطيع الخروج منها فى اثنى عشر ساعة على الأكثر، ولكن من.. وكيف.. ؟؟

* * * *

فى أحد الأيام الأخيرة من يوليو، زار عبد العليم بك بالموقع ثلاثة من رجال الأعمال المصريين، برفقتهم شاب هو ابن أخته، أستقبلهم بحرارة، وجرى محمود فى الأرجاء بحثا عن مقاعد ومشروبات مثلجة، تحدثوا فى حرارة وود شديد، وبعد أن شربوا القهوة قاموا فى دورة طويلة بالموقع، ثم عادوا ثانية متأهبين للمغادرة، وقبل رحيله معهم نادى على سيد وقال: اشترى خمسه كيلو لحمه.

رد بتفاهة: لحمة شوى

- ليه ح نشوى خمسه كيلو، شكلهم ياحمار وتيجى بيهم على طول.

- ازاى..؟

نظر إليه فى بلاهة ثم هز رأسه: ابعت لك العربيه، وانت؟ دار حول نفسه.. وانت يامحمود تعال بعد العشا..

رفع محمود يده مجيبا إياه بتحية عسكرية:

- طوارىء يا افندم، بس مش عارف البيت ثم مين ح يحرس الغنم.

- خلى حد يقعد بدالك، سيد ح يدلك وتعال وحدك.

مضى راحلا، وحتى الثالثه ظهرا ظل سيد بإنتظار السياره فى قلق، عندما ظهر السائق رفاعى، كان منهوك القوى، أشعث الشعر صرخ فيه سيد بغضب لتأخره.

- الراجل مش قال تيجى بعد ساعه.

رد عليه بوقاحة: باهى يا أخى كنا نتريح بالحوش.

- تتريح.. شد سيد شعره، بتروح الحوش تعمل ايه وسبه سبابا قازحا، فضحك الفتى: ليش شنو تبى تعرف أنت.. ؟

- يا ابن (.....) فيه حد.

- لا.. لا.. تباهت فى عويل قدامك..!

- طيب مالك كده منكوش ومفرهد

أندفع الفتى بالسيارة إلى الأمام بسرعه وهو يقول: جارتى قالت تعال، دخلتنى غرفتها، كان فيها صاحباتها وقالت.. انت رفيع وصغير نبى نشوف مين يغلب أنت ولا صاحباتى، رقدوا على التنين بقينا نتعارك، ماقدرت أتخلص منهم، حتى هربت من الشباك

أخفى محمود عنف توتره تحت إبتسامة بلهاء، سمع سيد يقول:

- آه يا ابن (....) وتنادوا بالاسلام.. ارتفع صرير العربة وهى تندفع إلى الأمام

يقودها الفتى فى جنون.

– كنك أنت ومال الإسلام، هادى أمور شخصية أنتم ما مسلمين.. ؟

– طبعا موحدين بالله

– شنو، قول لى كيف الأغراب ينزلوا الأسكندرية والهرم غادى ويديروا فى بناتكم كيف ما يديروا..

صاح سيد غاضبا: دول اللى تدورا عليهم مومسات مش بناتنا.

– طيب.. خلاص .. كل بلد فيه هَكِ وهَكِ .

تراجع سيد: صح، بس يا مجنون، حاسَب على عربية الراجل لحسن يوديك فى داهيه.

ارتفع من حلق رفاعى بحة تنم عن الأستهتار والأحتقار وعقب:

– منو.. !! الفوال هذا.

-٣-

تنامت الإشعات حول أفعال الحاج حميده السرية، وناوش المصريين البدرى بعبارات جارحة وأجتنبه العمال السلكاوية الذين إستضافهم يوما، وفى إحدى الليالى المقمرة شوهد البدرى يخرج ليلا، وهو فى أرتباك بالغ من حجرة الحاج حميده ضغطوا عليه فأنكمش مزعورا وشعر أنهم قد عرفوا سره، فى نهاية الشهر أنتظر بدرى مجىء الصراف، كان قلقا من قدوم الحاج حميده فجأة، بعدما غابت الشمس بقليل كان قد جمع حاجياته فى بقجة صغيرة وتسلل هاربا، مغامرا بالسير وسط معسكرات الجيش المتناثرة، وأحتمالات القبض عليه وترحيله.

الفصل الثانى والعشرين

-١-

فى الثامنة مساء عبر محمود مدخل إحدى عمارات شارع جمال عبد الناصر الفاخرة، على الباب الخارجى وقف عبد العليم بك مرتديا روبا احمر فاخرا من الحرير، تفوح من فمه رائحة الخمر ، وجسده يسد باب الشقة يمنع القادمين من التلصص، دهش عندما وجد محمود يقف أمامه، بادره بالسؤال وعيونه تمتلئ بشك متوطن داخله تجاه البشر.

- عايز ايه؟ ايه جابك .؟

وقف محمود محدقا به فاغرا فاه ، بصعوبه وقبل ان يستدير عائدا قال : انت..!! قلت لى الصبح تعال الساعه ثمانيه.

وكأنه يفيق من غيبوبة: ايوه .. ايوه .ادخل. يا كاميليا. ادخل هات فحم وولعه، تعرف تشوى؟

أجاب محمود وعيونه تبتسم بعد أن هرب الدم من وجهه:

- نشوى اى حاجه يا سعادة البيه، حتى البنى ادمين

- انت يا واد ايه ؟ مجرم..!! قَتال قُتَلَه !

- ايوه.. بسى عدوك يا بيه

فى شرفة غرفة الاستقبال الفاخرة جلس محمود يشوى، وهو يمسح الشقة بعينه الحادتين، وقبالته جلس الرجال الثلاثة والشاب يواصلون ما انقطع من الحديث. قال الرجل البدين

- السادات بيصلح ما افسده غيره، عشرين سنه والدخل القومى ينفق فى اليمن وفلسطين ومؤامرات فى سوريا والجزائر، حروب لا طائل من ورائها سوى الخراب، خير البلد اراقته احلام رجل مجنون

تساءل عبدالعليم: صحيح السادات ح يتصالح مع اسرائيل تصايحوا جميعا: طبعا، هو ده اول كارت لازم نقدمه لامريكا للحصول على ثقتها

قال ابن أخته: السوق، فتح السوق للقطاع الخاص والرأسمال الاجنبى. يا خالى الباشا القاهره تعد كى تستعيد مكانتها من بيروت، تعد كى تكون المركز التجارى للمنطقه.

قال القصير: زى ما قال ابن اختك، مصر تنادى اولادها اللى خرجوا فى يوم ما، لازم يرجعوا، البلد داخله على مجاعه، اذا تخلفنا تقع فى ايد الشيوعيين..

ساد الامتعاض والغضب، انتفض الأصلع متحفزا: انت بتخرف يا دكتور وصفى بتقول ايه.. السادات سحقهم لحظه عبور القنال.. عايزين الحرب.. حارب السادات وانتصر وحقق اللى فشل فيه عبدالناصر.. هزيمة اسرائيل والتحالف مع الامريكان، وعودة مصر لما تشرع به الاديان السماويه، النهارده يتم توسيع نطاق الطبقه الوسطى، السور الحقيقى لحماية المجتمع من الافكار والاضطرابات الاجتماعيه والحركات الهدامه، النهارده يتم تحجيم القطاع العام وخفض الانفاق الحكومى، فى نفس الوقت يعطى الضوء الاخضر للرأسمال الخاص الوطنى والاجنبى ويكل التسهيلات اللازمه.

- انتم فهمتونى خطأ، انا قصدى احفز عبدالعليم بك على الرجوع.

قال البدين بدهاء: انت بتخليه يطفش - ضحك وجامله الآخرين بالضحك - اللى يحفز عبدالعليم بك على الرجوع حجم اللى ح يبلعه.. وصنع بيديه ما يشبهه من ينوى إلتهام ديك رومى.

ابتسم الجميع وساد الجو الارتياح وكأنه قد أعاد الموضوع لمكانه الصحيح .. ومنذ هذه اللحظة أرخى ذراعيه وهو منتشى كمن التهم أنثى طيبة النهدين.

دق جرس التليفون ومن الداخل خرجت غادة حسناء فى الثلاثين شقراءالشعر ذات وجه ثلجى، نادت عبدالعليم: سمعان.

أجابها بصوت أجش: عايز ايه..؟

- شنو بيعرفنى.!

قال بغلظة: قولى له ما يجيش النهارده.

أنتفض وجهها كهره: ع ليش بدى اقوله.

- عندى ضيوف، خلاص.

هزت رأسها بلامبالاة: بلى.. يلا.. وعادت تحدث شقيقها.

نادى عبدالعليم: ثلج.. ثلج يانبويه..

جاء صوتها من الداخل: نبويه مو هون، انا بجيب الثلج عبرت الصاله إلى غرفة الأستقبال، حيث قدمت لهم قطع الثلج وهى تحييهم، عندما أظهرت رغبتها فى تناول كأس من الويسكى، سارع الدكتور وصفى بتقديمه إليها، أخذت ترشفه على مهل، جذبتها رائحة الشواء.

- قومى.. اللحم طيب

- باعرف.

دخلت الشرفة حيث وضع الشواء، وجلست على كرسى قريبا من باب الشرفة واضعة ساقا على ساق، سارع محمود بأنتقاء بعض القطع الجيدة، وهو يختلس النظر إلى ساقها البض، تناولته على مهل وقد بدا عزمها على البقاء معهم، قطع صوته الأجش الصمت :

اتركينا انت .

قالت مستسلمة: ايه.. يلا.

دارت في ردهات الشقه بتذمر، ثم عادت تجلس في الصالة أمام التلفزيون، ولكن صوته طاردها : اطفى التلفزيون يا كاميليا.

فعلت بعصبية. ثم جلست تشعل سيجارة. عاد القصير للحديث:

– عبدالعليم بك اسم كبير مضمون عند الاوربيين والامريكان، راجل له تاريخ، لم يهزمه التأميم والمصادره، بعد ان خرج صفر اليدين، هاجر وكافح من جديد، اليوم حان وقت العوده، امامنا السوق المصرى، الصناعه افضل الاستثمار، بعد ما يستوعب السوق المحلى الانتاج، امامنا السوق الخارجى.. قاطعه عبدالعليم بغضب:

– سوق خارجى ايه، وصناعه ايه، انت ح تعمل لى عبد الناصر، ح ندخل منافسه مع الامريكان ولا اليابانين ، يا سيد مصر بلد زراعى، ايه الكلام ده، لما نوفر الطعام نبقى نتكلم عن الصناعه.

قال الشاب: يا خالى، المطلوب استثمار يعتمد على العماله الرخيصه، صناعات يكون لها طلب شديد فى السوق المحلى والعالمى، السادات بيفكر ينشىء منطقه حره .. استطرد يطمئنه .. زى بيروت .

– فين يا عونى.؟

– بورسعيد.

انتشى وجهه: علشان الكلاب تبطل طنطنه بحرب سته وخمسين، طول عمره جمال عبدالناصر بينهزم، ويرجع يغرق البلد بالاكاذيب.

قال البدين ملطفا : كل ده بينظفه السادات، عموما نرجع لموضوعنا

قاطعه عبدالعليم: صناعة ايه، انا استثمر مليم واحد فى الصناعه، ليه ..؟ شايفنى مجنون !!

قال الدكتور بخيبة أمل: ممكن سعادتك تشتغل فى الاستيراد والتصدير، ده مجال يكسب دهب، ممكن نوفر عقد نقل للشركات الامريكيه اللى بتشتغل فى مجال البترول، اذا كنت شايف دخول ميدان الصناعه غير مجزى، فيه طرق جديده، ممكن نشترى علامة انتاج مصنع جاهز لملابس الجينز، ماركات عالميه لصناعات الادويه ومنتجات التجميل والروائح، معجون الاسنان وشركات السياحه، مدن سياحيه، ميزة الصناعه توسيع مساحة الطبقة الوسطى، وعندك البنوك افضل شىء النهارده .

هتف مندهشا: البنوك.. ممكن ؟

– طبعا، فائده مضمونه وربح مضمون.

– السادات جرىء قوى.

– السادات عازم بشكل جدىّ على فتح كل المجالات امام القطاع الخاص، على سبيل المثال: قطاع النقل العام، السكه الحديد لابد من وقف اى انفاق حكومى عليها، طيب باقى ايه ؟ باقى ان كل واحد معاه الفين جنيه يشترى عربيه ويشغلها على خط اجره علشان يصبح مالك، له مشروع خاص، اذا انا مكنت هذا الانسان ذو النقديه البسيطه من عمل

مشروعه الخاص، نكون قدرنا ننشر الحلم الامريكى الكبير، ياخالى الباشا، ما هو الامن الاجتماعى..؟ الامن الاجتماعى هو بيع الاحلام.

- وانت ناوى تبيع لى اى حلم يا عونى.

- لأ.. تعال بقى نتكلم يا خالى، تتكر لما عبد الحميد بيه طلب دريه بنت اختك للجواز، وخالتى وافقت، يومها كان بينك وبين الشلل لحظه، كنت اسمعك تصرخ وتقول لامى، ازاى دريه سليلة الحسب والنسب، بنت الباشوات تتجوز ضابط جربوع من اولاد الهلافيت، فى الحقيقه امها كانت على حق، عبد الحميد بيه حمى العيله طول العشرين سنه اللى فاتت، هرب الدهب بتاعهم، حماهم من مصادرات لجنه حماية الاموال، هرب الارض من لجان الاقطاع والمصادره، شاركهم فى مصانع التجميل والادويه، النهارده هم موجودين، انت غير موجود، بابا اتأمم مرتين ولم يهاجر، سلم لهم شركته وحولها لهم قطاع عام، وفى كل مره كان بيقسم انه لازم يرجع فلوسه على داير مليم وبالفوايد، ومن فين، من القطاع العام الاشتراكى، يوم ما احيل على المعاش حاولوا يقدموه للمحاكمه، لكن خلاص الوقت كان فات، تانى يوم الصبح كان على مكتب كل عضو من اعضاء مجلس الاداره كشف بما يخص كل واحد منهم من الهدايا والعمولات والسمسره والاهم السرقات، سرقاتهم، عمليات النهب والنصب الرسمى، كان لازم ملفه يقفل على الفور، ياخالى احيانا يحتاج الواحد النظر لدورة الحياه من الخارج، لا تظن ان ايام الملك ستعود علشان ترجع مصر.. التكيف.. التكيف هو الحقيقه الوحيده للانسان المصرى، التكيف وليس الانتظار، قبل الثوره كنت منتظر الملك ينعم عليك بالباشويه والظاهر انك لسه فى انتظارها، كان ممكن ببساطه تتكيف مع الملوك الجدد، ضباط الثوره، ما قدرتش، والآن لابد من التكيف مع ورثة العرش القادمين.

- ومين هم يا فالح.

- السادات اكتسب شرعيته من ثوره ٢٣ يوليو وعندما يرحل سيستقى الحكم العسكرى شرعيته من حرب اكتوبر ولكن عندما يحكم الضباط الصغار فيما بعد من اين سيستقسون شرعيتهم.. ليس ثمه ما يرتكزوا عليه فى الحكم سوى القوه العسكريه، هؤلاء الطغاة الصغار سيتقدمون للاستيلاء على السلطه المدنيه لينشروا الفساد المنظم، مصر سيرك منصوب ، سيرك لاعبوه وجمهوره حفنه من اللصوص، مجتمع من اللصوص، نصبه كبيره، طابونه اسمها مال سايب مال الدوله، مال القطاع العام، كل فرد فيه ينطوى على لص ما، خلقت الثوره انواعا غريبه من اللصوص، لص يسرق لنفسه، لص يسرق حقوقه ولص يسرق شعبه، لكن الغنيمه فين؟ كنز على بابا، على بابا الذى سرق اللصوص، عبدالناصر جمع ثروة البلد كلها ووضعها فى يد الدوله والقطاع العام، كنز ماورد على بنى آدم، كنز ما وردش فى تاريخ بلد، ثروة بلد بالكامل معروضه مش للبيع انما للنهب، لإن البيع مش ممكن شفت حد اشترى فلوس بفلوس، لأ.. شفنا حد سرق فلوس، طب ازاى ينتقل الكنز ده من تحت السيطره الاسميه للشعب التى تنوب عنه ، او بمعنى اصح تسرقه .. الحكومه.. الموظفين..، بالمناقصات النظيفه ؟!.

ومستحيل، بالفساد .. آيوه ممكن، وبانتقام الموظفين من فقرهم، انهب، انهب، انهب، يا خالى ثروتك كام ..؟ مليون، اتنين، عشره. اللى ح يمد ايده من دلوقت فى مغارة على بابا

يعبى ع الجمال من الكنز، عشر سنين ح يبقى ملياردير، يا تفهمها دلوقت يا تصير بمليوناتك فقير، يا باشا، السحب لسه ما بدأش، كله دلوقت تسخين، النهب الكبير مش ح يبتدى قبل تراكم الثروه فى ايدى الطغاة الجدد، الضباط وكبار موظفى الدوله من المدنيين، ثروة مصر معروضة للبيع شرط ان يكون لرمز الحكم النصيب الاكبر، وكى يكون لديهم فائض للشراء وبالثمن البخس

يجب علينا ان نبنى نحن ممثلى الرأسماليه المصريه شبكه واسعه مع الوصى على البيع، هذا عالم ثالث عايز تعيش فيه..؟ اتحالف مع العسكر، ممكن تلزق ذقن، صحيح فاشيه مقنعه، لكن الله غالب، هذا هو الواقع، ولحد اللحظه لم يبدأ المزاد، والسؤال تحب تتكيف وتشارك، ولا ح تنتظر انعام الملك عليك بالباشويه.

قال متثفقا: جنرالات تانى.

– يا باشا اذا كانوا هم القوه الوحيده التى تملك السلاح فى بلاد لاتعرف الديمقراطيه، فلابد من تقاسم الثروه معهم.

افكار خطرت على ذهن محمود، وهو ينظر ببلاهة إلى الدكتور الشاب، ردد لنفسه: ابو الغلابه مات، عبد الناصر مات و قعنا فى ايدين اللى ما يرحم.. أصطدمت عينا محمود بعيني عبد العليم، شعر بهما مملؤتين بالانبهار، أشار إليه بالخروج.

– تعال، اشوى فى الصاله.

– الهباب يا بيه يوسخ الفرش.

– انت مالك هو كان فرش ابوك.. !

– اه.. وانى مالى وانى مالى، أنى تحت امرك.. قام محمود بجمع بقايا المائدة، دخل بها عبر الشقة حيث كانت كاميليا ممددة على أريكة فى الصالة.

فى الطريق إلى المطبخ كان كل ركن من أركان الشقة ينطبع فى ذاكرته، الباب ذو الثلاثة أقفال، المطبخ ونافذته المطلة على المنور الداخلى خالية من الحديد، أطل منها، قربها من السطح، الدور قبل الأخير، لحظة أن إستعاد رأسه من النافذة. فوجىء بعبد العليم يسد باب المطبخ داهمه الاضطراب، ضعفت عيناه أمام الرجل الضخم وصوته الأجش يهاجمه: بتعمل ايه يا واد.. ؟

لم يكن يستطيع التنفس، وقد أنحبست الكلمات داخله.

– عمال انادى عليك من الصبح، هات تلج؟

تنفس الصعداء: حاضر يا باشا، كنت باغسل الصحون.

– جدع يا واد، وهى بتعمل ايه .؟

– السنت نايمه .

ردد عبدالعليم يحادث نفسه:

– عايزه تجيب سمعان ..! طب افرض بنتكلم فى اسرار، ييجى سمعان ليه؟ عايزين يعرفوا كل حاجه هى واخوها.

مال بجسده يستند على الثلاجة، كان مخمورا ينثال من جسدة عرق غزير، وكلما تجشأ أنبعثت فى الفضاء الرائحة النتنه للمخمورين، سندة محمود بحرص : عايز ايه يا بيه وانا

اجيبه .

– ثلج يا واد .

– حاضر، اقعد انت بس وانا اجيبه حد عندك .

– لأ .. دلوقت .

– حاضر يا بيه .

تحدث بصوت مخمور: تعرف يا محمود انا حبيتك، علشان باين عليك ولَدّ جدع، انا باستأمنك على حاجتى؛ مالى؛ سمعان الشهر اللى فات سرق متين دينار، انا عارف هو اللى خدهم، لكن انت باين عليك ابن حلال، انت مصرى زى ، وابن بلد ..

فى هذه اللحظة تيقن محمود مما ينوى فعله، لقدتجسد له هدفا مكشوفا ، وهو يتحرك نحوه بامان وإستقرار بالغين .

– يا بيه انت مرادى وغيتى، انا نشيلك فى عنيه، احط صدرى يحوش عنك الرصاص، مش عايز شىء من سعادتك، يكفينى رضاك .

أثلجت كلماتة صدر عبدالعليم وإستدار خارجا سعيدا بنفسه، راضيا بالحماية المجانية التى تعرض عليه، هاتفا داخله يعنفه، جرى ايه يا عبدالعليم، هو يشتغل بلاش ؟! لو طلب زياده ..؟! .. لما يطلب، لن اكون حكما بين خصمين احدهما انا .

–٢–

من داخل البوفيه، ظهر غلام هادىء الحركة، أجعد الشعر قوى البنية، غبى الملامح، فى الثالثة عشرة من عمره، تنام عيناه فى وجهه المدور الأسمر على بحر من البؤس والتيه، تذكره عبدالله، كان رفيق تلك الليلة السوداء التى عبروا فيها الحدود .

– واد يا رضا، رضا، ايه اللى جابك هنا .؟

– خال عبدالله ..!! الرزق يا خال .

– يا ابنى انت قد التعب ده، لسه ما رجعتش مصر .

– رجعت مره واتنين .

قال المبروك بسخرية: والحال عامل ايه .؟

أجاب الفتى بصدق: الحمد الله، الاشيا معدن .

– ليه .. اشتريت ارض ولا بنيت عماره ..؟

– يعنى مش كده يا خال اهه .. ورانا اللى بيروح مدرسه، واللى على وش جواز .

– يا بنى مش تبطل هجس وتهويل .! دانت عايز حد يوديك مدرسه .

قاطعهما المبروك: اوعاك تصدقه، تلاقيه هربان من أهله .

– ابدا والمصحف الشريف، مش مصدقنى، وربنا المعبود اجرى على غيرى، هو الواحد

لازم يحكى .. كادت الغصة تخنق الصبى .

قاطعه عبدالله: خلاص يا رضا.. خلاص، بس خد بالك من الحاج حميده، هه .

لم يفهم الصبى ما يعنيه عبدالله، وعندما وقف عبدالله فى صف العمال فكر لوهلة ثم عاد إليه مسرعا: اسمع، لازم اقول لك، الحاج حميده، راجل مش ولا بد - نظر الصبى نحوه مستفهما - استطرد، فهمت ..؟ خد بالك من نفسك، تنام عندنا .

أسود وجه الصبى خوفا: طبعا يا خال، والله انا عايل هم النوم .

عندما شاع فى الموقع أن المهندس عبدالعليم أستلم نصف المواقع الجديدة، دوى الفضاء بحرب مريرة واستعجل السوريين مهندسيهم ومقاوليهم من مشروع مصراته، وأمام عينى المهندس عبدالعليم وطاقمه المصرى كانت اللوريات المحملة بأخشاب البناء تخطف من الطريق الرئيسى وتفرغ عنوة فى مواقعهم وهو عاجزا عن عمل شىء، أشتكى للحاج حميدة أبتسم، ورفع يديه غير مبال : مايهم هذا عمر بوزوى فى شىء، نشهد الله السوريين يشتغلوا كيف الشياطين، هو يبى الموقع يقيد نار، هات خشب يا باشمهندس وأشتغل .

صرخ عبدالعليم: العقد مش مذكور به خشب، أشترى خشب على حسابى ؟

- ما ليش دخل .

الفصل الثالث والعشرين

-١-

غدا عطلة من يومين، الجمعة والسبت، غسل ثيابه ليلا واستحمم، فى الصباح الباكر ارتدى ثيابا نظيفة وتناول الشاى، تشمم عبقه المختلط بالنسائم الباردة لفجر صيف معتدل وقد خيم السكون على مواقع العمل، والمنشآت التى لم ينتهِ العمل بها تبدو كأشباح عبرتها جحافل البشر ثم خلفتها تاركة الهدوء المثير الذى يصنعه يوم بلا عمل .

هدوء .. هدوء يرخى بأجنحته الممتدة تحت شمس باردة. هدوء خالٍ من المشقة الجسدية للعمل، والمشقة النفسية للعلاقات البشرية التى يخلفها ثقل الإدارة الوطنية على المازجرية ، خرج يخترق الجزء الباقى من الغابة الذى لم يجتثه الجيش بعد لحساب منشآته، وسط جحافل من الحشائش الخضراء الكثيفة الملونة ببقع الشمس الضوئية، تنفذ عبر أغصان الأشجار العملاقة، تنفس الهواء المنعش الجميل متوغلا الغابة وقد عاد لكل شىء، الأرض، العشب، الأشجار العملاقة، الهواء إلى بدائيته وبكارته الأولى .

فى بقعة خضراء وارفة تحيط بها الزهور الزاهية الألوان من كل جانب تمدد على ظهره ناظرا إلى السلاسل الضوئية المتسلله عبر الأشجار يداعبها بعينيه، شىء ما يخدر روحه وقد أصبح الزمن خفيفا، تنفس سحر الطبيعة، الكوخ الخشبى حيث ثمة بشر تحيا، رجل وامرأة، تحلل ذهنه المكدود وأخذ يتلاشى، غفى.. وسط الغموض أطلت على استحياء عينين عميقتين شديدا السواد تسبح على بحر من الصفاء العميق .

.. عيناك واحة فى غربة الشيطان، والندى على وجهك الخمرى برد وسلام.. بحبك كما حب الاميره شامه الملك حسان .

– تحبنى.. انت تحبنى.. ايه اللى تعرفه عن الحب يا ابن عبدالجليل، ايه اللى تعرفه عن الحب، بعد ما سلمت لك انصاف السويسيه عرضها، صرت تحسب نفسك ابوزيد الهلالى سلامه، تسمع فى الليل فتحى سليمان الشاعر، تغنى له ، مره عن الهوى ومره عن النزال وركوب الخيل، الصبح ترجع والارض مش حملاك، ديك منفوش، طب تشوف ازاى ضيق

الرداء بالنهد، ولا وجيب القلب فى انتظار عودتك، ولا صرخة الآه وانت بتخطب م البنات كل من هب ودب، انصاف السويسيه ما كانت تهمنى، فى يوم كان لازم تغادر البلد وتعود من مين ما جت، لكنك ما كنت ترانى، آه يا ابن الكلب، ايه اللى تعرفه عن الحب وكل شىء تحصل عليه بالساهل، لا انت سهرت من الجوى، ولا النوم جافى عِنَيك، ولا فى يوم وضعت ايدك فى سلوك الكهرباء تبغى الانتحار .

– ليه يا بنت الناس بعدك مثل الجمل مخزنه .

– لأنه يصعب عليك لما تعرف ان اللى تحبه حمار، ماش ورا اهله عاوج طاقيته زى عرف الديك، يعرضوه فى سوق الجواز مثل اللى يبيع فى سوق البهايم فحل، وانا الحزينه يجيش قلبى من الفرح لما الخطوبه تبور، بتحبنى يا ابن عبدالجليل.. ليه .. ؟ عمرى ما اصدق.. كنت بتخبط على باب دارنا، وانت نازل من الجيش اجازه قبل ماتعدى تشوف امك وابوك، مثل ما كنت تفعل مع بنت الغنايمه .؟! وانا اللى كنت كل يوم اتسمع الاخبار عن الحرب وقلبى بيرتجف عليك، افرح انك لسه حى وانت راجع من سهرة ليل طويله عند واحده خطبتها .

– كنت لسه صغيره، كان عمرك اتناشر سنه لما دخلت الجيش .

– سبع سنين وانا باحبك يا ابن المفحور ولا انت دارى، لا اَمَلْ الانتظار، اترصدك وانت خارج، وانت راجع اصطدم بيك فى طريقك، علك ترانى بعينك اللى اصابها العمى، فالح بس تتعارك مع اولاد عبدالرؤوف، لما يعاكسوا البنات الراجعه بالليل فى درب الوسطانى، وانا علىّ باب الدار قاعده فى الضلمه اكل فى نفسى، يا ترى اتفتحت دماغه ولا جرحه صغير، وهى بنت الحاج هباب فيها ايه علشان يضيع نفسه عليها، سبع سنين وانا فى انتظارك، ولما تجبنى دارك تفوتنى وتقول لى عزمت على السفر، سبع سنين اتحمل الوحده على فراش خالى ولما تصير حليلى، اشم ريحتك ، اريح جتتى المشتاقه على صدرك تقول مهاجر.. حرام عليك.. حرام، دى بخت ده ولا قدر مكتوب .!

– دلوقت صرت حليلتى .

– حليلتك بعد ماضيعت من عمرى السنين، وآدى انت ماشى مهاجر كمن اشترى زوجه ورماها فى مدود بهايمه ورحل، ايه.. اسوى بيك ايه، وانا لم يمر شهر من زواجى عليك، ايه راح اسوى من غيرك يا ابن عبدالجليل وانت بعيد عنى والفراش خالى، الرحمه يا ربى، ليه العذاب مكتوب على بنى آدم .

– اتكلمى .. لاتتوقفى عن الكلام، اعشق شفايفك المرجان وفى العينين بحر الحنان، اتكلمى واطلقى راسك لليمين والشمال، مهره ترمح فى البيادى وعلى الشطآن، يطير شعرك الاسود على الوجه الجميل، يرخى على النهدين فرخين حمام، يطل الفجر من ظلمة الليل الطويل الآن ارقد فى بحر السكون والعتمه والليل يدلى على بخيمته الحالكه، لا نجوم ولا مصابيح، اتكلمى، لا تمنعى شلالات الابتسام، لو اننى لم اضم فرعك العالى، حمرة الفخدين، وهج الشجن، سيل الحنين، لو لم ينحفر فى الذهن طلاوة النهدين، ظهرك العارى، ما كنت آمنت بأنى عبرت هذه الارض، مين ينتشلنى من جدب مفازة النفط، غير الذاكره ، ووجهك الجميل ، محاكمة الاعراب لنا طول زمن الاغتراب، الاتهام بالخيانه، والسب بالفقر،

واكل الفول ، والمفاخره بانتهاك عاهرات القاهره والاسكندريه وشبكات القواده وخاصه لما تديرها زوجة العقيد فلان، وكأنه امر القصد منه تدمير سمعة الجيش المصرى، تسمع حكاياهم تطل من افواهم، فخر غريب، غرور جيوش الفاتحين، نشوة الغزاه، اجتياح قبائل القرود للبندر، شاهره سلاح الذهب، تخيم عليك رياح المذله والهوان، عجيب لما يتحكم الاجلاف فى الحضر، نام يا ابن عبدالجليل، نام، اهرب من المتع والترضيات اللى يحصلها الحاج حميده من عاهرات الاسكندريه، ومن سرقة عجل السيارات الفاخره فى حواريها، ومن حكايات عارف المهينه لما يبقى كل اللى يحمله من ذكريات القاهره تلجم اللسان بالحيره.. اطلب الرحمه للى فات سدود، حسن مرعى. لما حرمت عليه القاهره عريها المنهوك والمنتهك، ورمت به رمى الكلاب لغرفه وضيعه فى حى من اقذر احيائها، يداعب الكسل فى بحر الحشيش ويغيم مع الوسن فى حضن بائعة اللبن .

صوت أنثوى منغوم تداعت ألحانه الحادة وسط شدو العصافير فى الفضاء المفعم بالفتنة لغابة تستشرق الصباح الباكر، استرخى وهو يرى امرأة شابة تخرج من فناء منزل صغير يقع على حد الغابة الغربى حاملة بين يديها الحب والماء لحظائر الدواجن والطيور وثلاث عنزات صغار، لمحها مشمرة أكمامها يتبدى ساعداها أبيضين كالقشطة، وعندما انحنت أمامة عب من لدونة ساقيها البضتين، وتقاسيم مؤخرتها القوية يبرزها سروالها الذهبى المقصب، تخطه خطوط حمراء عريضة زاهية، استدارت نحوه لاتراه، وجهها الحاسر يبرز عن وجه مستدير ناصع البياض، مشوب بالحمرة الدافئة ، شفتين ناضجتين كحبات الكرز، وبين جدائل شعرها الأسود الغزير ارتكز وجهها على عنق أملس طويل، حدقت فى الأرجاء زهوا بعينين تملؤهما خضرة الغابة عائدة إلى منزلها، ظل يتابعها متلصصا وهى تروح وتجىء لا تدرى بوجوده، والحياة تنبعث فى داخله تزيح جفاف حياة الذكورية التى يعيشها منذ ثمانية أشهر، أمضاها منذ عودته من الوطن للمرة الثانية فى مواقع العمل الشاقة، على امتداد زمن طويل ظل يسرق على مهل كل قطعة من جسدها، ساعديها، استدارة النهدين، كبر حجميهما، وجهها البدرى الشبق، ومن المخيلة ظل يشكل مكدودا كل جزء لا يراه، ظهرها القوى العريض الخالى من الشحوم المقام على خصر ضيق وعجز فرس قوية، بطنها الكثيب، فرجة الساقين المصبوبتين من الرخام، حمرة النهدين القانية طائرين يقفزوا على صدرها العريض، سرق جسدها وتاه به وصعد فى خضم عيناها النجلاوين، وسط دخان السجائر.. عندما غفى ثانية تاه وسط الحشائش العالية، وفى نومه جرى خلفها، طاردها فى جميع الأماكن، الصحراء القائظة، سفوح جبال الجدب، بين أشواك أشجارها القزمية، ذؤابات المياه لبحر بلا شاطىء، عندما اختفت خلف نجوم المجرة ظل يفتش عنها، وراء كل كوكب، وكل نجمة يجمع أشباهها، وأشباه ابتساماتها، ونظراتها الخدرة، وتلك العطوف، والمستنكرة، ونظراتها اللعوب، وخلف إحدى الجزر البدائية اصطدم بعنف بجسد غاب عنه الوجه، أمتلأ كل كيانه بالشبق حتى صعد ذروة موجته، أسرع يستعدل من جسده وهى تتوه عنه ثانية، تتلاشى وسط الفضاء، وعندما فتح عينيه كانت الغابة تفوح برائحة الشبق، عب دخان سيجارته بعمق، وأخذ يحاول ارتقاء جبل الشبق ثانية تاركا جسده يستجلب أجساد

النساء من أنحاء الذاكرة، تبادلته أمواج اللذة عاتية تطيح به بلطماتها، وهو يبحث عنها فى كل مكان، يجرى كالمجنون، تفر من أمامه عارية كجنية بحر، تملأ سطح المياه بالنشوة ، وعندما اختفت كان يلهث، انقلب على العشب ، كان جسده الآن يرتطم بعنف وأمواج النشوة تتقانفه، ترك جسده معلقا بين التيارات المتعارضة والبحر يحمله إلى جزر بدائية شتى، مسافات لا نهاية لها حتى عادت له جزيرته الأولى، عندما ألقاه الموج على سفحها مكفيا على وجهه، يمتشق جسدا ذهبيا، موغلا فى الغوص، ممسكا بكل ملامحها فى مخيلته، تتبخر مسام جسده تمتزج بالتربة الحمراء للغابة، يتلاشى كل شىء، يتلاشى الأفق تتلاشى الذاكرة، يتجمع كل شىء فى ذكورته، تجيئه تضغط عليه بجسدها المهرى، يجاوبها باندفاع كشهاب يخترق أجواز الفضاء، ومن اللا شىء، من العدم تنبعث النشوة، صاخبة حينا وحينا مرواغة، مرة كالعلقم وأخرى كالشهد، يجمع جسدها الشهوانى بين جسده قبل إنفراجة الشهوة فى قيظ الاستواء الملتهب، لا يطفئه وجدا ، ولا شلالات المطر المنهمر، إنما تجعله يخبو رويدا رويدا ثم ترحل تاركة وراءها مرارة العلقم، وصداعا فى الرأس، وبللا فى سرواله، قام فى وهن ميمما شطر البراكات الخالية، وعلى فراشه المتسخ المصنوع من الإسفنج الرخيص تمدد ليرحل فى غفوة من هامش العدم، وعندما استيقظ بعد رحيل الشمس كان محمود يطرق بابه .

– تعال يا وله .

قام يجرى خلفه: جرى ايه يا واد يا محمود .؟

شاهد المواقع الخاصة بالمهندس عبدالعليم مضاءة كالنهار، والعمل قائم بها على قدم وساق، والقلابات المحملة بالخشب لا تتوقف عن المجىء، وقد تصاعد ضجيج البلدوزرات تحفر كل شبر تستطيع الوصول إليه، كان السوريين يهاجمون المواقع المصرية، جرى كلاهما نحو الموقع وأمام خزانات المياه التى لم تصل إليها البلدوزرات بعد، حيث كانوا يحاولون إزالة الخنازير الخشبية الخاصة بمواقع عبدالعليم بك ، تصديا لهم بالعصى، توقف السوريين وبدا أن الجميع على وشك الاشتباك، كانت عيون محمود تؤكد ما ينتويه.. من بعيد ظهر أبونديم مبتسما.. تبادل وإياهم التحية. قال عبدالله لأبو نديم: الموقع متسور بالخشب .

– ايه .. فهمت عليك .

عقب محمود: معقول يا ابونديم، ده كلام .

– طول بالك شوى .

واستدار يحدث أحد المهندسين السوريين، ودرأ للعراك، أشار المهندس السورى لرجاله بالانصراف عن هذا الموقع.. قبل أن يستدير راحلا قال وعلى وجهه سيماء الحزن:

– تدروا ايش جرى لنبيل ؟

صرخ عبدالله: لأ ..!! فيه حاجه .

– الشرطه قبضت عليه .

– ازاي.

– زوج البنت هاديك، صار يترصده، ولما صار هيك سوى أله كمين.

– فين ..؟! .. عندها .

– لأ.. انتم مليح اللى غادرتم درنه وإلا كنتم مَشَرَفِين معاه بالسجن، هو دار شغلانه مو نظيفه، ووضع عنده دهب وفلوس وهيك اشياء وصار يتهمه بسرقتها .

ضرب عبدالله رأسه بقبضته فى أنزعاج ومحمود يهتف:

– وه يا بوى، ضاع نبيل يا ولداه، وضيعته القحبه .

زام أبونديم: ولو، وقفت معه متل الرجال، هلىء بتوقف له محامى وبتزوره، ويعدها طالبه الطلاق من زوجها ..

سأله عبدالله متجهما: امتى تنزل درنه .

– ليش بدك تروح أله

– مافى شك .

– لأ، ما تستطيع تقابله، بتعرف انتم فى موقف لا تحسدوا عليه، اكتب له رساله، وهيك اشياء، وانا بزوره كل ما بروح على درنه .

– نجمع له فلوس ونعطيها لك توصلها له .

– خلى عنك مو محتاج، هى بتصرف عليه وبتقضى له كل اغراضه .

– ولو لازم فلوس له من اولاد بلده .

* * * *

في الصباح فوجىء عبدالعليم باحتلال السوريين لثلثى مواقعه، كانوا قد انتهوا من الحفر، وبدأوا فى صب الخرسانات، وقف رجاله حائرين، ذهب البيك يهز جسده الفخم وهو يشتكى للحاج حميدة:

– هو نهب، هو نصب، هو احنا فى غابه، دى كلام ماينفعش، انا معاى عقد، هو الشغل مالهوش صاحب ..

لم يكن أحد يستمع إليه، وأمامه وقف مهندسين يكشرا عن أنيابهما:

– احنا معانا امر بالشغل من المهندس زياد .

– طبعا، سورى زيكم، انا معاى عقد من عمر بوزوى، الله يا حاج حميده ساكت ليه .؟

أجابه بلا مبالاه: المهندس زياد مدير المواقع، أنا هنا ملاحظ، هادول هم المهندسين .

– انا ح اروح اكلم عمر بوزوى .

– لا تغلب نفسك، عمر بوزوى فى إيطاليا، مو موجود .

– اكلم الأخ عمران .

– مسافر معه .

صاح بصوت عال: يعنى مسافرين وسايبين الموقع سايب .

حدثه المهندس غسان بغلظة: حدد كلامك يا باشمهندس، انت هنا مقاول، وعمر بوزوى ما يسافر ويترك الموقع سايب، عندك مدير المواقع المهندس زياد كلمه .

– ايوه اكلمه، انا اعرف ازاى اكلمه، ده عقد، ارفع بيه قضيه على مؤسسة النصر .

– خلاص هذا موضوع آخر، اتفضل هو موجود بمكتبه بالاداره .

واستدار تاركا إياه حيث كان سيد يشتبك مع أحد سائقى عربة الخلط الخرسانية السودانيين يحاول منعه من صب الخرسانة بالقواعد وهو يصرخ: دى ورشة الدبابات الخير كله فيها، القاعده فيها بمكسب عماره، انتم عالم كفره .

ويجيبه السودانى بلطف: يا زول بَعَدّ وما تصيح ، هاذى اوامر المهندسين .

شاهد المهندس السورى قادما فرفع من صخبه وبقى السائق فى عربته حائرا نادى عليه المهندس غسان: كيفك عم ابراهيم، هيا، رد للوراء، هيا يا اخوان مستحيل هيك ، بدك تعطل العمل .!

تراجع سيد وهو لا يتوقف عن الشكوى فلما شاهد عبد العليم ينسحب، تهاوت مقاومته، وتراجع مقهورا والخرسانة تنساب تملأ قواعد ورشة الدبابات .

عندما عاد عبد العليم فى الظهيرة، علم الجميع أن اتفاقا قد تم، بأن يستكمل السوريين عملهم في المواقع التى استولوا عليها، ويؤجل الموقف بأكمله لحين مجيء عمر بوزوى، وعلى أن تتحول سيارات الخشب منذ هذا اليوم إلى مواقع المهندس عبدالعليم، الذى جلس أمام الكشك الذى ابتناه محمود بجوار المخزن يندب حظه: يعنى انت يا سيد حمار، وايه لزمتك، شايف السوريين بياكلوا الخشب آكل، يسرقوه زى الشياطين، جن مصور وأنتم تاكلوا وتشربوا وتمرعوا، وآخر يوم فى الشهر لو مليم اتأخر تموتوا عليه، ماهو شغلى شغلكم، ورزقى رزقكم، لما يكون عندى شغل مين يشتغل غير المصريين، بس مصريين ايه، الله ينعلكم وينعل جدودكم، تاكلوا فى بعض زى الديدان، شوف السوريين، عصابه، عصابه واحده تقوم قومة راجل واحد.. ونظر إلى سيد .. حرام عليك لقمة العيش اللى بتاكلها، كنت فين يا سبع البرمبه، كنتم قاعدين تحششوا.. لم يأت على ذكر محمود بكلمة، كان يعلم أنه الوحيد الذى استطاع أن يحتفظ له ببعض المواقع، كان يفكر.. أين ذهب الخشب؟ شهر ونصف ولم يدخل مواقعه سوى ثلاث شحنات خشب، أقام بها الشدة الخشبية لمبنى القيادة ومحطة البنزين فقط فى الوقت الذى زرع السوريين ثلاث عشر مبنى من المبانى الضخمة.

– بتعملوا ايه يا بهايم يا ولاد الكلاب.

وقف سيد أمامه غاضبا: بقولك ايه .. روق دمك .. انت ناسى انهم واخدين الشغل لحسابهم.. احنا بنشتغل يوميه.. ايوه فوق.. فوق لنفسك وما تندبش زى المره.. انت عارف انت بتعطينى كام، تسعين دينار، باشتغل لك ملاحظ ومهندس وسباك وخفير، واشترى لك اللحمه والخضار، واصلح لك العربيه ومش عاجب، كمان، مدير مخازن ومحاسب وصراف، اتقى الله يا مؤمن، جرى لك ايه.. انت عارف السوريين بيعيشوا ازاى.. اسره واحده ياكلوا ويشربوا مع بعض، مش زى حضرتك عامل بيه واحنا عبيدك، لأ.. ظنك اموت نفسى علشان خاطرك. افتح مطوه ولا سكينه اضرب بيها حد منهم، بامارة ايه بقى.. عيالى اللى ح يتيتموا. ولا العيش والحلاوه اللى عمرك ما ح تبعتهم لى فى السجن، اذا كان حد ح يشوفك، ما احنا بنشتغل عبيد عندك، خدامين عند سعادة البيه ، والله العظيم ما انا مشتغل .. هه .. واستدار راحلا ، جرى خلفه محمود وبعض العمال ، أمسكوا به ، لكنه أصر على الرحيل

، تخلص منهم وأسرع نحوه صارخا ، وعبد العليم ينظره مذهولا .

– احنا بهايم .. عيال .. احنا ولاد كلب ، طب على الطلاق بالتلاته لأنى تارك الشغل مكاك ، ونبقى نشوف يا خمرجى يا سكرى ، ياللى عايش فى الحرام ح تعمل ايه .

لم ينطق ببنت شفة .. رمشت عيناه وتغضن وجهه ، ثم سقط على الأرض مصابا بأزمة قلبية حادة .

فى المستشفى تراجع سيد عن قسمه وقال : انا نصوم تلات ايام علشان خاطره ، لأنه فى المستشفى ، هو مصرى ، واجب علينا نعمل فيه خير ، بس اليهودى احسن منه ..

وعاد سيد للعمل ، الآن يعلم أن عبد العليم لا يستغنى عنه .

– ٢ –

عندما عاد بوزوى من الخارج ذهب إليه عبدالعليم شاكيا ، تغلل المهندس زياد ببطء العمل وتأخيره فى مواقع عبدالعليم .

– فى الموقع ما فى فرق بين حدا ، سورى ، فلسطينى ، مصرى .. ليبى ، كلنا نخدم عمر بوزوى ، انا لو اتأخر سورى اطرده بره ، وادخل عبدالعليم بك ، وما تظن اعمل هيك من شآن انا سورى وانت مصرى ، حتى المقاولين اللى اخذوا العمل ما فيهم حدا سورى ، أيده المهندس الفلسطينى عارف .

حاول عبد العليم أن يشرح لبوزوى أن مقاولى الباطن سوريين يعملون لحساب زياد وأنه يأخذ منهم عمولات وقمسيونات ، أما الفلسطينيين منهم فتابعون لعارف ، لكنه توقف عن الحديث ، كان يوشك أن ينتهك أحد أسرار المهنة، تابو متعارف عليه بين المهندسين والمقاولين ، لو أنه استطاع أن يشترى أحدهم لفعل ، اكتفي بإن يشكو لبوزوى ندرة الخشب ، اجابه بدهشة : ليش ما تاخد فى الخشب .؟

– ياعمر بيه بيخطفوه خطف ، انا اشتكيت للحاج حميده وقف ساكت ، قال مصلحة بوزوى .

قال حميدة مقطب الجبين : واصلك ثلاثمائة مترا من الخشب ، والله اكثر من نصيبك . وابتسم معتزا بنفسه .

صرخ عبدالعليم: كام، ثلاثمئه وخمسين متر، انا كل اللى وصلنى٦٩ مترا فقط.. قطب بوزوى من جبينه متسائلا

– والباقى وين. والتفت يحدث حميدة.. توا تعمل جرد للخشب

هاج عبدالعليم: يعمل جرد للخشب، انا عايز اشتغل ياعمر بيه.

قال بوزوى: باهى نزل للمهندس عبدالعليم خشب بيش ما يتعطل، وتعمل انت وزياد لجنة جرد للخشب بالمواقع. بلكى يكون عند السوريين..

– أنا نخرج السوريين من المواقع اللى نزلوها وتبقى للمؤسسة تحت إشراف المهندس

عبد العليم، بس أنا نبى سباق بينك وبينهم، بيش ما تظن أنك تأخذ فى المواقع تخللها. لازم يصير فيه شغل من نار..

ظهرت السعادة على وجه عبد العليم بك لقد رفعه بوزوى ليصير مرتبة زياد، قال وهو لا يستطيع أن يخفى سعادته: انا تحت امرك يا عمر بيه، تحت امرك.

قبل أن يركب السيارة ناداه فتى ليبى: المهندس زياد يبيك .

نزل مسرعا والتأفف يعلو وجهه: فين.؟

- فى مكتبه.

استقبله المهندس زياد فى ترحاب وابتسامة واسعة تملأ وجهه.

- ما تغضب منى عبدالعليم بك، هادى سوق عمل وانا اعمل فى خدمه عمر بوزوى، وتهمنى مصلحته، تعلم، اللبيين هادول هوائيين، صاحب الامس ينقلب عليك اليوم.. انا ما ظليت بمكانى هون إلا لسبب وحيد، فى مصلحه العمل ما اعرف اخى، انت تظن ان اللى حدث سوريين ومصريين، لا..لا.. والف لا.، واكرر، العمل عندك بطىء ما فى شك، اسمح لى ما فى مهندسين يساعدوك انا اعلم ان تربطك بعمر مصلحه، وان فيه توصيه من اصدقاء عمر بالقاهره، واعرف انكم تبوا تعملوا مع بعض فى القاهره، هاذا خير ما فى شك.

- واله يا باشمهندس زياد اللى حصل دى لا يسر ولا يخرج من ناس قودام، وانا اعرف انك ابن قودام، انا عشت فى بيروت ستاشر سنه من سنه التأميم وحتى اليوم ولى اصحاب، واصدقاء سوريين كثير، اشتغلنا مع بعض وعملنا بزنس مع بعض.

ضحك زياد: بزنس، هو ده الكلام، اسمع.. انت اسلوبك فى العمل هنا شويه مو صحيح، عرفت كيف.؟

- كيف.. بصرنى يا اخى .

- انت، تبى تاخذ كل العمل، مو هيك يصير مقبول .

قاطعه فى عصبية بالغة: لا والله، لا والله العظيم ما خطر فى بالى كلام من ده.. ظل يحلف بأغلظ الأيمانات.

- بس اسمع على، هذا ما فيه عيب، لكن اقول لك المشكله، اسمع على، اسمع على، وعندما توقف عبدالعليم عن حديثه العصبى استطرد:

- انت بدك تكسب.. مو هيك؟ هادا مو عيب، لكن مو على حساب الوقت، مو على حساب الجوده.

- لأ، اتهام غير مقبول، مش اسلوب للكلام:

- بعرف.. بعرف.. مو قصدى، اصبر على شوى، انت تريد تعمل كل الشغل بنفسك وهاذا ما يصير، لازم يدخل مقاولين باطن، مقاول هنا ومقاول هناك. هذا يكسب درهم وانت تكسب ليره ، بوزوى دينار، وهاذاك ينافس هذا، انت رجل اعمال كبير وما بيصير انا أوعيك.

- يا سيدى ايدى على ايدك، عندك مقاولين ..؟ دلنى عليهم انزلهم من الصبح.

- ايوه ومو سوريين احسن تظن ان ألى مصلحه.. فكر عبدالعليم.. لك مصلحة؟ طبعا لك

عشرين مصلحة!.. استطرد زياد.. ومن شان تطمئن.. هم ليبيين .

– بس الليبيين ؟

– يا اخى اسمع الكلام، بدك تدق الحديد بالحديد مو بالنحاس، بدلك على مقاولى ليبى، تصير ألك عند عمر بوزوى وعمران والحاج حميده كلمه مليحه.

– يا سيدى ماشى، وانا تحت امرك..

فهم زياد مقصده وابتسم فى تواطؤ.

– يا باشمهندس زياد احنا مصلحتنا مع بعض. تاكد ولو عايزنى امشى، اترك الموقع فورا.

– متشكر كتير على هذا الشعور، اليوم بده يكون عندك بالموقع.

– وانا فى انتظاره.

– ٣ –

خرج عبد العليم بك من مكتب زياد كفأر يهرب من مصيدة، وكان ذهن محمود بعد أن علم بنيه حميدة على جرد الخشب هوه يتقاتل بها كلبين وذئب وحنشين، إيهرب اليوم أم ينتظر، كل شىء قد صار معدا ولم يبق على صرف عبدالعليم لستخلص هذا الشهر سوى ثلاثة عشر يوما، فى صباح اليوم التالى لم يجلس على مقعدته للحظة، كان يمد البصر إلى الطريق القادم من بوابه المعسكر يحاول أن يلمح كل سيارة تمر، متوقعا وصول لجنة الجرد بها، وعندما تنحنى السيارة بعيدا كان يتنفس الصعداء، وفى اليوم التالى علم بسفر المهندس زياد مما استدعى تأجيل لجنة الجرد لحين عودته.

فى خلال ثلاثة أيام كان على الزواوى المقاول الذى أرسله زياد للمهندس عبدالعليم قد حفر خمسة مواقع بآلياته الحديثة. وبدأت الخلاطات فى صب القواعد بالخرسانة، وأخذت مجموعات العمل المصريين الذين أحضرهم فى العمل تحت إشراف المهندس عبدالعليم الذى تفجرت مشاعره بين السعادة والفرح والشعور بالقتامة إذ أنه لم يستسخ أيضا أن تقل أرباحه، وعندما صرف أول مستخلص حدث المقاول الليبى متفكها: احنا لنا نسبه فى المستخلص.

– ليه ؟ .. المستخلص كله باسمك يا باشمهندس.

– مش ده يا على يا زواوى، ما انا عارف ان المستخلص ده بتاعى وانت فيه مقاول باطن عندى، انا بتكلم على المستخلص الجديد اللى ح اصرفه ليك من شغل المواقع اللى اخذها اولاد الهرمه السوريين.

– نسبه ليش، ما اتفقنا .

– اشراف ياأخى، هو انا اتعب نفسى ببلاش.

– باهى يا باشمهندس، أمرك، اللى تبيه خده، بس الشغل هيك ما يسوى.

- لأ .. يسوى يا على يا زواوى ١٠٪ .
- كتير والله يا باشمهندس عبدالعليم.
- لأ مش كتير .
- المستخلص يصير كام .
- اربعين الف دينار، لى فيه اربعه آلاف .
- خليهم ٥ ٪ .
- لأ.. ١٠٪ يعنى ١٠٪ .
- أمرك يا باشمهندس..

صمت على الزواوى قليلا ثم قام مقتربا من عبدالعليم :

- تبى الحق ولا ابن عمه.؟

أجاب عبدالعليم مستاء : بتهزر يا زواوى الحق طبعا.

- أنت ما يحق لك شيء .

صاح مهتاجا : ازاى..؟

- وطى صوتك واسمعني، هو أنت اللى عطيتنى الغمل .؟
- لأ .
- خلاص ما يحق لك شيء عندى، النسبه حق المهندس زياد.

قال بصخب وهياج : هو المهندس زياد بيشرف على شغلك، او بيستلمه، او ح يحسب المستخلص معاك، ايه يا زواوى فوق. انت لا معاك مهندس ولا حاجه، ثم انا اللى بوقع المستخلص.

- بدك تشتغل مهندس عندى.
- عندك..!!
- باهى أذا أعطيك، ١٥٠ دينارا فى الشهر .

صرخ بأعلى صوته: ايه.. دا انا اتعشى بيهم فى ليله.

- طب هدى نفسك، تبى أربعه آلاف دينار، أنا نعطيك سته، زيد المستخلص ستين ألف.

تساءل : ستين الف.. طب ازاى

- زيد الحفر.
- ما هو محسوب.
- آه..!!!! ازور فى المستخلص.
- هه، من وين أجيب دينارات بلكى أطبع لك.
- عشرة آلاف دينار.
- باهى عبدالعليم بك.

كان يوما قائظا مرا كالعلقم، أصلت به شمس الصيف الحارة الأرض دون هوادة، ومنذ الصباح الباكر نزل العمل المصريين إلى أعمالهم بعيون زائغة وأكتاف متهدلة، منكسة وجوههم الكابية إلى الأرض وقد التصق بهم ظلهم المكسور المرتعد والعداء يحيط بهم من كل جانب، وقد فهم هجوم السوريين على مواقع عبدالعليم أنه إهانه للمصريين، عمت إشاعه سرقه الخشب الموقع بأكمله، وبينما كانت قلوبهم مع رجل حقير لا يعرفونه إلا لكونه مصريا، وكان عجزهم يشلهم، ذهب عبدالعليم بك ومعه محمود للشركة لاستلام المستخلص، وعندما تفرقوا لأعمالهم وطوال اليوم انهمر عليهم سيل من الاتهامات، وقاوموا فى حالة من الدفاع المتواصل والحاج حميدة يدور فى المواقع كالمجنون، سيل من السباب القذر يسبقه فوال، هيا أسرع يا فوال، سلكاوى، اتفضل يا صاحب السعادة، هيا أسرع يا سلاكه، غلابة يا مصرية، شو المصرية شعب صابر مسكين، هاذا معروف عنهم، يضربوا بالكرابيج آلاف السنين، بس شنو تقول يشهد ربى الشيطان، هادول مو فراعنة، الفراعنه شعب آخر.

والشمس تقترب من كبد السماء أنهت إحدى عربات خلط الخرسانة، صب قواعد مستودعات السيارات، بقى بها قليل من الخرسانة، نودى على مرعى العامل المسئول عن الصب وقيل له :

- ارمى الخرسانة الباقية فى قواعد السور.

كان السور يبعد حوالى نصف كيلو متر، ركب بعض العمال بجوار سائق الخلاطة السودانى، ووقف البقية على الرفرفين، عن لمرعى أن يقف على السلم الخلفى للخلاط ويغنى، كيف لمحه الحاج حميدة؟ و كيف انشقت الأرض عنه ؟ إذا فجأه شوهدت سيارته الجيب الزرقاء تنهب الطريق الترابية لتعترض سياره الخلط ، نزل قافزا ككلب مسعور، نظره السائق في تعجب، وقفز العمال المصريه جميعا بعيدا عنها والسباب ينهال عليهم، وهلة ثم تركهم جريا إلى مؤخرة العربة حيث كان مرعي لا يزال يعتلى سلمها الصغير.

- انزل يا شرموط، أنزل يا تيس يا قواد .

وقف مرعى مثل طريدة بأعلى شجرة باسفلها ذئب يكشر عن أنيابه، تردد للحظات لكن حجرا فح بجوار رأسه جعله يقفز، قبل أن يفيق كان الحاج حميدة فوقه يكيل له الضربات بقدميه ويديه، أخفى رأسه بين يديه، تجمع عشرات من العمال والمقاولين يشاهدون إحدى نوبات ساديته، تقدم عبدالله ببطء ووضع جسده بين الحاج حميدة وبين مرعى، توقف الحاج حميدة عن الركل بالقدم، وظل يضرب بقبضته خاصره عبدالله، وعبدالله صامت مقطب الجبين زاما شفتيه في غضب، دقائق طويله قبل أن يتقدم مفتاح وجبران ليفلا يدى الحاج حميدة و يجذبانه لخلف، بينما كان عبدالله يأخذ مرعى جانبا، التقت عيناه بعينى الحاج حميدة، كانتا مملؤتين بالوعيد. قبل أن يرحل عائدا إلى عمله صاح به مفتاح: عبدالله،

عبدالله، هادى البطاقة تبعك .

استدار نحوه : شنو مكتوب .

قرأ أبو نديم بصوت عال : بطاقه المحاربين القدماء.

جذب عبدالله بطاقته بعنف وعاد راحلا، وأبو نديم ينادى عليه :

– تعال يا راجل تعال هون يا بطل لشو زعلان..؟

عندما انتهى يوم العمل، ذهب إلى مكتب المهندسين بحثا عن الصبى الذى اعتذر قائلا: الحاج حميده قال لى أوعاك تترك البوفيه، هى البراكه فين يا عم عبدالله.

اشار له ناحية الجنوب الغربى وقال : تروح تسأل.

– باهي يا عم عبدالله، انا اجى فى الليل.

حذره: خد بالك ، ما تنفردش بالمسعور ده احسن يضرك.

– ما تخافش يا خال .

تمدد أمام البراكة تحت خيمة الليل ومرعى يروى قصتة مع الحاج حميدة بلهجة صفراء، لم يكن يشعر بالإهانة، فالكل هنا معرض للضرب، قال المبروك: ما تزعلش، حميده خايف على صوابعك من سيور الخلاط.

قاطعه عطاالله: تقصد خايف على الخلاطه من صوابع مرعى.

قال مرعى بخجل: بس ما كانش يضرب بالطوب.

قال محمود مقطبا الوجه: صحيح امك جابت راجل يا مرعى يا منياوى يا ابن الكلب.

استطرد عطاالله: آه.. آه يا ولد، امك ولدتك ومكتوب على جبينك الحاج حميده.

ضحكوا حتى مرعى لم يمنع نفسه عن الأبتسام بخجل قال المبروك وهو يشعل النار لعمل الشاى : الضرب ضرب بالطوب او بالجزمه ياروح أمك، المره الجايه ح تقول والنبى يا حاج حميده اضربه بمسطرة التلامذه .

قال مرعى : يعنى هو الواحد قابل بكيفه، حكم الرزق .

عقب عبدالله : طول ما الكلب منا يتحمل الاهانه، وضرب الطوب ح ننضرب بالجزم، واللى يقبل ح يقرفص ويركبوه .

قاطعهم محمود : وحق النبى لو كنت هناك كنت كسرت له رقبته.

عقب المبروك ساخرا: وحق النبى أنت كنت عارف وشايف بس اختفيت .

انتفض محمود : انا !!

قال المبروك هازئا : فى مشاكلك.

كان يشير من طرف خفى إلى الخشب المسروق، وقف كل منهما قبالة الآخر موشكين على العراك، جذب عبدالله محمود من الخلف وأخذه جانبا، فى حين أدار المبروك رأسه جهة عطاالله وهو يدمدم . فتح الباب وأطل وجه صغير تنم ملامحه عن القلق والتوجس، هتف الفتى:

– خال عبدالله هنا .

صاح به مبروك : ادخل يا رضا .. تعال .

دخل الصبى مجهدا . قال له عبدالله : شد الحله والاطباق من تحت السرير وكل .

قال الفتى وهو يلهث من التعب : اشكرك يا خال، انام احسن .
- ليه يا بنى لازم تاكل ؟
- اصلى تعبان ..
استدار عبدالله : فين المبروك، قوم هات له اكل
زأر المبروك : هو اللى ح يخدمنا ولا احنا اللى ح نخدمه، كل يا رضا ، وبعدين نام عندك سرير فاضى، افرش عليه فرشه بعد ما تاكل.
- حاضر يا عم مبروك .
عندما وقفا خارج البراكة نظر كل منهما للأخر بتربص ، كان محمود يستطلع فى نظرات عبدالله معنى ما، لكن عبدالله ابقى على نظراته خاوية، قال محمود مترددا: لازم تسيب الشغل من بكره انت و المبروك .
تساءل عبدالله : ليه؟
- الحاج حميده ناوى لك على نيه . انا سمعت النهارده من سيد .
- من امتى بتخاف يا محمود .
- انا بحذركم ، انتم اخواتى .
- حذر نفسك يامحمود ، اللى انت ماشى فيه مش ح ينفعك ، احسن لك انت لم اغراضك وامشى .
- ليه، يعنى يا مكسور الرجل فاكر انى سرقت الخشب ؟
قال عبدالله وهو يستدير عائدا: ما اعرفش، حالك يحكى عنك، مع السلامه.
سمعها محمود فكأنها إيذانا بالإنفصال، صاح به : بكره نتقابل. لكن عبدالله اغلق الباب خلفه .
للحظات وقف محمود مترددا مهتاجا، وذهنه يهتف سوف يصيبهم ضرر بالغ، السجن، لكنى نبهتهم.
عندما استدار عبدالله عائدا، كان وجه رفيقه قد تاه وسط الليل . فى البراكة وجد الصبى يغط مجهدا فى نوم عميق غطاه بإحدى البطانيات القديمة، وكان قد تجهز الجميع للنوم .

- ٥ -

فى ظهيرة اليوم التالى، ضرب لودر يقوده فلسطينى مكاتب المهندس عبدالعليم المقامة فى مواقع ورش السيارات، وكان قد طلب منه نقلها لكنه تلكأ، تجمع عمال الموقع كله، وكاد أن يحدث اشتباك لولا تدخل مهندس سورى طلب إعطاء عبدالعليم مهلة أخرى، صاح المهندس الفلسطينى عارف: بعد اسوع بدخل البلدوزرات تقلعه، ما فى وقت للكاعة، الجيش بده يستلم المواقع، باهى يا اخوى .
عندما عاد الجميع إلى مواقعهم، كان الجميع يتحدثون، سبابا وشتائم وكراهية مقيتة

رددت نفس المعانى بلهجات مصرية، سورية، فلسطنية، ليبية، ألفاظ واحده منتقاة لنفس اللغة الأم، اللكنات المختلفة لكن قلوب تنبض بالكراهية والمقت والمرارة .

قرب العصر انفجر الموقف بأكمله، إذا باغتت الشرطة عبدالعليم بك متلبسا بالرشوة من على الزواوى، كان كمينا أعد له بمهارة، ليس لأنه مرتش فقد كانت العمولات والقومسيونات قانون المنضدة السوداء الذى كتب بحروف خفية، تقال ولا تكتب، كان الأمر خاصا بالسيطرة على سوق المقاولات . وعلى طول الطريق المخترقة الموقع، تجمع العمال والصنايعية ومقاولوا الباطن والمهندسين وسائقو الآليات، مصريين وفلسطنيين سوريين وليبيين يشاهدون عبدالعليم بك وهو يساق فى سيارة الشرطة إلى قسم القوارشة، شوهدت الدموع تتساقط من عينيه على وجهه الأجعد مسحها بمنديله الناصع البياض ويداه الضخمتين ترتعش دون توقف وهو يهمهم : عايز محامى بدى محامى .

قبل أن يخطو من العربة إلى القسم همس مدير المؤسسة:

– ماتخاف شىء، عمر بوزوى بيحب المصريين .

قضى الأمر فى عشر دقائق، تراجع على الزواوى عن اتهامه، واقفل المحضر قبل أن يفتح وغادروا .. كان فيض من الكلام محبوسا داخله، كل ما رددة : انا كبرت، صحتى ما عادت تستحمل، لازم ارجع مصر، انا ح اموت هنا.

فى مكتب الشركة مضى على أوراق فسخ العقد كاملة وهو صامت لا يتكلم ، خرج مدير المؤسسة، وبقي زياد، وبينما كان يجمع أوراقه دخلت أمرأة شابة، فارعة الطول، بيضاء جميلة هتف فى داخله، هذه مريم زوجة زياد .

– ليه السوريين يعملوا كده فى المصريين، ليه ؟

هز زياد رأسه نافيا : احنا ما عملناش شى، ليش، انت فاكر ان احنا ديرنا كل هيك .

هز عبدالعليم رأسه فى حزن : يا اخى دى انا عندى ذبحه صدريه، مش انت اللى باعته لى .

– مين ..؟ الزواوى، اقسم بشرفى ما بعرف شىء، وعلى كل حال آسفين يا اخى آسفين، حتى انا حكيت مع عمر بوزوى، قلت له .. يا عمر ما بيصير هيك، الرجال بعده كبير ويروح فيها، ما بيتحمل سجن، لا انت فاكر ان انا اللى فعل هيك، مطلقا وحياة ابى ما فعلنا هيك. قال عبدالعليم مصرا وبانفعال بالغ : اقسم بالله السوريين.. قلت لك ستاشر سنه فى بيروت وانا معاشرهم، كنا اصحاب وكنا اصدقاء، وكنا بنختلف لكن ما كان بيصير مثل هيك، بهدله وفضيحه، وشرطه، ورشوه، ليه..؟ انت ما بتاخد عموله من المقاولين السوريين تبعك..؟ هه يعنى انت ما بتاخد..؟ قول، قول ياباشمهندس زياد .

نظر إليه مندهشا، وهو يصيح فى وجهه بانفعال، أوقفه صوت مريم البارد : مو هيك يا عبدالعليم بك، مو هيك، هذا سوق عمل الأخ بيتقاتل فيه مع أخيه، بيذبحه إذا بيقدر، آيش دخل مصر وسوريا بالموضوع، أنت كان بدك تقلعنا، مو هيك ياعبدالعليم بك يا رجال الأعمال الكريم، احنا فى بلاد النفط الأسود مو فى الجمهوريه العربيه المتحده، نادت على زياد باستهانه .. عمر بوزوى بده اياك، هيا.

انطلقت خارجه وخلفها زوجها، لملم عبدالعليم نفسه وقام راحلا.

- ٦ -

فى الثامنة مساء وبعد تناول العشاء طرق باب البراكة طرقا خفيفا، وعلى الباب وقف محمد السودانى وخلفه مفتاح وجبران، ألقوا على الجالسين التحايا، وعندما بدأ عبدالله فى تنظيف الجوزة ابتسموا جميعا قال محمود السودانى : الاخوة يبوا واشار بيده إلى رأسه قال عبدالله وقد افتر وجهه عن ابتسامة واسعة ولمعت عيناه :

- يعمروا المزاج .

- ايووه، صاح جبران .. نعمر المزاج، هز رأسه مؤكدا.

- باهى .

لدقائق طويله نظفت الجوزة جيدا، وملئت بالمياه المثلجة، واشعلت النار فى جمرات الخشب، وبينما كانت أكواب الشاى تقدم للجالسين كان عبدالله يخرج قطع الحشيش، دفع مفتاخ إليه بقطعه أكبر، فرفض عبدالله بإصرار.. هز مفتاح رأسه: بس شوف هادى .

فتح عبدالله عينيه الواسعتين محدقا: ايوه.. صنف معتبر .

اجاب مفتاح بثقة : طبعا تنوق يا أخى .

ارتكز عبدالله بجسده الضخم على فخديه : تمام، لكن قبل ما افعل خد وذوق دى ..

وضع كل منهما قطعتى الحشيش تحت ضرسه يعتركها، وقبل ان ينطق مفتاح سبقه عبدالله : على اية حال حطها فى جيبك اليوم انتم ضيوفنا .

قام المبروك وعم عطاالله وعادا ثانية، انتقلوا بعدها جميعا إلى الخارج، جلسوا فى الليل الدافىء امام البراكة ، ولنصف ساعة تجمع فى المكان ابو نديم بصحبة ثلاثة من الشبان الفلسطينيين، تحدثوا كثيرا حول أم كلثوم وعبدالحليم وفيروز والأكلات الشعبية، وتبادلوا القفشات والنكات، كان نصيب الحاج حميدة النصيب الأكثر، وظلل المكان ضحكات عالية، وبعد ساعة كان الحشيش قد وحدهم.

عندما لمح محمد السودانى ظلال الدهشة والشك فى عيون المبروك مال عليه وهمس : اسأل عم عطاالله الذى استطرد محدثا المبروك :

- اصلهم ماكنوش مصدقين انه مصاب حرب، لما حكيت لهم قالوا هذا مو مصاب حرب هذا ثور حرب .

عقب المبروك : ايه اللى عرفهم.

- البطاقه

فى آخر الليل أمسك عبدالله بالربابه وغنى .

عمال أحايل في بختى مش راضى .. وأنا كل ما قول له سير بالعدل مش راضى، لى حبيب عنى ليه مش راضى، ومن عوايده يصالح ناس ويراضى .

- ٧ -

فى منتصف الليل لم يشعر عبدالعليم بك بصوت الباب وهو يفتح، كان قد أمضى يوما قلقا، صفى أثناءها أعماله بالمؤسسة، بجواره كانت حقيبه المرتبات الخاصة بالعمل، وبها ماصرفه بالأمس من آخر مستحقاته، مستخلصات قيمتها خمسة وستين ألفا من الدينارات ..

كان محمود يعلم بوجودها، عند فتح باب غرفة نوم عبدالعليم، كان يعلم أنه يجب أن يكون قد اخترق الحدود الليبية المصرية قبل مرور ثمانى ساعات، عندما تحرك عبدالعليم بك بجسده الضخم لم تر عيناه المفتوحتين عن آخرهم سوى النصل الحاد للسكين الطويلة وهى تنغرز فى منتصف قلبه بالضبط، لم يتح له الصراخ، حتى التأوه، وعندما تركه محمود كان فمه وعيناه مفتوحتين عن آخرهما والدم يملأ الفراش، فى الصالة الخارجية خلع محمود ملابسه وفى جراب جلدى وضع النقود حول جسده، ثم عاد يرتدى ملابسه بنطالا وقميصا وبالطو جلديا رخيصا، وعلى الشاطىء الداخلى لبحيرات بنغازى ألقى بالملابس المخضبة بالدم، وأنطلق بعدها إلى حى الفندق حيث كانت تنتظره سيارة بيجو، انطلقت به كالسهم فى طريقها إلى مساعد حيث لا نقاط تفتيش ولا مراكز مرور للعربات المتجهة إلى الحدود المصرية .

فى الحادية عشر من صباح اليوم التالى، كان عبدالله يقف على حافة إحدى الشدات الخشبية، والمبروك يناوله ألواحا من الخشب، وعندما سمعا صياحا يأتيهما عن بعد : عبدالله، تعال .. تعال .

كان جبران يقود سيارة جيب صفراء، وبجواره جلس مفتاح يندفعون نحوه بسرعة هائلة، صرت فرامل السياره وتصاعد غبار كثيف .

- وين مبروك ؟ وين مبروك ؟
- اهو .
- هيا .. هيا يا راجل أقفز .. تعال .
- ايه فيه ايه .. ؟
- أنتم مو اصحاب محمود .
- نعم ايه جرى .؟
- هيا ما فى وقت، الزامل قتل عبدالعليم والشرطه بتدور فيكم .

وجم عبدالله للحظات . صرخ فيهما مفتاح: هيا .. هيا

صاح بالمبروك : يلا ياوله .

سأله المبروك وهم يقفزون معا لمؤخرة السياره :

- طب وحاجتنا، اغراضنا وفلوسنا .؟

قال جبران : انا بنحفظها لكم .

أنطلقت السياره نحو الغابه حيث عبرت فى طريقها سيارة الشرطة القادمة فى منتصف

الطرق نزل جبران، صاح بمفتاح

– اذهب الحوش عندى، وأنا باعود باعرف الأخبار .

– ليش أنا آخذهم عندى، ثم أنا نجى معك .

– باهى . لازم تعدى للشرطة تثبت انهم كانوا معنا طول الليل .

قال مفتاح وجبران معا: ما تخاف ولا تتهز شعرة من رأسك

عقب عبدالله: كمان كان ابونديم .

– أيوه كان معنا دلوقت وهو راح يقابل الشرطة، ليقول نفس الكلام تنهد عبدالله طويلا وهو يعصر رأسه بين يديه وقد حل عليه الصمت .

* * * *

فى الصابرى لأول مره منذ دخوله ليبيا دخل منزلا ليبيا، استقبلوه بحفاوة بالغة، خرجت له الأم وجلست معه تحادثه بلكنة مستعصية على الفهم، ومفتاح يغمغم فى فخر، هذا بطل حرب، ثم خرج عائدا للموقع، قالت العجوز كلاما كثيرا بالكاد فهم أطرافه مثل، نحنا نحب مصر والتلفزيون المصرى، المصرية شاطرة، أنا نجوز أخوه لمصرية، كلاما كثير فهم منه أنها تخفف عنه، وفى الظهيرة عندما آن أوان الطعام، خرجت زوجة مفتاح كاشفة عن وجهها الجميل، وهى تعد لهم مائدة طعام الغذاء، ثبتا بصريهما فى الأرض، وإنكمشا يعصرهما الخجل، وكأن سفور زوجة صديقهما أول أعتراف بآدميتهما، الغضب والإمتنان والحنين للوطن، وهلة ثم غفوا فى نوم مضطرب، وفى المساء حضر مفتاح وجبران وأبونديم حيث كان كل شىء قد انتهى أصر عبدالله على العودة إلى البراكة، على مدخل المعسكر وجد رضا جالسا بانتظاره .

– رضا .. ! عامل ايه يا ابنى ؟

– عال

– ماتروح بقى،قاعد هنا تعمل ايه ؟

– ليه يا خال اروح انا ولا تروح انت تعمل ايه .

– ليه ..؟ هو الوطن اختفى ولا ايه ..؟

من على مبعدة شاهد جمعا من العمال السلكاويه، غمغم، فضحتنا يا محمود يابن الكلب

- ازيكم وكيف الحال، هو كان صاحبكم .
- نعم بس زمن الغربه غير زمن الحرب ..
- وعملت الشرطه ايه معاكم ؟
- اتركنى، انا تعبان وعايز انام .

- جذبه رضا للداخل، قال يخفف عنه: قلقان وتاعب نفسك يا خال، ملايين بتعدى الحدود، عايزه تاكل، تحسن من طعم الغموس .
- ملايين بتعدى الحدود، حقيقه دى ولا خيال ؟
- الجوع، نام يا خال بكره الصباح رباح .
- نام يا بنى نام .. اشفق عليك القول ، بان هذا الليل بلا صباح.

جفاك النوم يابن عبدالجليل .. النوم جفاك .. والليل طويل من غير رفيق .. ليه نتحمل البؤس، ليه فتحمل الاهانه، لما افتقدنا فى الوطن الشعور بالكرامه ..

الفصل الرابع والعشرين

جفاك النوم يا ابن عبد الجليل .. النوم جفاك .. والليل طويل من غير رفيق .. ليه نتحمل البؤس، ليه نتحمل الاهانه، لما افتقدنا فى الوطن الشعور بالكرامه ..

جفاك النوم .. النوم جفاك .. والليل طويل من غير رفيق .. والذكريات لهب تحت الرماد .. بحره عمقها الزمن .. الطفوله والصبا والشباب، قصص قصيره عن المحبوب، جنون هوى مشبوب، والهوي هو سدود

اذكر الاستاذ "سمير" . الشاب الصغير السن، لما اطل علينا من قرية دمليج المجاوره وسط البَلاَدَه، وهيئة التدريس واضعه التلاميذ ع الرف، الاولويه للتجاره فى البهايم، والانضباط فى حضور سوق السبت والاثنين والخميس باكر، والكتابه والحساب فى اجادة عقود شرك البهايم، فوجئنا به لما دخلنا الفصل مذنب ثلاثة ارباع الفصل، وتعددت التهم، التاخير، دخول الفصل دون استئذان، حضور المدرسه حفاه ، والزى المدرسى فكان بالجلاليب، القشف، الوسخ على الاجساد قراريط، يقلب بأصابعه الدقيقه ملابس الاطفال الداخليه، تظهر البقع الحمراء لنفايات براغيث ، بق ، قمل، لحظتها أعلن الحرب ضد الوساخه، وسخ العقل والجسد، ولم تمضى ستة اشهر حتى كانت المدرسه ملونه بالالوان الزاهيه المرسومه، والصور الفرعونيه الجميله، المعابد المقدسه والملك مينا والعربات الحربيه لاحمس ورمسيس الثانى ورموز الاستقلال وصور القاده، مصطفى كامل، وعرابى وسعد وعبدالناصر، وبدأ التدريب الشاق على العروض الرياضيه والمسرحيه، وقبل نهاية الثلث الاخير من العام الثانى لقدومه، كان المحافظ فى سدود يشيد بالعروض الرياضيه والمسرحيات التى قدمتها مدارس القريه الثلاث .

اذكر احتفالات المدارس بعيد النصر، كنا نسير انا وابراهيم فضل حاملين الطبله والنقاره، نعزف المارشات العسكريه، كل واحد منا يرتدى الحذاءالكاوتش، بدون شراب، والفانله صبغتها امك بعد ما هددتها بأنك ح ترمى نفسك تحت القطر، شورت ابيض اطول

من لباس ابوك عبد الجليل، هووووه .. طابور العرض متوقف عليكم، نضرب الطبول بقوه، كل ما كان يجرى كان فخرا لمعلمك الاستاذ سمير، الامهات انهمكوا فى صبغ الفنلات، وخياطة مرايل التيل، المتاجر التى امتلات بالاحذيه الكاوتش، افتتاح المدرسه الاعداديه، والتبرعات لمدرسه ثانويه، المدرسين يهرولوا بطول الطابور، فى عيونهم نظرة التشجيع والثقه، والتلاميذ طلبه وطالبات تنشد فى عزم وحماس الاغانى من نسر مصر ارتفع الى والله زمان ياسلاحى اشتقت لك فى كفاحى .

امتى افتقدنا الاهتمام .. لما الاستاذ خلف مسك حسن حماد فى آخر دكه بالفصل بيمارس الاستنماء، ومن فين يوجعك هات ياضرب، كان يقوله ح اقطعه لك ياابن خضره اللئيمه يانطع ياابن النطع.

امتى افتقدنا الشعور بالاحترام، لما الاستاذ فرج مدرس اللغه العربيه والدين فعل امامنا الحرام، كان غريبا عن البلد، اخنف، عجوز وجهه كوجه البوم، العصا لا تترك ايده، فى كل يوم يوزع نصيب الفصل من المعونه الغذائيه المدرسيه تلات اجزاء، تلتين لأولاده احمد وعادل، يقول لهما بصوته الاخنف، وكل تلميذ فى الفصل ينظر له بغل .

– خذ يا احمد منابك .

أدى حق من حقوقنا راح، ثم يعطى التلت الثانى لعادل .. وانت يا عادل خذ منابك .

أدى التلت الثانى راح، يكتم الفصل ضحكته خايف من عصاه، لم يبقى الا التلت الاخير يوزعه على الفصل، سته وثلاثين طالبا وطالبه، ولا يبدوا على وجهه الخجل، ويمكن تكون الحصه حصة دين .

لما ارسل البسيونى وسيف فى حصة النحو يشتروا له من الحقول حزمة قصب، راحوا وغابوا نصف ساعه، ورجعوا معاهم لبشة قصب لم يعجبه الثمن ، غاليه نصف قرش .. حصة التعبير اتحولت لدرس فى الضرب، وبعود خيزران ظل يضرب اللتنين كل واحد على رجليه .

– كنت فين ؟

– بجيب القصب

: – هو ده قصب ده زعازيع .. !

والفصل كاتم نفسه من الضحك .

امتى افتقدنا الشعور بالضمير وارادة الاجتهاد، لما الاستاذ عصام ربيع قفل علينا باب الفصل، وباع الامتحان فى الظلام والثمن جنيه، كل تلميذ رجع لابوه يسأله ثمن الامتحان، كان اسهل جنيه حصلنا عليه .. لم ينهرنا احد ..لم نواجه من احد بالاعتراض، لم يخبرنا الكبار **بان ده الخطأ الكبير وان هذا هو بداية التدمير..**

امتى انهارت قيمة الاشياء، الجديه والكفاح، طلب العلم والإصرار من اجل النجاح، لما اتفق الاهالى مع هيئة التدريس على رشوة لجان الإمتحان من اجل بدء طقوس الغش الجماعى ..

وأجتمعت هيئة التدريس من أجل رفع نتيجة الأمتحان بالغش والتدليس، ياه دا الفساد كان عميق .

- حقن البلهارسيا كنا ناخد عشر حقنات كل حقنه عشرين سنتيميتر كانت عذاب، علاج ولا علاج البهايم، ورغم كده قصفت رجال فى عمر الشباب .

امتى اكتشفنا ان الاستقامه والشرف ليس لهما سعر فى بورصة الوطن، لما يضيع من الذاكره الاستاذ مصطفى عياد شهيد الصرامه والجديه فى العمل، مات فى عز الشباب، نظيف اليد، بلا تمثال يقدس فيه نبل القيم، ولا تأبين يعيد على السامعين فداحة الشرف، فى زمن يحكم فيه اللصوص، ويُعبَد دين الفساد، ..؟

امتى افتقدنا الشعور بالامان والاهتمام بالحصول على مكان فى الوطن، لما اختلف الشباب على مجلس ادارة النادى، وانقسمت البلد نصفين، اكترية شباب النواحى تطلب التغير، واقليه مع مجلس الاداره القديم، الشيخ فلان والحاج علان والاستاذ كذا، وعندما تم الانتخاب نجح الشباب، مجلس جديد كله حماس، ورغبة امتلاك حريته، وقبل ما يبدأ المجلس الجديد عمله، كانت شكاوى الشيوخ واصحاب مصالح لا تفصح عن نفسها عند المحافظ، تحذره بان اللى تعرفه احسن من . !!

بجرة قلم اطاح الغبى بشعور كان متمكن فى الصدور، بان هذا الوطن يتم بناؤه بمشاركه اولاده، امر بحل المجلس المنتخب ضارب برغبة الاغلبيه عرض الحائط، وعين مجلس اداره من عنده، مجلس عجيب غريب، اول طلب طلبه من الشباب ان يجلسوا فى دورهم، يتوقفوا عن الذهاب لمركز الشباب، وان الفتى المحترم يقعد يذاكر فى داره، طيب والفتى المحترم يعمل ايه وقت الفراغ ..؟

لا تتعب دماغك لن تجد من يفهمك، دهس الغبى بكعب حذائه اللامع احلام عن المستقبل، وايمان عند الشباب بوجود مكان فى الوطن، وان الكلب وكل كلب آخر يجب ان يعلم ان الانتماء يبتدىء من الحق المقدس لحرية الفرد فى الاختيار، وان البشر من اي جنس ولون ليسوا فى حاجه لوصاية اغبياء مهزومين منافقين، لصوص واصحاب مصالح سريه.

بعدها باسبوع اتهاجم النادى بالليل، اتسرق منه كل شىء، الطاوله، الشطرنج، ترابيزة البينج بونج، اتحملت على حمارة حسن مرعى وشبكة الكرة الطائره واوزان الحديد وثلاث كور قدم، كان انتقاما من المحافظ، الموظف الكبيراللى قاعد فى المحافظه بياخد قراره، هدفه هذا الطلسم العجيب المسمى بالامن واستتباب النظام العفن . اما الذى حدث فيما بعد، نصف الشباب لعب الكره فى المستنقعات الواقعه خلف الكنيسه وبقبلى البلد، اما النصف الثانى عشق السهر على صوت ام كلثوم الشجى، والسباحه على سرائر الحشيش الزئبقيه .

اذكر انه كان بيحضر من القاهره كل عام رجل اسمه الاستاذ خميس .. يظل ينبح فى صوته شهرا يعمل فى بروفات مسرحيه، حيث لا تخلو مسرحيه من تعريض بالعمده .
كان رضوان يقول : منطق .. امال ح نعرض الغريب لكامى، ولا الذباب لسارتر. ويوم العرض بعد عذاب الشهر، اول ما المسرحيه تجيب سيرة العمده سواء بالخير او بالشر يتحول المسرح لضلمه، وكرسى هنا وكرسى هناك وتالت فى الكلوب، يتعارك الجميع، وفى الآخر يقول الكبار : من خرج من داره اتقل مقداره، الشباب المحترم يقعد فى بيته، الآن لا تفهم لماذا ترتسم الدهشه على الوجوه عندما تعلم ان كثير من الشباب يتعاطى الحشيش، ويشرب الخمر، ويوصى العائدين من السفر باحضار زجاجات النبيذ والوسيكى الفاخره .

الذكريات لهب تحت الرماد .. بحره عمقها الزمن .. والذاكره تاريخ للاشياء .. الطفوله والصبا والشباب، وقصص قصيره عن المحبوب .. جنون هوى مشبوب، والهوى هو سدود .

لما اتهجم على النادى وانسرق واتحقق الانتقام، كنت اشعر امام رضوان وحسن مرعى بالاحترام، بالاعجاب الشديد لحسن خليل واحمد عبد الحليم، رجال كبار، لا يوجد لديهم سؤال يصعب الاجابه عليه، كل شىء فى الكون موصوف، معلوم ومجرب، كانت تتسع افواهنا، وتومض العيون، عندما يتكلم حسن عن الشعور الباطن، عن الانا والهو والمجتمع الكبير، والبرود الحاصل من ختان البنات، وان الانسان انعكاس للبيئه، اما الحياه فموقف ما بين الجبر والاختيار مثل ما قال ابن رشد، انك تستطيع ان تختار لكن فى دائره جهنميه من الجبر وان هذا المجتمع مقفول لا يعطى ابناءه مسارات للمرور .

الحشيش بحر من الكسل .. من الترف الثقيل .. زى ما تكون نايم على فراش هارون الرشيد، بين الوجود التقيل للسلطانه زبيده، وخزائن العباسه، تلك التى تحتوى على الذهب والنفائس، وتلك التى تحتوى ع الشبق العميق للجوارى الذى لا يجد من يشبعه، او عائم على البحيره الزئبقيه للامير خمارويه، ويؤبؤ العينين يهيم ببطء بحثا عن عرى الخيرزانه، تنهل منه شبقا ولا ارتواء .. الحشيش عالم من الضباب تتوه فيه الوجوه . يموت الزمن عنده ولا يقف ويحل فيه الوجود الحقيقى لمن خرج عن طوع الكبار .. الصراط المستقيم والقانون الجهنمى الذى صنعه الآباء للابناء، واولئك الذين لفظتهم القاهره .. الساحره العجوز العاهره .. كل الذى كان خارج اللحظه عبث .. غير حقيقى .. هكذا كان يحكى رضوان عبدالجليل ابن عمى الكبير .

الرجال النافذين، بدل بتلمع وربطات عنق وعيون مطفأه، قفا عريض وخواتم من فصوص لؤلؤيه، تتشدق افواههم الكلبيه عن الاشتراكيه والحريه والمساواه بين الاثرياء والفقراء .. المضاجعه الذهنيه للبنات التى ترتدى المينى جيب .. وسلاسلهم الذهبيه .. افخاذهم البضه الناصعه .. سيقان النساء ونهر النهود خلف مقود السيارات المسرعه، تنهش مخيلتك، الرغبه فى رؤية المزيد من اللحم الجنسى .. لا تجده لا تحصل عليه ولن .. اللعنه إذن على

شهوه تخلف وراءها جسدا مضنى وعقلا خصيا .

كنت اشوف رضوان بيتكلم، المح عينيه تايهه بعيد، احس بالاحترام، واشعر ان داخله حزن دفين بيدفنه فى الحشيش .

احمد عبدالحليم، تاجر مواشى صغير، يصلح راديوهات، ويصنع ان اراد غسالات ثلاجات ومكن، يتحدى ان كان هناك شىء يستعصى عليه، كان يسير فى الشوارع فى جلبابه الناصع النظيف برشاقه وخيلاء، عارى الراس حينا، وحينا متوجا بطاقيته المنتقاه، ممسكا بعصاه الخيرزان او تلك المصنوعه من غصن الزيتون وكأنه امير، لم ينس أبدا انه الوحيد بين الرفاق الذى لم يذهب الى مدرسه، وان كان عقله الدهب وكل مايعرفه ويستطيع معرفته من حَرَفْ لن يرفعه بوصه عما هو عليه، فأدمن الحشيش حتى النخاع، ولو ان شيئا فى الدنيا اطلعنى كيف تكون عزة النفس لن يكون سواه، احمد عبدالحليم، ابوه الذى قتل ليلا وهو عائد من السوق، واخوه الذى رحل الى القاهره العاهره، ولا يعود إلا فى الاعياد ومعه اطفاله العشره من زوجتين طلبا للنقود، الآن يرغب فى بيع نصيبه من الدار الصغيره كى يتزوج بتالته، ويصرخ فينا :

– من فين نسد حنكه بالفلوس .. ؟

يجيبه حسن خليل بتثاقل من الخلف، وصوته ينضح باللامبالاه والسخرية : مش انتم قاعدين فى الدار، يضرب دماغه فى الحيط، لا تشترى منه ولا يحزنون، ما تسألش فيه .

– ح يبيع للجار ع المشاع .

يرد محمد ابو عزام ببساطة : سيبه يبيع، حقه ح تمنعه عنه ليه .

يرد أحمد فى غضب : هى الدار تساع، دا انا حسبت نصيبى فيها لقيته ثلاثه متر طول فى اثنين متر عرض .

يضج الجميع بالضحك ينتشر الصخب فى فضاء المقعد الكبير .. يباغته شاكر مخلوف بنبرة جد : بالمنافع ولا من غير .

تطقطق الجدران من الصخب وقسوة المفارقه .. يتابعه رضوان :

– طب يقدر ارسطو يحل دى ..

تزيد القهقهات ترتفع تتحد، تنتقل من الحلوق للعقول، عنيفة تزلزل المكان كالعواصف، وتهبط كموج البحر، فى الدماغ انبساط يكابد الالم، والانبساط يزيح الالم العميق بالحشيش ..

دائما تجد واحد بيقول : خلاص يا ولاد الكلب ح تفوقونا .. ح تطيروا حتة الحشيش م الدماغ ..

وفى الليل ينهمك العشماوى فى غسل البرطمان، مية الطلمبه المثلجه، سيخ الحديد المحمى يخترق عنق الجوزه والبوصه والحجاره، يسلكهم، تشم رائحة الخشب المحروق من رشق جمر السيخ فى القلب، حفيشه مهمته يولع المنقد، يرص القوالح مره على هيئة هرم ومره مربعات متشابكه ويمد يده الى السقف يشد غلف كوز ذدره يشعل به النار فى الحطب،

وعندما يرتفع اللهب، يميل احمد عبدالحليم على قطعة رخام نظيفه، احضرت خصيصا من اجل هذا العمل الهام‌وينهمك فى صمت بمطواته الحاميه، ينكب على قطعه الرخام اللازورد المقدس باهتمام مثل باحث دكتوراه فى علم الخلايا ويقسمها قطعا صغيره، ثم يفركها بحركه مخصوصه تحت ضرسه قطعه جوار قطعه، عندما ينتهى من غسل اوراق المعسل ويرصه على الحجر، من هنا يبدأ السمر .

الحشيش بحر من الكسل، من الترف الثقيل، يموت فيه الزمن التعيس، زمن الغضب، زمن افتقاد الهدف، زمن الشعور بإن المستقبل ملك للآخرين، اما فيما يخصنا فهو طريق مقفول، الغد مثل الأمس، ولا امل في الفكاك .

الحشيش بحر من الكسل، يحل فيه الوجود الحقيقى للذين لفظتهم القاهره، الساحره العجوز، العاهره، عندما تبدأ صناعه البهجه، يعلو الضباب السندسى، يتحول كل الذى خارج اللحظه الى عبث، غير حقيقى، وفى داخله يتحد كل المريدين المحلقين حول جمره، كل المحبين السابحين فى ضبابه .

.. الهدوء والسكينه، صناعة الاهداف البديله، الطرب بالسخريه من الذات، الشعور بالعزه المفقوده، والتوحد العام مع صوت ام كلثوم، وعمر الخيام، وعبدالحكيم عامر القائد العام وجيشه المغوار، الذى تولى الدفاع عن الوطن بادمان الحشيش، واحكام الحصار حول العاهرات، وقاده الشرطه محترفوا سحق البشر، ومسح الجزم بالقانون، اللصوص العظام اللى مهمتهم اقامة القانون وحفظ النظام

رضوان كان سيد الجميع، عاش طوال عمره فى تفوق على طلبة القريه، كان الاهالى يباهون به ابناءهم، لما طلع الاول فى الثانويه العامه صمم على دخول كليه العلوم، قال هندسة ايه يا بجم، الرياضه ام العلوم، وخاصه البحته وقسم الفلك، فى القاهره تاه، رسب سنه ورا سنه، والحلم الكبير ضاع على جوزه ومنقد آخر الليل، وبعد زمن ترك القاهره العجوز، رجع يقول الحياه كون فسيح، واحنا ذره ضئيله جاءت الى الوجود صدفه، وربما بالخطأ، فى المقعد العالى انفصل وحده عن اهله بعد عراك وصراخ وضرب، ومحدش فاهم حد، عامل الصدفه اصل الوجود، الكراهيه بذور تنتشر فى كل زرعة امل، عنكبوت مسموم يمد خيوطه فى الانحاء بدأب غريب، فى حجرته العلويه وانا اعض بنان الندم، لأن عبدالرحيم ابن الكلب اخرجنى من الازهر وفاضل لى عامين واحصل على الثانويه، كنا نلاقى فى مقعده ادوات غريبه، تليسكوب واحجار شطرنج وزهور جفت لا تزال تحتفظ بعبقها الجميل، فراشات فى زجاجات، وخرائط عليها رسوم النجوم، وخطابات عن الحب لم ترسل لاصحابها، كنا نجد عشرات الكتب، لغات اعجميه بحروف منمنه ورسوم غريبة الشكل، بعضها كتب عن كيفية صناعة الاحباط، والاساليب الحديثه فى زراعة اليأس، والنظر فى الظلام والعمى فى النهار، والابتسام للسخافه، وكيفية نمو الشخوص السمجه والبكاء عندما يجب الضحك، ومذكرات كتبها عن الف طريقه وطريقه ناجحه وثبت مفعولها عن الحرث فى البحر، والصعود الى الفضاء على مراكب من اشعة القمر، الفلاحين نفايه .. هو كان للحرب

غايه، إذن تبا لك ولاحلامك الهلاليه، تلك التى ماتت قبل ان تولد . وتلك التى ولدت بلا اجنحه، تبا لك ولاحلامك الهلاليه التى سقطت وهى طائره، وتلك التى ضاعت فى الفضاء، لأن بحار الظلمات والجزر المسحوره وشياطين العالم والجنيات الساحره، ارحم من القاهره، تلك العاهره.

– ازاى تحب بنت جميله، وانت ببنطلون قديم مقيح مرقع، وقميص وحيد ياقته مهترأه وفانله زى المنخل مخرمه، ازاى تقرب منها وسيقانها محفوظه فى جزم برقبه من الجلد الطبيعى، عندما تجلس فى المدرجات ينكشف باطن الفخدين المقدس .. طيب ح تكلمها .. ولا ح تكلم النهود، هضبتين عاليتين حول نهر صغير تراه ونظرك ينسرق خلفه يريد ان يكتشف مصبه ومنتهاه، حيث تختفى سلاسلها الذهب ، ونظرات الامتعاض والاحتقار سد منيع، وكأننا كلاب جربانه، وهو احنا كلمنا منهم حد، ده احنا فلاحين، علشان تعاكس، او تتعرف على بنت منهم، لازم تعرف تفرق بين الجاموسه وبنت خالك مسعده، ده الواحد منا اول ما وعى وعى على امه مستنيه ابوه وهى غاسله شعرها بالجاز، ومرطبه ايديها قبل ما تنام بالجله .

حسن مرعى اوقات لما كان يجلس فى اول الدرج بالمدرج، كان يحلم باليوم اللى فيه بنت تقرب ناحيته، لكنه كان بالنسبه لهم كلب اجرب، كانت البنت تلف تقعد هناك عند آخر الطرف الآخر، ولما تدخل الطالبات واحده ورا واحده، ويظل يحلم طول المحاضره باللحظه التى ستجلس فيها واحده منهم جواره، يتوقف صف البنات عن التقدم، يبقى مقعد خال فى انتظار فتى قاهرى خليع، تنادى عليه واحده من الطالبات .

فى نهاية المحاضره عند مدخل المدرج، حيث يتزاحم الطلبه لحظة الخروج والدخول دفع بشده، اصطدم بحوريه منهم، شقراء متبرجه فائرة الجسد يلمع بريق الذهب على صدرها، يتدلى شعرها الغجري على قرط ضخم فى هوج مجنون، كتله من الذهب وكتله من اللهب، كائن من كوكب بعيد عن الفلاحين، دفعته بطرف ايدها امام الدفعه بقرف، لو تنشق الارض وتبلعه، ظن ان كل من فى المدرج رآه، واقسم وهو فى طريقه عائد الى حجرته انه لن يذهب الى الجامعه بعد اليوم إلا فى ملابس جديده، وفعل .

.. يحكى حسن : لما تعود الكسل والاستيقاظ فى الضحى، والنزول للسير فى شوارع القاهره ظهرا بلا غايه، وهو المنوفى الذى لا يعرف الكسل، اختيار المكان المناسب فى الترام يقتنص مذعورا قنص الهوام، ثم يغادر الترام حزينا كارها لنفسه، يمضى فى شوارع العاهره ياكل ذاته، لأنه افضل من هذه الدنايا .. فى النهايه ضاع العام الدراسى الاول، والثانى امضاه فى حجرته بين الحشيش وبائعة اللبن، امرأه رشيقه فى الخامسه والثلاثين شديدة السمره، خاليه من الجمال، لكنه الاشتياق وارضاء مطالب الجسد الذى مر عليه بالضبط ثماني سنين من يوم ما عرف زمن البلوغ، تأتيه باكر وقد فرغت الشقه من

الطلبه والموظفين، وهو لم ينال من النوم سوى ساعتين بعد سهرة حشيش، وتتركه مهدود الحيل، مكدود الذهن عاجزا عن مغادره الفراش وقد اضناه الوهن، تمضى الايام على هذا الحال، تدخل عليه تقضى منه وطرها وهو بعد بين اليقظه والنوم يشعر بها كاضغاث احلام، ثم تتركه جثه هامده : لم يذهب حتى لدفع المصاريف، عندما علم ابوه طرده من الدار .. فتوقف عن الدراسه وبقى فى القريه لا ينتقل منها، مكتفيا بصحبته ولعن الوجود .

لما كبرت وضاع الفرق فى السن، كنت امضى اجازة الجيش مع الصحاب، نسهر فى الليل تضيع الملامح فى ضباب الحشيش، كان الجدع من يعب الحشيش عبا، يشد نار الحجر حتى يلتهب الجمر، وتطير على سطحه نؤابات اللهب الخالص بين الصفره الداكنه والزرقه الفسفوريه . والجدع من يبتلع النفس، يحبسه داخل الرئتين زمن قبل ان يخرج من الانف والفم نسايم طريه .

هالات كثيره انطفت .. حسن خليل اللى تقيأ جوفه بعد ما تقل فى عيار الحشيش، حلة العدس اللى اكلها كلها سرقه من امه . وبرتقال مثلج علشان يبرد جوفه .. رضوان لما رفع السكينه على ابوه يطالبه بالفلوس .. وحسن خليل لما بعت لحميده رسائل الغرام على ورق قرمزى، مرسوم على اطرافه سهام الحب وقلب، طلب صورتها علشان يحتفظ بيها فى المحفظه جنب قلبه وراح يحوم حول دارها مثل ما حام قيس فى حمى ديار ليلى، ترنو له بنظره من خلف خصاص النوافذ، يصرع بسهام عيونها المعمصه، يخرج فى الصباح الباكر فى الفجر ينتظرها على المحطه لما ييجى ميعاد القطار وهى رايحه المدرسه تضحك له ضحكه خفيفه، يعطيها رساله غرام ووجد، تعطيه قطعة لبان، ملبسه، يترك آخر محاضره، لاجل يلمحها وهى راجعه فى الظهيره ياخد منها الرد، فى ليله غاب عنها الفجر، انضرب حسن ولم يعرف من الذى ضربه، ولا من خطف العبايه والعصا، حدث له نوع من الرعب، لأنه لم يمضى شهر حتى وكانت حميده الزوجه الثالثه لرجل عجوز، كل ما يملكه طينا وعزبه ومالا .

مع الزمن تاه حسن، صار يمضى الليل فى المقابر، وصوت ابن آوى وارواح الذين ماتوا، يكتب قصائد شعر ونثر عن الموت والعالم الآخر، ويحكى ان ام كلثوم ح تدخل الجنه رغم ان ما تقوله رجس – بعيد بعيد وحدينا – لا يوجد رجل وآمرأه فى خلوه إلا كان ثالثهما الشيطان، وهذا قول صحيح، اما انها ستدخل الجنه فذلك لأن العالم زباله، حثاله هوام كتل الحشرات، ويحكى كيف ان ابن الفارض كتب قصيده من سبعمائه بيت فى توحد الذات الإلاهيه، ويستطرد بعين زائغه :

– ربما كتبهم فى ذاته، بعد ان توحد الوجود وحل فيه الله .

يقاطعه حسن خليل : يا كافر يا ابن الكلب ..

– ما تسألش فيهم دول شويه بهايم، شعب جاهل، يفهم ايه عن وحدة الوجود والحلول إلا اذا كانت الحله حلة بصاره وفول .. اللعنه .. اذا ما كان ده بغاء، نوعا من بغاء العقل، لأنه

اذا كان العشق العفيف جريمه يبقى البغاء ضروره، وإلا مشاعر الانسان السوي ح يفرغها فين، اما الشذوذ السلوكى او الكبت، والكبت قيد غير مرئى زى نسيج العنكبوت يلف على العقل يسجنه، يضغط عليه، يخلق فيه مناطق تشوه، يتحول العقل الجميل دون ادراك، الى سلوك مشوه مدمر ربما للغير وربما للذات يقول حسن بخبث : طب مين يحل دى ..؟

يقول رضوان : فرويد وعاجز، وابيقور يعلقوا لك مشنقه

يتساءل أحمد عبد الحليم : ليه ما تكون عفيف .

– رجعنا للبدايه .. عفيف لما تكون عندك تمنتاشر سنه يا جحش، تكفيك نظره من عيون الحبيب تحفظها فى زلعة مش وتحلم بيها طول اسبوع، لمسه من الانامل الرقيقه، تهمس كما اجنحة الفراشات، وتغيب وفى جوفك لهب، لكن لما تشيخ ويصير عمرك تلاتين سنه، ولا زلت عاجز عن ان تمارس الجنس، تتوحد مع طبيعتك، مش ح يكفيك الاستمناء مع اجساد النساء المصوره فى مجلات من ورق مصقول..

يرد حسن خليل : كل شىء دافعه الجنس .. حتى بين الطفل وامه فيه علاقه .

يترك حسن مرعى الجوزة فورا، يقاطعه وابتسامة عريضة على وجهه: يعنى حضرتك كنت عاشق لامك .. امشى يا جحش..

يضج الجميع بالضحك إلا حسن خليل كان يرفع نظارته ويرد بتجهم: – طبعا جاهل حمار، فاكر الناس طوب ودبش، اذا كان عقل ابوك اصغر من عقل دابه، ح يكون عقلك ايه، عقل صرصار.

تلتمع العيون بأمواج من التهكم وابتسامة على الوجوه كلها سخرية لاذعة .. كانوا جميعا يسبحون فى بحر من السخرية اللاذعة مع العالم والوجود يسوطون الذات، برغم ذلك لم تكن فتاة أحلامهم تقل جمالا عن مارلين مونرو، برجريت باردو، سالومى رموز الجنس، وأن قصص حبهم ستكون أعنف من قصص الحب العذرى لقيس وليلى وكثير عزة وعنترة الحبشى .

جفاك النوم يابن عبد الجليل .. والذكريات لهب تحت الرماد

سدود بحيرة ناعسة تسكن الهدوء .. الحياة خارجها طريق للضالة .. للموت .. النبذ من عموم الناس، تقبل الأمر فى ترفع وبلاده، إذ أنه أشرف من مجاراة العادة والأخلاق القديمة التي تقتل الطموح والمعرفة، وتخفى حياة الكآبة، جوع الشيوخ خلف الوقار، والشرور للنفاق، وللجشع والطمع والسيطرة على مقادير الآخرين، ونفس الشعور للآباء، المقت، الكراهية الغضب لأحلام حقيقيه تم وأدها .

ظل الظهيرة الناعس تحت أشجار الكافورعلى جسر المصرف الكبير، حيث يحلو تراشق الأفكار والنظر فى شئون الكون، حسن كان يتكلم بجدية وكأنه فى حالة حرب: بيكون قال انس كل القضايا القديمه الموروثه والاحكام القبليه، وتعامل مع التجربه فى الواقع الحى كى تخرج بنتائج صحيحه، لأن استخدام اى معيار سابق تاريخيا عن الواقع لقياس الفعل الانسانى سيعطيك نتائج غلط ..

– زى كده ما توزن القمح بالمتر الطولى، وتقيس النجوم بالشبر والفدان بالوزن .. تبا لك ولاحلامك الهلاليه .. كل شىء يتقدم والجنيه المصرى يتأخر، والشقق تقفل ابوابها على

الفراغ، الفلاحين نفايه، ديدان صغيره تعيش على ظهر النيل، منذ اكثر من الفين عام، وهم تحت احتلال كل غرباء العالم .. مصر وهَبَت لعمرو بن العاص لقاء خدعته للامام على، وعندما اغتصبت الخلافه قطعت السلاطين علاقتهم بالاسلام الاصولى لحساب دين معاويه المنافق، السؤال الكبير .. من اوقع الفلاحين وخيرات الوطن فى شباك معاويه المنافق .. قوة المعتقد ام قوة السلاح ؟ من كبح الفلاحين الذين آمنوا بمحمد رسول الله عن الثوره ضد الاستبداد المعاوى طوال هذا الزمن ؟ من ابقى على مصر محميه تنتج القمح للخلافه السياسيه ، والمجاعات والطواعين تسحقها ؟ من اطاح بشخصيتها ومن اعادها لها ؟

قال حسن خليل : نابليون بونابرت

– ابدا .. مصر بزغت من جديد لما نطق حجر رشيد .. مش بونابرت اللى اعادها لعجلة التاريخ .. الحجر لما نطق .. ماذا تفعل قوة الافكار .. ماذا انتجت الرساله التى تركها الفراعنه لاحفادهم ؟.. اكتشاف الذات .. الشفاء قليلا من الفصام الجمعى التاريخى ..

يهز حسن مرعى رأسه غاضبا : انت ح تكفر يا كمال ؟

– لا .. ارصد معى هول الحقائق .. مئات السنين والنيل يغذى الآخرين .. البطاله اللى يدينوا بآمون .. روما الوثنيه المسيحيه .. الاسلام المعاوى[1] فى دمشق وبغداد .. الأستانه .. ستمائه عام تحت حكم المجلوبين والعبيد المماليك .. ارصد معى هول الحقائق وقف معى بصلابه امام الواقع التاريخى .. عندما اكتشفت تاريخها القديم وتوقفت عن ان تكون تكيه للآخرين .. عندما اكتشفت انها مهد لحضارهة الانسان، عندما علمت انها التى وهبت الاخلاق له .. نظره الى الخلف، الى الماضى السحيق، اختراق لطبقات الوعى، قفزتين الى عالم الغد.. لن يصمد شىء امام العالم الجديد .. سوف تتلاشى قوميات، وتمحى شعوب، وتترسخ اخرى .. تتضاءل اديان، وتسقط ايديولوجيات، وتبزغ اخرى .. ولن يكون ثمة وجود إلا لقداسه العلم والعمل وحريه انسانيه بلا حدود ..

– والفلاحين .

– الفلاحين نفايه، لم يعد لهم مكان فى هذا الزمان .. عندما جاء عرابى فى آخر المطاف وخرج الفلاحين وراءه على امتداد الوادى، ليعلن على الملأ وفرائضه ترتعد، بعد ان اتهموه بالكفر .. نحن نؤمن بالخلافه العثمانيه، إذ كيف يمكن ان تعيش مصر بدون قهر اسمه الخلافه، حتى لو كانت خلافة البربر .. وزعم انه يبقى على الخديو توفيق حاكما على مصر .. ماذا كان يريد عرابى اذن .. ان يستعرض الفلاحين امام الخديو .. ؟!!، وكيف تتحرر مصر اذن من عبوديتها لأى اجنبى حتى ولو كان عبدا مملوكا ؟ اكتب اذن فى داخلك عن التماسك والقلق .. التماسك القديم والقلق الجديد والقصيده اللولبيه وتائية الفارض .. لأن القصيده اللولبيه هى التى كتبت على الورق ثم تقرطست فى قراطيس يباع فيها اللب وقطع الطعميه .. اكتب اذن فى داخلك ان احد لم يدعونا الى الوليمه، فاذا جاءت الهزيمه فليس لنا بها شأن، واذا اراد مسئول ان يواجه نفسه، فليسألها من ينتج الفساد والاحباط واليأس العام، فاذا لم يجد ايجابه فليتنح، ربما تتغير الدوال فى هذه المسأله المعقده .. لكن هؤلاء بغال .. ارأيت بغلا يحاسب نفسه .. والافضل ان تعيد عرض المسأله قائلا ..

ارأيت ذئابا وخز ضمائرها التهامها للاغنام .. هذا شعب من الاغنام، وهذه مراع للقتل، وهذا شعب انتزع الطغاه عقله باظفارهم القذره، والقوا به لصفائح القمامه، وابقوا لنا نمطيه الخوف، وحدسية الغزالي، وسلوكية الهتاف، والتربيه فى مراع تمهيدا للذباح .. الدونيه بان تعلن نفسك عبدا، وان تتعلم ان تخفى حريتك،

والابهى ان تحتقرها، كى لا تصبح قعيد السجون، وتنبذ كالمصابين بالجذام، وحتى تتأهل للفصام الجمعى المشهود له بأنه يعمل بكفاءه فى صناعة التقدم نحو البلاده، وانتشار الفساد الجماعى .. اتركنى اذن ياابن عبدالجليل واذهب لإبن عمك رضوان، غوصا معا فى ضباب الحشيش، واطمئن فهو ومباحث امن الدوله وقوات الامن المركزى من اعمدة الامن القومى العام .. ودعنى مع اتراح الهوان، وام كلثوم والسنباطى المظلوم، وعمر الخيام، والكأس والراح .. اذا لم يعد فى هذا الزمان اى افراح .. وآه للزمان القديم ..

سدود واحه وسط الخراب الحزين، ممكن تلاقى فيها ناس تكره بعضها البعض حتى الثماله، ممكن تلاقى ناس مدمره، ممكن تلاقى للجهل والحماقه مكان الصداره ، ممكن تلاقى فقر الماده وقلة الحيله مع الزمان، لكن النفوس هنا غنيه، ثريه بالموده، سدود اهرب اليك واعود، خارج حدودك لا اتصال ولا وصال، ريحة ترابك زعفران، الحياه هنا نفط وغضب، صديد اسود، سدود اهرب اليك واعود، والعن اليوم اللى اتولدت فيه فى هذا العصر وكل العصور السابقه، لأن هذا الوطن تعلم ان ينهزم امام الغزاه، لأن هذا الوطن تعلم ان يفتح صدره للاغراب بلا حساب، ان يستضيفهم بدلا من المقاومه، لأن قادة هذا الوطن لم يحترموا قط ابناءه، او ان ابناءه مجرد قطيع من الماشيه .... من يستطيع ان يحمى جسدى من مراعى القتل النووى القادم .

الفصل الخامس والعشرين

- ١ -

يا خساره الحر يحكم فيه ردى الخال، ويواجعه بالكلام عند المنازل خال، من مقصده الجنه يصلى ع النبى، سبع مدن للنبى بيضونها، نادى أبوزيد الهلالى سلامه، صحيح دى الغربه توزى غبونها..(*)

فى أحد أيام الجمعة نزل المبروك فى الصباح الباكر إلى المدينة يتسوق، وبقى عبدالله يغالب الكسل، إستيقظ فى الضحى متعبا مكدودا، اغتسل والصداع ينهش رأسه، من بعيد لمح السيارة الزرقاء الخاصة بالحاج حميدة تمرق هنا وهناك، داخلت ذهنه أسارير الوجل وعدم الإطمئنان، لكن ذهنه كان مرهقا عاجزا عن التفكير، على فراشه الإسفنجى الرخيص تمدد ليرحل فى غفوة من هامش العدم، وعندما استيقظ قرب الظهيرة، كان أبو نديم يطرق بابه يدعوه للغداء .

على أطراف غابة القوارشه تجمعوا حول الشواء، حولى صغير، وقف كل من مفتاح وجبران يطهونه فوق نار الحطب المتوهجة، وفى قصعة كبيرة جلس ثلاثة يصنعون السلاطة، وسط جمال الطبيعة الخلاب سار مخترقا الأعشاب الخضراء العالية، وشجيرات الشوك الصغيرة، ملتفا حول أكوام مخروطية عالية من جذوع وأغصان الأشجار الجافة، جمعها الحطابين لصناعة الفحم، ترك مسامه تستنشق شدو الطيور وزقزقة العصافير، لون الزهور، وخضرة الغابة، تراقص الأغصان بين أحضان الرياح، ألوان قوس قزح تلقى بها الشمس من ثنايا الأشجار، طيور النورس تحلق إلى أجواز الفضاء، أمام جذوع الأشجار الضخمة، وقف ينظر فى غيبوبة من التساؤل، يملأ عينيه منها ويشربها على مهل، ود لو يطلق جسده للغابة المفعمة بالحرية، والزمن القديم، لا شر .. لا كراهية .. الأرض يا ابن عبدالجليل .. الأرض، امتى تكون ملك يمينك أرض، تظن نفسك مالكا لها وأنت لها عبد، تحسب لها حساب

الشهر القبطى، وترويها، ترمى البذور، تنمو العيدان الدقيقة، تتمنى تبيع مراتك علشان تحميها من الرياح، وتضحى بأبنك ولا يطيح بيها برد الشتاء، تحصدها، ويصيبك الهم لأن ثمرة وقعت قبل ما تنضج، أو أن كلب غوط فى غيطك ودهس، وتقف حيران قدام الجمعية الزراعية وهى بتطيح بالمحصول تنهبه حابل بنابل لا تترك لك غير قميص دمور وحزام تيل لأجل ما ينكسر وسطك من الفلاحة.

نادى عليه الشباب: شو ابو الشباب بدك توكل (١) على الجاهز .

أجاب مقلدا لهجته الشاميه : الشباب ما تركوا حاجه اعملها، بدك اتقاتل انا وياهم .

قال مفتاح : باهى يا سيدى، بس تزاحمنا عند الاكل .

- بس اللحم يجهز وانا اخلص عليه .

- تمام هونيك افرش الفرشه .

- على العين والراس .

كانت قطرات الدهن تنز على الفحم، فتتصاعد رائحة الشواء فى الفضاء، تحرك الجوع فى البطون وتسيل اللعاب، عندما انتهوا من الشواء اندفعوا يتناولون اللحم المشوى فى نهم، وحده أكل دون خماس، ترك الطعام مبكرا، واستدار يصنع الشاى .

فاجأه أبو نديم : وين كان يخدم ابو الشباب .؟

- قبل ما آجى .

- بلى .

- كنت اعمل بمؤسسه النيل للطرق والإنشاء .

- مو قصدى بالحياه المدنيه بالخدمه العسكريه .

- بالدفاع الجوى .

- بلى، وين بالدفاع الجوى .؟

ابتسم عبدالله : المدفعيه المضاده للطائرات .

- كفك خيو، وإذن نحن رفاق حرب، فرجنى على وسام الحرب تبعك.

نظر نحوه متسائلا : فرجنى يا اخى، فرجنى يا بطل ليش انت بخيل ؟

أخرجه وهو يسأله : وانت، اشتركت فى الحرب

- ايه بلى، حاربتم وحدكم يا مصريه ..!!

- كنت فى اي سلاح ؟

- ايه اخى .. فتح مخك - وضحك - ما بقول لك نحنا رفاق سلاح

- الدفاع الجوى ..؟

- ايه الدفاع الجوى .

تبادل الشباب الوسام يقلبونه بين أيديهم . قال مفتاح :

- والله هذا عظيم ..

استطرد جواد وأبو العبد : نعم، رجال والله .

عقب عصام ضاحكا : مو وحده اللى حصل وسام، كتير حصلوا على اوسمه، ولو .. خراى على هيك اوسمه .

قاطعهما جبران : ايوه .. ترى انا ومفتاح كنا نخدم بالجبهه .

سأله بانبهار : فين ..؟ بالدفاع الجوى !!

– باللواء المدرع الليبى، كنا نخدم فى الاحتياطى الاستراتيجى للجبهه المصريه، ضم جسده للأمام ضاحكا، ترى كنا مع اللواء المدرع الجزائرى، والحرس الجمهورى المصرى، وحدنا أمام المدرعات الاسرائيليه بعد حصار الجيش الثالث.

قاطعه جبران مهتاجا : ترى والله وحق النبى محمد، انا كنا نروح نطوع واستدار إلى مفتاح، صح ولا لأ، كنا نبغى الموت فى سبيل مصر، مفتاح، صح، ولا لأ مفتاح .

قال مفتاح باستهانه : ليش تحلف، وين ما تدافع عن مصر وين ما تدافع عن فلسطين عن سوريا عن العرب، ترى إسأل أى ليبى بالطريق، قول له مصر .. يقول لك خذ قلبى، مصر فى قلوبنا يا راجل .قال ابو نديم : نعم بس .. انتم يا مصريين تخليتم عنا .

– ليه .. احنا عبرنا من غير مشاكل حتى ١٣ اكتوبر، لما انهزمتم امام الاسرائيليين هاجمنا بالمدرعات علشان نخفف الضغط عن الجبهه السوريه .

– مو صحيح هذي حجج بيخفى خلفها القاده المصريين هزيمة المدرعات المصريه .

تدخل مهندس فلسطينى يدعى عصام : مو هيك القضيه انتم بعدكم، بتديروا ظهوركم للعرب وتمدوا يد المصالحه مع اسرائيل، النظام المصرى صار عميلا للامريكان، والسادات باع القضيه الفلسطينيه والعربيه، بده المعونه الامريكيه، خليك موضوعى اخ عبدالله .. استطرد جبران: أيوه ، السادات باع العرب، ترى حتى نفسه يبيعها.

قال عبدالله بغضب : كل الانظمه العربيه عايزه تعمل اللى عمله السادات، والحقيقه هى عملته بس فى السر فى الظلام، ثم ايه اللى اخدناه من الروس .

قال جواد الحداد الفلسطينى : السوفيت عطوا مصر اللى ما عطوه لحدا، بتعرف كيف، انت ما كنت جندى بالدفاع الجوى، اديش كان تاثير الدفاع الجوى بالحرب، استطرد عصام .. بلى، مو سمعت عن حائط الصواريخ، اكيد سمعت، المشكل مو فى السلاح .. المشكل فى كفاءة استخدمنا نَحنَ العرب للسلاح .

عارضه عبدالله: فى فرقتنا كانت كفاءة استخدام السلاح ١٠٠٪ .

– ايش ١٠٠٪ ؟ الاختراق الاسرائيلى بدأ بضرب قواعد الصواريخ بالدفرسوار .

– انت عامل بتفهم .. تدرج وجهه محدثه .. دى مش مشكلة الدفاع الجوى، دى مشكلة المسانده الارضيه والجويه . وبعدين الاحتياطى الاستراتيجي للجبهه حاصر الاسرائيليين لما حاصروا الجيش الثالث.

ضحكوا ، سبقهم عصام معقبا : انت بتصدق الاذاعه المصريه .

– لأ .. اصدق اذاعة فتح البيان الخمسمائه والمليون بعد الالف، حررنا القدس وفتحنا تل ابيب .

ظهر الضيق البالغ على وجه عصام، غمغم: مو هيك .. مو هيك، الواحد بده يكون فهمان، وما تستخف بنضال الشعب الفلسطينى .

قال عبدالله مقلدا إياه : وانت ما تستخف بالشعب المصرى، ولا الشعب الفلسطينى اكثر قداسه من الشعب المصرى .

تدخل أبو نديم : كل العالم بيعرف انه كان بمصر اقوى دفاع جوى بالمنطقه .

– ايوه دفاع جوى ومش سلاح هجومى، ومش طيران كفء.

قال جواد بغضب حزين : اديش نحن شعب سيكوياتى، يصيبنا العمى عن اصدقائنا، ونعشق اللى بده يسحقنا ويحتقرنا، ومن دون السلاح السوفيتى ما كان باستطاعة نظام عربى من هيك انظمه ان يواجه اسرائيل، شوف اخ عبدالله فوق دلتا نهر النيل استشهد طيارين من الشعب السوفييتى وما كان الغرض حماية حقول النفط او مصالح استعماريه كيف ما تفعل امريكا ويفعل الغرب .

تدخل عصام : سلاح المدرعات المصرى كان اقوى دبابات فى العالم، تى ٦٠ وتى ٧٠ انهزم فى ٤٨ ساعه ..

قال جبران : حتى الدبابات المصريه وقعت فى ايد اسرائيل .

أيده أبونديم : نعم كل السلاح السوفيتى وقع فى ايد اسرائيلين فى عام ٦٧

قاطعه عبدالله : وكان بالقرب من الرئيس تبعكم اخطر جاسوس اسرائيلى، اقرب له من حبل الوريد .. استطرد عبدالله ببغض .. وكل فلسطين وقعت فى ايد اسرائيل .

لوهله بدا وكأن الجميع على وشك الاشتباك بالأيدى، تدخل جواد منفعلا : يا جماعة الخير خلونا موضوعيين، يا جماعة الخير يعنى هو السلاح المصرى وحده اللى وقع فى يد اسرائيل، ما السلاح السورى والعراقى وقع هو الآخر بيد الاسرائليين .. مو هيك؟ والله العيب على اللى عنده سلاح وما حارب به .

تدخل عبدالله رافضا راية السلام التى رفعها جواد :

– طب ليه مابتحاربوش، ايه اللى مانعكم ، شطار فى بيع اراضيكم، ضيعتوها وسافرتم وتركتوها للاسرائيليين يحتلوها وسببتم لنا كل البلاوى .. أشاح برأسه غاضبا .. مال مصر ومال الحرب .

قال عصام : حبيبى اسرائيل لها اطماع فى مصر، مثل مالها اطماع فى الوطن العربى حتى السعوديه اسرائيل إلها بيها مطامع.

– لما اسرائيل لها اطماع فى السعوديه، طعنوا عبدالناصر من الخلف، واهانوا الشعب المصرى، ودعموا الاقتصاد الامريكى اللى بيدعم الجيش الاسرائيلى اللى كان يحاربنى ويحتل ارضى .

قال أبونديم: كلنا بنعرف ان النظام السعودى متحالف مع اسرائيل رأسا، قريت فى مجله المانيه حوار بين صحفى المانى وصحفى اسرائيلى، الالمانى بيسأله انتم والعرب اولاد عمومه، اسماعيل كان اخا لاسحاق، ليش الحرب والعداوه بيناتكم،ع ليش ما تصيروا اخوه وتتعايشوا بسلام، بتدرى ايش قال الاسرائيلى .. قال: كلامك صحيح، نحن بالفعل اولاد عمومه، وهذا يثبت حقنا فى مكه والمدينه والقاهره وبغداد ودمشق، من الواجب ان يفتحوا الحدود لنا، استطرد ابو نديم، اسرائيل بدها كل شبر من الوطن العربى، وما بتكتفى بفلسطين فقط .

أضاف جبران: ياحبيبى اطماع اسرائيل ما لها حدود ..

قال أبونديم : من النيل للفرات ارضك يا اسرائيل، فهمت على .

– قول الكلام ده لنفسك، احنا كسبنا الحرب على الجبهه المصريه .

قال أبونديم غاضبا : مو هيك القضيه هذا سلوك وتصرف انتهازى، المبادىء اما بتصير مبادىء، او لا تصير، ما بيصير على الانسان يعطى مرته لرجال لإنه اقوى منه، اما بيحافظ عليها او بيموت امامها وإذا ما فعل هيك بيصير معرس .

ضحك الجميع باشمئزاز بالغ، وتجمع الغضب بعنف فى وجه عبدالله . تساءل مفتاح : ترى وين المصريين ..؟ وين الفراعنه ..؟ يا اخى، هادول ليسوا كيف الفراعنه هادول خليط من اجناس، اتراك، يونان، رومان، مماليك، تركمان، حتى مو افارقه ..

قال عبدالله بغضب : نعم احنا مش عرب، احنا المصريين فواله، سلاكه من السلك الدبلوماسى، وكلامكم اللى جاى ح يكون المصريين فقراء غلابه، مساكين .

قال عصام بهدوء : وهذه حقيقه، الاقتصاد المصرى اقتصاد منهك، تنكر هادى، اديش ديون مصر توا .

قال مفتاح : أيوه، ترى بالله المصريين غلابه، أنا كنت مع الصابرى بدرنه نهدر بالسياره اللاندروفر بالجبال، نبحث فيهم تحت المطر والبرد، نوزع عليهم فى الغطا ونلم الجثث من السيول .

قاطعه عبدالله : ويعد شويه ح تدور اسطوانه ، المصريات، شراميط، اقحاب .

– مو هيك .. قال عصام بتواضع .. مو هيك القضيه، ياجماعة الخير، الشعب العربي متخلف وانت ما تعرف كيف تتصرف مرتك، لإنها ما بتصير تقولك انها قحبه، بدك تعرف مصريه، اسأل عنها الليبى او الفلسطينى او الخليجى او السورى، اسأل عنها الغريب اللى مو من اهل البلد انا كنت بجامعة الاسكندريه ، سكنت بالعطارين وبالرمل وسيدى بشر، تعرف كيف، كانت التلميذات بالمدارس الاعداديه، والله وانا كنت حزين، كن يجئن اربعه يدقوا الجرس بالسابعه صباحا .

صاح جبران مندهشا : السابعه .

– نعم .. وبملابس المدرسه وحقيبة الكتب، وايش يديروا بتعرف، بدهن مصاري، ملابس داخليه، عطور، كنا نحصلها من غزه، طبعا نوعيه جيده مو مثل الموجوده بالقاهره .

تساءل مفتاح باحثا عن إجابه معينه : يشحنوا ..؟

أجاب عصام بإبتسامة صفراء مقتضبه : ألا ياريت، بدهن اللى هيك .صاح جبران مندهشا : شراميط ..؟!

– أيه .. يعنى كده، تحدث نكاية بعبدالله باللكنه المصريه .

قال عبدالله بغضب : شراميط بيدوروا على شراميط، شارع الهرم مليان بالمومسات احنا فى مصر عملنا الهرم، علشان ناخد فلوسكم نسوانا بتضحك عليكم، معاكم حق، فى مصر النفطى بيصرف فى لحظه الف جنيه على صدر راقصه انما يفتح مصنع، لأ، يستصلح ارض، لأ .. اما النوم مع مومس، فنعم يصرف مائة الف جنيه على راقصه، اما مصنع فلأ والف لأ .. عايزين مصر ضعيفه ولعلمك دى خطه مدروسه من النظام والاسره المالكه السعوديه، شىء، نتن .

قال مفتاح : لأ، أنا مانروح الهرم، أنا نقعد فى شقه مفروشه وهم يدورن فيك

بالتليفون، ترى أنا نعطيك مو نمره واحده عشر نمر، ترد عليك أحسن ممثله .

استطرد عصام بخبث ينكأ جرحه: مفتاح ما بيقصد هيك، تعرف عبدالله انا بحكى لك، انا نحب مصر والعرب من غير مصر ما يسوا، لكن افهم على، لأنى بعرف اللى بيقصده مفتاح، هادول اللى بيشتغلوا بالتليفون يعيشوا حياه عاديه، ربات بيوت لهن اطفال، وصبايا، خريجات جامعه، موظفات، بدهن مصارى، وترى الرجال فى البيت ما يعرف عنهن شىء، انت بتعرف ايش بيصير بالجامعه، ترى الرجال ما يعرف عن مرته شىء. بتخرج فى النهار، بتقول انا رايحه عند واحده صاحباتى، بيكون زوجها بالعمل، وتكون هى على فراش راجل آخر .

– مش ممكن اللى بتقوله .

– ليش لأ، هلىء انت ما بتعرف مرتك ايش تسوى، هه، بتعمل عليها رقيب، لازم تفكر بموضوعيه بيش تفهم .

– انتم بتكرهونا، احترم نفسك انت ما تعرف مصر، وما حد يعرف مراتى زى ما اعرفها انا .

قال عصام بوقاحه : انا ما اقصد الريف، هادول بيعيشوا على الفطره، بتعرف قصدى الموظف المصرى ما يعرف ايش تسوى مرته وهادول بيحضروا بالتليفون .

صاح جبران : ساعة زمن .

استطرد عصام : نعم .. ساعة زمن ويعودوا لمنازلهم، اسمع على، كيف ما قلت لك، ما بيعرف إلا الغريب، لأن المرأه ما بتصير شرموطه على راجلها واخوها، لكن الغريب ما يمسك عليها شىء لأنه اساسا هو يبتغى متعته وخلاص هيك، هه، فهمت ..؟ .

قال جواد بعصبية : فهم ايش، انت بتخرف، تتكلم عن مصر كيف الخبير، هم بس نسوان مصر شراميط ، ما فى كل العالم نسوان هَك وهَك، وما الفرق بين الشريفه والشرموطه، بعدك ساعه تحاول تثبت للرجال ان نسوان مصر شراميط، يا اخى العربي رجل فصامى .. تعرف تقول لى وايش الفرق بين المرأه المتحضره وبين الشرموطه ؟ عند الرجل الشرقى ما فى فرق، إذا كان هو موضوع الحب صار متحضر تقدمى، وصارت المرأه عنده متحضره، وكل ما تقترب من الفراش بتصير اكثر تحضرا اما إذا كان هو الثالث فى العلاقه، المراه اللى كانت بالقبل متحضره تصير شرموطه، وعلى كل بنترك وصف نساء الشعب المصرى بهاى اوصاف لشعوب اكثر تخلف، تعرف مهندس عصام توا بعرف ليش عمرنا مابنتقدم خطوه للامام .

تدخل عبدالله بقرف : معلش سيبه، انا سمعت الكلام دى كتير من ساعة ما عبرت الحدود، على طول الطريق من مساعد لبنغازى تشاهد اعلان على يافطه عريضه، زى اعلانات البيبسى وشركات الطيران مكتوب عليه " اتق شر من احسنت اليه "، ايه ده، ما تفهم تصرف عاقلين ولا مجانين، مين اللى احسن ومين اللى فعل الشر، احنا من سنه ١٩٥٢ وكل دخلنا القومى يصرف على فلسطين وعلى العرب، ابوندیم، بتحكى ان مصر تخلت عن العرب، مش مصر اللى تخلت عن العرب، انتم وبالذات السوريين والعراقيين اللى تخلوا عن الوحده، دلوقت تبكى عليها مين اللى ضرب الوحده فى ٦٢ ، حاسب نفسك الأول، انا كنت

فى المدرسه اضرب على الطبله والنقاره، وكل طالب فى المدرسه يهتف باعلى ما فى عزيمته .. تحيا الجمهوريه العربيه المتحده.. ولو كان حد قال موت نفسك علشان الجمهوريه العربيه المتحده كنت رميت بجتتى فى النار من اجلها، انتم طلبتم الوحده لما كان الجيش التركى بيهدد حدودكم، ولما ماعدش لكم فيها نفع انفصلتم، ما دافعتم عنها، عبد الناصر فى ١٩٥٨ اول ما سمع ان الخزانه السوريه مفلسه، قدم لها تسعه مليون جنيه مصريا، فاهم يعنى ايه تسعه مليون، يعنى ١٠٪ من الدخل القومى المصرى، ما شعرنا بانكم اخذتم فلوسنا او انكم شحاتين، مطلقا، من عنده الاستعداد لبذل روحه ليس للنقود قيمه لديه، تعال بقى خلى دوله عربيه نفطيه الآن تدفع ١٠٪ من خزانتها لمصر، خصوصا لما تكون فى حالة حرب بلاش ال١٠٪ يكفى تخلى الاولويه للعماله المصريه، بلاش، احترمونا، لا تسبوا نساءنا مش كل واحد نزل الاسكندريه او القاهره ودخل كباريه ونام مع شرموطه يظن بأن كل نسائنا شراميط، ده انتم ولاد كلب، بتكرهونا، انتم اللى خربتم الوحده العربيه علشان مصالحكم، لاتحدثنى اليوم عن الوحده، لما يعيش كل عربى فى رغد وسفه، لما تعاملونا فى بلادكم مثل الاسرى والعبيد، لما يصير هذا المنحط اللى جالس هناك، وأشار جهة عصام يقبل اليد اللى علمته ويحترم الام اللى ضايفته خمس سنين، لما يفهم اللى بينفقوا الملايين على موائد القمار، ويتخموا البنوك المعاديه للعرب، ان فيه خطر على الاماكن المقدسه اللى بيدنسها وجودهم، ان فيه حرب، لحد ما يحدث هذا ح يكون رجوع سيناء اهم من اى شىء، كل واحد يدور على مصلحته، احنا دخلنا حرب ٦٧ ونصف الجيش المصرى فى اليمن، ونصف العرب شاهرين خناجر الخيانه فى الخفاء ضدنا، ايه اخدناه من اليمن، شهداء وضحايا، وهجوم القبائل المدعومه من السعوديه وضياع مخزون الذهب المصرى، تتحرر اليمن، وتحتل سيناء ويصبح للسعوديين كلمه لها شأن، السلاح الروسى .. كان معكم سلاح روسى والجيش السورى كان يسيطر على اسرائيل من الجولان، لماذا لم تنتصروا، كل حرب تدخلوها تخسروها، عدا الحرب اللبنانيه، رفاق سلاح ايه الخيبان ده، الجيش الاسرائيلى انتقل كله على الجبهه المصريه، كان لازم انتم والاردن والعراق والسعوديين المترهلين تخلصوا على اسرائيل، ما هو دور الاسره السعوديه والهاشميه فى تاريخ هذه الامه، الخيانه واستدار لعصام .. يقول الاسرائيلى : ان لهم حق فى السعوديه، ياخذوها كلها، ياخدوا الخليج زى ما عمل شاه ايران، هم بيخدوها بالفعل .. اسرائيل بتحاربنا بملايين المليارات اللى وضعها اصحاب الجلاله السعوديين وامراء الخليج فى امريكا، طب مصر بلد فقير وهؤلاء يساندون القتله، احارب علشانهم ليه، استدار لمفتاح وجبران، انتم نسيتم ولا ايه ان كل واحد اتعلم فيكم وفى كل بلاد العرب ومن ايام الملك فاروق وحتى ظهور النفط بواسطة مدرس مصرى، من عرق كل مصرى بعثات المدرسين كانت تجىء لكم مجانا ، مئات السنين والمحمل النبوى وتلت خراج مصر بيروح لارض الحجاز للانفاق على اهلها، واليوم عشر سنين فى الحرب كل اللى تعرفه شعوب النفط شراميط وعاهرات مصر، عرب - خطف الوسام من يد ابوالعبد - ايه اللى تعرفوه عن الحرب، احنا حاربنا فى ٤٨ علشان فلسطين وحاربنا فى ٥٦ وفى ٦٧ و٧٢ افتقرنا، بعضمه لسانك، خلاص يا اخى زهقنا من الحرب، تعبنا، دمر اقتصادنا، لا لقمه ولا هدمه، القاهره عايمه على بحر من المجارى، اطفالنا تشرب المياه ملوثه، ولا تصعد

اكثر من الدور الارضى، والناس تنتظر الاتوبيسات بالساعات، عمرك سمعت عن حد يبيع بطاطا فوق الاتوبيس، الناس بتسطح على القطارات والاتوبيسات علشان مش لاقيه مكان .

قال عصام بهدوء وبرود أعصاب : يعنى خلاص ما بدك تحارب ..؟

أجاب بغضب مكتوم: واحارب علشانك ليه، انت بتحصل راتب فى شهر ٤٠٠ دينار، وعندك عربيه وشقه، وبتاخذ عموله ١٠٪ من المقاولين، والمؤكد بتشاركهم، ايوه، عايز تعرف الحقيقه، كل شويه تقول خليك موضوعى، ولا انا عارف موضوعى ايه ولا يحزنون، عندك عربيه وشقه واسعه وتليفزيون ملون، وبتاكل فاكهه وتشرب ويسكى، وانا باكل الجبنه الحادقه، وبلبس من سوق الظلام ملابس قديمه، انا لا كملت تعليمى ولا عارف إذا كنت ح اقدر اعلم ابنى ولا لأ، وانت بكره تصير مليونير زى كل الفلسطينين، وامراء الخليج والسعوديين، احارب علشانكم ليه ..؟

قال له ببرود وهو يعبث بالوسام: وهلىء عليش تحمل فى الوسام .

خطفه عبدالله من يده بسخط وسخرية: هو انا كنت خدته منك، وبعدين اه.. وألقى به فى النيران وهو يقوم غاضبا: مش عايزه.. انا راجع البراكه .

خطف ابوالعبد الوسام من قلب النيران، فى الوقت الذى قفز جواد خلف عبدالله يمسك به : انت ليش خلقك ضيق عبدالله، هذا نقاش يا اخي كل واحد يقول اللي بده اياه .

– ده نقاش ولا اهانه .

– يا اخي مصر ام لنا .

– المهندس المحترم بيسب كل مصرى فى مراته، يقول يعرف عنها كل شيء؟! يعرف ايه اللى فقد حتى الشعور بالعرفان، ما عمل حساب، كل كلمه تسبها فيها كأنك تسب امك، يا متعلم .

قام عصام مهتاجا هو الآخر وهو يلوح بيده : نعم .. والام اللى بتتخلى عن اطفالها للشوارع ما بتستحق قدسيه الام .

جلس عبدالله حزينا، يري أبو العبد يصرخ فى عصام : ايه انت بتخرف .. استدار ثانية عائدا باتجاه جبران ومفتاح : تعرف معنى بطاقة ص.ش.؟

قال جبران : اعرف .. صحراء شرقيه .

– باهى، ليبيين هاجروا مصر ايام الاحتلال الايطالى واثناء المجاعات، وعاشوا، عشرات القبائل، اولاد على اللى بيقتلوا المصريين على الحدود ويسرقوا اغراضهم القليله، الجهمه والعبيدات تسكن الفيوم واسيوط والبحيرات وسينا، قبائل ليبيه .. صحيح ؟

وجه السؤال لجبران فاجاب : ايوه صح .

– اول مره اعرف ده كان هنا فى ليبيا تعرف ده معناه ايه ..؟

– شنو

– معناها .. قال عبدالله فى فخر وسخريه معا .. اما احنا شعب عظيم فتح صدره لكل الخلق فى ايامه العصيبه، واما اننا شعب اهبل ابن كلب .. تعرف ليه ؟

– ليه ؟

– لأن مصر جعلتهم مواطنين مصريين، لا عايرتهم ولا قالت عليهم بتوع الفاصوليا

والشطه، ويا سكان التنك والخيام، او يا فقرا، الملك السنوسى عاش فى مصر لما طرده الطليان، ولما حكم العقيد نزل الامير رضا لمصر فى ضيافه عبدالناصر .

قال جواد بجدية: ترى عبدالله، اوضح لك شىء، القذافى اشترى بـ١١ مليار دولار سلاح منو بده يحارب، بده يعطيه لمصر، بده يساعدها، هو ما فى بينه وبين اسرائيل حدود بيش يحاربها، وكمان فكرتك عن الفلسطينيين غير صحيحه .

– ازاى .

– الفلسطينيين ما باعوا اراضيهم، هادى قصص من انصاف الحقائق اللى يبرر بهم الحكام العرب تخاذلهم وتهاونهم، اسمعنى، انا كنت بالجرش لما الملك حسين صفى سبعين الف فلسطينى يا اخى ماهو مش بس الاسرائيليين اللى قتلوا الفلسطينيه الجيش الثورى العراقى وقف يتفرج على ذبحنا بيد مدرعات البدو فى عمان وجرش وعجلون ماكو اوامر .!واقولك قبل ما يكون العيب على الملك حسين كان العيب على القياده الفلسطينيه، وهلئ، القائد المناضل ذبحنا فى تل الزعتر .

صرخ به عصام : كيف تحكى يا زله . قاطعه أبوالعبد :

– بدك تكون ديمقراطى يا زله، اتركه يتكلم .

– له .. نحنا قبل قيام الملك بالمذبحه كنا بنسيطر على عمان كان كل فلسطينى مدجج بالسلاح، صار الفدائيه تسب فى الملك ورجال الملك، وصار ما فى انضباط، لما ان هاجم الملك حسين وسار يكنس فى الفلسطينيه كنس بدبابات البدو، تماما مثل ما فعل الاسد فى الفلسطينيه بتل الزعتر، اليمين اللبنانى ما هزم تحالف حركه المقاومه الوطنيه اللبنانيه والمقاومه الفلسطينيه، هزمهما سلاح الطيران السورى وحافظ الاسد .

صاح أبونديم : يعنى كان بدك تحارب اسرائيل .

صاح عبدالله وجواد وأبونديم : اهه .. استطرد جواد :

– بدك تحارب المصريين إذن، قول ياخى تهاجموا الرجال حتى يصير كيف الطير الجريح، هذا هو لب القضيه، أشار إلى عبدالله، هذا الرجل حارب، وانت يا ابو نديم حاربت وانا حاربت، مو المصريين بعد اللى الفقرا، بالمخيمات الفلسطينيه ترى يا عبدالله الفقر الحقيقى، المجاعه، الاطفال تموت على صدور امهاتها، العائلات اللى عددها بيصل العشرين وما يتبقى سوى الواحد، الشهداء عندنا براعم ورد تخطفها يد المنيه من قبل ما تلحق تتفتح، شعبنا ما باع ارضه، وارضنا ما بتزرع غير الشهداء، بيع الفلسطينيه لارضهم اكنوبه من مئات الاكاذيب اللى بتستر بها الانظمه العربيه عوراتها، وعورات هذه الانظمه قد ايش قبيحه، قد ايش مورمه ع صديد وقيح، الفلسطينيه يا اخ عبدالله ما باعوا ارضهم، اللى باع هن العائلات الغنيه، عائلات معروفه، فلسطين بتعرف كانت تحت الاحتلال العثمانى، صار السلطان يوزع الأراضى على المخاتير لجباية الضرائب، بعدها امتلكوا الاراضى مو هكتار ولا مئه، بل قرى باكملها كانوا بيملكونها ع هيئة هبات، وهذه عائلات كانت اصلا مو عائلات فلسطينيه، اتراك وشركس ومماليك وكذا، عليش بدهم يحاربوا اليهود ويظلوا تحت النار، هادول اللى باعوا اراضيهم لليهود مو فلسطينيين، وما كل الاراضى بيعت، البعض فقط والباقى اغتصب بقوة السلاح، فعلا انت تراهم اثرياء واصحاب وظائف

عليا فى ليبيا والخليج والسعوديه، واوروبا وامريكا، كمان فيه فلسطينيه بالمخيمات .. شعبنا عبدالله يسكن المخيمات، وما توقف القصف عنه لحظه وما انتهت حربه فى يوم من الايام، بلكى يحارب كل الدنيا بيظل يحارب، تقول القاهره ما عاد بها شبكة صرف.

المخيمات ما فيها صرف على الاطلاق، فى المخيمات تعيش العائلات على اعانة وكاله غوث اللآجئين، اللى بيغضب الاخوان ان خروج مصر من الحرب بيجعل اسرائيل تنفرد بالباقى، واحنا من غير مصر ينقصنا الكثير، كمان بدى اقول شىء، الخطر ما راح عن مصر بصلحها مع اسرائيل .. هاى المشكله والازمه معا ..

قاطعه عصام : وإذا هو بيعرف - قاصدا عبدالله - ان السعوديه والخليج اعطوا اديش معونات لمصر. مصر بتاخذ معونات من ال ٦٧ من كل مكان بالعالم من الشرق والغرب والاتحاد السوفييتى وبعده الولايات المتحده الامريكيه، حتى انها تنافس اسرائيل الآن على حجم المعونات، وحتى الآن وين راحت هاى الملايين، وزعها السادات على عصابته بيسرقها، الفساد منتشر بمصر مثل الهواء، ليش تلوموا العرب إذن، انا باعرف كل شىء عن مصر لإنى كنت بمصر .

قال عبدالله بضجر : مش مشكلتى .

عقب جواد محدثا عصام : انت بتعرف، مثلك مثل دعاة انصاف الحقائق، هادى الشعوب العربيه ما بتملك مصائرها بايديها، اللى بيملك مصائرنا انظمتنا الحاكمه، وهذا هو الفرق، نحن حاربنا لكن النتائج السياسيه للحرب بتتمكن فيها انظمه متهالكه. انظمه ضعيفه، نخبه حاكمه تدور فى مصالحها .

قال عبدالله بقرف : كل ده ما يلزمنيش، عايزين تحاربوا اتفضلوا، الميدان مفتوح يتقدم العرب جميعا اولا، احنا بعد كده ح نحارب، لكن فى المؤخره، مش البعض يتبرز فى مراحيض ذهب وشعوب تاكل النفايات .

ضحكوا جميعا وضحك هو الآخر معهم مستكملا حديثه لمفتاح وجبران : احنا فواله، يا بتوع اللوبيا، لوبيا على الافطار، سندوتش هريسه متحدق بلوبيا وتقولوا ، فواله .

ضجوا جميعا من الضحك .

تحدث جواد : ما تقدر تقول على الاكل الفلسطينى شىء .

قام المهندس عصام مبتعدا فى ضيق، وقد اختلط فى وجهه العبوس بالضحك : لأ، ما تستطيع تقول شىء على الاكل الفلسطينى، لكن ما بناكل فول

أجاب جواد : ايه بتكذب، ومين ما ياكل الفول .

تساءل عبدالله : الاكل السورى .

صاح به أبونديم مقلدا اللهجه المصريه: لا، إلا كده، بقى الاكل السورى ما فى مثله، مثله مثل الفلسطينيه، الاكل الشامى واحد .

- انتم تطبخوا الملوخيه من غير ما تخرطوها، طعمها ماسخ زى السبانخ .
- لكن هذا ما هو مثل الفول .
- يعنى هو انتم ما بتاكلوش الفول ؟
- ايه بلى .

– وهو فيه حد يابو نديم يعمل من الباذنجان مربى ؟

ضحك أبو نديم من قلبه، وقال وهو يهز رأسه بابتسامه واسعه : وفيه حدا يخلل الحامض .. قاصد الليمون .

هرش عبدالله رأسه، وقد التمعت عيناه : مش عارف، ايه .

قال أبونديم : بس تعرف انا حبيت الليمون المخلل، اكلته عند صديق مصرى، عندك هون ليمون مخلل ؟

قال مندهشا : بالبراكه .

– هون فيه ؟

– زلعه ..

ضحكوا ثانيه، قام مفتاح يرقص ويغنى : وأنا نازلة أدلع أملى الزلع .

قاطعه عبدالله قائلا فى جد : انا عندى ملوخيه، بكره اعمل لكم ملوخيه، بالارانب .

– ايه عظيم .. صاح أبو العبد .. وانا باعمل لكم تبوله .

– لأ .. قاطعه جواد، بنعمل لهم لينه بتاكلوا صوابعكم .

صاح عبدالله وهو ينظر لأبونديم بظفر : مكدوس .

– من وين عرفت المكدوس .

– صديق سورى .

– منو ..؟

– انت

– انا اكلتكم مكدوس ..!

قال جبران : وأنا بأعمل محاشى .

– شنو محاشى ؟.. تساءل جواد .

صاح أبونديم : ما بتعرف المحاشى . خصيه الخروف يا زله.

– بكره انا ح اعمل لكم ملوخيه بالارانب .

– هيك لا، نحنا بدنا نسوى اكله فلسطينيه .

– يا حبيبى كل شىء جاهز مكدوس، تبوله، وغيره

– انتم فى ليبيا باهى . أول ما تاكلوا تاكلوا المحاشى، باهى، ايه بس بدك تغنى .. ايه بلى، هات الربابه وغنى .

– انا .

* * * *

الفصل السادس والعشرين

-١-

كانت الشمس تتهيأ للمغيب، تابعها تسقط بهدوء فى الأفق، دخل البراكة يلفها الصمت، انتابه القلق، تساءل، لِمَ لَمْ يعد المبروك عطاالله؟ وفين رضا؟ خلع نعليه وبنطاله وقميصه الرث، شعر بحركة فى ركن الفراش الخلفى، استدار منزعجا، كان رضا مكوما على نفسه، وقد دفن رأسه فى الحائط، نادى عليه : واد يا رضا مالك، قوم، كنت فين..؟

عندما لم يسمع من الفتى إجابة، شد الغطاء، كان وجهه الفتى مخشما، وعيناه تتساقط منها الدموع .. جذبه بعنف : مين عمل فيك كده، قول يا وله، الحاج حميده عملك حاجه. هز الغلام رأسه نافيا، امال ايه اللى حصل، قوم، قوم فز، ارتعد الصبى فشعر عبدالله بالعطف . استطرد مهدئا .. قول حصل ايه .

أقام الصبى جذعه مبقيا وجهه للحائط، تحدث هامسا : محصلش حاجه، د انا افتح بطنه، هو .. بس انا .. بس انا لو ما كنتش .. جريت منه .. ايوه كان الباب مفتوح ..

- طب يابنى، اوعى تروح عنده، ويكره تلم حاجتك وتمشى .
- فلوسى، شقاى، اسيبه، د انا بتحرق، واللى ورای، اعمل فيهم ايه. أجهش بالبكاء
- انا ح اتصرف، اوعى تخرج من هنا، فاهم .
- طيب .
- معلهش يا ابنى، مقدر ومكتوب علينا، قوم، قوم اتعشى .
- مش عايز .
- قوم، تعرف المبروك وعطاالله فين .؟
- ليه، هم بره لحد دلوقت ..
- ايوه .
- يا نهار اسود، الشرطه بتمشط بنغازى .

فى الحادية عشرة ليلا، فتح الباب فجأة، دخل المبروك لاهثا :

– فين عطاالله .؟

– اتمسك .

– وانت .!

– كنت معاه، الشرطه قبضت علينا، لونا من سوق الظلام، ياه، خلق مالها عدد، كل واحد شايل حاجه، شنطه هدوم، اجهزه كهربائيه، واللى شايل مسجل، جمعونا زى الفراخ، ورمونا فى لوريات الجيش وكله على الحدود طوالى .

– وانت عرفت تيجى ازاى .

– ثلاث لوريات، طب ضابط جيش، اخذنا نشتغل عنده فى معسكر للمشاه، نجارين وحدادين وعمال، ظلينا نشتغل طول اليوم، وعم عطاالله يعوى، اغراضنا هدومنا يا خلق هوه، شقا الشهور، احنا نشتغل سخره ولا ايه..؟ بس مين يسأل فيه، خرج له ضابط وقال له:

– ما فى سخره فى ليبيا.

واحنا دلوقت بنشتغل باجره، ولا بنشتغل باكلنا.

– انت تعمل فى ليبيا من سنين.. باهى.. لما تشتغل اسبوعين لليبيا ايش يجرى.. ؟

– يعنى سخره.. وفلوسنا الآخرى، ستة شهور عمل

– ما يرحل مصرى وما ياخذ حقه، ترى انت فى ليبيا.

لما آجى الليل غافلت الحرس هربت.

– حمدالله على سلامتك، قوم كل، الاكل اهه.

دفع باطباق الطعام بينما كان رضا يصنع له الشاى..

صاح المبروك: ادخن سجاير..

– انت عمرك مادخنت ..!!

– ح ادخن.

– طب لما تاكل.

– هات سيجاره

كان ياكل ويدخن بنهم. سأله عبدالله: هم تركوك من غير اكل ؟

– سممونا، عيش وفاصوليا.

فتح الباب فجأة وأطل الحاج حميدة بجسده العريض، تراجع المبروك خوفا، واختفى رضا فورا لكن صف الأسنان اللؤلؤية للحاج حميدة التى برزت تنم عن ابتسامة واسعة طمأنته: شنو اللى حصل.. ؟

– الشرطه بتلم فى السلكاويه .

– وانت ايش فعلت. ؟

– هربت.

– وعطا الله.. ؟

– عطا الله رجل عجوز .

– نشهد الله انك راجل صحيح، توا نروح لعمران مدير الشركه نرجى فى عمالنا، لما ياخذوا من عندنا مائة وعشرين عاملا، ترى كيف عمر بوزوى ينهى اعماله، كيف نخلص فى كل هادى المنشآت، هو الجيش يبى العمل تبعه ينتهى فى التو والساعه، نستورد فى عفاريت.. ؟

قال عبدالله: يعنى وايه يهم لما يرجع العمال مصر.

أجابه فى أهتمام: لا.. ترى انت غلطان واجد عبدالله، العامل المصرى طوبه هذا البناء تقدر تبنى بنا من غير طوب وهذا هو.

قال عبدالله بلا مبالاة: انتم تجيبوا فى الشركات تركيه ويوغسلافيه وبولنديه، تتركوا فى المصريين وتدوروا فى غيرهم.

– تعرف هذا اكبر خطأ، هذه الشركات ما تخدم الوطنى الليبى، الشركات، هادى بتجى وتحضر معها كل شىء، حتى الطباخ والسياره وسائقها والمعدات تبعها، ترى فيه شركات تحضر طعامها من بلادها، تحضر لعمالها الاجانب حتى الخبز، مقاول ليبى ما ياخد عمل من الباطن، صاحب بنايه ما يلاقى مين يسكن عنده.. مالك معده، لورى ما يجد من يؤجرها منه، سائق، الملاحظ الليبى ما يستطيع يشتغل بهاذى الشركات، التاجر ما يجد السوق اللى يبيع فيه سلعته، المصرى كان يعمل وفى الوقت ذاته كان جزء من حركة التجاره بيعتمد عليه، جزء واجد من راتبه ينفق هنا، وهذا ينعش السوق، ترى هذه خساره فى خساره، حتى السكن ما يسكن الاجانب عند الوطنى، يبنوا لعمالهم معسكرات للنوم بها مطابخ ودورات مياه ليش.؟ ما يستعملوا شىء من البلد، وما يصرفوا حتى درهم فى البلد، هادى خساره حتى عمر بوزوى يخسر، يشهد ربى هذا الكلام صحيح، توا انا نروح غادى مع عمران لضابط كبير فى سلاح الاشاره بيش يحل مشكلة العمال هادي. قال وهو يرحل: انا بنفسى نروح نجيب عطاالله، وين كنتم.. ؟

– معسكر المشاه على طريق القوارشه.

عندما اختفى نظر كل منهما إلى الآخر مندهشا:

– ايه اللى حصل له؟

– دى عمره ما قال صباح الخير.

– دى ضبع مسعور، الشهر يخلص نمشى ، نروح بلادنا بلا رجعه.

– ايوه بلا رجعه، نجهز اغراضنا ونشوف مين يحول لنا الفلوس.

– لابد واحد مضمون، ننام والصباح اكلم جبران، رضا طفى النور .

تمدد فى الظلام، يقاتل نفسه وعيناه محدقان فى الفراغ ..

جفاك النوم يا ابن عبدالجليل.. النوم جفاك.. والليل طويل من غير رفيق.. .. ترجع يا عبدالله مصر.. ارجع ما ارجعش ليه.. والعمل ح تعمل فيه ايه.. هو انت تقدر تلاقى عمل فى اى مكان الان.. لازم تكسب قضيتك مع مؤسسة النيل، رد شرف وحكم بالعوده للعمل.. آهه يا زمن العجب.. الشريف يندهس بالجزم واللص ينام الليل مرتاح ضامن الجنه.. ما يكدر صفوه لمحة ذعر في العين.. شعور بالقلق.. خوف من المستقبل.. ذعر انعدام الأمان.. ازاى ح يخاف.. ؟ ومن مين؟؟.. والشرطه فاتحه عيونها على كل من يهتم بحقوقه أما الحرامى يلاطفوه.. يسألوه المشاركه فى الغنيمه.. صار الفساد عميق..

جفاك النوم يا ابن عبدالجليل.. النوم جفاك.. والليل طويل من غير رفيق.. ليه البؤس، ليه نتحمل الاهانه، طب ايه العمل بعد ما عادش فى الوطن لقمه ناكلها بكرامه .. طب واللى جرى فى الحرب..

* * * *

الفصل السابع والعشرين

-١-

فى أحد الأيام الممطرة يناير ١٩٧٤، فوجئت به أمامى فى ردهات مركز تأهيل مصابى الحرب بالعجوزة.

– سيادة العميد عادل صبرى.

–ازيك عامل ايه.

– تمام يا افندم، كل شىء عال، كنت عايز ارجع نصف فدان المتأجر، اصل اخوى الكبير استولى على ارض ابوى، كتب الحيازه باسمه وانا ماليش مصدر رزق، وسيادتك عارف.. الحاله ضنك، مزنوقه، الواحد زهق من الحال، والبطاله وحشه.

– مستحيل يا عبدالله ترجع ارض من مستأجر.

– حاولت بالقانون والعرف وفشلت.

– اسمع تشتغل فى مؤسسة النيل للطرق والانشاء، ح اعينك فى اقرب مكان لبلدكم، انت من منوف، فيه مشروع فى النواحى هناك .

– تمام يا افندم.

– انا ح اكلم الوردانى بيه يعفيك من الحضور والانصراف، ايه رايك، ولا اسيبك تفكر.

– افكر !! يا سيادة العميد ده انت نجده وهبطت من السماء، انا زهقت من البطاله، ربنا وحده اللى يعلم الواحد قاعد يرتكب ذنوب من قله الشغل. قال العميد وكأنه أهين: ليه.. احنا اللى حاربنا، ولنا فى البلد دى حقوق، اخدت تعويض اصابة الحرب.؟

– تمام يا افندم بس تكفى ايه، خلصت فى بنا الدار.

– خد الكارت ده واطلع على الوردانى رئيس قطاع التنفيذ بالمؤسسه، عدى عليه فى مكتبه، ح تتعين على طول.

قال بأنبهار: والله العظيم يا افندم.

أجاب العميد غاضبا: امال فاكر ايه، البلد دى بتاعتنا، امسك الكارت واطمئن.

تحتل مكاتب إدارة مؤسسة النيل للطرق والإنشاء إحدى شركات القطاع العام عدة طوابق فى واحدة من عمارات القاهرة الواقعة وسط المدينة، والتى تفوح منها رائحة العطن والقدم، المداخل القذرة، السلالم المتآكلة، الأثاث المتهالك المكدس وسط بقايا القانورات، تمتلىء بها الممرات الخارجية، حوائط عارية مدهونة بطلاء الجير تشيع الكآبة، بين الفنية والأخرى تعبر الطرقات كائنات غريبة، وجوه بشرية نحتت من الصلصال، ثم ما لبثت أن طعجتها قبضة حيوانية غشيمة نزعت عنها إنسانيتها، وأبقت لها دناءة وقدرة الكائنات الدنيا على التكيف فى وسط عفن لطبيعة ضنينه، ظربان، غربان، فئران، قطط، ذئاب، ضباع، عناكب، عقارب، موظفين جهلة تآكلت عقولهم، يخفون براعة لا نظير لها فى إنتاج البلادة والعفونة والفساد، ونساء دميمات لزجة تنتمى لعالم أفراس النهر، وسعاة صفر الوجوه، مقوسى الظهور، يواجهونك بنظرات هى خليط من المسكنة والشحاذة وتمكن الضعفاء وانسحاق التسول وفجور الابتزاز.

الطابق التاسع حيث مكتب رئيس مجلس إدارة المؤسسة ورؤساء القطاعات، مكان لا يمت لباقى الطوابق بصلة، إلا من حيث غثاثة الذوق الحيوانى، ممرات فرشت بالسجاد، وجدران مطلية بدهانات الزيت الرمادى القبيح، معلق عليها صور لمشاريع الشركة.

فى مكتب رئيس القطاع التنفيذى جلس مدير عام مديرية الطرق وعدد من مهندسيه يواجههم رئيس قطاع التنفيذ بالمؤسسة وعدد من مهندسيه، قطط وجرذان، يتناقشون بصخب وفوضى عائلية، قطط وفئران تبادلت مواقعها، جرذان الحكومة وقد خلعت جلد الجرذان النتنه، وارتدت جلود القطط التى تنازل لهم عنها مهندسي المؤسسة عن طيب خاطر، وانتفخت أوداجها بفرح وابتهاج، وقد غمر قلوبها عشق وولّه شبقى لتمثل دور السلطة فى العلن ودور المسكنة والمذلة لأولياء نعمتهم من مهندسى المؤسسة فى الخفاء.

- هيا يا باشا امتى ح ترسل العطا.. ؟

سأل المهندس سعيد جرذ المديرية الوردانى قط الشركة الشرس ورئيس القطاع التنفيذى للطرق، الذى أجاب وكأنه يعود من سماء بعيدة: على طول، الحمار اللى جنبك، وأشار ناحية أحد مهندسيه، بيدرسه.

تدخل مدير المديرية: جرى ايه يا سى مجاهد، عايز حد يفوقك.

أجاب مهندس فى السادسة والثلاثين من العمر: ابدا يا باشا، وانا فى انتظار اوامرك.

أهتز جسده المتلىء المدملك منتفضا واستدار إلى مهندسه مستفهما وهو يشوح بيديه: الله! هو مش كل شىء واضح

أجاب سعيد مؤكدا بإيماءه من رأسه ووجه معا: طبعا يا باشا كل شىء واضح.

نظر ناحية مجاهد تاركا مهمة فتح الحديث، لكن مجاهد فضل أن يطرح جرذان المديرية

عرضهم بأنفسهم، غير راغب فى أن يتحمل مسؤليته، ولا أن يمد لهم يد المعاونة، إمعانا فى إذلالهم وحتى يمنع عنهم التقاط ثمار المنة التى سيمنون بها على الشركة من هذا العرض، اكتفى متعللا فى نظراته التى تبادلها مع سعيد من وراء ظهور الآخرين، إنه لم يجرؤ على عرض هذا الموضوع على رئيسه برغم أنهما فى حقيقة الأمر قتلاه بالبارحة بحثا، مسح المهندس سعيد المكان بنظرات قلقة، كان يعلم أن رئيسه سيغضب إذا قاما من جانبهم بطرح الأمر على الشركة، حيث سيبدون مثل امرأة عجوز تعرض على شاب مضاجعتها وهى ليست على يقين إن كان يرغب أم لا.. هز رأسه بلا مبالاة عاهرة مثل خرقة مسح دورات المياه العامة، صوب ناظريه إلى الوردانى، مائلا بجذعه نحوه، وقد افتر ثغره عن ابتسامة واسعة ملأت شدقيه: هيء..هيء..هيء..هو مجاهد ما قالكش ولا إيه؟

استدار الوردانى ناحية مهندسه متصنعا الغباء: قال إيه.. ؟

زفر سعيد زفرة امتعاض: اعمل فيك ايه، ما تصحى للون.

هتف الورداني لمجاهد بغضب: فيه ايه. ؟

عقب مدير المديرية ساخطا: هو كل مهندسينك من النوع ده.. ؟ ما تنقيهم يا وردانى . .

عقب سعيد: لا يا افندم، مجاهد مهندس حلو يعجبك. بس المره دى مش عاجبنى.

تدخل مجاهد بخبث: انا كنت اليومين اللى فاتوا فى المنوفيه، الله انا اول مره اشوف البيه دلوقت. المهم ايه المشكله.. !! آدى الجمل وادى الجمال.

– هيء .. هيء .. هيء .. خير.

عقب الوردانى وقد آن آوان الحديث: خير.. !!

سعاده الباشا، مشيرا إلى رئيسه، له راى. تدخل مختار السيد بغضب وعصبية واضحة: لا.

استطرد سعيد بابتسامته اللزجة وبعد توقف عن الضحك: واحد مجهول له راى، واكمل بجدية، يفيدنا كلنا، وباختصار بدل ماتتعبوا نفسكم تنزلوا مناقصه، ممكن تكسبوها وممكن تخسروها، طبعا احنا بنساعدكم، لكن مفيش حاجه مضمونه، ممكن شركه تطلع لك متعرفش منين، عبرت وجوه الجميع بحمية عن الموافقة والأمتنان، قال: ممكن العمليه تنزل لكم بالامر المباشر، ويا دار ما دخلك شر.. أدار الوردانى رأسه بتثاقل.

– وهو مين اللى يقدر يعمل كده. ؟

– بالظبط وهو ده الموضوع.

– ما انت عارف يا سعيد، اسناد العمليات بالامر المباشر موضوع له حدود وحد اقصى.

– هيء .. هيء .. ماهو علشان الحبايب الغالى يرخص، انت مش عارف ولا ايه، ما كوبرى ٦ اكتوبر واخده عثمان بالامر المباشر.

– اللى اخد كان عثمان واللى اعطى كان السادات ايه جاب ل.

ضحك سعيد وهو يشير إلى رئيسه: طب ما هو الباشا من العائله العثمانيه.

ردد الوردانى لنفسه.. أعرف لكنى لو سارعت بالتعبير عن البهجة سيركبنا جميعا، الآن يقيس كل منا الآخر .. طبعا.. ما السادات وضع كل اعمال المقاولات فى جيب عثمان، كل البلد وضعت فى السلة العثمانية، فكر أن إدارة الشركة كلها تنتظر مفاوضته التى يجريها

الآن مع مدير مديرية الطرق الجديد، لم يكن يظن أنه سيكون واضحا هكذا.. لا.. أتركه يعرض كل ما عنده..

قطع مختار السيد أفكاره: اسمع يا وردانى بيه انا شايفك قلقان، يهمنى انك تعرف الآتى، اولا.. العصر ده عصر المليون، اللى مش ح يعرف يعمل المليون النهارده عمره ما ح يشوفها، ثانيا.. انا ح اقسم المديريه اربعه اقسام كل شركه من الشركات الكبيره ح تتولي اعمال الرصف فى منطقه من الاربع مناطق، لا تقولى مناقصات ولا عطاءات، ولا تقولى مديريه ولا شركات..

همس سعيد منشكحا: كله على كله.

واستطرد مختار السيد: لازم يسود التعاون بين الجميع

قاطعه مجاهد: طبعا يا افندم التعاون موجود.

– عارف .. لكن التعاون اللى فات حاجه، واللى جاى حاجه ثانيه، واضح ياوردانى.؟!

– واضح يا باشا واضح جدا.

.. فكر الوردانى ليس هناك اوضح مما تقوله..

– لأمش واضح، التعاون اللى ح يخلينا كلنا شركه واحده، وافهم، انت مغانا ولا لسه ح تفكر، شايفك عمال تفكر م الصبح.

ضحك الجميع وضحك الوردانى بنعومة.. منجم دهب اللى يتأخر خسران. قال له: يا باشا واحنا نقدر نقول لأ. احنا كلنا تحت امرك.

انزاحت أثقال التوتر من الغرفة وخيم جو الارتياح على النفوس، استأذن الوردانى خارجا لقضاء حاجته، وذهب مباشرة إلى مكتب رئيس الإدارة، أمضى عشر دقائق، ثم عاد ثانية إلى مكتبه، هذه المرة لم يجلس على مكتبه بل دعا مختار السيد للجلوس عليه.

– خلاص يا مجاهد .. قال سعيد .. الغى بقى موضوع دراسة العطاء، واعمل لنا قائمه اسعار، ولا ايه رأى الباشا؟

قال مختار السيد : ما عنديش مانع.

نظر مجاهد مفكرا: بس الموضوع يا افندم فى ايد المهندس صلاح عقل.

قال مختار: طب وايه يعنى.؟

– حضرتك عارفه مزودها شويه.

– اقلبه، ح يتم نقله لعمليات وسط الدلتا فورا.

– طب والاسعار.؟

عقب سعيد: زود زى ما تحب، وقال بصوت أقل مستوى وهو يبتسم، ما كله ح يتقسم بيننا

مد مجاهد يديه معبرا عن احتياجه للتحديد: المدى !!

فرد سعيد ذراعه: زود اسعارك ٢٠٠ ٪

فتح الوردانى فاهه على مصراعيه..

– طبعا، انت تحط اسعار عاليه جدا، واحنا ننقص شويه، هى العمليه مش محدوده بينا بس.. !! المره دى فيه رؤوس كبيره.

قال الوردانى بتلطف موجها حديثه لسعيد: ما تنساش يا سعيد بيه ان احنا قطاع عام، وفيه رقابه اداريه وجهاز مركزى للمحاسبات، يا مختار بيه، انا رأيى ان احنا نرفع الاسعار وكل حاجه بس من خلال مناقصات موجهه، مسيطر عليها وباتفاق بين الشركات وبعضها، ونرفع الاسعار زى ما انت عايز ٢٠٪ ٣٠٪ ٥٠٪، شويه وبعدين يا سيد حتى ٣٠٠٪ مش مهم، حد يكره الخير لنفسه.

بان الاعتراض واضحا على وجهه مختار السيد. قال مجاهد: طب يا افندم نستخدم البنود الوهميه. نظروا نحوه بوجوه مستغلقة على الفهم،

فاستطرد: البنود الاختياريه، نرفع السعر بنسبه معقوله، بالاضافه الى خمسه او ستة بنود وهميه. تاخد اللى سعادتك عايزه. .

قال سعيد لرئيسه بفجور وابتسامته اللزجة الواسعة تملأ فمه:

- ما احنا شغالين برضه مش ساكتين.

- بنود وهميه، بنود وهميه زى ايه.. ؟

هز الوردانى كتفه. نظر مستنجدا بمجاهد الذى قال: كتير يا افندم. الميزانيه الشبكيه، اعمال الحفر والردم، ونوع التربه، تكسير الخرسانات، وغيره. استطرد باهتمام مبالغ فيه يحدث رئيسه: تكسير الاسفلت، يعنى يا افندم بنود زى دى بقره بتحلب ذهب. احنا عمرنا ما كسرنا الاسفلت القديم، منين ؟ .. حضرتك عارف، شركات الرصف لا تملك معده واحده تكسر متر مكعب من الاسفلت، كلها معدات معدومه، لكن ولو، كل الاسفلت القديم لازم ينزل المستخلصات متكسر، ماهو انت مسفلت فوقه حد عارف ايه اللى تحت..

قاطعه رئيسه مختار السيد: انت ربنا ح يدخلك النار حدف يا سعيد.. ضحك الحاضرين.. اجابه بمكر: مدام ح نكون صحبه مع بعض يا باشا- تصاعد الضحك - استطرد سعيد: يعنى سعادتك لما تحسبها فى شارع بطول كيلو متر، مش اقل من ٦٠ الف جنيه صافى حسبه علي الورق، شوية مستندات، ما تصرفش عليها فلس، ما تبذلش نقطة عرق، شوف بقى المديريه بتسفلت كام كيلو متر فى السنه.

هز الوردانى رأسه بالموافقة لكنه فوجيء بمعارضة قاطعة من مختار السيد: ممكن استخدام حيل وألاعيب زى دى للشبرأه وبرو الحنك.. على العموم بكره ابعت لك اسعار العمليات اللى ارسيت بالامر المباشر، اختار اعلى الاسعار، فاهم اعلى الاسعار يا وردانى، اللى يشوفنا يقول علينا بنفض بكاره واحده عذراء وخجلانين، لا لا لا.. انت باين عليك مش عايز تفهم يا وردانى.. نظر للجالسين وهز رأسه مشيرا لهم بالخروج وعقب: طب سيبونا شويه يا ولاد، بره انتم دلوقت.

هز سعيد رأسه بابتسامة صفراء سعيدة وقال مجاهد بجدية: اوامرك يا سعادة الباشا.

لحظات حتى خلى المكان، قام متجها ناحيته طرق كتفه برفق وهو يشير إلى ثلاثة مقاعد وثيرة فى نهاية الحجرة.

- تعال نقعد هناك يا وردانى، يمكن ناوى تسجل لى. وضحك

- انا يا افندم.

- انت صدقت، اسمع.

- طلبات الباشا.

- ابعت هات عزمى صليب.

أشار إليه باستهانة وعلى وجهه نظرة مستغلقة: ابعت هات رئيس مجلس ادارة شركتكم ، موجود ولا مش موجود؟ انا عارف انه موجود.

- ايوه موجود يا افندم ثوانى ويجى.

وقام إلى مكتبه يحضره.. عندما حضرا سويا قدم كلا منهما إلى الآخر، فاجأهما بالحديث: طبعا بتقولوا الرجل ده مخبول، جالنا منين. ضرب يديه الفضاء، بلاش المقدمات، العرض اللى عرضته عليك يا وردانى لنا فيه قد ايه، طبعا عزمى عارف كل حاجه، ولا محتاج نبتدى من جديد. أبقيا على صمتيهما .

- كويس.

قال الوردانى عاجزا عن كظم غيظه: ما انا قلت ، طلبات السياده؟

- عرضك؟

نظر المهندس عزمى إليه بقلق وقال: الشيء المعقول والعادي.

- اعرف ايه هو. ؟

- المهندس الوردانى بيوصله شهري راتب ٢٠٠ جنيه، طبعا حضرتك عارف .. بره مرتبه.. ويا باشا سعادتك ما تقلش عنه.. حضرتك تاخد زيهم..

انفجر مختار السيد يضحك يصخب بالغ .. انثني للأمام ممسكا بمعدته: وده يبقى مليون فى كام سنه ان شاءالله .. لا .. لا ..

قال المهندس عزمى : تفضل نسبه..؟ سعادتك أأمر.. ٣ ٪ حلو ..

حدثه غاضبا وهو يشوح بيديه: هو انا عيل بتفرحنى ب ٣ ٪ احنا بنتكلم عن ملايين وانتم يا بتستعبطوا يا مش فاهمين..

نظروا إليه فى حيرة.. ونظر اليهما وعقله يفكر كيف يشرح لهما الامر قال الوردانى: يا باشا نورنا، قولنا ايه اللى فى مخك، خلينا معاك فى الصوره علشان نفكر سوا.

- جميل، اسمع يا وردانى، لك كام مقاول باطن فى العمليه؟

- والله ولا واحد.

- يعنى بتدخلهم بالنسبه.

هز رأسه بالنفى. فكشر عن وجهه متراجعا.

- لا الكلام ده ما ينفعش، اسمع الحكايه دى، لما واحد يموت ويسيب ثروه كبيره قوى وانت الوصى عليها، الحساب لمين، للورثه، لكن لما يكون الوريث مريض بالغيبوبه، تبقى بتاعة مين؟ .. اللى حارسها فهمتم؟.. طبعا لأ.. عبدالناصر جمع ثروه مصر وحطها فى الحكومه والقطاع العام ومات، الله يجحمه، فكركم ح ترجع لباشوات الملك، ابدا.. !! احنا فى ١٩٧٤ وحارسين على ثروه مالهاش وريث، طب الاشتراكيه وانتهت، تبقى القطاع الخاص، هو فيه قطاع خاص، فيه دكاكين قطاع خاص، لكن رأسماليه متركز فى يدها ثروه البلد.. ؟ .. لسه مفيش.. لأن الخزنه لسه ما اتفتحتش، السادات اعطى الضوء الاخضر، قال لرشاد عثمان: اسكندريه بتاعتك يا عثمان، بالعقل كده هو ح يشجع القطاع الخاص ازاى، مش لما

يبقى فيه قطاع خاص، طب يا ولاد الكلب قاعدين بنعمل ايه؟ بنشتغل فى القرش والقرشين والراتب الشهرى!! .. هو انت فاكر ابقى انا متحكم على ميزانية الطرق بالمديريه، ملايين الجنيهات كل سنه، علشان ييجى عيل فافى ولا مقاول بلبده ما يساوى نكله، يحطهم فى سيالته ويهرب، وانا وانت لسه موظفين بنقبض ملاليم آخر الشهر لأ يا بهوات، جحا اولى بلحم توره .. هو ده يا وردانى مربط الفرس. لعبة الكراسى الموسيقيه ح تبتدى، اجرى والحق كرسى وإلا ح يكون مصيرك فى الباى باى.

وقف الوردانى، وقد أثارته رؤية فأر حكومى يتحول إلى قط شرس، قال باستياء: ايه الكلام الفارغ ده، تور مين وبتاع مين، انت شارب ؟.

اجاب مختار فى ضجر غاضب: اقعد يا وردانى، احنا مش فى اتحاد اشتراكى، ملفك عندى، انت والعيال المقاولين بتوعك. ،انا عارفهم واحد واحد والملف بالصور، عايز اماره، الواد صديق ابن اخوك اللى محتكر الارصفه، اكمل يا عزمى ؟

قال ضاحكا: يا مختار باشا مفيش داعى، الوردانى مش فاهم.

– اهو ده عيبه، كده نتعطل ومفيش وقت، استطرد ساخرا .. هو متوتر شويه وده بيعجزه عن التفكير، بيخلى مخه يتخن. استدار اليه .. فتح معاى وبص يا خوى. اتجه ناحية المكتب، فجأة قفز فوقه ملقيا سترته الشمواه إلي احد المقاعد مشمرا عن أكمامه.. وعيناه تنظران جانبا إليهما وبحركة مسرحية قال:

– بص خزنة مصر حته منها مش كلها تحت رجلى لمدة خمس سنين يمكن عشره، ربنا وحده اللى يعلم، اعمل ايه .. امسك فى ايدى جاروف. انحنى يتحرك بجسده جيئة وذهابا، صارخا بعصبيه بالغه.. و.. اقلب. اقلب. اقلب.. طبعا محتاج حد معاى يعبى، مقدرش اعمل المهمتين فى وقت واحد، انا ح اغرف وهو يعبى، انا وانتم نغرف واحنا الاتنين بقى شركه سوا، بس محتاجين حد يعبى، طبعا دى معروفه وانتم عارفينها ولعبتوها وبتلعبوها، بس زمان كانت سبوبه صغيره، حته على المقاس علشان متنكشفش، الفلوس كانت عوره ايامها، النفوذ كان فى السياسه، الاتحاد الاشتراكى، لكن دلوقت وضع تانى، ثروة البلد كلها فى كوم مالوش صاحب، ولحظة بدء الاشارة.. الشعب كله جاهز للاندفاع للهبر، والهبش، واللى قاعد على حاجه هو اللى ح يكسب، والباقى تعيش انت، ح يبص ويحلم، لكن احذروا، اول ما يترفع الستار عن كومة الدهب، كله ح يرفع الجاروف، وكله ح يشتغل غرف من الحته اللى تحته – إنحنى وقام عدة مرات وكأنه يعبىء من كومة وهمية – استطرد: ح يبق فيه صرعه نهب زى حمى البحث عن الدهب، الجاهز ح يكسب، وانا ح اعتمد عليكم فى ان الجاروف يكون ببلدوزر، لودر، عايز فى آخر المشوار آكون انا وانتم البزنس مان الحقيقى اللى فى ايده سيجار، اللى بيلبس الصوف اللميع ويسافر اوروبا فى طياره خاصه وننسى بقى فيلات الضباط الاحرار الكحيانه، وعزب الثلاثين فدان، والفلتين اللى ادعى عثمان انه اهداهم للحمار الغلبان جمال عبدالناصر علشان بناته تتاوى فيهم ويتستروا، آيوه يا اخوى، ننسى المعاش الحكومى، ونفكر فى القصور والمرسيدس بسواقها، وارصدة البنوك وفيلات نيس ومونت كارلو، البزنس مان اللى جاى لازم يكون انا، رجل بنوك، وإذا كان حد تانى فلازم اكون شريكه، اسمع يا وردانى ان كنت خايف.. السادات ح يعطل شغل

الرقابه الاداريه وافهم إذا كنت عايز تفهم.

هز رأسه والبهجه تكشف عن نفسها فى وجهه.. وغمغم:

– احنا تحت امرك يا سعادة الباشا، نحط المبادىء

ضحك مختار وهتف بفجر: هأو، فاول، اول مبدأ تفتح لى مخك والتانى لازم "تشبرأ" العيال اللى بره، لازم لكل واحد فيهم، سبوبه وسبوبه حلوه، لما اخذ مليون يبقى الواد سعيد لازم تكون عنده عربيه وشقه والواد مجاهد لازم يتحين كويس، عايز المجارى تبقى سالكه للفلوس، ما يكونش فيه نقط اختناق، اما المبدأ التالت.. هو انا ح اقول لكم كل حاجه. لأ، انت وجعت دماغى كتير

– انا يا افندم، ده دماغ سعادتك دهب... لأ لأ لأ.. ابدا

– عايزين نوزنها

– الليله يا افندم، قلنا بس صنف سيادتك ايه.

– قبل ما نتكلم على الصنف، نادى ع الواد الخول اللى اسمه مجاهد يعمل قايمة بالاسعار.

غمغم مجاهد: ما نابنا إلا الشتيمه.

نظر الوردانى إليه مصطنعا الغضب: ليه يا روح امك.؟ كبير على الشتيمه.

– لا يا باشا شتيمة معالى الباشا مديح، غزل.

– أيوه يا (. . .. ..) امك ح نبتدى.!! يلا هات الجاتوه والساقع قبل ما الباشا يزهق ويزعل مننا. .

– حاضر، ثوانى يا بيه

عادا الصخب والفوضى يملآن المكان، وبينما كان السعاه يرتبون المكان ويمدونه بالحلوى والمثلجات، قطع الحديث دخول شاب فى أوائل الثلاثينيات من العمر، شق طريقه بأتجاه المهندس مختار السيد: اسمع يا صلاح اترك دفاتر العمليات، وجهز نفسك تنتقل لعمليه فى وسط الدلتا، انت مش زهقت من شغل المكاتب، انزل أشرف ع التنفيذ.

– والعطاءات اللى مطلوب دراستها.

– خلاص ح اشوف مهندس اخر.

ولم يكمل إذا أن صلاح كان ينظر إليه مصعوقا وهو يردد: اه، سعيد يدرسها.

واستدار خارجا منسحبا فى قرف، بعد أن عبر الباب بخطوات شاهد عبدالله، انفرج ثغريهما عن ابتسامه واسعه بهيجه

ابتسم عبدالله متذكرا: صلاح عقل بشحمه ولحمه.

– عبدالله .!! تدافعا يتعانقان.

تساءل مجاهد: تعرفوا بعض ؟

– خدمنا فى نفس القطاع ع الجبهه. انت بتبحث عن عمل هنا.. هز عبدالله رأسه مؤيدا، صاح صلاح فى صخب: لا، يا رجل دور على مكان نظيف.. أبدى عبدالله مشاعر العجز والاستسلام، فزم شفتيه مشيحا بكلتا يديه قائلا: الله غالب.

– مر على بالمكتب، مستنيك ..

دخل مجاهد وانحنى على الوردانى هامسا: هو فين؟

نظر مجاهد ناحية الباب حيث كان يقف عبدالله والقلق يملؤه، أشار له أن يقترب.

فى المسافة بين مدخل الباب والمكتب الضخم استعاد ذهنه أنطباعاته عن المكان، الفشل، الخسران، الضآلة، مشاعر عصرت قلبه بقبضتها القوية، ممر طويل مفروش بالسجاد، ثلاث ساعات من الانتظار. الجالس وراء المكتب، رجل عفى لا يبدو عليه السن ، لسانه أوسخ من بلغة فلاح يخوض فى روث البقر، له وجهه الكباش وشعرهم اللوفى الغزير، والتماع عينى البقر، خلفه وقف في انتباه المهندس مجاهد يرتدى نظارة سميكة. طويل القامة، ضعيف البنية بشرته لها نفس لون بشرة سيده، وجهه وجه فأر لا ينشر سوى الطاعون، فأر أجرب يجمع فى دأب فتات سيده الأكثر منه جربا، بعد أن يلعق ظهر يديه وباطن قدميه، وعلى المقعدين الوثيرين جلس بأرتخاء مهندسا الحكومى، مختار السيد، قصير، ريعه، ابيض عيناه خضروان، له شارب هتلرى. والآخر سعيد، قامة متوسطة فى الخامسة والثلاثين من العمر، أمامه يمتد كرش صغير، تنم ضحكته الناعمة الساخرة المليئة بالاستهزاء عن شعور ظاهرى بالثقة والاطمئنان، واحساس عميق بالأمان، وأنه ليس ثمة ما يخاف منه سواء من حساب أوعقاب.

قرأ الوردانى من ورقة أعطاها له مع الكارت: تعال، هو عادل صبرى فاكرنا مستشفى، ولا جمعيه خيريه، كنت مصاب ولا حالتك ايه، وايه بقى حاصل على وسام بطولة حرب، كنت معاه فى الدفاع الجوى.؟

- ايوه

- واسقطت كام طائره على كده.؟

أجاب والعرق الغزير ينسال من وجهه: طائرتين يا افندم..

نظر نحوه بامتعاض غير مصدق: يا ابنى هم كانوا كام طياره وقعت .. الكدب ح يشتغل ضحك كل من فى المكتب.

- والله يا اخى احنا بلد العجايب.. واستدار يحدث مختار السيد. اتفضل يا سيدى.

قال سعيد ساخرا وضحكته اللزجة المطوطة تسبقه: كوسه دى، تلاقيه واحد كوسه، وتابع ضحكته

أجابه مجاهد بجدية: حتى فى الحرب. !! بقى دى بلد ح تنفع، خلينا، خلينا فى اللى احنا فيه، مين رماه علينا..

القى الوردانى إليه بكارت التوصيه: العميد عادل صبرى.. يا اخى بتوع الجيش دول، الواحد يتعين فى المؤسسه فوق نافوخك تقول عليه موسى.. ادب ونوق، شويه وينسى انه فى المدنيه ويعود فرعون.. قاطعه مختار السيد: لاء وبكره ح يفرضوا عليك فرضا.. قالها بثقه من يعرف بواطن الأمور.. خطة تأمين القيادات العسكريه، او تقول تسكين الجيش.. بعدين ح تشوف الآثار الحقيقيه لهذه السياسه.

عقب سعيد: خطه عزب المماليك.. لا مؤاخذه يا افندم.. البلد عزبه اصحابها العسكريين

هز مختار السيد رأسه بلا مبالاة: كلامك مضبوط، كلامك مضبوط، حتى انا ح اقلع عينيك النهارده لما نرجع الاداره.

ضحك الجميع.. بقى سعيد مبتسما راسما الانزعاج على وجهه.. هتف مجاهد: ايوه، قف انتباه، ذَنَبّه يا افندم.

مال مختار بجسده الممتلىء للأمام، واضعا يده فى جيب، ولمس بالأخرى ركبه الوردانى برقه، وهز رأسه، رافضا دعابه مجاهد، بغضب همس: يا راجل اطلب منك فيلم اتفرج عليه انا والجماعه، تطنشنى.

ضحك سعيد ضحكة الخليعة وراسه تدور دورة كاملة، مد ضحكته إلى الوردانى، استطرد مختار السيد، وابتسامة خفيفة على وجهه: نعمل ايه؟ البنزين خلص، مطلوب بنزين علشان المحرك يقوم.

– ما انت بتعمر على عالم اى كلام، حاضر يا سعادة الباشا، يوم ويكون عندك المطلوب.

– ليه مش النهارده؟

– الله.. عندى تعمير محركات الليله هو احنا مش زى الناس انفجر المكتب بالضحك.

قال سعيد: الله يا باشا، كنت فاكر انك لسه بخيرك، مش محتاج مثيرات صناعيه.

– التحبيش مطلوب يا سعيد.

– تمام يا افندم، سعادتك طلباتك ايه سويدى ولا امريكانى

– لأ صعيدى، ضحكوا حتى أغرورقت عيونهم بالدموع، استدار يحدث عبدالله: آيوه يا اخينا، مش فاهم، قلت لى اصابة حرب، الواحد ممكن تصدمه عربيه شارده فى الطريق، هه .. أشار له أن يدور حول المكتب ليقترب منه، أمسك بذراعه يجذبها، ثم فخذه وسمانه ساقيه، ضغط بأصابعه المخلبيه بشده يجسهما مثل نخاس، ابتلع الاهانه بصبر

مش فاهم ايه اصابة حرب، انت ماشاء الله جته، وحش .

سمع عبدالله مجاهد يهمس: عجل.

رأه يضحك بسرور وهو يبتسم لمختار السيد استطرد الوردانى.. يعنى عايز تشتغل ولا تتعين وتقعد فى بيتك، يعنى افهم .؟

ظهر الاضطراب على عبدالله، باغته ثانيه باستهزاء دون شفقه: هى فين اصابه الحرب وقدميك طبيعيتين، لا ايد مقطوعه ولا رجل ناقصه.

قال عبدالله متجهما: كسر وتهتك فى الساق وتهشم فى عظمة الفخذ تسبب فى عجز ٢٠ ٪ .

– عجز يعنى سعادتك مش ح تشتغل، خلينا نقولها بوضوح.

مال المهندس مجاهد على الوردانى، قال بصوت خافت، لم يهتم بما إذا كان عبدالله سيسمعه من عدمه: يا افندم العماله الزائده مدمره للشركه، ورفع رأسه محدثا مهندس المديريه، البطاله المقنعه غول بليد نهم، قاعد على قلب الشركه ياكل فيها ببطء، يخرب بيته مطرح ماراح، خربها ورحل.. قاصدا جمال عبد الناصر .. أستمر الوردانى

– عامل عجز ..!! ولاعامل عجز ولا حاجه، ما انت زى البغل، بزمتك، مش تقدر تجر ساقيه.. ؟ والاصابه، كيف حدثت.. ؟

علق سعيد ساخرا: اكيد وهو متشعبط فى القطر الحربى، هاها، ها .. تجاوب معه الجميع ضاحكا.. عقب مجاهد: او كان فوق قطر..

لم ينطق عبدالله لكن الوردانى ظل منتظرا الاجابة، ولما آبقى عبدالله على صمته أعاد سؤاله: صحيح، قلت لى اسمك ايه.. ؟

- عبدالله.

- صحيح يا عبدالله، وانت بتعدى بين عربات القطار الحربى.. وانت متشعبط!! قول متخافش.

استقام لأول مره منذ دخوله الحجرة وتدفق بالحديث: لا يافندم، انا مش بخاف، سبب الاصابه صاروخ جو - ارض، أُطلق من طائره فانتوم -٤ وانا على مدفع شليكا اثناء قيام العدو باحكام الحصار على الجيش الثالث فى ١٩ اكتوبر١٩٧٣. واحنا على الضفه االغربيه للقنال..

والوردانى يحدق نحوه مغتالا من فوق نظارة القراءة المحملة على وجهه البقرى.. ساد صمت طويل.

- طيب، مجاهد، انت طالع العمليه دلوقت. خد عبدالله معاك، فرجه على الموقع ومكان الشغل وسلمه عمله.

- والاوراق يافندام.

- اوراق ايه يا مجاهد..!

- اوراق التعيين.

- اسبوع كفايه يا عبدالله.

- أيوه يا افندم

قالها عبدالله بلهجة نشطه تعبر عن إمتنانه، وأن ما حدث منذ قليل قد نساه.

- طيب يخرج دلوقت على مكتب شئون العاملين ياخد بيان بالاوراق المطلوبه، وبرضه تطلع مع مجاهد، وبعد اسبوع سلمه لصلاح ينزل معاه عمليات المنوفيه، ورق ناقص مش ناقص يستلم، فاهم.

- والباقى يا افندم.

- يا مجاهد بطل لؤم النسوان ده ..

ضحك الجالسين وهز سعيد رأسه: مجاهد، يا لطيف، نفسى فيفى مراتى تبقى زيك ولو فى حاجه، ايوه اصل اللؤم فى الزمن ده فصاحه.. واستطرد فى ود وانت يا اخى عليك فصاحه.

- ما تغضبش سعيد بيه، ده مهندس الحكومه، يطير رقبتك ورقبة اللى خلفوك، واللى يتشدد لك حتى ولو كانت فيفى.

- يا افندم هو احنا نقدر على سعيد بيه.

- طيب، تعينه والورق اللى مجهزش يكتب تعهد بانه ح يجيبه، وآدى خطاب لشئون العاملين بالتعيين، اعطيه للسكرتيره تكتبه، يلا ياعم مبسوط، اسمك ايه؟

- عبدالله محمد عبد الجليل رزق، شكرا يا افندم الف شكر.

قالها متراجعا إلى باب المكتب.. صاح الوردانى من فوق نظارته: ريحه يا مجاهد، ريحه متتعبوش، وبعدين يا مجاهد معلش يا بهوات لازم اكلمه احسن مجاهد دماغه بتاكله، هه

يموت فى الاذيه . افهم الراجل خلاص اتعين وفى اقرب مكان لسكنه، لا تقول له اختبار ولا يحزنون، دا مصاب حرب، طائره ميراج، همس سعيد ڤانتوم..

قال الوردانى مصححا: ڤانتوم ولا حتى عربيه كارو، موضوع مايهمناش، ضربته بصاروخ ارض - جو، همس عبدالله مصححا جو - ارض .. نظر إليه بأمعان لوهله ثم استطرد .. جو - ارض يعنى مصاب حرب، وعلى قلبك، قاعد على قلبك مش ح تقدر تعمل له حاجه، فريحه ريحه يا مجاهد.

- تمام يا افندم، تمام.

-٣-

فى ظهيرة اليوم السابع للقائهما بالمؤسسه دخل عبدالله وصلاح عقل فى سيارة بيك آب، تابعة لمؤسسة النيل العامة للطرق والانشاء موقع إحدى وصلات الطرق الرئيسية بوسط الدلتا، لم يكن ثمة احد، وفى الأرجاء تناثرت أعداد صغيرة من معدات الطرق الثقيلة، بالية متهالكة ملقاه بإهمال، خردة عاف عليها الزمن، يمما شطر المخازن التقيا بالبسيونى أمين المخزن كان جالسا القرفصاء فى ملابسه الداخلية، سروال متسخ من الكتان وفانلة قطنية وحوله ثلة من العاملين بالمؤسسة، مهندسين وسائقى معدات ولوريات، فنيين، ومقاولى أنفار، وبجواره كان ثمة إناء فوق موقد غازى ممتلىء باللحم يفوح منه بخار كثيف، قال البسيونى مرحبا: الخير على قدوم الواردين.

أجاب صلاح بجفاء متسائلا: اشكرك، المهندس مجاهد. ؟

أجاب مهندس الموقع إميل: سيصل من القاهره خلال اسبوع.. وعقب.. حضرتك مهندس من المصلحه.

- نعم، صلاح عقل وهذا عبدالله رزق، معين للعمل معكم بالمؤسسه.

حيوا عبدالله بأقتضاب وحذر، وقد أخذ عليه قدومه بصحبة مهندس الحكومة. قال البسيونى متصنعا البلاهة:

- اهلا بالبيه المدير، ان شاء الله ح تشرف على المشروع. ؟

- نعم.. من المهندس المسئول. ؟

- انا .. اجاب إميل.

هز صلاح رأسه متفهما: امتى نبدأ

قال البسيونى ببلاهه: عمل ايه يابيه، احنا لسنه بنقول يا هادى.

حدق فيه صلاح باستغراق وقد ارتسمت على قاع فمه العريض ابتسامة باهته شديدة السخرية - حضرتك مين.

أجاب الآخر بابتسامة واسعة يخطب بها وده: بسيونى السيد، المخازن دى كلها تبعى. وأشار إلى الخلاء ضاحكا.

ضحك صلاح وعقب: فراغ، مخازن من الفراغ. امال فين التشوينات، انتم طالبين ربع مليون جنيه تشوينات، اين التشوينات يا خازن المخازن. ؟

ساد ارتباك سببه ضخامه المبلغ المذكور، قال إميل بحماسة وقد بدا كمن أسعفته قريحته: موجوده، التشوينات موجوده يا سعادة الباشا، جزء مشون على جانب الطريق، والباقى استخدم فى الرصف.

مط صلاح عقل شفتيه متصنعا الدهشة: رصف الطرق. !!!

عقب البسيونى فى حماسة: آيوه يا باشا، عن آخره.

عقد على قاع فمه أبتسامته الساخره وعقب متصنعا عدم التصديق واستطرد.. عن آخره.!؟ بالشكل ده المفروض تطلبوه اعمال منفذه تحصلوا على فلوس اكتر..

حار البسيونى جوابا، بدا وكمن وقع فى شرك، تدخل المهندس إميل مقاطعا: طبعا، حضرتك التشوينات استخدمت بعد عمل المستخلص،

قال صلاح بسخرية: ياه، نفذتم اعمال موادها ربع مليون جنيه فى اسبوع، انا شايف معدات ما شاءالله !!

هز رأسه متعجبا، أدار راسه ناحية إميل متسائلا: ممكن، ممكن ده

بينما كان مهندس المؤسسة يحاول الإجابة قاطعهما البسيونى: عموما الباشمهندس مجاهد يصل بعد اسبوع.

هز صلاح كتفيه: اسبوع..! اظنكم مستعجلين على المستخلص.

تراجع البسيونى من فوره، قال محاذرا بعد أن اوقعه صلاح فى حيرة.

– طبعا مستعجلين يا بيه، مين قال غير كده – أشار إلى الجالسين – الناس دى كلها جيوبها فاضيه، وعايزه تملاها والبركه فيكم.

هز صلاح كتفيه كمن ليس بيديه شىء: ننتظر المهندس مجاهد، الله غالب.

قال البسيونى بجديه: وليه يا بيه ننتظر الباشمهندس مجاهد، أشار إلى إميل، مدير المشروع قدامك، مهندس ملو هدومه.

قال ببرود يخفى سخرية: فين.. ؟ وعقب آسف، المهندس إميل طبعا، وجه إلى إميل حديثه: غدا نبدأ فى مراجعه الاعمال اولا .. يوم او يومين ونبدأ العمل فى المستخلص، استطرد تسبقه صيحات الاعتراض: عارف، عايزين ننهى الموضوع فى ربع ساعه، كل شركات المقاولات يصيبها السعار لما يحين اوان المستخلص، سننتهى منه فى يومين على الاكثر.

صاح البسيونى بانفعال ولهجة مملؤة بالجدية والرجاء: ليه يا بيه.؟ دى مستخلص جارى، زائد ناقص مش مهم مادام تحت التعديل، الناس يا بيه اعمالها واقفه، عمال منتظره اجورها ومقاولين عايزين يسددوا التزامات عليهم، بنوك وعمال وموظفين وايجار معدات وعده.. قاطعهم أحد مقاولى الباطن: آيوه يابيه، والله العظيم وأيمانات المسلمين عندى ايجار معدات ثلاثين الف جنيه غير الاجور وخلافه.

كان يبالغ وقبل أن يتحدث صلاح تدخل البسيونى ثانية: احنا اصبحنا ع الحميد المجيد .. ضحك الجميع واستطرد البسيونى ثانية: امال بالكم ندور فى مصلحتكم وونسى

مصالحنا.

ضحكوا ثانية قال إميل: عداك العيب يا عمده.

لوح صلاح باصبعه فى وجهه وهو يضحك: انت بقى العمده.

– آيوه، انا عمده المنطقه، يعنى مصلحه لك انا نخلصها طوالى، مزاج والذى منه، آى خدمه من المركز المأمور ذاته ورئيس المباحث، والله انا اتكلم جد، شوقى بيه، خيرنا عليه قصدى، وضحك بفجور: قصدى خيره علينا.

– تعرف يا بسيونى المشروع السرى العام.

أجاب البسيونى باستهزاء: مش اللى جنب المطار السرى، ايوه نعرفوه ونعرف امه اللى ولدته، واللى خلف ابوه، شحن فضاء الحجرة الواسعه فجأة برائحة التحدى الفظة، وأنفجر المكان بالضحك.

– عليك نور، تنفع فيه.

قاطعه:– مدير مشروع.

– بالضبط.

– آيوه يا بيه، المدير السرى، معاك حق، أشار إلى الخلاء الذى يحيط بهم، ضحك الجالسين ومنهم إميل الذى ضحك على مضض، عقب البسيونى مبتهجا: الله ده الباشمهندس فاهم الفوله بقى.. استطرد بصوته الجهير .. طيب ياعم خلص المستخلص علشان اشوفك.

كان التعريص واضحا.. اجابه صلاح: على بركة الله، غدا نمر انا ومدير المشروع المزيف، بعد غد نبدأ فورا فى المستخلص، والآن نرحل.. استطرد موجها حديثه لعبد الله: ح تبقى؟ ان شئت لا ترتبط بى.

أجابه إميل: لا يا سعاده البيه، الاخ يروح دلوقت يحضر بكره.

قال عبدالله: الله يبارك فيكم.

وبينما صلاح عقل يغادر المكان انتحى إميل بأمين المخزن جانبا تحدثا قليلا، بدا انه يستشيره فى أمر ما، فلما أنتهى سارع باللحاق بالمهندس صلاح، عندما بلغه كانا وحيدين.

– يا باشمهندس، اتفضل مفاتيح الفيات.

– وانت تركب ايه.. ؟

قال مبتسما: ح نتصرف، ح نشوف مقاول يحضر سياره بكره.

– ده يدينى بشىء؟ .. احنا لنا سيارات على العقد.

كاد يخرج له صوتا قبيحاً لكنه كظم غيظه، اجاب مصطنعا الدهشة مفضلا أن يوافقه: حتى لو مفيش.. !! احنا فى خدمة الباشا.. وبعدين دى تعليمات الوردانى بيه.

الليل والمطر والشمس مكفيه خلف الغمام ترتعش بالغضب امشى يا بن عبدالجليل، سير على حواف الطريق لاتدرى اين المبتدأ ولا اين المستقر.. اللعنه على نفوس البشر.. اسفلت.. اسفلت خشن.. العالم شرايين من الاسفلت.. شرايين من الاسفلت تسبح على صفحتها سيارات الساده وشاحنات الجنود الذاهبين للحرب ويطويه العبيد بياده.. مين كتب عليك هذا المسير الطويل حافى القدم، .. فين الخيول يا ابو زيد فين الرماح.. تطيح بهامات ردى الخال واشباه الرجال، فين القلوب اللى تشد الرحال للسما، ما اسهل الخيانه، ما اسهل التراجع والانسحاب، ما اسهل الاستسلام للغوايه، فين السيوف يا ابوزيد، فين المنايا.. فين العدا.. فين النجوم تشرئب لها رأس الفتى.. فين الجيوش تطوى البيادر.. فين الرايات والبيارق تعانق السما.. اسفلت دا ولا دما.. اسفلت هذا أم دماء.. اسفلت اسود من ظلام الليل، ناعم كملمس الحرير تلعقه مسام باطن القدم التعيسه من السير الطويل تشربه شقوقها.. مطحون لحم ودم.. العَقُه يا ابن عبدالجليل العَقُه.. اسفلت اسود من ظلام الليل، وليل ما له صباح..

صلاح عقل طوى إميل تحت باطه، وفى تلات أيام كان حصر المشروع من لحظه بدايته ووضع عليه توقيعه ولما أنتهى ضحك بمكر، همس بابتسامته المعلقه على نهاية الفم.

- عبدالله، وضعت هؤلاء اللصوص تحت الضرس اليمين.

وكأنه الجحيم، فى ليله بعد العشاء حدث هياج فى البلد، كل من قابلنى يقول لى: الحق سياره شفورليه واقفه على باب داركم بها ناس مهمين، بهوات كبار، انت عملت ايه ؟؟

- الصبر يا جماعة الخير.

أمام الدار وجدت بسيونى ومعاه المهندس مجاهد واقفين وفى السيارة مقاول الباطن المعلم حسن على عجلة القيادة، وفى الخلف بيه كبير فى بدلة بيضاء، ماقدرتش اتعرف عليه، قلت للجميع:

- اتفضلوا.

أشاح مجاهد بوجهه: ح نكون ضيوفك نص ساعه، ممكن؟

- يا خبر..!! على راسى من فوق.

- ضحك بسيونى الخبيث وقال: عبدالله كله مجدعه.

فى المندرة سألتهم : شاى ! احضر الجوزه.. ؟

لكزنى بسيونى فى كتفى وهو فى لباسه المتسخ بالدهن: لا شاى ولا غيره، صاحبك عملها، مش ح تيجى البر، حذره، يسلم التقرير الموقع من الحمار إميل والا يعلم، اللعب بالنار يحرق صاحبه، قول له يحذر عيار طائش على الطريق الزراعى بليل، طاقم مباحث المركز مشتريه، كارت في جيب الصديرى الصغير، البسه قضية حشيش، خمسه وعشرين

سنه اشغال شاقه مؤبده، ومن الاتاوه اللي بتوصلهم كل ليل، من الحشيش، مش ح يحتاجوا يدوروا عليه.

تدخل مجاهد: مش كده اسمع يا عبدالله، انت لك فى اول كل شهر حسنه، سبويه صغيره.

- ليه. ؟
- التقرير، خذه منه واحرقه، لأ، اسرقه.
- اخون صاحبى، فعل الخيانه مش طبعى حتى مع الغريب .
- صاحبك!! عقله.
- اعرف عمل ايه. ؟

أنطلق على بسعار كلب مجنون: عامل فيها شريف، ولا عايز لهطه كبيره، مواصفات، تجارب الاسفلت، اختبارات على دقشوم المحاجر، مصر كلها من الشمال حتى الجنوب ما فيك طريق اتعمل عليه تجارب ولا اتطبق عليه مواصفات، لا الاسفلت ولا حتى التراب.

قاطعه بسيونى: ولا ح تحصل فى مصر، يا عم خليك على البركه.

استطرد مجاهد: كيف تاكل هذه الناس، من اين ترزق، خلاص دى تعودت على الشيكولاته، تجارب اسفلت علشان طريق جديد يترفض.. !! ليه ؟ ده قطاع عام، مال حكومه من يتحمل اعاده تسوية طريق او اعادة رصف طبقه اسفلت لما يكون الاسفلت غير مطابق للمواصفات.

قاطعته: مسئولية اللى أنشأه.

- معاك حق، لكن ده حلم تحلمه فى المنام، يعطينى خطاب موقع باعادة الرصف وانا، بشرفى اكون ملبسه فى قضيتين ومش حشيش، الاولى تعطيل العمل وغرامة تأخير، والتانيه تبذير اموال الدوله، جنايه واهدار اموال القطاع العام، دا المحافظ افتتح طريق الهرم، وفى اليوم الثانى قامت الشركه بعمل صيانه له، وفى خلال سنتين كانت تعيد رصفه من جديد وعلى حساب المحافظه فاكر انت احنا نسرق، لأ، هو ده سعر البند، انا وانت وايه فى ايدينا، نقف ضد التيار، للاسف لازم نسبح معاه، ثم ان الناس دى جمعت ملايين، من فين.. ؟؟ من عمل تجارب على الاسفلت.. ؟؟ الحاج حسن، انت مش غريب.. يعمل باسم عبد الرحيم بيه العشماوى رئيس مجلس الاداره ومدير منطقه وسط الدلتا، نبيل مقاول الحوائط الساندة، شغال لحساب رئيس قطاع التنفيذ وعضو مجلس الاداره، الحاج شعير كان مجرد عامل فى الشركه خفير، ثم صار امين مخزن زى الحاج بسيونى، ربنا يفتح علينا وعليك زى ما فتح عليهم، جنبك قاعد، عمارتين وعزبه تلاتين فدانا وثلاث عربات نقل، وكرش بيربى فيه، احسده دى رزق وربنا عطاه، الحاج شعير مسئول المخزن الرئيسى حوله قلعه مسلحه، السلاح لا يغادر جيب الصديري، يخدم فى طوب الارض روح اسأله فى طلب، لا يرفضه، يكون عندك قبل ما توصل بيتك، رجل عظيم يا سلام، لا تقولى مديرين ورؤساء، مشغل المؤسسه لحسابه وحساب الروس الكبيره، لما بدأ عمله فى المؤسسه كانت الرؤس الكبيره للشركه مهندسين صغار، كان يوكلهم، يشغل ده لحساب ده، مره لنفسه مره لغيره، شوية هدايا، قرش حشيش، سهره فى شارع الهرم، شقه فى المعموره، شاليه فى العجمى، تكبر

المهندسين الصغار، يصبحوا مديرى عموم، رؤساء قطاعات ثم مجالس ادارات، وزراء، يتغيروا جميعا وهو الباقى، ومره تلعب البليه يصبح المهندس الصغير وزيرا، آخر مره اعطى سكرتيره رئيس مجلس اداره مائة جنيه عديه، طب رئيس مجلس الاداره نصيبه كام.. ؟ كان بياكل الجميع من الغفير للوزير، يروح فين مهندسك صلاح عقل، ذبابه طايره فى الفضاء، رشة بيرسول فى مهب الريح، مش ح اقول خرطوشة بارود ضاله.

– ايه المطلوب منى.. ؟

أجاب مجاهد: عَقَلْه.. والله والله العظيم وحق الكعبه، اليوم قابلت الوردانى بيه قلت له مهندس المصلحه عايز يعمل اختبارات على الاسفلت، قال لى: اختبارات على ايه.. قلت له: ركام وصلاده واحتكاك وغيره، تعرف رد على قال ايه؟

هز عبدالله والبسيونى رأسيهما مستفهمين: اختبارات ايه يا روح امك، قول له يلم عزاله ويروح وإلا امسح بيه مصر محافظه محافظه، انا اتهنت بسببه، تظن انى عايزه يعمل شىء غلط، لأ، لكن زى ما شفت، تقول كلمة الحق، تتهان تتضرب على قفاك، وانت مطلوب منك ان تقول له، مفتاح شقه يختارها فى المكان الذى يريده، مصر الجديده المهندسين، حته فى الاسكندريه، بس يخلص المستخلص.

– واذا رفض، اظنه سيرفض .

– وحياة امى لاخليه يوافق، وفعل فعلا قبيحا بيده.. مش يرفض ح يرفض، جرب انت وح تشوف، بس هو يوافق ولك حلاوتك، ماشى، سلام عليكم

– انا مش عايز حاجه، شكرا يا عم.

– خلص الموضوع وحاكلك شيكولاته يا عبدالله.. هأ .. هأ .. هأ.

رحلوا فى سيارة مجاهد، خرجت أبحث عنه وكل ما احكى له عما حدث، يتسع فمه العريض وتنتقل أبتسامته الساخرة الملقاة فى الركن.

– انت قلقان ليه، تظن انى ح خاف تهديداتهم. احنا فتحنا صدورنا لرصاص الامن المركزى واجهنا هراواته الثقيله، وتلقفنا القنابل المسيله للدموع ورميناهم بها، كانوا فرق من الضباط والجنود، وكنا جموع، دخلنا عرين الاسد مباحث أمن الدوله، وكنا حصى من الصلب صعب عليه قرشها، تلقفتنا زنازين مصر العتيقه من طره والقناطر الى القلعه، اوعاك تظن ان السادات اخد قرار الحرب، القرار اتخذ فى مظاهرات الجامعه واضرابات عمال مصانع حلوان وشبرا الخيمه والمحله.. قهقه ضاحكا.. تلفيق قضية حشيش لى.. !! لأ.. لا يليق بنا، ممكن قضية انتماء لحزب شيوعى، او اقامة تنظيم سرى، هذا يناسبنا اكثر، التهديد بالاغتيال ما الفرق.. ؟ من فاته الموت فى الحرب ضد الاستيطان والتوسع الاسرائيلى فليلتحق بالموت فى الحرب ضد الفساد، الحرب ضد الفساد فى هذا الوطن التعيس فى حاجه الى شهداء، فيض من الشهداء.

صمت وشحبت عيناه، وضاقتا، وماتت الابتسامة علي وجهه قبل ان يستطرد ثانية، اما فيما يختص بالشقه او الفيلا والشاليه، سياره او ارنب، بقدر ما تقدم لهم من خدمات، يقولون من لا يستطيع هبش المليون جنيه فى عصر السادات مش ح يقدر يعملها بعد كده، هز راسه.. اسمع.. كل ثروه جمعت فى هذا العصر، ثروه غير شرعيه، وبحق للشعب

استعادتها..

عاد للصمت طويلا قبل أن يعود للحديث ثانية: لماذا يعتقد هؤلاء الحيوانات ان كل البشر تستطيع ان تمضغ خبز بدم الآخرين بشقائهم وتعاستهم، لماذا تلعق الشكولاته عبر الخوض باحذيتهم الثقيله فى لحمة اجسادنا، لماذا ينعمون بسماع قرقعة عظامنا، لماذا يمانعون فى ان يكون لهذا الوطن الحق فى طفوله سعيده وبشر اصحاء على المستوى الجسدى والنفسى، ومواطنين احرار ينعمون بالحريه الشخصيه والسياسيه، لماذا يمجدون الدجل والجهل، ويقاومون العلم، ويَشَعُون القبح النفسى والخرافه، لماذا لا يدركون انهم لن يتركوا هذا الوطن إلا وهو اشلاء مدمره.

سألته: التقرير.. ؟

- ماذا.. ؟

- احكى لى اسباب جنونهم، فيه ايه؟؟

- رأسماليه منحطه وقطاع عام يدعى اشتراكي، وهو بؤره مشعه للافساد على المستوى القومى والعام، اكاديميه لتدريس النهب الجماعى المنظم .

من اين جمعت ميزانيه القطاع العام، ببساطه منى ومنك، انها ثروة خمسه واربعين مليون مواطن، لكن هل سمعت عن خمسه واربعين مليون حرامى، هذا هو القطاع العام، من لم يجد نقودا يسرقها سرق وقتا، تهاون فى العمل، عمل اشغالا اضافيه على حساب وقت العمل، لكن الاربعين مليونا اولئك الذين تعودوا سرقة ما يوازى اجره يومهم، من عامة الشعب واولئك الذين اخذوا انصبهم عينيه وقتا وخلافه، اطاح بغنيمتهم وسوف يطيح بها دائما التضخم، اما الذين استطاعوا ان يخرجوا بغنيمتهم ثروات طائله، فقد تسحق بعضهم التضخم وعجلة النهب التى تدور دون توقف فى طريقها وهى تعيد اعادة تقليص الثروه وتكنيزها فى يد قله لا تلبث ان تقل على الدوام.. ماذا فعل القطاع العام الاشتراكى المزعوم إذن، دمر الذمم والاخطر قيمة العمل، وافسد الضمير الجمعى واطاح بشرف الامه، واشاع فى المناخ العام طقسا جمعيا شيطانيا بدأ بان يسرق الناس انفسهم وانتهى بأن يحتفوا بسعاده خالصه وبابتهاج بليغ، بنهب وتدمير الآخرين لهم، وحال كل منهم يقول: ارجوك اخدعنى، انصب على، دمرنى، دوس على بالاحذيه.. انهب مجهودى وربنا معاك.. انتم السابقين واحنا فى انتظار الدور، ثروة الامه كلها فى عام١٩٧١ موجوده ضمن ملكيه القطاع العام، مغارة على بابا، مالى ومالك ومال خمسه واربعين مليونا من المصريين خزنه تنهبها بانتظام عصابه من المافيا المنظمه، ثروه صاحبها شعب سقط فى غيبوبه، وترك ثرواته فى خزنه تحت حراسة جيش من كبار الموظفين، كل شىء يخرج منها يلزمه تصريح، وفى ظل النوم العميق لصاحب المال يصير لكل تصريح ثمن. نصيب وفى ظل الغيبوبه وخدر الاوهام يتحول الحراس الى عرائس، خيوطها يمسك بها المماليك الجدد من العسكر وشركة المنصر، يتأمم كل شىء لحساب حلبة النهب التاريخى الكبير، تنهار كل انواع الايديولوچيا، ويبقى جراب وحاوى وحلبه لسيرك وشعب منوم يشاهد كيف تنشل ثروته ولا يخرج سوى آهه شجيه لأن الحاوى يمسك، بذاكرته، بوعيه، يخرب فيها كيفما يشاء، ويلائمها طبقا لمصالحه، فإذا كان العرض المقدم على المسرح الاشتراكيه، ففى الكواليس يحتل قمة القطاع العام

حفنه من اللصوص، ويصب فائض القيمه فى انشطتهم الخفيه، وعندما يتحول العرض الى رأسماليه ينزع عنها اهم مابها، حرية الفرد السياسيه والفكريه، ويطيح بحقوق المنافسه فى الاسواق الرشوه والفساد والنفوذ، لأن النشاط الاقتصادى لم يعد الصراع على الاسواق بالافضليه او التنميه إذ ان شركه جديده من كبار موظفى الدوله والقطاع العام ورأسماليه تنمو على حجر البيروقراطيه، او من قلبها، منهمكين جميعا فى عملية شفط ثروات الوطن من مغارة على بابا باسرع وقت ممكن وهى لا تستغنى فى هذا عن فرسانها من الرأسماليين الجدد الذين هم المعبر الذى لا غنى عنه، للخروج بالمنهوبات من مغارة الاربعين حرامى لقصر على بابا، وكذا تصير العلاقه بين الدوله والرأسماليه علاقه شركاء وليس اجراء، ماذا يكون النتيجه عندما يتعجل موظفى الدوله الوقت كى يصيروا رأسماليين ومالكين كبار، فساد، فساد، فساد، تنهار القيم، قيمة العمل، التعليم، الانتاج، تطوير الاقتصاد، التنميه، زيادة الدخل القومى، الصناعه الثقيله، استثمار موارد الوطن، انتشار مفزع للبطاله وتحل البلاده، يتحول التعليم الى تجهيل، والعلاج الى مجزره، واستصلاح الصحراء الى دجل، يطاح بارادة الشعوب ، قدرتها على تحديات فى العالم الجديد، الرغبه فى التقدم الى الامام، ان يتوفر انسان حر يستطيع ان تكون له مقدرات البقاء فى عالم القرن القادم المهول، كل شىء يتلوث وليس من يجد وقتا للنظر للهاويه التى لا تتوقف عن الاتساع، إذ ان الجميع منهمك فى النهب. وعندما تسود الازمه العامه، يرتدى الحاوى على حلبة السيرك مسوح الدين ويبيع الجنه للبسطاء بالقطعه.

قاطعته: جميل لكن الكلام ده لا يهز شعره من راس مجاهد.

ضحك: معك حق تريد ان تعلم ما الذى وقع عليه إميل.

- بالضبط.

- نهب المال وتدمير الموارد القوميه.

وأخذ يعدد له: اولا.. كيلو مترات من الاسفلت لشوارع ومناطق وهميه تم صرف مستحقاتها ولم تنفذ على الاطلاق، طرق لم تنشأ بها خطوط الصرف الصحى بعد، ولهذا لا يمكن ادخالها خطة الرصف. وتمت سفلتتها على الورق وصرفت مستحقاتها فى مستخلصات سابقه، تكسير آلاف الامتار المسطحه من الاسفلت، لشركه لا تملك معدات تكسير اسفلت، توجد معده معطله بالمخزن الرئيسى، كسروا بها مطب المدخل الشرقى فى تلات ايام، وبعد اربع حوادث سيارات مروعه، هه، انظر ثلاث ارباع المتر المسطح فى تلات ايام، اخبرنى إذن كيف تستطيع مؤسسة النيل العظيم للكذب والدجل تكسير مائة الف متر مسطح من الاسفلت، بقيمة نصف مليون جنيه، هل تعتقد فى ذلك؟

لم أستطيع الإجابة كيف لى أن أجزم، قلت: يمكن، ربما.

- ايه قولك لو عرفت ان المناطق دى لم ترصف من قبل.

كنت شاغرا فاهى على سعته عندما استطرد:

تعرف ماذا تعنى المواصفات، هى التوصيف الذى يجب عليه المنتج عند التعاقد وذلك لقاء مبلغ معين ومقبول من المال، من اجل ان يستخدم هذا المنتج فى اداء غرض معين، والاخلال بنوع المواد المستخدمه، او تنفيذها باهمال وعدم مراعاة اصول الصناعه بها، هو

سرقه واهدار للمال العام، مال الشعب، عندما لا تدمك طبقات التراب جيدا، فسوف يتحول الطريق الى مطبات فى خلال اشهر بسيطه اى ان عمره الافتراضى يتهاوى لماذا يتعين على المواطن العادى ان يتولى دفع الثمن دائما، هل تذكر الحائط الساند المنشأ لكتف الطريق الشرقى بالرياح، متر ونصف عرض وارتفاع تلات امتار بطول كيلو متر، وكل المطلوب تكسيه لجسر الرياح لماذا إذن كل هذا، بناء ضخم ليس له اى قيمه .. لماذا يدفع المواطن العادى ثمنا لمنشأت مدفونه فى التراب لا لزوم لها علي الاطلاق، لماذا يهدر المال العام، الاسفلت شريان الحضاره، لماذا يسرقون حلم التحضر من البسطاء، لماذا تهدر الموارد الوطنيه من اجل ان تملأ مافيا الاسفلت جيوبها بالمال، رأسماليه منحطه وقطاع عام يشع فى الوطن الافساد القومى العام.

الليل والمطر والشمس مكفيه خلف السحاب ترعش بالغضب .. امشى يا ابن عبد الجليل سير على حواف الطرق لاتدرى زين المبتدأ ولا زين المستقر.. اللعنه على نفوس البشر .. فين الخيول يا أبوزيد، فين الرماح.. تطيح بهامات ردى الخال وكسر الرجال .. فين القلوب اللى تشد الرحال بحثا عن المنون، ما اسهل الخيانه، ما اسهل التراجع والانسحاب، ما اسهل الفوايه، فين السيوف يا ابوزيد، فين المنايا .. فين العدا .. فين الجيوش تطوى البيادر .. فين الرايات والبيارق تعانق السما .. اسفلت دا ولا دما .. اسفلت هذا أم دماء .. سير يا ابن عبد الجليل سير وسط الوف السائرين على غير هدى .. هج من ارض الوطن كما يهج مئات الالوف بانتظام .. يتلطعوا على ارصفة شوارع مدن الغربه جثث .. جثثٌ مرميه بالمئات ، وكأن مناجل الطاعون تحصدهم من ارض الوطن وتزرع فيها الموت اللئيم .. ترميها لعواء الرياح الضاله وشماتة العويل واحتقاره .

* * * *

الفصل الثامن والعشرين

-١-

لثلاثة أيام خيم على المواقع الهدوء الشديد، توقفت حركة الآليات والمعدات الثقيلة، وبدت فى انحاء الموقع جثثا هامدة، وأشيع أن عمر بوزى الذى يحب المصريين سوف يرفع أجر الذين بقوا للعمل اليومى نصف دينار، عمل عبدالله فى صمت وهدوء، وقد توطدت علاقته مع أبونديم ومفتاح وجبران وجواد وأبو العبد، وعاد رضا إلى عمله بعد ان وعدهم الملاحظ الليبى مصطفى بأن احدا لن يتعرض له .

فى الواحدة ليلا من مساء الجمعة، سُمع ضجيج بالخارج، وامتلأ المكان بالحركة، وأضيئت البراكات، فتح العمال القدامى براكاتهم، وفُتحت البراكات التى خلت من أصحابها للعمال الجدد، تابع عبد الله والمبروك القادمين، يحدق فى وجوههم الغريبة، علة يجد عم عطا الله، لكن لم يظهر فقد رحل مع حاملات الجنود التى غادرت الموقع، باتجاه مساعد قبل وصول مدير المؤسسه المهدى عمران، تاركا خلفه راتب عمل لشهور ستة، وثلاث حقائب محملة بالملابس والأجهزة الكهربائية والأغراض، وعنوانا مجهولا لا يعرف أحد عنه شيئا .

وطوال الليل جلس عبدالله والمبروك أمام حقائب عم عطاالله فى صمت، والوجوم يخيم عليهما، وحولهما جلس بعض العمال المصريين القدامى، ومعهم مفتاح وجبران ومصطفى وأبو العبد وجواد، وبين الفينة والفينة كان الحاج حميدة يحضر وعلى سيماه الحزن ثم يرحل ثانية.. كان عبدالله يتحدث وعيناه للفراغ دون وعى : طب وشقى الراجل، دى جهاز بنته، سنه ما رجعش مصر علشان يجهزها ..

قال جواد: بس يا جماعة الخير، هو ما ترك عنوان؟

- لأ .

قام يبحث فى أنحاء البراكة، وهو والملاحظ مصطفى فى قلق شايعه الجميع، فى النهاية استدار مصطفى واقفا، خرج للحظات ثم عاد .

- باهى انا نروح وراه .

– تروح وراه وين ..؟
– هو مو حملته لوريات الجيش اليوم، فى اى وقت .
– مرعى كان معاه .
– قال انهم اخذوه فى الساعه الثانيه عشره .
– توا الساعه اثنين فرق ساعتين، باهى نحصله، العربات الزل تسير كيف البط، انا نروح حتى مساعد .
قال جبران: وانا آجى معاك .

-٢-

جفاك النوم يا ابن عبد الجليل.. النوم جفاك.. والليل طويل من غير رفيق، الشفقه فينا حرام، يمكن لا زالت تجوز الرحمه على ولاد المسلمين.. الفلاحين غلابه..!! ليه نتحمل البؤس ؟؟ ليه نتحمل الاهانه، مين مثلهم يثابر على لقمة العيش، نمل تدهسه الاقدام بلا شفقه، ام بغال تحيا، جفاك النوم يا ابن عبد الجليل، النوم جفاك، والليل طويل من غير رفيق، كل واحد ناعى هم لقمته ولقمة ولاده، جبناء طب واللى جرى فى الحرب، كداب يا ابن عبد الجليل كداب، ورحمة ابوك كداب، مستعد تحط الراس تحت المداس، إذا كان الثمن قيراطين ارض، كلهم مثلك شايلين عقولهم من دماغهم، حاطين مكانه بلغ قذيمه، يعلموا علم اليقين ان ظهورهم عريانه لكرابيج النخاسه، كلهم عبيد حلم امتلاك الارض، سيبك من المراوغه وقول يا صبح..

جفاك النوم يا ابن عبد الجليل، النوم جفاك، والليل طويل من غير رفيق .. كمال ابن عمى طيفك بيقهقه فى الخيال ليه ..؟

– لأنك حمار ، عمرك ما اخذت كلامى مقام الجد، الفلاحين على مر تاريخ لم يكن لهم مكان من الاعراب، مفعول به للنهب، هوامش صفحه تتسخ بمداد الاخرين، سِجَل حروفه زحف الغزاه وكرابيج الطغاه ونشوة الساده، لما يحنى الفلاحين رؤوسهم ويبتسموا فى بلاهه معبرين عن سعادتهم بالشكر العميق امام الاسياد، هأ هأ، تشتاق لفتحى الشاعر لما يغنى للهلاليه، تحفظه عن ظهر قلب، غبى، لا تعرف ان رحلة قبائل الهلاليه من ارض الجزيره لتونس كانت خراب على الفلاحين، وان الاعراب على حدود الوطن كانوا منذ اقدم العصور قطاع طريق ..

جفاك النوم يا ابن عبد الجليل، النوم جفاك، والليل طويل من غير رفيق، يا ابن عمى طيفك بيقهقه فى الخيال ليه ..؟

.. لأن الفلاحين محل للنهب منذ اقدم العصور، لما مات الامام على محسور بتراخى وانفضاض الجمع من حوله، وانتصار غالبية القوم لمغتصب الخلافه عدو بني هاشم معاويه الاموي، بعدها تراجع الاسلام الاصولى عن الوجود فى الحكم، اصبح فى قلوب الناس، حكايا عن عصور ذهبيه مفقوده وجنه موعوده، ودان الزمن لمعاويه ويزيد بن امه، تعرف يا ابن عبد الجليل الثمن الذى دفعه معاويه لعمرو بن العاص لقاء هزيمته للامام على ؟

– م حدش قال لنا حاجه .

– امال ايه اللى بتدرسوه فى المدارس ، اعلم إذن.. مصر كانت ثمن الخيانه، ومن لحظة انتهاء عصر الاسلام الاصولى، وبدأ حكم معاويه ويزيد بن امه ، والفلاحين فى مصر ضحيه لحكم الطغاه والطواغيت.. طبقه من العسكر واخرى من المنصر، خاضعين خضوع الغنم لمن دك الكعبه على راس عبد الله بن الزبير، وعندما اكتشف ان هدمها سيفقده الاسانيد الغائيه التى تبقى على وجوده فى حكم الامصار، اعاد الاسلام السياسى، لماذا لم يمتهن الفلاحين مهنة الحرب، لأن الفلاحين فى مصر كان مخصصا لهم دور مشهود، دور النحل ، عليهم العمل ولسدة الخلافه الترف والبذخ، ينتجوا العسل ولا ياكلوه، كفاهم الطاعون والكرابيج والحلم بالجنه، ولا حول ولا قوة إلا بالله، والفلاحين هواهم هناك مع الصالحين وحلقات الذكر ، عبد الناصر ابو الفلابه، اول فلاح حكم مصر، نسيه الفلاحين، نسيوه وارتضوا حكم العبد، احمق من يغنى للهلاليه، ابو زيد وعنتر والمملوك الطاغى الظاهر بيبرس، هذا التاريخ المقلوب، من يغنى للفلاحين وللماضى القديم وعلى اللبن المسكوب هراء، دموية الامويين ، وفحش العباسيين، وسفه ابن طولون، وحجرية الاتراك، ودودية الخصيان المماليك العبيد، يا ابن عبد الجليل اسمعها من ابن عمك كمال، ايها الفلاح التعيس ليس لك مكان سوى الوحل والطين والعفن والعيش فى زلع المش بين الجبنه المدوده .

.. ليه يا ابن عمى .. صبرك على شوى، لما فتحت صدرى للنيران والطائرات ترعى فى السما ، كنت اظن انى واقف عل اسوار تونس الخضراء، كنت اظن ان الحرب باب ومقفول صراها لما اعبره اصير فى جنة عدن، بالموت او الحياه، لكن ما بال ان اللى جرى كان غريبْ، وكأنى دخلت الجحيم، صراط غير الصراط ورضوان كان شيئ غريب، كلامه تختلف معانيه، انا عشت زمن كنت اظن ان كل شىء لا بد ويصير تمام..

ضحك الخيال وقال.. مش قلت لك .. بتغنى للهلاليه، اصحاب الركيز والحربه، يا ابن عبد الجليل، اسمعها منى.. احمق من يغنى للهزيم والزمن القديم ويبيع الجلا فى الفلا، كنتم وما كنتم ، والقيظ يشوى مرابعكم، والنمل تسعى فى الظلام تخال الوحا ضحا والموت مثل الحبوب فى الرحى، تبا لك ولاحلامك الوهميه، احمق من يغنى للهلاليه، اهتز اليقين، واهترأت اللغه ، فحلت البلبله، تبادل اعداء واصدقاء الامس الاقنعه، فلا تعرف من الذى كسب الحرب، جنودها ام كتائب تجار المخدرات وفرق مدرعات السوق السوداء، وسلاح طيران التوكيلات الاجنبيه، وكتائب الحرس الجمهورى للمافيا التى شكلها الرئيس المؤمن بنفسه، وقدم لها الوطن ضحيه، على طبق من فضه، الجهل صنو الخوف والتخلف، والجهل سيد

الجميع، راية التقدم والعلم تتزوى باحتقار فى المؤخره، وكل شىء فى العالم يتقدم، والجنيه المصرى يتأخر، قوم من قدامى يا ابن عبد الجليل بتجيب لى العصبى .

- يا ابن عمى لما انت عارف ساكت ليه ..؟

.. المثقفين فى هذا الوطن تجار، طول عمرهم بيتاجروا فى الفلاحين، سلموهم لتاجر الدخان صاحب الاربعة آلاف عسكرى محمد على، لا تستنكف إذن ، إذا كان عقل الفلاحين اردأ من عقول حكامهم، خصى المماليك، ومكر محمد على ، لا يوجد فاصل بين حريه بلا حدود، واحترامك لانسانيتك، ولا تستنكف حدوث هذا، إذ ان جسدى وجسدك سيكون مرعى للقصف النووى القادم، والقنابل النيترونيه النظيفه لأنه لم يعد هناك مكان فى العالم للعقول النباتيه، واول وآخر شتاء نووى سيكون فى القاهر، لأن قاده الجيش يتاجرون الآن فى الجبنه والسلاح، ولأن قادة الجيش لم يعودوا يرغبون فى البطولات الحمقاء والاناشيد الحماسيه، والبرجوازيه القديمه، والمافيا الجديده تريد ان تاكل وطنها على مهل دون ضجه ولا ازعاج، يكفيها عقلنا الحسى الذى صاغه الغزالى ، فاختفت الحقائق البسيطه للحياه، وهو ان المسئوليه والواجب وحقوق التكليف تنبع فى الاساس من حرية الانسان، حريه بلا حدود، تستطيع بها ان تكتشف الدجل الذى يحيط بنا، وفساد اللغه، وان اسرائيل لم تتخل عن احلامها فى ارض الميعاد من النيل الى الفرات، ولم تتخل عن نظامها العنصرى، وتحتفظ بمخزون نووى من القنابل الذريه والنترونيه النظيفه، وتجلد سبعة عشر مليون يهودى فى العالم للهجره لارض الميعاد، اين سيذهبون إذن، على قلبك وقلب من يخفى هذه الحقائق عن عقلك، ولك الله يا ابن عبد الجليل، وتائية بن الفارض، ومأساة الحلاج، وقمع المعتزله، وسيادة الغزالى واندثار لغتك الهيروغليفيه القديمه، آلا تعرف إذن، تبا لك ولحصرك النفسى، ولفصامك التاريخى، ولتاريخك المقطوع بين اوزوريس الموصول بعمرو بن العاص، المنافق التاريخى الذى اطاح بعلى بن ابو طالب، امام الفقراء، وهو يقهقه ويأخذ مصر هديه من يهوذا الاموى.. عندما تسمع بكاء معاويه فاخرج لسانك، لأنه قلب الامه رأسا على عقب، واشاع فيها كيف تتكون شعوب من طراز سيكوباتى رفيع، واعلم ان تاريخك هو تاريخ التشوه النفسى، وفساد اللغه، تاريخ الانتقام بين العدل والسلطه، بين الثوره واستبداد الطغمه، والفلاحين قطعان فى المراعى للذبح، ماشيه تسير على غير هدى، ترعى للقتل، واسأل نفسك.. عندما لا تكون هناك فى الافق رايه، لا يبقى امامك سوى الافول.. اقول..

عندما لا تكون هناك فى الأفق رايه .. أين تذهب الخيول .؟

-٣-

فى عصر اليوم التالى، حضر مصطفى وجبران حاملين أغراض وحقائب عطاالله، وعلى وجهيهما ارتسمت معالم الإحباط، قالا:

– لم نجده، لا يمكن ان يكون سبقنا .!! ماذا حدث إذن، لا احد يعرف، ربما، قالها سورى، فلسطينى او شخص لا شأن له ربما حملوهم لأحد معسكرات الجيش كى يعملوا ثانيه بالسخره.. قال مصطفى بلهجة صدق بالغة: انا نحب عم عطا الله واجد، عموما تبوا تاخدم أغراضه معاكم ..؟ باهى، تتركوها لحين يرسل عنوانه، قسما بالله نحملها له مصر بنفسى، انا بسافر مصر طبيعى .

عقب مفتاح: حتى انا نعرف سواقين واجد على الخط موثوق فيهم، نستطيع نرسلها مع حد فيهم .

– ما ترك عنوانه

– يرسل يا راجل، حتى يعود ييجى، ضحكوا

فاستطرد: تضحكوا توا نشوف .

عادت للموقع حركته الدائبة، وانطلق ثانية ضجيج الآليات الثقيلة، وعادت عجلات الترلات واللوريات المحملة، وأزيز البلدوزرات المجنزرة تتوه ملامحها، وسط الغبار الكثيف تنساب منها أصوات ماكينات وخلاطات الأسمنت، وسط هذا كله انتشر جو خاص، جو عجيب، اختلطت فيه المودة، بالقلق، ثم ما لبثت أن توقفت الحملات الحكومية لإنهاء عقود المصريين وترحيلهم لفترة شعر فيها الجميع بالاطمئنان .

الفصل التاسع والعشرين

-١-

فى يونيو ١٩٧٧ حملت الأنباء حدوث مناوشات عسكرية على نقاط الحدود فى السلوم والكفرة. بين الجيشين الليبي والمصرى، ثم توالت الأنباء بزيادة الحشود العسكرية بين البلدين، وبدأت الأخبار تتوالى عن فسخ الشركات والمصالح الحكومية الليبية عقودها مع المصريين فى غالبية المهن الثانوية، وإعطائهم مهلة محدودة لمغادرة البلاد.

فى المساء انزوى السلكاوية فى براكاتهم، منكمشين على أنفسهم منطوين على ذواتهم كدجاجات تنتظر هجوم قطيع الثعالب ، تدور حول الحظائر، وتخمش الأبواب، وتهاجم الحظائر الضعيفة، تفتك بها، وبينما عاودت الحاج حميدة شهوة الضباع، بدا لعبدالله والمبروك أنهما أخطئا فى البقاء حتى نهاية الشهر، وسقطا فى هوة من الحيرة والتردد ، وسط المناخ المتردى العام بين البلدين، وتبودلت حملات الهجوم الشرسة، واذدادت حوادث الصدام بين الجيشين، ثم حدث أن قدم الجيش الليبى المياه العذبة للجيش المصرى، وتلا ذلك قرار ليبى بالانسحاب من على خط الحدود بين البلدين، وحول شواء لم يدع إليه المهندس عصام هذه المرة، تحدثوا وقد خيم عليهم الوضع العام، قال جبران: موقفنا صار واضح الجيش الليبى انسحب من الحدود.

عقب أبونديم: ايه بلى الكره الآن فى ملعبكم يا مصريين .

داهمه جواد: يعنى انت ما حابب ان الجيش المصرى يهاجم ليبيا.

انتفض أبونديم مستنكرا: هادى ما فيها نقاش، وما بيحدث ان الجيش المصرى يهاجم ليبيا، وإذا حدث بتصير مهزله، ترى والله الجيش المصرى بيطيح بالسادات، هاذا جيش وطنى ما يقبل يترك حدوده مع اسرائيل، من شان يهاجم عمقه الاستراتيجى وحليفه بالحرب، ولو .. بدك انت الجيش المصرى يهاجم ليبيا؟

- ليش تقبل ان الجيش السورى يهاجم الفلسطينيه بلبنان، ما بيصير تقصفوا المخيمات الفلسطينيه بقاذفات القنابل والمقاتلات.

عقب أبونديم: النظام السورى اعفن نظام بالمنطقه، مزنوق بين الهزيمه السياسيه والمأزق العسكرى اللى وضعته فيه اسرائيل.

– يا اخى لو كان كل نظام من هاى الانظمه لما انه يفشل يستقيل!! لكن هاداك انهزم وما بيتركنا، كل الانظمه العربيه بدها صفيحه قمامه.

– اسرائيل بتحتل لبنان في ثلاث ساعات، وفى هيك حاله يصير الشام وجنوب سوريا كليته مكشوف إذا ما احتلت اسرائيل البقاع، بتصير تسيطر على دمشق. هاى المشكل.

– وهى بعدها ما مسيطره .؟! ولو .. ايه مليح لكن ما يضرب النظام السورى الحركه الوطنيه اللبنانيه حليفها الاساسى، وما يصير يخرج من لبنان اسوأ شىء وهو الطائفيه.

– شو انت ليش عم تقول هيك.

– الاسد بده يلعبها بقوه، اما السادات بده يلعبها بخبث، بدك تفهم الظرف اللى صار يقع فيه الشعب المصرى، الاسد بيحول الصراع بلبنان من كونه صراع بين القوى الوطنيه والفاشيه الى صراع قذر، صراع طائفى، السادات بده يقدم ترضيه للامريكان، بده يثبت لامريكا انه الحليف الاقوى بالمنطقه، والبديل لاسرائيل، وانه بيقدر ينفذ مهام ما تستطيع اسرائيل تنفذها، وانه إذا بترجع سينا بالمقابل، إذا نزلت المعونات الامريكيه مصر، وغرق الشعب المصرى بالزيت والقمح والسكر، يبقى المصريين ايضا اخنوا الثمن، مو السادات وحده خد الثمن.

عقب ابو العبد فى ضيق: امريكا ما بتعطى السادات شىء .. ايه، وأذا لما إن تقول، وما تأخذنى يا أخ عبدالله ان الشعب المصرى غلبان جعان همه على بطنه يبقى ما فى غلط فى الكلام.

اعترضه جواد بضيق: ما فى قاموس الثوره كلمه اسمها شعب غلبان او شعب ضعيف، ما فى حد فى التاريخ عدا النازى قال بأن هذا الشعب افضل من هاك، هيك بيعلمنا التاريخ، مافى شعوب متخاذله، فيه قيادات انتهازيه والاسوأ قيادات مريضه، الحقيقه ان فيه خصائص للشعوب، فيه فترات مظلمه فى تاريخ الشعوب، وهنا بيكون الشعب غير واع بذاته، هذا بيسمى الزمن الصعب الهباب، بتسود الانانيه والنفعيه والقدرية وانعدام الفاعليه الانسانيه، مابيصر تحاكم الشعوب، وبعدين انا رأيى نفضنا من السياسه ، الرجل بده يرحل وما بدنا نعكر دمه.

عقب عبدالله بحماس: معاك حق، خلينا نشرب كرسي حشيش احسن.

ضحك الجميع وكان أكثرهم ضحكا جواد: ندخل فى التوهان، ونتناول السم الذى اجتمع على الاتجار به كل الخصوم ، اسرائيل، والانظمه العربيه.

فى الظهيرة شاهد من فوق ورشة الدبابات، اثناء قيادته لمجموعة صب الخرسانة، سيارة جبران تأتى باتجاهه، أصابه القلق، نادى جبران: يا بطل، الريح هنا طيبه، هسه نديروا غدوه، باهى.

- باهى.

- ما تدير شىء، الجماعه يحضروا فى الغدا.

على الغذاء قال أبونديم: اخي عبدالله، بدك تعرف انى ما بدي افارقك، لكن يصعب علي يصير معك متل ما صار مع عطاالله، إذا بدك ترحل بنصير نساعدك، هذا يرجع ألَكْ، إذا تحب غدا بعد غد اسبوع انا طوع امرك، بعرف ضابط كتير آدمى بينزل معنا اى وقت تبغى، بس راعى لما يكون القرار بايدينا غير لما نكون مضطرين، فهمت على.

هز عبدالله رأسه، قال وقد صعبت عليه نفسه وصدره يختنق: نمشى آخر الاسبوع احسن، نجهز اغراضنا، وناخذ فلوسنا ونرحل.

هتف مفتاح: ليش اقعد لآخر الشهر تاخذ فى فلوسك، ونشوف إذا هديت الاحوال تظل، إذا ما صار هيك، انا ناخذك بنفسى وفى سيارتى حد السلوم، ما تخاف شيء.

صدق جبران على حديث مفتاح: ايوه، تظل براحتك هنا، نحنا نبيكم براحتك هنا يا مصريين، هذا اللى بيصير مو معقول.

مسح جواد انفه فى حرج، قال هدوء: يا اخى ليش نترك الامور للريح، انت ما سافرت على مصر مره ورجعت؟

هز عبدالله رأسه بالإيجاب.

- باهى ايش يفرق رحيلك اليوم عن آخر الشهر، ثلاث اسابيع ما تسوى، إذا اتحسنت الظروف بترجع مره ثانيه هون.

قال مفتاح: إنت بتعرف ضابط أنا بعرف عشره، وأنا مسئول عنه، أنا بأخذه بنفسى هو والمبروك مافى شرطه ولا جيش يقرب منه.

كانا يتحدثون وكأنهما يدافعون عن كرامتهم.

قال جواد بصوته الضعيف الواثق: يا جماعة الخير المسأله بدها شوية عقل.

صاح جبران بغضب: إيش تقصد؟

- اليوم يرحل احسن من غد.

- قال لك مو جاهز اليوم، تقول عقل وما عندك عقل.

- قصدى الاسراع بالرحيل افضل إله.

- لا .. على الطلاق ما يرحل إلا معى.

قال أبونديم: إذا صار هيك، خلاص

حاول جواد الحديث لكن أبونديم قاطعه: خلاص، الجماعه ما بيتركوهم، وصار فى هيك طلاق، خليها على بركة الله

سأله أبونديم: انت اتصرفت فى فلوسك.. ؟ شفت حدا يحول لك، انا اعرف واحد مضمون وياعلى سعر، مو متل اليوم، أيه بالطبع، تعرف ان سعر التحويل صار قليل، توا كل المصريين بيحولوا فلوسهم فى السوق السوداء وفى الظروف هادى.

قاطعه جبران بنبرة زهو: خلاص يا راجل خلاص.. انا اتصرفت له.

سأله أبونديم: رجال مضمون .. ؟

- ايوه يا اخى.

- بدى اعرفه.

- الحاج حميده.

- ـ آه، على ضمانتك ؟ ليبيين ما بيخدعوا بعض، وإذا حدث وغدر؟

صاح جبران: اقطع رقبته ، ما يكفينى رصاصه فى كرشه.

قبل أن يتوارى الأربعة .. ناداه مفتاح: بنعدى عليك بالمساء، جهز الجوزه والشاى.. أيووووه.

وعقب جبران : أيوه الجوزه .. روق دمغاك يا وحش، ما تفكر كتير.

* * * *

الفصل الثلاثين

-١-

الشمس تأفل فى المغيب، وأعداد كثيرة من العمال خارج براّكاتهم، البعض يشترى طعام العشاء، والبعض الاخر يجهزه، يجلس البقاقين أمام البراكات هربا من الحر، يتبادلون الحديث مع الشاى، من بعيد ظهر ذلك الغبار الذى تثيره السيارات المسرعة.. اقتربت العربة الچيب الزرقاء الخاصة بالحاج حميدة، سمع الجالسين صرخة استغاثة، يشوبها الرعب والهلع، كانت معركة حامية تدور بين الصبى والحاج حميدة الذى كان يقود السيارة بيده، ويمسك بالصبى بيده الأخرى، محاولا عبور البراكات بسرعة متجها إلى الغابة، اشتد صراخ الصبى، فجأة انفتح باب العربة وقفز الصبى على جانب الطريق، تدحرج جسده كثيرا قبل أن يتوقف منكفئا على رأسه فى سكون، والدم ينسال من رأسه، كبح الحاج حميدة السيارة ونزل مندفعا مكشرا عن أنيابه، ملقيا على أسماع الصبي أقذع الشتائم، تجمع العمال على مبعدة لا يستطيعون الاقتراب من الصبى، محتمين بالصمت، ظهر الانشداه على الحاج حميدة قبل أن يتراجع إلي الخلف، قافزا إلى العربة، رحل وهو يدمدم بألفاظ لم يفهموها، عندما غادر المكان اقتربوا من الصبى.

حلت الظلمة وعبدالله يعبر الحافة الشمالية لحدود الغابة، وأمامه كان الموقع هادئا يخيم عليه الصمت، شعر وهو يقترب من البراكة بشىء غريب، كان العمال قد تجمعوا فى حلقات واجمين، وحول البراكة جلس عدد كبير منهم، وعندما وصل إليهم كان يتساءل، ماذا جرى؟! على الفراش الأسفنجى المتسخ القديم كان جثمان الصبى مسجى، جلس عبدالله وبجواره جلس المبروك يحكى له ما حدث، عندما انتهى كان كيانه يهتز، وقلبه يدق بعنف ويداه ترتعشان، لم يعقب بشىء، وجلس طويلا صامتا، وعلى قدر ما كان حزنه لم يجد لديه أى رغبة فى الانتقام، كان عقله يعمل بسرعة مثبطا أى قدرة على الفعل، قبل أن أقتل الحاج حميدة يجب أن أستعيد منه نقودى أنا، ثم لماذا أمضى العمر مسجونا فى أمر لا ناقة لى

فيها ولا جمل، يكفى نبيل، رضا صبى أهله مسئولين عن تشرده، ما كان يجب عليهم أن يتركوه وحيدا بين ذئاب الغربة، لى ابن لم ير النور بعد فى حاجة إلى، أعمل مع الحاج حميدة معركة .. لا.. انسحب. انت فى أرض غريبة يا ابن عبدالجليل والمدرعات لا زالت تحاصرك، اهرب إذن، انسحب، موت رضا أو موت روحك، ألا يا ابوزيد، أبو زيد مين يا ابن الكلب، طب لومت وصار ابنك يتيما، مين ح يمد له يد المساعدة، يا نهار أسود، ما عدش فيه نهار، لسه عندك الجرأة، انت دودة ولاتسوى، لما اخترقت القوة الضاربة للمدراعات الإسرائيلية خط القناه ، انهار الدفاع الجوى، كر زى سبحة انقطعت خيطانها، ما كانت مسؤليتنا الحرب ضد المدرعات، والانهيار فى الجبهة يتحمله غيرنا، أعتذر لك يارضا،لا ،لا أعتذر، دمك فى رقبتى دين ما أستطيع أسده، الا أبوزيد، لسه عندك الجرأة يا ابن عبدالجليل، أنت دودة تسبح فى الوحل فى العفن ولا تسوى.. لما تشوف النسور فى باطن السما اخجل، لما تشوف الشمس طلة فى الصباح طاطى عينيك وأختشى، لما تشوف النجوم حيد بعينك للظلام، لما تشوف السادة بوس الأيادى، لأن طبع النسور فى السما غير طبع سكان الجحور.. غرغري يا عين بالدموع..

همس مفتاح وجبران فى أذنه: القواد عرض خمسة آلاف دينار ديه، تبوا الشرطه تحت أمركم، ما تكسبوا شيئ، الدينارات مصلحه لأهل الصبى، إيش تقول يا عبدالله، اخزى الشيطان عارف أنك ناوى تقتله.

فكر عبدالله.. ولا اقدر على ضرب صرصار بالوطا .

همس المبروك: الولد ضحى بحياته علشان اهله، نسلم الدينارات والجثه للقنصليه وبس، ونخزى الشيطان، الامير فى ارض الغربه نكره.

.. حتى انت يا مبروك مازلت تظن فى المستحيل.

همس والدموع فى العين: بكره نمشى وإلا ح اعمل جريمه هنا.

-٢-

فى الصباح الباكر وقف عبدالله والمبروك أمام البراكه، وبجوارهما ثلاث حقائب وعدة أكياس من النايلون، وحولهما تجمع عدد قليل مودعا. عندما أزف ميعاد بدأ العمل، رحل الجميع ولم يبق سواهما وجثمان الصبى، نصف ساعة حتى حضر مفتاح ومصطفى من الإدارة حاملين راتبيهما ونقود الصبى وأوراق موته موثقة من الشرطة، نتيجة حادث قيد ضد مجهول، وقع على استلام نقود الصبى، سألهم مفتاح: باهى تبو نتحرك.. ؟

حمل الجثمان ثلاثتهم، جذب مفتاح إحدى الحقائب، وحمل كل منهم حقيبتة، وقفزوا بجواره، عندما عبروا الموقع، ألقى كل منهما بنظرة على المنشآت الضخمة التى انتهت، والتى ما زالت تحت التشطيب.

عام ونصف امضوهه بمعسكر القوارشة، رحوا أثناءه مرة إلى الوطن، ثم عادوا وها هم يرحلون للمرة الثانية، ربما عن لأحدهم أن يعود ثانية يوما ما، فلا تزال حاجته للنقد الأسود لم تفرغ بعد، ربما فكر بالعودة، ربما أن شعورا قاسيا بأنهم لن يعودا هنا ثانية، وأن فقرا وعوزا مريرا ينتظرهما فى الوطن، مهندس مجاهد يا حرامى يا ابن الكلب، عندما مرا أمام مكتب المهندسين لمحا القاتل طليقا لايزال واقفا بصدره العريض، وقامته القزمية الراسخة، وكرشه الساقط أمامه، محمولا على جذعين قويين يملأن الفضاء، شاهدهم فحول عنهم ناظريه وتجاهلوا وجوده، زاوية صغيرة بقت، زاوية صغيرة جمعت أشياء من هنا وهناك، زاوية صغيرة من التجاهل ومساحة عابرة من مقطع النظر تمر به وترحل، دون أن تبقى بالذاكرة، قرب منتصف المسافة على الطريق الفرعى بين بوابة الموقع الخارجية، وبين طريق طرابلس الأسفلتى تساءل مفتاح: قلتم وين ترحوا بعد القنصليه؟

– ابن خال مرعى ساكن فى حوش بالصابرى، نقضى عنده تلات ايام لحد جبران ما ياخدنا للحدود.

باهى توا أنا نروح معاكم الصابرى وهناك تدلونى على الحوش بيش نجيلكم، باهى – باهى.

* * * *

الجزء الرابع

الفصل الواحد والثلاثين

- ١ -

فى شقة بالدور الأرضى أقام هو والمبروك . يتعجلون سرعة مغادرتهما البلاد، منذ دخلها والوخم ينتشر فى جسده، امتلأت خياشيمه بالرائحة العطنة لشقة يسكنها عزاب، وفى الأرجاء كانت القذارة تملأ المكان، الحائط الملوث بالخطوط والبقع الدهنية السوداء، وبقايا الطعام المتناثرة، كسرات خبز جافة مر عليها أسابيع، بقايا جبن جاف، خضروات عفنة، قصاصات الأوراق المستخدمة فى حمل المشتروات، حقائب ممتلئة بالسلع الرخيصة، والأقمشة، وأجهزة التسجيل، المرحاض المشروخ الذى غطى لونه الأبيض طبقة سمكية سوداء من بقايا الغائط، الصنابير وخزان المرحاض يتسرب منهما المياه بلا انقطاع، والعبارات المبتذلة والرسوم البدائية لأجساد النساء على جدران وباب دورة المياه .. شعر بأوصاله تتفكك ، وقدميه تنوآن أسفل جسده، جرى ناحية الفراش الملوث بالدهون، وبقايا الشحوم والوسخ ، وأغطية لم تغسل قط امتلأت برائحة عرق الآخرين، حاول أن يستلقى لكن الدوار أصاب رأسه فسقط مغشياً عليه .

ظل عبدالله محموما لا يفيق لمدة ثلاثة أيام وأصدقاؤه يحيطونه بالرعاية اللازمة، لم يكن باستطاعته الذهاب إلى مستشفى حكومى فى هذه الظروف، أحضر له أبو نديم طبيبا سوريا، عاده مرتين، وكتب له علاجا اشتراه المبروك، عاده مصطفى الذى أصر أن يأخذه مستشفى الجلاء: نحن خوت، كيف ما يخدم الأخ أخاه إذا هَكِ ..؟ هيا .. هيا ناخدك معى بالسياره إلى مستشفى الجلاء، أنا نعرف المدير، ترى ما تخاف أنك سلكاوى، ونظر للجالسين وضحك .. لم يجاوبه أحد، فقط رفضوا شاكرين، عندما بدا أنه يعانى الوهن غادر المبروك بنغازى بصحبة أبو نديم للاطمئنان على نبيل بسجن درنة قبل عودته إلى الوطن، على أن يلحق به عبدالله فى خلال الأيام الثلاثة القادمة .

- ٢ -

رحل المبروك ليلا وبقى هو، عندما أفاق كان جسده مرهقا متعبا، قام يستند بجسده وحيدا على الأثاث المتهالك بالشقة الخاوية، فتح النوافذ فغمر الحجرات ضوء قوى، وأمامه شاهد الليبيين فى العمارات المقابلة والمنازل المجاورة، وهم يحيون حياة طبيعية، الرجال يجيئون ويروحون، ونفير السيارات يقودها الشباب تتدلى شعورهم الطويلة، وأصوات نداءاتهم الغليظة، وخلف النوافذ والشرفات تمرق النساء والفتيات كما تمرق الشهب فى السماء، ومن الشارع ينبعث الضجيج الصاخب للأطفال والصبية، داهمته الغربة وهاجمته الوحدة، شعر بذاته تخوض فى وحل الضآلة الآسن، فانثنى يتناول إفطاره، رشف الشاى الجميل وحيدا شاعرا بلذة فائقة، والفضاء يحمل إليه الأصوات الأنثوية الحادة المنغومة عبر النوافذ الداخلية للمنزل، تلتف حوله، تناديه إلى المنطقة الحادة للاشتهاء الجنسى، تلك التى اختلسها منه زمن الذكورة الطويل، أشهر تسعة بعد قدومه الثانى إلى ليبيا وزواجه من نجاة، أمضاها بمواقع العمل الذكورية، الآن يحمله عبق المرأة عبر الحجرات الخاوية تتسلل إلى مسام الجسد رويدا، رويدا، يدور باحثا فى مخيلته عن أجساد النساء، وعريهم ينجذب إليهم حتى يصبح أسيرا للشبق .. يومين وجسده يجرع كؤوس الراحة من العمل المرير، بينما ذهنه وعيناه يتلصصون من خلف النوافذ بحثا عن وجه شارد، خصلات شعر يطيرها الهواء، صوت أنثوى تأتى به الرياح، يمتص ذهنه الخواء والغربة، تهاجمه الهواجس السوداء يلتقاها ذهنه مكدودا، فيعود مهموما إلى فراشه، عندما يفيق يعود إلى الشارع، يتابع الحياة من خلف خصاص الشرفات الضيقة لملاطمة اللذة من جديد .

القلق كان حليفه، نشرات الأخبار يبثها التلفزيون الليبى دون توقف، عودة الاشتباكات الحدودية بين البلدين، زيادة الحشود العسكرية المتبادلة، هجوم شديد على النظام المصرى، مشاهد من طرد المصريين العاملين ، كان المتوقع نمو حاد للكراهية بين الشعبين، إلا أن تلك المشاعر العدائية التى تنبئ عنها أحتمالات الحرب والإشاعات حول نوايا السادات بالاستيلاء على منابع البترول الحدودية، أزاحتها مشاعر قوية من المودة، وإحساس بالغ بأهمية العلاقه بين البلدين والخطأ الفاحش الذى يرتكب ، كل هذا مصحوب بتحذيرات حادة من الحكومة الليبية بعدم المساس بالمصريين العاملين على الأرضى الليبية.

- ٣ -

فى اليوم الثالث غامر بالخروج، معتمر اللاسة الفلسطينية باتجاه حى الفندق، المقاهى خاوية من المتسللين الذين رحل أكثرهم، أو رُحِّلوا بواسطة الشرطة، دار بين العربات المحملة بالسلع والمصنوعات الرخيصة، ثم انثنى إلى المقهى يتناول الشاى، قبل أن يطلب شيشه

داهمه الخوف فجأة عندما تبين أنه المصرى الوحيد الجالس فى المقهى، أنهى الشاى على عجل وقام متجها نحو سوق الظلام، عبر شارع جمال عبدالناصر، السوق غاصا بالمارة من كل جنس، طليان، بولنديين ، يوجسلاف، باكستانيات وهنديات يتدلى شعرهم الناعم الأملس على خواصر مكشوفة، وجوه النساءالمصريات تبدو عليهم ملامح التعب واللامبالاه، يتسوقن مع أزواجهم، يدفعن عربات أطفالهم إلى الأمام، ليبيات ترتدين أحدث ثياب الموضة، على وجوههم، ومن أصواتهم، تنبعث الثقة المغالية بالنفس، قادرات على دهسه بالأقدام، لبنانيات تفوح منهم الصحة والعافية، أجساد ونهود قوية تهتز فى رفق تحت إزار مكشوف، وأرداف جميلة، أصابته الغصة، أخذ يسرق بعينيه أجساد النساء، عند سوق الذهب مال على بائع يشترى سجائر، أهمله طويلا وهو يحادث ويبيع لأخرين، بوغت به يصرخ: سجدنا، شنو تبى؟

قال بابتسامة محملة بعتاب : علبة سجائر مش اكثر، لو سمحت .

ألقى بها إلى الطاولة دون أن يمد يده لأخذ النقود، فتركها له راحلا.. عندما ترك الحانوت خال أن وجوه البشر تحدق به، محملة بالوعيد، ذئاب جائعة بانتظار التهام الفريسة، حدث نفسه؛ هاهم هناك هل يمشطون المحلات، انعطف لطريق جانبى، رأى جمعا من البشر حول شابين يتعاركون، أسرع بالفرار جهة البحر ونفسه تتوجع بأسى، وقد جلدته غلظة العجوز وجفاؤه، على البحر وقف يعب من رياحه المنعشة لعصر أحد أيام يوليو الحارة .. بنغازى مدينة ثرية، لا تمد زراعيها للغرباء . جميلة هادئة تجاور البحر فى تعال وأنفة، بأحيائها الفاخرة، والطرق الواسعة العريضة تحيط بها العمارات الحديثة، وتتناثر على أرصفتها الأشجار والخضرة، وواجهات المحلات المكدسة بالسلع الثمينة الباهظة، هنا قتل محمود رب عمله، وسرق مائة ألف دينار وهرب.

كل المدن مخادعه، خدعت القاهره رضوان ابن عبدالجليل .. وخدعت درنه نبيل.. كل المدن مخاتلات، عاهرات شمطاوات، سافرات، محجبات تشع الشهوه من عريهم ، او من عيون تومض من خلف الخصاص.. اما سدود فلا تخدع احدا، كل شيء فيها مكشوف، الحاضر والماضى، ثمة سفور، وثمة مواراه ، جدران ضنينه تفوح بتاريخ سيرة الاجداد، وفى العشيه لا تبقى لأحد على سر.. سدود انت الهوى، ارحل اليك واعود، احفظ كل ذره من ترابك عن ظهر قلب، تاريخك المكتوب علامات على نواصى الدروب، على مآذن جوامعك، شطآن ترعك، تسرى فى ارضك شرايين دم، تاريخك اللي يبتدىء من درب الوسطانى، منقوشه علامات الصليب على هامات الدور، العلاميه، المندره القديمه، درب المربع، جوامعها ومآذنها العاليه، يتعارك الرجال، من الذى سينول شرف اداء آذان الفجر، بوابة العلاميه، يتجمع عندها الرجال ساعة العصر، وفى العشيه امام حانوت الشيخ البسيونى، وجهه الاشهب المدور، مسك وعنبر، امامه يتبادلون الحديث ولعب السيجه، والعالم امامهم شيء معروف بتفاصيله الدقيقه، زمن البذار والحصاد، تاريخ الموالد، وقصص الرجال والنساء، وازمة الطحين والسكر، والحاج سيد نصر يتابع السائرين من على مصطبة داره، يخوض مع

الخال عزام معارك الشطرنج، دوار الامبابيه، مطلع درب الوسطانى، دكان المعلم شفيق، ودكان عكاشه، بينهما يتجمع الشباب، يكبرون على احلام المراهقه والمراهنه على تكسير اعواد القصب، سوق الاحد يبدأ من درب الوسطانى وينتهى عند دار الامبابيه، عند مطلع بحرى يلاقيك مصطفى شعلان بالصخب الجميل، مندرة الشيخ ابراهيم خضر، تحتفى القريه كل عام بالمولد النبوى، تلاوة القرآن وانشاد ورد الشاذليه، بعدها يطل عليك الحاج أعلى عياد العمده بوجهه الهادىء وابتسامتة المنوره على قسمات وجه حاد الذكاء، من عينيه العميقتين تفوح رائحه العزه. المدرسه والنادى والوحده الاجتماعيه تتهادى الترعه البحريه، المطاوعه، عزبه الشنقيرى، المخالفه، يسير الطريق، يلتف معوجا لقبلى، المراعوه، والتعالبه، والدوانيه، واليساسنه، قبل ان تعود ثانية لبوابة العلاميه.

يحكى حسن خليل: سدود حالة وجود فى العدم.

يجاوبه مرعى بصخب: صح يافالح يا مثقف يا ابن المثقفين، سدود حالة وجود فى العدم يحدها الخط الحديدى من الشرق والنعناعيه من الغرب اما الشمال والجنوب مفتوح للنسيم العليل..

يقارعه رضوان دون اهتمام: هذا إذا كان الوجود محدد بالمكان، ربما.. ولكن المؤكد ان التاريخ هو اس الوجود، او هكذا قال هيجل.

يقول حسن مرعى: هيجل ام الاستاذ عبدالعظيم هيكل. ؟

يحدثه رضوان: لا فرق، لا فرق يا ابن مسعده مادام بقالك ساعه بتشد فى نفس الحشيش، ح تعرف الفرق بين هيجل وهيكل، ولا ارسطو ومسطرد، ولا العيش المفقع وابن المقفع.

يقاطعة حسن بسخرية: او ابن المعرى ومارلين مونرو.. ؟

ينهمك رضوان فى سحب نفس عميق من الجوزه، وعندما ينتهى ينظر اليه قائلا: مارلين مونرو. ؟

يرد حسن مرعى بتحد: ايوه مارلين مونرو.!

– طب اسمع.. زلعة ستك فايقه، فيها الجبن الحادقه كهرمان، تعرف حاطاها فين. ؟

– عايز تفوق .. نفسك غمه عليك.

– قول بس حاطاها فين. ؟

– على السطح.

– ياخايب يا ابن الخايبه.. مش عارف ستك فايقه شايله الزلعه فين، ويتتكلم عن مارلين مونرو، عيشو عيشة اهاليكم. مخبياها فى الزريبه، علشان تطيب على عبق رائحة البهايم والروث، قوم هات حتتين، اوعى تنسى وانت فى الزريبه تفرق بين مارلين مونرو والحماره.. تعملها يامرعى يا ابن الكلب، وحياة ابوك تعملها.. ضج الجميع بالضحك.. قذفه حسن بالمركوب.. عقب رضوان.. كنت رحت معاها المدرسه.. مش عارف يا اخى واحد ما عشرش إلا الحمير يفكر ازاى فى مارلين مونرو، وانت بقى يا ابن عبدالجليل، ايه بقى.! سدود حالة وجود فى العدم.. !! ليه شعبها متصوفه ورهبان، نسيت لما عمك سرق اخوه عبدربه فى

الدار ولا ذبحه للبهايم الوقيع، والشهاده الزور في سرقة كيماوى الجمعيه، خال ابن عمك كمال لما لهف حق اخواته البنات فى ورث ابوهم، والاستاذ عبد الصبور اللى ماداوم على الحضور للمدرسه مثل ماداوم على حضور اسواق البهايم، وبقية الايام يقعد فى الفصل يعد الالوفات حتى صار مليونير، اجيال من الاطفال ضاعت ومنهم اخوك حسن.. وزن القطن على الفلاحين بالخساره، سقية الزرع بالكيماوي يهري كبد الصغار، سحب الطلمبات لمية الشرب من جنب خزنات المجاري..

.. سدود حالة وجود فى العدم ..! القول الفصل فى هذا المقام.. سدود حالة عدم فى الوجود، وما تفوقنيش، سيبنى وحياة جدك عبدالجليل، وقوم شوف الواد مرعى، وهات منه الجبنه لاحسن اقوم ابطح دماغه، شوفه عمل ايه مع مارلين مونرو.. لأ قصدى الحماره ..

لكنه مات، مات الشاب الجميل، مات حسن مرعى، دهم القطار الاعمى الميكروباص بمن فيه والمزلقان مفتوح، يومها خرجت البلد تعويه، تلم اشلاء الضحايا من على القضبان، مات الشاب الجميل البهى.. المتعايق.. انيق الملبس، صاحب المزاج والالم والحزن الدفين على احلام ما كانش منتظر لها في يوم التحقق، ليه تركوه يستمع لام كلثوم تغنى لشوقى وحافظ ابراهيم، عن الريم وعشق النيل والنخيل وبيرم وفروسيه ابى فراس، مات نتيجة خطأ حكومى، رعونه تعبث بارواح الخلق، تماما كما عبثت باحلامهم. هل حوسب احد، الموت يسرح فى البيادى رفيق للمرض، الكهنه سلاحه المبين، موظفين عايشين فى البلاده .. الرحمه له كانت فى النهايه غلطته، لأنه فارق سدود. بالمقاس ده حسابك يا ابن عبدالجليل عسير، طب هو مات على بعد اربع كيلو متر منها. وانت على بعد الف.. لو انى اطول رقبة عبد الرحيم كنت قصفتها، .. لكن الآن .. الحمد لله اليوم املك تمناتاشر قيراط طين، ودار صغيره عايزه توسع، يومين .. تلات ايام اوصل مرسى مطروح، وآخذ فلوسى من الحاج حسن وانزل على البلد اشترى بقية الفدان، وأشترى البهيمه واكمل بنى الدار .. عب صدرك من هوى البحر النقى، وجر قدميك.. حان وقت الرجوع .

قرب ميدان البركة جمد للحظة، وقد تلبسه الرعب، وارتعشت ركبتاه، وعلى الناحية الاخرى من الميدان، لمح سيارات الشرطة، وطابور امن من لوريات ينزل منها عشرات الجنود المدججين بالسلاح خمن على الفور المهمة المنوطة بالقوة .. سار هادئا وقد امسك بتلابيبه الخوف والقلق، فلا حقيبته معه، ولا جبران الذى سيحمله للحدود موجود.. توارى فى شارع جانبى ولما لم يجد احدا اطلق ساقيه للريح.

* * * *

الفصل الثانى والثلاثين

-١-

من مقصده الجنه يصلى على النبى، سبع مدن للنبى بيضونها ..

قال ابو زيد الهلالى سلامه.. صحيح دى الغربه توزى غبونها، نادى الوهيدى معبد قوام دلوا المشانق، يلا اشنقوهم لحسن ده سبب غبونها.

جابوا خشب شوم وفى طرفها البكر، نزلت شبيه الرعد إذا اطلقونها، تعلق بها مرعى وما مهل، اشنقونى انا السبب والعبد دا سيبونها .

ابو زيد صرخ .. يا مرعى فلا تقل هكذا، كلام الذل عيبه، واكبر عيبونها، يلا اشنقونا وارتاحوا منا يا عرب، لو عشت انا لازم تشفوا غبونها، لو كان هنا حمره تماثل حمرتى، وبيدى يمانى يغلب على البرق لونها، لاهجم على تونس واهد علوها، ولا بد عن واقعه ولو جردونها، لا بد من لطمه على باب تونس، يبقى الدما يا ناس ها هنا، قوام ينزفونها.

سمعها الوهيدى نهشته ضمايره، نهشته افعى تايهه يا عرايب، قال يا زناتى يلا اشنقوهم، هيا اشنقوهم دول سبب المتاعب، جابو خشب شوم وفى طرفها البكر، نزلت شبيه تعبان إذا ما الباب موارب .

قال ابو زيد اشنقونا يا عرب لو عشت انا لاخرب بلاد المغارب، ومرعى يقول ما تسمعوش له، دا عبد مسكين خايب، اكثر كلامه من الموت هايب، ويحيى يقول هيا اشنقونى انا السبب، انا سيدهم اللى على العتايب، وابو زيد يقول الذل عيبه ومعيره، وما تقول كلام الذل ده الذل عايب، وحياتك يا عين طابت لنا البلد، كما طاب للجزار لحم الغصايب.

مرعى يطفيها وابوزيد يقيدها، يحط لها حلفا تفك اللهايب، لو كنت يا مرعى ويحيى وبونس، انتم وراى فى بلاد المغارب، لأنفد بكم من وسط قوم الزناتى، ولو كانوا عدد الحصى والترايب (*)

بدأت المطاردة ، عندما دخل الشقه وجد ما يزيد عن خمسة وعشرين عاملا مصريا من المتسللين، يتحركون فى جنون .

– الشرطه تلم السلكاويه من الشوارع والبيوت، الدور علينا.

تضايقوا، تصارخوا، بدأ البعض فى العويل، تحرك يجمع أغراضه وعقله يعمل كالبرق، كيف يخاطب مفتاح، جبران أم فات الوقت.. صرخ: مفيش فيكم راجل، هم ح يعدموكم، ح يعلقوا المشانق.. خلاص مرحلينا مصر.. مصر يا بهايم يا ولاد الكلاب، مش اسرائيل .

أجابه أحدهم: عامل لى فيها راجل ..!

– احسن ما اكون مره .. ح نتمسك، خلاص.. عايز تهرب اهرب، لكن ما تبكيش زى الوليه .

قام له أحدهم: انت مين ، جيت هنا امتى، بتصرخ ليه، عامل راجل علينا، اقعد ساكت ، وابعد عننا، سيب كل واحد يغرق فى همه ..

تبدى له آخر: اسكت يا ابن (.....) ولا اكسر نفوخك .

– تكسر نافوخ مين ؟

اشتبكا فى عراك مخيف، لم يتدخل أحد، انهمك البعض فى ارتداء ملابسه بينما كان الباقين عاجزين عن دس أغراضهم فى الحقائب .

طرق الباب بعنف، كسر الباب، واندفع عشرات الجنود للداخل

هيا هيا يا فواله.. هيا يا تيس انت وهو.. سرع يا خنزير يا بغل..

– حاضر يا بيه.. حاضر انا جاى .. آنى تحت امرك ..

جروا منحنوا الرؤوس. منحنوا الظهور.. سبعه مازال بعضهم يعبئ حقائبه، والبقيه تستكمل ارتداء ملابسها، معاطف وبنطلونات وجلاليب لا حصر لها.. صرخ ملازم ضئيل البنية: هيا يا عرص .

– حاضر والنبى يا بيه .

مؤخرة بندقية فى كتف أحدهم. قبضه فى ظهر آخر، دفعت ثلاثه للخروج بحقائبهم مفتوحه ، والبقيه لاتزال تستكمل جمع أغراضهم .. سقط أحدهم وتعثرت أغراضهم فانكفأ يلمها وهم يوسعونه ركلا وضربا. ، وكان أحد الجنود لا يتوقف عن الركل ، أمره ضابطهم بالتوقف:

– كنك أنت شنو تبى فيهم، عرب مو يهود.. استدار إلى العامل المصرى.. وأنت سجدنا، عجل شوى ما تخاف نستنى فيك .

كان قدر كبير من شهوة الجنود لإهانتهم وإيذائهم دافعه رعب المتسللين ومسكنتهم وقدرتهم الفائقة على اصطناع التذلل طلبا للبقاء، ربما لو تصرفوا بشكل يليق بكرامة البشر لكانت الأمور أكثر هونا.

فى الأيام الأولى من شهر يوليو لعام١٩٧٧ جلس عبدالله على سطح إحدى ناقلات الجنود المكشوفة، وأمامه حقيبته ينظر للفراغ مذهولا، موكب من الشاحنات تتقدمه سيارات الشرطة تطلق صفارتها وأضواءها التحذيرية، ومن الشرفات وعلى جانبى الطريق تجمع مئات المارة يشاهدون موكب الأسرى من المصريين .

-٢-

على الطريق الدائرى للمدينة ومداخلها وعلى المفارق الرئيسية والنقاط الحيوية لها، أقامت قوات الشرطة الليبية الحواجز الثابتة والمتحركة ودوريات الشرطة المنقولة واللاسلكية، للقيام بأضخم عملية مطاردة بحثا عن المتسللين من العمال المصريين السلكاوية، كما يحلوا للبعض أن يسميهم، فى الوقت الذى أقامت فيه بقية القوات بالتعاون مع قوات من الجيش على القيام بأكبر عملية تمشيط للأحياء الشعبية التى تقع على أطراف المدينة، والتى تكتظ بعشرات الآلاف منهم ، كانوا قد تسللوا عبر الحدود المصرية - الليبية تحت سمع وبصر حكومتى الدولتين، وتشجيع من شرطتى البلدين فى الغالب لسبع سنوات متواصلة ويزيد، كان فيها الاقتصاد الليبى، وقبله المصرى ولأسباب متباينة، فى أمس الحاجة لهذه العمالة، الآن أصبحوا أفرادا غير مرغوب فيهم، ودون التونسيين والسوريين اقتصرت حملات المطاردة على المصريين، وجندت الثورة المئات من شبابها للمعاونة، فأوقفت الباصات العامة، والبيك آب الخاصة بحمل العمال من الأحياء وإلى مناطق العمل المختلفة للتفتيش على بطاقات الإقامة، والقبض على من لا يحملها فورا، وإرساله لأقسام الشرطة ومعسكرات الجيش تمهيدا للترحيل .

ازدحمت الطرقات واكتظت خطوط السير وعندما تتوقف السيارات تماما، وتنتقل تلك العبارة السحرية والمثيرة للفزع.. الشرطة.. يداهم الرعب جماعات العمال المصريين ويعصف بهم وتبدأ الوجوه فى الاصفرار والترقب لما سوف يأتى به المجهول، وكلما تقدمت السيارة قليلا وسط الزحام، خطت نحو فوهة المصير، وأحكم الحصار.. وفى موخرات السيارات البيك آب يدور حديث هامس:

- قلت لك نمشى بكرامتنا.. قلت لى كل شىء يتصلح .

- اعمل ايه حد كان متصور.. دى حكومات بنت كلب مفيش حد حاسس بينا ..

وتحل نظرات الإشفاق وعبارات الأسى من الآخرين .. عرب ليبين .

- غلابه يا مصريين .. غلابه !!

ويعاجله ليبى: ايش تبى هادى حكومات ..

ويجاوبه آخر وعلى وجهه ملامح الحزن والإحباط: لا كان هيك ليش تركوهم يعبروا الحدود اصلا .

- يا اخى بده يرجعهم بلادهم، فإذا ما يحسنوا حل ازمتهم الاقتصاديه بيصير هيك ضغط على السادات ..

ويرد مصرى عجوز بغضب مكبوت: احنا ما نضغط على السادات ومش ح نضغط عليه، فى بلادنا ح نلاقى اللقمه، فيه خير كتير .

فى اللحظة التى حاول فيها سائق إحدى سيارات البيك آب، الفرار إشفاقا على حمولته، وعلى الأضرار التى ستصيب شركته من جراء ترحيل العمالة المصرية عائدا صوب الاتجاه المعاكس، عاجلته صيحة حادة منعته من استكمال ما بدأ.. وقد قطعت عليه السيارات الخلفية مسافة العودة . لحظتها يضج الطريق بأبواق النفير، ويغمر السائق عرق غزير، والضباط تنظر نحوه شذرا.. شيئا فشيئا توقفت أمام حاجز الشرطة.. فى الخلف برزت وجوه الجنود المدججين بالسلاح: هيا أنزل يا فوال. أنزل، عدى غادى .

شاهد عبدالله وهو قابع على سطح ناقلة الجنود ، الجنود يدفعونهم بعنف مكشرين عن أنيابهم كذئاب تدفع بالشياه للمصيدة ، والمتسللين يحاولون الفرار فى ذعر كأفراخ تتساقط من فوهة الأقفاص، سمع أحدهم يتساءل وهو يتلفت برأسه يمنه ويسرى : فيه ايه يا افندى ؟

دفعه أحدهم بكعب بندقيته فى مؤخرة كتفه الأيسر، فسقط متعثرا، قام يجرى ناحية الناقلات المتراصة فوق الأرصفة وفى داخل السيارة قال لأحدهم: معاى بطاقة عمل، اتفضل سيادتك .

– غادى .. عدى غادى والا بحق النبى نقطعها . .

كشف غطاء السيارة عن الشمس، وظهور العمال تقفز فى سرعة إلى أسطح الناقلات، وعلى صفحة السناكى كانت الشمس تبرق بأشعتها الملتهبة ، وخلفها كانت تمتد سماء لا حدود لها، ضم حقائبه فى يده مرتكزا بجذعه على كراسى الناقلات الخشبية، والبقية تدافعوا على أرضية الشاحنة، وجه شاب شامى.. لمح فى عينيه الشفقة، شعر بالحنق يغمره، مد قدميه يرتكن على الباب الخلفى لمؤخرة السيارة، وتعلق بيده اليسرى فى هيكلها المصنوع من مواسير الصلب .

فى لحظة لمح كعب بندقية آلية يأتيه صوب جبهته، رفع كلتا يديه بشكل غريزى يحمى رأسه منحنيا لأسفل كى يتجنب هجوم أحد جنود الحراسة الليبيين، قام وهو يتساءل كيف ينفذ بجسده من المطاردة، كانت ثلة من الجنود تصيح فيه بعنف أن يهبط من الناقلة، دفعوه إلى طابور آخر طويل من آلاف المتسللين، جلسوا فى ساحة أحد المعسكرات، تواردت آلاف الأشياء ، وتواردت آلاف أخرى، وخلف غابة الذاكرة نما وتشعب ظلام مجهول بقوة لا تبقى ما عداها، وسط عدوانية تحاصره، وعودة مذلة مهينة إلى الوطن، وقد مسحت بكرامته الأرض وسط الهلع من كعوب الأحذيه، والبنادق المتحفزة وسيل الشتائم والسباب، ونظرات الكراهية المغلفة بالقوة والعنف، ود لو يقول: كنت يوما رقيبا أول بكتائب المدفعية الصاروخية، حاربت على مدافع الـ ١٠٠مم المضاد للطائرات، وأنى أمسكت بكلتا يدى مدافع الشيلكا ذات الأربعة آلاف طلقة فى الدقيقة وليس مجرد مدفع رشاش صغير كالذى تختبئون خلفه، ود لو يقول.. أننى واجهت الطيران الإسرائيلى المسلح بأعتى الأسلحة الهجومية فى العالم، وإنى أنا واجهت على مدى ست سنوات متواصلة القصف المتواصل لطائرات الفانتوم، والميراج، السكاى هوك.. لكن .. !!

فكر وهو يشاهد أقرانه من المتسللين المقبوض عليهم.. كل هؤلاء حاربوا بجوارك يا ابن

عبد الجليل، لماذا يستسلم أبطال الحرب لضرب العصى باستكانة ..؟؟ .. ليه يستسلموا للاهانه ..؟ ليه الخوف مكلبش فى الصدور ..؟؟ ليه تفيض الوجوه بالذل والمهانه ..؟؟ .. رغبه فى النجاه بالحياه.. وسيله للبقاء.. مين اللى قال ان التذلل والخضوع للغير تمسك بالحياه ؟؟ .. وايه معنى عزة النفس ؟ .. عار.. عار يا وطن.. الخضوع والمذله عار.. الآن لا ارى سوى قطيع من الشياه.. لا ارى بطلا يقاوم عصى الرعاه.. ياه.. مسكين يا ابن عبد الجليل.. ملعون اللى يكون مريض بالوهم.. من يوم ما غادرت الوطن ولا ترى سوى قطعان من الغنم.. غنم ..غنم.. غنم.. كل ما اراه بشر مطبوع على هيئة غنم.. غنم بيرعى فى مراعى الخوف.. غنم بيرعى فى مراعى الخوف والهلع.. قطعان بترعى فى طريقها للمسالخ..

لا ارى امامى سوى قطيع من شياه.. شياه مصابه بالجرب تساق.. تلقى عبر الحدود، كما سيقت للحرب من قبل.. الآن يومض الذهن.. تومض الاسباب كالبرق .. امتى كنا نعامل فى بلادنا معاملة البشر؟ امتى كنا فى بلادنا احرار؟؟ امتى كان الطغاه يعاملونا باحترام، لم يرانا المسئولين عن البلاد إلا هوام، حشرات يلزم التخلص منها.. طول عمرنا كنا مطايا فى الوطن، حتى المغامره بالحرب.. ادخلونا اليها مثل القطيع.. حرب هدفها موطىء قدم على الضفه الاخرى ثم رفع رايات السلام والجلوس على مائدة المفاوضات والاعتراف.. حرب لازم ينتهوا منها باى شكل واى ثمن.. لأنها اصبحت عقبه.. حائل مثل سور الصين العظيم، يقف بينهم وبين الغنائم.. واى الغنائم استلزمت المخاطره.. اقتسام الوطن ..

-٣-

فى المعسكر الرئيسى، وقف ضابط ليبى امام جمع غفير من المتسللين مفسرا سلوك الحكومة الليبية ومبديا اعتذارا :

- سامحونى إذا بقول هَك.. نحنا خوت.. لكن لما صار السادات يحشد الجيوش على الحدود الليبيه، صار واجبا علينا نفكر.. ترى فيه نصف مليون مصرى فى ليبيا، وكلهم شباب خاض الحرب، وسبق تجنيدهم بالجيش المصرى، والشعب الليبى باكمله اثنين مليون، هذا ما يهم، لكن إذا كان نية الحكومه المصريه خوض الحرب ضد ليبيا، صار يمكنها إرسال آلاف الجنود، مثلا.. مئتا ألف ضابط وعسكرى يتسللون عبر الحدود تحت ستار عمال أو شنو، هذا بالله عليكم يؤثر على أمن البلاد .. والسادات صار يهددنا وينقل الجيش المصرى من جبهة قناه السويس إلى الحدود الليبيه.. سامحونا.. أنا نقول إحنا ما نستغنى عنكم ونحن خوت ، لكن هذه مسئوليه يتحملها السادات وحده.. كان عليه أن يفكر فى شعبه هنا.. وأشار نحوهم ، وهو يقدم خدماته الخاصه للأمريكان..

الحياه والموت .. الوطن وعزة النفس.. ليس ثمة فرق.. الدوي الذي غطي سماءالجبهة معلنا بدء الحرب.. المدفعية المصرية الثقيلة والصاروخية تفتح براكينها، ملقية بحممها شرق

القناه، وخلفها مليون جندى مصرى يتحرقون شوقا لاستعادة الأرض المغتصبة.. جنود لواء المدفعية الصاروخية المضادة للطائرات، تستعد للتقدم فى تشكيل من كتائب صواريخ سام٦ المتحركة، والوحدات المساندة لمقدمة الجبهة ارتقابا لتطوير الهجوم.. فى هذه المرة عمل وطاقمه على إحدى وحدات مدافع الشيلكا، العاملة ضمن كتائب الصواريخ بعد تزكية مباشرة من قائد اللواء ..

.. هل سيرحلونهم إلى الحدود ؟؟ .. فليكن برفق كما سمحوا لهم بالدخول، من يعارض حقوقهم السياديه.. لكن هل يتعين والحال هكذا الحديث عن وحده عربيه ..؟ صاح أحد المتسللين: الشنط .. الهدوم يا عالم.. فلوسنا.. ستمائة دينار ، حرام والله عرق الشهور .

السكون يقطعه ضجيج الناقلات الأولى التى بدأت فى التحرك، وأمامه كان لا يزال طابور العمال طويلا وقد امتلأت حدقات عيونهم بالذعر، لم يبق أمامه على صعود الشاحنه سوى عشرة أفراد.. تساءل عجوز بصوت واطىء عندما رأى الشاحنات فى التحرك: هو احنا ح ناخد هدومنا وأغراضنا، ولا ايه يا حضرة الصول ؟

أجاب بعنجهية: تخرف يا مصرى توا تحمل فيك السيارات للسلوم.

قبل أن يصعد ظهر الشاحنة مال العجوز ناحية ضباط برتبة نقيب وسقط على قدميه يبكى: والنبى يا سعادة البيه، هدومى وهدوم العيال، ينصر دينك ودين الاسلام. راتبى لسه ما اخدته، عرق ست شهور، ربنا يطول فى عمر معمر يا شيخ، عندى عيال لسه بتتربى وبنات عايز اجوزها، انا امشى على السلوم طوالى بس اغراضى .

ركله الضابط بعيدا عنه كعلقة . لكنه عاد إليه يرجوه: دا احنا كلنا عرب .. استقام واقفا وهو يهتف بطريقة مدهشة.. يعيش معمر القذافى بطل العرب .. يعيش العقيد بطل العروبه .. عاد يحاول إثارة عطف الجنود: يعيش الامين .. انا ورب العزه اشتريت هدمتين ومسجل، ولى راتب تلات شهور عند الحاج بو صالح عبد المجيد الله يرضى عليك.

دفعه الجنود بشراسه وهو يقاوم صارخا. تذكرته .. كان عم دسوقى الجزمجى الذى رافقنا عبر الحدود .!!

– انتم عرب، ست شهور اشتغل زى الطاحونه، مين يقبل على نفسه الحرام، تاخدوا خيرى يا سلام، ساعة زمن وارجع يا ناس ..

قال له الرقيب متلطفا: يا أخ كل درهم لك تأخذه، ما تغادر البلاد قبل ما تحصل أغراضك، باهى، ما تخاف .

تراجع الرجل وهو يفهق واختفى فى مقدمة الشاحنة .. عندما جاء دوره تعثر وانفتحت إحدى الحقائب البلاستيكية، مال يجمعها دفعه جندى للأمام. حاول أن يتقيه، فظن الجندى أن عبدالله يهاجمه، فعاد وبكل قوته يضربه فى فخذه الأيمن، أرتج وكأن الجندى قد شعر بالإهانة لخوف غير منطقى فعاد وضربه بكل قوته فى البطن .

.. آهه .. تلوى فى الفضاء الفسيح، وخبأ رأسه للأمام والخلف، وفى الهواء تناثرت خصلات شعره الناعم الغزير، لم تر عيناه سوى الوجوه الضيقة الصغيرة لبشر جفاة القلوب.

حمله الجنود وألقوا به على ظهر الشاحنة، وخلفه تدافعت أجساد، نشب عراك صغير، وتبودل السباب بين المتسللين حول أماكن الجلوس بالشاحنة، ارتفعت صيحة آمر القوة، صفق باب الشاحنة الخلفى بشدة، قفز جنديين مسلحين لمؤخرة السيارة تبادل السائق وبعض صغار الجنود صيحات زاعقة، صفق السائق بابه بشدة هو الآخر، كان هذا إيذانا بالتحرك .. تململت الشاحنة قليلا وهى تترك أسفلت الرصيف جانبا، دوى محرك الشاحنة التالية وهى تتقدم لاحتلال مكان الشاحنة الراحلة، عندما كبح السائق فرامل السيارة، كانت العجلات تدهس أغراض عبدالله ورفاق آخرين، تناثرت على الأسفلت، أز محرك الشاحنة والقافلة تبدأ فى التحرك، اهتزت الشاحنة لكثرة المطبات ، فارتطم كل منهم بالآخر . زمن قليل حتى خرجت مخلفة بنغازى وراءها، عندما انعطفت إلى الطريق الرئيسى، شاهد طابورا طويلا من شاحنات الجنود المحملة بالمتسللين المصريين تنهب الطريق باتجاه الحدود ..

حدق فى السماء .. ثمة طائر يأتى من جهة الشمال .. ونسائم تأتى من جهة البحر .. وسحابة تائهة .

الفصل الثالث والثلاثين

-١-

على رأس الكوبرى المتحرك الذى أقامه سلاح المهندسين عبر القناة فى ساعات محدودة، جلس صلاح عقل على رأس المعبر واضعا رأسه بين يدية مشدوها، منهمكا يتابع مرور الفرقة السابعة مشاة إلى الضفة الشرقية للقناة، تحت القصف المتواصل للمدفعية المصرية المتوسطة والثقيلة والصاروخية، والتى تهدر على طول الجبهة، مع أشعة السحر الأولى لصباح العاشر من أكتوبر، ناداه صوت فوق إحدى عربات مدافع الشيلكا المجنزرة، نظر باتجاه الصوت، كان عبدالله يناديه مشرق الوجه. وقد أطل بنصف جسده يشير إليه بفرح جنونى صارخا:

- الجيش عبر القناه، خليك قاعد عندك .

كان يهينه لعشرات المجادلات التى دارت بينهما، حول الحرب والبرجوازية والسادات والتدريبات العسكرية والأهداف السياسية للطبقة الحاكمة وانتهازيتها، عجزها عن الحرب وتوجهاتها إلى الغرب، العدو التاريخى، كان عبدالله يعاتبه حينا وحينا آخر يهاجمه.. الجبهة الداخلية لازم تكون سليمة، ليه الطلبة تخرج مظاهرات فى الشوارع؟ عايزين الحرب يحاربوا، حد منعهم، الميدان أمامهم، إيه اللى يعرفوه عن الحرب، الحرب يعرف عنها الناس الكبار، وكان صلاح يجادله عن النتائج الواضحة لسيطرة حكم المافيا الساداتى.. لا توجد مسأله أو قضية أكبر من العقل الإنسانى، مهما كان موقعه، بونابرت احتل القاهرة وعمره ثلاثين عاما، نحن لا نتكلم فى التفصيلات الفنية، نحن نتكلم عن السوق السوداء، عن التفاوت الطبقى، عن الحقوق الديمقراطية، عن العسكرية المحافظة حينا، والمهترئة حينا آخر.

فيجيبه عبدالله غاضبا.. إزاى..! واحنا هنا كل يوم نروح ضحايا، احنا بننتحر هنا تحت التدريب، الدانات لا تفرق بين عسكرى وضابط، وانت تقولى فكر عسكرى محافظ..

ويجيب صلاح مترددا: الفلاحين كانوا وقود الاستبداد، والجنود كانوا وقود المعارك، اما

القاده فلهم اكاليل الغار واقتسام الغنائم، افهم يا عبدالله، افهم ما تحرق قلبى، المشكله فى البناء الاجتماعى والسياسى للفكر العسكرى نفسه، اسهل شىء ان يضع النظام قائدا مثل عبدالحكيم عامر لتأمين الجيش من الثوره المضاده، فيتحول هو نفسه الى آداه لتدمير الامه، فى بدايه حرب ٦٧ هرب القاده الى منازلهم، تاركين جنودهم للهو الطيران المعادى، والثمن، الهزيمه المزريه فى ٦٧ وتدمير وجدان الوطن، فكر قليلا، وعبدالناصر يخوض حربا ضد الغرب، لماذا لم يتمكن من رؤية الخراب الذي عليه الجيش.. افهمنى.. عندما نهزم هزيمه ساحقه لا يتم اصلاح الجيش بالضبط والربط والتدريب على اداء الحرب فقط.. قرود.. حيوانات فى سيرك.. الطاعه العمياء والتكرار والتدريب على اداء عجين الفلاحه.. إذا اردت ان تنتصر على اعداء متفوقين فى الحرب.. تعامل مع شعبك بكونه بشرا.. وفرق البشر عن الحيوانات، هو ان الحيوانات تعيش طبقا للضروره، اما الانسان فيعيش طبقا لمبدأ الحريه.. فهل هذا شعب من الاحرار .. هل هؤلاء الجنود والضباط احرارا، لهذا لن تكون ثمة حرب.

ويرى عبدالله فى حديث صديقه منطقا غير مفهوما، ويجيبه بحماسة متحدثا عن مشاعره، وكأن الجيش بأكمله تحت قيادته: انتم بتكسروا الجبهه الداخليه، واحنا هنا بنموت، بتخرجوا فى مظاهرات تدمر البلد، تحرقوا المحلات، تنسحب بسببكم كتائب من الجبهه لحمايه القاهره، والروس بتوعك بيسلمونا سلاح قديم.. اسلحه دفاعيه.. نعمل ايه؟، اسرائيل قويه.. إذا طلينا من الخنادق اطاح القصف برؤسنا، وإذا اخفضناها تنحنى ظهورنا، نمضى اليوم منذ مطلع الفجر وحتى الغروب فى الخنادق البرميليه، حفر عرضها ٦٠سم وعمقها متر ونصف، تحت شمس الموت وقصف القنابل والاكل المعجون بالدم والتراب .

– يا عبدالله الجبهه صامته منذ مبادره روجرز، والسادات بيغازل الامريكان، انت بتدافع عن نفسك ولا عن السادات.

أجاب غاضبا: انتم بتلعبوا مع البنات فى الجامعه.

– انت حمار بهيم، عمرك ما ح تفهم، فلاح فى عالم ما عاد فيه فلاحين، البنات دول اشرف من اللى شوهوا عقلك اللئيم، صحيح ما جدوى بقاء الفلاحين فى الارض.. ؟

الآن يشير إليه ها هو الجيش يعبر القناة.. كان يريد أن يقول له كيف لى أن أعلم أن البرجوازية المصرية لها ألف روح، وأنها تغير جلدها كما الحرباء.. كان يريد أن يصرخ قائلا: لقد فوجئت .. اكتفى بالتطلع إليه وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة صفراء باهتة ، وعبدالله يشدد عليه النكير وكأنه قصاص خاص، قصاص شرقى.

– علشان تتظاهروا فى القاهره

قال بعصبية: احنا اللى طالبنا بالحرب واجبرنا النظام على خوضها.

صاح به من منتصف الجسرك: تبا لك ولاشتراكيتك الهزيله.

سار مجروحا بضع خطوات وقد تفجر به الغضب:

– وانت.. يا منحوس سلم رقبتك للصوص..

سمعه جيدا .. لكنه فكر .. هذا أمر آخر .. عاجله قائلا:

– نتقابل عند المضيق.

طوال يومى ١٢و١٣أكتوبر، كان عليه أن يقاتل دفاعا عن اللواء١١ مشاة ميكانيكى، الذى كان ينفذ تعليمات تطوير الهجوم الذى بدأ منذ الساعة ٦صباحا، طبقا لتعليمات غير دقيقة.. إذ أن أوامر القيادة بتأجيل الهجوم ٢٤ساعة لم تصله ، فانطلق يقاتل وحده.

-٢-

.. ولم تأت المضايق ..

لم تأت المضايق، طوال يوم ١٢أكتوبر، هوجمت الكتائب الصاروخية التسعة للواء، بأسراب من طائرات الفانتوم والميراج فى أمواج لا تنتهى، سحابات من الجراد تنشر فى الفضاء ملاك الموت والدمار، دانات المدفعية الثقيلة من عيار ١٧٥مم تمشط الأرض شبرا شبرا، القنابل الفسفورية، قذائف المدرعات الثقيلة، النار من كل صنوف الأسلحة.. صراخ.. أنين.. قتلى.. أشلاء فى كل مكان، أطراف مبعثرة.. وجوه الجرحى، أنينها، صراخها يطلب المعاونة، وسط انفجارات قنابل الألف رطل ، الألم يحز فى أعصابك مشارط حادة.. ضجيج ونيران، دخان ولهب، سحابات الغبار، ينعدم السمع، ويحل السكون.

خلال يوم واحد أصيبت ستة كتائب صواريخ، وأبطلت فاعليتها، ولم تتمكن قوات الجيش الثالث من تأمين قوات الدفاع الجوى المتقدمة ولم تقدم القوات الجوية الدعم اللازم..!! وتبقى تكتكات أجهزة اللاسلكى وصوت اللواء الغمرى..

– انا فى اشد الحاجه للدعم.. انا بانضرب بكل انواع الاسلحه .

– ايوه.. محتاج بسرعه لدعم جوى او حمايه ارضيه..

– انا فين. . دا كلام .. هو انا خروف وتاه..

– معقول تكون دى معلومات القياده ..! انا على الضفه الشرقيه ..

– عبرت امبارح..

– ليه .. موقعى !!

– لأ مش على مزاجى يا سيادة اللواء.. تعليماتكم .. تعليمات بدء تطوير الهجوم وصلت الفرقه امبارح ..

– اتأخر ٢٤ ساعه ازاى .. ازاى ماتوصلنيش تعليمات تأجيل الهجوم، هو انا واخد لواء صواريخ، ورايح اتفسح بيه على النيل.. انا خسرت حتى اللحظه ست كتائب صواريخ .

– عايز ايه؟.. عايز حمايه جويه .. عايز القوات البريه تحمينى. هو احنا بس ندوق السم علشان نحمى قوات الجيش عند العبور ولما نحتاج الحمايه نتنسى.. لواء صواريخ يتنسى، هو انا عربيه كارو ..

– انسحب ليه؟

– ..! طبعا.. يجب ان تقاتل القوات جنبا الى جنب.. سانسحب .. يا عادل اعط القوات امر الانسحاب..

.. جاءه صوت قائده عبر اللاسلكى.

- انسحب.
- ايوه يا افندم .
- انسحب يا رقيب عبدالله.
- ازاى يا افندم.
- احنا جينا غلط .. الهجوم اتأجل.
- تمام يا افندم ..

لم يفهم طبيعة ما يجرى.. كانت الكتائب الصواريخ وسرايا الدفاع الجوى تتراجع بجوار اللواء الحادى عشر ميكانيكى، الذى كان يتراجع هو الآخر بعد أن وصلته أوامر الانسحاب، وقد أصيب بخسائر بالغة ..

انسحب يا ابن عبدالجليل .. اصرخ فى الرجال.. يلا يا رجاله.. لموا المدافع .. علقوها فى عربات الجر. اوع حد فيكم يخاف.. اوع اشوف رعشه قلق .. نط ياوله على ظهر الناقلات ، فيه جريح .. احملوا الجثث .. اجمعوا سلاسل الموت من على رقاب الرفاق .. اوع اشوف بكا على الصحاب .. دول اصبحوا شهداء فى رحاب الله والوطن ..

* * * *

على معبر الكوبرى شاهد صلاح عقل يقوم بأعمال الصيانة لم يحادثه، بل أدار وجهه للناحية الأخرى .. كان يشعر بالكراهية له ..

كانت الساعة السادسة والنصف من صباح ١٤ أكتوبر ايذانا ببدء تطوير الهجوم، وقبل أن تلتقط الكتيبة أنفاسها جاءت الأوامر بالاستعداد للهجوم، لم ينطق أحد ببنت شفة .. وعلى طول الجبهة كانت المدرعات المصرية تقوم بشن هجومها الحاسم .. وحتى منتصف النهار لم يكن قائد اللواء قد استطاع تجهيز قواته للهجوم، وفى انتظار تجهيز القوات كانت كتائب الصواريخ المتحركة تتحرق شوقا للمشاركة، جاءته الأوامر بإلغاء الهجوم، والتعليمات تنتقل للجنود محاطة بالإحباط والوجوم، لقد ضاع الوقت نتيجة تخبط القيادة .. لم تلبث الأخبار والأشاعات غير القابلة للتصديق أن تنامت .. لقد أصيبت القوات المدرعة المصرية بهزيمة مريرة .. وعلى المدافع والآليات حام الجنود بقلق حول أجهزة اللاسلكى يتنسمون الأنباء .. صيحات الغضب .. وأحاديث الضباط.

- كيف يصبح الاحتياطى الاستراتيجى فى المقدمه ..
- لقد وزعت الوية المدرعات على فرق المشاه
- تحولت الى مدافع ثابته، فقدت القدره على الحركه منذ البدايه .
- القاده يخوضون الحرب بالمقلوب ..

- يخوضون حرب الحركه بعقليه الثبات .
- من فعل ذلك
- الخوف .. فقر الخيال .. النمطيه .. انعدام الحريه
. صوت يصرخ فى اللاسلكى بلهجة آمرة :
- المجنبه .. القتال على .. احمى المجنبات يا غبى ..
- ليس ثمة مجنبه .. نحن فى حاجه للاستطلاع .. انهم ينتظروننا اينما نذهب .
- .. اين ..؟ لا اعرف .. يا افندم، انا في حاجه ماسه لدعم جوي.. مش ضرورى يقاتلوا معنا .. محتاج استطلاع.. انا بحارب فى الظلام.
- ارسل سريه استطلاع.
- استطلاع جوى .. بدونه مستحيل ..

أجابه صراخ: ابعث سريه للاستطلاع الارضى .. اتصرف يا سيادة العميد .. تقدم ولا تنتظر

- ليس ثمة مناورات .. ليس ثمة خدع، ما ان نخرج حتى نضطر لفتح النيران، العدو متمكن من الارض ..
- متمكن من اى ارض يا افندم. ؟
- من الارض يا افندم .. من الارض بالمفهوم العسكرى.
- قاتل على المجنبات.
- كيف وقد امتلكها .. نحن نتحرك فى ارض المعركه على الطريق الاسفلتى الموازي للقناه مثل البط الاعمى.

- يا حضرة الضابط اتحرك .. انت واقف مكانك ليه؟ دى حرب حركه يا غبى .
- بالضبط حرب حركه يا افندم .. بس هم .. حولونا لاهداف ثابته.. هى دى المشكله اللى م حدش فاهمها.
- بدل ما ترد وتناقش الاوامر انزل من دبابتك وشوف اللى قدامك.

بدا وأن صوتا قد تدخل على موجة لواء الدبابات: كفايه بقى.. ازاى تعطى امر لضابط كدرعات بمغادره دبابته .. لسه بتبيعوا جبنه ؟

- .. اسمك ايه .. ادينى اسمك يا افندى ، وجهز نفسك لمحاكمه عسكريه .. لم يجاوبة أحد إذ توقف الجهاز عن البث ..

-٢-

ماتيلدا العجوز المريضة بالنظافة تعبر دروب السدود، جسدها المحدودب، ذيلها المرفوع حتى لا يلوثه تراب ووحل الطرقات ، يطاردها الصغار بصخب، يبصق أحدهم فتتراجع مذعورة، ويمخط أخر فتصرخ لاعنة، والراشدون لاهون عنها تاركين الصغار يضيقون الخناق على حصرها النفسى ، ما كانت تستطيع الهرب، كيف .. ؟ وبواب القرية، تتزاحم فى الطرقات وتشيع فى الفضاء رائحة روثها الدافىء تتخاطفه نساء وشابات صغيرات بأيديهم العارية، يختلط الروث بلون الحناء ..

هيت لك.. ما أجملك.. شهاب هوى، والهوى والعشق صنو لك، كل شىء فى السماء منظوم فى الفلك، وعلى الأرض تعبث الأقدار، رحمتك.. يا ابن أبى، ما أبأسك.. تغتصب ما ليس لك، وتلقى بى لحياة ضنك، أي عبدالرحيم وزوجتك، هذه الدبق، قلبها الأجوف ليس به مكان لأحد، ونعمات بئر كراهيه ، يا ابن عبد الجليل هيت لك، شهاب يهوى والعشق موت لك، مات حيا من بقى فى داره فقيرا، وتاه من خرج، بعجاج الرياح هلك، ما أبأسك.. فى زمن ليس لك، لا الفتوحات القديمه ولا عدل الخطاب دال لك، ألا أيها الليل الطويل تبا لك، تبا لك ولصباحك المزبله الذى غافلك وولى ولم يعد لك .. تبا لك ولأحلامك المضعضعه، والعمر يمضى بلا مرجعه، لا تونس الخضراء فتحت أسوارها، ولا ظهر العنقاء انحنى، ما أغباك.. ما أعمى بصيرتك، الحياة طنين ذبابه، وأنت خفاش يهوم فى هوامه، دوده قبيحه عقيمه ، ما أجهلك ، تبا لك ولأحلامك المضعضعه ولعقلك النباتى.

ألا أيها الليل الطويل.. تبا لك .. تبا لك ولصباحك المزبله .

-٣-

بين مدينة البردية ومساعد اعترض "القول" عربتا جيب عسكريتان، نزل ضابط برتبة رائد وأوقف الناقلات بعصبية وأمر سائقها أن تتحول جهة الجنوب .. تصادمت الأجساد بعنف .. لماذا تغير الشاحنات من اتجاهها؟ ربما سيلقون بنا على حدود السلوم مباشرة.. ربما هنا على الطريق .. ربما سيتعين علينا أن نرحل على الأقدام، كيف ومعنا حقائبنا.؟!

فتحت أبواب الشاحنات الخلفية، نادتهم الأصوات الآمرة بالنزول فتساقطوا فوق بعضهم، حاملين حقائب، يتجمعون فى دوائر صغيرة، وعندما أفرغت الشاحنات حمولتها، حدثهم رقيب بجفاء: هسه تريحوا من السفر نبى هون شوية عمل.

الفصل الرابع والثلاثين

-١-

آز الكريك وضربة الحجارى.. كيف احكى عن اللى فى جوفى، ومين يطفى فى نارى.. بس لو اعرف.. ولا صنف حد قالى.. رمز فى حلم.. هزه فى كابوس.. علامه من علامات السما.. اشاره تنبهنى ان الموت حفره بعمق متر فى بطن الجبل.. احفر .. احفر يا ابن عبد الجليل.. احفر قبرك بايدك واسمع لصوت الأزمه والكريك.. تشيك تشاك.. بوم به.. اسمع الصوت ده .. احفظه وغنيه وانت بترفع بفم الباله كسر الصخور، دقشوم حجر.. لحنه وغنيه.. وانت بتجرى فوق سل صبار البرارى طريده بين الجبال.. آه.. آهه.. آهه يا ابن عبدالجليل.. ازعق.. اصرخ فى الفلا.. ان بانين الالم.. بوجع انحناء الظهر تحت كرابيج السخره ومساخر الزمن.. مين يجيب الكتب ويقرا.. لما قرينا فى المدارس ان تاريخ العبوديه لولادك يا مصر انتهى..

آز الكريك وضربة الحجارى.. كيف احكى عن اللى فى جوفى، ومين يطفى فى نارى.. ازعق.. اصرخ فى الفلا.. ان بانين الالم.. اسبح فى لحنه ونوح بالغنا مثل فتحى سليمان الشاعر، لما يغنى للهلاليه، ابو زيد ويونس ومرعى ودياب بن غانم، رزق بن نايل وخضره الشريفه، الملك حسان وشامه، وشرع الرماح على رؤوس اللئامه، انزل اتمدد فى خندق الحفر الطويل، عرض جثتك لا يزيد، اما الطول طويل، اطول تابوت للكريم، ابن الاصول عبدالله عبدالجليل رزق، يا فرحة امك بيك، تابوت من حجر صوان، تضرب الأزمه فيه، ترد فى درعاتك كما صدى الصلب لما يندق فى الصلب الصمم، ترتج دفقات ضغط الكمبروسر فى عظمك، كما تدك عجلات القطر قضبانه، ينحل وسطك، تنخلع كل حته فى جتتك، ينسلخ عظمك، مثل الكلاب الجيفه مرميه على اجناب الطرق.. يا هم غربتك، بينك وبين ارض الوطن، جنود، وقبعات، وهراوات، واقنعه، وصفوف من المدرعات، هزيع من الليل وانت هنا فى معسكر السخره اسير.. على مرمى البصر يم الجنوب متاهة الصحراء طيات من سهوب

صفرا، وديان من الجفاف، مكسيه شوك صبار.. فى الشمال وحتى حد السما تمتد امواج من بحار العطش ، وانت بينهم واقف ضئيل، غريب على ظهر الجبال المستوحشه، اطّلَعْ وراك .. تكنات الجنود مخازن النخيره، فى البعيد الاسطح الواطئه لمدينتى مساعد والسلوم.. وصفوف من الاسلاك الشائكه.. ارث نفسك بنفسك.. ارم بها فى تابوتك الطويل واستريح راحة الموت الاخيره، او ان خط الميه هذا اهم من روحك، من ابنك الذى لم ير النور بعد.. وإذا يا حمار يا ابن الحمار كيف يعطوك حفره للموت قبل ما تمد الميه لمعسكراتهم.

آز الكريك وضربة الحجارى. .كيف احكى عن اللى فى جوفى، ومين يولع نارى.. لو كان حد نبهنى.. بس مين يقدر والكل قدامك غنم مطبوع على هيئة بشر.. غنم بترعى فى مراعى الحجر.. تكسره .. تشق فيه خطوط المياه لاجل الغير ما يزرع.. يفرش صحراء الجدب خضره .. يبنى عمارات.. تنكات للمياه.. معسكرات للجيش

.. ويلاه .. هذا اللى فى الكتب، حقيقه ام خيال، كذب ام انه المحال، لما قرينا فى المدارس ان تاريخ العبوديه لولادك يا مصر انتهى.

انصت.. هدير المحركات.. شاحنات الجيش تدخل باب المعسكر.. يا ترى الشحنه ايه؟

من أول "القول" هبط ملازم وخلفه ضباط الصف يصيحون، وهم يندفعون إلى مؤخرات الشاحنات.

– هيا هيا انزلوا غادى..

– كنك هناك.. شنو تبى العرص ..تختفى.. !! توا نجيبك من قفاك..

– هيا .. هيا يا فواله.. صفين قدامى يا تيوس..

هز رأسه غاضبا وأمامه كان مئات من المصريين يتساقطون على الأرض من مؤخرات الشاحنات، حاملين أمتعتهم القليلة، يتخبط كل منهم فى الآخر، مذعورين مرعوبين مثل قطيع من النعاج تعتورها الذئاب من كل جانب.. عاد المساعد يملؤه سخط جارف لاعنا فى صخب:

– ربى الشيطان ما ينفع غير ضرب القوايش يا حثالة الكلاب ..

واندفع خالعا القايش .. دوائر صنعتها سياط العسكر فى الهواء.. على مماساتها تراجعت قطعان العمال فى فوضى وهلع تطلب الهرب .. على الحواف تساقطوا متعثرين فى جلاليبهم المهلهلة، وألى الخلف استدار البقية فى هرج واندفاع يتقاتلون طالبين النجاة.. وعلى الأرض تناثرت أجهزة تليفزيون، مسجلات، ملابس قديمة رخيصة، تحت قدميه كانت الضحايا تتوسل اليه، تطلب الرحمة فتزيد شهوته للعنف والقسوة .. جذبه الملازم الشاب غاضبا: كنك تشبح فيهم.. هيا غادى ..

نادى عليهم : يامصرية.. يومين وتعدوا غادى لبلادكم.. سامحونا.. نبى ننهى خط المياه هذاك. وبعدها تعدوا لدياركم والعويلة.. الله غالب شنو نسوى.. صفوا صفين بيش نوزع التعيين.

الألم فى الفخد يروح ويجى.. يختفى كما تختفى القطارات، ويعود كما تعود بضجيجها.. اخص على الرجال.. مين يقول السبب.. هى دى ارض العرب.. ؟ يجمعونا بالالوف.. يشحنونا فى الشاحنات وقبل ما تقلبنا القلابات على الحدود مثل البهايم، تميل بينا يم الجنوب.. وماله يومين سخرة.. هذا الليل الطويل ، مين يحسب؟ و مين بالجارى دارى؟

غنى.. غنى لحن الموت.. غنى عَلْ الالم فى الساق يغيب فى النسيان.. ان بأنين الالم.. بمساخر الزمن.. آه يا ابن عبد الجليل، الطريق الى تنكات المياه لايزال بعيد.. اشعة الشمس تحرق الدماغ مثل فحم المناقد.. ميه.. شوية شاى يا خلق.. امتى يوزعوا الجراية.. رغيف من عيشهم الزفت.. وعوم يا ابن عبدالجليل فى بحور الفاصوليا وآزان المعكرونة بالهريسة، تقول جدايل السفيرة عزيزة.

.. الصول ابتعد عنك.. ارمى الفاس وانصب ظهرك التعب.. امسح عن جبينك بحر العرق المهدور رخيص.. وقعت يا ابن الناس فى مصيدة، قسوة الوطن وتحكم الاعراب.. انظر امامك المئات من الوطن مبدورين فى الفضا.. صبار ينبت على ظهر الصخر.. حرس بلا كرابيج، كفايه سيارات الجيب العسكريه والبنادق الآليه ..

- كتك.. يا مصرى.!! تبى تروح .. خلص الحفر هذا اليوم واحنا نترك فيك تروح مصر.. الفول غادى واجد .. تراك مشتاق له.. هاها.. سمع عبدالله كلمات الرقيب بدهشه.. تابعه والغضب يصعد فى دمه.. نظر فى خط الحفر الطويل.. صرخ : يا حضرة الصول.. يا حضرة الصول.. يا اخ .. استدار الرجل نحوه يتفحصه بعينيه الضيقتين فى استهانة : لحظه لو تفضلت.. انا.. انا ما نحفرش فى التنكات.. انا نحفر فى خط الميه..

- وايش تبى؟

- بحق جاه النبى يعنى فاضل كام متر وارحل..

أشاح بيده: ترحل .. ؟؟

قالها بكل ما فى منطقه من عبث اللحظة، هز المساعد راسه فى ضجر.. قال بجدية وهو يستدير مبتعدا: خمسين متر .. باهى ..

قفز عبدالله خارج الحفر يجرى خلف الرقيب بجنون: خمسين متر!؟ ده ولا خمسة شهور.. ده حجر صوان .. اخلصهم ازاى.. ؟

لم يأبه به الرقيب ، عندما بلغه جذبه من كتفه فاستدار الرقيب يشتاط غضبا.. لم يمهله عبدالله الحديث: انت عارف بتقول ايه.. عايز تموتنى ، هات كمبروسر، هات حفار، إذا عايز تموتنى موتنى وخلاص .

صرخ الرقيب: كيف تمد ايدك على.. !! هادى تهمه.. توا أنا نحطك فى السجن، نضربك بالنار..

انتابته هستيريا: ليه.. !! انت مين .. موسى ديان.. دياب بن غانم.. كلنا كنا فى الجيش وعارفين ونعرف عن الجيش اكثر من اللى يعرفه عشره زيك.. واستطرد صارخا: هو احنا يهود .. دا احنا عرب يا عالم.. فين العقيد اكلمه .. خدونى له.. حطونى فى السجن.. ح تموتونى.. ما احنا فى موت.. بندوقه من ساعة ما دخلنا الهبابه دي.. انتم فاكرينا ايه.. حيوانات.. بهايم.. دا احنا ولاد ناس، مش عبيد..

توقف العمل تماما فى المعسكر.. شاهد العمال المصريين الجنود الليبيين يحيطون به دون أذى، وجميعهم يطيب خاطره: انت تصدق هذا، نحن نقول المصريه يفهموا، خذ، خذ السجاره هاذى، هيا يا راجل.

– خذ الشاى هاذا.. أكلت.. باهى.. حَضرْ له الطعام.. اقعد اتريح، كل واشرب شاى، ودخن سيجاره، روق

دمدم غاضبا: قالوا ليبيا ارض العرب، لكم فيها رزق جينا.. غلطتنا.. نرجع بلادنا.. الانسان لما يغلط بيعدموه..؟ ابدا يعاقبوه.. واحنا اتعاقبنا كتير، غلطه نصلحها، واصلاح الخطأ ازاله له.. تمام.

– يا اخى احفر اللى تحفره، وبكره روح غادى مصر.. شو نسوى ، كيف نحفر الخزانات هاذى بعد طرد المصريه..

صرخ بجنون: تقوموا تشغلونا سخره.. !! تطرودونا ليه لما انتم عايزنّا، ما احنا كنا قاعدين.

– ظهر على وجه الجنود الليبيين الحيرة.. قال أحدهم بتفكه ما ندرى يا أخى.. ما ندرى.. ترى تركككم خساره.. توا اترنح عندك.. كل.. اشرب شاى خذ علبة السجاير هادى منى أنا، واشتغل كيف ما تبى، وبكره تعدى للعويله.. ما تخاف.. باهى.؟ إنت شو اسمك..

.. اشتغل وانحنى اكثر لاجل ما يعدى هذا النهار الثقيل بدون اهانه، يصبح صباح الليل البهيم تعود لاهلك.. لسه ما كملت بنا دارك.. زمان المبروك عدى الحدود بالعشيه.. اليوم يكون فى مرسى مطروح عند الحاج حسن ياخذ فلوسه، ويكون آخر النهار نايم وسط اهله.. صوت البلدوزر اللعين.. سحابة الغبار الكثيف.. الوجع فى الساق ينهش كنهش الدياب.. قاع الخندق.. الحجر الجيرى الرطب.. لا احد يراك.. اتمدد تريح شويه.. اغفى، فى النوم ربما تجد الهرب.

–٢–

بعد منتصف الليل استيقظ على صوت نداءات الحرس.. السكون وأزيز الحشرات .. همهمات الجنود تأتيه عن بعد.. أطل برأسه من خندق الحفر.. حدق النظر فى فراغ ساحه جمع الجنود .. الأضواء الشاحبة لثكنات الجنود.. لم يكن هناك ثمة أحد أمامه سوى الصمت، هناك ناحية الغرب داخل سياج كبير تجمع المئات من أقرانه، وقد تكومت أجسادهم، كل متشبث بأغراضه، مستغرقين فى النوم عميق.. فكر بأنهم قد يستبقونهم أسابيع.. أزعجته الفكرة .. الهرب .. الهرب فورا .. على مرمى البصر امتد الأسفلت على حافه الوديان العميقة ..

إيوه يا ابن عبدالجليل .. إذا بلغته .. عبرت نحو الجنوب.. دوره واسعه للجنوب .. نصف قوس باتجاه الشرق.. عشرين كيلو مترا وتصبح فى بر مصر. قفز هابطا فى نعومه الفهد، يعبر المنخفض الوادى ركضا، تسلل صاعدا إلى قمته.. غمر الطريق ضوء أحد المصابيح الكاشفة فتوارى منكمشا إلى الخلف، وأمامه تقدم قول كامل من ناقلات الجنود الليبية

باتجاه الحدود.. دقائق طويلة مرت قبل أن يعود الظلام، قفز إلى حافة الطريق، فتساقط خلفه سيل من الحجارة..

صرخ أحد جنود الحراسه: منو هناك ..؟

لم ينتظر، عبر الطريق زحفا ملقيا بنفسه إلى الناحية الأخرى منه.. لمحه أحد الحراس فنادى عليه بالتوقف وهو يمطره بوابل من الرصاص لكنه لم يأبه وانطلق يعدوا هابطا الناحية الأخرى من الوادى .. تدافع المصريين رعبا، تدخلوا كل فى لحم الآخر كالشياة المذعورة.. همس البعض .. ده الواد عبدالله .. عبدالله عبد الجليل رزق

.. ارع يا ابن عبد الجليل.. ارع يا بقره يا ابن البقره.. مراع مالها تحت السما حدود..

-٣-

انحدر الوادى بشدة يتلمس مواطىء قدميه فى الظلام، يتعثر فى اندفاعاته، هوى متدحرجا ككتلة حجرية، داهمه خوف غريزى محاولا التعلق بأى شىء .. قام يبسط ناظريه حوله.. يجب أن أصل للأراضى المنبسطه قبل الصباح..

إذا اردت ان تعبر هذا الليل.. اجرى بعزم الخيل .. اجرى كما تنهب الرياح البريه.. الهاويه تحت اطراف القدم.. اهتزاز القلب .. الرعب .. الارتجاف .. ببطء .. لا تنفعل زى ديك جربان ..

اكيد مبسوط يا عبدالرحيم يا اخوى.. لو تشوفنى الساعه .. الابتسامه الصفراء على وشك عرض فدان.. بلعت ارض ابوى .. يمكن لو اموت اريحك منى.. لو كان فى قلبك رحمه، كنت تاوتنى معاك على التلات فدادين اللى اتبقوا من ارض ابوك الله يجحمه، ولو ان الرحمه تجوز على الميتين.. يمكن لو يشوف حالى يصيبه الندم.. آه .. آه يا ابن المفحور.. سبحانك يارب.. العشب الاخضر ينبت فى قلب الصخر، وقلب البشر لا ينبت إلا الكراهيه .. اضحك يا رضوان يا ابن عمى.. السخريه تطل من سحابة عينيك.. اضحك واسخر كيفما شئت.. انت الملك.. سلطان على جزيرة الغياب، والانفراج فى عصر الغموض، وحل المشاكل بالطرب وأكاسير الملل.. انت وحدك مملكه.. مركب شراعها يلاطف الامواج السعيده باحلام النجوم.. تسبح فى تراخى الكسل للمبحرين على نهر الحشيش العظيم، وسندسه العسلى الجميل.. اضحك لا تخفى فى ضحكتك روح الشماته.. توا اجيلك ونقعد نحكى كتير، يقطر الفم منك سخريه ومرار.. تضحك القاعدين على.. كنت اعمل ايه .. تمنتاشر سنه وابوى ومن بعده المحروس ابنه الكبير راميني بره الدار.. لا تركونى اكمل فى علامي ولا ترك لى طين ازرعه.

- اشتغل نفر ميامه.

– عيب يا عبدالله.

– طب عيب ليه يا عبدالرحيم. ؟

يرد بوشه الكالح: الناس تقول ايه ما عندناش ارض ..!!

– دخلت الجيش وخرجت ما اتعلمت حرفه غير الرمايه على السما بالمدافع المضاده للطائرات.. وصيد الكواسر من الطيران المعادى.. اصير بطال..؟

– ليه ما انت خدت تعويض من الجيش؟

– طب دى ادعى انك تساعدنى.. رد لى نُص الفدان اللي ابوك مأخره للحاج عبد الودود.

– انت بتفتح علينا موال ما لهوش نهايه، دى غير الخساره.

– طب ازاى.. هى مصلحة اخوك خساره ..؟

– لأ.. بس يعنى ح تخلى ولاد الحاج عبده يطلبوا الفدان ونُص اللى لهم عندنا بالايجار.

.. الملعون عينه على مصلحته وبس ..

أمى تقول: اقعد انتظر فرج الله.

وانتظرت.. مصاب حرب وله اولوية التعيين الفورى.. اقرب مكان لمحل السكن وكارنيه لحظة ما يبرزه ينول ما يشتهيه على طول .. العمل مع لصوص الاسفلت.. اللعنة.. مش حرامى واحد.. عصابة.. مافيا .. شبكة واسعة عريضة تمتد من رئيس مجلس الادارة حتى الغفير .. اتاوات المرور.. لا تستبعد احد، افكار كما الشياطين.. وثراء غير محدود.. نهب منظم يفوق نهب الانجليز لمصر.. لأن فى هذا الوطن غير مسموح ان تقول الحق.. وان فعلت يتنصب كمين وخية وقضية، و انا اللى كنت فى يوم بطل من ابطال الحرب..

.. اضحك يا رضوان.. اضحكوا كلكم .. لما ح اوصل سدود، ونقعد سوا نحكى، المجلس ح يبقى كبير.. والضحك يطقطق النافوخ ..اضحك يا حسن خليل، اضحك يا اخويا شاكر .. انت فين دلوقت !! نفسى احكى لك .. انا كنت فاكر انى ولد.. لكن ولو.. نجاه استلمت باسمى التمنتاشر قيراط اللى خلصت حقهم الشتاء اللى فات، دلوقت تزرع بطاطس، فى الصباح لما اوصل مرسى مطروح، واقابل البيه الكبير الحاج حسن، واعطيه الورقه دى استلم مالى.. تسعة شهور عمل فى بلاد النفط .. اشترى الارض اللى فاضله من الفدان وعجله مع الجاموسه اللى فى الدار يتبقى خمسمائة جنيه اعمر بها الدار .. ثمن الجاموسه مع اللى باقى، اشترى التلاتشر قيراط اللى جنبهم بتوع الحاجه حافظه .. واضحك يا ابن عبدالرحيم.. اضحك يا رضوان اضحكوا.. كلكم.. تظنوا انى ح افشل.. لا.. والف لا.. صحيح هذا الليل صار طويل.. صحيح ما قيل عن اختفاء المدرعات ، لكنى ح اجعل لهذا الليل نهار .. انعطف إذن الى الممر الضيق الهابط لاسفل .. اضبط بقدميك الخطى ومس الارض مسا.. سابق الريح .. الآن يقل الانحدار تبلغ منطقة الهضاب فاعدو بكل سرعتك.. وارتدى ثوب الظلام حتى تبلغ الحدود مستترا، لا يكشف عنك نور الصباح للجنود، ولا تسقط فى فخاخ الموت لاولاد على ..آه .. تعثر القدم فى نتوءات الجبل.. اختلال التوازن.. الانكفاء على الوجه.. السقوط بعنف، ارتطام الجسد بالارض.. الاندفاع زحفا..

صدمة الراس فى الصخر .. احتكاك بشرة الركبتين بحبات الرمال.. الألم ينبح بكل قطعة م الجسد.. التمدد على البطن.. السكون عدا اللهاث.. الهث كما لهث الطرايد خلفها الوحوش سايل لعابها.. يسيل العرق على بشرة الجسد حبات نار كاويه.. ببطء.. مدد على ظهرك حيث السماء تملى النظر.. يخف اللهاث.. امعن الشوف فى بحر المجره اللانهائى.. شىء غامض يراقبك.. اتراه هناك خلف النجوم يقبع فى الزرقه الداكنه.. شبحا هائلا انتصب فى الظلمه والجسد مركب تتهالك من لطمات الامواج، تتفكك اوصالك، اسبح وحيدا فى بحر الوحشه.. اللعنه إذا كنت خائف.. الخوف كان هناك على شط القناه.. تحت قصف المدفعيه والطائرات تمشط الارض بطلقات الفيكرز.. صواريخ جو ارض.. قنابل عنقوديه وزنة الف رطل.. نابالم.. حيث الموت راجل تجالسه.. تشرب معاه الشاى وتدخن سيجاره.. تغمس معاه المش، وتقرا جريدة الصباح التى لا تأتى باسماء الشهداء، ولا بوجوه من حصدهم.. وهو قاعد جنبك يضحك معاك يلاغيك واحيانا يخاصمك.. وقبل غروب الشمس او مع اشعة الصباح الاولى يسبح فى الفضاء ناشرا مناجله، تخرج تبارزه بدانات المدافع ال١٠٠مم ومدافع الشيلكا.. تخرج الطلقات للسماء كالحمم ترفعه من طيرانه المنخفض لاعلى، حيث تكون فى انتظاره صواريخ السام.. وهو سارح فى البيادى والسهول قابض الارواح.. ملاك الموت يقتل من غير شفقه، من غير لحظة ندم، من غير حسبة الخساره.. فى الحرب.. الموت وحش رهيب تنهشه نار من الجوع لا تنطفىء لقصف ارواح الرجال.. دائما كان كسبان.. عمره ما خسر معركه، ويمر يوم ناكل ونشرب.. وايادينا على زناد المدافع.. وخلف عقولنا نجهز نفوسنا لمعركه جديده معاه .. الموت.. ويأتى صباح جديد وكاننا غنم بترعى فى مرعى الحياه.. نتربى له، يتربص بنا لحين ما يعود يركض على ساحات المعارك يحصد امامه كل حى يبغى الصدام.. كل حى صار عليه الدور. بس اوعاك يا ابن عبد الجليل تنسى ان الموت رابض هنا فى الصحارى.. جوز ديابه جرح لعابها الجوع.. ضبع خرج يبحث فى البرارى عن فريسه، عقرب نايم بين الصخور.. افعى ساكنه فى فلق حاطط راسك عليه.. والصحراء هناك تنتظرك ربما تضيع، تتلقفك بين كهوفها ، تدفنك فى بحر الرمال ، والصهد وقبض العطش آآآآه .. آآآه .. آه يا ابن عبدالجليل.. الموت على شط القنال كان لحظه تمر.. خاطر فى الخيال.. وجوه الرفاق اللى خطفهم لا تلبث ان تتوه، وسط الرفاق الجدد اما هنا قايام..

.. قوم .. قوم اجرى، يلا قوام.. اجرى بعزم الخيل، كما تهب الرياح البريه.. انزل من الهضاب الوعره لحد الصحرا.. لف حولها.. عدى الحدود قبل الفجر.. لا يعتر فيك حراسها ولا تتعلق ثيابك على اسلاكها الشائكه.. لا يطخك واحد من ولاد على برشاشه، تسقط على الارض مثل كلب ضال.. نفايه من نفايات الشوارع، صاده صياد فى آخر الليل، وتركه يموت فى بطن الجبل.. تنهش فى لحمه الكواسر وجارح الطير.. اجرى يا ابن عبدالجليل، اطلق سيقانك للرياح مثل الفريسه فى المراعى، تشم رائحة الموت ولا ترى صيادها.. وفى اللحظه التي تظن فيها النجاه .. يعلن القدر حكمه المرير ..

الفصل الخامس والثلاثين

-١-

ساعتين من الزمن وتوصل البيجو مرسى مطروح، يشرد الذهن التعب ويعود، ايه بقى ويطل الصباح ..؟ اما توصل مرسى مطروح، تستلم مالك من الحاج حسن ، الف وثمانمائه جنيه، ساعات قليله وتصل سدود، تشترى بقية الفدان والبهيمه، ترمم الدار، يضرب عبد الرحيم راسه فى الحيطان، ايه اللى كان فاضل واعمله، لحست دهاليز الحكومه والمحافظه، ارسلت لسيادته البرقيات، قلت له انا بالباب انتظر، اريد النصف الفدان ، ورث ابوى ومستأجره فلان ، وانا ليس لى ارض ازرعها، ولا حرفه تسد شظف العيش، علما بأنى مصاب حرب ولدى نسبة عجز، وانا بتواضع كما تعلمون يا سيدى بطل حرب ، وانتظرت حتى تجىء سيارات الحرس، تنقلنى اليه مباشره، واللى حدث، ورقه من المحافظ تقول ان العلاقه بين المالك والمستأجر معروضه للبت .

.. يشرد الذهن التعب ويعود .. والأسفلت حد فاصل يتلوى بين انبساط الصحراء، وصفحة البحر الوسيعه.. أمواج صفرا.. أمواج زرقا، وشريط ضيق من الصخر المنبسط والسياره تنهب الطريق.. توقفها كل لحظه نقطة التفتيش .. ! يتبادل السائق مع الصول الحديث.. يدفع العساكر وجوههم البارده داخل السياره ، ينظرون للركاب نظرة بلاهه وابتسامه صفراء .

– حمدالله على السلامه.. الجوازات.. مفيش ختم دخول وخروج .. معاكش بطاقه ..!! نزل الشنط .

حديث هامس سريع بين الركاب اللى معاه تأشيره جنيه.. واللى متسلل اتنين، ممعاكش مصرى ادفع بالدينار.. كله ماشى.. تخرج المحافظ .. تتناقل الأيدى النقود ألى السائق منها إلى اليد الخفيه للبيه الصول، يستدير الصول بعيدا، تتراجع رؤوس الشرطه، تعاد الحقائب قبل أن تفتح، تلمح إشاره لبزه عسكريه يعلوها وميض النجوم، ينفتح مزلاج بوابة المرور، وتعود السياره إلى المسير، ومع أول انحناءه تختفى معها نقطة التفتيش، تنطلق العربه بأقصى سرعتها إلى مطروح .

يشرد الذهن التعب.. يغفو من طول السهر ويصحى مكدود حزين.. كنت فاكر يوم خروجى من الجيش ان ليلى انتهى، ست سنين فى الخنادق تحت قصف من كل نوع، واقف وراء المدافع المضاده للطائرات زى واحد قاعد على برميل بارود.. مذبحه.. لما سلمنا المخالى قلت انكتب لى عمر جديد، اللى جى احسن من اللى فات اكيد، البطاله والتسكع على بوابة العلاميه.. دكان عكاشه .. العدلى.. المعلم شفيق.. خلف الكنيسه لما تجف المستنقعات بعد فيضان النيل، نلعب اللقم والحكشه، وفى الليل بات يا واد بات.. ساعتها كان الليل صباح، البال خالى، والجبنه فى الزلعه فوق السطوح، لكن لما يكون مضى من عمرك سته وعشرين عاما، وصرت زى البغل.. طويل، نطع زى باب دوار الحاج منصور، والسكون فى عينك بركان مكتوم، وبعد ما ينهد حيلك آخر الليل، تسأل نفسك، ايش تكون يا ابن عبد الجليل؟ تكون الاجابه .. لا شىء.. ياكلك الغضب.. تبق عايز تفتح باب القاعه عليه وهو نايم تذبحه .. يا اخى كفايه .. اخر خطوه فى طريق الليل تاخذ فلوسك، تلحق بقطر الساعه خمسه، توصل سدود فى قطر الفجر، ويا متعب اللى راح، يا مسعد اللى جاى.

-٢-

يشرد الذهن التعب.. يغفو ويعود.. مرسى مطروح فى الصباح الباكر صبية، سلمت شعرها الطويل لنسايم البحر النديه.. عندما غادر السيارة لم يغلق الباب خلفه.. عد الخطى بقامته المديدة مسرعا باتجاه فيلا البيه الكبير، تاجر العملة السوداء.. من سنة لم يكن بناها..

قبل الفيلا بشارعين .. ليه الخلق متجمهرين ..؟ جماعات واقفة على النواصى، وجماعات مفترشة الارصفة.. لم يتوقف للسؤال. ناداة صوت يعرفه كويس: عبدالله .. الحق الراجل بيقول مفيش فلوس آجت..

استدار ناحيه المبروك: مين اللى قال كده ..؟

- ابن الحاج حسن

عاقدا الحاجبين، مقطب الجبين، لامع العينين كالثريا، ردد دون ان يتوقف: واحنا مالنا .. يهمنا الحاج حسن نفسه .. مفيش فلوس ..!!

.. لم يفطن لمصيبته جيدا، وفى طريقة ، تحرك خلفه أقرانه من المتسللين صامتين، وجوه كالحة السواد، متجهمة كالصخر، تنطق بمعالم الكارثة.. أمامه أخذت رؤوس تبرز من خلف بوابة الفيلا ، كلما اقترب كان عددها يزيد، فلما بلغها وجد خمسة عشر رجلا، طبعت على سحنتهم معالم الشر .. إغلاق البوابة أثار التوتر العام.. فاندفع الجميع فى غضب .. بمنتصف البوابة من الداخل، وقف رجل قصير القامة تلمع عيناه بالفراغ .. مد رأسه تجاه عبدالله مستفهما الذى وضع يده على البوابة بقوة، يهزها بعنف، ورجال الحاج يقاومونه وفى عيونهم تهديد ووعيد.

- عايز ايه يا اخ ..؟

- الحاج حسن ..؟
- ليه.. قريبه .. تعرفه ..؟
- عندى عليه وصل امانه .
- بتاع ايه ان شاء الله .

تفوه بكلمة قبيحة.. واستطرد صارخا: عرقى.. شقى الغربه..

- الحاج ما اخدش حاجه ..
- ما اخدش ازاى ..
- معاك اثبات ..؟

صرخ نافرا كل عرق فى جسده: الوصل .. الوصل ده .. اخرق بيه عينيك وعينين اللى يتشدد لك .

قال الرجل باستهانة: بله واشرب ميته

صرخ مشوحا يغضب: ابله واشرب ميته.. دانا ح شربك المالح.. فلوسنا ياولاد الكلاب.. عرقنا..عايز الحاج حسن اقابله، انا صارف منه السنه اللى فاتت الف وثلاثمائه جنيه، اشوفه اتفاهم معاه ..

جن جنون الجميع.. صرخوا من خلفه: ايوه نشوفه.. نكلمه .

- يا عالم يا ظلمه .. يا وحوش .
- انتم ما تعرفوش ربنا .. يالصوص .

من المؤخرة ظهر رجل ربعه القوام، يرتدى عباءة ثمينة .. عينين نفاذتين.. شارب كثيف لحية شهباء، وسحنة قمحية رخوة.. رفع يده بالسبحة، فهدأ المكان وحل الصمت: انا الحاج حسن.. واحب اقول لكم.. فلوسكم ما جتنيش.. ابن الحرام ما بعتهاش.. ولعلمكم مش ح يبعتها.. انا معاى الفلوس اللى وصلت فى مايو.. واللى له مليم ابيع ابنى واعطيه حقه.. إذا هربت منكم اهرب من ربنا فين.. انا عايز واحد معاه وصل قبل شهر مايو ..

تصاعد الضجيج: واحنا، وفلوسنا ؟

- فلوسنا ح تيجى امتى ؟
- لأ.. اسمعونى.. شوية سكوت.. اللى له فلوس قبل مايو ، فهى معاى.. معاى يعنى مش ح ادفعها من جيبى .. معاى لأنها وصلتنى.. الفلوس اللى بعد هذا التاريخ الراجل لم يرسلها، ولن يرسلها ..

ارتفع الصياح ثانية : ازاى .. طب ونعمل ايه ؟

- يا جماعه اسمعونى لحظه .. انا ممكن اقول لكم تعالوا بكره.. وتظلوا تيجوا يوم ورا يوم لكن شهاده لله وللحق، الراجل سرقها .
- ايه اللى عرفك ..؟

أجاب متهكما: الحرب .. حشد الجيوش على الحدود جار.. يا اخونا الراجل طمع فى الفلوس .. يعوض عليكم ربنا .. قالها وهو يدفع نقودا لعمال تقدموا نحوه وأيديهم مرفوعه بورقه صغيره ..

صاح المبروك: انت يا واد انت وهو، مش صارفين فلوسكم امبارح.

صاح العمال بصخب: ده ملعوب يا رجاله.. والله العظيم ملعوب .

لم يدرك أحد ماذا حدث.. إذ أن معركة حامية نشبت عند البوابة، وتحت ضغطهم انفتحت البوابة على مصراعيها.. تراجع البيه إلى الوراء محتميا برجالة، واختفى داخل الفيلا مغلقا خلفه الأبواب.. وخلفه كان العمال يدمرون ما تصل إليه أيديهم.. متى سمعت صفارات الشرطة لا يذكر.. كل ما يذكره أنه بينما كان الكل يجرى متفرقا فى الأنحاء هربا، جرى هو ناحية عربات الشرطة مخرجا بطاقة يلوح بها على طول ذراعه وهو يصيح ..

لم يفهم العقيد شيئا من كلامه.. وبينما كان الجنود يطاردون العمال فى كل مكان ويدفعونهم دفعا للشاحنات، وقف ثلاثة من الجنود فى حيرة، هل يمسكون بعبدالله ويلقون به لإحدى اللوريات أم يتركوه؟ وهل هو مع العمال أم من أتباع الحاج حسن؟ صديق العقيد.. وما أهمية البطاقة التى يحملها؟.. وقفوا يتابعون عينى العقيد بانتباه كلاب الصيد تتشمم رغبات أسيادها .

– انا مصاب حرب.. يا سعادة البيه انا مصاب حرب .. والراجل ده سرق فلوسى الف وثمانمائة جنيه.. هو مايعرفش احنا شقينا فيها قد ايه.. ده حرام.. هات لى حقى الله يرضى عليك .

– اوقف بعيد.. ايه مصاب الحرب ده .. هو مصاب حرب يكشف حرمة البيوت .

فهم الجنود دورهم فاندفعوا نحوه كلابا مسعورة ينهشونه. كان وسطهم مثل شجرة كافور تحيط بها أقزام.. قاومهم بشدة وهو يصرخ:

– انا مادخلتش بيت حد.. ده اخد شقانا، دمنا ، عرق الذل والمر.

استطرد العقيد فى لهجة تنضح بالقرف والقسوة والاحتقار: فين اصابة الحرب دى.. انت بتستعبط ما انت زى الحصان اهه . ومد يده بغلظة يفتش فى صدره ويمسك بعضلات ذراعيه.. خفف الجنود من قبضتهم عليه بآلية كاملة، محاولين أن تتناسب أفعالهم مع رغبات العقيد، جعلوا منه مستقيما كلوحة للعرض .. عندها رفع ذيل جلبابه وأنزل سرواله القطنى الطويل، كاشفا عن جرح غائر . بطول فخذه الأيمن، ومكان آثار تهتكات فى اللحم نتيجة جراحات الترقيع المتكررة.. الآن كل شىء واضحا أمام العقيد.. يستطيع أن يصيح كما يشاء: خذ لى حقى من الحاج حسن يا سعادة البيه.. فلوسى الله يرضى عليك ..

لكن العقيد أشار بإصبعه، فشدد الجنود عليه واستطرد فى لهجة باردة شعر منها عبدالله أن العقيد لا يعاديه فقط، ولكنه يتربص به:

– تعال.. فلوس ايه.. انت داينه فى حاجة ..؟

– فلوسى اللى اشتغلت بيهم فى ليبيا ويعتهم مع...

– بعتهم ..! .. انت معاك جواز سفر ..

حار عبدالله واختنق حلقه . عاجلة العقيد:

– انت متسلل من الحدود ..؟ .. سلكاوى .. هه ..؟

شعر بصفعة داوية باغتت وجهه كالصاعقة .. اهتز لها جسده الفارع وسط ضحكات ضباط الصف، وتشفى الجنود، ورجال البيه الكبير، وصوت العقيد يأتيه من خلف سحابات

الطنين:

– انا ح اوريكم يا ولاد الكلاب، يا خونه، يا جواسيس، مصاب حرب.. واندفع يهاجمه ثانية.. انت مزور الكارنيه ده يا ابن الكلب .

اختنق فى حلقه كل ما كان يمكن قوله.. شعر برأسه تسحقها جنازير الدبابات المعادية، فكر إذا كان هناك ثمة من يجد لديه إجابة لسؤاله أين ذهبت الفرقة الرابعة واللواء الواحد والعشرين مدرعات..؟ لماذا تركت كتيبته مكشوفة كمن نزع عن مؤخرته سرواله ..؟.. اللعنة.. حاول الفكاك هز جسده الفارع الطويل فتساقط العساكر الثلاثة من حوله كأوراق الشجر.. هتف فى وجهه العقيد:

– انا مش مزور .. مزور انا ؟!

قبل أن ينتهى كان كل من له صلة بالعقيد يندفع نحوه .. ضباط وعسكر يشدون من وثاقه، وينهالون عليه بأحذيتهم وقبضاتهم.. ثانية جاءه صوت العقيد ممتلئا هذه المرة بالسخرية : طب واصيبت فين ..؟

أجاب وهو يقاومهم دون استسلام: فى الدفرسوار .. فى آل

قاطعه العقيد: يعنى فى الثغرة اللى دخل منها اليهود ..!! هه ..؟ يا اخى خيبه عليك وعلى امك .

.. شاهد وجه العقيد مليا، وهو يستدير منهيا حواره معه، مزهوا بذاته، ممتلئا بالسعادة والرضا بالذات.. والجميع ينفجر من الضحك.. حتى أقرانه من العمال السلكاوية رأى فى وجوهم علامات الضجر والتشفى .. لو أنهم جمعوا أسراب الطيران المعادى ما فعلوا به مثلما فعلت كلمات العقيد.. لقد اعتصره كذبابة .. سد حلقة بحجر.. قتله كما يقتل صرصار ببلغة قديمة.. لم يكن يفهم كيف ينتهى ما حدث علي هذه الشاكلة المغلوطة، انهار كلية، لكنه ظل يقاوم، وبقي يصرخ فى غضب:

– مش مزوره، هو احنا اللى كنا فى الثغره بس .. انا دفاع جوى، احنا حمينا الهجوم كله.. اسألوا عن المدرعات والسلاح الجوى..

.. عن ماذا يتحدث الآن.. لماذا استدرجوه بعيدا عن المشكلة الحقيقية.. فلوسنا يا وحوش يا حراميه، انتو ما تعرفوش ربنا، عيب على الذقن يا حاج بيت الله ..

ثمة شخص واساه.. صول عجوز اقترب منه هامسا: يا ابنى احسن لك ترحل لمصر وتستعوض تعبك عند ربنا .. خذها من قصيرها وارحل.. اولا.. الحاج حسن واصل لفوق.. قصره مفتوح طول الصيف لبهوات مصر الكبار.. وثانيا هو عمره ما يرضى بالحرام.. ولو كان معاه فلوسكم ما كانش حاشها عنكم.. دى خدمه بيقدمها للناس الغلابه اللى بيسافروا من غير جواز سفر ولا بطاقه.. سلكاويه زيك..

لم يستطيع أن يجيبه بشيء سوى نظرة حزن عميقة .

فى اللورى جلس القرفصاء ساكنا.. مكتئبا.. يحدق فى الفراغ .. عينين لامعتين واسعتين يتوهجون بضوء ساطع مثل نوافذ أبنية الأجهزة الغامضة.. فى قسم الشرطة دفعوهم بعنف للداخل والهراوات وأحذية الجنود فى مؤخراتهم حتى تكدست التخشيبة بهم.. جلس واضعا خده على كفه فى اكتئاب.. واستلقى العمال مستسلمين للأمر الواقع.. عرضوا عليه طعاما..

رفض.. كان شرها للسجائر .. وفى داخله يعبث القلق.. منذ وعى الحياة وهو قلق.. يوم باع أبوه الفدان الثالث لأبناء عمه، وتزوج امرأة صغيرة.. كان لأبيه سحنة عجوز شرير تلهيه ملذاته الرخيصة الفاجرة.. يفتنه أكل اللحم، وملأ بطنه بالطعام، ومعاشرة امرأة صغيرة السن، يقضى فى منزلها القيلولة، وزمن الليل وهو ملقى بالشوارع لا يجد مايقيم أوده.. عشر سنوات مضت من عمره قبل أن يعى أن له أعماما وأبناء عمومة يكرههم ويكرهونه، هو ابن محمد الذى ورث عن أمه ستة أفدنة، ولم يرث أى منهم سوى واحد وعشرين قيراطا، جعلتهم يتربصون بأرض العجوز صاحب الكيف الرايق .

بالخارج حدثت جلبة شديدة تداعت لها أبدان الجالسين كشياه فى حظيرة.. فتح باب التخشيبة، ودخل الصول العجوز، ومعه ذلك الرجل الصغير الذى دفعه أمام بوابة الفيلا ..

– كله يقعد يا جماعه، شوفوا فاعل الخير.. الرجل الطيب الحاج حسن بناء على طلب سعادة الباشا العقيد ح يعطى كل واحد منكم خمسين جنيه زكاه عنه، عارف انكم مش محتاجين، لكن قلوسكم اللى راحت.. ربنا يعوض عليكم .. تكاليف السفر.. تاخدوا حاجه للعيال ..

صرخ عبدالله: مش عايزين هبات ولا زكى .. عايزين فلوسنا ..

جاوبته صيحات ضعيفة مؤيدة، وفى عيون البقية لمح تعبا وإرهاقا، ونظرات ولاء وأشخاصا تقول: ربنا يعمر بيته ويحسن له ..

عندما حاول أن يعارض ثانية أدار الصول ظهره لهم خارجا، لحظتها جوبه بمعارضة ولا مبالاة لآرائه، وابتسامات ترسل إشارات صريحة للصول والرجل القصير بالقبول والدونية..

لحظة توزيع النقود تدافعوا يتقاتلون قرب الرجل القصير.. قال أحد العمال: الله يعمر بيته الحاج.. معاى دنانير ليبيه.. ياخدها الحاج، ويعطينى بالمصرى ..؟

نفي بحزم، فعقب العامل: يعنى ح يتأثر بالعشر دنانير بتوعى .

– لأ.. الدنانير دى تبلها وتشرب ميتها.. وضحك وقال قولا قبيحا..

حاول الصول أن يعطى عبدالله نقوده فرفض .. همس فى أذنه: خدهم احسن من عين الكلاب، انا سمعت الحاج بيكلم البيه.. الراجل الليبى لم يرسلهم فعلا .. اسمعنى.. خدها منى نصيحه.. الحاج لا يكذب علي سعادة البيه. لأنهم سوا.. وانت عارف اللى زى الباشا ما يقدرش حد يخبى عليه.. انت اولي بالخمسين جنيه.

غمغم غاضبا: يعنى ح يستحرموا على نفسهم الفلوس كلها ..

عقب الصول مستسلما: انا كان غرضى اوعيك.

تركه الرجل خارجا.. بعد مضى ساعتين، كان الحال قد هدأ.. اهتز باب التخشيبة وسمع صوت الترباس يفتح.. وقف العسكرى فى منتصف التحشيبة صائحا: فين اللى بيقول انه مصاب ولا مشوه حرب ده .

رفع رأسه ناحية العسكرى: تعال، قوم فز، عامل فيها بطل .

– قصر فى الكلام وقول عايز ايه .

– سعادة البيه عايزك .

– انا عايز البيه المأمور .

- مش موجود.. قوم وبطل لأمه .

فى حجرة جانبية متهالكة كان العقيد يحادث أحد رجال الحاج .

- خلاص يا عرفه تاخد البنايين والسباكين زى ما الحاج قال لك على الفيلا عندى.. المدام توريك الشغل .

نظر الرجل لكل من العقيد وسيده بدهاء مصطنعا التردد .. قال بنظرة متواطئة: عايزين اسمنت ومواسير نص بوصه، وتلاته متر قيشانى، عايزين عمال ياباشا .. وكمان ..

قاطعه العقيد ثائرا: جرى ايه يا (.....). هى دى اول مره تعمل الشغل ده .. ضحك الرجل بلؤم.. تدخل الحاج حسن مصطنعا الحزم:

- عدى على المخزن خد طلبات الباشا.. نفذ له كل طلباته .

امتلأ وجه الرجل بابتسامة ماكرة: احنا لنا ايه غير راحة الباشا .. بس السماح .. صاحب المال يأمر وانا انفذ حمامه .

- بلاش وجع دماغ .. يلا اتكل .

- حاجه واحده.. مفيش عماله يا حاج.. ودى فى ايد سعادة الباشا.

- انتظر يا فصيح ..

نادى العقيد : يا حسنين .. انت يا حمار يالى واقف بره .

أطل عرفة خارجا ثم عاد: مفيش حد بره يا باشا.. ما انت بعتهم يجيبوا الواد السلكاوى من التخشيبه .. اهم جم .

دخل الغرفة على عجل أحد جنود الخدمة المجندين ترتعد بنيته رعبا.. وبصحبته عبدالله .. ضرب الأرض بقدميه مؤديا التحية العسكرية: تمام يا افندم ..

سأل العقيد عرفة: عايز كام .. خمسه ..؟

قال ضاحكا بجرأة: ياباشا هم بيكلفوك حاجه .. عايزين .. عشرين .. تلاتين .

- ليه بجيبهم من على الطواله ..

أجاب عرفة بجدية هذه المرة: تحميل الردم من قدام حمام السباحه، الصنايعيه عايزه عمال تشتغل وراها .. فكر العقيد:

- خمستاشر كفايه .

أجاب دون خجل محركا يديه دوائر: الحكايه والروايه .. فضله خيرك.. وعشر عساكر عند حبيبك الحاج، نوضب السلم اللى قدام قعدة الطراوه فى الليل .

- قوى .. قوى ، يا سلام عنينا للحاج.. بس زمان حسنين وزعهم .

- كله تمام يا باشا الاوامر عنده بكل طلباتك.. هأ هأ هأ ..

رفع العقيد رأسه مستفهما وعلى وجهه ابتسامة خفية. فرك عرفة بجدية أصبعى الإبهام والسبابة، مشيرا إلى علامة عد النقود، كرر حركته مرة ثانية وبسرعة، وضج الحاضرين بالضحك ..

صاح العقيد: انت ح تفسد لى القسم يا سى عرفه، انا عارف انت أُس الفساد .

فكر عبدالله.. والله ما حد عارف مين أُس الفساد الحقيقى، سخرة فى الغربة، وسخرة فى الوطن، إذا كانت هى دى معاملة النفر منا فى بلده، عايزين الغريب يحن علينا ازاى

!!.. نادى العقيد على الاومباشى حسنين من الحملة: اجرى يا ابن الخنزير انده له .. قبل أن يستدير حدث عرفة : استنى . ما تروح معاه تخلص اللى انت عايزه.. استدار باتجاه عبدالله، ينظر له بعداء.. وعرفة يجيبه خارجا:

- تمام يا باشا .

.. فكر عبدالله وجبينه مقطب بحنق.. فكرك ممكن تؤذينى، لأ .. ده بعدك .. مش انت اللى تقدر تحاسبنى .

.. تنحنح الحاج .. مد يده لعبدالله بمائة جنيه .

- خد يا ابنى.. مائة جنيه انت مسكين وغلبان .

خطفهم من يده: لأ .. دى اول مية جنيه من مالى ..

فى اللحظة ذاتها التفت للعقيد بغضب: بطاقتى مش مزوره.. لو مزوره قوم بواجبك .. قوم بواجبك واحبسنى.. ابعت مصر اسأل .

تحولت الغرفة لحالة من الهياج.. الجالسين قاموا، والواقفين اندفعوا نحوه يمسكون بأى جزء يطولونه منه.. العقيد كان أول من انتفض من كرسيه المتحرك صارخا: الكلب ده ما يستحقش خردله.. خد منه الفلوس يا حاج .. مش عاجبك يا ابن (.....) .. انا ح اربيك يا روح امك ..

لم يأبه عبدالله لا بالذين يشدون وثاقه، ولا بالمخبرين الذين كالوا اللكمات له فى كل مكان من جسده .. كان أهم شىء لديه العقيد .. سارع بمقاطعته بأعلى صوته: لأ .. ما تقدرش ومش من حقك .

.. جأر العقيد بالصراخ وقد تحولت اللكمات إلى ضرب من كل نوع . - مقدرش يا (.....) امك.. ح احطك فى الحبس ست اشهر.. كعب داير يا ابن الشرموطه .. ح ارميك ورا الشمس يا خول يا ابن القحبه، حطه تحت فى الحبس الانفرادى، مش ح اخلى حد يعرف لك طريق جره.

وفى كل مرة كان العقيد يلفظ الفاظا نابية، كان عبدالله يقاطعه صارخا هو الآخر: ما تشتمش .. مش من حقك .

.. كان يريد أن يجيبه بأقذع الألفاظ.. يعرف إن فعل ذلك سيمكن الكلب منه.. وحدك يا عبدالله.. هم يحتمون خلف بزاتهم، نجومهم المصقولة.. عساكرهم المغلوبين على امرهم .. سلاحليكه والنظام المعفن اللى انتجه.. سمع العقيد يصرخ به مهددا: وحياة امك ح اعلقك على العروسه، ح اعلقك من رجليك وايديك، ح انفخك زى المعزه .. ح اسوط ضهرك باسلاك الكهربا يا ابن المره (.....) ..

رد عليه باستهانة من بين ركلات الأحذية وضربات القايش .

- ما تقدرش.. ايوه .. ما تقدرش.. آنى مش هفيه بين ايديك.. مفيش حد له حق يحاسبنى إلا الشرطه العسكريه. وجأر باعلى صوته.. قوللى مطهوم على ليه .. فهمنى .. ليه مستقوى على الضحيه ..؟ هو آنى سرقت عرق الغلابه اللى بره ولا آنى اللى نهبتهم ..؟.. ليه تكون نديم الجانى.. ميزان العدل مالت كفته .. شوف الجانى يا حضرة الضابط ..

- شرطه عسكريه يا (.....)

لحظتها تدخل الحاج: خلاص يا باشا سامحه فى الظروف دى .. الفلوس كمان مش ح ترجع ..

صرخ العقيد مقهورا: خدوه من قدامى .. بره.. طلعوه بره.. بكره كله يتحمل على المحطه.. اشحنوهم فى قطر واحده اللى نازل مصر ..

أشار الحاج لأتباعه أن يأخذوه بعيدا .. حملوه على ظهره وهو لا يتوقف عن القول: لو كنت عارف انى ح احارب عنكم وعن امثالكم .. لوكنت عارف انى ح حارب عنكم ...

ألقوا به فى أرضية الزنزانة الحجرية.. تمدد وهو يزأر من الألم والغضب معا، عنه تباعد الجميع، جاء المبروك يطيب جروحه وهو يردد فى إشفاق: العوض علي الله.. العوض على الله ..

بقى ينظر للفضاء من كوة فى سقف الزنزانة لا يجيبه حتى غفى .

ما العته زمن الحرب.. ليل طويل، صباحه هم، دم وكرب. كانت ايادينا طوال اليوم تجمع فى اشلاء الرفاق، ورجلينا تخوض فى برك دمهم، والطائرات فى السماء تتحدى اللي يرفع رأسه من على وش الخنادق.. ما اغربه زمن ها الوقت.. والداه.. يا ولداه.. فى سنين الحرب كان الدم دم.. ألم واضح كما الشمس.. العمر فيه قصير .. ينبتر كومض البرق.. يمضى الضحايا الى رحاب الموت فايتين خلفهم لوعه واسى وشجن لدى من لم يصبه الدور بعد .. اما الآن فالموت ابشع من كل موت.. كل يوم غم.. لا يأتى صباح إلا وعلى الهم هم.. نوع غريب من الذبح الطويل الأمد.. قتل عمد.. حبات من الرمل تضغط على الدماغ .. تعربد فى خلايا المخ تمزقها ببطء غريب.. عذاب رهيب.. ح تتجنن ولن تجن.. ستطلب الموت.. تتمناه.. تجرى وراه لا تجده .. سراب المستحيل.. يكفيك انك .. على هذا النوع من القتل تعيش طول عمرك .

آه .. آه يا ابن عبد الجليل.. اين المدرعات .. ؟ كيف تم دمارها..؟ كيف اختفت أنوارها؟ .. فين هدير محركاتها؟ ..

.. تلاشت.. تلاشت وانت فى أمس الحاجه لضجيج جنازيرها .. تلاشت وتركت لك ليل طويل ما له من نهايه .

.. أين المدرعات .. ؟ ؟.. سؤال عسير من يجيب عليه .؟ .. ألا يا أيها ليل هل لك من نهار..؟

– هدى من روعك يا خوى.. هدى من روعك.. ده مش نهاية العالم.. افترض انك ما جيتش ليبيا افترض.. صار عندك تمنتاشر قيراط ..

– تسع شهور .. اشتريت الامل بكاس الذل.. اشربه ويا الصباح واتعشى بيه فى المسا.. مين يحق له يسلبنى ثروتى ؟

– افترض ان القضيه خسرتها، وليبيا كانت بدل سنين الحبس .

– ليه ؟ واتحبس ليه؟.. هو انا اللى سرقت فى سمك الاسفلت؟.. ولا صرفت مستخلصات بالباطل!! ولا زودت فى عرض الطرق على الورق، ولا انا حاسبت على سعر حفر الطين بسعر حفر الحجر علشان يعبوا من الجنيهات ملايين؟! هو كان فيه اسفلت من اصله. يا شيخ..انظر حواليك، كل من فى الزانزانه هم المظلومين.. واللى بره هو اللص..

– طب ده اللى بيجرى وحاصل، وايه تعمل يا خوى.. تاكل فى نفسك.. يطق لك عرق تموت .

– هه .. ما تخاف الموت بعده بعيد.. اتركنى دلوقت .. لسه الليل طويل.. وانا تعبان.. تعبان قوى يا مبروك .

– طيب نام وريح بدنك .

– إذا جه النوم .

* * * *

.. الحزن فى القلب دفين، وشعور عميق باليتم.. لما وضح أن الأمر انتهى واستسلم العمال للحال.. أيقظوهم للسفر وصاح الصول فيهم إفراج.. الآن.. تحط ديلك فى سنانك وعلى المحطة.. القطر واقف هناك مخصوص.. من غير فلوس ح يودى كل واحد بلده، واللى ياكل لقمة.. يشرب شاى، بس كل واحد يصحى باله، الحراسة هى هى، حس واحد يفكر يمشى هنا وهنا.. البنادق فيها نار.

الشحن فى اللوريات بعد الفجر .. لا تفترق فى هذا مرسى مطروح عن بنغازى.. طبرق أو المرج.. فى المحطة اتخلق لا تعرف ازاى.. فول وجبنه .. ليمون.. زيتون.. عيش قديم. مش .. وكركر الشاى وطاف عطره الجميل بالكل.. نام اللى نام ، واللى ظل صاحى عاش فى قلق الانتظار.. امتى يجى الصبح ؟

.. لما جاء قالوا إمتى ييجى القطر.. حتى أن برز قادم من مخازن السكة الحديد بان فى البداية كئيب .. اعتراف بالخسارة .. وفى العيون طافت دموع تشتكى شهور الكدح .. وغربة لم تأت بثمنها .. يشكوا لمين .. إذا كانت هى دى معاملة المسئولين فى الوطن .

الحزن فى القلب دفين ، وشعور عميق باليتم.. هذا القطار اللعين بان أيضا جميل ، شوق للبيوت الدافئة والعيال وأمهم ، المبيت تحت سقف بعد عشرات من ليالى الطل ..

قبل أن يدخل القطار الرصيف قفزوا جميعا، وعادت العادات القديمة .. صياح .. ضجيج .. وسع .. تعال يا واد يا عبدالله .. ناداه المبروك .. اقعد هنا جنبى ..

جلس يفكر وعيناه سرحانة لبعيد .. وصوت اللواء الغمرى يصيح عليه فى الميدان .. قاتل يا جندى .. حقك لا تفرط فيه..

يا سيادة اللواء .. ازاى وانا وحدى اعزل من السلاح .

الحزن فى القلب دفين وشعور عميق باليتم .. والقطر واقف بيتلكع.. شيطان رجيم .. زى الغواية لما تخلع ثيابها .. تتجاذبك الأنواء بين الرغبة فى الفعل والخوف من المجهول .. قوم يا بدين اتحرك .. خلصنى من عذاب الفكر ولا .. انتظر .. يمكن ..

تحرك القطار .. فى القلب حزن كئيب .. ضاع كل شىء .. تمنتاشر قيراط كنت تطلع بيهم على وش الدنيا .. تمنتاشر قيراط تلاشت كما الخضرة تحت أسراب الجراد .. لكنه الملعون بعد كيلومتر من السير عند التحويلة وقف ..! اللعنة.. قفز كالمدوغ .

– هات الدينارات اللى معاك .

– ليه ..؟

– من غير ليه .. هات .. تروح على بلد .. تقابل مراتى بلغها ما تقلقش .. انا راجع .. بعد اسبوعين بالكثير اثنين .. اوراق الدار والارض والبهايم عند عمى الحاج رزق .. وإذا حصل شىء وحد من ولاد الكلب ضايقها.. تروح للاستاذ صلاح عقل لا تهتم ، هو عارف سكة المحامين .. واوعى تنسى تسمى الواد على اسم سيدنا على ، امام الغلابه والمقهورين .

.. ثلاثة عشر دينارا خطفهم .. جرى ناحية الباب والعجل على القضبان بيصفر .. قفز للأرض راجعا ناحية المحطة، والمبروك بيجرى وراه: ارجع يا عبدالله.. رايح فين ؟

– مش راجع إلا ومعاى حقى ..

سار على الفلنكات يجد السير .. جرى المبروك وسط عربات القطر: مين معاه دينارات .. يا رجاله عبدالله راجع يا ولداه وحده .. ح يغدى الحدود، ويسير لمساعد وطبرق، ويرجع تانى للطريق ، والليل العويل درنه وبنغازى .. حد معاه دينارات ..؟

.. طقطقت القلوب فى الصدور .. واللى معاه شىء صاح .. خذ .. الليل طويل والبرد والمشى فوق الصخور أميال ورا أميال.. ورم القدم حتى أن تصير مثل خف الجمال.. والهرب من سيارات الشرطة لسائقى البك آب حد بنغازى.. عند أول نقطة مرور يقول لك .. باهى.. نقطة مرور هسه أدور بعد غادى، لحظة نزول الرجال يلهف الأجرة .. يهرب يتركهم تانى للطريق والليل العويل

.. جمع سبعة وستين دينارا.. جرى وسط العربات والكل.. يصرخ .. ينادى: عبدالله .. واد يا عبدالله انتظر ..

وقف هناك بعيدا واستدار .. فى آخر القطر رمى المبروك حقيبة كبيرة ، خبز وأكل وزوادة سفر، وفى علبة سجاير قديمة وضع النقود وهو يلوح له:

– مع السلامه القلوس فى علبة السجاير.. طب لو بنت ..؟

سار عبدالله ببطء حتى الحقيبة فتشها، لمح بعينيه النقود ، نظر لصاحبه بعرفان، وظل يلوح له ..غاب المبروك بسرعة.. تضاءل ليصبح نقطة صغيرة فى مؤخرة القطار .. ظل واقفا يتابعه والقطار يعب الخطوط الحديدية عبا، ينحنى عند خط الأفق حتى غاب هناك .. وهلة ثم استدار للخلف ، وبدأ المسير باتجاه الغرب تاركا قدميه تتآلف مع فلنكات السكة الحديد .

* * * *

الفصل السادس والثلاثون

-١-

خلف القطار وراءه، وتحرك ببطء عائداً إلى المحطة ، نظر باتجاه الغرب بقلق.. تسعمائة كيلو متر إلى بنغازى، زفر من صدره زفرة حارة، للمرة الثالثة تحملك قدماك المتعبتان هذه المسافة، فكر أن سدود تبعد خلفه خمسمائة كيلومتر، شعر بالوحدة تسرى فى أوصالة، وعزيمته تخور .. راجع برجليك للجحيم ! ليه .. مش عارف.. بات النهارده فى مرسى مطروح، وادفع جنيه وعشرة صاغ، واركب القطر اللى راجع يا عبدالله، تنام فى القاهرة، والصبح توصل سدود أرحم لك.. انتبه مشوارك طويل، والناس راجعه لمصر مطروده، وانت ح تعدى الحدود..؟

تناقلت قدماه على رصيف المحطة بقلق، وأمامه جلس صول فى الخمسين من عمره، عيناه الذئبيتان تتابعانه بتربص، عصف الجوع به فعزم أمراً قبل أن يبدأ البحث عن الطعام، توجه إلى الشرطى، أخرج سيجارتين من جيبه وقدم له إحداهما:

- السلام عليكم، ألاقى عود كبريت مع حضرة الصول .؟

تناول الرجل السيجارة قبل أن يخرج الكبريت، فركها بين أصابعه، دق بها على ظافره، أخرج ولاعة ، أشعل لنفسه ثم أشعل لعبدالله .

- إمتى يجى قطر السلوم ؟
- الساعة خامسة .
- وإمتى يرحل .؟
- طوالى.
- ويوصل السلوم .؟
- ثلاث أربع ساعات ، مالوش ميعاد.. بنظرة باردة استطرد:.. ليه..؟ مسافر السلوم .؟

عشرات الأجوبة عبرت ذهنه قبل أن يومىء للصول بالإيجاب، كان يريد المعونة. ضاقت عينا الصول : ومعاك تصريح حربى .؟؟

قال من فوره: أيوه معاى.

نظر الصول غير مصدق، أدار رأسه بلا مبالاة: توا الشرطة العسكرية تدور فى إللى نازل السلوم .. هسه صارت منطقة عسكرية .

أجاب باضطراب ملحوظ: معاى تصريح، وحياة النبى ما تعرفش حد بيبيع أكل هنا .

أشار بقرف ناحية براكة بنيت من الصاج على طرف خط من البراكات المتناثرة، جد السير إلى هناك باتجاة بقالة صغيرة ونصبة لعمل الشاى يديرها أعرابى قصير قوى البنية، فى العقد الخامس من العمر، اشترى علبة من علب السلمون المحفوظ وخبزاً شامياً، طلب من الرجل قليلاً من الملح والزيت وانهمك يأكل كالمفجوع، أحضر له البدوى كوزاً به ماء، ووضعه أمامه، سأله وهو ياكل: شاى بالله عليك، شاى .

سأله الرجل: ليش ما ركبت القطر ؟

صدمه السؤال وامتلأ بالتوجس، أجاب فى ريبة: أى قطر .؟

- شنو قطر ..! اللى راجع غادى مصر ..

تشاغل فى الطعام وعقله يعمل بسرعة:

- عندى مصلحة أقضيها وأسافر فى اللى نازل بالليل .

عندما شعر بالشبع جمع حاجاته وقام عائداً، فى منتصف المسافة استدار خلفه، كان الرجل يغلق البراكة ويرحل مبتعداً، أسرع الخطى.. ربما شك فيه سلكاوى راجع من ليبيا، غير عملته وجيوبه مليانه فلوس، وعندما بلغ المحطة بحث عن الصول لم يجده، شعر بالحيرة لا يدرى ما يفعله، فكر هل يأخذ الطريق الى السلوم، إنه الآن ملىء بنقاط التفتيش، لو كنت فى ليبيا لاختفيت تحت جسر الطريق، أما هنا فالطريق يمتد على سطح الصحراء عارياً ليس به ما يخفى حداً، أما أن أرحل سيراً على الأقدام فوق السكة الحديد.. فكر أن هذا أسلم حل، ستكون خالية من نقاط التفتيش، لن يضطر لسلوك طريق جانبى يخسر فيه جهداً ووقتاً طويلاً، تمدد يحاول النوم وقبل أن يغفو ثقل عليه أن يسير، عزم على أن يغامر بركوب قطار الخامسة، عندما إستيقظ كان يقف فوق رأسه محدقاً به، وعندما استقام جسمه لاحظ وجود ثلاثة رجال من أولاد على يقفون بعيداً على طرف المحطة .. حيا الصول الذى حياه هذه المرة بتحية بشوشة أسقطت منه كل حذر، وعندما قدم له الصول سيجارة، عزم عبدالله أن يحكى له مشكلته عله يجد لديه حلاً، كان يدور ينتظر الفرصة وعندما عاجله الصول بالسؤال:

- وعايز تروح السلوم ليه، عندك عمل هناك ولا انت دفعه .؟

حكى له عبدالله قصته والصول يهز رأسه مظهراً تعاطفه، غير مصدق فى قرارة نفسه، وعندما انتهى عبدالله من قصته سأله فى بلاهة: دلوقت انت راجع ليبيا معاك جواز سفر .؟

هز عبدالله نافيا: إزاى بقى يا حضرة الصول، أمال أنا بحكى إيه من الصبح، لو كان معايا جواز سفر كانت فلوسى اتحولت عن طريق البنك ، ورجعت راكب بيجو، أشار له بيده، مش عارف أعمل إيه ..؟

ظلت نظرة الصول له باردة لا تقدم له المساعدة فاستطرد عبدالله:

- تعرف حد من اللى بيعدوا الحدود ؟

صمت الصول، أخرج عبدالله ورقة من فئة الخمسة جنيهات ووضعها فى جيبه العلوى. قال وكأنه لم يشعر بشىء: ما انت كنت عندهم .

نظر عبدالله ناحية البراكة، فوجدها مفتوحة: هناك، بياخد كام ؟

– ما أنت عارف .

قام من فوره متجهاً إلى البراكة، وهناك طلب الأعرابى خمسين جنيها : توا الجيش متجه إلى هناك وما نخاطر بأقل من هذا المبلغ، الجيش المصرى من ناحية، والليبى من ناحية تانية .

استعطفه عبدالله بتأثر متحدثاً بلهجته: يعلم الله.. ما معاى الا عشرين جنيهاً، والله ياحاج نرجى فيك وفى عطفك، أنا راجع فى طلب، والله نرجى فيك يا شيخ كرامة للنبى محمد، خدمة لإنسان غلبان، عهد الله وانا راجع نعطيك خمسين كمان، توا ما معي غير عشرين .

– يا أخى العشرين ناخدهم على الراس، نرحل قافلة من مائة رأس بألفين جنيه فى الليلة، توا تريد أنا نعديك وحدك بعشرين جنيه، وتحت الرصاص، ما يسوى، أنا ليه باخدك، توا نعدى فى خمره وحشيش، وانت تعدى معاهم. انفرجت أسازيره ، لكنه عزم على ان لا يدفع سوى عشرين جنيهاً ، كان قد تعلم فى رحلته الأولى ألا يظهر من النقود أكثر مما هو مطلوب منه، أما بقية نقوده فكان يخفيها فى جيب سحرى من ملابسه الداخلية، وإلا فان كل شى سيسلبه أولاد على .

هز الرجل رأسه وقام يغلق البراكة: باهى تعال خلفى .

–٢–

سار الرجل أمامه يمد الخطى، وعبدالله يجرى خلفه لا يستطيع اللحاق به، يمما جهة الجنوب، عبرا الطريق الأسفلتية تاركين المحطة خلفهما، سار الرجل داخل الصحراء شطر أبنية بعيدة، ما لبث أن أخذت تتضح معالم قرية صغيرة، تتوسطها أبنية عارية متباعدة المسافات من طابق واحد، لونها لون الرمال، يشقها طريق فى المنتصف، وحولها تناثرت الخيام وبراكات التنك، وقليل من الماعز، عندما بلغها كان الرجل يسبقه بمائة متر، جرى خلفه صوب الطريق الذى يتوسط المبانى، كان المكان خاليا من البشر تقريباً، وفى طريق جانبية حاد الرجل يساراً، كان عبدالله وحده، الآن عاوده التوجس والريبة بعنف، سمع دقات قلبه بوضوح، عبرت الطريق عنزة وخلفها صبى صغير، وعندما استدار خلف الرجل كان أمامه ثلاثة من الأعراب الملثمين، حاول الهرب لكن أحدهم عاجله بضربة عصا على أم ظهره، اندفع إلى الأمام ساقطاً على ركبته تعثرت يداه بحجر، وقبل أن يهاجمه الرجل أطاح رأسه بالحجر، فسقط أمامه مضرجا بالدماء، قفز جانبا كان ينجو من الموت، العصا التى صوبت نحوه على بعد شعرة من أم رأسه، تهشمت بالحائط الحجرى. ويداه تبحثان عن المطواه داخل ملابسه بجنون، لكن الرجل الثالث ركله بقدمه فى جانبه، فانقلب يتأوه من الألم، وعندما قام كانت المطواة فى يده اليمين، تراجع ناحية الجدار ثانية يحمى ظهره به،

ثمة ثلاثة أطفال ينظرون نحوه بلا مبالاة، ونافذة أطل من خلفها وجه حاد القسمات وأغلق دون اهتمام، الكل ينتظر موته وهو محاصر بين الرجلين .

– ما معى شيء أقسم بالله ما معى شيء، أنا رايح ليبيا مش جاى، أنا عندى عويله علشان خاطر جاه النبى، ح اقلع لكم هدومى لكن وجاه النبى ما تقتلونيش .

استعطفهما بمذلة وانكسار بالغ فيها، كان يخلع عنهما حذرهما، يزيد طمعهما فيه، تقدما نحوه لقمة سائغة، ويلمح البصر، كان حد المطواه منغرسا فى فخذ أحداهما، خر الرجل ساقطاً على الأرض، جذبه بعنف مستديراً نحو الثالث الخالى من السلاح، ورآه يتراجع إلى الخلف ثم يستدير راكضاً، كان كل مافى جسده يصرخ به، الهرب، الهرب قبل أن تبدأ المطاردة، سيمزقونك إرباً فى هذه البقاع السحيقة، جرى، كما لم يجر من قبل، لم يفكر أن ينظر وراءه حتى عندما عبر الطريق الأسفلتية، ظهرت المحطة عن قرب، نظر خلفه لم يجد أحداً.. الصول.. يجب أن يختفى عن الصول.. هذا ما فكر فيه، كان كل شيء مكشوفاً فى العراء، والمحطة خالية من الأحياء، تتناثر أبنيتها كشواهد للقبور، رأى أحد قطارات البضائع يقف خارج مبنى المحطة الغربى، أخذ يستطلعه فى قلق، كان يخشى أن يراه أحد من أهل المكان سوف يرشدهم إليه، زحف نحو القطار وكأنه يزحف تحت نيران البنادق الرشاشة، قفز فى إحدى عرباته المكشوفة، ضمد جراحة ومسح الدم عن وجهه، وفى ركن قصى من العربة جلس يترقب، رآهم على مبعدة، خمسة من الرجال يتقدمهم الرجل الذى فر أمامه قادمين باتجاه المحطة، بحثوا فى المحطة عنه، ثم توجهوا فرادى يفتشون خلف أبنيتها وحول المبانى المحيطة وخلف أرصفة القطارات، عندما لم يجدوه توجهوا ناحية قطار البضاعة حيث اختبأ، قفز من العربة كالمجنون وزحف يجرى على طول القطار نحو المقدمة وكل ما فى داخله يهتف ..

.. المدرعات يا ابن عبد الجليل.. أين المدرعات ؟؟. ليه تتخلى عنك فى الأوقات الحرجة.. كل شيء كان يسير سيراً حسناً.. إحدى عشر يوما والقوات تحارب تحت سماء محمية من سطوة سلاح الطيران الإسرائيلى.. لقد شل الدفاع الجوى فاعليته.. لكنها المدرعات .. ماذا تفعل قواعد الصواريخ الثابتة أمام المدرعات المعادية .. ماذا تفعل ؟

فوهات مدافعنا تتجه إلى السماء .! ونحن نهاجم من الأرض .. أجرى إذن.. اهرب من هزيمة المدرعات، واختراق القوات ..

مدرعات مجهولة الهوية على المجنبات.. ثقب مروحى فى الدفرسوار.. مدرعات إسرائيلية مدعمة بقوات المظليين تتسلل على المجنبات.. مدرعات مجهولة الهوية محمية بقوات المظليين تقترب.. أين المدرعات المصرية.. أين الاحتياطى الاستراتيجى.. أضواء خافتة فى الظلام.. أشباح تتسلل نحو قاعدة الصواريخ، هجوم مباغت.. انفجارات فى قاعدة الصواريخ.. شرخ فى حائط الدفاع.. مد يد المساعدة للرفاق.. مد يد المساعدة علَّ أحداً ينجوا من هذا الدمار وقصف النابالم.. لم تعد هناك فى الأفق راية.. اهرب وسط المئات من جنود المؤخرة الذين حاقت بهم المدرعات واختفاء الرايات والبيارق.. اختفى فى إحدى العربات المغلقة

المحملة بجوالات الدقيق اقفز وابحث عن مكان يتسع لجسدك، ارفع عدة جوالات واكمن القرفصاء واستعيدها فوقك، امسك بالعصا الحديدية فى يد، والمطواه فى اليد الأخرى .. وترقب قدومهم ..و ... وهجومهم

اصتنت واسمع حديثهم، ها هم يقتربون، تنفس فى عمق، ثم توقف عن النفس، باب العربة يفتح، أحدهم يقفز إلى داخلها، ترقبهم وتحفز .. يسود الصمت ثانية، تتلاشى أصواتهم وتبعد .

قسوة أبوك .. أخوك لما سرق نصيبك فى الأرض .. لما احتال وأخذ تحويشة العمر .. مين يطاردك.. ليه همشونا من الحياة .. جعلوا منا غنم ترعى فى مراعى الجهل والخوف ..

مين صيادك.. مافيا الأسفلت.. المهندس مجاهد حاش من عملية المنوفية عشر فدادين وبنى عمارة تسع أدوار فى مدينة نصر واشترى عربه بيجو ٥٠٤ من راتب لا يزيد عن مائه ستين جنيه .

إيه تملكه لما يكون صيادك نقاط المرور وحرسْ الحدود المصرى والشرطة الليبية وأولاد على وتاجر العملة وصديقه الباشا العقيد ..

آ ا ا ا ا ه... مين يطاردك ..؟ مين المطَارِدْ ومن المطَارَدْ ؟.. من الصياد ومن الضحية ؟..

ياه .. إيه اللى تملكه يا ابن عبدالجليل لما يكون كل هذا الجمع صيادك .. مستحيل .. مستحيل هذا الفصام العميق .. مغادرتنا للوطن بمثل هذه المهانة، سبة فى جبين أصحاب السيادة .. دخول وخروج نصف مليون متسلل مصرى كل ستة أشهر ليبيا.. لم نكن أشباحاً، كان يمكن منعنا من الدخول، ليه تنافى الفعل مع ما يشاع من قول .. ليه كل هذه الإهانة ؟ إيه السبب.. كنت رايح أرض العرب أبيع قدرتى على العمل.. موضوع بسيط، اخد أجرى وأرجع، من المسئول عما حدث ..

ليه اتسرق.. فلوسى القليلة..حقى .. ليه يتم نهبى، مين رمى بى على تاجر العملة، ملايين يحصلها من غير أدنى مجهود، إزاى هرب بغنيمته، ألم يكن هو الآخر خارج عن القانون؟ يا ولاد الكلاب .. مين المسئول عن إهدار ثروة الملايين من أبناء الوطن وإيه العلاقة بين الحاج حسن ، سبحته ولحيته الشهباء ، وسعادة الباشا العقيد ..

آ ا ا ا آه .. آه يا ابن الحمار ..

كل من اتاوى جوه زى شرطة يتهجم عليك، يصرخ: معاك جواز سفر.. هه.. سلكاوى .؟ .. أوراقك وانزل بسرعة.. تقول الدنيا ح طربق عليك .. يجمع السائق الإتاوة.. اللـــــه.. حتى العقيد يصرخ فيك ويتهمك بالخيانة .. وتاجر العملة اللص مصاص الدماء معزز مكرم فى ضيافته .. يا ابن الحمار يصعب عليك الفهم .. تاجر العملة مش صبى أو ولية تبيع فلايات ونوجة على الرصيف، يهجم عليها المخبرون، تجرى، تهرب يترمى رأسمالها الفقير فى التراب، تترمى زى كلب أجرب فى بوكس البوليس وتتهم بتقبيح وجه المدينة القبيح، تاجر العملة محتاج لمنفذ بيع يتميز بالثبات، مؤسسة تتاجر فى الملايين، لا يمكن الحياة خارج القانون إلا بدعم كبير من مسئولين فى البلاد ومشاركة مع العقيد، نسبة زى نسبة مافيا

الأسفلت .. طبعا، دون ذلك وجوده ووجود كل المفسدين لا يستقيم ..

اغفى ونام دا الفساد والفصام صار عميق.. لأ.. أوعاك تغفى لحظة بين غمضة الجفن والوهن تضيع .. زمن طويل قد مر .. ارفع الجوالات وطل من باب عربة البضاعة.. تلصص.. أين يختفى صيادك ؟

.. انظر.. هم هناك.. قاعدين على رصيفى المحطة يمسحون المكان فى انتظار حفله الصيد العظيم .

آذان العصر.. ساعة ويطل القطار، انتظر قدومه فى تحفز

عندما ظهر من بعيد ، لمحهم وهم يندفعون واقفين، تناثروا تحول القطار من الناحيتين فى المقدمة والخلف، يحيطون به، وينظرون شذراً، يمسحون محيط المحطة بحثاً عنه .

زحف تحت قطر البضاعة ، فى العربة قبل الأخيرة، نظر ناحية القطار الرابض على الرصيف، كان على بعد مائة متر لن يستطيع عبورها، حتى لو صعد سيصعدون خلفه، يهاجمونه، يقتلونه، يلقون به من القطار، تراجع خوفاً من أن ينظره أحدهم، وعاد صاعداً العربة، معاوداً الاختباء، ربض ينظر إلى القطار فى قلق، وعندما بدأ يتحرك نزل ثانية حيث اختفى تحت العجلات، كان بينه وبين القطار سكتان، هناك كانوا يشيعون القطار بنظراتهم متحفزين كالنمور المتربصة بالفريسة، وعندما بلغه القطار، ظل رابضا فى سكون غير كاشف عن نفسه، ينتظر أن يزيد القطار من سرعته حتى يعجزوا عن ملاحقته، الآن بينه وبينهم مائة متر، إما القفز فى القطار، وإما الموت ..

عندما ظهرت العربة قبل الأخيرة، قام يجرى صوب القطار، جرى بعنف، رآه أحدهم فصرخ على البقية.. كان القطار يزيد من سرعته.. كيف أمسك بذراع آخر أبواب العربة الأخيرة ؟ لا يدرى.. لكنه اندفع بكل مافيه من عزم، متعلقاً بدرجات القطار السفلية واستقام واقفاً، كانوا وراءه يجرون، والقطار يبتعد عنهم رويداً رويداً، رآهم يخففون من ركضهم فى استسلام، صرخ بعزم ما فى صوته: ارجع يا ابن الكلب انت وهو .

جاوبه سباب وشتائم لا حصر لها، ما لبث أن ضاعت فى الفضاء، وقبضاتهم الملوحة نحوه تتضاءل مع أجسادهم الصغيرة الضامرة

قرفص منكمشاً على نفسه فى قلق بانتظار قدوم محصل القطار والشرطة العسكرية. خوفاً من المفاجأة، قام يتسلل عبر العربات، متوجهاً إلى المقدمة، محاولاً أن يعرف موقعهم

بالعربة الثالثة وجد المحصل، فتراجع عائداً إلى العربة الأخيرة، وفى المحطة التالية توقف القطار، دقائق ثم عاد للسير، كانت الشرطة فى العربة التى تسبقة مباشرة تطلب من الجالسين إبراز بطاقات الهوية، تراجع منزعجاً يفتح أبواب العربات.. لو أنى قفزت إلى رصيف المحطة، وانتقلت الى مقدمة القطار، كنت اتواريت عنهم، هل أستطيع أن أصعد ظهر القطار وهو فى سرعته هذه ؟! كان يحك رأسه متجهماً يحدق فيما حوله يبحث عن مخرج كفأر وقع فى مصيدة .

عندما فتح باب العربة الأخير شاهد الفلنكات تجرى من تحته بين القضيبين تاركة القطار

تهوى إلى بعيد، نظر إلى مؤخرة العربة، رأى سلسلة من المقابض الصاعدة إلى ظهر القطار، لم يكن أمامه خيار، فقد دخل العربة ثلاثة جنود الشرطة العسكرية، استدار صاعداً لأعلى بصعوبة، عندما بلغ سطح القطار لفحه الهواء، هزه بعنف، تماسك ثم قفز لأعلى السطح، عدل من موقعه زاحفاً إلى الأمام، مرتكزاً بجسده على فتحات القطار العلوية، وعندما اطمأن إلى وضعه قليلاً تمدد تاركاً الهواء يعصف به، على يمينه ظهر البحر ثانية ممتداً حتى يلتصق بالسماء عند الأفق، على يساره كانت الصحراء شاسعة تلتقى هى الأخرى على مبعدة بالأفق الآخر للسماء، كان يندفع فوق ظهر القطار ينهب الأرض نهباً متجهاً إلى الغرب، والسماء قبة تنحنى فوقه، نقطة تافهة ضائعة فى الفضاء .

-٣-

ملقياً بجانب رأسه على سطح القطار، محدقاً نحو البحر والسماء والشمس الراحلة إلى الغرب، تنعكس أشعتها فى عينيه بين قينة وأخرى، تراءت له موجات الألم العميق، والساعات العصيبة التى عاشها على مر حياته، صور متتابعة، صور مشوشة يدفعها عقلة الباطن التساؤلات المضنية من اللاشعور إلى اللحظة الراهنة .

انظر لهذا الجدب، هذا العراء، معلقاً من ساعديك كوطواط موت، تنطلق فى أحشاء قبة السماء على الخط الفاصل بين البحر والصحراء مندفعاً كسهم وحيد، لا تدرى أكان الألم المنبعث من معصميك أقوى، أم من ساعديك، عضلات كتفيك الممزقة، أم هو الألم المنبعث من عقلك، بقعة من تراب سدود، صحن جبن ، نار منقد وإبريق شاى، لماذا الاغتراب ..؟

ماهو الخير؟ ما هو الشر ؟.. يا ابن عبد الجليل. كنت بعد فى الثانية عشرة من عمرك، قطعة نقود معدنية فقدت من محفظة أبيك، دفعك المجنون للعراء، قيدك بحبال النخيل، وزوجة أبيك تهمس فى أذنه: شيفاه بعينى يدعبس بالصديرى . اسأل البحيرى .

.. مدرس الرياضة أخذ منه قلمه الحبر الصينى، وهو يبتسم له بلطف : مش قلمك ده قلمه .

كتم صرخة داوية فى صدره، وهو ينظر إلى مدرسه العجوز بنظرة ألم، كان واثقاً من أننى سرقته. هتفت ضارعاً:

- القلمان متشابهان، هو اللى ضيع قلمه .

إيمان أستاذه أنه سرق، لم يعاقبه بالضرب، لم يطرده من الفصل، لم يوبخه أمام التلاميذ، لم يكشر حتى فى وجهه، لكنه كان مقتنع بأنه سرق قلماً لم يسرقه، لم يستطيع أن يشرح ثانية، لأن التلاميذ بالفصل أصدروا حكمهم عليه، ألم، ألم.. كان يخنق روحه، عار عاش به أياماً طويلة قبل أن يغيب فى عالم النسيان .

جأر بالصراخ وهو على سطح القطار، تلفعه تيارات الهواء بعنف والألم يعصر معصميه،

الكراهية ابتلعها - وهو بعد فى الخامسة من عمره - من عبد الرحيم ونعمات وإخوته والصبية ينبذونه، الكراهية وهم يكررون معه لعبتهم القاسية كل يوم، الكراهية وعبدالرحيم يتفنن فى ضربه، المقت لذاته، عندما ضرب أخاه الأصغر محمد، وهو يكرر اللعبة معه، عزله، ونبذه، الكيد له، جمع الصبية للتسلية والسخرية منه، حرباً طويلة شنها ضده دونما سبب، عراك وضرب غاشم متواصل، وكأن محمد الصغير يستطيع أن يتحمل منه كل هذا العنف، كل هذا التحدى لكن ما كان يدهشه أنه يستميت فى المقاومة .

يوم جاءت جارة تشكو عبثه بأحد مداود البهائم، لا يفهم كيف عجز عن أن يمسك نفسه، لقد أخذه على غرة ولطمه على وجهه بعنف بالغ والصفعة المفاجئة التى صفعها له تحولت إلى سكين حاد ظل يؤرق ضميره دون توقف، مات محمد فى حادث مروع، لحظتها نظر الصغير له بدهشة، وقد طفرت من عينيه الدموع، لكنه لم يبك أبداً، وهلة ثم عادت لعينى الصغير، نظرات التحدى، اللعنة على كل مداود البهايم، اللعنة على اليد التى صفعتك، لتقطع ولتأكلها الكلاب ، اللعنة على من علمك لعبة العبث بآدمية الآخرين ..

جأر بالصراخ وقد امتلأ قلبه بالبؤس الحزين، ينادى أخاه الصغير الذى مات دون أن يعتذر له، دون ان يسأله الصفح، اللعنة على كل الآباء والأبناء الذين يورثون أبناءهم الكراهية.

مثقل الضمير مغترب، لو استطعت أن أعيد الزمن الى الوراء لقبلت يد الصغير طالباً الصفح، نظرة الألم التى تركها محمد فى الذاكرة، ظلت تعذبنى طوال حياتى، لعنة الله عليك يا عبدالرحيم أنت ونعمات وعلى ألعابك الشيطانية، كنت ابن أبيك وابن أفعاله .

.. جأر فى الفضاء، أكرهكما معا، وأكره هذا المسخ المدعو عبدالحميد، لقد تآمرتم على، وأنا أقدم لكم كل ما أملك على طبق من فضة لقاء قليل من الحب، كيف لى أن أعرف أن أحداً لا يحب أحداً، وأن كل شخص يريد أن يسلب روح الآخرين، أكون الزاهد الوحيد، أم الأشد حماقة ..!!

أناخ بجسده على سقف القطار وقد صارا معاً قطعة واحدة، وعيناه لا تطرفان، تنعكس عليهما صور الروابى الواطئة، والجزر الملحية المتناثرة، وشريط الأرض، ونباتات الصحارى، وصفحة البحر اللانهائية، وهى تجرى متتابعة تتباعد خلف القطار لتسكن واحدة خلف أخرى فى البعيد اللامنتاهى، كل شىء يهبط فى اللاشعور .

-٤-

غابت الشمس وخيم الليل بكآبته على الكون المترامى الأطراف والصحراء خيمة من الظلام، والبحر مرايا مطفأة، وزبد من زؤابات الأمواج، وانعكاسات لأشعة النجوم، وهو ممدد فوق سطح القطار، مندفعاً مثل سهم يغوص فى قلب الظلمة .

ألا أيها الليل هل لك من صباح

اقشعر جسده والبرد يمسك بتلابيبه، والألم يمسك معصميه ناداه دفء وأمن الجدران الأربعة المسقوفة بالخشب والطين، وجسد امرأته الضامر ورقة قلبها، حاول النزول من سطح القطار، عائداً لداخل العربة، لكن الظلام والخوف من السقوط تحت عجلات القطار، دفعاه للصبر على البرد والرياح وهزات القطار أمواج تغزو جسده بالعذاب.. ومن بعيد ظهرت أنوار السلوم، وكان قد ظن أنها لن تظهر بعد أن خدعته مراراً أنوار المدن الصغيرة الزائفة

تسلل خارجاً من المحطة، منزوياً على نفسه، ضاماً معطفه الأسود حول جسده، مخفياً وجهه داخل ياقته العريضة، هبط إلى سفح المدينة مسرعاً متحاشياً حرس الحدود والشرطة المصرية وأبناء المدينة، لا يلوى وجهه على أحد، وعندما ترك المدينة خلفه عابراً الطريق الأسفلتية جنوباً إلى الصحراء، جلس يأكل والفكر يعصف بذهنه، غامرة تردد جارف وهو على وشك المغامرة... سبعمائة كيلو متر لبنى غازى، تمشيهم على رجلك .. !! لأ، امشى حد طبرق مائتى كيلو متر، ولا تمشى لحد درنه أربعمائة كيلو متر، أيوه، خمسون كيلو متر فى اليوم ..

ثمانية أيام مشياً، يا نهار أبوك أسود، هل تتحملنى قدماى المنهكتان، ارجع يا ابن عبدالجليل، انت النهارده جوه مصر، تركب القطار اللى كنت فيه، وبكره الضهر تكون فى دارك يا عبدالله، بس العيال بتوع مرسى مطروح ح يستنوك بكره وبعد بكره، مش ده المهم، الفلوس اللى راحت عليك، فلوس تجيب بقية الفدان وجاموسة .

الواد اللى فى بطن مراتك لازم ينزل يلاقى طين يقدر يصرف عليه، يعلمه، مش لازم يتربى فى الشوارع زى أبوك ما رباك، الذل وهذا الليل، لازم يكون له نهاية.

عند هذا الحد من التفكير انتفض واقفاً على قدميه، اندفع سائراً باتجاه الجنوب فى التفاتة طويلة عبر جبال البطنان، فى دورة واسعة حول مدينتى السلوم ومساعد، عائداً من جديد إلى طريقه الطويل، والوحدة، والليل العويل

الفصل السابع والثلاثين

-١-

وحيداً فى عمق الظلام تجرى متتبعاً من عمق الذاكرة رحلتك الأولى، تطوى الرمال، تغوص فى طيات كثبانها، تتعثر، تنهض لاهثاً، تتسلق الجبال ، تتوالى سلاسلها لا تنتهى، تزحف فوق صخورها بصبر جنونى، تنغرز شفراتها في باطن قدميك وتنسحب نزيف أسود..

وحيداً تغوص فى قلب الظلمة، تطوى المسافات والزمن.. كل شىء أمسك أنفاسه، توقف بذاته عن الصيرورة .. والمكان ينحسر عن العذاب المحض .. تتلوى بين شقى آلامك الجسدية وعذابك النفسى.. وطاحونة الأفكار تعصر خلايا عقلك، تسحقها كرأس وقعت تحت جنازير الدبابات الثقيلة.. لم تعد الأشياء التى تتنافس على تعذيبك تكفى.. الآن يفيض العذاب ممتزجاً بالقهر من ذاتك ظلاماً ..

مثقلاً بالضآلة، موغلاً فى الصغر، ورقة خريف تطيح بها العواصف، تتساقط فى دوراتها الحلزونية لتنتهى بك إلي مكان مجهول، حشرة تدهسها المدن الغريبة ؟ .. هذه الصحارى القاحلة .. هذه الأراضى الجدباء .. هذه المدن تتيه زهواً وخيلاء.. سدود وبابك الموصود.. بينى وبينك حدود وحرس مشدود وأسلاك شائكة وطرق معبدة بالشوك.. سدود متى أعود.. الحياة خارج حدودك عدم ، موت بهيم، تذكرة للجحيم، وأنت واحة من الدمار، جزيرة للشجن.. وهن أسيان وسط بحر المحن.. سدود وبابك الموصود، بينى وبينك صحارى ، وهاد عميقة، جبال تطاول السماء ومدن تضوى بأضواء الكراهية.. أخاف وكل ذرة فى جسدى تنادى ضوء مسرجة يطل من كوة فى دورك الدافئة ، حصيرة ممزقة ، فرشة على جسر

ترعة، قطعة من سندسك الأخضر، منقد مولع بالحطب تحت القمر وصحبة من البشر ..

أجرى ثم أجرى، أسقط منهكاً ، ألتقط أنفاسى وأقوم لأجرى، تتشابه المسافات ، لكنى أظل أجرى.. أسبح فى بحر الذباب البشرى، تعبث بى كتل من الديدان.. هذه العصابات الدودية من أباح لها نهب دمى ..

سدود يا واحة من الدمار المرير أسير فى الهجير.. أين المصير؟ .. هذه المسافات التى أطويها تحملنى بعيداً عنك ، ضاع الطريق .

قعقعة السلاح ، نداء جهورى.. منو هناك.. التجمد فى المكان.. القعود على الأرض لا تتحرك مختفياً من أضواء كشافات حرس نقط الحدود الليبية .. حائراً لا تدرى ما تفعل، وصوت كالأزير يدق الأرض يتصاعد يهزها يملؤك بالفزع فى الظلام.. المدرعات الليبية تتحرك على الطريق، لا تجد بداً من البقاء فى مكانك، وكل جزء من جسدك يناديك أن تعود..

الحدود وراءك الآن، أغمض عينيك تغفو قليلا، وصوت اللواء الغمرى.. ينادى عبر اللاسلكى.. أين المدرعات.. أين الحماية الأرضية..

بعد الزواج بشهرين.. فى الصباح الباكر جاء استدعاء من القوات المسلحة.. نجاة وحدها ودعتك بقلق ..

– هى الحرب ح تقوم تانى ولا إيه..؟

تجيب بابتسامتك العريضة، وعيناك تتألقان كعادتهما عندما تبدو عارفاً بالأشياء : حرب إيه يا نجاة، جارى فك الاشتباك و المفاوضات على قدم وساق.. أمسكت يديه ،.لا ينسى نداوة الكفين ، والدفء يجرى إلى القلب شلالات من المحبة، وعيناها نجمتان تومضان بالقلق، ترعاه حتى يغيب فى الطريق الذى يبدأ من الكنيسة وينتهى بالجسر الحديدى على المصرف الكبير .

فى طريقك الى الكتيبة، تحدق من نافذة القطار ، تمسك بوجهها وقلقها عليك، تتذكر ..

كانت كل محاولات الزواج التى جرت أثناء وجوده بالخدمة قد باءت كلها بالفشل ولكن بعد عودتك الأولى من ليبيا أصبح زواجك مهمة الجميع من حولك أخوتك أقاربك أصدقاءك، وكانت أمامك.. ناضجة شهية فى التاسعة عشر من عمرها، يمتد عودها الخمرى رشيقاً يانعاً .. لم تعد تلك الصبية الصغيرة التى صفعها يوماً وهى فى الثانية عشرة من عمرها خوفاً على سمعتها من معاشرة المهاجرين .. لم تعد الطفلة الصغيرة الساكنة التى تجرى مهللة إليه كلما عاد من الجبهة ، يتلقاها متجهماً ، وتتراجع حزينة لتجلس على مصطبة دارهم ، تمد رأسها وسط أقرانها تنتظر قدومه ، وعينيها الناعستين تحيطان به ، تتبعانه

بصبر وأناة ، تنقل له بنات أعمامه حزنها لما فعلته معه بنت الحسينى ، غضبها لاستيلاء إبراهيم على ما ادخره لديه .

أثناء تسجيل عقد شراء الأرض بعد عودتك الأولى من ليبيا ، عزمت على الاقتران بها .. عارضوك جميعاً ، فقيرة وأهلها من يكونوا .. ؟!

عندما علمت بمعارضتهم ، وكان كل ما يدور بداره يصلها حرفاً حرفاً ومن فم أمه .. انطوت جريحة ، وأغلقت باب دارهم ، وابتعدت عن طريقه ، أما هم فقد تقاتلوا عليه بشراسة .

.. علية زوجة عبد الرحيم عرضت عليك أختها نبوية .. لم يكن ليستسيغ زوجة أخيك ، فكيف بأختها ووجهها الشاهق البياض ، الباهت الملامح .. يكفى من الدست مغرفة .

.. زوجة عبد الحميد قالت : بنت عمى، أما نعمات فقد عزمت على أن تزوجك لابنة زوجها وميراثها من أمها ، ضاربة برأيك الشخصى عرض الحائط .. لحظة أن شعرت علية بأن الأمور لا تجرى كما تشتهى ، أشاعت بأنك تقدمت لخطبة أختها بالفعل ، لكنهم رفضوك – ولم تكن قد فعلت – وحدثت هي الجيران: كيف تتزوج ابنة شيخ فاضل من حشاش ، وفاسد فاسق ، يضيع نقوده على سهرات الحشيش والخمرة.

أما نعمات فقد جاءت بك وسط مجلس العائلة، ملأت الدار صياحاً.. كيف تتقدم لابنة زوجها، ثم تنكث بوعودك بعد أن حصلت لك على موافقة أهلها، لقد فضحتها فى الدرب، أين تذهب بوجهها الذى أكله الناس، وأقسمت أنه لن يؤذن أذان هذا العشاء حتى يذهب معها عبدالرحيم والحاج رزق إلى منزل العروس حيث ينتظرونهم لقراءة الفاتحة، مهدده إذا ما حنث أخوها الأرعن بوعده فسوف تلقى بنفسها فى النعناعية .

كان مذهولاً حانقاً يملأ الغضب جوانحه، كيف تستبيح لنفسها الكذب ثم تصدق كذبتها، كل الذى يأكل رأسها الفاسد ضم أرض العروس التى سترثها من أمها إلى زوجها، حتى ولو كان المقابل جنازته، وبينما تراجع عبد الرحيم عن الذهاب معهم بعد أن أصلته زوجته علية بنظرات محذرة تطق شراراً، قال دون اهتمام: كفاية أبوك الحاج، معاك كبير العيلة، عايزانى ليه. ؟

دمدمت نعمات وهى تكظم غيظها: طبعاً ما هى الجوازة مش على مزاج الست – تقصد عليه –

قام عبدالرحيم إليها ممسكا ببلغته، ينوى ضربها لولا وجود الحاج رزق واختفاء عبدالله من المكان الذى خرج يتنفس الهواء.. فكر .. أشارو الأصدقاء..

– انت ابن كلب، راجع من ليبيا عايق، مش عارف مصلحتك فين، ابعد عن أهلك المصاريع ولاد الحمير، وخد الحمامة الوديعة اللى ح تطير منك يا حمار، ح يخطفها الغراب ويطير، ما يبقى لك إلا الندم، نبوية أخت مراة أخوك عبد الرحيم، بهيمة، لوح تشيله من هنا وتحطه هناك.. غير تقالة الدم ، وعشق النكد دى غية، مزاج فى عيلة الشيخ عبد السلام، ومش ح يهدى لها بال إلا لما تركب فوق دماغك ودماغ أمك وابوك واللى خلفوك، وتدلدل رجليها .. دى صنف عمولة..

– قوم شوف حد كبير خده معاك وخلص نفسك، انت قدامك شهرين ومسافر تانى، اخواتك مش عايزين مصلحتك .

– طب اعمل إيه، رافضين، مش عاجبهم النسب.

خفض كمال رأسه مفكراً: من الناحية دى ما تشيلش هم، لو نطق واحد بكلمة ح ينضرب على صدغه بالبلغة، يوم الخميس تاخد أبوك الحاج رزق تقرا الفاتحة ، أسبوعين تنهى كل شىء وتدخل على عروستك .

طوال الشهر كانت تعبر الطريق أمامه حمامة من الجمال، تبتسم كشمس الربيع، لم يحضر أحد من اخواته الفاتحة ، قاطعوا شراء الأثاث، وأثناء كتب الكتاب والدخلة، وقفوا غرباء .

فى ليلة زفافهما خجلت منك، اختفت تحت شرشف الفراش، وعندما أتيتها دفنت عريها فى عريك، طوال الليل كنت تطوى بين ضلوعك أزهاراً وندى، واللذة تفيض عذوبة، من أين تتفجر ينابيعها، الخمرة التى ترشفها من عينيها الهادئتين، جسدها النهرى المشوق ، تسبح على صفحته طائراً، وتحط فيه على شواطىء من الجنة .

-٢-

الآن تجد المدرعات، طوال طريقك إلى الكتيبة كانت تثير الغبار، تطوى الأرض بجنازيرها الثقيلة، وأمام إحدى الكثبان الرملية هاجمك الصوت الذى تذكره جيداً، الطيران المنخفض، ثلاث طائرات سوخوى، رفع رأسه يتابع اختراقها لحاجز الصوت، وبجوارة مباشرة، كادت إحدى دبابات الـ ٦٣ ت الثقيلة، توشك أن تتحك بك، قفز جانباً ملقياً بنفسه على الأرض، وعندما قام كان قائد المدرعه يصرخ به ساخطاً : ايه أنت ماشى فى صحراء يا دفعة ؟

– أمال ماشى فى شارع رمسيس!

ضحك طاقم المدرعة وقد أمطره وقوفها المفاجئ بوابل من الرمال ، أثار منظره الإشفاق، قال جندى: خد بالك.

– وانت طلعت منين ..؟

ظهرت مجنزرة القيادة .. أشار قائدها وعلى وجهه ملامح الاهتمام لقائد المدرعة بالتحرك ، نادى عبدالله: أنتم بتعملوا إيه؟

– مناورات ..!

قال آخر: مناورات للاستيلاء على المحاجر .

لم يسمعه ، صاح : إيه ؟

ردد الجندى: المحاجر، وأشار ناحية الشرق .

الآن يعلم أين تذهب المدرعات.. تابع سيره وعلى جانبى الطريق شاهد جماعات من

الأعراب، يجلسون فى حلقات متناثرة، وعلى وجوهم معالم الوجوم والبغضاء، القى عليهم السلام فلم يجبه أحد، سار لا يبالى، وقبل أن يصل موقع لواء الصواريخ ارتج المكان بقصف جوى على مبعدة كيلو مترين، ارتفع وجيب قلبه، والشك يراوده، أهى الحرب..؟ استجمع نفسه، وشدد خطاه، دلف إلى مكتب اللواء مسرعاً، وهناك تجمد مشدوداً فى وقفة عسكرية، كان قائد اللواء الغمرى يصرخ على التليفون: أنا مش فاهم أنا باعمل إيه هنا!! قائد اللواء المدرع بيستولى على المحاجر ، وقائد القاعدة الجوية طايح فينا ، يستولى علي الأراضى، يستصلحها لحسابه، والاثنين عاملين مناورات لإرهاب العربان، ومخلينا رافعين درجة الاستعداد.. !!

– سيادة اللواء قائد القاعدة الجوية فاكرنا أسلحة ملحقة، أسلحة فى خدمة سيادته، أنا السلاح الذى حمى الجبهه من ٦ أكتوبر لحد ما انهار سلاح المدرعات، واختفى، زيه زى السلاح الجوى لما اختفى من سماء المعركة، أيام ما كان عدد الطلعات الجوية للعدو فى اليوم الواحد٦٠٠ طلعة مؤزراً بقصف ميدانى من العدو.. ساعتها كانوا فين..؟ الآن ظهروا ، وعايزين دعم منى .

– علشان إيه ..؟ ألف متر مربع محاجر، رمل وزلط لحسابه الخاص، لم تكفه المحاجر التى ضمها وشغلها على طريق السويس، والكارثة كل واحد مشغل معدات الجيش لحسابه، الجنود العادة والحرفيين والمؤهلات، سرايا المهندسين الملحقة سخرة، معدات بملايين الجنيهات .

– ملك مين، الأعراب، أعراب مين، دى ملك البلد ؟

– الدفاع الجوى هو حمى الجبهة أثناء العبور، هو اللى مكن فرق المشاة من العبور، والاستيلاء على شرق السويس، بدونه ما كان هناك لاحرب ولا غيره، طيران مين، قادة بيتصرفوا وكأنهم أباطرة .

– أيوه حدث تصادم بين مجموعة من ضباطنا وضباط الطيران، عاملونا بطريقة مش محترمة .

– .. أنا عارف.. لأ.. أنا ما قلتش عندى صواريخ بالستية أو عابرة للقارات، الجهد الرئيسى والاحتياطى، الجنود العادة والمؤهلات، معدات الكتائب المعاونة، كتائب المهندسين شغالين فى تسوية الأراضى، وبناء أسوار، ومد قنوات للرى، وحفر جور لزراعة الشتلات .

– ويحتاج مناورات بالدبابات، وطلعات طيران، ورفع حالة الاستعداد عندنا، ليه..؟ أمال لو إسرائيل حاربتنا ح نعمل إيه .

– أقول الكلام ده لأن أنا مش طرطور، مش كداب زفة – كان اللواء الغمرى منفعلاً يكاد يطفر الدم من وجهه –

– أخد، أخد إيه ، خمسة آلاف فدان، يبيعهم بالقطعة .

– معروض مائة فدان للكبار، المهبط الرئيسى .

– جمعية اسمها المنزلة .

– العربان ياخدوا مبلغ صغير ترضية، المشكلة مع عربان المحاجر .

– أنا.. لا.. شكرا، منظرى إيه أمام جنودى وضباطى، لما أسخرهم، وأسخر معدات

فرقتى لحسابى الشخصى، وأغتصب أراضى ملك الدولة، ده مفرغ رائد شغلته ناظر عزبة .

– الحرب انتهت !! مين اللى قال إن الحرب انتهت .. كان وجه اللواء الغمرى، يسود وهو يرد على محدثه.. فصل القوات، طبعاً، طبعاً مع سيادتك حق، كل واحد لازم يدور على مصلحته، تقصد ينهب اللى يقدر عليه، البلد بقت عزبة .

– معاك حق، طول عمرها عزبة .

– طيب، طيب بكره ح اقدم استقالتى .

كان العقيد عادل صبرى دافناً رأسه فى غابة المستندات، رفع رأسه مدهوشاً لسماعه كلمة اللواء الأخيرة، نظر إليه مستفهماً.. عاجله اللواء الغمرى بالسؤال: هه وإنت ناوى تعمل إيه ..؟

ضحك العقيد عادل صبرى، تراجع إلى الخلف مفكراً قال وهو يبتسم : أجهز للهجوم على القطاع العام.. ربما المحليات .

وقف عبدالله مبهوتاً، أفاق على الصوت الكثيف المكسور للواء الغمرى يحدثه: أنت بتعمل إيه هنا يا عبدالله، هم استدعوك ؟

شد من قامته مؤدياً التحية العسكرية بقوة بالغة، رافعاً صدره للأمام كما فعل أمامه وهو يقلده وسام البطولة، وكأن لسان حاله يقول، أنت قائدى الوحيد حتى ولو استقلت .

– تمام يا افندم، لسه واصل .

ضحك اللواء ضحكة هادئة واستلقى على مقعده:

– أخيراً وجدنا المدرعات ..

سرح ببصره بعيداً وقد نسيه، ناداه العقيد عادل صبرى بصوت خافت: سلم نفسك للمساعد أول الضبع .

صفق بقدميه الأرض مؤديا التحية العسكرية، عندما خرج كان شيئاً غامضاً يعتصر قلبه، وحشاً أسطورياً غامضاً يكمن فى مكان ما ربما خلفه، ربما يملأ الفضاء، يمتص عظامه يلتهمه ، ويتفله بسخرية .

كان قد بلغ حدود الأراضى التى ينوى قائد القاعدة الجوية الاستيلاء عليها. ألف وخمسمائة فدان. هى الامتداد الطبيعى للأراضى التى اغتصبها واستصلحها من قبل، وأمامه وقف عشرات الجنود يمدون على مرمى البصر الأسلاك الشائكة ، ومجموعتان للمساحة تقومان على مد الشواخص المساحية، يحددون مواقع الأسوار، وخلفهم عشرات الجنود يقومون على حفر الجور التى سيتم زراعة شتلاتها .

وقف مبهوتاً: سخرة يا ابن عبد الجليل.. دى عصر السخره ياوله .

كان يشهد حدثاً جللاً.. ألف وخمسمائة فدان، لم يدفع فيها مليماً، لا فى شرائها ولا فى استصلاحها، ومحاجر تدر ذهبا، شعر بانقباضة قوية فى قلبه، وقد أمسك الخوف بتلابيبه، وداخله، يتصاغر، يتضاءل، ورأسه تقيد بقيود حديدية ضاغطة، خمسة آلاف فدان تحت سمع وبصر الجميع، وقائد لواء مدرع يستولى على المحاجر، ثراء بلا حدود، وفقر بلا حدود، سلطة، ونفوذ، واستبداد ساحق، ضآلة وضياع .. تابع سيره متمهلا، وعلى مبعدة ثلاثمائة متر رأى كل منهما الآخر، كان صلاح عقل يشير إلى سائق جريدر برتبة رقيب يقوم على

تسوية الأراضى وتمهيدها للزراعة، كان مكتئباً حزيناً، تصافحا، سأله صلاح: إمتى حضرت ؟

- اليوم .
- أنا هنا من أسبوعين .

بجوار خيمه منصوبة جلسا القرفصاء يتناولان الشاى .

- كيف حالك ..؟

نظر أمامه غاضباً قال: لا أرى سوى كارثة، فى الغرب يتشكل نوع جديد من البشر، نوع ينطوى على تطور نوعى للكائن الحى ، إنسان يسيطر على قوى علمية ومادية مرعبة تمكنه بتسارع من السيطرة على كل من الطبيعة والمجتمعات المختلفة، سوف يشهد القرن القادم أول تطور نوعى فى الجنس البشرى، البشر المتفوق والبشر القردة، الإنسان السوبر والإنسان العادى، لن يقبل بوجودنا الطفيلى على سطح الأرض فى الوقت الذى لم يعد هناك فيه أية منفعة من وجودنا، الإنسان السوبر قادم، ونحن لا نزال ننظر للوراء، منظومه أفكارنا مكبله بقيود غير مرئية من الماضى تكبح فينا إمكانية التقدم، نعجز فنخفى رؤوسنا فى الرمال، ونبرر تخلفنا بشتى الحجج، سنُزال من على وجه الأرض بملقاط، كما تزال الأمراض والحشرات الضارة، سنُزال ونحن على هذه الشاكلة من التخلف والفصام الجمعى، سيحتفظ بعينات منا فى حدائق التاريخ بجوار القردة والنباتات القديمة، سيلقى بتاريخنا إلى المزبلة، كهن بلدوزر من آليات الجيش ثمنه ربع مليون جنيه، فى استصلاح أراض ليست ملكه ، وسخر عشرات الجنود والضباط للغرض نفسه، أرضاً ومعدات ملكى وملك كل مواطن، هذه النخبة التى تقود الوطن لا يمكن الركون إليها، إنها تتشكل من اللصوص الذين ترعرعوا بين أحضان القطاع العام، والمافيا التى شكلها الرئيس المؤمن وطبقة الباشوات القديمة، السمة المشتركة بينهم جميعاً هى كونهم لصوصاً، كيف يتسنى أن يسلم لهؤلاء مقادير الوطن، وهم لا يعرفون سوى النهب والفساد ، لا يجيدون سوى الطرائق الدقيقة لإنتاج التخلف .

انهياراً مريعاً يحمله القرن القادم لنا، هذه عصابات وهؤلاء هم قادتها، قادة هزموا نفسياً قبل أن يخوضوا الحرب، قادة تخلوا عن مهمتهم الأساسية وهى حماية الوطن، وتفرغوا للنهب المنظم، طغمة ليس فى خطتها مكان للفقراء، مات عبد الناصر، مات أبو الفقراء، مات بعد أن دمر العقل المصرى، وتشرذم اليسار وتلاشى بعد أن خاض حرباً ضروساً مع نفسه، والآن لم يعد للمحرومين راية، أخبرنى عبدالجليل.. عندما لا تكون فى الأفق راية، أين تذهب الخيول..؟

الفصل الثامن والثلاثين

-١-

وحيدا فى عمق الظلام تجرى عائدا إلى الجحيم، وقد تحول الزمن إلى عذاب محض، تطوى بقدميك جانب الطريق الأسفلتى المتجه إلى بنغازى للمرة الثالثة، فزعا من أضواء السيارات كحيوانات الجبال الضئيلة، تلقى بنفسك جانبا كالملدوغ لاهثا، تتنفس العداء فى كل شىء يحيط بك ، هذه الرمال التى لا تنتهى، هذه الأراضى اليابسة، هذه الصخور الحادة، هذه المدن، مساعد، مدينة الحدود الصغيرة، طبرق عشيقة البحر، يهجرها أصحابها تحسبا للقصف المصرى المقبل، لماذا تدمر أجهزة الرادار، استعراضا للقوة..! أضحية تقدم لآلهة جديدة.. هذه الطوابير العسكرية التى لا تتوقف عن الحركة باتجاه خط النار الجديد، تثير فى قلبه الفزع.

مثقلا بالضآلة موغلا فى الصغر تجرى، تطوى جوانب الطريق الأسفلتى تقاتلك أشباح الذاكرة، وجه تاجر العملة الحاج حسن، عقيد الشرطة، وجوه فصائل الأمن المركزى على السور الدائرى لكوبرى مشاة التحرير، ذئاب دموية ضارية، تطاردك، تلحق بك، تحاصرك تحيط بك، تشرع فى نهشك، اطلع على اللورى يا ابن الكلب، انت رايح فين؟ تجيب حقك، عدى روح بلدك .

وجه ابن عمك رضوان الساخر فى مودة، وجه حسن خليل اللامبالى، يسبح فى ضباب الحشيش، حسن مرعى وأعضاؤه المتناثرة على طول فلنكات السكة الحديد، جمعتها قطعة قطعة كى يصلوا عليها فى النعش المخضب بالدماء.

كمال عبدالجليل يحاصرك صوته كسوط يلاحقك:

.. لا .. يا ابن عبدالجليل.. لم يعد فى هذا الزمان للفلاحين مكان، قطعوا خطوط السكة الحديد والطرق دفاعا عن سعد باشا زغلول، طب ماذا اعطاهم الباشوات، وزعوا عليهم

الارض ..؟؟ مستحيل.

– والدفاع عن الوطن ضد الاحتلال الانجليزى .

– معاك حق طيب.. بعد كده الوطن يكون ملك مين ..؟

– طب وانا ..! حاربت الموت والاحتلال على جبهة القنال .

– فهمت سر غبنك، اشرب ثمن جهلك.

.. ايام طويلة فى العراء، اتمني لو اغتسل.. آه .. لو استطيع الاغتسال من الرمال، وقبح الرجال، والجرب النفسى، والزمن المهدور، والبنور، حقل النور المسحور، البحر ع الشمال، يغسل ارض الخليفة منذ ملايين السنين، اجرى يا ابن عبد الجليل، ثمة شبح يفارقك يخرج من جسدك ضخما طويلا يبلغ حافة السماء، يغادرك باتجاه البحر يسير وئيدا ثم لا يلبث ان يهبط تأخذه الامواج ويرحل، تذكر النعناعية واجساد الرجال تستحم فى مياه النيل قبل الوضوء واثناء صيد السمك، الجسد العارى القوى، عضلات الظهر.، الإليتين المدمجتين الخاليتين من الشحوم، كيف بها بإليتى التجار الثقيلة الناعمة، الصدر المصبوب من الرخام الصخرى والذكورة القوية تخب اسفل المياه، من يخصب هذه الاراضى البكر ..؟؟ من يخصب وادى النيل كل عام، اوزوريس ايها الحامل للمياه والفاس، اخرج من جسدى، من وسخى، اغتسل وانتقم .

وحيدا فى عمق الظلام تجرى، تطوى المساحات، والمسافات، والزمن، أشباح تطاردك، وجه زوجتك الصغيرة، قائد القاعدة الجوية، لواء المدرعات، الأول قصير القامة ، ذو السحنة التركية، والثانى ضخم عربيد، اللواء الغمرى تاركا مقر قيادته، مخنوق الوجه، وقد داهمته الشيخوخة ، لمح القائد الجديد ونائبه يضحكون فى تواطوء.

وحيدا على رمال الألم كان يطوى الطريق إلى بنغازى طيا، مضموما محصورا بين شقى رحى، جسده الذى يفيض بالألم، وعقله المطحون يفرز مخاطا أسود من الأفكار المتلاحقة، صلاح عقل يحدثه:

– عرب النفط يكرهوننا، لايرونا إلا جنودا تموت فى المقدمه، وهم يلقون خطب التعضيد من على مراحيض الدهب، بينما خناجرهم تمتد إليك من الخلف فى الخاصره، امرح وافرح لأن عرب النفط هم الامتداد الطبيعى للاسلام المعاوى، الذى جعل من مصر شرايين تصب دمها فى سلة الخلافه السياسيه الف واربعمائة عام، افرح وامرح إذن لأن جسدى وجسدك سيكونوا مرعى للقصف النووى الذى سيحل بالقاهره، سيتصالح العالم على حساب عقولنا المخربه.. شىء ما يعشعش فى عقولنا، كائن ضبابى يحجز الرؤيه والبصر، ربما يحتاج مبضع جراح، او ينتظر حتى يطيح به انفجار فطر عش الغراب.

وحيدا فى عمق الظلام تجرى عائدا إلى الجحيم، وقد تحول الزمن إلى عذاب محض، تطوى بقدميك الأسفلت المتجة إلى بنغازى للمرة الثالثة، تتنفس العداء فى كل شىء يحيط بك ، فزعا كطيور مهاجرة تطاردها قوافل الصيادين .

مثقلا بالضآلة موغلا فى الصفر تجرى ، تقاتلك أشباح الذاكرة، على حافة الأفق امتد طابور طويل من المدرعات ونجمتها السداسية، القبعات وهراواتها ، المافيا وأصحاب الأقنعة، تقطع عليك الطريق تحاول احكام الحصارو فهل لهذا الليل نهار ..

.. التف يا ابن عبدالجليل.. ناور.. ابحث عن منفذ للعبور للزمن القادم

-٢-

فى مساء اليوم الرابع لتسلله عبر درنه منهوك القوى، وهدة صغيرة، ألقى بجسده يحاول أن يلتقط أنفاسه ، غاب فى نوم عميق، أشرقت شمس الصباح وعبرت الضحى إلى الظهيرة وهو ممدد جثة هامدة، وعندما بلغت الربع الثالث من السماء، شعر برطوبة تبلله، رفع رأسه متعجبا، أعلاه مباشرة اصطدمت عيناه بعينى رجل فى منتصف الأربعين، قصير القامة، عريض المنكبين، بقايا شعر مدها من جانب الرأس إلى المنتصف، كان يتبول، تراجع الرجل منزعجا باعتذار:

- آسف، انا ما شفتكش، بتعمل ايه هنا يا ابنى؟

سمع لهجته المصرية بوضوح، قام واقفا، على وجهه سيماء البؤس، نظر الرجل إليه بخوف، كان يرى هيكلا عظميا يقف أمامه متهالكا .

- انا، انا رايح بنغازى .

- بنغازى ليه، انت، انت معاك اقامه ؟

قال عبدالله وهو ينظر إلى السياره الفيات من طراز ١٢٤ وقد امتلأ قلبه بالأمل: لأ.. سلكاوى.

- الله طب رايح بنغازى تعمل ايه ..؟

تحدث عبدالله بصوت ممتلىء بالرجاء والتوسل: فلوسى ، اعطيتهم لراجل يحولهم مصر فى السوق السوداء مقابل ٤٠٪ ، لما وصلت مرسى مطروح تاجر العمله انكر وصول مليم له، اعطانى مائة جنيه ، طب انا لى ٩٦٠ دينار، الف وثمانمائة جنيه مصرى .

هز الرجل رأسه بحزن: يعنى انت عديت الحدود ورجعت تانى ؟

- ..

- ورايح بنغازى ..؟

بكى : انا مقدرش احكى ايه حصل.. رجلى دى مكسوره، المسمار البلاتين اللى فيها اتخلخل .

- رجلك مكسوره.!.. طب دا انت عايز دكتور ..

- لا دى وارمه، اقدر امشى عليها بس.. بس حضرتك رايح فين؟

- بنغازى.

- ابوس رجلك خدنى معاك، ابوس رجلك وحياة اولادك. سقط على الارض منهارا وبكى، كل شىء كان يعوى فى داخله.

– قوم يا ابنى قوم، تعال انا ح اخدك بنغازى .

قفز وراءه قفزا.

– الف وثمانمائة جنيه، ياه، وطبعا مش منك بس، لأ .. حرام تروح عليك فلوسك، ولاد الكلاب، طبعا عارفين ان ما حدش ح يرجع بعد الحرب، عصابات محترفه تستحق الاعدام.

– كان واقف عند بيت الراجل اكتر من خمسمائة نفز.

– ياه ، شوف البنى آدم، لما انت ومئات الالوف غيرنا، تكد وتعرق وتطفح الدم علشان تعلم ابنك او تصرف على اهلك، شقه تتجوز فيها، بدل ما الشاب يخلل ويكبر ويشيخ ، ييجى كلب لا يساوى تعريفه، يساعده وزير وعميد شرطه وينهبونا، احنا عمرنا يتحرق وهم يعبوا من الفلوس بلا حساب، انت تمشى فى عبد الخالق ثروت او شامبليون تلاقى تجار العمله واقفين على ابواب المحلات والاكشاك والهيروين قدام مدارس الاطفال يباع علنا، وعلى بعد خطوات واقف رائد شرطه يرتدى نظاره شمس احدث طراز، والطبنجه فى وسطه علشان يرهبك يا غلبان، وانت مش محتاج لحد يرهبك، لأن الخوف لابس عقلك، هو شايف التاجر وعصابته ولا يقرب منه، طبعا تواطؤ مدفوع الثمن، فالح بس يصرخ بصوت حاد .. انت هناك اطلع علي الرصيف، يشاور بفتونه وهو واقف عاوج راسه وفارد رجليه وايده فى وسطه زى كاوبوى.

الحياه فى مصر كابوس، عفن، تعرف، انا كنت باشتغل فى شركة مصر للحلويات ٦٠ الف عامل ، كانوا بيشنوا على الحرب، لأنى شريف، اول مره خط البسكويت عطل، بسكويت منفوخ وفيه سكر زياده، عملت خلطه وتركيبه جديده وسلمتها لهم، اوقفوا الإنتاج، لغوه وبعد ستة اشهر اعادوا الانتاج بنفس نوع تركيبتى، ونسبوا الفضل لهم، لما تحصل مشكله يسألونى حلها، ولما احلها يقولوا ما احنا عارفين، اسبوع اسهر فى عنبر الماكينات لا انام، لحد ما اعرف العيب ، لما كانت المصانع خارج القاهره تتوقف عن العمل، واروح كانوا يفسدون العينات، معمل شركة الاسكندريه كان يحط لى دقيق بدل كربونات الصوديوم، اشتغل تبوظ العينه، حضر رئيس الشركه قلت له.. مش انا السبب، تعال شوف المعمل والله العظيم، وضعوا فى العينه دقيق بدل كروبونات الصوديوم، رحت واقف مشمر وبإيدى علمت اربعين عينه بنفسى، تانى يوم كلها نجحت.. لما اعطيت البسكويت اللجنه، الخبير الانجليزى قال حاجه ممتازه، طلب منى التركيبه علشان يحسنها، قلت لا، اعمل انت تركيبه وانا ح احسن تركيبتى .. هه .. قول لى: اسمك ايه؟

سأل لكنه لم يجد إجابة إذ ان عبد الله كان يغط فى النوم العميق، ضحك الرجل وهمس: لا حول ولاقوة إلا بالله، نمت، كان زمانك يا مسكين بتشد الخطاوى على الطريق بياده من درنه الى بنغازى، ضغط فرامل السيارة نزل منها، فتح الباب المقابل، جذب ذراعا يقع اسفل مقعد عبد الله، اسقط المسند إلى الخلف فاستيقظ مذعورا، استقبله بابتسامة هادئة: نام، ريح نفسك اعدلها ونام.

نظر إليه عبدالله شاكرا، ثم غط ثانيه فى نوم عميق . على مشارف بنغازى ايقظه.. فكر. كيف يساعده، اخيرا، قام عبدالله، امامه كانت اضواء بنغازى على مبعدة، هتف : وصلنا؟!

– ايوه بس انت كده تهمه، لو شافك طفل فى شارع ح يعرف انك سلكاوى، والحاله جيم يا اخوى، انت رايح فين.

– الصابرى.

– اسمع .. ح انزلك فى البركه.. اكثر من هذا ستكون مخاطره .. فجأة قال له بحزم: انزل .. وقف بالسيارة جانبا فى منطقة هادئة.

– اخلع الخمسين بالطو والجلابيه اللى انت لابسهم، منظرك شبهه

نظر إليه عبد الله مستطلعا وهو يفتح باب السيارة الخلفى واستطرد: حطهم فى الشنطه دى .. اعطاه حقيبة متهالكة .. خد .. يلا بسرعه، الجو حر وانت لابس زى واحد ماشى فى الجليد .

أفرغ إحدى الحقائب، ثم وقف ينظر اليه مستغرقا فى الفكر : يا ابنى اعمل ايه، قميصك المقطع ده يودى فى داهيه، البنطلون معقول، اخلعه ، خد .. أخرج له قميصا متوسطا من قمصانه .. البس كده، كويس ، اغسل وشك ، بس كده ، اركب ..

سارا لمسافة ثلاثمائة متر انعطف به لإحدى كافتريات الطريق السريع: يلا ننزل ناكل لقمه ونشرب كباية شاى.

حاول عبدالله الرفض فقال له معنفا : انزل وانت لحم على عظم، تلاقى فمك ما داق لقمه من ثلاثه ايام.

– ابدا.

علق ساخرا : ليه كنت بتدخل المطاعم.؟

– كان معاى خبز.

تنهد الرجل لا عنا الفقر فى سره: يلا قوم انزل، بلد بنت كلب.. نزل مستسلما، قبل أن يدخلا، همس له: انظر .. دوره المياه هناك .. اشار الى جانب الكافتريا .. خد المشط، ادخل اغسل وشك وسرح شعرك، ما تنساش تدخل بيت الادب .. هز رأسه موافقا.

دجاجة كاملة وصحن من الأرز والخضار وعشرين دينارا، أصر الرجل أن يأخذها، وبرغم أن عبد الله أراه الستين دينارا التى جمعها له المبروك وهو يغادر القطار فى مرسى مطروح، لكن الرجل لم يبال، كان يعلم فى قرارة نفسه أن عبد الله لن يحصل على فلس من نقوده.

– خد .. خد، احنا اخوات ولازم نسند بعض وقت الشده، ده انت فى ظرف ربنا يكون فى عونك.

فى شارع جانبى لميدان البركة ودعه متمنيا التوفيق ، طمأنه: على فكره ماتخاف، الاوامر مشدده بحسن معاملة المصريين، رغم كل شىء دلوقت بنتعامل احسن معامله، حاجات غريبه، مش كده، مع السلامه.

-٣-

كانت الساعة قد بلغت العاشرة ليلا، أيام خمسة أمضاها على الطريق سائرا على قدميه قبل أن ينتشله المصرى من على حدود درنه، جرى كالمجنون باتجاه منزل صديقه السورى أبو نديم، وقد زاد عرج ساقه المصاب وتورمها.

- ادخل يابنى، ياضنى امك .. الشباب عم بيدور عليك، قلبوا الدنيا ادخل عبد الله.

رد عليها متعجلا : معلهش يا امى ابو نديم موجود؟

- لا ياضنى امك هو بدرنه وبيجى اليوم هو وجواد. اتدخل، انت وين كنت؟

- انا عديت الحدود ورجعت.

- لهوى .. اتجننت يا ابنى.

- فلوسى يا امى ما رضى الراجل يعطينى إياها.

- العمى، ملاعين. كلاب. هادول اللصوص، قالك نديم. كنت اعطيتهم إلُه وهو بيحسن يتصرف.

- اعمل ايه .. اعطيتهم لجبران ومفتاح، طيب يا امى انا ارجع بعدين.

- لا.. ولو لازم تدخل.

- معلهش انا اروح لمفتاح وجبران علشان اجيب فلوسى وامشى .. كان يتعلل، لم يكن يعرف الطريق لمنزل اى منهما.

حدثته بعنف : دلوقت !! .. الصباح رباح، ادخل كُل. ادخل كُل ضناى.

ابتسم : اكلت بالطريق.

- مع من اكلت، الشرطه فى كل مكان.؟

- مع واحد مصرى، قابلته فى الطريق، ربنا يكرمه.

- ويكرمك ياضناى.

- مفيش وقت، انا امشى بس اترك شنطتى هنا.

- العمى، بلى ياحبيبى، اتركها، ما تريد تاكل.

- والله العظيم تلاته اكلت.

- تيجى .. تيجى هون عبد الله، يا ابنى بالله تيجى.

خرج يتسلل إلى شوارع بنغازى ضائعا دون وجهة ، والليل يلقى عليه بأمواجه السوداء ، لا يدرى ماهو فاعل، يتحاشى دوريات الشرطة حتى بلغ أطراف الفويهات، هذه المدن الغريبة ، هذه المبانى الساكنة تطل من نوافذها أضواء تنبىء عن ناس تعيش فى الدفء، وهو يزحف على طرقها الأسفلتية، حشرة ضالة، غريقا فى بحر الظلام .

ملفوظا كان يسير لا يدرى من الذى لفظه، كل شىء تعقد من حوله، نقوده التى سرقت، ألمه ورغبته فى أرض، قوة خفية تصفعه بكفها الضخمة، تضغط عليه بأقدامها الثقيلة .. تسحقه .. قطعة من الصلصال المشوه، لا شكل لا هيئة لا معنى، ثم لا تلبث أن تزيد من عنفها حتى يصير شذرا محطمة مكسورة، نفاية عفنة.

على شاطىء بحيرة بنغازى، اختفى من أضواء الشاطىء وراح فى نوم معذب .. نوم متقطع متوارى بين سور قديم متهالك ومبنى مهجور، وقبل ساعة من قدوم الفجر أيقظته برودة الصباح فقام يسير الهوينى، متوجها إلى منزل صديقه السورى.

فى بئر السلم غفا جالسا، وفى الصباح الباكر كان جواد يوقظه غاضبا، نزل أبو نديم مسرعا وهو يهتف : ليش تسوى هيك، ما تطلع ياعبد الله، انتظرناك طول الليل.

- معلهش .. انا عايز اروح لمفتاح او جبران معرفش بيتهم.

- انا رحت لجبران ما لقيتك، وهو ينتظرك بيتجنن، كيف ان الراجل ما اعطاك الفلوس.؟

- لا.

- اطلع كل .. هيا ..

نصف الساعة تناولوا الإفطار والشاى، ثم اندفع ثلاثتهم إلى جبران، كان ينتظرهم بقلق، ومعه مفتاح ومصطفى الذين قدما على عجل عندما عرفا بالأمر.

- ٤ -

فى الطريق تساءل جبران.

- اتصلت بحسن بوبكر ؟

هز مفتاح رأسه : توا يحصلنا علي حوش التيس حميده.

طول الطريق كان جميعهم يسب الحاج حميده فى سخط .. صرت عجلات السيارتين أمام الحوش، منع جبران أبو نديم من الدخول.

- انتم تخليكم هنا، واحنا نخلص الموضوع.

صاح جواد : ليش ما بندخل سوا.

- لا .. انتم مالكم دخل بالموضوع.

عارضه أبونديم : ليش ما ندخل سوا، بنخلص الرجال ونمشى.

قاتل جبران بحزم: ما يدخل غير عبد الله وانا ومفتاح ومصطفى.

نفخ جواد غضبا : وعليش هيك

- هذه شئون نخلصها نحن الليبين، أشار إلى صديقيه .. هيا نشوف الزب الخنزير هذا .. عندما فتح الحاج حميده، كان يبتسم متعجبا لهذه الزياره المبكره، دفعوه دون أن يدرى السبب، لوهله زالت دهشته عندما رأى عبد الله، جرى فى أنحاء الحوش، جرى ثلاثتهم خلفه كان يقفز بين الأثاث يصيح : شنو تبو، هذا السلكاوى ايش يسوى هون والله، ربى الشيطان نبلغ عنه البوليس، انتم تحموا سلاكه، أنا ندخلكم السجن، انا نكلم عمر بوزوى، يطردكم من العمل، باهى انتم مفصولين.

بحث عن التليفون ومفتاح يصيح به : وين فلوسه ياكلب ؟ .

عقب جبران : أنا عطيتك اياها، تطلع حرامى يا كلب، وين فلوسه، ترى تدير فى حيله

بيش تاكل عرقه، وين فلوسه أنا اللى قلت له اعطيتها للحاج حميده، ترى انت حجيت لوين يالص .. لكباريه.؟!

– شنودخلك فى هذا المصرى.؟

صرخ جبران ودمه يتصاعد إلى رأسه وحميدة أمامه، قصير ربعة بوجه الشيطان، وهو يختنق بالكلمات : شنو دخلى فيه، هذا المصرى شنو دخلى فيه؟

كان يريد أن يقول له هذا مو مصرى .. هذا ليبى، كان يريد أن يقول أنا مو ليبى أنا مصرى كان يريد أن يقول نحنا خوت، هذا هو صديقى، هذا أخى، لم يجد سوى كلمة أبونديم، صرخ فيه بأعلى صوته وهو يهوى عليه بقبضه يديه الثقيلتين.

– هذا رفيق القتال.

لم يفهم الحاج حميدة، ولم يقاوم، انثنى مبتعدا : تضربنى ياجبران، تضربنى، شنو تبو، ترى انتم تريدوا شنو ..؟

– فلوسه، اعطيه فلوسه.

– فلوس من؟ قالها بهدوء .. وهو يتجه ناحية عبد الله الذى وقف يتابع ما يجرى، لا يتدخل .. وبغتة انقض الحاج حميدة عليه يضربه، ضربه بعنف بكلتا قبضتيه وقدميه، كان يفرغ حقدا حمله طيلة تسعة أشهر ويزيد، هذا السلاكه يبى فلوسه، هادى هى فلوسه، خذ.

أخذ عبد الله على حين غره، سقط منهكا على الأرض يحاول أن يحمى نفسه من المفاجأة .. خلص نفسه منه بصعوبة، كانوا قد أمسكوه له، انفجر، وانقض عليه كالمجنون، كان يضربه بجنون، وكأنه ينتقم لذاته من كل ما يسحقها، جسده المنهار، عقله المدمر، كان يضرب كل ما يطاردها بلا رأفة، بالخارج صرت عجلات سيارة أخرى، ثوان كان يقف بالباب ضابط شاب برتبه نقيب، وأمامه كان كل شىء مقلوبا رأسا على عقب، اندفعوا يمدون يد المساعدة لمفتاح وجبران، جذبوا عبد الله بعيدا عن الحاج حميدة الملقى على الأرض، تقدم الضابط الشاب مصوبا سلاحه لرأس الحاج حميدة، تكة السلاح قام بعدها الحاج حميدة، أخرج من خزانته خمسمائة دينار، قائلا : ترى الباقى الآخر أخذها الحاج حسن تاجر العمله المصرى دفعه النقيب فسقط جانبا وهو يحدث عبد الله : أد ايش فلوسك؟

أجاب جبران قبل أن يجيبه عبد الله : تسعمائة وستين دينار.

– كم تخسر إذا حولت الدينارات بالمصرى؟

أخذوا يحسبون لفترة قبل أن يقول جبران : ألف دينار.

لم يتبادل الحديث مع الحاج حميدة، توجه ناحية الخزانة، فتحها، أشار له، اعطيه ألف دينار.

صرخ الحاج حميدة: ألف وخمسمائة دينار، هو أعطانى تسعمائة وستين دينارا .. قاطعه جبران : هو يحول الدينار بتنين، هسه مايحصل فى مصر هيك سعر ..

– ايش دخلنى فيه ؟

– سرقته ياعرص وسرقت مئات غيره.

– مو وحدى، غادى بمصر سرقوه.

– باهى هو أعطانى الفلوس هنا، وإذا نعطيها له هنا.

تدخل النقيب وبنبرة وعيد واحتقار : ما يؤثر فيك عشرة آلاف، اديش أخذت من باقى السلكاويه ؟.. إعطيه خمسمائة دينار زياده مقابل رجوعه، هيا هيا.

صرخ حميدة : لا .. ولا درهم.

- ستمائة دينار وإذا تحدثت سبعمائة وإذا تزيد بأحضر لك الشرطه.

استدار لعبد الله .. توا أخذت الف وخمسمائه دينار، كم يساوى بالمصرى.

- حوالى ١٨٠٠ جنيه مصرى.

- باهى، هذا حقك أخذته ونحن آسفين ياأخى.

قال جبران : بترحل إمتى ..؟

هتف عبد الله : اليوم، انا امشى.

- يا أخى نقعد ساعتين زمن، وبناخذك بنفسى حد مساعد، باهى.

عقب النقيب : بتعدى على ، بنزل معكم مساعد وأرجع.

- ٥ -

فى سيارة بيان فيو من طراز ٥٢٤ يقودها مفتاح، عبوا الطريق عبا باتجاه مساعد وحتى درنه كانوا جميعا يتحدثون فى ألفة وحبور وسعادة، الكل راضى، وقلب عبد الله يسبقه إلى الوطن، لم يتحدث أحدهم عن القصف المصرى لمدينتى مساعد وطبرق الذى جرى صباح اليوم، بعد درنه أخذ التوتر داخل السيارة يخيم على الجو، كانت التحركات العسكرية تزداد كثافة على الطريق، والسيارات المحملة بأغراض قاطنى المناطق الشرقية تمتلىء بها، كانوا يهاجرون، وعلى مشارف طبرق ساد الصمت وحل الوجوم، وأمامهم كانت طبرق خاوية، وآثار قصف الطيران المصرى للمدينة واضح للعيان، اهتاج مفتاح لوهلة ثم غمغم : ترى لو أعرف أن هذا يحصل ماكنت رحت مصر غادى مع المدرعات الليبيه بوكل .!

- أو النفط اللى قدم لمصر أثناء الحرب.

قال النقيب مستطردا .. كيف يتقاتل رفاق الحرب الواحده.

لم يعلق أحد بكلمة، وصمت عبد الله .. لم تكن لديه أية إجابة.

كانت مشاهد القصف أكبر من أن تجد كلمات لتبررها، غمغم النقيب: ترى احنا سحبنا الجيش الليبى من الحدود بيش يكون واضح ان احنا الليبيين مالنا رغبة فى صدام مع الجيش المصرى الشقيق، ترى والله ولا المصريين لهم رغبة فى صدام معنا نحن الليبين، نحن خوت، صنيعة الأمريكان هذا ايش يريد، ترى ما حدا يعرف..

لم ينبس عبد الله ببنت شفة. كان يشعر بالخجل، وذهنه يراوده، نحن لنا مصالح هنا ورزق، وبيوت مفتوحة من عرق شبابنا اللى بيعمل هنا، غمغم بلهجة كئيبة بصوت خافت: طبعا احنا خوت، طبعا احنا خوت، الناس فى مصر وليبيا ما تقبل باللى بيجري.

قال جبران حزينا بصوته الضخم : ترى شنو جاب الجيش المصرى هنا بالقرب من

مساعد، الجيش المصرى مكانه سيناء بالشرق احنا مو أعداء لمصر، ايش فعل القذافى؟ يبى يعطى كل ما يملك الشعب الليبى لمصر، اشترى بـ ١١ مليار دولار سلاح، لين بده يعطيهم، احنا مافى يهود على حدودنا كان يبى يعطيهم للجيش المصرى.

لم يتحدث عبد الله، كان يريد أن يقول إن سيناء عادت لمصر، كان يريد أن يقول إن الحرب أنهكتنا .. أهلكتنا، كان يريد أن يقول، إن الحرب لا تترك وراءها سوى الضنك، والفقر، والفاقة، والغربة، والسير على الأقدام مئات الكيلومترات.

شىء ما كان ضائعا بينهما. شىء لم يكن أحد ليستطيع تفسيره للآخر، لماذا تجرى الأمور على هذا النحو من السوء، لماذا لا نستطيع أن نتعامل بشكل يماثل عواطفنا الحقيقية.

عبروا النقاط العسكرية بسهولة بالغة، بعد غياب الشمس بساعتين، كانوا يقفون على الشريط الضيق لجانب الطريق الأسفلتى قبل مساعد بعشرة كيلومترات، حيًا كل منهم الآخر بفتور وبقى الضابط الليبى فى السيارة، كان فى النهاية مجرد عامل متسلل مصرى سلكاوى تسلل عبر الحدود من أجل لقمة العيش، قدموا له أكثر مما يمكن أن يحلم به.

حمل حقيبته وقبل أن يستدير غمغم بصوت واطىء .. انا شاكر جميلكم، لم يستطيع أن يكمل، صاح : السلام عليكم.

ردوا عليه السلام بصوت خافت .. كانوا يريدون .. أن يقولوا له .. تعال .. تعال .. احنا نبعث لك فى عقد، ليش تيجى سلاكه ؟ عنوانك معى، سأرسل لك عقدا، كان يريد أن يعانقهم، ترتطم أجساد الرجال، تلتف السواعد، ينتقل الإحساس العميق بالأخوه، بالود، لكن أحدا لم يجرؤ، كان الفضاء مشبعا بآثار الدمار ورائحة الحرب، قبل أن يغيب فى الظلام، صاح عليه جبران بصوته الجهورى : عبد الله.

التفت نحوه مسرعا : ايوه

– معاك السلامه. معاك ألف سلامه، نحن خوت، ترى سادات ترى قذافى، مايهم، احنا خوت.

عاد جريا نحوه، تعانقا، هو وجبران، جرى ناحية مفتاح وتعانقا، وثلاثتهم يردد والابتسامة العريضة السعيدة تملأ وجوههم، نحن خوت.

انتهيا بصعوبة، نظر ناحية النقيب، نزل من السياره مبتسما، شد كل منهما على يد الآخر محييا، قال النقيب: نحن خوت ..

فرد عليه عبد الله بحماس : نعم نحن خوت ..

هاجمه جبران : أنا نرسل لك فى عقد، آه والله تصدقنى ولا لأ.

حاول أن يقول .. لن آتى بعد الآن لكن جبران لم يعطه الفرصه :

– أنا أرسل لك فى عقد، العنوان معى، هيا معاك السلامه

– السلام عليكم

ظلوا يتبادلون السلام حتى اختفى فى لجة الظلام.

الفصل التاسع والثلاثين

الحياه هى الحياه .. الفرح .. ضوء الفرح من حولك بيضىء الظلام .. اجرى يا ابن عبد الجليل .. بيتك عبر الحدود .. ثلاث ساعات وتصير فى مصر .. حسس على بطنك .. فلوسك المربوطه بشال جدك الجليل .. اتاكد من وجودهم واجرى .. بينك وبين الحدود ساعات وتصبح ليبيا خانه فى الذاكره .. غصه مراره .. لمعة حزن ورفاق احبه .. ابونديم، مفتاح، جبران، جواد .. ونبيل بعده فى السجن .. اجرى ساعات وتصير فى مصر .. اجرى كما جرى الخيول .. اجرى كما تجرى الرياح الدبور.. على البحار تمس زبد الموج بحوافرها .. اجرى كما تجرى سنابك الخيل على نؤابات الوهج وسط اللهب .. تمس اطراف الصخور كمس الندى للزهور .. لا تترك اقدامك اثر فى الرمال .. اختفى وسط الظلام لا يراك احد عدا النجوم.. لا تترك وراك غبار.. لا علامه .. لا دليل لا يشعر بك العسكر ولا اولاد على ذئاب هذا الزمن المهول..

اجرى .. ساعات وتصير فى مصر .. تصبح ليبيا خانه فى الذاكره عم عطا الله فلوسه وخلقاته مرميه فى براكه على اطراف بنغازى، محمود قتل صاحب عمله وعدى الحدود ، ابو رحاب جثته فى بطن وادى الكوف .. اجرى كى ما يصبح هذا الزمن اللعين علقه مراره فى الحلق.. تتذكره وانت قاعد متاوى جوه جدران بيتك، حضن مرتك، وهج القوالح وحطب القطن، رشفة الشاى الاسود .. اجرى .. اجرى سابق الجنون .. اهرب من المنون للفرح الجميل ..

اجرى واضرب بقبضتك الفضاء.. ناطح السحاب .. الحياه هذا اليوم بين ايديك ، دخلت ليبيا منذ ايام قليله وحيد ، تطلب فى حقك ورجعت بيه، لا معاك بطاقة هويه ولا جواز سفر ولا سيف بن ذى يزن ولا وراك قبائل الهلاليه ، احضن فلوسك كما تحضن الام الوليد .. اجرى يا ابن عبد الجليل .. طير على اجنحه الفرح الجميل .. .. بكم يشترى المرء دفء الوطن .. بكم يا وطن كم اعبده ..

.. حضن مرتك فى انتظارك .. نهودها الصلبه .. سكون العين .. عود فارع قوى،

شعرها الطويل، نخيل يدلع على النيل، والصبر الجميل على مساوىء الغير ، اجرى .. لاجل ما تعانق عريها الجميل .. انسياب الفخذ بين حفيف اوراق الشجر، جمال الخصر انفتاح الصدر دلتا فرعى النيل، اجرى للامان .. للجلوس وسط الصحاب تحت شجر الزنزلخت على راس غيطك، راكية النار ، الشاى والمعسل، الدره المشوى طير يابن عبد الجليل ، كما تطير الطيور المهاجره على عجل لاراضيها طير للناس.. للاصدقاء ، جبنه حادقه .. هدمه مرقعه.. فرشة حصير.. ياوجد ياجميل .. سدود ارحل اليك واعود، انام على صدرك النائم بين النعناعيه والمصرف الكبير .. اغصان الشجر، اكمات البوص، صيد السمك على ضفاف الترع .. ظل الظهيره الناعم تحت اشجار الكافور، المدرسه الابتدائيه القديمه على الترعه البحريه، يتجمع الرجال والشيوخ والاطفال والنسوه لصرف الدواء ومعاش الكبار، تدور ساقية يونس تعبى من وهج الغضب بصدور الشباب، الفقر، الضنك، الاحلام، البؤس، هموم العشاق ، افتقاد الآخر، خلافات البيوت وضيق الاهل بالابناء .. عسف الحياه ، وسؤال يلح فى الدماغ من غير اجابه .. لما انتم مش قادرين توهبونا الحياه الكريمه جيبتونا للفقر ليه ، فقر النفوس قبل فقر المال.؟ تمتد فرشته تحت الشجر .. سخريته، ضحكته، حكمته تريح الهموم تمسح العبوس لاجل ما يضحك شباب مهموم، يعود الصفاء وسط الضباب والحشيش، وزجاجات النبيذ ، تنطلق جياد المرح والسخريه من الحياه من عبثها الغريب بالبشر..

ظل الظهيره الناعم ، الساكن بالهدوء تحت اشجار الكافور .. الصباح الباكر ، بوابة العلاميه ، صخب التلاميذ الصغار فى زيهم التيل واحذية الكاوتش، تعبر الدرب ، دكان عكاشه، العادلى، دوار الامبابيه، سوق الاحد.. دكان الحاج عبد العظيم عياد، دوار العمده، ينادى عليك الحاج أعلى عياد، تقف امامه طفل صغير، يشع من عينيه الذكاء، وجهه الابيض ، شمس الابتسام ، يصيح فيك.. عايز يوم الاحتفال بعيد الثوره تدق الطبله بايد من حديد، تنشد العيال بأعلى ما فى عزمها الاناشيد، تسمع الخلق فى دمليج وبهواش ورملة الانجب يوصل الهتاف اعبد الناصر.. خد.. خد التعريفه دى اشترى حلاوه علشان دراعك يكون زى الحديد .. اجرى يا ابن عبد الجليل، وراك العمده وجرس المدرسه .. دقائق تعدى تاخد من الحضرى ساندوتش الطعميه ، تعبر الجسر، تملى عينك من عيون حميده البحراويه تعدى الوحده الاجتماعيه .. صخب الفلاحين ، صراخهم .. يدق الجرس، يصطف الطابور وانت على الطبله الكبيره وابراهيم فضل على النقاره، يرفع العلم وسط دقات الطبول، تهتف بأعلى ما فى حسك بكل عرق يدق فى دمك.. ثلاث مرات.. تحيا الجمهوريه العربيه المتحده.. ولو نملك ما توقفنا عن الهتاف.

سدود ارحل اليك واعود.. خاوى الوفاض، لا ارض الوطن ساعتنى، فى بلاد العرب هانوني.. سدود ارحل اليك واعود، ظل الظهيره الناعم تحت اشجار الكافور..

* * * *

ظل الظهيره الناعم .. هنا اتسرق النادى، ومال الكثير عنه للحشيش والسهر .. هنا تبتدى المسير على شط الترعه البحريه ، عزبه المطاوعه وعزبه الشنقيرى واسوارها العاليه .. المخالفه .. درب الوسطانى.. مئذنته العاليه .. كثيره هى الدور المرسومه على ابوابها صلبان مصنوعه من طين .. المعلم شفيق ، المعلم بانوب ، ضحكته الصاخبه ، المعلم قسطندى .. ثلاثة اجساد قويه مديده وطيده.. ثلاثة وجوه سمراء عريقه..

اجرى يا ابن عبد الجليل، اهرب من رعشة هذا الليل البهيم الى رفاق الصبا، من صقيع الغربه اللعين الى دفء الوطن ..

.. امرق من هذا الضباب اللعين كما يقطع السيف الفضا.. شق قلب الرياح.. اجرى كما تجرى الخيول على حافة الفلا.. خل ليبيا تصير خانه فى الذاكره .. غصة الم لما تحكى عن اللى فات.. اجرى ياسندباد طير على بساط الفرح حامل كنوز شقا السفر .. اهرب من بحور ظلام الاغتراب، من جزر السحر النائيه، على سفينه قلاعها فى السحاب، تمخر عباب البحر، تطوى المسافات بحثا عن ضوء القنارات ومرافىء الوطن.

اجرى يابوزيد على ظهر جوادك الكلهاء، كالبرق، اطوى الفيافى والصحارى الشاسعه .. اطوى الجبال والصخور، سطح السهول ، سهم ينهب الزمن .. دار صغيره نظيفه قدامها جنينه، تكعيبه من العنب شلالات من اللبلاب، بساط من العشب، وارض منظومه، صفوف شجر تميل بطرح الثمر، يمتد لون الذهب والفضه، قمح بالشتا وقطن فى الصيف..

انظر .. فى الامام، المدرعات المعاديه ، القبعات ، الامن المركزى، صفوف مرصوصه من حلف المافيا الجديد تسد جانب الطريق .. اصرخ عليهم .. قول لهم .. انا جبتهم من هناك.. من ليبيا.. ابعدوا .. ليه سادين الطريق .. يارب ايه المصير.. كمبيوتر لابنى على.. كمبيوتر لازم اشتريه.. لازم اتعلم .. تتعلم يا ابن عبد الجليل.. يامجنون .. ابدا ورب العزه.. الجهل هو الجنون، الجهل صنو الخوف، والخوف طريق العبوديه والموت المجانى.. اجرى .. ياسندباد طير على بساط الفرح .. عديت الحدود .. لأ.. او اكيد عديتها .. مش عارف .. ليه السهب لم يظهر امامك.. لأنك اغرقت كثيرا باتجاه الجنوب. طب ونور المدن .. ازاى يظهر يابن عبد الجليل.. لا تضاء المدن زمن الحرب.. جيشنا ح يلقنهم درس.. الغطرسه والحماقه.. لا.. هذا خطأ كبير، هذا شىء كالمستحيل.. من حقهم يطردونا.. حق السياده على ارضهم.. ثم ان مشكلتك دخولك بدون هويه .. اتجه الى البحر .. لأ اجرى باتجاه الشرق حتى لا تصطدم بنقاط الحراسه وخنادق المشاه الاماميه.. بس انت اكيد عديت الحدود.. مش متأكد.. طيب ازاى ح تعرف.. يمكن لما القمر يظهر تظهر »شباح المدن، صفحه البحر فى المدى البعيد، طيب اجرى يا وله، خد فى وشك نصف ساعه كمان مش مهم.. لكن مش من حقهم يطرودنا.. مش حقهم ان يكون فيه مكان عمل فى بلاد النفط ويفضل غريب على مصرى، مش من حقهم ييجى تركى ، او بولندى ، ويشتغل فى مكان اقدر فيه انا اشتغل .. امتى اظهرنا روح الكلال .. مش من حقهم يستحضروا جنسيات غريبه،

واحنا فى احتياج.. هل خاضوا القتال كما خضناه ..لأ.. ابعد عنى.. ابعدوا كلكم.. احسن عفاريت الدنيا فى وشى.. مش طايق حد.. بالذات لما الجميع يبقى عارف ان الزمن جار علىّ، وصرت فى حاجه للعمل والمال ، يمسكوه عنى !! يجعلوه عليه ذله.. !! كان ليه إذن حروب العرب.. مين اللى حارب من عام ٤٨ لحد الامس .. مين قعد سبع سنين فى الخنادق تحت خط النار، كل انواع القصف الجهنميه وآلة الحرب المخيفه .. كورى ولا بولندى .. ليه يتوه عرب الخليج وسط مئات آلاف من الايرانين والباكستانين ، هو ملاك الموت كان بيقصف عمر مين.. ايرانى ولا مصرى.. هو احنا ناقصين فلسطين تانى .. لما كنت اقف تحت العلم اهتف بكل ما فى جسدى من ذرة فرح.. تحيا الجمهوريه العربيه التحده.. سوريا ساعتها كانت حلم جميل.. دمشق.. سوق الحميديه.. الجامع الاموى.. بردى شقيق النيل.. كان لما يقول المدرس: حلب.. اللاذقيه.. اشعر بأنى كبير، تمتد عروقى على سطح الارض ، بطول المسافه من اسوان الى الحسكه .. كنت اشعر ان لواء الاسكندرونه لازم نستعيده.. ليه يشتغل مكانى فى ليبيا تركى إذن؟ وانطرد انا، هو انا اللى سلبت فلسطين .. او جزر بحر العرب .. اللعنه على زمن الدبق .. ليه ابو نديم زعلان من المصريين .. ليه السادات وصل سدّة الحكم .. لأن سوريا اول من طعن في المهد حلم الوحده الجميل فى المهد .. اول مسمار فى نعش البطل جمال عبد الناصر كان من اللى بكوا عليه .. انا مسئول عما يفعله النظام في مصر كما ان ابو نديم مسئول عن الانفصال المر .. لما ينفتح معى كشف الحساب لازم ينفتح للكل .. وكما ان كل نفطي ساهم في تعبئة صالات القمار وخزائن الولايات المتحده بالمليارات وانا جوعان .. اللعنه على زمن الجرب، وساسة الجرب، وقادة الجرب ..

شبح اللواء جلال الفمرى، يحبو كالسراب البعيد ، تطاول قامته الفضاء، فاتحا قدميه ويديه الى الوراء ..

"الى الامام .. الركض بالخطوه السريعه .. حارب يا مقاتل .. دافع عن معركتك".

اندفع يجرى بعنف وهو يقفز فى الفضاء، ملوحا بقبضته صارخا بأعلى صوته وكله فرح : تمام .. يا امير يابطل ...الدفاع الجوى صامد .. ضحك وهو يردد : الدفاع الجوى صامد. برغم انعدام الدعم الجوى، وتلاشى المدرعات قطره مطر فى الرمال ..

اجرى يابن عبد الجليل، اجرى ياوله .. امرق كما يعبر الشباب زمن الصبا .. كما يطل القمر من خلف الغيوم الداكنه ، ويعود يختفى .. امرق كسيف اللهب واعبر بين آلية السخط والغضب ..

لوح بيده الى شبح صديقة صلاح عقل .. السعوديين بيدعموا الاقتصاد الغربى بالمليارات .. والغرب يضخ فى الاقتصاد الاسرائيلى، يبنى المستوطنات ، يحصل على احدث انواع السلاح، سلاحه النووى وصواريخه الحامله، وانا انزع ثمن الرصاصه من جلدى ، واقف فى طوابير الخبز بالساعات ..

هاتفه شبحه .. بس انت بتتنهب من الداخل ايضاً.

.. معاك حق.. تجاره العملة والمخدرات، مافيا الاسفلت، الاغذيه الفاسده.. الفساد معشش فى دماغ الناس، وكان فيه حل مشاكلهم.. بس دى مسأله على رأى جبران داخليه،

نتحاسب فيها بعضنا البعض..

.. اجرى إذن يابطل .. خلاص قربت..

.. الحياه هى الحياه.. اسبح فى بحر الفرح يضىء ظلام الليل.. بينك وبين الحدود ساعة زمن، ربما تكون فى بر مصر.. حسس على على بطنك ، شال جدك الجليل.. موجوده ياوله..؟

وسع الدار واشترى جرار بالتقسيط ، اشتغل عليه، لو امك عايزه بقره كمان اشتري لها ، لو عبد الرحيم عايز الدار ياخدها.. الدنيا مساعده.. بس واحد يتصرف بنداله ينضرب بالصرمه فوق الدماغ.. ولا اقولك مش مهم.. سامح.. يابن عبد الجليل.. سامح الكل.. ابو زيد غفر.. مادام ربنا فتح عليك سامح.. ده انت جبت حقك من فم الاسد..

كيف ان هذا الوطن راسه فى التراب من العفن، هذا شىء معقد لا اعرفه.. حرية المساحه ام النظر فى المرايا، ام غسل النفوس من الفساد والتلف، والسباحه فى الهواء الطلق..

اجرى.. لن ترى اكثر مما رأيت.. على شط القنال كان الموت رفيقك.. ارفع رأسك الى عنان السما.. هذه آخر لحظات الذل والمهانه.. آخر لحظات الخوف.. اللى جى كله براح وصدق، حقيقه.. لازم يكون عبد الله عبد الجليل مثال الشرف والاستقامه.. ظهر كبير حمول للولايا، واللى ضاقت بهم سبل الحياه.. الصراحه يابن عبد الجليل.. الصراحه.. ان كانت تخرج من فمك كلمة نفاق او كذب.. تكون جبان رعديد .. ماعاد هناك شيء يساوى.. لن ترى اكثر مما مضى بلاوى.. ابن عمك كمال عبد الجليل، امير هذه الحياه الذى لا يقارن، عاش زى حد السيف .. زهره فى جمال الحقيقه.. لم يضىء للشر فتيله، كمال عبد الجليل هذا النبى المهضوم، لم يهادن عبث اللغه، ميوعتها، رنين الذهب فى تجارتها.. لم يهادن التوارى خلف الاكاذيب الجليله.. كمل تعليمك.. مش عارف مشوار صعب ، خمسه مليون كمبيوتر لهذا الشعب الجاهل المسكين ياصلاح ياعقل .. معاك حق .. لازم اعرف ليه هذا الليل طويل..

الحدود.. الحدود.. هذا هو سلكها الشائك، خطها المستقيم.. الآن عبرت.. الآن صرت فى الوطن الجميل.. كم احبك ياوطن رمانى بعيد..

ساعة زمن ويطل البحر ، هذه السهب طريق الاسفلت، تترك وراك صخور الجبل ، الصبار .. اخلف وراك كثبان الرمال تتلوى على البيداء كحيات القطا.. اتوارى من حيات الصحارى واولاد على.. ازحف الى محطة السلوم يابطل وامتط ظهر القطار اللعين حتى تصل الى النور.. سدود وبابك الموصود ارحل اليك واعود .. انزل اغتسل فى النيل العظيم ، ازيح عنى الرمال وانفض هذا الجرب.. امرق إذن من هذا الليل اللعين، امرق كما يشق الرمح الحشا، كما تشق السهام المدى ، كما تنساب السكين فى رقبة الثور العفى، كما تنهب الارض الخيول، اركض كما ركض الحوافر ع السهول، امرق كما يسافر اللهب على سطح

الهشيم، كما يمرق البشر من الجحيم للنعيم.. خلاص.. خلاص ياوله نفدت من غلظة البدو لما يتحكموا فى اولاد الحضر.. من سطوة اغنياء النفط على اولاد الاصول، من فداحة تنافى الفعل مع ما يشاع من قول.. اجرى يا ابن عبد الجليل بعمرك، ضنى شقاك عرقك، اترك المفازات اللعينه.. امرق كشهاب عبر هذا الليل الطويل..امرق كبرق السحاب فى العتمه، ومض سيف يقطع شمس القيظ، هذا زمن الجرى، والله اعلم بالسبب.. بيد ان الطرق اختلفت اتجاهاتها.. آه.. ابحث عن مكان يأويك.. اجرى علك تجد مكان فى ضيق المسافه، فى ضيق النفوس.. تلوثها.. عب دخان الحشيش او احسن اتركه، كل شيء مطلوب اعادة التفكير فيه.. وعقلك حصانك الوحيد فى متاهة ما بعد الوصول ياابن الاصول.. سبيل الحقيقه الوحيد، نصل حاد يزيح عن الاشياء قشورها، تطلع فى كنهها علك تصل للجذور، تفهم حقيقة الاشياء زمن الافول..

اجرى ياابن عبد الجليل.. انهب السهب كما تنهب الخيول المراعى.. طير لابنك الوليد.. وحاذر اولاد على وصولات البوليس، رزالات الدم وعساكر الامن المركزى اللى عايشين كما صراصير المجارى.. اما الجيش فلا تخشاه.. جيشك.. اره بطاقة مرورك قدامى المحاربين تمر.. اجرى ياابن عبد الجليل .. انهب السهب .. طير الى ابنك، ايده الطريه الصغيره المنمنمه تنتظر كفك الخشن، تستمد منها القوه، ترضع الشعور بالامان والحمايه ، صرخته على صدر امه تنادى عليك .. ابا.. طير اليه بالدفء الجميل .. اطوى الصغير جواك ، احميه من التساؤلات المضنيه، من الدهشه المريعه ، من الغيلان ، ابو رجل مسلوخه ، والساحره الشمطاء ، لا تتركه يشعر بفزع الخوف المميت امام الاغراب ، ولا بضراوة الزمن لما يعصف بالصغار .. انهب الاراضي كما تنهب العواصف البحار.. اركض كما يركض الرهوان الفتى، مد ايديك اليه اخطفه من على سطح الفراش اللين، ارمى به للسماء حتى ان ضحكته البريئه تجلل فى الفضاء، تفيض من عينيه شلالات الفرح، والدهشه لهذا العالم الجديد عليه ، ينزل اليك تتلقاه بين ساعديك ، يشعر بالامان .. يضحك .. يبتسم .. يلاغيك كى ترسله للفضاء من جديد ..

اجرى اليه .. خل راسه الصغيره تنام على ساعدك العفى، وآخر نظره يقفل عليها عينيه وجهك الكبير، يصحى يجرى يدور عليك فى نواحى الدار ، يعيط ، يبكيك ، ينادى فى الفراغ اسمك ، ترجع فى العصارى جرى اليه ، يصوصو كما البلبل الصغير ، يندفع نحوك بالدمع الجميل ينساب من عينيه ، وكل واحد منكم فارد دراعه للتانى، تتوه ملامح الجسد الصغير فى حضنك الوسيع ، يدفى بالامان ، لا تستطيع ان تتسع لفيض السعاده ، فهذا هو الفرح بالولاده .

حافظ على توازنك من انحدار الجبل.. لاجل ما تصل للسفوح، للاسفلت ، للمدن ، للحضاره .. طريقك لسدود واحه م السكون فى الزمن التعيس.. ساعتها ح تكون ليبيا غصة مراره ، خانه فى الذاكره.. تنسى طعم المراره وتبقى ذكرى جميله عن الشقا، والسفر، والرحيل الى بلاد النفط، والفجر، والفيض، والزبد، ودياب بن غانم، وابو زيد، والزناتى

خليفه، وخضره الشريفه، وعزيزه، والوهيدى معبد، وتونس الخضرا، واحاديث الشجن الليليه، واحلامك الهلاليه.

.. يارب.. صوت رصاص هذا..؟ ام انه برق سحابة صيف..؟ رعد السماء ام انه اعلان بالخطر..؟ ارفع راسك فى الفضاء، مد انفك شم الرياح كما غزال يرعى فى مراعى القتل والدمار.. المره دى طلقه رصاص بالفعل .. بندقيه نصف آلى .. اقعد على الارض ياوله ، اتلفت حواليك علك تخترق غلالات الليل العميق.. ولا قوم .. اهرب كما تهرب الحياه من المنيه .. اين المدرعات تنقذنى من هذا القصف المخيف..

هاهو الرعب يتسلط عليك كما تتسلط على هامات الرجال العزل سنان الرماح .. اجرى يااابن عبد الجليل .. اركض برغم صوتك العالى وسط الجنود، وحثك لهم على الصمود ، وعدم الخضوع للخوف.. هاهو الرعب يعود اليك.. لما تكون رؤوس الفرسان مرفوعه على ذؤابات السيوف .. لما تتوه كتائب الفرسان وسط القلاع الغريبه.. تحاصرها الدبابات فى ساحه الميدان تحت القصف العنيف .. انسحب كى تستعد للهجوم ثانيه ..

اجرى يا ابن عبد الجليل .. هاهو الرعب يعود اليك وانت تعبر حدود الفلا .. وكأنك تعبر القناه ببقايا كتائب الصواريخ ، كى تفلت من كماشة الحصار.. يطاردك القصف المعادى، لا دعم جوى، ولا حمايه من القوات الارضيه.. اجرى يا ابن عبد الجليل للوطن الجليل..

١٥ و ١٦ اكتوبر الحرب على أشدها.. تنامت الأخبار بعبور قول إسرائيلى القناة عبر ثغرة أقامها بالدفرسوار.. علم الجنود بالخسارة الفادحة التى منيت بها الفرقة الحادية والعشرين مدرعات، وتدمير معظم دباباتها، وأن القوات الإسرائيلية تمكنت من استعادة توازنها على طول الجبهة ، وأنها أصبحت تملك تفوقا موضعيا بنسبة ١:٢ فى المنطقة المعدة للاختراق ، وأن اللواء الثالث مدرع من الفرقة الرابعة المدرعة قاتل بشراسة ونموذجية، لكن لم يلق الدعم الكافى، فتراجع إلى قاعدته برأس الفرقة التاسعة عشر مشاة، وأن اللواء الأول مدرع من الفرقة الحادية العشرين تعرض من الجانب الأيمن من خط الدفع إلى نيران الأسلحة المضادة للدبابات، وغارات جوية مكثفة أحدثت به خسائر فادحة وهو لا يزال فى طريقة للفتح ، وأن اللواء الرابع عشر مدرعات تعرض لنيران الأسلحة الصاروخية المضادة للدبابات والقصف الجوى المركز، وغادرت بعض الأطقم المدرعات، مما أحدث ارتباكا باللواء، وبهذا خسرت الفرقة الحادية والعشرين مدرعات، نصف قواتها، وبقى النصف الثانى يقاتل فى شراسة، غرب القناة وحول الدفرسوار.

فى صباح ١٧ أكتوبر صار واضحا أن القوات الإسرائيلية تعبر غرب القناة بقوات كبيرة. فى ذات الوقت تم دفع اللواء الخامس والعشرين مدرع باتجاه كثيب الحبش، وعلى بعد ٢٧ كم من رأس الفرقة السابعة مشاة ، لمواجهة الاختراق الإسرائيلى عند الدفرسوار

من الشرق ، دون حماية جوية أو غطاء من الدفاع الجوى، ورغم معارضة رئيس الأركان وقائد الجيش الميدانى الثالث ، وطلبهما أن يكون دفع اللواء المدرع من الغرب ، حتى يمكن تأمينه من الطيران المعادى بقوات الدفاع الجوى.. بمظلة حائط الصواريخ الذى أثبت فاعليته بالفعل، إلا أن طلبه رفض، وأصر القائد العام على الدفع ببقايا القوات المصرية المدرعة وتدميرها.. وطوال يومين جرى التعامل مع العدو، بينما سقط اللواء المدرع الخامس والعشرين فى كمين أقامة العدو من المدفعية الصاروخية المضادة للدبابات، يساندها لواءين مدرعين إسرائيليين، وتحت سيطرة جوية معادية، عندما جاء الليل كان اللواء ينسحب بعد أن خسر ستين دبابة.. وطوال الليل كانت عبارات الضباط الحادة تتناثر عبر أجهزة اللاسلكى :

- من الذى دفع بالمدرعات للشرق دون دعم جوى، لقد سحبنا من انوفنا لوكر الذئب.
- كيف نقاتل دون توازن فى العمق الميدانى.
- كيف يدفعون بنا للقتال دون حمايه جويه ولا دفاع جوى.
- من اختار هذه الارض.
- نفس الاخطاء المره.
- تذوق اللواء المدرع الخامس والعشرين نفس الكأس التى تذوقتها القوات المدرعه قبل تلات ايام.. نفس الاوامر.. نفس الاخطاء.. الم يكن واضحا ماحدث؟
- غباء.. ماذا تنتظر من تاجر جبنه ..
- لماذا لا يكون هناك اتفاق سرى.
- من اجهض الجيش.. من اجهض الحرب ..
- لابد من محاكمة قيادة المدرعات .
- لابد من محاكمة قادة الجيش .
- من فعل بالمدرعات هذه الكارثه .
- هل يوجد فى هذا الوطن من يحاسب احداً.. هذا الوطن مرتع للدجل.

على مدى ثلاثة أيام تم الدفع بتجهيزات من احتياطى المدرعات المصرية لاحتواء الاختراق الاسرائيلى للقوات المصرية على التتابع، فأحبط هجوم أحد مفارز اللواء ١١٦ مشاة ميكانيكى.. فى ١٦ اكتوبر فشلت عمليات اللواء ١١٦ مشاة ميكانيكى بسبب النقص فى المعلومات عن العدو، ودون توفير تأمين استطلاع لها وحماية جوية، وفى ١٧ أكتوبر فشلت عمليات هجوم بقايا الفرقة الحادية والعشرين المدرعة، والتى تمت بالتعاون مع اللواء الخامس والعشرين مدرع وأنهار، وفى ذات اليوم هاجم اللواء ٢٢ مدرع دون معونة جوية، وخسر عددا كبيرا من دباباته، وكان هذا اللواء آخر احتياطى مدرع لدى القيادة، وكأنها عزمت بروح جادة ومتعاونه مع العدو على إجهاض القوات المدرعة ودون توقف .. لم يكن هناك سوى لواء واحد مدرع من الفرقة الرابعة الذى كلف بواجب حماية النطاق التعبوى للجيش الثانى الميدانى ، وتمركز فى وصلة عثمان ، ولواء من الحرس الجمهورى المدرع .. فى ليلة ١٦ أكتوبر تمكنت المدرعات الإسرائيلية من اختراق الجبهة والتدفق عبر أول كوبرى

أنشأه سلاح المهندسين الإسرائيلى لعبور القناة ، وعندما أشرق صباح يوم ٧٢/١٠/١٨ كان للعدو فرقتين مدرعتين فى الضفة الغربية للقناة .. وبهذا أصبح على حائط الصواريخ المصرى أن يقاتل منفردا ضد المدرعات الإسرائيلية وسط عجز بين من قوات الجيش الأخرى، وتوقف عن التأمين والدعم.

فى الأيام الثلاثة الأولى من الحرب، أسقطت وحدات الدفاع الجوى من صواريخ سام ٣ وسام ٦ ومدافع الشيلكا ثمانين طائرة، أصابت العدو الإسرائيلى بالذهول، فى اليوم الحادى عشر منذ بدء الحرب وأقتحام القتال، وفى صباح ١٧ أكتوبر ظهر سلاح الطيران الإسرائيلى فى الجو من جديد، ظهرت أول طائرة مع مطلع الشمس على ارتفاع عالٍ، تصدت لها كتيبة الصواريخ بصاروخ من طراز سام ٣ لكنها رحلت مبتعدة، وبعد دقائق كانت السماء تهدر من الجنوب بتشكيل من عشرة طائرات ، تهاجم من على ارتفاع منخفض للغاية.. فتحت السرية نيران المدفعية المعاونة لثوان قبل أن يتحول مكان الكتيبة المجاورة إلى جحيم .. لم يبق شىء لا يطاله اللهب ، المدافع، مخابىء الجنود، مخيمات الضباط ، الخنادق ، مخازن الذخيرة، كانت الصدمة قوية اهتزت لها الأرض ، وتأرجحت معها مدافع كتيبة .. لوهلة كان يصرخ فيهم.. يخرجهم من ذهولهم :

– عمر ياوله.

وكأنهم فى انتظار صيحته المدوية ففى ثوان كان الجميع فى مواقعه ثانية والمدافع العشرة للفوج جاهزة للإطلاق.. بعد خمس دقائق من الترقب، ظهر فى الجو تشكيل آخر من طيران العدو خمس عشرة طائرة تتقدم هذه المرة من الشرق، كانت تتهادى وقد بدت عليها الثقة على ارتفاع متوسط، وعندما صارت على مسافة كيلو مترين، انطلق إلى الفضاء من مواقع الكتيبة التبادلية خمسة صواريخ من طراز سام ٣.. فوجئت الطائرات المعادية بالصواريخ.. تابع الجنود فى قلق مشوب بالتوتر المطاردة المميتة.. إصابتان.. هاج الجنود بالمكان.. كانت الكتيبة ترد الصاع صاعين.. صرخ بهم : انتبه يابن الكلب.. استعد.. ثوان قبل أن يصرخ بفصيلته.. اضرااااااب..

وتحولت السماء إلى جحيم.. وقبل أن تنسحب الطائرات المعادية كانت قد خلفت وراءها طائرة أخرى تهوى إلى الأرض ، لقد اصبحت الكتيبة شوكة بارزة فى خاصرة الطيران الإسرائيلى ، طوال يوم كامل تابعت مواقع الجيش المصرى المجاورة الحرب المستعرة بين الخصمين.. بعد الظهر نشبت معركة جوية تناول أثناءها الجنود طعامهم قبل أن يعودوا ثانية للمواجهة، قبل العصر بنصف ساعة قاربت الذخيرة على النفاذ..

نادى عبد الله فى اللاسلكى: الذخيره يافندم..؟

– ايوه يارقيب عبد الله.؟

– الذخيره يافندم.. قاربت على النفاذ..

– اتصرف يابطل.. الجنود بتطفىء النيران، اتصرف ياعبد الله..

– تمام يافندم..

كان هذا كافيا له.. اتصرف يابطل، وبينما كانت معركة جوية حامية تدور فى سماء

الكتيبة، كان جنود الفصيلة يجرون مهرولين، حاملين صناديق الذخيرة زنة مائة رطل من الخطوط الخلفية، ولمسافة ثلاثمائة متر عبر الخنادق، لم يكن أحد فى حاجة لمن يدفعه للعمل، لم يكن أحد يشعر بالعجز أو الضعف.. وعندما عاد الطيران لمهاجمة قاعدة الصواريخ المجاورة، كان يقف متأهبا داخل مدفع الشيلكا السوفيتى الصنع، تابعها على شاشة الرادار الصغيرة. صوب فوهة مدفعه، انتظر، كان يشعر أنها تتجه نحوه، هذه المرة نسى كل شى حوله، تلاشى كيانه العضوى، ويدبه تلتحم بالمدفع، تلتف حوله، تمتص خلايا جسده صلبه البارد ، لم تأبه به الطائرة.. لم تره.. لأنها قدمت إلى الشرك مباشرة.. الآن.. الآن ٤٠٠٠ طلقة فى الدقيقة انطلقت الطلقات فجأة.. وقبل أن تطلق الطائرة حمولتها من الصواريخ والقنابل كانت النيران مشتعلة بها.. دخان خفيف، مالبث أن تزايد ليتحول إلى وهج، والطائرة تصعد إلى أعلى لتنفجر فى الفضاء.

* * * *

.. ياربى صوت رصاص هذا ام انه برق سحابة صيف.. تصرخ من عقمها ام انه رعد السما.. دوى الرصاص.. صياد فى البرارى ، ام انه قناص.. متربص حامل فى ايده بندقيه نصف آلي .. اجرى من رعبك المخيف .. اجرى من رعبك القديم اللى اخفيته عن جنودك ، اقعد على الارض مره وانظر للوراء.. لقدام.. انظر لكل مكان.. اخترق غلائل هذا الليل الطويل.. والله يا ليل خانك الصباح.. مين قناصك مين.. فين قاعد.. ربما يدلك عليه وهج سيجاره ، لمعة ابتسام صياد يسخر من الفريسه وهى تنهب الارض ركضا للخروج من فخاخ الصيد .. لحظة شعورها بالانفلات من الكمائن.ولمعة ابتسامة النجاه يكون قد احكم الحصار..

انظر هناك.. المدرعات الاسرائيليه تتوغل على يسار الكتيبه تحوط بها سرايا المظليين، تطلب قاعدة الصواريخ

- سيادة المقدم هشام..
- ايوه ياعبد الله..
- فيه مدرعات معاديه على جناح الكتيبه..
- حدد مواقعها..
- ١٢٠٠ متر من اليسار..
- العدد.
- تلاته.. يحوط بها مظليين.
- انت راصدها تمام..؟
- تمام يافندم.. فى وضع الثبات لا يتقدموا..

- اتعرفت عليها.؟ يمكن تكون مصريه.؟
- بنفسى.. اسرائيليه يافندم..
- تمام ياعبد الله.

اجرى ياابن عبد الجليل اجرى.. الآن اصبحت فريسه مكشوفه للمدرعات المعاديه بعد ان كنت صياد للطائرات .. الليل والهجوم الليلى للطائرات المعاديه.. الدفاع الشرس.. اضواء غريبه فى الانحاء.. ثلاث مدرعات اسرائيليه جهة اليسار.. ثلاث افاع مصحوبه بالمظليين.. من ينتبه لها تحت القصف ، وقد تم تثبيت الكتيبه فى موقف الدفاع ضد هجوم الطيران المعادى .. عشرات الاشباح تقترب.. هل تم رصد قاعدة الصواريخ ؟.. عقب اخيل.. من لم تهزمه الطائرات يقتنصه المظليين تحت حماية المدرعات ..

الآن صرت مكشوفا تحكم عليك المدرعات حصارها، الآن صرت غزال اعزل مجروح امام بنادق الصياد.. اسد عجوز تحت اقدام قطيع هائج من الافيال، هاونات فصائل المشاة المساندة وقذائف المدرعات.. اجرى من رعبك بلغ سيادة اللواء، اخبره عن مكان الافعى، نبههم من الانقضاض المرتقب.. لو سقطت قاعدة في حائط الصواريخ ينهار خط الدفاع باكمله.. تنهار المنظومة.. سبحة وانفرط عقدها

الاختراق .. شرخ فى حائط الصواريخ .. الآن يحكم الحصار.

انفجار بملجأ التحكم والسيطرة.. انفجار بملجأ ماكينات الديزل.. أجهزة الرادار، انفجار فى قواذف الصواريخ .. انفجارات بملاجىء الأفراد.. جثث الجنود فى الفضاء .

ايه العمل.. اجرى طفى الحرائق يا وله ، انزل ملاجىء الجنود، اخلى الجرحى، اجمع الجثث قبل الانفجار الاخير.. لا.. انت منوط بحماية القوات ضد قصف الطيران المعادى .. يدوى الفضاء بالجحيم، يصعد اللهبُ لعنان السماء.. الآن جاء دور انفجار مخازن الصواريخ..

.. صوت الغضب المخيف على أجهزة الاتصال، صارخا:

- انا باتعامل مع طائرات مش مع مدرعات.. المفروض ان احنا فى نسق، كل واحد يقوم فيه بواجبه ناحية بقية الاسلحه.. انا حميت المنطقه بتاعتى لحد ما الجيش عبر، قدمت لسلاح المدرعات فرصته الذهبيه ، جعلته يهاجم فى حمايه من القصف الجوى المعادى.. ابطلت فاعلية سلاح الطيران الاسرائيلى ، اعطيته لاول مره فى تاريخ الحرب بينا وبين العدو القدره على خوض الحرب مع المدرعات الاسرائيليه وجها لوجه .. احنا اخرجنا سلاح الطيران الاسرائيلى من الحرب لمدة احد عشر يوما متواصله.. لكن.. لكن لواء الصواريخ قدام دبابات اسرائيليه فى حماية مشاه معاديه، بط رابض على الارض.. هدف رمايه ثابت عاجز عن المقاومه..

- انسحب.
- انسحب .. انسحب تانى ، انا فى غرب القناه ، سيادتك عارف ولا لأ..

- انسحب ياغمرى ثلاثين كيلو للخلف.
- انسحب .. انسحب ليه .. والقوات البريه شرق للقناه ..؟
- عارفين ياغمرى..
- والمدرعات.
- قلنا الهجوم فشل
- ايه معنى ده.
- يعنى مش عارف
- والاحتياطى.. الاحتياطى الاستراتيجى.
- اتوزع على القوات البريه قبل الحرب.
- يعنى المنطقه من القناه للقاهره خاليه من المدرعات والمشاه.
- فى قطاع الجيش الثالث، لنا اربعة لواءات مدرعه.. اللواء الجزائرى والليبى واللواء..
- والحرس الجمهورى..
- فى الموخره ، يحمى الطريق للقاهره .. انسحب عشرين كيلومتر مش طالب حمايه ارضيه..
- لو انسحبت الجيش الثالث ينكشف تماما.. انسحابنا يعرضه للخطر.. يافندم سماه ح تكون مكشوفه للطيران الاسرائيلى، ح يصبح معدوما من الدعم المضاد للطائرات.. ماهو موقف قواعد الدفاع الجوى الثابته على الارض..

صوت آخر جاءه كالرعد، صمت بعده اللواء الغمرى من فوره.

- انت بتدخل فى اللى مالكش فيه ليه.. ح نتسامر.. نفذ الاوامر من غير نقاش، ولا تحب تروح بيتكم.
- تمام يافندم . تمام ح انفذ تعليمات الانسحاب.. تمام.. لو تكرمت انا مسئول عن اللواء ولازم افضل معاه حتى الموت.. عادل ياصبرى.. تعليمات بالتراجع..
- ماله قائد الجيش..
- بدل ما يدرس تاريخ المنطقه الحربى، والمستقبل الاستراتيجى للوطن، طلع يستثمر عبقريته العسكريه فى تجارة الجبنه، بيحارب بالتقسيط . الحرب عايزه العلم والجراه والشجاعه.. مش عالم بتتعامل مع بقر.. الساده بيخوضوا حرب المدرعات زى اللى باعت سرب وز للترعه يرعى.. بهايم معصوبة العينين بتدور فى السواقى.. يناور بافضل كتائب الصاعقه.. ويرمى بالكتيبه ٣٦ صاعقه من الطائرات للاسر المباشر.. بيتصرفوا فى نفوس الخلق، يلقوا بهم للموت بلا حساب، ولما يتكعبلوا يغمضوا عيونهم من الخوف، ويقطعوا الطريق نهبا الى الامم المتحده، يطلبوا وقف اطلاق النار..

لمح العقيد عادل صبرى، وهو يغمز بعينه فى ظهر اللواء الغمرى يقاطعه : - يعنى لازم تناقشهم.

- هو انا ناقصك ياعادل ، هو احنا فى مناورات بالاسلحه الفشنك .. دا احنا فى حرب والموت بيحش فى الرقاب ، البلد مش ممكن تتحمل هزيمه ثانيه.
- بس دى مش مسئوليتك، احنا لواء صواريخ، عمل اللى عليه، وهم يتحملوا نتائج

تصرفاتهم.

– ايه النتيجه لما تاجر جبنه يقود الحرب.

– احنا عبرنا ياسيادة اللواء.

– بالضبط.. انا ناسى هذه الحقيقه.. نفذ الانسحاب علشان سلاح الطيران الاسرائيلى يحمى المدرعات الاسرائيليه وهى بتنجز الحصار.. اما الجيش الثالث الله معه ..

– يا عبد الله..

هكذا جاءه الصراخ عبر أجهزة الاتصال السلكية، كان صوت المقدم هشام الذى يعشقه.. صرخ بأعلى صوته : الدفاع الجوى ثابت ياافندم ، احنا نواجه الدبابات بأجسادنا ، سلّحت السريه بالاسلحه الشخصيه، ومدافع الأر بى جى..

– ايه ..؟

– ايوه ياافندم ثلاث مدافع آر بى جى.

– جبتهم منين.

– اسلحة الشهداء ياافندم، جمعناها من الضفه الشرقيه.

– والذخيره.؟

– بالذخيره ياافندم.

– هه.. انسحب ياعبد الله.. انسحب يابطل..

ها هي المدرعات الاسرائيليه تحكم الحصار.. فهل لهذا الليل نهار؟

انسحب ياابن عبد الجليل.. انسحب.. والرفاق على الضفه الشرقيه الجيش الثالث .. نعيش سوا او نموت سوا .. ايه اللى فهمك فى الحرب يا ايها الحمار.. ح تعمل الامير بركات ولا الملك حسان.. امتى ح نبطل انسحاب..؟ انسحب وانت ساكت، من غير سؤال..

امتى نبطل انسحاب امام الفقر والشقا والزمن التعيس امتى نلاقى السعاده..؟ امتى ح نبطل نطاطى امام اثرياء القوم، ونهرب من الطريق لما يعبره ضابط شرطه، ونخاف ندخل قسم البوليس، وكأننا موصومين.. عبيد امام ساده لا تفارق اياديها السياط.. امتى ح نبطل انسحاب ونهرب كالطرائد امام الصيادين .. يازمن يالعين .. لا افهمك .. كل شيء فيك اختلط .. اسقط إذن فى حلكه الظلمه ، الانهيار ..

أحكمت المدرعات الحصار .. فهل لهذا الليل من نهار؟

يا زمن يا لعين .. انجى بجلدك.. هو ده وقت السؤال!!.. نصف ساعه وتصل طريق الاسفلت، ساعتها يبقى للحديث حديث.. حاكى رضوان ابن عمك .. جالس الاحباب .. كل شيء يتنسى فى حضن مرتك نجاه.. وابنك بيضحك بين ايديك.. كل شيء يتوه وسط الصحاب والضباب الجميل للحشيش ، تسقط الهموم فى بئر النسيان العميق..

أضواء على شاشات الرادار .. نقاط صغيره .. صفارات الإنذار بالهجوم.. ثمانى موجات من طائرات الميراج قادمه من الشرق.. رفع درجة استعداد الوحدات.. الآن تقاتل وحدك.. ليس ثمة قواعد للصواريخ فى الأنحاء.. ليس ثمة صواريخ سام ٦ أو ٣.. شرخ فى جدار منظومة الدفاع.. مدافع ال ١٠٠مم ، الشيلكا..
عد عنزاتك يا ابوزيد..

عد عنزاتك يا ابوزيد .. عد بقايا القوات..

وانتظر الهجوم الشرس.

ياليل انا والخيل لما تكحل بالدما

ثمانى موجات من الطائرات.. ثمانى موجات من جهنم ، ثمانين طائرة معادية تشق السماء. تأتى من قلب الغسق الأحمر الدموى.. الشمس تهبط للغروب والفضاء كتلة من الدماء.. لهب على الأرض، سحب الدخان، حقول النيران وأصوات الصخب، هدير الفولاذ تعقبه الانفجارات المروعة.. شىء ما يحمله لأعلى ثم يهبط إلى الأرض.. تتلاشى الأمواج ويسود الصمت السكون.. إلا من صوت النار وهى تأكل الأشياء.. قام متثاقلا يعبر حقل اللهب.. كل شىء يحترق حولك وأمامك لا يزال جنود الفوج ويااللفخر فى أماكنهم متخذين أوضاع القتال..

أمر ما كان يتتابع كومضات برق فى الظلام يأكل عقلك.. شيء ما يعبر عينيك كالسهم.. صراخ من القتل .. صراخ من الجنون .. السكون الفناء .. البقاء.. الكون الهستيرى والموت المجنون.. جحيم المنون..
.. يا ابن الكلب .. انت ماشى فين ؟.. جهنم الحمرا..

.. عـــــــمر ياوله..

.. عـــمر يااابن الكلب..

احد لا يتحرك .. عمر ياوله .. عمر يا ابن الكلب .. تجهش بالبكاء وانت تجرى فى الانحاء .. تصرخ .. عمر ياوله .. الحرب لسه ما انتهتش ..

ثمانى موجات من الطائرات .. ثمانى موجات من جهنم .. ثمانين طائرة معادية تاتى من قلب الغسق الدموى .. الموت والمنون .. الفناء والبقاء ، الكون الهستيرى .. الموت المجنون

.. جحيم المنون..

يابن الكلب ماشى فى الجحيم .. الرفاق جالسين على المدافع تحيه للسلاح بلا رؤس .. بلا عيون .. جثث طارت الى الفضاء هاماتها.. اجساد انقصفت رقابها.. تاهت ملامحها وبقيت رائحة الشواء .. يالحن الجنون.. الشعر فين وفين العيون .. تركت وراها الفراغ .. والآذان التى التحمت بجلد الوجوه المسطح .. لا انوف .. افواه فاغره عن التساؤل الرهيب .. الجماجم شقت نصفين، تسيل منها الماده الهلاميه للعقل الانسانى المقدس ، ملوثه بالتراب معجونه بالشفق الوردى للشمس الغاربه والدماء .. اجرى يابن الكلب ، تتعثر فى الجماجم، اطراف الصحاب ، انظر سيقانهم المدلاه من على سبطانات المدافع، الرؤوس المحنيه ع الرقاب .. عيون جاحظه واخرى فارغه وافواه مفتوحه عن آخرها تعلن صرخة الموت .. ربما تصرخ من الجنون قبل ان تطالها يد المنيه .. ربما تبكى .. ربما تصرخ .. ربما تزأر والموت يعانقها ينشب اظافره .. ربما كان الملازم سميح .. ربما كان الرقيب حسن، ربما كان حضرة الصول عبد المسيح .. لا يفرق الموت فى اللون.. لا يفرق فى الرتب .. لا تحمى خانة الدين احد .. لمن هذه الكف السخيه التى تدلت ممسكه بدانه تلقمها للمدفع ؟ لمن هذا الشعر الغزير الملتصق بفروة الرأس يتناثر على سبطانات المدافع ؟.. ومن هؤلاء الرفاق الذين سحقت المدافع المقلوبه اجسادهم؟ ومن هؤلاء الذين بقرت بطونهم ..؟ احشاؤهم التى خرجت تزحف تبغى النجاه .. اجرى عل احدهم لا يزال حيا.. اجرى واصرخ

.. عـــــــــمر ياوله..

.. عمـــــــــر يابن الكـــلب.. الحرب لسه ماانتهتش.. لا تزال طائرات العدو تعبر سماء الجبهه.. لا يزال القصف المدفعى .. لا تزال اجهزة الرادار تنبىء عن الهجوم المنتظر ، نقاط ضئيله على شاشة الرادار، موجات مهاجمه من جهنم، من يمنعها من التوغل..

الازيز القادم من الشرق البعيد.. تعرفه جيدا.. تجرى متجها لمدفع الشيلكا .. تصعد اليه .. تجرى اختبارات التشغيل .. عطب فى دورته الالكترونيه .. شغل مانيول يا ابن عبد الجليل .. انظر الى الفضاء عبر دوائر التصويب ترقب قدوم الطائرات المعاديه.. خلايا الجسد تنوب فى فولاذ المدفع.. طائره تاتى على مهل فى المقدمه .. رقبها وانت تصعد بزاوية سبطانة المدفع الرباعى متقدما مساره.. تتشبث بالمدفع جيدا .. تفتح النار لحظة دخولها حقل نيرانه .. كل شىء يهتز من حوله.. وهله وبدا وكأنه يتنفس مدفعه.. كتله واحده تتحرك بانسجام .. يعبرك باطن الطائره الى الخلف .. تستدير تتابعها، وهى تختفى من السماء فى الافق البعيد .. وتبقي انت ومدفعك وحيدا ..

من الجنوب وبموازاة القناة عبره سرب من خمس طائرات .. دقائق وعبر سرب آخر .. تابع إطلاق النيران عليه وهو يختفى شمالا والمواقع القريبة تتابع ما يجرى بقلق.. للمرة الثالثة حلقت الطائرات الخمس فوقه فى تشكيلات متنوعة على شكل زهرة الأقحوان، بدا واضحا أن الطيران الإسرائيلى يعربد فى الفضاء إذ لم يعد هناك ثمة مقاومة.. هل انهار سد الدفاع ؟ .. جاءته الطائرة الأولى من الشرق ، كانت تطير على ارتفاع منخفض للغاية، أز صوتها بعنف ، تعبره دون أن تطلق طلقات مدافع الفيكرز . ربما كان قائدها يسخر منه.. ربما كان يلقى إليه بتحية الموت إذ ليس ثمة مكان لألعاب قبائل الهلالية فى ميدان الموت الميكانيكى. الآن.. الآن.. عبرته طائرتين من الجنوب إلى الشمال وأخريين من الشمال إلى الجنوب.. كانا يقومون بمناورة.. ربما تكتيكا ما.. وقبل أن يفيق كانت الخامسة أمامه مباشرة.... فتح النيران على الفور لثوان قبل أن يسود المكان انفجار رهيب..

صعدت الطائرات الخمس أجواز الفضاء عاليا قبل أن تتهاوى إحداها، وهى تدور حول نفسها ثم ما لبثت أن استقامت مندفعة كالبرق فى اتجاهه مباشرة.. كان الجميع ينتظر قصفا.. لكنها لم تفعل.. بل صعدت فوقه مباشرة لترحل مع التشكيل المهاجم باتجاه الشرق..

ثلاث مدرعات ياافندم.. ثلاث افاعى تهم بالانقضاض على الجنب.

وسط الصمت كانت إحدى سيارات الجيب تتجول ببطء فى مواقع الدفاع الجوى التى دمرت منذ قليل .. تحرك قليلا متراجعا إلى الوراء قبل أن يغشى عليه ثانية، بعد فترة لا يدرك مداها شعر بجسده يهتز، فتح عينيه بصعوبه .. لمح وجه المقدم هشام وثلاثة من وجوه رفاقه تحلق حوله.. سمعه يهمس ضاحكا: لسه فيك روح ..

هز رأسه موافقا .. كانت ساقه تؤلمه .. عقب محمود: نحمد الله. قال نبيل: طلعت عينهم ..

قبل أن يغيب عن الوعى: رايحين فين .؟

ابتسم قائده: إلى المؤخرة يا بطل .. اولا علشان إصابتك، وثانيا لإنهم يحكمون الحصار .

* * * *

.. آهـــــــــــــه ..

دوى الفضاء بصوت الرصاص .. دفعة فى الظهر مثل ضربة قبضة ثقيلة.. اهتزاز الجسد .. تساؤل البرق .. هو ايه ده ..؟ .. على خط القناه انا ام انى على حافة الفلا.. الاندفاع للامام .. ترنح الجسد ارتفاع الرأس للوراء .. خفقة خصلة الشعر الكثيفة راية

فى الفضاء.. ارتفاع الساعدين.. كبوة الجواد الراكض على الوهاد .. الاندفاع بثقل الجسد.. الانكفاء للامام .. السقوط على الارض .. الارتطام ..

.. ياليل كابس عليه ..

.. ياليل ليه الأسيه ..

.. قـــــــــوم ..

.. قـــوم .. اشباح الرفاق تصرخ فى الفضاء ..

قـوم يا حصان يا اصيل .. يا كريم .. يا جمل يا حمول .. اجرى على سطح الفلا جرى الرياح الدبور .. طير على جناح الفضا طير النسور .. شق السما .. شق السهول .. عدى الصحارى والبحور ..

.. انا ح اموت هنا ..

قـــــــوم .. اهرب من صيادك المجهول .. من مرمى رصاصه واسرع تجاه الاسفلت .. اجرى لانوار السيارات العابرة وضوء نوافذ المدن.. اجرى من غلظة البدو للحضر ..

.. ألا ترون.. على حافة الورى صفوف المدرعات المعاديه والقبعات العسكريه وصفوف اللصوص تختفى خلف الاقنعه تقطع على الطريق، موتى قابع هنا، وما عاد للقدمين ان تتحملا .. ما عدت قادر ع النظر، تهيؤات واخليه، اشباح يا ابن عبد الجليل اشباح..

صوت طلقات الرصاص ام انفجار القنابل.. الدم من الكتف اليمين على الجسم سايل ..

– انتباه .. لكل الفصائل .. تعبر سماء كتيبة اختبار الصواريخ المعسكره بجوار مطار القاهره طائرتين مصريتين طراز ميج ٢١ من مطار بنى سويف باتجاه الجبهه.. الكتيبه متمركزه بجوار كتيبة اختبار الصواريخ بغرض الاختبار .. عندما سمعنا التحذير تتطلعنا للسماء، شاهدنا الطائرتين تتقدم نحونا بثبات ، لكن من اتجاه الجبهه وليس من الجنوب .. ثوان وفتحت علينا الحمم .. الانفجارات المريعه .. مخزن الصواريخ .. الانفجار المهول لسائل وقود كتيبة الاختبار .. الدمار .. اجرى عليهم .. اجرى اليهم .. مد ايد المساعده عَلَّ حد فى يوم محنتك يمد ايده لك .. اجرى الي جنود كتيبة الحراسه.. الاحذيه ، القبعات ، خوذ الجنود ملقاه وحيده فى الانحاء تنعى اصحابها.. اضحك يا موت.. قهقه للضحايا.. اجساد تطل من الخنادق بلا رؤوس وكأنها فئران جزت رؤوسها .. اطراف الصحاب متقطعه، متنثوره فى كل حتهه شواء معفر بالتراب ، انظر سيقانهم العاريه جواربهم المرتقه مكشوفه للجميع، تحكى عن الفقر المريع، اجمعها.. هذه الاشلاء المحطمه.. هذه السواعد الملتصقه باجسادها.. هذه الوجوه المذابه بالنابالم ووقود الصواريخ المنفجر.. هذه الورود ينطق لصمها المشوى بطراوة الشباب الصغير.. حسام الالفى.. العود الاهيف الطويل.. راح عمق

العينين، وحل محلها لحم سايل على الخدين، عاش طول عمره يفكر فى الانتحار.. اخواته البنات يكبروه فى العمر، بنات ليل يرجعن قبل الفجر، يراهم مع الصحاب على الناصيه، ينزوى خجلا، يدخل ، يصرخ يضربونه، يحاول قذف احداهم من الشباك، تطل كل نوافذ الحاره، يصيبه العجز والفشل فى الدراسه، والشعور بالعبث، يعبث فى بنات الناس بالفساد.. تزوجت كبراهم، عام وتبعتها الاخرى، فكر فى الحياه المستقيمه، واقبل على الدنيا يعوض زمن الفشل، حقق نجاح فى الدراسه، وخطب بعد قصة حب، لكنه مات، لا تعرف من بودره النابالم ام من سائل الصواريخ، لإن الوجه كان كالفحم اسود بلون الرماد .. ثروت سعيد ندا، ملازم اول وكان ح يترقى نقيب، عاش حياته مرفهه بين انفصال امه عن ابيه، يموت فى الفشر والادعاء، اليخت الذى يملكه، وقوع ممثلات شهيرات فى هواه ، وعندما يأتى الليل ينام مفزوعاً، يقوم هربان من الكوابيس، يصرخ ينادى امه، يرقص، وراه المقدم هشام.. تعالي لى يا امه.. الآن يرقد فى سلام.. لا فزع بعد الفزع.. ولا خوف بعد الموت الزؤام ، ولا بكاء بعد ان جفف الوهج البشع ولهب الغضب كل الدموع .. تحكى عن مين ولا مين.. احمد عبدالسلام .. حداد سمرته سمرة الطين .. صوته الاجش، جسده الرفيع الضامر عود خيزران .. ايده الواهنه اشد من صلابة الحديد.. فى الليل يضحك مع انفاس الحشيش، اما النهار يمضيه فى غضب وشجار مع الجميع، لا فرق بين قادة الكتيبه وجنودها، لكن احد لم يكن يضايقه، لأنه كان اول من ساهم فى بناء دشم حائط الصواريخ حول القاهره .. الموت مذبحه.. اشلاء مبعثره، يصعب عليك وصفها.. شيء واحد يماثله ، صيد قوافل السمك بالديناميت

.. لكنه انكتب لهم عمر جديد، ولما جند بالجيش طلب الالتحاق بالدفاع الجوى :

– سلاح الصواريخ، دى دشم يصعب على الجن اقتحامها، رصيت حديدها بإيدى .. الآن اصابعه الخمسه مفروده كاسياخ الحديد، اما اصابع كفه الشمال فمنطبقه بعنف على صلب السلاح ، بعد ان ذاب الجلد واتصل ببعضه .. وجهه لا يزال يطل مملؤا بالغضب .. اين باقى الجسد.. لما جذبته لاعلى رفض، كان منكفئا على السلاح يمسك به باستماته .. قلت .. خف ايدك يا احمد عشان آخدك على مستشفى الميدان .. هز رأسه بالرفض، كان عايز يقول كلام.. استعفيت عليه، اقول فى بالى ليه يرفض احمله للاطباء .. المرضى دايما يرفضوا المساعده، انا الغبى ابن الغبى استعفيت عليه.. لما رفعته من تحت باطه كان خفيفا.. طلع معاى نصفه الاعلى، اما باقى الجسد، الإليه والساقين لم يكونوا موجودين.. عبدالله يا ابن الحمار.. الشاب راح ياولاد .. لم اتركه.. حملته وكل حته فى جتتى متكلبشه بالرعب.. احشاؤه اللى اتسربت من تحته، جمعتها.. اشلاء مخلوطه بالرمال وحملتها وجريت حامل نصف جثه واحشاء بتجرجر على التراب، اخفيت بقاياه عن الرفاق، وانا بصرخ بجنون.. افتح يا وله البطانيه، وشوف حته افرشها فيها.. مد ايد المساعده للحبايب.. لم اشلاءهم المبعثره، غطيهم برفق.. انعى فيهم ورد الشباب الجميل، ومجد الحرب، وروح الانتقام.. سلام وتحيه لاحمد عبدالسلام.

اطلق نفير الشهيد.. نوبة رجوع للبطل.. نظمى عبدالمسيح ميكانيكى ديزل الكتيبه اللى اندفع وجعل من جسمه حاجزا بين تنكات الوقود السائل وبين مخازن الذخيره.. لم يبق سوى

وشم الصليب ورأسه سليم لم يمس، وجهه المدور الجميل بقايا باهته ، ابتسامته الهاديه تخفى وراءها سخريه عميقه من الوجود، عيناه فقط امتصتها خلخة الانفجار تاركه كهفين غائرين.. نظمى عبد المسيح.. اين ذهبت عينيك اللى كانت تضفى ع المكان احساس الامان ، لا خلاف لا شقاق مع الجنود، الصيانه، وقطع الغيار .. كل شىء مطلوب ح يتم مهما كان محال ..

تحكى عن مين ولا مين.. سيرجى ميخائيلوفتش.. لا تفرق الانفجارات فى لون الجسد، خيط الدم الرفيع ينسال من الانف والاذن، ونظرة الاشباح للفراغ، ورحيل الخلايق الى حتفها.. نقيب فى الثامنه والعشرين من العمر، ومعلم تدريب ، خبير اختبار صواريخ ارض جو .... لم يسعفه القدر الغشيم كى يحضر معركة النهايه وهو الذى درب اولى كتائب دخلت حرب الاستنزاف من طراز سام ٣، وشكلت اول صخره فى حائط الصواريخ واللى بدونه لم تكن مصر تستطيع عبور القناه.. سيرجى ميخائيلوفتش.. لا يفرق النابالم فى لون الجسد ولا الدمار الناتج من قصف القنابل فى شكل موت جنود، حمره البشره الثلجيه، خصلة الشعر الذهبيه ضاعت ملامحها فى اخضرار الموت..

.. تحكى عن مين ولا مين.. ليه تتوه فى دوامات التذكر.. قـــــوم.. قـــوم اجرى.. ليه الاسفلت لم يظهر، هل تاه الطريق ام ضاعت الاتجاهات، عند مرمى البصر ارى لسطح البحر انعكاسات.. الم القدم والكتف.. يا ابن عبدالجليل.. جرها على الرمال، صارت تقيله زى الشوال.. جرها وغد السير نحو .. آهـــــه ..

عند احتباق الأسنه .. نركب ظهور الضمر
بالسيف لابلغ مرادى .. لو يطـــول العمر**

ارتطام الجسد بالارض، لهث الجياد التى انهكها طول السفر.. ح اموت هنا .. مستحيل .. دا انا بعدي لسه صغير ع الموت ، باقى لى من العمر الكتير.. شد رجليك بايدك .. ثقيله .. شوال الطحين.. يا وجد يا حزين .. ومال هذا البلل الرطب .. دم .. دم .. مستحيل .. ازحف .. توارى من الموت الكامن فى الظلام .. فين الامـان ؟ .. قـوم.. مش قـادر .. مستحيل .. هل ممكن اموت ؟ .. ليه.. يارب عملت ايه..؟ عبدالله هو ده وقت الشكيه.. ازحف .. ادارى بين الصخور.. ايوه هنا كويس .. مدد الجسد على الرمال ، اسند الظهر فى فرجه بين الصخور، واكتم النفس حد ما نشوف نهاية اللعبه، او يطلع الصباح.. يا ترى نهاية اللعبه ايه؟ اخلع جلابيه من جلاليبك.. قطعها حتت.. شد بيها على جرح رجليك المصابه، اوقف نزيف الدم.. لكن مال العتمه تاتي باشباحها اجساد بلا هامات.. هذه الوجوه المشوهه بالدم تتجمع حولك، تلتصق بك، تناديك ان تنقذها من شقائها.. لها.. اجمع كل رأس على جسده.. هذا قد فعلته.. ربما دفنت جثه ناقصه ساق !.. هو كان فيه

شيء سليم.. قصف النابالم لا يترك من الانسان هذا الشئ الجميل سوى اشلاء مشوهه.. اتريح يا ابن عبد الجليل .. اتريح شوى .. التقط انفاسك .. قبل ما تنطلق من جديد .. لكن ما بال الجسد اصابه الوهن.. يارب ايه العمل رحمتك.. اشباح.. ارى اشباح.. ارى اشباحا على صفحة الرمال، واسمع صهيل الخيول ، من اين تأتى ..؟ .. اهى الحياه ام الموت، الافول ام البزوغ .. يا ليل انا والخيل لما تكحل بالدما .. ريح اللى لما فى البر يومها زاد مداه، اما الخيول زى مراكب الميه، والبحر جاى عاصف بكل اساه

.. نادى شبح صديقه صلاح عقل ..

.. الآن اموت .. يجب ان تظهر المدرعات ..

.. قـــــــــوم ..

.. قـــــوم .. فز .. اقفز كذئب فى الفلا، حتى لو كنت جريح حتما تعود لمأواك ..

– اين المدرعـــــات.. ؟

– قوم .. قوم يا عبدالله، دايما معرض جسدك لكل انواع الردى .. اجرى واهرب من السكون، قاوم المنون

– المـدرعات .. اين المدرعات ..؟

– عن المدرعات لا تسل فقد خرجت ترعى للقتل منذ مئات السنين.. قتلها الكهنه، ومعاويه، وابن العاص، وجبرية الجهمه، وتواطؤ الاشعريه، وحدسية الغزالى .. عن المدرعات لاتسل، لأن المدرعات خاصتها الحركه، والحركه لزوم العقل، والعقل لزومه الحريه، وقد استاصلوها منا منذ مئات السنين.. تركوا لنا عقلا نباتيا .. .. قاتل .. واخرج من دائرة العقل المحاصر الى العقل الحر الخالص.. قاتل .. فوجودك فى العالم على وشك التلاشى ..

اوقف الذهن عن الحديث بصوت مسموع.. انصت، اصغ يا ابن عبدالجليل.. هذه الاصوات تحملها اليك الرياح.. خطوات الاقدام.. ها هم يقتفون آثار اقدامك فى الظلام.. الويل لك يا ابن عبدالجليل الويل لك.. بينك وبين الموت شعره .. يارب بعد كل هذا المرار .. مستحيل .. عملت ايه انا .. اصغ السمع يا ابن عبد الجليل بطل بكا .. طبع الرجال فى الصعاب يبان ، اوقف الذهن عن الحديث بصوت مسموع .. لهجه ليبيه ام لهجه الاعراب ..؟؟ .. مصريين ..؟ يقتفون آثار اقدامك فى الظلام.. الويل لك يا ابن عبدالجليل.. الويل لك.. لا تظهر الرياح لهجه السفاح .. اقال.. هذا هو الزب.. ام قال هو ده الكلب؟

.. وجيب القلب وابور سكه حديد .. ظل الظلام الذى اخفى عنى وجه السماء .. اشباح رجال اربعه ، احدهم انحنى .. عسكرى مصرى او ليبى ربما.من اولاد على..؟ .. الجيش المصرى مستحيل.. هل هو الحاج حميده.. يا ربى لا اعتقد.. يده تعبث فى جسدك تبحث عن فلوسك.. الحاج حميده ، لا اعتقد .. لا تستطيع النظر برغم انحنائه عليك.. يالوهن

الجسد.. اهذى هذيان الموت.. من اين جاء الموت .. من اطلق الرصاص .. انا فين ..؟ على شط القنال ولا على حد الفلا.. صوت القصف الجوى جى منين ؟ .. اجرى على المدفع يا وله.. اجرى يا محمود، يا نبيل، يا مبروك.. واد يا ابورحاب انت فين ؟ .. فى قاع وادى الكوف، ام على لوحة رادار الرصد ؟ .. اجرى يا ابن الكلب انت .. حملوا الذخيره من الخطوط الخلفيه.. الطيران الاسرائيلى مش هفيه.. بس انا بهذى.. الحرب.. ؟؟ ده كان زمان.. انت فين الآن؟ .. دوامات الذاكره .. دوامة النسيان .. افتقاد الامان .. من اطلق الرصاص؟ مين ينزع شقا غريتى وعمرى .. سرية مشاه مصريه ام عسكر ليبيين تسللوا عبر الحدود ام كلاب من عصابات اولاد على ؟ .. هم واحد ولا عشره .. اربعه وراهم عسكر كتير، ولا دى زغلله العين .. مين اطلق الرصاص يا ابن عبد الجليل .. ولا ح تموت من غير ما تعرف وجه قاتلك .. يارب اعميهم.. ما يعتروا فيك .. شقوا الهدوم عنك .. ايده عثرت على الفلوس .. مستحيل .. ابعد ايديك يا ابن الكلب ابعد عن فلوسى شقا عمرى التعيس..

تدفع الشبح الذى يعبث بملابسك بكل قوتك، تقوم تحاول الفرار .. كعب البندقيه الصلب فى مؤخرة الدماغ .. السقوط فى دائره من الفراغ وهاويه بلا قرار .. الغثيان وغيبوبة النسيان ..

* * * *

www.books4all.net

الفصل الأربعين

انتباه .. انتباه
اطلقوا النفير.. اطلقوا لحن نوبة رجوع للسماء.. اضربوا فى الفضاء البكر طلقات دانات المدفعيه، وانشدوا التحيه للشهيد، والقوا بجثتة فى حُفَر مجهوله، هيلوا عليه التراب، حيث لا يجب التذكر .

انتبـــــــاه ..
حان أوان توزيع الغنائم، وانتهاك جسد الوطن النبيل..
كل من خان شرفه وذمته يمد سكينه ويقطع من جسد الغلابه.. ينتهك مصر الصبيه ، مصر العجوز المريضه.. مصر الدميمه .
انتباه .. انتباه .. اطلقوا النفير وسط الفرح والابتهاج.. وسط البلاده للضمير اللى مات، واختموا عليه جميعا بالشمع الاحمر .. انتهى ومات من سكات .
ارعبوا الاطفال باسم الدين.. اجعلوا الله مماثل للجحيم .. دمروا التعليم .. اشطبوا عقولهم كى ما يبزغ الدين الجديد .. يعبدوا آله البلاده .. يعبدوا آله المتاهه .. ترتفع ع العرش آلهة الفساد ..

-١-

شمس الصباح حلت على البراح، افتح عينيك بصعوبه واعياء، انظر وانت بين الصخور وسط بركة الدماء، هدومك الممزقة بشفرة المدية، غارقه فى الدم ، تكشف عرى البطن ، شال جدك الابيض ملوث بالدماء مرمى على مرمى البصر، ليه الصباح اسود من ظلام الليل.. انسرقت.. جمجمة الراس فضاء من الخواء والفحيح.. خلايا العقل مكشوفه فى العراء،

مشدوده كالوتر .. الم . الم .. اريد ان اغتسل.. الم .. الم ساخن مرير .. صداع .. شلالات البكاء .. عزة النفس لما الزمن يتحكم فى ابن الاصول .. النشيج، كل قطعه من الجسد تنتفض.. انهار الدموع على الخد.. طعم الملح فى اللسان.. انعى نفسك بحزن.. عمرك ما بكيت .. معلهش اى ذنب ارتكبت يارب.. اى ذنب ارتكبه سته مليون مواطن عبروا الحدود .. دا شىء ما له علاقه بربنا .. وإلا ح يكون الحساب كفر .. قوم يا حبيبى قوم .. قوم شوف بركة الدم.. بكاى فك الاربطه .. قوم دافع عن حياتك .. بينك وبين الموت شعره.. لو اقدر افهم ايه جرى ..!! ايه اللى بيحصل على وجه البسيطه .. لا يرى المرء إلا صور متجزأه .. ليه يطاردنى الانحطاط والفشل.. ليه طريقى كله مستنقعات ، شراك للموت الطويل .. ابكى .. ابكى يا عبدالله .. خلى الدموع تبرد نار القلب ، تطفى لهب الدماغ القايد حرائق.. يا حبيبى ما تعيطش .. هو الابطال بتبكى .. بكاى كان خوف ام اندهاش.. الموت اتانى على غره .. ح دوق كاس المنيه .. لا ح شوف ابنى ولا ارجع سدود .. ست سنين على الجبهه ، سلاح الطيران الاسرائيلى والقصف المدفعى اليومى وهجوم المدرعات .. كل اسباب الموت المقنعه .. طب ازاى اموت هنا فى الفضاء غريب .. من ذا الذى رمى بى هنا بالمذله واقتنص الغنائم .. من المسئول ؟؟ ولا الجريمه ح تمضى بلا حساب.. احنا حاربنا سواء، لما جاء الموت لم يفرق بين الفلاحين وقادة العسكر.. وانا ع الموت بعدى صغير .. فين قبرك ..؟ فين تربتك ..؟ حتى جثتك مصيرها للعراء .. يا غربتك .. وليه الطائرات الميج بتقصف باتجاه الغرب ؟ طول عمر القصف كان فى الشرق.. هو انا على شط القناه ولا على حد الفلا ؟

كانت الاجازة لحظة استراحه من انتظار الموت، والعوده للجبهة عودة للموت، يخطف حياة الرفاق.. يقطف رقاب الاحبة، يبقى الدور عليك .. هو انا فين ؟ على شط القناة ام على حدود الفلا ؟ وما صوت هذه الطائرات ؟ هل تقصف العدو فى الممرات ولا مساعد وطبرق؟ يا هل ترى يا مفتاح وجبران رجعتم بنغازى ولا مرابطين على الحدود.. مين اللى بيلعب بالخلايق ويقامر بارواح نصف مليون مصرى .. مين اللى اخرج الموت من عقاله..

.. قوم بلاش فلسفه .. ازحف الى الاسفلت .. شد رجلك المصابه شبر شبر .. علك تلاقى مين يساعدك ، ساعدت من الناس كتير وآن رد الجميل .. لا تموت فى جوف المغارات، ازحف للفضاء الوسيع، القى بجثتك للصحراء، اذريها للرياح ، علها تحمل روحك الضائعه للوطن، لاتكون محمد ابورحاب.. اخنق العبرات فى الحلق بزفرات الشجى، بالغضب الحزين.. ابكيه وابك نفسك، ابكى نزيل السجن ، وانت بتزحف لتبة الرمال البعيده..

ها هى الشمس من الشرق طله، والرياح تاتى حامله رائحه البحر.. خطوه خطوه باتجاه للاسفلت حيث السيارات العابره والبشر .. يعثر فيك من ينقذك من فم الموت المخيف .. بدل الدموع يكفى دمك المسفوح، اضغط على الآلام، ازحف لابنك الوليد .. ح تلاقيه

يلاعب العشب والطين.. هذا الدوى المكتوم، صوت انفجارات مخازن الذخيره .. كانوا يبغوا تسليمها لمصر .. ازحف ويطل فلسفه .. لو يعثر عليك رجال الجيش ، كنت ابرزت بطاقة مصابى الحرب .. ازحف اذن .. عل سريه تراك او عسكرى شارد بيقضى حاجته فى الخلا .. ازحف وشم ريحة البحر .. ميل بجسدك اللى عاش فيه الضعف من نزف الدماء .. اصعد تبة الرمال .. ها هو صوت البحر وضجيج السيارات ، الاسفلت الاسود .. شريط صغير، شريان يعبر عليه انبشر للانحاء وللحياه .. كم المسافه مائتي متر .. لا .. فى هذه الصحراء خمسمائة متر ، انظر على حافة الاسفلت .. تتشكل وجوه وتختفى .. مال عينى لا ترى سوى المدرعات المعاديه ، القبعات والهراوات ، قنابل الدخان وانعدام الامان، جيوش مرصوصه من اللصوص تتوارى خلف الاقنعه تقطع عليك الطريق الى الاسفلت القريب .. اشباح .. هذه اشباح.. نام.. نام.. راسك بتلف بيك ريحها ونام .. عبد الرحيم يا خوى ح اموت، امه، نعمات، ابراهيم .. وى .. نجاه ..

-٢-

يـــــــــــــاه

الشمس صارت فى كبد السماء، وانت بعد فى مكانك لا تستطيع الحركه .. فوق من منامك ، انصرف قبل ما يفوت الآوان .. حاول .. ازحف.. جهز مكان لك ، واعدل من جسدك المنهار، مد رجليك ، اربط جراح الدم وامنع النزيف ، واستعدل قعدتك عَلَّ حد يراك.. لو ان اخوى عبدالرحيم ساعنى .. لكن ازاى يا ابن عبدالجليل المكان صار قليل والنفوس ضاقت بالجميع ، لهفى عليك يا ابنى من زمن الجياع والوحوش ، ما حد يقدر يتحمل هم غيره .. كنت عايزك دكتور فى قلبه رحمه او مهندس شريف ، كمبيوتر يمكن تقدر تحل عليه الغاز الحياه.. الجيش المصرى بيهاجم ليبيا ..! ليه .. آلاف ماتوا هنا .. طوتهم الرمال.. تم اغتيالهم غيله وغدرا، وهم فى طريقهم للزرق ، مين سأل عنهم ؟ مين دافع عنى ؟ علام الحرب مع ليبيا إذ لم اكن انا.. من اطلق الموت من عقاله ؟ ولأيه مصلحه ؟

دوار ودوخه فى الدماغ .. اغفى قليلا.. نام على لحم العظام.. استعيد وجه قاتلك فى المنام.. ليه هو انا ح اموت..؟ وحيد ما فى حد جنبى .. مستحيل .. دى ما فى جنازه خرجت من سدود ، إلا وكنت حامل نعشها ، اتعارك مع الرجال لاجل الحمل الثقيل، عل احد يتخانق على حمل نعشك لما تنولك المنيه .. يقرا على روحك الصحاب الفاتحه، يتذكرك الخلق بالرحمه.. وحيد يا ابن عبد الجليل.. الموت ينال منك وحيد، لا تعرف سبب موتك ، ولا وجه قاتلك.. حكمة ربنا.. يد القضاء والقدر .. لا.. هذا موت الفساد.. مافيا الاسفلت ، تجار العطه، الشرطه ، الحاج حميده .. هل كانت جثة حسن مرعى الممزقه وسط اشلاء سبع جثث

على السكه الحديد، قضاء الله ام فساد المشرفين علي نظام السكه الحديد .. هل كانت اليد القابضه على منجل الموت الذى حش رؤوس الرجال على القنال .. يد الله ام يد العدو الاسرائيلى ..؟

.. الحياه ..

الحياه تذكره للجحيم.. قطار سريع للموت..

جسر للوحشه .. يا لهف جسد مرتك للرجال ويتم ابنك المبكر.. الحياه طول العمر ملتاعين ؟ لا يعرفوا ان كنت عايش فى بلاد الغربه، ام اسير زمهرير الموت والصقيع .. نار العذاب والشك .. تطوحهم الشائعات

- عبدالله يا ام على شفناه فى بنغازى ..
- حد كلمه ..؟
- لأ .. يمكن الواد ابن مسعده ..
- عبدالله يا عبدالرحيم شفناه مجاور للسيد البدوى مع المجاذيب ..
- قال لحد حاجه ؟ ومين جاب الخبر .
- ايوه وقال انا جاي ..

يا ربى.. مش كفايه عذابى، ليه تعذب احبابى ..؟

.. سدود.. يا عبق ورده من الهوى فى فساد الزمن .. الخروج من رحمك آلام.. لم يكن فى هذا الوطن للفلاحين مكان .. نمل .. نحل شغيله .. اما البشر ..!!

.. سدود.. يا واحه من الدمار المرير.. اين المصير.. من قوادى القاهره العاهره.. تجار الموبقات، والذين يختفون خلف البذل المرصعه بالنجوم..

الزمن بيمر عليك قطر غشيم يسحقك ولا يحميك.. يسرقك ولا احد يطل عليك .. طلع بطاق

ة مصابى الحرب يا وله .. امسكها فى ايديك كويس، حد يعثر عليك حى او ميت يقدر يتعرف عليك ، تحن فى قلبه الشفقه على اهلك يحميهم من لوعة الجهل بمصيرك .. مثواك الاخير .. مستحيل.. يمكن يحمل جثتك فى سياره الموتى تنام فى بلدك النوم الاخير.. يمكن يحملك فى اسعاف للمدن القريبه، عل حد يعالجك.. هه ..

تبا لك ولاحلامك الهلاليه..

زعمك تعيش يا ابن عبد الجليل.. زعمك تعيش!! بتحلم بالحياه .. نزفت كل الدم اللى بقى فى عروقك.. لو وقعت فى مستشفى اميرى ح يعاملك الاطباء والممرضات مثل مرضى الجذام ، ولو مستشفى خاصه ح يقفلوا الباب فى وشك، الفلوس قبل الدخول.. ما عاد فى قلوب الناس رحمه ليه ؟ الحياه صارت رخيصه، والموت سهل المنال.. يا آمال العمر اللى تسرسبت فى الرمال..

مين علمك الحلم يا ابن عبد الجليل مين علمك ؟.. بؤس الشوارع ام وحل الحوارى؟ الخوض فى روث البهائم ام الجوع لحب الناس ؟

مين علمك الحلم يا ابن عبد الجليل؟ مين علمك يا ابن الكلب ؟ البرد تحت المطر، والنوم على زوايا الدور وشطوط الترع ، ام ضيق المكان؟ .. انعدام النَفَسْ فى القيعان ؟ جدرانها الهباب ، تتنفس دخان الفرن .. تضيق السما الصافيه .. تبهت اضواء النجوم ، تتوه فى المدى خلف الرازنه الصغيره ..

مين اللى علمك الحلم يا ابن الكلب ؟ مين علمك يا حمار يا لئيم ؟ .. الحلم بدفء الشتاء والجوع المرير.. ام ضيق النفوس وبؤس المشاعر؟ .. النوم على طوى البطون ولا جفاف القلوب ..

مين علمك الحلم يا ابن عبد الجليل ؟ .. مين ..؟ .. العزيق فى سباخ الزرايب عند الغربْ ولا السرح بالبهايم ؟ انت باتجاه الغيط، والصحاب باتجاه المدرسه .. جدك المهاب ام خالك ابو خطاب.. القربه اللى جريت وراك من جميزة القراموس لحد باب الدار، والعنزه المقطوعة الراس، والساحره العجوزه تسير بقدم عنزه ، وتطير على مقشه، والجان وارض الجنان.. الغريب اللى دخل مدينه وحط على راسه الطائر الابيض ، وتوج ملكا على الجموع .. هل كانت هذه مدينه الحياه ، وكان هذا طائر الموت الجميل ..

الشمعدان العظيم، يخرج منه للشجعان الاحجار الكريمه والحور الحسان .. اما الجبان فسبعه من العبيد السود والسوط بالسياط حتى الصباح .. غضب سيدى ابراهيم الدسوقى لما اختل فى يد القدر ميزان العداله .. الظلم يطوى البشر.. يطوى الحياه تحت جناح الظلام، يثور سيدى الدسوقى امام المشيئه .. يارب فاق الامتحان قدره الانسان .. ينزل بجسده النار .. يتسع الجسد الشريف .. يمتلأ الجحيم بالجسد الشريف .. تبرد الكف العفيه ، لونها الاشهب يقطر بالبروده.. يحل الثلج على الجحيم .. يصرخ على الخطاه ، اذهبوا فانتم الطلقاء.. يهيج عقلك الصغير .. التساؤل المر ولا اجابه سوى شوق للعدل والحريه، وعيشه بلا حراس ولا اباطره تنهش لحم الناس، سيدنا المبجل ابراهيم الدسوقى .. عندى سؤال .. هل فيه فرق بين القضاء والقدر وبين ميزان العدل؟.. هل فيه مساحه بين

المشيئه وقدرة البشر ؟ .. هل يستطيع الانسان فى المسافه اللى اشرعت فيها سيف العدل .. ان يقاوم الانسان قدره ؟.. ام يرتكن فى انتظار ما لا يأتى؟.. سيدى ابراهيم.. ارجوك.. احضر فى الحال .. لا يزال الظلم فى كل مكان ، لا يزال اضطهاد الفلاحين ظلا لهم.. لا زالت الحياه فى حاجه لرحمتك.. يا ابن عبد الجليل الله يجحمك.. مريض بالوهم والافكار.. فاكر نداء الصول على الجنود بعد انتهاء الحرب ..

– كتيبه خطوه معتاده معتدل مارش ..

يتحرك الجنود تلبية للنداء بالسير على اللحن الذى يصيغه الصول العظيم

"اطلع من الفخد ..انزل على الكعب ..

يا ابن الكلب ..كتيبـــــــــه قف"

انضوا عنك ملابسك، واغتسل فى البحر.. اغسل عنك الرمال، وسخك الجسدى، جربك النفسى، قبل ان تطالك يد المنون، وهذا الزمن الملعون ..

مين علمك الحلم يا ابن عبد الجليل ؟ .. مين علمك الحلم؟ .. مين اللى اطلق فى عقلك الصغير السؤال اللعين ؟ .. مين علمك فتح الباب الاربعين ؟ .. ترى الرخ العجيب، والبحور السبعه، وارض الجان، وجزر الجنان، وبنات الحور، والقصر المسحور، تدخل على الغول اللعين، تخطف الاميره والحياه الرغيده، شهر من العسل والتين وآخر من الزيتون والحلم الميمون ؟

يا حزن حلمك الدفين؟ .. مين اللى علمك يا مسكين؟ .. مين علمك التساؤل اللعين ؟

.. مين اشار عليك بفتح الباب الاربعين .. لأن التسعه وثلاثين باب غير موجودين .. لا ذهب المعز، ولا فضة صفى الدين، ولا جوارى هارون الرشيد الحسان، ولا قصور علاء الدين ، ولا اميرات الجن الازرق، ولا قصورها المشيده فى قاع بحر الزبرجد .. ولا حتى ح تنال نصيبك فى الحياه يا قصير العمر .. ادفع ثمن احلامك ، موت وحيد غريب، طريده يطاردها الصيادون علي حدود الفلا.. سحابة صيف لا يعرف من اين جاءت والى اين تسير ؟ .. موت .. موت وحيد غريب .. لا ركبت خيول الهلاليه، ولا مسكت مصباح علاء الدين.. وقعت في فخ الباب الاربعين.. اطاح بك السفاح، وحلمه اللعين، موت غريب، تنهش فى لحمك الطرى ذرات الرمال، تطويك الرياح.. ربما يعثر عليك وربما لا ..

ربما يعثر على عضمك غريب يسأل وهو يبتعد خوفا .. عظام كلب ضل من اضواء المدن، ولاً بشر تاه فى البيادى.. صابك الدوار من جديد .. عينيك بتغفى غصب عنك .. المدرعات .. ربما لا تزال تبحث عنك .. عن اى المدرعات تسأل.. تلك التى اضاعها تاجر الجبن، ام بائع العسل المغشوش.. ام سماسره الاسلحه، تجار المخدرات والاغذيه الفاسده ..

لغز عبد الحكيم عامر والسادات، غريب كلغز الشمعدان.. موتك جرى وحكم عليك بيه القضا يوم ان عجزت المدرعات عن الدفاع عنك.. ساعتها قرر الساده والقاده ان يعيشوا وحدهم ويتركوا الموت للجنود.. يطلقوا كل انواع المنون .. الفقر والجهل والمرض .. يعبدوا روح الفساد يجعلوا منه آله لهم .. نقدم نحن له قرابين .. القيء الذى يقينه الوطن .. حكم العبيد والعسكر وطبقة المنصر .. اغفى وروح فى النوم إذن .. اغفى وروح فى النوم .

.. آهـــه

.. **الشمس مالت للربع الثالث من السماء** .. السكون والصمت حال فى الاشياء .. ما عدت قادر على السمع يا عبدالله .. خواء .. الكون خواء .. صدى مكتوم .. طريق الاسفلت الشوف فيه معدوم ..

.. يا خـلق ..
.. يا خـلق ..
.. يا خـلق .. هو و و و و ه ..

.. لا خرج من الفم صوت .. ولا رجع من الكون الصدى .. الموج على البحر يجرى ، والسما ملء البصر ، والسيارات على الطريق تنهب من العمر السفر ..

الســـكـــــــون ..

السكون حال فى الكون .. لا .. انت اللى مصاب بالصمم.. هذه النسور فى السما تنعق .. ولموج البحر فى التقائه بالشاطىء الصخرى دمدمه .. وللرياح عواء فى قلب الكهوف وفوق الفيافى والفلا ..

الســـكـــــــون ..

تروح اليقظه من الذهن التعب وتعود.. يأتى البصر روح السكون، السماء ملء النظر والموج على البحر يجرى والسيارات تنهب الطريق، والنسور فى الافق تسبح فى الرياح .. لحظه كالبرق يذهب كل شيء، يبقى الظلام فى الذهن الكليل .. بؤرب ضوء فى العقل تضيء طفلا مقيد فى الليل على جذع جميزه .. طفلا فى الثانيه عشره يهتف بصوت غير مسموع.. تحيا الجمهوريه العربيه المتحده .. صفوف من الجند فى ساحة الميدان ، قدم موضوعه فى الجبس والجسد المنتصب مشدودا للامام.. يتقدم نحوه اللواء الغمرى .. نيشان .. وسام .. شهادة اداء الاعمال البطوليه.. انفجارات القنابل النابالم .. دوى الصواريخ .. الكتل الصغيره القاتله للقنابل العنقوديه مندفعه كالبرق تحش الرقاب.. الاحشاء.. اللحم المحترق

.. الصوت الضعيف لقدوم طائرات من بعيد.. يا=أتي وئيدا قويا عنيفا. . يرتفع الدوى.. الدوى .. تخترق الطائرات المهاجمه لطبرق فوق الرأس حاجز الصوت .. تخترق حاجز الذاكره.. يهتز الجسد بعنف الدوى المسموع ، لا تلبث القدره على السماع تتلاشى مع صوت الطائرات الراحله.. تضيق دائرة المدرعات والقبعات والعصى والهروات والاقنعه..

الســـكـــــــون ..

.. **السكون حال فى الكون..** لا .. انت اللي مصاب بالصمم.. هذه النسور فى السما تنعق .. ولوج البحر فى التقائه بالشاطىء الصخرى دمدمه .. وللرياح عواء فى قلب الكون وفوق الفيافى والفلا .. الآن تتلاشى الصور ويحل الظلام ..

.. بقعة ضوء تطل من وراء الزجاج السميك .. صوت القطار يعبر محطة كمشوش كاشفا عن الحقول فى المدى .. صفوف الاشجار متراشقه على جسور الترع.. خط الافق بين خضرة الحقول والسماء.. عنده تتكىء سدود على خاصرة الفضا .. هناك حيث تصل الدور بين خضرة سنابل القمح وزرقة الكون الفسيح، السحاب ، تربطهما مئذنتان، وصليب وحزم لا نهايه لها من عيدان الحطب .. الدروب الملتويه الطويله.. لعب الشيوخ السيجا فى رمضان . ختمة القرآن بالمنادر ، السهر ليلة العيد حتى الصباح، وفى الفجر ، برجاس الحمه والخيول ، سباق الشباب بين النواحى .. طوابير الرجال والشباب بعد صلاة العيد تلف البـ للتهنئه .. المولد النبوى الشريف .. مندرة الشيخ ابراهيم خضير بحرى البلد .. يتدافع الرجال لتقبيل يد شيخ طاهر الذيل منور الوجه ..

الحياه شريط فى الذاكره .. انطباع مباشر لتاريخ انسان يموت.. صمت .. سكون طويل .. ظلام فى العقل .. غيبوبة الوهن والضعف.. الارتخاء كما تشرب الرمال سيل المياه .. الارتخاء كما تنام اشعة القمر على اوراق الشجر .. الم مرير ينفجر كانفجار وقود كتيبة الصواريخ فى مرابضها ، تهيج الارض ، ينتشر الغبار فى الفضاء، يحل ظلام على اطرافه زرقة وهج الحرائق واللهب ، تصبح صفحة السما متشربه بالدماء .. يا عتمه النظر فى ظلام العقل .. يا صوت نفير الحرب .. يالحن نوبة رجوع للشهيد وسط طلقات الرصاص .. تنطلق البنادق فى الفضاء بالتحيه واعمده الدخان وصبى فى الثانيه عشره يصرخ امام العلم بالتحيه.. تحيا الجمهوريه العربيه المتحده ..

الســـكـــــــون ..

.. **السكون حال فى الكون..** لا.. انت مصاب بالصمم.. الآن تتلاشى الصور ويحل الظلام .. بقعة ضوء تطل من خلف الزجاج السميك.. ارتقاء السطوح.. الجوع يلح بسرقة

كيزان الذره لشراء سردين مملح وفحل البصل ورغيفى بتاو .. زوجة ابوك تطلق فيه روح الانتقام.. .. قسوة الضرب بالفرقله ولذع برد الشتاء .. خيالات الجان وروح الجميزه الجنيه .. نعمات تقذفه بحذاء بال قديم .. المهانه .. قلب طفل يبكى بلا توقف .. جدك المهاب عبد الجليل والحرب القديمه .. عمك مصطفى ابو النصر .. العفيفى .. العراك بالشوم .. ايام زمان، وسيطرة الزوايده على الميه من بهواش.. يا حضرة البيه والحاكم بأمره على بهواش، لا تمنع عن سدود الميه.. الارض عطشانه والعيال.. كل ما نملك من دهب نعطيه لك أتاوه، بس افتح علينا الميه نروى الزرع.. الزرع بيموت من العطش وح نموت معاه .. ساحه القريه، ارض المستنقعات القديمه، وكل اهل البلد سهرانين فى ضوء الكلوبات والمشاعل .. الشاعر يغنى على الربابه، عن عرب عُربه اصحاب النفير والحربه، وعن فارس الفوارس الامير سلامه، نصير الضعفاء والمنبوذين ، يهزم الطواغيت .. لماذا تنمو الكراهيه بسهوله.. ليه يكون البغض اسهل من الغفران .. تكبر مع ابو زيد الهلالى، تركب جياد الصعب، ترمى بجسدك لنواهل الرماح وامتشاق السلاح .. سيف المستحيل ..

غنى بصوت مسموع، وان كنت لا تستطيع .. هاله من الذاكره .. خيال فى المخ .. تهويمات لا تنبس بها الشفايف .. لا ينبس اللسان بالصوت ..

«««««« ع ن د »»»»»»

. . . عـ ـند أحتبا

بب بباق الأسنة

ن ن ن ن ررر كب ظهـ ـور الضمر

بالسيف لأبـــــــــــاغى

صـ ر ر ر ر ر ر ر ر ادس

لو لو لو لو يطول

لو و و و و و و و يطول العمر

أحنا سمعنا مثل ناس

قبلنا قالوا . . الشاب

اللى يهيب اللقا

اللى يهيب الوغى

اللى

يهيب

اللـــقـــــ لل لل ل

القـــــــــــــــــــال

يوصفوه بطولة العمـــر

أهـــــــــــه ..

.. **اهـــه** يا ابن عبد الجليل.. تبا لك ولاحلامك الجنونيه .. احمق من يغنى للهلاليه.. سدود.. يا هوى مشبوب.. الحياه خارج حدودك عدم.. تذكره للندم.. اغف يا ابن عبد الجليل اغفاءه المحارب فى زمن الجرب.. الوقت بيمر ولا احد يطل عليك.. غوص فى بحر الوهن، وانسياب الدم على صفحة السماء.. بحيره حمراء لزجه على صفحه من الزرقه اللانهائيه.. لازورد .. لازورد .. نام اغف، غوص فى غياهب الصمت.. اسقط فى بئر السكون اللانهائى.. ازحف فى مغاره ظلام العقل.. نام كما يغفو المحارب بين الكر والفر... تعلق على صليب القلق وانعدام التماسك، وانخفاض سعر الجنيه المصرى، وسيطرة الاوباش على مقادير الوطن ..

-٣-

لحظات قليله ويحل الغروب.. **قـــوم** .. **قوم** .. قوم الى البحر القريب.. اغتسل قبل ماتنول منك المنيه، قبل ما تقبض روحك المنون، غالب الضعف والوهن.. الحياه قدامك هناك وانت غير قادر على مسها.. الاسفلت الاسود طوق نجاتك وان كنت اشعر.. فات الاوان.. الوقت بيمر عليك، ولا واحد عايز يطل عليك.. روح بتطلب النجاه، ولا من يمد يد المساعده ولا من يشوف.. ما هذا العمى الذى اصاب الناس.. لو انك الآن على الاسفلت يمكن يدهسوك .. العمى فى القلوب قبل البصر.. مد ايدك شويه، ازحف الى طوق الامان..

امسك الاسفلت بايدك كما يمسك الغريق طوق الامان .. ارم بجسدك من فوق تبة الرمال ما دام العمى اصاب البشر.. ازحف وقاوم للامام ..

خـــــــ طو ه
.. اتـــــــنين .. تـــ لا ته
. . . اددد ددد
اددددددديعه ..
خمسه .. خمسه .. خمسه ..

تمـ ـ ـ
ـــــانيه ..
ت ت ت ت س ـــــ ع ه
.. ع ع ع ع ع ع ش ش ش ش شش ش ش ش ش ـــ
ع ع ع ع ع ع ع ش ش ش ش ش ش ش ش
ش ش ش ش ش ش شـــره

-٤-

السما بلون الشفق ، والغروب قانى بلون الدم، والشمس فوق جبين البحر بتستريح ثوانى قبل ان تسقط فى كهف الغروب بعد مشوارها الطويل عبر المجره.. خلاص انهت عملها هنا وراحت تستريح.. يا رياح البحر الجميل.. طرى وجهى العليل من العطش والجوع.. وارسلى لابنى نسمه علها ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ..

من زمن وانت مصاب بالصمم والظلام يروح ويرجع لكنى ارى الفضاء الفسيح .. هذه السماء هذا البحر هذا الزبد .. هذه الشمس لما تختفى فى الغروب ترحل روحى معاها .. لن ترى نهاية الليل إذن .. نعم ولا الصباح .. الآن كل شىء يستوى، لا يشيقينى سوى يتم ابنى الوليد..

.. سوف يبكى من الشقاء ، تنزل دموعه على وجهه الوديع ، لا تجد بين الوحوش كف من يمسحها .. ربما لا يرى النور ربما يرى مالم اره.. نهاية هذا الليل البهيم.. ربما لا يستطيع العلام .. يغيب فى سجن الجهل والظلام .. بركة العسكر وشلة المنصر.. ربما يباع فى سوق النخاسه .. مين البائع ومين المشترى ؟ ..مين النخاس ..؟

.. الآن كل شيء سواء .. هذا الفضاء الوسيع الرحب .. قبة السماء وزرقتها الصافيه ، لا زورد البحر الداكن .. الزبرجد، حوم النسور فى الافق .. دمدمة الموج فى التقائه بالشاطىء الصخرى .. شريط الاسفلت الفاصل بين رمال الصحراء وامتداد الاراضى السبخه قبل ان تلمس الشاطىء الصخرى الامواج الصاخب .. هذه الفلا .. هذه الصحراء.. هذه الكثبان.. هذه الامواج المحمله بالعطش.. هذه الجبال الشاهقه، قممها المعتمه اشباح ترمق موتك فى جلال ام ضباع تتلمظ لعابها للوليمه القادمه ؟ .. هذه الصخور، الاعشاب الشوكيه .. هذا الهدوء .. هذا السكون .. هذه السيارات المسرعه تحمل فى جوفها بشر فى طريقهم للحياه .. هذه الصفوف المتراصه من المدرعات، والقبعات، والعصى، والهراوات، واللصوص التى تختفى وراء الاقنعه، لا تزال تقترب .. تضيق عليك الخناق .. ما هذا العمى الذى اصاب الناس، اين انا ..؟ على حافة التقاء البحر والصحراء ام بربخ الموت الرهيب.. برد .. برد الموت ام زمهرير.. يا ابن عبد الجليل .. يا عبد الجليل .. يا عبد الجليل الكبير.. يا خال ابو خطاب .. حرامك الصوف .. العمى صاب الخلايق .. ضم خلقاتك على جتتك .. الليل طويل والوقت بيمضى ولا حد بيمر عليك .. ما هذا العمى الذى اصاب الخلق .. دمعه من عينيك طعمها على الشفايف مر .. لا يرحل الفخر من عينيك ، حتى لو كان المصاب علقم مر .. مد ساقيك للامام واتكىء بظهرك على تلال الرمال.. ازحف بعينيك للامام، مد النظر للحياه البعيده، ما ابعد الاسفلت؟ .. تاه لونه الآن .. يحده ضوء السيارات الضعيف .. غوص فى الوهن .. فى الصمت العميق .. جلال السكون

غوص فى الوهن .. فى الصمت العميق ، نام كما ينام المسافر المتعب بعد طول السفر ، كما تنساب مراكب العشاق على سطح النيل الجميل ، كما ينام الوليد على صدر امه يطلب والحنان ، غوص فى جلال السكون .. والامتنان لهذا الكون ... كل شيء غاب الآن فى الظلام، كل شيء ضاع فى عتمة الموت الزؤام..

.. فرجة الضوء الصغيره تنفتح على عالم سريع التشوهات، الوقوف تحت العلم، اللهاث بين الشوارع.. الكتيبه التى استشهد جنودها ثلاث مرات.. اصطاف الجنود والبروجى، الوسام

.. نجاه .. كمال ، رضوان ، حسن خليل ، احمد عبد الحليم ، سدود.. تتضارب الوجوه.. تتقابل.. تتحول الى حيات تنهشه .. يرى فيها وجوها يعرفها .. الآن تبزغ اشباح قاتليه الوردانى، مختار السيد ، مجاهد ، عبدالعليم ، تجار العمله، الاغذيه الفاسده ، العقيد، حميده، عبدالرحيم، قصف القنابل، المدرعات الاسرائيليه الثلاث، افاعى شرسه تستعد للانقضاض من المجنبه، الهجوم .. المدرعات والقبعات والهراوات وحلف الاقنعه، الانسحاب للخلف ، الارتعاد ، يمد يديه محموما، يدفع عن نفسه شبح الموت .. صارخا باعلى صوته .. عملت ايـــه يارب..

يفيـــــق

.. لا تزال الشمس تتكىء على سطح البحر حد الافق.. ثوان قبل ان تغيب.. ثمة شبح يفارقك.. البرد ينخر فى العظام .. حمى .. رعشه.. وهن.. ضاع الشعور باطراف الجسد .. دموع حاره.. هاذى دموع ولا عرق.. بكا ام وهن وغياب.. صور من ضباب ام دم انسفك..

الرحمه لك يا ابن عبد الجليل الرحمه لك.. ارحم نفسك بنفسك.. هذا زمن الوحده.. شفيعك من دفنتهم بايديك، وانت لم تجد من يدفنك.. حرقة قلب امك عليك ، لهفة البنيه اللى عاشرتها شهر من الزمن، وهجرتها تعوى اللقا.. حزن ابنك لن يرى وجهك، لن يلمس بيديه طعم الامان ، يصير لاولاد الحوارى والرجال ملطشه ... انت يا عبدالرحيم.. كنزت الفلوس والطين، شاركت على البهايم وتركت لى الموت ..

يـــاه ..

دى انت عشت عيشة البهايم، ما حصلت تموت بكرامتها.. الآن افهمك يا كمال يا ابن عمى.. الآن افهم عزلتك.. الآن افهم قولتك ..

الفلاحين نفايـه ... هو كان للحرب غايـــه ..

يا وطن ليه تظلمونا.. انا عملت ايه تذلنى.. ليه تدهس كرامتى بالصـــرم .. ليه هذا القدر من الهوان.. يا من حبيتك ولم تحبنى.. الحرب هنا ليه ؟.. انا سامع صوت قصف القنابل، ماهذه الضوضاء تأتى من بعيد تخترق حاجز الذاكره.. ما لصوت القصف يخترق حاجز الصمت اللعين ؟ .. لا اسمع الاشياء لكنى ارى الموج يجرى على البحر والصقور تسبح فى الرياح والبروجى ينعى بنوبة رجوع .. هو انا على شط القنال، ولا على حدود الفلا ؟.. اصرخ يا ابن عبد الجليل فى الفضاء السحيق عل حد يسمعك .. ما بال الناس اصابها العمى ؟ .. الدم ينزف من الجسد لم لايرانى احد فى محنتى.. ؟ اصرخ يا ابن عبد الجليل .. ح موت وحيد، لا عدو يشمت فيك، لا حبيب يبكيك، ولا حد من دمك المهدور يقرا على جثتك الفاتحه، يدعو لك بالرحمه، احضن فيافى العطش، خلى الجفاف يشرب دمك المهدور.. يا وجد يا حزين.. ليه عبرت الحياه فى هذا الزمن المشئوم.. لو انى اعرف من الذى قدر لى هذا القدر..

كم انى احببت تراب هذا الوطن.. كم انى صرت اكرهه ..

كم انى احببت تراب هذا الوطن. كم انى صرت اكرهه ..

اكره فيه الافاعى التى فى ترابه المقدس عششت، اكره فيه الفضاء الملوث بالفساد.. اكره عبدته .. اشباحه.. كهنته التى تختفى خلف البدل المرصعه بالنجوم .. حلف اللصوص الجديد وشبكة المافيا المقنعه .. يا وطن منهوب .. تبا لك ولاحلامك المشئومه .. احمق من يغنى للهزيم، والرعد القديم ، بيع الجلا فى الفلا .. احمق من يغنى للهلاليه .. ملعون ابوه ابن الكلب .. هذا زمن لعق التراب والاحذيه .. قد كنت احبك يا وطن رميت بى جيفه على اسلاك الحدود الشائكه .. انزف ببطء شديد، ارى فى الفضاء حومة النسور تنتظر غفوتى.. الآن اموت غريب، فى ارض العرب هانونى .. ذلونى .. دهست بالاقدام، فى حضن مصر مالقيتش الحنان او حتى الامان..

.. الآن ادرك فقط ان كل القبعات العسكريه يجب ان تلقى للمزبله، وان ساسة العرب مرضى بالجرب.. على اى شىء كانت الحرب اذن.. كسب من وراءها من كسب، واحنا كسبنا الشقا والاغتراب اللعين ..

يـــــــــــــاه

.. يـــــاه

.. لو ان فيه من العمر بقيه .. قطعان غنم ترعى فى مراع للقتل، لحم الضحايا يتربى فيها للغير فى انتظار المذبحه .. إذا كانت الحياه خدعه على هذا الشكل .. اصرخ من دون صدى ..

سرقتم حيـــــاتى ..

الفاتحه لك.. اقرا الفاتحه بنفسك على نفسك ، ما عاش غير المبروك ، لم يحلم الفتى بشىء .. لا بذهب الوهيدى ولا ببنته عزيزه .. زمانه فى رملة الانجب قاعد فى حضن عياله ، انت هنا ينازعك الموت .. الفاتحه لك عشت زى دكر النحل ، واليوم تموت غريب ..

قد احكمت المدرعات اللحصار .. فهل لهذا الليل نهار ؟

ما هو البؤس يا ابن عبد الجليل ما هو البؤس ؟ .. الخدمه عند الاغراب، ام السفر فى بلاده العقل ؟ .. ما هو البؤس يا ابن عبد الجليل ماهو البؤس؟ .. لما تكون ثروة البلاد منهوبه من حراسها والمسئولين عن البلاد لصوص .. حاملين بدل السلاح كرابيج وفى الإيد التانيه جاروف للنهب السريع قبل ما تنفض الموالد .. زباله فى بدل من الصوف الانجليزى وشعر مصفوف يلمع بدهن الدناءه ، ولسان يقطر اكاذيب فى اكاذيب ..

ماهو الحزن يا ابن عبد الجليل ما هو الحزن ؟ .. النوم على الطوى والا لما تصبح الحوارى مأوى للصغار، والضوارى، والضباع، والوحل ..

ما هو الاغتراب يا ابن عبد الجليل ما هو الاغتراب؟ .. الغربه خارج الوطن ام العفن فى أسن المجارى.. ما هو البؤس يا ابن عبد الجليل ما هو البؤس؟ .. الموت فى عز الشباب ام الحياه فى النفوس الضعيفه ..

ليه فتحت على نفسك باب التساؤل اللعين؟ .. ليه مديت ايدك على الباب الاربعين؟ .. لأن التسعه وثلاثين باب غير موجودين .. لاذهب المعز، ولا فضة صفى الدين، ولا جوارى هارون الرشيد الحسان، ولا مصباح علاء الدين.. آلا يا امير سلامه .. هيت لك.. ما اجملك .. الرياح تطوى الجسد بذرات الرمال .. تجعل منك نصبا تطويه الكثبان.. تمدد على فراشك الاخير، وانتظر زائر الموت المبجل ..

اكتب وصيتك.. عندما خان الوطن ابناؤه.. او خان الابناء الوطن..

.. ايام طويله فى العراء ، تحاصرك المدرعات والقبعات والهراوات والاقنعه .. آه لو استطيع الاغتسال من الرمال ، وقبح الرجال، والجرب النفسى ، والزمن المهدور، والبنور ، وحقل النور المسحور ..

البحر ع الشمال، يغسل ارض الخليقه منذ ملايين السنين .. ثمة شبح يفارقك .. يخرج من جسدك ضخما طويل القامه يبلغ حافة السما .. يغادرك باتجاه البحر يسير وئيدا .. الجسد العارى القوى .. عضلات الظهر .. الاليتين المدمجتين الخاليتين من الدهن الدبق .. الصدر المصبوب من الرخام الصخرى والذكوره تتدلى امامه منتصبه قويه .. تراه يعبر المدرعات ، والقبعات ، والهراوات ، والاقنعه ، لا يلبث ان يهبط فى البحر، تأخذه الامواج ويرحل ..

انهاك الجسد .. انهيار الاعصاب .. وهن على وهن .. العقل مطحون بين شقى الرحى .. نوء الجسد بالحمل ناء .. انكفاء الظهر إلى الخلف .. الاتكاء على تبة الرمال .. ناظرا الى البحر .. قابضا بكفه على بطاقة المحاربين القدامى ، رافعا إياها قليلا للأمام ..

مثقلا بالضآلة .. موغلا فى الصغر .. وحيدا فى قلب الظلمة ..

بقعة الحياة تتلاشى فى بيداء الجدب .. دمدمة الموج فى التقائه بالشاطئ الصخرى .. الصمت والسكون وحوم النسور ..

.. الآن غابت الشمس .. آن للمحارب ان يغفو قليلا ..

(تـــمـــــــت)

مصادر السيرة الهلالية

(*) من السيرة الهلالية. غناء شاعر الربابة فتحى سليمان/ قرية جروان/ منوف/ محافظة المنوفية .

(**) المصدر السابق بقليل جدا من التصرف .

(***) السيرة الهلالية طبعة بولاق . . سور الأزبكية .

نحو لغة عربية حديثة

فى بداية الثمانينيات لاحظت كيف كنا نبذل المحاولات الشاقة لتبادل الافكار، كثيرا ما تظل الكتلة الرئيسية واضحه، لكن الجهود الطائلة والزمن المهدور فى سبيل ايصال الجزء الباقى من الأفكار، ولدرء منطقة الأختلاف دون جدوى، رغم ان مساحة الانحراف بالمعنى الأحصائى وليس الأيدولوجى، لم تكن لتزيد عن درجات قليلة، أو أجزاء منها، كانت تترك وراءها شعورا بالمرارة والأحباط، على الجانب الأخر كانت الكتابات الأيديولوجية مليئة بميل لأهانة الأخر، ورغبة فى الإيذاء، يصاحبها شعورا قوى لتعظيم الذات، مصحوبا بكتابة يقينية، خارج الأطار العقلى، لفرضيات الشك الخلاقه، تكرار الأمر ترك لدى انطباعا قويا بأن اللغة تعجز عن تكون موصل جيدا للأفكار، هل هذا ممكن؟ الأكثر أقناعا، أن العيب يعود إلى منهجية العقل السائد فى طرح إشكالياته، حتى بالافتراض، فلاشك أن أختراء الوسائل يعيق الغايات، كان هذا قد صار واضحا بالنسبة لى، لحظتها أمنت بفساد اللغة.

ولأسباب واسعة ومتعددة، ولأننا من حسن الحظ أمام نص حى، له طبيعته الخاصة، تعدد مستويات اللغة، تعدد اللهجات المحلية والعربية، فضلا عن المستويات الاجتماعية والثقافية، حيث جرى التعامل مع اللغة بوصفها جزءا اساسيا من بنية الشخصية، برزت الفرصة الذهبية لاختبار مجموعة من الخبرات المكتسبة أثناء عمليات الكتابة ومشاكلها المتعددة، وذلك ضمن مجموعة من المبادئ والمفاهيم، جرى التعامل ضمن أوليات على أساسها تم اختيار بعض الأساليب المناسبة لتطوير اللغة، بما يمكن أن يشكل نسقا عاما، ساهم فى إجراء عملية تجريب واختبار واسعة على امتداد النص، والتى يمكن على أساسها تحديد المدى الذى يؤكد صحة مجموعة محدودة من القواعد النحوية، واعادة استخدام مختلف محدود لبعض العلامات الكتابية، وذلك عند الكتابة بالعامية، التى تمكن ليس تبسيط اللغة، فالتبسيط ليس موضوعه اللغة، ولكن الأمر يتعلق بعبور الفجوة الواسعة بين المنطوق والمكتوب، حيث التطابق بينهما الأصل فى الكتابة، الفجوة بين العربية الكلاسكية التى تحدد شكل كتابتها الحالى منذ أكثر من مئتى وألف عام، وجرى وضع قواعدها النحوية وتبلورت طرق كتابتها بعد نزول القرآن بمئتى عام، وبين اللغة الحية المستخدمة الآن، ونحن على مطلع عصر جديد، ورغم ذلك أبقينا على كتابة الفصلين السادس والثلاثين والسابع والثلاثين طبقا لقواعد النحو القديمة، أو العربية الكلاسكية كما سنطلق عليها فيما بعد للمقارنة.

على أنه من المهم أن أنوه إلى أن هذه الرؤية الخاصة بالتطوير، لا تستند حتى هذه اللحظة إلى دوافع أيدولوجية أو سياسية أو قومية أو دينية، لا يعنى ذلك عدم تقدير أهمية تلك العوامل، أو الدور الذى تلعبه فى حياتنا، واللغة على وجه الخصوص، كما يلزم التفريق بين هذه الأساليب والمفاهيم المطروحة والتى تم استخدامها، وأفكار أخرى تعتمد على دعوات للغة وأبجدية مصرية، وتتعامل مع العربية الكلاسكية وكأنها لغة دخيلة يلزم التبرؤ منها، ورغم أننا نرى – ربما عن يقين – ان هذه مفاهيم محكوم عليها بالفشل، ذلك انها ماضويه شوفينية، فى عالم – نعم تدور به صراعات طاحنة – لكنه لا يميل الى التجزء، خاصة فى مجال الثقافة، وعلى العكس يتجه بالفعل إلى ثقافة عالمية واحدة، ومع ذلك لايسعنا إلا الوقوف موقفا ديمقراطيا يتسم بالاحترام لأى دعوات مجدده فى مناحى حياتنا.

علام الاستناد إذن ؟ حتى الآن على مبررات تقنية، مستمدة من خبرات الكتابة للنص الروائى الطويل، التى تستلزم وتفرض مع الوقت أساليب معينة، وكذلك من تلك البنية المنهجية التى يفرضها التعامل مع الكمبيوتر، معالجة النصوص، أساليب معالجة البيانات " النسق العام للغة"، القاعدة الذهبية التى أطلقتها ثورة صناعة وتطوير برامج ال software "ماتريده ، ما تراه "، ما ينطق يكتب ومايكتب يقرأ والعكس أيضا، هذا جوهر التكنولوجيا الحديثة، كتلة واسعة من التعقيدات، ترتكز على اشتباك متواصل مع قوانين الطبيعة والتعامل معها، ومن ثم الاعتماد عليها بوصفها قوة صديقة.

للكمبيوتر فى مستقبل العالم واللغة وضع خاص، ربما اقتصر التطور التكنولوجى الماضية على تحسين مستويات المعيشة، توفير الجهد العضلى، نشر وعكس الثقافات المحلية، وتوحيدها، لاحظ الأثر السريع لانتشار التليفزيون والراديو على تقارب لهجات وطرق النطق على امتداد وادى النيل، أنه يشذبها ويسويها كما سوى النهر الوادى والدلتا من قبل، على أن الكمبيوتر يخلق لغة عالمية بالفعل، فضلا عن أن طابعه الخاص سيقوم على خلق وحدة عامة فى المنهج العقلى للتعامل مع العالم والأشياء، كما سوف يتمكن فى الحقبة القادمة من جعل اللغات، ومن ثم ثقافات العالم تنتقل فى سياله سوف تتفاعل وتتهجن، وتميل الى ايجاد نوع من التخاطب المشترك، لن تتوقف عند حد انتشار مجموعة من التعبيرات او الألفاظ، ربما الى البنى الثقافية، فضلا عن الإشارات والعلامات أيضا.

أركولوجية اللغة

وللكمبيوتر طاقاته البحثية أيضا، فعندما جرى تمشيط النص بالكمبيوتر، تبين أنه لا تكاد تظهر حروف الواو والنون مجموعة إلا فى حالتى رفع جمع المذكر وجمع الفعل المضارع، ثم تبقى كلمات قليلة من نوع آمون وآتون ومنون وجنون وسكون وكون يكون وجميعها كلمات ذات ايحاء طقوسى ، فكأن جمع المذكر السالب هو امون (ون) المتمثل فى الرفعة والفخامة، انه الإله على اية حال يقف أمامه آمين (ين) أوزوريس / المسيح المصلوب أو المفعول المنصوب والمضاف المكسور ، ال (ون) تمثل والمهابة والقداسة والقوة، وبصورة أخرى الفاعلية المستمد من الأله آمون، أو الفاعل الذى يتبارك به على قضاء فعله، فكأنها قدرة الإله على الخلق، والفاعل على الفعل، على حين أن ال (ين) تنحى منحى الشعب المقهور المكسور، المفعول به وفيه وعليه، لايجب ان نأخذ الأمر هكذا الأفضل أن نقول أن (ين) هى السيولة اللفظية لنطق العامة بعيدا عن البناء الارستقراطى والنبيل بالمعنى الطبقى وليس الأخلاقى للفظ .

وكذا الأمر لضمير النسوة الغائب، فعلى شاشة الكمبيوتر كانت الومضات تقفز بحثا عن نون النسوة على وجه التحديد (هن) ، وعدا ضمير جمع المؤنث الغائب كانت الومضات تتوقف على كلمتى هنا وهناك ، وكأن "هن" هى الإشارة السحرية لعالم المرأة فى عصر الصيد القديم، حيث الرجال

يخرجون للصيد، أو القتال والإغارة على المراعى المحيطة، على حين تبقى نساء القبيلة أو "هن " هنا وهناك بالكهوف أو الخيام وحول عيون الماء لمجتمعات رعوية فيما بعد، للزراعة ورعاية الأطفال والحيوانات المهجنة ، فهن هى الإشارة للمكان الذى تعيش فيه القبيلة والذى يؤوب إليه الرجال بعد رحلات الصيد والإغارة ، وهن ايضا هن النسوة الذين ارتبط وجودهم بالمكان (هناك) او (هنا) ، وحيث المرأة أيضا مكان للرجل، فهل يمتد الأمر للإيحاء بمدلولات جنسية.

هل نحاول البحث عن تبرير أركولوجى، لا الأمر ليس أكثر من فانتازيا التخيل، الأفضل أن نصادق قوة الطبيعة فى بنائنا الصوتى الحديث ، والذى يتعامل مع ال (ين)، ويبتعد كلية عن استخدام ال (ون)، أو نتخلى عما لا نستخدمه بالفعل، كنون النسوة وجمع ضمائرها، فالمرأة المصرية عبر تاريخها لم تكن غائبة عن الفعل لحضارة زراعية مستقرة.

ليس فقط ولكن رفع جمع المذكر السالم ونصبه وكسره بال (ين)، وهو المستخدم فى البناء الصوتى الحديث، أو على سبيل المثال التخلى عن نون النسوة، إنما يطيع بمشولثية نحوا قائما على التشكيل، ويعيد للغة بناءها المنطقى السياقى، والمستخدم فى التخاطب اليومى.

مفاهيم عامة وإعادة قراءة لواقع اللغة

أولا: الفصحى والعامية

على عكس ما هو شائع بين الأوساط الأدبية والمهتمين بقضايا اللغة، حول وجود طبقتين من اللغة تعارف عليهما بالفصحى والعامية، نعتقد بوجود ثلاث مستويات من اللغة، حيث نرى أن ما يطلق عليه بالفصحى ليس سوى ما سوف نطلق عليه "العربية الكلاسكية القديمة"، تلك التى تستند على الاشارات والعلامات الكتابية، والقواعد النحوية التى وضعت بعد مئتى عام من نزول القرآن، أى منذ ألف ومئتى عام على وجه التقريب، وجرى إضفاء طابع القداسة عليها خطأ، باعتبارها جزءا من القرآن، وهى التى لاتزال تستخدم حتى الآن بوصفها اللغة الرسمية، وقد عمل المحافظين وخاصة النحاة على الإبقاء عليها دون تطوير.

وتواجه الكلاسكية بانتقادات حادة، كونها لغة طقوسية ، لاتستخدم فى الحياة اليومية المعتادة ، فقدت دورها الرئيسى كوسيلة اتصال يومية بين البشر، فلم تعد تستخدم كوسيلة للتخاطب، وكذا بقية مجالات الحياة الأخرى، فهى تاريخيا لغة الديوان ورجال الدين، وهى اللغة التى سجل بها الأدباء والشعراء أعمالهم، واقتصر استخدامها على رجال الدين، أثناء ممارسة الشعائر الدينية، وكذلك المتخصصين وآخرين، وهى التى يصعب هضم قواعدها النحوية بسهولة، ويقوم العارفين بها فى كل الأقطار العربية على الاستغناء عنها فور الانتهاء من الغرض المستخدمة فيه، حيث يعود الجميع كل الى لغته العامية او الدارجة.

لقد نشأت فجوة بين العربية الكلاسكية، وبين طرق التعبير عن الثقافة الشعبية، هذه العبارة خاطئة، الأكثر دقة، أن فجوة دائمة كانت موجودة بين العامية والفصحى عبر التاريخ، ونحن نشك أذا كانت للكلاسكية قد استخدمت فى أى وقت من الأوقات خارج النطاق الرسمى والدينى، إذ أن لغة حية أخرى هى العامية كانت موجودة سلفا، وجرى تخصيبها باستمرار بواسطة العربية، حتى بلغت بعد الخمسينات أرقى مستوى لها على لسان الكتلة الواسعة من المتعلمين والمثقفين المصريين، فى طبقة جديدة من اللغة، ندعوها بالعربية الفصحى الحديثة.

والموقف من تطوير العامية يواجه ربما ذات الطابع من المشكلات ، وخاصة عندما يميل المشايعين لها لاستخدامها لغة بديلة، أو عندما يستندون على اسباب ماضوية سلفية تكاد تقع فى ذات السلة التى تعبق للكلاسكية عن مواكبة التطور، دون أن يخل هذا باعتقادنا اعتقادا يقينيا أن العامية كما الفصحى جزء من صلب البناء الثقافى المصرى، فهى لغة الحياة اليومية للمصريين، وهى لغة معبرة ، تقوم بأداء المهام الوظيفية للغة . كما أنها –العامية– لغة سياقية منطقية، أنتجت ولا تزال فنا راقيا ولغة حية تعيش الوجدان العام ، وبواسطتها عبرت عبر التاريخ الوطنى العام عن الهموم والامنيات الفردية والشعبية العامة.

ويرتكز الداعين إلى العامية على البناء الحضارى الضخم الذى يعيش تحت جلود المصريين ، والطابع الأساسى الذى تخلفه أول حضارة زراعية مستقرة فى التاريخ على طوال اكثر من ثلاثين الف عام قبل ظهور الكتابةفى الوادى، إضافة إلى أنها تشبع احتياجات وجدانية على المستوى الفنى والشعرى والإنسانى، يواكب هذا غالبا دوافع سياسية وأيديولوجية.

ولهذا كانت محاولات استخدام العامية، وإعطاءها صفة القبول اعتمادا على المفردات المحلية لعامية رجل الشارع، وأساليبها الفنيه ، وقواعدها الدارجة، مع محاولة احلال بعض الصيغ فى النفى والمستقبل محل الصيغ المتعارف عليها فى العربية الكلاسكية، لتأكيد قيمتها كلغة بديلة، "(مالعبتش– ما لعبت ش) (ح نحارب)".

ثانيا: العربية الحديثة

أهم ما يفرق هذه التجربة عن الداعين للعامية الدارجة، أو المتمسكين بالعربية الكلاسكية، أننا لسنا فى محل وضع بدائل للعربية الكلاسكية، أو أن التعامل مع العامية يتم بوصفها لغة قومية، بما يعنى أنها نقيض ومن ثم بديل للفصحى، ولكننا نعتقد أنه لأسباب تتعلق بمنهجية التعامل مع إشكالية اللغة، جرى حدوث نوع من عدم الانتباه لوجود لغة عربية فصحى حية، غير تلك العربية الرسمية، ربما تفتقد الى القواعد، أو إلى التأصيل، تلك اللغة التى تستخدمها الكتلة الواسعة الامتداد، والتى نشأت من خلال السياسة التعليمية والتكنولوجية، والقاعدة الاقتصادية والصناعية التى بدأت منذ بدايات القرن،

واتسعت بشكل واسع ومؤثر منذ الخمسينات، بالإضافة إلى الثورة الاتصالات ووسائط الإعلام، ونعتقد جازمين أنه فى القرن الحالى وخاصة الأربعة عقود الأخيرة بلغت العربية الفصحى شأنا وأفاقا عالية، واتسعت مساحة المستخدمين لها بالمعنى الفعلى مقارنة بالماضى، بقدر لم تبلغه من قبل، مقارنة بالماضى ومحدودية دائرتها المستخدمة فى أوساط رجال الدين، وعدد من المتعلمين ذوى إصول تعليمية دينية، وأننا على عكس الحسرات والزفرات التى يطلقها المشايعين للعربية الكلاسكية على ضعف استخدام الأجيال الحالية للغة العربية الكلاسكية، نرى أنها دموع التكلس والوهن، دموع العجائز عندما يعجزون عن رؤية الجديد، وهو يزيح أمامه القديم دون رأفة أو رحمة، إنعدام القدرة على الإبداع ، وفقر الخيال والمخيلة، وأن ما يبكون عليه ليس سوى أبنية صوتية للهجات قديمة ضاعت وتاهت أمام قوة التقدم والتطور، وسقطت أو استوعبت من بنى صوتية لحضارات وبيئات أشد استقرار وتقدما، واكثر تماسا مع التطورات التقنية والتكنولوجية بمفهوميها الثقافى والفنى.* (راجع تعريف رالف ل. بيلز للتكنولوجيا – مقدمة فى الأنثربولوجيا العامة.)

ولهذا فدون اى شعور بالاضمهاد الذى يجعل من العربية لغة غازية والعامية لغة وطنية، على العكس من هذه الرؤية نرى أن العربية هى نتاج محلى أيضا، فاذا كانت العربية هى لغة الجزيرة إبان صعود الإسلام، فالعربية الحديثة الحالية هى لغة من نتاج المنطقة بكل شعوبها وتواتراتها وتاريخها وحاضرها السياسى والاجتماعى والبيئى والثقافى والتكنولوجى وما يتبع ذلك من تداعيات.

المنهج

لأن اللغة الفصحى العربية الحديثة هى الابنة الشرعية لكل من اللغة العربية الكلاسكية القديمة (الحروف / المفردات / التشكيل / طريقة الكتابة / قواعد النحو / العلامات)، والعامية (البناء الصوتى / السياق المنطقى / الخلو من التشكيل / البناء الحضارى التاريخى والحاضر / البنية البيئية والجغرافية)، لذلك كان رأينا أنه من الافضل الاقتراب تدريجيا من قضية شديدة التعقيد، قضية تتشكل وتنمو فى الماضى وتتطور فى الحاضر والمستقبل، باعتبار اللغة كائن حى ينمو ويتطور باستمرار ودون توقف، ومع وضع أهدافا بسيطة، تتعامل مع العربية الكلاسكية والعامية المصرية، من خلال العلاقة العضوية التى تربطهما معا، والذى بواسطتها يمكن ان نتاح إجراء عمليات التطوير.

وقد انحسر الأمر فى الأتى.

١- وضع مجموعة محدودة من قواعد النحو للغة العربية الحديثة، هذه القواعد تظل فى علاماتها ومخرجها اللفظى مأخوذة من الكلاسكية والعامية معا، يحكمها القانون الجبرى الأعلى "النظام الصوتى"، فهى الأشد والأكثر شيوعا، مما يجعلها مقبولة مطروقة، غير مقحمة على اللسان والأذن، ذلك فى الوقت الذى يستعيد النظام اللغوى حيويته، خاصة عندما يتفق مع اعتماد النظام السياقى المنطقى المستخدم فى العامية والعربية الحديثة .

٢- اختيار طرق لكتابة العامية ، قد تكون ملائمة فيما بعد لكتابة الفصحى، وذلك عبر اختيار بعض الحروف والعلامات المحدودة لكتابة العامية، بما يتطابق مع البنية الصوتية الحديثة.

قواعد ومفاهيم عامة

خمس قواعد عامه نعتقد أنه يمكن الارتكاز عليها فى عمليات التطوير:

١- البناء الصوتى .

٢ - نص خالى من التشكيل

٣ - نحو سياقى قائم على المنطق .

٤ - أجرومية سيالة .

٥ - العلامات الصديقة .

أولا: البنية الصوتية

البناء الصوتى هو الأصل فى اللغة، وكل تاريخ للكتابة هو ترجمة عبر الحروف والعلامات للمنطوق، فالبناء الصوتى السائد فى زمن ما هو الأمر الذى لا يمكن تجاهله، وإن حدث التجاهل بشكل متفاقم يقوم هو بذاته على خلق لغة موازية، وهو قادر بالفعل، إذ انه ذو طابع جبرى، ولا يمكن لأعتى جهابذة النحاة لى لسان ما، ويبدو هذا بوضوح عند التفريق بسهولة لنطق الشوام والمصرين والمغاربة للعربية.، أو نطق الفرنسين الإنجليزية.

البناء الصوتى القديم

يبرز البناء الصوتى القديم فى كل من قواعد النحو وطرق الكتابة للعربية الكلاسكية، فكلاهما مرتبط ارتباطا وثيقا، فقد وضعوا من أجل إنشاء وسيلة لكتابة وقراة لغة لبنية صوتية قديمة، تختلف عن البناء الصوتى الحالى، لأسباب تتعلق بالأعراق والجماعات، اتصالها وانفصالها واختلاطها، وأخيرا انزواء البعض وسيادة الأخر، وهناك الواقع الزمنى والتاريخى، بما يتضمنه من تأثيرات النمو الاقتصادى والتكنولوجى عبر التاريخ، هذه اللغة الرسمية الآن، يبقى عليها لأسباب تتعلق بالخلط بين ما هو خاص باللغة وماهو مقدس، وجعل اللغة تابو غير مسموح بالاقتراب منه، دون الاعتراف بأن طرق كتابتها وقواعدها، جرت بواسطة نحاة عجم، وبعد نزول القرآن بأكثر من مئتىعام.

ترك المتروك

واحترام قوة البناء الصوتى الحديث يعنى ترك المتروك، الذى لا يجرى على اللسان المعاصر، ولا ينصاع له الجهاز الصوتى، فيتركه ولا يستخدمه فى التخاطب اليومى وأساليب الاتصال اللغوية فى مناحى الحياة المختلفة غير الرسمية، أو الدينية، ويقوم فى العادة النحاة والقائمين بوظائفهم. بإجراء عمليات لى للنص الكتابى أو الخطابى الرسمى والدينى، وهو ما يتم اسقاطه عقليا أثناء عمليات إعادة إنتاج النص، أو التغاضى عنه بعد الانتهاء من مهمته.

وأثناء كتابة النص الأدبى، يقوم الكاتب بترجمة –وانا أعنى الترجمة– ما تنطق أو تفكر به شخصية ما إلى الكلاسكية، ويظهر هذا بوضوح فى

الحالات الآتية.

أولا: الاسم : ١ – علامات رفع جمع المذكر السالم بال (ون).
٢ - علامات رفع المثنى (ان)

ثانيـا: الضمائر: ١ – المثنى (أنتما – هما – اياكما – اياهما)
٢ - جمع المؤنث (أنتن – هن – اياكن – اياهن)

ثالثـا: الفعل: ١– الماضى : المثنى (فعلتما – – فعلا – فعلنا – فعلهما)
المؤنث (فعلتن) – نون النسوة (فعلن – فعلهن) .
٢- الأمر : المثنى (افعلا)
٣- المضارع : نون النسوة (افعلن) – الف الاثنين (يفعلان) .

رابعـا: تميز الأعداد

خامسا: الأسماء الخمسة (النصب بالألف – الكسر بالياء) اباك/ ابيك..الخ

سادسا: اسم االموصول (االتان – اللاتى – الاتى)

سابعـا: اسم الإشارة (هاذان – هاتان)

وبمعنى أخر أن هناك بعض الأساليب لا يستخدمها الجهاز الصوتى ربما بشكل يكاد يكون تام مثل: رفع جمع المذكر السالم بال (ون)، صيغـة المثنى (الاسم المرفوع بالألف والنون – الفعل – الضمـائر – الأسماء الموصولـة الإشـارة) ، صيغـة جمـع المؤنـث (الفعـل – الضمـائر – الأسماء الموصولة) ، الأسماء الخمسة (النصب بالألف – الكسر بالياء).

ثانيا : نص خالى من التشكيل

لكى يكون النص خاليا من التشكيل، يجب أن يكون النحو سياقيا مبنيا على المنطق، والأمرمثير للدهشة، فنحن إزاء طبقتيـن مـن اللغـة (العاميـة والفصحى) الأولى تكاد تكون خالية من التشكيل، فهى بالضرورة تعتمد على تعبير سياقى، بينما الفصحى مبنـى نحوهـا علـى التشـكيل، ومـن ثـم تفتقد الـى الارتكاز على السياق المنطقى، أى أنه نحو عشوائى، هكذا نراه الآن،ومن المؤكد أنه كان مناسبا حين وضعت قواعده.

وأهمية أن يكون النص خالى من التشكيل، كأهمية أن يكون النحو قائم على السياق المنطقى، وليس الأمر نوعا من الترف بيـن اختيـار طريقتين لبناء النظام اللغوى، ولكن الكارثة تكمن فى الدور الذى يلعبة النحو العشوائى فى تشويه وتشتيت عقول الأطفال منذ عمليات التعلم الأولـى، وأثنـاء اختيـار نظام لغوى سوف يرتبط ارتباطا وثيقا بمنهجية التفكير.

لكن الدهشة تزول عندما نتبين أن الكم الهائل المنتج من الكتب، على مدى ربما أكثر من نصف قرن، قد تغاضى عن عمليات التشكيل المرهقة، ولم تعد تطبع الكتب والصحف والمجلات والمخاطبات والمراسلات، بعلامات التشكيل ليس بسبب كونها مرهقة، ولكن على لأسباب ترجع إلـى مستخدمى النص انفسهم، والتطورات التى طرأت على البناء الثقافى والتناول العقلى للغة واستخدامها، فإذا كان المستخدم قد تخلى عن الحاجـة لتشـكيل النـص للتفرقـة بين الفاعل والمفعول به، لأنه متمكن من قراءة النص سياقيا، فمن الطبيعى أن يتلاشى التشكيل من على مئات الألـوف مـن النصـوص، بأنواعهـا المختلفـة، حتى أنه أصبح فى غير حاجة للتشكيل إلا فيما ندر، ورغم انزواء علامات التشكيل ( ) تكاد تتلاشى، إلا أن حـروف التشـكيل مثـل (ون – ان – ين – و – ى – ا) لاتزال باقية وكذا أساليبها المتعددة، وهى بالذات التى تبين أنها هى الأخرى متروكة غير مسـتخدمة، وقد لفظتهـا البنيـة الصوتيـة، فـإذا كان هناك ثمة شئ شديد الوضوح فهو أن الجهاز الصوتى المصرى لأسباب جبرية (بيولوجية – بيئة جغرافية) وربما حضارية هو فـى غنـى عـن التشـكيل برمته.

ولكن هذا هو بالضبط ما نفضل أن نطلق عليه الفصحى الحديثة، الموجودة بالفعل، والمطلوب وضع القواعد النحوية الخاصة بها، وهو ما نعتقد أنه المدخل الملائم للتطوير.

اساليب بديلة :

<u>أولا الاسـم</u> :١ - يرفع جمع المذكر السالم والمثنى بال (ين) بدلا من ال (ون).

<u>ثانيا الضمائر</u> :١- المثنى وجمع المؤنث : تستخدم ضمائر الجمع المذكر (أنتم/ هم)
بدلا من (أنتما – هما – اياكما – اياهما) و (أنتن – هن – اياكن – اياهن)

<u>ثالثا: الفعل</u>:يستعمل المفرد – وجمع المذكر فى جميع الأزمنة (فعلوا – فعل)
بدلا من صيغ المثنى وجمع المؤنث
١- الماضى : المثنى (فعلتما – – فعلا – فعلنا – فعلهما) – المؤنث (فعلتن) – نون النسوة (فعلن – فعلهن) .
٢- الأمر : المثنى (افعلا)
٣- المضارع : نون النسوة (افعلن) – الف الاثنين (يفعلان) .

<u>رابعا: تميز الأعداد</u> :الأكتفاء بالنطق العامى للعدد بدا من (عشرين/ثلاثين/اربعين ..– خمسه وعشرين – سبعه وثلاثين.. الخ)

<u>خامسا: اسم االموصـول والأشارة</u> : تستعمل (الذين) بدلا من (التان – اللاتى – الاتى)

تستعمل صيغة الرفع بالواو فى حالات النصب والكسر بدلا من(النصب بالألف – الكسر بالياء) اباك – ابيك /حماك –حميك ..الخ

وبمعنى أخر التخلى عن الكم الأغلب من الأساليب التى لا يستخدمها الجهاز الصوتى، ربما بشكل يكاد يكون تام مثل:

١ - رفع جمع المذكر السالم بال (ون)

٢ - صيغة المثنى (الأسم المرفوع بالألف والنون – الفعل – الضمائر – الأسماء الموصولة – اسماء الأشارة)

٣ - صيغة جمع المؤنث (الفعل – الضمائر – الأسماء الموصولة)

٤ - الأسماء الخمسة (النصب بالألف – الكسر بالياء)

ثالثا: نحو سياقى قائم على المنطق

نحو سياقى منطقى، ونص خالى من التشكيل، قانونين متلازمين، ساندين، فالكم الهائل من المطبوعات الحديثة تخلى لأسباب عمليه، ولتطور المفاهيم والاستخدامات اللغوية؛ لبنية ذات قدرات عقلية وثقافية يصاحبها تطور فكرى ومعلوماتى، انتهت بالتعامل بلغة خالية من التشكيل المبنى على نحو عشوائى، الأمر الذى يستجيب للغة نهرية سيالة، ترفض بالفعل عمليات التشكيل المكلفة البطيئة النطق، غير الاقتصادية.

ولن يكون من الصعب تذيل جملة ترفع بالفتحة وتنصب بالضمة، اذ ما الفارق اذا ما تقرر على سبيل الفرض رفع جمع المذكر السالم بال (ين) ونصبه بال (ون) فيصير القول "الفلسطنيين يقاومون الإسرائيليون على كل شبر من ارضهم"، بدلا من "الفلسطنيون يقاومون الاسرائيليين على كل شبر من ارضهم".

على أن القول "الفلسطنيين يقاومون الإسرائليين.." قد يعيد الأمور لنصابها.

رابعا: اجرومية سيالة ممتدة النطاق

اجرومية سيالة وقاموس لغوى بمفرداته العامية والفصحى والأجنبية التى تفرضها ظروف التطور التكنولوجى ، بما يضع الثروة اللغوية من الكلمات والالفاظ والمفردات المتاحة كلاسكية أو عامية او فصحى مصرية، وأى لغة فى العالم – انجليزية او فرنسية اليوم ، يابانية او المانية كما هو متوقع غدا – تفرض وجودها الحى للأستخدامات المتعددة، سواء العلمية والتكنولوجية اوالمفردات الفنية والثقافية واليومية باعتبارها جزءا لا يتجزء من التراث الانسانى والحضارة العالمية الجديدة التى تطل علينا من المستقبل القريب.. ليس من قيود سوى ما تقتضيه الأصول الأولى التى تحكم مقتضيات اللغة، وهى ان المفردة شكل ووعاء للمعنى، دون فقدان طابعها الجمالى والبلاغى العريق.

خامسا: العلامات و الاشارت الصديقة "ما ينطق يكتب وما يكتب يقرأ"

فى الحقيقة كانت هذه القضية هى التى قذفت بالموضوع باكمله فيما بعد، فقد بدأ الأمر عندما ووجهت باشكالية رئيسة تواجه عملية كتابة العامية، فالقارئ المتعود على قراءة الكلاسكية: يجد صعوبات متعددة فى عمليات قراءة العامية، إذ تطل على الفور مجموعة من الإشكاليات مثل.

١- المفردات التى تخلق نوعا من التشابه فى المعنى، بين الفصحى والعامية ، نتيجة لعدم شيوع كتابة العامية، خاصة لدى القارئ غير المؤهل لتلقى نص او مفردة عامية.

٢ - عدم تطابق العديد من مفردات المنطوق العامى بالمكتوب، ووجود صعوبة عند أعادة القراءة ، مما يتطلب اجراء عمليات التشكيل.

٣ - وجود بعض الحروف (ق / ذ / ث / ظ)، التى لا تنطق فى العامية، وفى الحقيقة ان نوعا من الترجمة الفورية يقوم بها القارئ اثناء عمليات القراءه.

فى البداية قمت بمحاولة تفادى تلك المجموعة من المفردات اثناء كتابة الأجزاء العامية من النص لتفادى المشكلتين الأولى والثانية، اما بخصوص المشكلة الثالثة ، فقد كانت تقفز فى البداية الحروف المستخدمة فى الكلاسكية مثل ال (ذ / ث / ق) فى كلمات مثل ذهب او ثلاثة الخ .. فيما بعد جرى تعديلها للحروف المنطوقة بالعامية طبقا لمفهوم الشخصية واستخدم بديلا عنها – كما هو معروف ال (د / ت) فاصبحت دهب وتلاته، على اى حال كان المشكل اكثر وضوحا فى حرف ال(ق) والذى لا يوجد له بديل منطوق موازى فى حروف العربية الكلاسكية،

٤- حرف جديد

عامية / فصحى ا = ى

لقد اعتقدت انه من الممكن استخدام حرف جديد هو ال (ق) دون النقطتين فيصير (ى) ربما لأنه الأقرب فى الشكل والنطق والمساحة الصوتية بين ال (أ) وال (ق) ويقع بينهما، لكن تجريب حرف جديد فى نص تتعدى صفحاته الأربع مائة، قد يدمر النص نفسه، ولهذا عزمت على استخدامه فى مجموعة قصصية قصيرة ازمع على نشرها فيما بعد.

تلك كانت البداية، ما قصم ظهر البعير هو الأمانة اللغوية والنحوية، فبعد المراجعة اللغوية الأخيرة للنص، وتطبيق قواعد وأشارات الفصحى على الأجزاء العامية فى النص، بدا وكأن العامية تلبس ثوبا غير ثوبها، الأمر الذى بدا متناقض، وخاصة بين المنطوق والمكتوب، فمن جهة ليس من الممكن تجاهل ما سوف يبدو أخطاء نحوية عند نشر النص، كما ان عملية تصحيح هذه الأخطاء على وجه التحديد هى التى فجرت الموضوع فى النهاية، فعلامات التنوين على سبيل المثال لم تكن لتتلائم مع لغة سهلة سيالة غير خشنة، لا تتميز بالبطء (العامية)، كما ان اتباع قواعد الهمزات والتاء المربوطة،

وقف حائلا بين المكتوب والمقروء، اى انه اصبح يعيق اعادة انتاج النص اثناء القراءة، لقد ظهر واضحا لدينا –أنا وفريق التحرير– أنه من المستحيل كما ذكرت قبلا كتابة العامية بقوانين اللغة العربية الكلاسكية، فى النهاية كان من الضرورى مواجة الأمر... كيف؟

كان الحل فى جعل العلامات التى تتحرك مع الحروف، كالهمزة والتاء المربوطة، علامات صديقة لنا، ولأن العامية ملك خالص لنا، نستطيع ان نجرب فى طرق كتابتها بتحرر.

التنوين:تم الغاء التنوين كلية من النص فصحى وعامية، حيث أنه ثقيل لا ينطق، وهو ما يتفق مع فكرة النص الخالى من التشكيل.

الألف والهمزة: عند التعامل مع الألف والهمزة فى كتابة العامية، عدنا الى القواعد الأولى أى الأصول، فطالما ان المكتوب وهو العامية نتاج بنية صوتية حاضرة، مسيطرة على كل من عمليات النطق والقراءة، كان من المنطقى ان يكون الأغلب هو نطق الألف خفيفة دون الهمزة ، ولهذا وجدت أنه من الأنسب الأكتفاء بكتابة اللألف دون الهمزة ، تاركا الحركة بين الألف والهمزة المنطوقة لعمليات القراءة العقلية، والتى لاتعيقها تلك الحركة لدى قارئ يقرأ لغته (العامية).

التاء المربوطة: فى هذه الحالة وجد انه من الملائم استخدامها بوصفها علامة صديقة، توضع حيثما تظهر فى النطق الحالى أى فى المضاف ، إذ لوحظ ان المضاف إليه يظهرها، بينما هى مختفية على طول الأجزاء العامية من النص.

عودة لفساد اللغة

اتخيل حوار بين كاهنين مصريين، فى الفترة المصيرية التى كانت الحضارة تتأهب للأنتقال إلى الأمام، إلى عالم جديد مخلفا وراءها الحضارة المصرية لذمة لتاريخ، احدهما يحدوه الشك فى لغته، فيهاجمه الأخر معنفا: كيف تصمد العلامات المجردة أمام الصور المقدسة المنقوشة على الججر، صور الأباء والألهة. ولاشك أن الأخير وافق غير قادرا على مقاومة أرهاب القداسة، فحل على كليهما غضب الألهة ونقمتها، إذ كيف تقبل الألهة بصناعة أصنام أرضية، كيف تقبل بأولائك الذى لا يستوعبون أن هناك ألها أخر اسمه التطور، فكان ان سرق العبرانين من المصريين القدماء تاريخ الأخلاق، وقدموه للعالم بوصفه نتاجا عبرانيا.

كلمة أخيرة

هذا النص لاقى دعما قويا من كوكبة من الأصدقاء الأعزاء.

فريق العمل الذى ساهم أثناء التحرير فى تفجير قضيتى الفصحى والعامية، وكان للمناقشات والحوارات المستفيضة التى دارت، فضلا عن الروح المتحررة التى تحلى بها دورا فعالا ورئيسيا توج فى النهاية المجهودات الفنية التى خرج عنها الكتاب.

إليهم تقديرى وشكرى.

القاهرة .

٢٠ / ١٠ / ١٩٩٤ .

فتحى إمبابى .

كتب صدرت للمؤلف

المؤسسة ١٩٨٠ رواية
نهر السماء ١٩٨٧ رواية
تحت الطبع
أقنعة الجيش تحت الطبع نقد ادبى

رقم الايداع ٩٤/١٠٣٠٨

الأمل للطباعة والنشر ت: 3904096

الليل والمطر والشمس مكفية خلف السحاب ترعش بالغضب .. امشى يا ابن عبدالجليل علّ طبرق صارت قريبة .. مين كان يصدق أن الخلايق دى كلها من مصر .. أمواج تزحف ورا أمواج .. ما هذا الزحف العجيب .. بحر شاطئه يبتدى من وادى النيل التعيس، عيون زايغة من الخوف ، أقدام منفوخة ورمها السير الطويل..

أمشى يابن عبدالجليل سير على حواف الطرق.. لاتدرى أين المبتدأ ولا أين المستقر... اللعنة على نفوس البشر .. فين الخيول يا ابوزيد، فين الرماح .. تطيح بهامات ردى الخال وكسر الرجال ..فين القلوب اللى تشد الرحال بحثا عن المنون ، ما أسهل التراجع والانسحاب ، ما أسهل الغواية ، فين السيوف يا ابوزيد ، فين المنايا .. فين العدا .. فين الجيوش تطوى البيادر .. فين الرايات والبيارق تعانق السما .. أسفلت دا ولا دما .. أسفلت هذا أم دماء ..

سير يا ابن عبدالجليل.. سير وسط ألوف السائرين على غير هدى .. هج من أرض الوطن كما يهج مئات الألوف بانتظام .. يتلطعوا على أرصفة شوارع مدن الغربة جثث .. جثث مرمية بالمئات ، وكأن مناجل الطاعون تحصدهم من أرض الوطن وتزرع فيها الموت اللئيم .. ترميها لعواء الرياح الضالة وشماتة العويل واحتقاره .

النشر
و
التوزيع